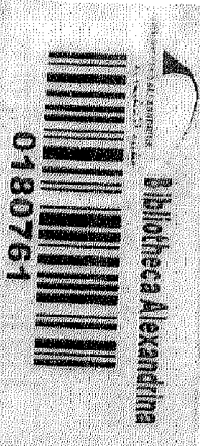
عبد الله القصيمي

فرعون يكتب سفر الخروج





فرعون يكتب سفر الخروج

عبد الله القصيمي



فرعون يكتب سفر الخروج

عبد الله القصيمي



ص. ب. 13/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت – لبنان

الطبعة الثانية ٢٠٠١

الفهرست

الإيمان بحث عن متهم بكل الذنوب ٧
إنهم لا يرون لأن لهم عيوناً ١٣
لا تحدق في القمر ٨٧
كيف ابتكر الإنسان عقله ١١١
الفكر جهاز لا يمكن تصحيحه ١٣٧
لماذا الوهم أعظم مجداً من الحقيقة ١٥٧
وحينئذٍ ستظل عاقلاً مهما أصبحت مجنوناً ١٨١
هل تستطيع أن تحب الإله ٢٠١
فرعون يكتب سفر الخروج ٢٢٣
أيهما الوحش: أمعاؤه أم أنيابه ٢٤٣
القاتل بأمر السلطان شجاع ٢٦٩
كل جواب يصبح سؤالاً بلا جواب ٢٨٧
إذا تقادمت المذاهب والأرباب ٣٢٣
لماذا يا أنا ٣٤٥
سب الشيطان عزاء لأحزان القديسين ٣٦٩
غباء الإنسان تعويض له عن قسوة الطبيعة عليه ٤١٧

الإيمان بحث عن متهم بكلّ الذنوب

.. لقد عاشت عيناك لأنهما لا تحدقان في الأشياء.. لقد استطعت النظر إلى الأشياء وجرؤت على النظر إليها لأنك لا تستطيع التحديق فيها. لقد تقبلت أن تكون لك عينان بعد أن اشترطت عليهما ألا تكونا جهازي رؤية أو تحديق.

إنك لو حدّقت في أي شيء لتفجر في عينيك ... لتفجر في كل الإنسان الذي في داخلك، مختبئاً عن عينيك متباعداً عنهما لئلا يرى بهما أو يريا به أو يراهما أو ترياه. أنت لا تريد من عينيك فقط أن تعجزا عن الرؤية بل وأن تحميا منها، وأنهما أبداً لكما تريد منهما..

... لقد ركبت لك عينان لكي لا ترى. لأن الرؤية موت أو جنون.. إن العيون هي أقدم وأشمل جهاز احتمت به العيون لئلا ترى، وحمت به حاملها لئلا يرى.

إنه لخير لك ولآلهتك ولأنبيائك ومعلميك ومحبيك ـ إن كانوا أذكياء وأتقياء وشرفاء ـ أن يقال عنك أنك زنديق، وأن تكون كذلك زنديقاً، من أن يقال عنك أنك مغفل أو منافق أو جبان أو حقير أو بليد أو خائف، ومن أن تكون كذلك. إن تمردك على الإله الصحيح لأكثر مجداً لك من تمردك على الإله الزائف. إن استسلامك للإله الزائف لأقل جبناً وأكثر نبلاً ورحمة من استسلامك للإله الصحيح.

وإن رفضك للإيمان بكل الأنبياء خيفة أن يكون دجالين أو أن يكون بينهم دجال واحد، أو أن تكون أنت دجالاً أو لصاً أو منافقاً باسمهم، لأكثر إيماناً وتديناً وذكاءً وفضيلة واحتراماً لهم أي للأنبياء، من أن تؤمن بكل الدجالين أو بأوقح وأكذب الدجالين، مؤملاً أن تجد بينهم نبياً أو خيفة أن تكفر بنبي واحد صادق، ومن أن تؤمن بدجال واحد، مؤملاً أن يكون نبياً صادقاً. إن رفضك للإيمان بالنبي الصادق لن يكون إلا معنى من معاني تقواك مهما كان معنى من معاني عذابك أو عدوانك أو جنونك أو خوفك.

وإن كفرك بالله، لأنك لا تريد أن تحقره أو تتهمه أو تورطه أو تظلمه، أو خيفة أن تفعل به ذلك، لأعظم إيماناً وتقوى وتكريماً له ودفاعاً عنه ووضعاً للسرور في قلبه من أن تؤمن به ومن أن تحول الدنيا كلها إلى معابد لتؤدي إيمانك به فيها ولتتحول هذه المعابد التي هي كل الدنيا إلى إعلان عن إيمانك وإلى ثناء عليه، لكي تسوغ وتفسر بإيمانك ضعفك وذنوبك ونقائصك، ولكي تدافع بإيمانك عن نقائصك وذنوبك وضعفك، ولكي تستطيع أن تفهم به أي بالله الذي آمنت به ما لا يمكن أن يفهم، ولكي تلقي عليه أيضاً بكل أدرانك وعاهاتك وأخطائك، طالباً إليه وكأنك تعبده وتمجده أن يمسحها عنك بأردانه وبضميره، ومريداً منه أن يتحول إلى ممسحة شاملة ودائمة لعرقك المحرم وغير النظيف، ومتعرياً أمامه بكل بذاءاتك وكأنك تضع في عينيه كل فنون وصور ومعاني الجمال والتكريم والحب والمغازلة. وهل آمنت بالإله إلا لكي تفعل به كل ذلك ولكي يفعل لك كل ذلك؟ إذن هل وجد

معتدى عليه ومساء إليه مثل الإله؟ أو هل وجد معتد أو مسيء مثل المؤمن بالإله؟ أو هل وجد عدوان أو تحقير مثل الإيمان بالإله؟

هل هناك من يهان ويحقر ويتهم، مزعوماً التكريم والتعظيم له، مثل الإله؟ هل يوجد مظلوم مهان الكرامة مثل الإله؟ نعم، وإن خروجك على جميع المذاهب والتعاليم والعقائد خيفة أن تكون حاقدة أو كاذبة أو متعصبة أو مخادعة أو عدوانية، أو أن يكون فوقها حاقد أو كاذب أو متعصب أو مخادع أو عدواني، ليقاتل ويحتال ويطغى ويسود باسمها، لأفضل لك ولها وللبشر جميعاً من أن تؤمن بها وتتبعها، متجمعاً أو متفرقاً أو متنقلاً أو متعاقباً، راجياً أن تكون متسامحة أو صديقة أو ذكية أو صادقة، أو أن يكون فيها ما هو كذلك، أو أن يقاتل أو يحكم بها من هو كذلك.

أجل، إن المؤمن بالله العابد له ليس إلا إنساناً يشتم ويقاتل ويتهم ويطارد ويظلم ويلقي بالذنوب على البريء. إنه أي المؤمن يبحث بإيمانه عن متهم بريء، عن متهم بكل الذنوب والأخطاء. إنه لم يوجد ولن يوجد من يمكن أن يتهم بكل الذنوب والأخطاء والمظالم والتفاهات والحقارات غير الإله في تصور المؤمن به.

إن إيمان الناس بالإله أو بالآلهة أسلوب وقح وغير شهم أو كريم من أساليب البحث عن متهم لا يعلم عن ذنبه أو عن تهمته شيئاً. إن الإله هو أعجب متهم لا يعلم عن تهمته شيئاً. هل يوجد متهم بكل الذنوب دون أن يكون له ذنب واحد أو أن يعلم عن اتهامه شيئاً أو أن يقول شيئاً للدفاع عن نفسه مثل الإله؟..

إن البشر ليدركون ويرون أنهم يواجهون جرائم من كل الأنواع والأحجام وفي كل الاتجاهات. فمن هو المجرم، أو من هم المجرمون؟ إن ها هنا متهمين. فمن هم؟

إنهم فكرياً ونفسياً بل وأخلاقياً محتاجون إلى أن يجدوا متهماً أو متهمين، وأن يصوغوا اتهاماً ويوجهوه..

هم لا يريدون أن يعتقدوا أو يقتنعوا أنهم هم المجرمون المطلوبون، وهم كذلك لا يستطيعون أو لا يريدون الاعتقاد أو الاقتناع بأن الكون هو هذا المجرم المبحوث عنه. إن اتهام الكون بأنه هو هذا المجرم ليس سهلاً ولا مريحاً الاقتناع به. إنه اتهام لو كان مقنعاً لا يريح ولا يهب المعنى المطلوب منه.

... إذن فليؤمنوا بمتهم كبير بريء يستطيع أن يتحمل ذنوب وأخطاء ووقاحات جميع ما يرون ويواجهون ويعلمون ويقاسون - يستطيع أن يكون تفسيراً وتسويغاً ودفاعاً عما لا يستطاع الدفاع عنه أو التسويغ أو التفسير له، ويستطيعون هم الاقتناع بأنه كذلك، كما يستطيعون أن يجدوا فيه الراحة والتفسير الكامل الشامل الذي يبحثون عنه ويحتاجون إليه.

إذن فليؤمنوا بإله هائل كبير لا نموذج له، وليحددوا صفات هذا الإله تحديداً يجعله هو المتهم الأول الشامل، وهو المسؤول الأول الشامل عن كل ما يواجهون ويرون ويعلمون ويعانون من آلام وغباوات

وتفاهات ومن ذنوب وعاهات ووقاحات وأخطاء لا يمكن فهمها ولا تفسيرها ولا تسويغها ولا الدفاع عنها بغير إله كبير هائل ليس له نموذج ولا تفسير ولا منطق ولا شروط. ليؤمنوا بمثل هذا الإله إيماناً لا منطق ولا هدف ولا تفسير له سوى الاتهام وسوى الحاجة إلى وجود متهم بهذا الحجم، إلى وجود متهم بكل الذنوب والآلام والمظالم والحماقات.

إن الحاجة إلى وجود متهم ضخم ضخامة لا مثيل ولا شبيه ولا نموذج لها هي أحد الأسباب في إيمان الناس بالإله العظيم الطيب المنزه. لقد آمنوا بالإله لأنهم محتاجون إلى متهم ضخم بلا حدود! لقد وجدوا في الإله كائناً متهماً بكل الذنوب منزهاً عن كل الذنوب. إنه إذن لشيء رائع، رائع جداً.. لقد كانت قضية «من المتهم» هي البرهان الوقح على وجود الإله. لقد كانت إرادة العدوان والاتهام هي التي دلت على الإله وصاغت صفاته وأخلاقه ومنطقه وضميره وضخامته.

إن مثل هذا الإله الفريد، وكذا الإيمان به هو الذي يستطيع أن يجعل ما لا يستطاع فهمه مفهوماً، وما لا يمكن غفرانه أو الغفران له مغفوراً ومغفوراً له. إن تصور مثل هذا الإله هو الذي يجعل الإلقاء بكل القبح والسوء والغباء على متهم واحد أو على ذات واحدة ممكناً تقبله.

فهل يمكن أن يوجد من يذهبون يحاولون الانقاذ لهذا المتهم البريء الفريد النموذج والفريد المظلمة والاتهام، بل الفريد في خطاياه وآلامه وهمومه وهزائمه في تصور من يظنون أنهم يكرمونه؟

أليس إنقاذ هذا المتهم عملاً جيداً ومطلوباً، بل ومفروضاً، بل عملاً لا شبيه له في جودته؟ أليس إنقاذ الإله من الإيمان به هو أعظم وأتقى وأنبل إنقاذ يمكن عمله أو تصوره؟

ألا يوجد من يملكون أي مستوى أو قدر من الشهامة أو النخوة أو المروءة والرحمة أو العدل أو الصدق لكي ينقذوا هذا المتهم البريء الفريد النموذج والصورة والمظلمة؟ كيف فقد البشر كل معاني الشهامة والتقوى حينما تصوروا هذا المتهم وهذا الاتهام؟

كيف وجد أو يوجد من يستطيعون الصبر أو الصمت على مثل هذا العدوان أو على مثل هذا الاتهام؟ كيف لم توجد، أو كيف لا توجد محاولات دولية لرد هذا العدوان وهذا الاتهام؟

ألا يمكن أن توجد هذه المحاولات الدولية؟ أكل العالم قد أجمع بلا شهامة على ظلم هذا البريء؟ إن القضية هنا ليست الإيمان بإله ما ولكن القضية هي قضية اتهام لا مثيل له لبريء لا مثيل له. إذن هل يمكن أن يوجد أكثر نذالة ممن يؤمنون بالإله؟ هل يوجد أكثر نذالة ممن يؤمنون بكائن بريء لكي يجعلوه متهماً بجميع الذنوب والأخطاء والغباوات، لكي يجعلوه متهماً لا مثيل له، باتهام لا مثيل له دون أن تعاقبهم ضمائرهم أو أن يعاقبوا ضمائرهم؟

نعم، الآن وبتكرار لا يحتاج إلى اعتذار، أو يحتاج إلى اعتذار نقدمه كاملاً وبحماس إلى كل من يطالب به أو يرتاح إليه أو يراه حقاً من حقوقه أو يجد فيه تكريماً له أو قوة فيه... نعم، الآن.. وبعد هذا التاريخ الطويل الأليم لهذا الاتهام الفاجع، ألا يمكن أن يتحرك في العالم، في كل العالم شيء من

الشهامة أو من العدل أو من الرحمة أو من الغضب أو من التقوى أو من الفروسية أو من البحث عن الصدق والبراءة، أو من الاحترام للخيال وللصور الذهنية وللتعبير عن النفس وعن أمانيها وعن خوفها وهربها وعدوانها.

نعم، ألا يمكن الآن أن يتحرك في العالم بكل هيئاته ومؤسساته ودوله وحضاراته ومذاهبه وتعاليمه شيء من ذلك لكي ينقذ الإله أو لكي ينقذ اسمه أو صورته الذهنية من هذا الاتهام أي من جعله متهماً بكل الذنوب، أي من الإيمان به، أي من الإيمان بأنه هو المريد والمدبر والمخطط والخالق والمخرج لكل شيء، وبأنه إذن هو المسؤول عن كل شيء والملقى عليه كل شيء والمتهم بكل شيء بل والجاني لكل شيء؟ وهل يمكن أن يظلم أو يشوه أو يعاقب أو يحاكم أو يهان أحد مثل أن يتهم بأنه المريد المدبر المخطط الفاعل المخرج لكل شيء بل والناظر إلى كل شيء المحدق في كل شيء مع الاعجاب بموهبته وبأخلاقه وبحبه للجمال والذكاء ولصداقة الأشياء.

بل ألا يمكن أن يفعل العالم كل العالم شيئاً لكي ينقذ الإنسان أو لكي ينقذ نفسه من هذه الوقاحة والنذالة والعدوانية التي ألهمته أن يجرؤ على اتهام هذا الاسم البريء أو هذه الذات البريئة أو الفكرة البريئة، أي على اتهام الإله بكل ذنوبه هو وعاهاته وتشوهاته وآلامه وتفاهاته ونقائصه وبيدايته ومصيره الحزينين، وبكل ذنوب وعاهات وتفاهات وتشوهات وآلام ونقائص ومصير وبداية كل الأشياء، حينما آمن به ليجعله كل المتهم بكل ذلك، أي ليجعله هو كل المخطط والعاشق والفاعل لكل الذنوب؟ وهل يمكن أن تكون المريد المدبر المخطط الفاعل المخرج لهذا الوجود دون أن تكون عاشقاً لكل الذنوب والآلام والأحزان والتشوهات والعاهات والحماقات والخطايا؟

نعم، ألا يمكن أن يصاب العالم بشيء من النخوة أو الشهامة أو الفروسية أو من حب العدل والصدق والعفة النفسية أو من نشاط الضمير لكي يعلن عالمياً براءة الإله من كل ذلك، أي لكي يعلن بأسلوب عالمي أنه لم يؤمن بالإله إلا لكي يجعله متهماً بكل الذنوب، وإنه لذلك يعلن عالمياً توبته من هذا الاتهام، أي يعلن توبته من الإيمان بهذا الكائن البريء أو الاسم البريء أو بهذه الصورة الخيالية البريئة؟.. أي يعلن بقرار دولي وبوسيلة دولية براءته من الإيمان بهذا الإله ليكون ذلك براءة للإله من هذا الاتهام الفاجع؟...

.... أيتها الشهامة، أيتها الطهارة، أيتها الفروسية أصيبي العالم بشيء من كبريائك لكي يعلن بأسلوب عالمي توبته من هذه الوقاحة والنذالة والعدوانية.

أيها الضمير العالمي.. كيف غفوت في كل تاريخك عن ذلك.. كيف غفرته وتعاملت به وعليه ومعه؟

انهم لا يَرون لأن لهم عيوناً

«إني أحذرك من أن تصبح كاتباً أو نبياً، إن ذلك يعني أن تسير عارياً صائحاً باكياً مستذلاً أمام كل الأبواب الموصدة في وجهك والمفتوحة لك أحياناً للشماتة بك، أو للتلهي والتسلي والتشفي بآلامك وعاهاتك، بدموعك وضعفك..

إن ذلك يعني أن تسير عارياً صائحاً باكياً ذليلاً متضرعاً أمام كل الأبواب المغلقة دونك تدقها وتدقها، دون أن تشترط لنفسك أي شرط من شروط الكبرياء أو الكرامة أو الاحترام للنفس أو المحافظة على الوقار.

دون أن تسأل هل أحد يقبل أن تدق عليه بابه أو أن تقف على بابه.. إني أحذرك أن تصبح كاتباً أو نبياً، إن ذلك يعني أن تصبح رخيصاً مبتذلاً ثقيلاً متهافتاً على الأبواب، مدفوعاً عنها.. إني أحذرك أن تصبح كاتباً أو نبياً.. إنك حينئذ الكائن الذي يجد الناس عزاءهم في الاستماع إلى آلامه وهوانه وصراخه ونفاقه وهزائمه.. إني أحذرك أن تكون كاتباً أو نبياً.. إني أحذرك، إني أحذرك...

هل يوجد من يقف على الأبواب أو من يعرض نفسه على الناس بابتذال وإلحاح مثل الكاتب والنبي؟

هل يوجد من يلقي بهمومه وعاهاته فوق الناس وفي الطرقات مثل الكاتب والنبي..؟»

ها، إنهم يسيرون في الطرق المتزاحمة، وينقلون أقدامهم وخطواتهم بين الأقدام والخطوات الأخرى المتواجهة المتناقضة. ها، إنهم يسيرون بين أصناف المخاطر والمهالك، ويتحركون حركات مبصرة، وإنهم يشاهدون الأخطار ويتقونها، وإنهم ليصلون إلى الأغراض والأماكن التي يقصدون إليها، وإنهم ليتحادثون وتغازل عيونهم عيونهم. وإن أقدامهم لتتحرك داخل عيونهم، وإن عيونهم لتأمر أقدامهم وتحكمها وتعلّم حركاتها قراءة الأشياء وتفاسيرها ورؤيتها. ها، انهم يتحركون ويقتحمون أنفسهم بقيادة عيونهم. لقد كانت عيون الإنسان هي أقوى وأعظم قادته وأدلائه في كل تاريخه. إن عيون الإنسان هي كل تاريخه. إنه لا تاريخ للإنسان لولا تاريخ عيونه. إن الآلهة لم تستطع أن ترى الإنسان أو ترى نفسها أو ترى الأشياء إلا بقوة عيونه لا بقوة عيونها هي.

ها، ان في وجوههم لعيوناً، وأن عيونهم لتتحرك وتنتقل بين الأشياء، بين حركات الأشياء وتنقلاتها، وإن عيونهم لترتجف وتغضب وتتوتر وتخاف وترفض وتحزن وتقاوم أحياناً، وإنها لتهدأ وترضى وتشكر وتعانق وتصافح وتراقص وتسالم وتؤمن وتهتف أحياناً أخرى لاختلاف وتغير المواجهات.

ها، انهم ليقفون أمام المرآة محدقين فيها طويلاً، بارتجاف وضراعة كأنهم يناشدونها ويبتهلون إليها أن تكون بوجوههم رحيمة نبيلة ـ كأنهم يعلمونها ويفسرون لها كيف ينبغي أن تصوغهم كأنهم يضعون لها النموذج الذي يريدون. كأنهم يرون أن المرآة هي التي تصنع وجوههم وصورهم، جمالهم وقبحهم، وليست هي فقط التي تعاقب بأن ترى، وبأن يرى بها ومنها، وبأن يكون أكثر من ينظرون إليها وبها ينظرون بحنق وغضب وباشمئزاز وباحتجاج وعبوس ـ وبأن تكون هي المسؤولة المذنبة المتهمة بما لم تصنع هي، بما صنعته وجوه من يتهمونها ـ بأن تكون هي المذنبة المتهمة المسؤولة عن ذنوب جنتها وجوه المتهمين لها ـ جنتها على نفسها وعلى أصحاب الوجوه وعلى المرآة نفسها. نعم، إن المرآة هي المظلومة دائماً والمتهمة دائماً والمكذوب عليها دائماً.

وبأن يكون جميع من ينظرون إليها وبها، ويطلبون شهادتها مطالبين لها بأن تكون دائماً شاهدة

زور لمصلحتهم، بأن تكون دائماً كاذبة منافقة تقول لهم ما لا تعتقد وما لا تجد وما لا ترى، كأنها كاتب أو معلم أو نبي أو زعيم عظيم أو متحدث عن الله واعظ بأسرار السماء وبعطاياها. إنه لا شيء ولا أحد يطالب ويرجى بأن يكون شاهد زور وكذاباً مثل المرآة.

ها، إنهم جميعاً ـ ما عدا المصابين بالعاهة العظمى، ما عدا المصابين بعاهة العاهات ـ يقفون طويلاً أمام المرآة محدقين فيها بأسلوب من يصلون أو يشكرون أو يصافحون أو يتغزلون أو يقبلون أو يتفاوضون ـ أو بأسلوب من ينكرون أو يشاتمون أو يحاكمون أو يخاصمون أو يتهمون أو يرفضون أن يكون ما يرون حقاً أو أن يكونوا هم ما يرون ـ أن يكونوا هم الذين يقفون أمام أنفسهم ـ أو أن تكون المرآة التي أمامهم مرآة وليست شبحاً أو شيطاناً رجيماً معادياً لهم، بسخر منهم، ويعاقبهم بتشويه وجوههم، أو بوضع وجوه أخرى مكان وجوههم. إن البشر لا يقفون أمام شيء مثلما يقفون أمام المرآة بكل ما في ذلك من انفعالات متضادة، من ارتجاف وابتهاج. إنهم لا يقفون أمام إله من آلهتهم الجبارة بمثل الحماس أو الذعر الذي يواجهون به المرآة. إن المرآة إله عالمي، إنها إله يقف أمامه برهبة وارتجاف وضراعة كل الناس، كل العالم، يرجون ويتملقون ويتعبدون. إن البشر لا يهبون تملقهم وتضرعهم وخوفهم وأملهم لشيء مثلما يهبون ذلك للمرآة.

ولكن مع كل ذلك هل هم يرون، هل يحتمل أنهم يرون، أو أنهم يستطيعون أن يروا؟

إن الناس لا يرون، وإن الرؤية لا تساوي العيون، إن العيون ليست رؤية. إن نقل الأقدام والخطوات وتحركها بين الأخطار وأسباب التصادم ليس رؤية. إن للحيوانات عيوناً، وإنها لتتحرك وتنقل أقدامها وخطواتها، سائرة في طريقها، وإنها لتهرب من الصياد ومن أسباب المخاطر المختلفة. فهل هي ترى؟ هل الحيوانات ترى مهما أبصرت؟ وهل هي ترى لأنها تبصر؟

إن العيون ليست رؤية، بل إنها قد تكون جهازاً للحماية من الرؤية.

إن الرؤية ليست عيوناً، وليست سيراً في الطريق ولا تجنباً للخطر أو للتصادم، وليست أيضاً وقوفاً أمام المرآة. إنها ليست النظر القوي الحاد، إنها ليست القدرة على رؤية أخفى المغازلات في أمكر العيون وأكثرها حياء واستتاراً وخوفاً. إن الرؤية ليست هي القدرة على قراءة أغبى الأفكار المكتوبة بأغبى الحروف على ضوء أغبى النجوم وأصغرها حجماً وأبعدها مكاناً.

إن الرؤية موهبة إنسانية، إنها موهبة إنسانية صعبة إنه ليس كائن غير الإنسان يملك الموهبة، موهبة الرؤية أو يستطيع امتلاكها أو معاناتها. وإنه ليس كل الناس يملكونها، ليس أقل الناس هم الذين يملكونها، حتى ولا أقل الناس. إنهم النادرون أو الشاذون جداً هم الذين يملكون هذه الموهبة، هم الذين يرون. إنه لصعب جداً أن تجد من يرى. إنك قد تجد كل واحد وكل أسلوب وكل مستوى من البشر دون أن تجد رائياً واحداً، دون أن تجد من يستطيع أن يراك أو يرى الأشياء التي يتعامل بها.

إن موهبة الرؤية، رؤية النفس والناس والأشياء موهبة نادرة وصعبة جداً. إن موهبة الرؤية ليست

موهبة، إنها عقاب وتعذيب. إنها أندر مواهب الإنسان وأكثرها قسوة. إنه ليس كل العباقرة يملكون هذه الموهبة أو هذا العقاب والعذاب. إنه ليس كلهم يستطيعون أو يتقبلون معاناة هذه الموهبة أو هذا العقاب. إن من يملكون هذه الموهبة لم يشاوروا في امتلاكها، وإنهم لم يطلبوا امتلاكها، وإنهم لم يختاروا لامتلاكها. لقد عوقبوا بامتلاكها دون أن يقصد عقابهم.

إن العباقرة من البشر أكثر من الذين يرون، إن امتلاك العبقرية أسهل من امتلاك الرؤية. لقد وجدت العبقرية أكثر مما وجدت الرؤية. ما أكثر العلماء والمخترعين والمكتشفين والملهمين والشعراء والفنانين والمفكرين في تاريخ البشر. ولكن كم هم الراؤون الذين أبدعهم أو أعطاهم تاريخ الإنسان الطويل؟ إن البشر يستطيعون أن يمارسوا ويعانوا كل العبقريات وأعظم العبقريات بكل عذابها وتكاليفها العقلية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية أكثر مما يستطيعون معاناة الرؤية. إن عذاب الرؤية عذاب خاص، خاص جداً. إنه عذاب بلا حدود وبلا زمان وبلا خلاص وبلا تهمة وبلا قانون وبلا طاغية. إنه ليس عذاباً يصيب الذات، إنه هو نفس الذات، نفس وجودها ونموذجها.

إن أقدر الناس على تحمل تكاليف أضخم العبقريات، وإن أقدرهم على اقتحام معاقل أعصى العبقريات ـ إن مثل هذا الإنسان قد يرتجف خوفاً من أن يكون رائياً أو من أن يكون مالكاً لموهبة الرؤية، أو متحملاً لعذاب الرؤية وأهوالها، ولما فيها من افتراس ورهبة وجنون وبذاءة ووقاحات ودمامات. إنها كل الكون، إنها كل الكون متحولاً إلى عذاب.

إن كل المجتمعات قد تتحمل، وقد تعطي كل أصناف العباقرة وكل مستويات العبقريات. ولكن هل توجد مجتمعات تتحمل أن يوجد فيها من يرون، أو تعطي هؤلاء الذين يرون ـ هؤلاء الذين يملكون موهبة الرؤية أو عذاب وعقاب الرؤية؟

ولكن ما هي الرؤية التي تتحدث عنها بكل هذه التهاويل؟

إن حاسة الإبصار هي أكثر حواس الإنسان شمولاً وحساسية وازدحاماً بالأشياء وتصادماً بها وتناقضاً معها ورفضاً لها وعجزاً عن التلاؤم بها وعن فهمها.

إن جميع الحواس تكاد تكون ذاتية، وتكاد تكون ممارستها بالاختيار، وإنه ليمكن الهرب منها، وإنها لا تكاد تتحول إلى تصادم أو مناقضة لنا. إنها لا تستطيع أن تصنع لنا أو تفرض علينا أهوالاً من العذاب. إنها بلا شمول ولا ديمومة ولا محاصرة ولا عنف، وبلا أبعاد ولا أعماق. إنها ذاتية، إنها ليست كونية.

أما حاسة البصر فهي كل الشمول والديمومة والاحاطة والعنف، وهي كل العمق وكل البعد. إنها كل التصادم والمناقضة والتحدي. إنها كل الآفاق وكل الحواس الأخرى. وإن الهرب منها لمستحيل حتى ولو على أي مستوى من مستويات الهرب.

إن حاسة البصر حاسة كونية، وإن ممارستها ممارسة لكل الكون. إن الكون موجود في عيوننا، وإن

عيوننا لموجودة في الكون. إن عيوننا لا تستطيع أن تعيش خارج الكون، وإن الكون لا يستطيع أن يعيش خارج عيوننا.

إنك إذا كنت ترى، إذا كنت تملك موهبة الرؤية أو عذاب الرؤية فأنت تمارس كل الكون وكل الناس وكل الأشياء. إنك حينئذٍ تعاني كل ذلك، كل ما فيه من آلام وأخطاء وحماقات وهموم وعبث وسخف ـ تعانيه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، تعانيه متكرراً ومتجدداً ومتغيراً وثابتاً. تعاني كل تفاسيره ومنطقه وحوافزه وأهدافه، تعانيه أسباباً ونتائج، خالقاً ومخلوقاً، مراداً ومريداً، قاتلاً ومقتولاً، ظالماً ومظلوماً ـ تعانيه بكل لغاته وأساليبه ومستوياته وظروفه ـ تعانيه في ذاتك وفي كل ذات وفي كل شيء.. تعانيه واقعاً ومحتملاً، صورة ومعنى وخيالاً. تعانيه خوفاً وانتظاراً.

إنك إذا كنت ترى ـ أو لو كنت ترى ـ فإنك سوف تعاني كل شيء وسوف تمارس كل شيء: كل آلامه وأحزانه وحقاراته وعاهاته وتفاهاته وضعفه وعبثه وموته ومرضه وجوعه وضياعه وغبائه وكل منطقه وتفاسيره. إنك حينئذٍ سوف تعاني كل ذلك معاناة المخاصمة والمصادمة والمقاتلة، معاناة التحدي والتحقير والرفض والاشمئزاز.

إنك حينئذٍ سوف تعاني وتمارس كل شيء ـ من طريق عينيك ـ تعانيه وتمارسه وتحياه، وتتعذب به فيما كان وفيما يحتمل أنه قد كان، وفي كينونته التي تشهدها، وفيما سوف يكون، وفيما قد يكون أي، فيما يحتمل أن يكون.

إنك حينئذٍ سوف تعاني وتعيش كل عذاب وتفاهة وخطأ وظلم ودمامة وبلادة وتشويه ـ تعاني كل ذلك وتعيشه بتمنيك وبمشاعرك وبخيالك وبتفسيرك وبمنطقك وبتوقعك وباشمئزازك وبرفضك، وبكل مستوياتك العقلية والنفسية والتاريخية والشخصية والأخلاقية والاجتماعية والإنسانية، لأنك قد عانيته برؤيتك.

إنك إذا كنت ترى فإن كل شيء سوف يتحول إلى تحدٍ لك، وإلى اصطدام بك، وإلى عدوان عليك، وإلى مناقضة لأخلاقك ولذكائك ولأمانيك ولحبك ولأشواقك ولكل تعاليمك ومذاهبك. إن كل شيء سوف يتحول حينئذٍ إلى تحدٍ وإهانة لكل نماذجك، ولكل مستوياتك، بل لكل آلهتك وأنبيائك وقيمك.

إنك إذا رأيت فلن تقبل ولن تغفر ولن تفهم ولن تسالم، وإن الأشياء لن تتحول حينئذٍ لتكون على مقاس عينيك وعلى مقاس نموذجك، رحمة بك أو خوفاً عليك، أو بحثاً عن مصالحتك وراحتك، وإنك أنت لن تستطيع تحويلها لتكون كذلك.

إنه لمحتوم عليك حينئذٍ أن تتحول إلى خصم لكل الأشياء، وأن تتحول كل الأشياء إلى خصوم لك ـ أن تتحول كل الأشياء إلى وحوش تفترسك ـ إلى وحوش تهاجمك من طريق عينيك، تهاجم كل مستوياتك ونماذجك وأمانيك وتعاليمك لأنها تهاجم عينيك.

إنك إذا كنت ترى فإن كل شيء سوف يتحول إلى عذاب يغزوك من عينيك. إنك حينئذٍ لن تقبل ولن تغفر ولن تفهم ولن تسالم. وإن الأشياء حينئذٍ لن تتعذب من أجلك إنها لن تكون فاضلة، ولن تتحول إلى ما تستطيع أن تقبل أو تغفر أو تفهم أو تصالح. إن الأشياء حينئذٍ لن تقتلها الرحمة لك.

إن الرؤية تصادم محتوم، إنها لا تكون إلا تصادماً. إن الرؤية لأي شيء لا بدَّ أن تتحول إلى تصادم. إن الشيء الذي نراه لا بد أن يصبح نقيضاً لنا ونقيضاً لما نريد، وهزيمة لنا وهزيمة لما نريد.

إن الشيء الذي نراه لا بد أن يصبح خروجاً علينا، خروجاً على كل آمالنا وعلى كل مقاييسنا التي نتمناها، والتي نؤمن بها، والتي نحاول بلوغها أو نقاتل لبلوغها.

إن الشيء الذي نراه لا بد أن يصبح عاراً وذنباً وفضيحة ودمامة وعاهة في جميع مقاييسنا. إن الشيء ـ أي شيء ـ لا يكون جميلاً أو مهذباً أو معقولاً أو مرضياً أو سوياً أو جيداً إلا لأننا لا نراه. إن الرؤية هجاء للشيء المرئي بقدر ما هي عقاب وتعذيب للرائي. إن الرؤية هجاء وعقاب للمرئي وللرائي.

إنك لو رأيت الشمس ـ لو رأيت نفس الشمس لأذهلتك وقاحة الرؤية. إن كل هؤلاء البشر الذين يعيشون تحت الشمس لا يرونها. إنهم لم يروها، ولا يستطيعون أن يروها، ولا يريدون أن يروها، وإنهم لم يفكروا في أن يروها، وإنهم لم يعلموا أنهم لم يروها، بل وإنهم لا يعلمون أنه يوجد شيء أو مستوى اسمه رؤية الشمس، أو أن أحداً يراها، أو أن أحداً قد ينقدهم لأنهم لا يرونها، أو أن أحداً قد يصاب بمرض الرؤية، رؤية الشمس.

إن كل هؤلاء البشر لا يرون الشمس، إنهم لم يروها قط. إنهم يعيشونها ويواجهونها ويتعاملون عليها، ويستدفئون أو يستضيئون بها، وتبهرهم وتقهرهم ـ إنهم يفعلون ذلك، وتفعل بهم الشمس ذلك بالأسلوب الذي تمارسه الحشرات في مواجهتها للشمس، وفي مواجهة الشمس للحشرات. إن هؤلاء البشر لم يروا الشمس إلا بقدر ما رأتها الحيوانات والحشرات. لقد واجهوا ولم يروا، مثلما فعلت الحيوانات والحشرات.

لقد ذهب الأنبياء والمعلمون والشعراء والوعاظ وكل المتحدثين عن جمال الأشياء وعظمتها ـ لقد ذهبوا في حماس متفجر بالمبالغات وبالطفولة المتزاحمة بالصور والانفعالات التي ليست على مقاس شيء معروف أو معقول ـ يمجدون الشمس ويصلون لما فيها من عبقرية الجمال والذكاء والعظمة والابداع، ولما صب فيها من فنون الآلهة ومن حكمتها ورحمتها وحبها وشوقها إلى الكمال في جميع ممارساتها وفي جميع أشواقها.

لقد وجد الأنبياء والشعراء والوعاظ والمعلمون في الشمس اللوحة الكونية الهائلة للإله: لكل ما في ذاته من جمال وطلعة وضخامة واكتمال، ولكل ما في منطقه وأخلاقه من ذكاء وحب وسخاء ونظام. لقد وجدوا فيها الإعلان الكوني الهائل عن الإله ـ لقد وجدوا فيها الإعلان الكوني الهائل الذي تقرؤه

كل الحياة، وكل الطبيعة وكل الكائنات الأخرى، وكل الناس والحيوانات والحشرات ـ الذي يقرأ كل الوقت من كل أفق في كل وقت.

لقد وجدوا في الشمس كل صور الإله وكل جماله وذكائه وحبه وفنه واستواء ذاته. لقد وجدوا في الشمس كل مواهب الإله وكل قدرته وكل فنونه وأشواقه إلى عرض ذاته وفي عرض ذاته.

لقد وجدوا الإله مرتدياً الشمس، لابساً صورتها، ووجدوا الشمس لابسة أجمل وجوه الإله، وأجمل صوره وأجمل أزيائه. لقد ذهبوا يصلون ويغنون للإله، ويمجدونه، ويتحدثون بكل الرهبة والانبهار عنه، وهم يعنون الشمس. لقد ذهبوا يتحدثون بكل رهبة وانبهار عن الشمس، ويمجدونها، ويغنون ويهتفون لها، وهم يعنون الإله.

لقد وجد الأنبياء والشعراء والوعاظ والمعلمون في الشمس كل المنطق والجمال والحكمة والرحمة والفنون لأنهم لم يروها. إنهم لم يروها قط، إنهم لم يروها إلا بقدر ما رآها البرغوث والقراد والجمل. لقد سجدوا لمنطقها وجمالها وحكمتها ـ وهم لم يروها ـ مثلما سجد الذباب لحكمتها ورحمتها وذكائها وجمالها وهو يستدفىء بحرارتها ويستضيء بنورها ـ هاتفاً مغنياً محيياً لها دون أن يراها.

إن كل من هتفوا أو غنوا للشمس، وإن كل من وعظوا وعلموا بها، وإن كل من تحدثوا عن جمال الإله وعن ذكائه وحكمته وحبه، أو عن ذكاء الطبيعة أو عن حكمتها وحبها أو عن جمالها بالتحدث عما في الشمس من ذكاء وحكمة وحب وجمال، إن كل من أشار إلى الشمس أو نظر إليها ليشير إلى شيء من جمال الإله أو الطبيعة أو إلى شيء من ذكائهما، أو لينظر إلى شيء من جمالهما أو ذكائهما ـ إن كل من فعلوا شيئاً من ذلك إنما هم قوم لم يروا الشمس، إنما هم قوم يصعب عليهم أن يروها.

لقد كان الشعراء والفنانون والأنبياء والعلماء والواعظون الذين تحدثوا ـ في صوفية مبهورة ـ عن جمال الكون وعبقرية صوره ـ لقد كان هؤلاء عاجزين بالمزاج والموهبة والمستوى النفسي عن الرؤية، عن أية رؤية، عن رؤية أي شيء. نعم، إن الرؤية شيء صعب دائماً وشيء مستحيل في الغالب.

لقد كان هؤلاء يحملون عيوناً لا تحمل احتمالات رؤية. لقد كانت عيونهم أعضاء مغلقة مثل أيديهم وأرجلهم. إن عيونهم لم تكن ترى أو تستطيع الرؤية أكثر من أصابعهم أو شعر وجوههم. لقد كانوا يحملون عيوناً لا تمارسهم ولا يمارسونها، لا يمارسون بها الأشياء ولا تمارسها الأشياء. لقد كانوا يحملون أعضاء لا عمل لها تسمى عيوناً. لقد نبتت لهم عيون مثلما نبتت لهم أظافر. إن وظيفة عيونهم لم تكن هي الرؤية، كما أن وظيفة أظفارهم لم تكن هي القراءة والتفكير وصياغة البراهين على وجود الإله.

لقد كانت عيونهم عيوناً لغوية لا عيوناً وظيفية. لقد كانت اللغة تقول إن لهم عيوناً ولكن ممارستهم للكون ولأنفسهم تقول: إنه ليست لهم عيون. لقد كانت لهم عيون مثلما للأغبياء رؤوس.

إن اللغة تتحدث عن رؤوس الأغبياء، كأن لهم رؤوساً. وإنها أي اللغة تتحدث بنفس المستوى والأسلوب عن عيون الأنبياء والشعراء والوعاظ والفنانين والمعلمين الذين رأوا في الكون كل العبقرية والابداع والجمال والنظام. إنها أي اللغة تتحدث عن عيون هؤلاء وتشير إليها بتأكيد واقتناع وتكرار، كأن لهم عيوناً. إن للأغبياء رؤوساً مثلما للأنبياء والشعراء والفنانين والوعاظ عيون رأوا بها جمال الطبيعة وعبقرية مبدعها.

إن اقتناعك بأن للأنبياء والشعراء والفنانين والوعاظ عيوناً يساوي اقتناعك بأن للأغبياء رؤوساء مسكونة بأنواع العبقريات.

لقد رأى هؤلاء جمال الكون وعبقريته فغنوا له ومجدوه وحولوه إلى جمال إله وعبقرية إله مثلما رأوا جمال العلاقات الجنسية وذكاءها ونظافتها فركعوا لها وحولوها إلى تدبير إله ونظافة إله وحب إله وكرم إله. لقد رأت أعضاؤهم التناسلية جمال وذكاء الممارسات الجنسية مثلما رأت عيونهم جمال الكون وعبقريات صيغه. لقد رأوا جمال الله في الكون مثلما رأوا جماله في الجنس. لقد رأوا الله جميلاً ورحيماً ونظيفاً لأنه دبر لهم العلاقات الجنسية. إن أعضاءهم المحرمة هي التي رأت الله جميلاً ورحيماً ونظيفاً وليست عيونهم التي رأت الله كذلك.

إن موهبة الرؤية في عيونهم حينما رأت جمال الكون والإله والشمس ليست أعظم من موهبة الرؤية في عيونهم وفي أعضائهم البذيئة حينما رأت جمال ونظافة العلاقات والممارسات والنشوات المفتضحة بين هذه الأعضاء المتوحشة.

إن هؤلاء لا يشترطون لرؤيتهم الجمال والعبقرية في الكون وفي الإله وفي أنفسهم أكثر أو أفضل مما تشترط حشرات النباتات أو ذبابة المزارع لرؤيتها الجمال والنظافة في المزارع والنباتات التي تمارس نشاطاتها وشهواتها وصلواتها وأغانيها فيها ومعها ولها وإليها. إن هؤلاء لم يروا جمال الكون وعبقريته، أو جمال الإله وعبقريته، أو جمال حياتهم وعبقريتها أقوى أو أذكى مما رأت ذبابة الحقول جمال الحقول وعبقريتها، وجمال الزراع وعبقريتهم. إن هؤلاء لم يروا ولكن مارسوا، كما أن هذه لم تر ولكن مارست. لقد مارست هذه نفسها وتحدثت عن نفسها وشعرت بنفسها دون أن ترى، كما مارس هؤلاء أنفسهم وتحدثوا عنها وشعروا بها دون أن يروا. إن الرؤية ليست شرطاً في الممارسة. إن الرؤية تحقير للممارسة، إنها وعظ ضدها. إن الرؤية ليست شرطاً في الحديث عن الشيء الذي نتحدث عنه باقتناع لأننا لم نره. إن رؤية الطريق ليست شرطاً في المسير. إن عيون هؤلاء المبهورة بجمال الكون لم تر أكثر مما رأت أعضاؤهم المبهورة بجمال ممارساتها أو بجمال الأعضاء الأخرى التي تمارس معها ذاتها.

إنك لو رأيت الشمس لفدحتك فظاعة الرؤية وقباحة المنظر وسفاهة السخاء والتوزيع..

إنك لو رأيت الشمس لرأيت كل الجزاف وكل الدمامة، وكل السخف، ولرأيت ضخامة العبث، وسفه التوزيع والأسلوب والصيغة والحركة والمكان، وفقدان التخطيط والمنطق والغاية والنموذج،

وبلادة الموازنة بين العمل والنتيجة، أو بين العمل والغرض، أو بين الذات وعملها، أو بين عملها ونفعه.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ضلال البداية والنهاية، وضلال المدبر والمفكر، وضلال المبدع، وضلال المسؤول.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ضلال البداية والنهاية، وضلال المدبر عبثاً عظيماً في مستوى حجمها. لرأيت حينئذٍ أضخم سرف في صياغة أضخم غباء وعبث. إنك إذا آمنت بمنطقية العبث أو الغباء الضخم فإنك كبير في إيمانك بالعبث والغباء بقدر ضخامة ذلك العبث أو الغباء الذي آمنت بمنطقيته.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ما يساوي أن يؤخذ من كل المدن والطرق والمصانع والمعاهد والمعابد والبيوت كل أنوارها لتصنع منها شمعة واحدة كبيرة، كبيرة، لتعلق في الفضاء البعيد، البعيد، لكي تستدفىء بها النمال والفئران، ولكي ترى بها نفسها وترى بها الأشياء حولها، ولكي تقرأ على ضوئها كتبها وصلواتها وحضاراتها، ولكي تجد فيها عبقرية مبدعها وجماله وحكمته ورحمته.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ما يساوي أن يؤخذ من الأرض كل ما فيها من مواد البناء والزخرفة والإضاءة ليصنع من كل ذلك أكبر تمثال لأكبر طاغية، ليضاء أضخم إضاءة، ليعلق في الفضاء حيث يراه كل الناس في كل مكان، أو حيث يراه كل سكان المدينة الواحدة، بعد أن يوضع فيه جهاز تدفئة، لكي يستدفىء بها الأطفال الفقراء ويقرأوا على ضوئها دروسهم ويلعبوا تحتها، ولكي يشغلوا عيونهم بالنظر إليها، يبهرهم الإعجاب والإيمان بالعبقرية كانبهار الأنبياء والمعلمين والفنانين والوعاظ والشعراء حينما ينظرون إلى جسد الشمس الذي لا مثيل له في قبح مستوياته وكثافة قسماته وضخامته المتوحشة البليدة بلا قياس.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت شمعة في حجم الأرض تصنع وتعلق لتضيء وتدفىء وكر عصفور.

هل تطيق أن ترى هذا المنظر، أو هل ترى فيه جمالاً أو عبقرية أو ذكاء؟

هل تطيق أن ترى شمعة في حجم الشمس وفي أضوائها وحرارتها وفي بعدها وفي كل أوصافها وأساليبها لتكون سراجاً ودفئاً وأوقاتاً وجمالاً لكائنات تعيش تحتها، لكائنات لها وفيها كل خصائص البشر وحياتهم ومستوياتهم وبدايتهم ونهايتهم ومستقبلهم؟

هل تطيق رؤية هذا المنظر؟ هل تجد فيه عبقرية أو ذكاء أو جمالاً؟

هل ترى جمالاً أو عبقرية في الشمس حينما كانت وحدها، حينما كانت مصباحاً هائماً ضائعاً ضالاً في الفراغ الرهيب العقيم بلا إنسان، بلا كائنات صغيرة ذليلة كذابة جائعة منافقة في حجم البشر وفي جميع أوصافهم ومستوياتهم الذهنية والأخلاقية - ليقرأوا تحت ضوئها تعاليمهم وأكاذيبهم

وغباواتهم ـ ليقرأوا على ضوئها سير أربابهم وزعمائهم ومعلميهم... ليقرأوا مخاصمات ومكايدات ومشاتمات ومضاربات وحروب وأكاذيب وأحقاد هؤلاء الأرباب والزعماء والمعلمين؟

هل تطيق أن ترى شمعة في حجم الشمس وفي بعدها وفي كل أوصافها بلا إنسان؟ وهل تطيق أن ترى مثل هذه الشمعة لتكون مصباحاً ودفئاً وأوقاتاً ومنظراً رائعاً لكائنات في حجم وصفات ونماذج وظروف البشر؟

هل ترى في مثل هذه الصورة جمالاً أو عبقرية أو ذكاء؟

إنك لو رأيت الشمس لما رأيت عبقرية أو جمالاً أعظم من أن ترى كتلة من المادة أو صخرة شوهاء في حجم الشمس، محترقة مشتعلة متنقلة فوق كائنات مثل البشر، أو دائرة حولها كائنات مثل البشر. قد أشعلت من أجلهم أي من أجل هذه الكائنات التي هي مثل البشر، أو تخلقوا، أي تخلقت هذه الكائنات التي هي مثل البشر من حرارتها وجسدها قدراً وعبثاً غير مدبر أو مراد أو مفسر. إنك حينئذٍ لن ترى جمالاً أو عبقرية أعظم من أن ترى جمال وعبقرية حشرة في حجم الشمس وفي مكانها تموت محترقة صانعة باحتراقها ضوءاً وحرارة، متناثرة إلى قطع ومشاعل ولهب.

إنك لو رأيت هذا الكون لرأيت كوناً لن تتصور أن مهندساً صناعياً أو تجارياً أو جمالياً يقبل مهما كان مستواه الفني أو النفسي أو الأخلاقي أو الشعري أن يكون ـ أي الكون ـ من شعره أو تخطيطه أو تفكيره أو تصوراته. إنك حينئذٍ سوف ترى شيئاً لا بد أن يجد أي مهندس أن نسبته إليه، إلى فنه أو إلى شعره، أو إلى تفكيره أو إلى قدرته أو إلى إحساسه بالجمال وصياغاته ـ أسلوب عنيف من أساليب الهجاء والتحقير. إنك حينئذٍ سترى كوناً لا مثيل له في انحطاط مستوياته الفنية والجمالية. إنك حينئذٍ سترى كوناً لا مثيل له بين كل الأعمال الفنية والصناعية والتجارية والجمالية ـ لا مثيل له في دمامته وفوضاه.

إنك حينئذٍ سترى كوناً لا يشبه إلا نفسه. إنك سوف ترى حينئذٍ كوناً لا تساوي دمامته وفوضاه سوى دمامته وفوضاه.

إنه لا شيء يغطي قبح الكون وفوضاه، أو يغفر له قبحه وفوضاه، أو يعتذر له عن قبحه وفوضاه سوى أنه لا يوجد سواه. لقد أصبح تفرده أقوى اعتذار عنه وستر له. إنه لم يوجد نموذج غيره، لم يوجد نموذج يخضع له ويقاس عليه. لهذا فتنت بدمامته وفوضاه عيون لم تره، عيون وجدته وحده ولم تـره. لهذا فتنت بدمامته وفوضاه عيون الشعراء والأنبياء والوعاظ والمعلمين والأطفال، كما فتنت بذلك عيون الحشرات والطيور التي ذهبت تغني له مبهورة بدمامته وفوضاه كانبهار الأطفال والأنبياء والشعراء والوعاظ والمصلين. لقد بهرت عيون الأطفال والأنبياء والوعاظ والشعراء وعيون الطيور والحشرات بدمامة الكون ووحشية تكوينه لأنها لم تره، ولأنها لم تجد سواه، ولأنها لم تتفوق عليه.

إنك لو رأيت الإنسان، لو رأيت كيف يجيء ويذهب، وكيف يهون ويجوع ويخاف ويضعف ويجبن ويتصاغر، وكيف يمارس هوانه وجوعه وخوفه وضعفه وجبنه وتصاغره..

إنك لو رأيت كيف يحسد ويبغض ويحقد ويشتهي ويريد ويتمنى، وكيف يمارس حسده وبغضه وشهواته وأمانيه وإرادته.

إنك لو رأيت كيف يكذب ويخدع وينافق ويتملق ويمدح ويمسح التراب، يمسح كل التراب، بكل جبهته وبكل هامته وبكل قامته، وبكل أربابه وأنبيائه ومذاهبه وأفكاره. حتى أربابه وأنبياؤه ومذاهبه وأديانه ـ حتى هذه كلها يمسحها بالتراب، ويلقي بها إلى التراب الذي يحتاج إلى أن يلقي بكل ذاته إليه.

إنك لو رأيت عينيه، لو رأيت ما في عينيه من التأكيد على الاستجابة إلى كل المستويات الرديئة والضعيفة تحت الظروف المطالبة والشروط المطلوبة، بل وغير المطلوبة، بل وبلا شروط. لو رأيت ما في عينيه من التأكيد على الاستجابة إلى كل نداء يدق أذنيه، دون أن يعرف أو يسأل: مَن مطلق النداء.

إنك لو رأيت ما في عينيه من الاحتمالات المتناقضة، من التهيؤ الدائم للاستجابة إلى فعل الشيء وفعل نقيضه: من الكبرياء والاتضاع، ومن الجبروت والضعف، ومن العدوان والجبن، ومن ممارسة الحرب بلا مستوى إنساني أو حضاري، ومن تقبل للهزيمة بلا أي قدر من الكرامة، ومن النفاق والبذاءة، ومن الصداقة بلا صدق، ومن العداوة بلا شرف، ومن العصيان الشرس والطاعة الذليلة، ومن الحسد للمتفوقين والعبادة للتافهين، ومن عمق الإيمان بالغباء، ومن الزندقة أمام كل ذكاء، ومن التصديق بكل بلاهة ورفض كل عبقرية.

إنك لو رأيت ما في عينيه من الاستعداد الدائم للانتقال من النقيض إلى النقيض بلا مناعة عقلية أو أخلاقية، وبلا كرامة عقلية أو أخلاقية، وبلا فتوى عقلية أو أخلاقية نعم، وبلا فتوى يصدرها العقل والأخلاق... إنك لو رأيت الإنسان كيف يتوزع على المذاهب والأديان والأرباب والنظم، وكيف يتنقل عليها وبينها كما يتنقل على قدميه، كما يتنقل بين الكراسي والغرف والأماكن.. إنك لو رأيت كيف تتنقل عليه المذاهب والأرباب والمعلمون والنظم والأديان، وكيف تتجمع عليه دون أن يرفض عقله أو كرامته أو أخلاقه، ودون أن يتدخل عقله أو كرامته أو أخلاقه، ودون أن يعلم بأنه من الجائز أن يتدخل عقله أو كرامته أو أخلاقه. لو رأيت ما في عينيه من الطاعة والاقتناع والحب، وطغاته وأربابه يسوقونه إلى الحروب والعداوات والآلام وإلى كل الحماقات. إنك لو رأيت ما في حياة الإنسان من احتمالات الموت والقتل ومن أسبابهما، وما في صحته من احتمالات المرض والضعف ومن أسبابهما، وما في شجاعته من مستويات الجبن ومن احتمالاته وأسبابه، وما في أمنه من أسباب الخوف ومستوياته واحتمالاته، وما في حبه وصداقته من احتمالات وأسباب البغض والعداوة، وما في شرفه من معاني ومستويات النذالة والخداع والبيع والاتضاع والتنازل، وما في كرامته من أشواق إلى السقوط ومن

صداقة للسقوط، وما في صدقه من حنين إلى الكذب ومن استجابة تاريخية للكذب ـ وما في صدقه من معاني الكذب، ومن نيات الكذب، ومن عراقة الكذب.

إنك لو رأيت ما في ذكاء الإنسان من معاني الغباء والخرافة ومن مستوياتهما وأسبابهما، وما في منطقه من معاني التضليل والضلال ونياتهما، وما في إيمانه وتدينه من أساليب النفاق والتجارة والكيد، وما في حضارته من بداوة وجاهلية وهمجية، وما في قامته من معاني الانحناء والقصر والتحطم، وما في جبهته وهامته من لغات السجود ومعاني التراب، وما في يديه ورجليه من بصمات الفسوق والعدوان والضياع والاعياء والضلال والعناء وضربات التاريخ بلا أجر مقبول متفق عليه، بلا أجر معلوم بالنطق أو بالتفاهم الروحي أو الأدبي، بلا أجر مضمون بأي أسلوب من أساليب الضمان ومستوياته.. لو رأيت ما في رجليه من عذاب التيه، من عذاب المسير الطويل في التيه..

إنك لو رأيت ما في كباره من أخلاق الصغار وضآلتهم وخوفهم وهوانهم وما في صغاره من كبرياء الكبار وغرورهم ووحشيتهم وادعائهم ولغاتهم ومشاعرهم وخطواتهم...

إنك لو رأيت ما في وجهه وتعبيراته من النزق والشراسة والشماتة والقسوة إذا انتصر، ومن الانكسار والانهيار والتقوى والتهذيب إذا انهزم.

إنك لو رأيته أسداً وأرنباً، لو رأيت كيف يصبح أسداً وأرنباً، كيف يصبح أسداً ثم يصبح أرنباً، وكيف يصبح أرنباً ثم أسداً، كيف يكون هذا وهذا معاً، وكيف ينتقل من أخلاق هذا وجلده ولغته إلى أخلاق ذاك وإلى جلده ولغته..

إنك لو رأيت ما في نظراته من لهفة وخوف وتطلع وحيرة وجوع وشهوة وافتراس، ومن آثار معارك لتاريخ حزين، ومن قراءات لمستقبل يخافه ويخطو إليه، يريده ويتوقع منه، يصنعه دون أن يختاره، يفاخر به ويمجده دون أن يفهمه، ودون أن يسعده أو يهبه تفسيراً يقنعه بمعنى وجوده.

إنك لو رأيت ما في نظراته من هزائم ومن جراح ومن ذنوب ومن فضائح ومن مظالم ومن أنين، ومن صراخ. إنك لو رأيت ما في قسماته من إهانات ومن تراكم الإهانات ومن تاريخ الإهانات ومن ذكريات الإهانات ومن تعبيرات الاهانات التي تغذت به، والتي تغذت بكل آبائه وتاريخه، وبكل القيم الإنسانية فيه. إنك لو رأيت قوافل الآلام الطويلة المتجمعة في عينيه والمتحركة في عينيه والباركة في عينيه. إنك لو رأيت في عينيه كل آبائه المرهقين وهم يعانون في تيه التاريخ الأعاصير والظلام والوحوش والبحث عن الآلهة المفترسة.

إنك لو رأيت ما في عينيه من دموع متجمدة متحجرة، ومن دموع صامتة، هامسة، هامسة، ضارخة، صارخة، صارخة، أبداً صارخة. وهل توجد عيون ليست فيها دموع متجمدة أو صامتة أو هامسة أو صارخة، صارخة؟ هل توجد عيون ليس لها تاريخ من الدموع؟ هل توجد عيون ليس فيها

دموع منطلقة أو منتظرة؟ هل توجد عيون ليست فيها كل معاني الدموع وكل لغاتها وتفاسيرها وكل أخلاقها؟

إنك لو رأيت ما في عينيه..

لقد رأى الشعراء والعاشقون والمقلدون جمال العيون وتحدثوا عنه طويلاً، طويلاً، أحاديث كثيرة، كثيرة، أحاديث فيها كل فنون التهاويل والحماس اللفظي والنفسي..

ولكنهم لم يروا ـ بنفس الأسلوب أو قريباً منه ـ عذاب العيون وما فيها من تراكمات الانفعالات الضاجة الضارعة الباكية، ولم يتحدثوا عنها بنفس الأسلوب أو قريباً منه. لقد رأوا الجمال في العيون ولم يروا العذاب فيها. إنهم لم يروا الجمال ولا العذاب. لقد تحدثوا من أعضائهم إلى عيونهم. إنهم بهذا الأسلوب قد رأوا الجمال، وبهذا الأسلوب لم يروا العذاب.

إنك لو رأيت ما في عيون الإنسان من عذاب، من عذاب متراكم، من أصناف العذاب، من العذاب المختلف والمتعدد الجنسيات. وإنه لم يوجد من يستطيع أن يعيش خارج كل جنسيات العذاب. لقد توزعت كل جنسيات العذاب على البشر، وتوزع كل البشر على كل جنسيات العذاب. لقد كان توزعاً رديئاً غبياً عشوائياً.

إنك لو رأيت ما في العيون الضارعة المسترحمة ـ المسترحمة والضارعة خوفاً أو هواناً أو معاناة من مرض أو من حاجة أو من عذاب ما.

إنك لو رأيت ذلك لتحولت الشموس والأزهار والحقول وكل الأشياء الجميلة إلى عاهات ودمامات وفضائح، إلى ذنوب وهجاء. إذن لتحولت كل الأشياء إلى عار في الطبيعة التي أعطت كل هذه الشموس وكل هذه الأشياء الكبيرة الجميلة ثم لم تستطع أن تعطي عيوناً غير ضارعة وغير مسترحمة ثم لم تستطع أن تكف عن إعطاء العيون المحكوم عليها بأن تكون ضارعة مسترحمة، ولتحولت كل الأشياء إلى عار في عينيك لو استطاعت عيناك أن تريا شيئاً ـ أي شيء ـ غير العيون الضارعة المسترحمة تحت معاناة العذاب أو الهوان أو الخوف أو التحقير أو الحرمان.

إنك لو رأيت مثل هذه العيون، لو استطعت أن تراها، ثم لم تمت أو تصعق اشمئزازاً أو غضباً أو رفضاً أو خجلاً لما أمكن أن يكون عذابك أقل من عذاب أصحاب هذه العيون. إنه لمحتوم عليك حينئذ أن تخجل من أجل الطبيعة. هل عانيت الخجل من أجل الطبيعة؟ إنه لا شيء يستحق أن تخجل له أو أن تخجل من عاره مثل الطبيعة. إن كل الخجل لو تحول إلى خجل من الطبيعة ومن أجل الطبيعة لما كان خجلاً كافياً.

إن العيون المعذبة لن تكون أقسى عذاباً من العيون الرائية للعيون المعذبة لو وجدت العيون التي تستطيع أن ترى العذاب في العيون المعذبة ـ لو وجدت العيون التي تستطيع أن ترى العيون المعذبة

بكل عذابها، وبكل أحساسيها، وبكل نظراتها، وبكل ضراعاتها، وبكل احتجاجها وصراخها واستنجادها.

إن الرؤية للعذاب حمل للعذاب من طريق العيون. إن العيون هي أقوى أجهزة التوصيل للعذاب إلى الذات، إنها أقسى وأشمل أجهزة التوصيل. إننا بأعيننا أكبر وأوسع منا بذواتنا. إن عذابنا بعيوننا أشمل وأكبر من عذابنا بأجسامنا. إن الذين يتعذبون بواسطة عيونهم هم أشمل وأشد الناس عذاباً.

إنك قد تتعذب برؤية العذاب، برؤية الخوف والهوان والضراعة في المعذب الخائف المهان الذليل الضارع أكثر مما يتعذب من تراه فتتعذب له أو لرؤيته، أو لرؤيتك له.

إن الجمال هو العيون الشريرة التي ترى بها الدمامات. إنه لا توجد عيون أخرى لرؤية الدمامات غير الجمال.

إنك لو رأيت أعلى مستويات الجمال، لو رأيت أجمل وجه لرأيت فيه كل الدمامات في كل الوجوه الدميمة تعاني كل عذاب الغيرة والغضب والحسد والظلم وتحقير الذات وكرهها. إنك لو رأيت وجهاً جميلاً، فإنك لا تراه، لا ترى وجهاً جميلاً وإنما ترى مكاناً تتجمع فيه الوجوه الدميمة، تتجمع فيه جميع الدمامات غاضبة شاتمة كارهة حاقدة محتجة منكرة محسورة. إنك لو رأيت كل جمال الكون وكل ما فيه من ضياء متحولاً إلى وجه، لو رأيت كل ذلك متجمعاً ليكون جمالاً لوجه، إنك حينئذٍ لن ترى ذلك الجمال، ذلك الوجه الذي أصبح كل جمال الكون وكل ضوئه بعض ما فيه من جمال. إنك حينئذٍ سترى ذلك الجمال، ذلك الوجه قد أصبح منظراً منكراً، قد أصبح وجهاً دميماً جداً، وشيئاً دميماً جداً بقسوته وبعرضه الفاجع للوجوه الأخرى المضادة، بتحدياته الوحشية للوجوه الأخرى.

إن الوجه الجميل ليس إلا أسباباً للوجوه الأخرى، إنه إعلان متوحش عن الدمامات، إنه تذكير بها، إنه إشارة وقحة إليها. إن الوجه الجميل ليس إلا رؤية للوجوه الدميمة. إنه ليس وجهاً جميلاً ولكنه عيون إضافية، عيون أخرى جيدة تمنح قوة الرؤية وقسوتها للوجوه التي ليست جميلة. إن الوجه الجميل ليس إلا مرآة بذيئة، ترى بها جميع الوجوه الدميمة بأسلوب تموت فيه كل معاني الرحمة والتهذيب.

إنك لو كنت ترى لرأيت كل الوجوه الدميمة مطلة من الوجه الجميل الذي تراه، مطلة بذعر ويأس وارتجاف، بل لرأيت كل الوجوه الدميمة مشتومة مصلوبة فوق الوجه الجميل الذي تراه. إن الوجه الجميل ليس إلا صليباً للقسوة تصلب فوقه جميع مستويات الرأفة، تصلب فوقه كل معاني الإنسان. إنك حينئذٍ لن ترى إلا غطاءً هائلاً من الدمامات فوق هذا الوجه الذي تراه. إن ذلك الوجه الجميل سيصبح حينئذٍ أقبح شيء، سيصبح أكثر الأشياء دمامة. إن جميع الدمامات ستجتمع فيه، ستصبح له غطاء لا مثيل له في دمامته وكثافته وفي إثارته للحزن والرثاء. إن دمامات كل الوجوه الدميمة ليست إلا الرؤية الجيدة، إلا الرؤية الثانية المحدقة في جمال الوجوه الجميلة ـ ليست إلا الترجمة، إلا التفسير. إن الوجه الجميل ليس إلا مكاناً تعرض فيه جميع الدمامات بكل أساليب العرض وقسوته.

أما صاحب الوجه الجميل ـ لو كان يرى ـ فما أضخم شقاءه، فما أقسى وأدوم وأشمل أحزانه. إنه حينئذٍ سيرى وجهه، سيراه دائماً، سيراه أكثر وأعنف من كل الرائين الآخرين. إنه حينئذٍ سيرى كل الوجوه الدميمة مجتمعة مسحوقة مهانة فوق وجهه. سيراها جميعاً غطاء لوجهه. سيراها جميعاً مطلة من وجهه، من جمال وجهه. سيراها جميعاً شاتمة لوجهه، غاضبة حاقدة على وجهه، محتجة عليه، شاكية من وقاحته، ومن عدوانه عليها. سيرى وجهه حينئذٍ غريباً منبوذاً مضطهداً. إن أقسى الأشياء غربة هو وجهك الجميل بين الوجوه الدميمة. إنه فاجر، فاجر. إن وجهك الجميل بين الوجوه الدميمة ليس وجهاً، ليس وجهاً ولكنه أسلحة وقذائف وحجارة تقاتل وتتفجر وتتساقط وتخيف وتبارز وتتحدى بهمجية..

إنه حينئذٍ سيرى كل الوجوه الدميمة تلعنه وتكرهه وتخافه وتعاديه وتتمنى له كل التشويه والعذاب والموت. سيراها تتهمه وحده بإذلالها وتحقيرها وكشفها لنفسها ولكل الناظرين إليها. سيرى حتماً أنه ظالم وعدواني ووحشي، وأنه في ورطة، وأنه لا خلاص له من هذه الورطة بأي تدبير عقلي أو أخلاقي أو إنساني. سيرى أنه لا خلاص له من هذه الورطة إلا بالتخلص من ذاته، بالموت أو بتشويه جماله.

إن ذنبه حينئذٍ ليس ذنباً يعالج بالدين أو بالأخلاق أو بالتكفير. إنه ذنب لا يعالج إلا بالخروج من الذات، إلا بقتل الذات أو بإخفائها أو بتشويهها لتكون أكثر دمامة من أشد الوجوه دمامة. إن الجمال ذنب لا يمكن علاجه بالتوبة ولا بالاعتذار ولا بالتعويض ولا بالتهذيب ولا بالحب. إنه ذنب لا يعالج إلا بالموت. حتى الموت، إنه لن يكون علاجاً لذنب الجمال. إنه لا شيء يغفر للجمال عدوانه على الدمامة.

إنك لو كنت إلهاً وكنت قاسياً بلا أي مستوى من مستويات الرحمة، وبلا أي موقف من مواقف الرحمة، ثم أردت أن تعذب إنساناً أقسى عذاب تتصوره وتستطيعه لما وجدت أسلوباً لتعذيبه بمثل هذا الأسلوب أقوى من أن تهبه جمالاً بلا حدود، وتهبه قدرة على الرؤية بلا حدود. إن هذا هو العذاب الأكبر، إنه العذاب الذي لا تجرؤ عليه إلا قلوب الآلهة وأخلاقها.

إننا مهما تصورنا الإله قاسياً فإننا قد نعجز عن أن نتصور بأن قسوته قد ترتفع به إلى أن يهب إنساناً جمالاً ثم يهبه أي مستوى من مستويات القدرة على الرؤية. إن هذا الأسلوب من التعذيب الفظ الرهيب قد يعافه الإله نفسه، قد يرهبه الإله نفسه. إنه تعذيب وقسوة قد يرهب الإله تصورهما، وقد يعجز عن تصورهما، وقد يخجل من تصورهما، وقد يعذبه تصورهما. ولكن هل يمكن أن يعاني شيئاً أو يرهب شيئاً أو يخجل من شيء أو يعذبه تصور شيء من خلق هذا الكون؟

إن أشد الناس حاجة إلى ألا تكون له عينان، إلى العجز عن الرؤية هو من وهب أي مقدار من الجمال. إن من وهب جمالاً يجب أن يخلق أعمى، وأن يعيش أعمى، وأن يظل أبداً أعمى. إن هذا هو أقل مستويات الرحمة، إنه أقل أساليب التوحش. إن الجمال لن يكون مزية لمن يصاب به إلا بقدر ما يكون أعمى.

إنها لورطة لا حدود لها ـ أن توجد الوجوه الجميلة بين الوجوه الدميمة. إنها لورطة لا حدود لها، لا رحمة ولا عدل فيها أن يوجد الجمال مواجهاً معايشاً للدمامة. إنها لوحشية، لوقاحة، إنها لأعلى مستويات الدمامة. إنها لأشنع ألوان الدمامات أن يوجد أعظم الجمال في مواجهة أبشع الدمامات. إن ذلك لأشنع الدمامات، لأشنع دمامات الوجوه، ودمامات النفوس والعقول والأخلاق.

إنه لعذاب وورطة أن يوجد الجمال في مواجهة الدمامة وأن توجد الدمامة في مواجهة الجمال. إنهما لعذاب وورطة أن تكون أنت الجميل أو أن تكون أنت الدميم. إنهما عذاب وورطة للجميل وللدميم إن كانا يريان. إن الدمامة التي ترى ليست أكثر عذاباً وتورطاً وحرجاً من الجمال الذي يرى. إن الجمال الذي يرى هو أشد الخصمين وأشد النقيضين حملاً للإثم والحرج والعذاب، إنه أشدهما شعوراً بالإثم والعذاب والحرج. إن الجمال الذي يرى مذنب ومعذب، ولكن الدمامة التي ترى معذبة فقط. إن حامل الجمال مذنب يحمل ذنبه في وجهه ويحمله في الطرق العامة وفي عيون الناس ووجوههم.

إنك لو كنت إنساناً يرى كل الرؤية، بكل مستوياتها وتفاسيرها لما شككت في أيهما أشد تعذيباً وتوريطاً وتأثيماً لك: أن تكون جميلاً تعذب وتعاقب الدمامات حولك، وتتوقح عليها بجمالك، أم أن تكون دميماً يعذبك ويعاقبك ويتوقح عليك الجمال فيمن حولك. إن معاقبة الآخرين والعدوان عليهم ليسا دائماً سعادة، إنهما قد يكونان شقاء، قد يكونان أشد الشقاء. قد يكون تلقي العقاب والعدوان أخف من إيقاعهما. قد تكون معاقباً ومعتدياً أشد عذاباً منك معاقباً ومعتدى عليك. قد يكون رائي الدمامة أو العاهة أو الخطيئة أبلغ عذاباً من حاملها أو فاعلها.

إن الجمال رؤية تتحول إلى شعور مريح مسعد. فإذا تحول الجمال فيك أو فيمن حولك إلى رؤية فيها كل العذاب فهل يصبح جمالاً؟ أليس حينئذٍ دمامة لأن الدمامة هي الرؤية المعذبة أو الرؤية غير المريحة أو غير الملائمة أو غير المسعدة؟ إن الجمال فيك رؤية غير مريحة وغير مسعدة لك، أعني لو كنت ترى. بل إنه حينئذٍ رؤية فيها كل التعذيب لك. إذن فهل يظل الجمال فيك جمالاً مع أنه يتحول إلى رؤية معذبة لك مثلما تفعل الدمامة ولكن بأسلوب قد يكون أقسى؟ إن الجمال ليس أبداً إلا رؤية مريحة، إن كل مزايا الجمال أن يهب هذه الرؤية المريحة. إنه إذا تحول إلى رؤية متعبة، أو إذا لم تهب رؤيته الرضا والراحة أصبح بلا معنى أو بلا قيمة. إن النظر إليه وحده هو الذي يهبه القيمة. إنه لا يوجد جمال بلا رؤية.

إن الجمال والدمامة فيك كلاهما ـ لو كنت إنساناً يرى ـ يتحولان إلى رؤية تعذبك. ولكن القضية هي أيهما أشد تعذيباً لك.

* * *

لقد كان المؤمنون قساة على الإله بلا أي قدر من الرحمة أو الرأفة به أو الاحترام لمقامه. لقد اقتنعوا بأنه هو الذي خلق الجمال والدمامة عامداً متعمداً مدبراً.. واقتنعوا بأنه هو الذي يقسمهما ـ أي

الجمال والدمامة ـ ويوزعهما بين البشر، دون أن يعلم أو يبالي بما في ذلك من وحشية، ودون أن يعرفوا أو يبالوا بما في ذلك من عجز عن كل مستويات الرؤية والمعاناة. إن تقسيم الدمامة والجمال فن لا مثيل له في السفه والبذاءة والوحشية، إنه أغبى وأظلم من حرمان كل الناس من الحرية والخبز والحياة لإعطائها أفراداً من الناس.

إنهم لم يفترضوا أن الله قد يرى، لقد افترضوا أن الله لن يرى. إنهم لهذا لم يفترضوا أنه قد يعاني ويتعذب حينما يرى الجمال والدمامة متواجهين. إنه لشيء فظيع أن يرى هذه المواجهة المتبارزة بكل عذابها وقبحها ووحشيتها ونذالتها وظلمها، دون أن يعاني ويتعذب، ودون أن يعيش كل الشعور بالذنب.

وإنه لشيء أفظع أن يكون هو الذي صنع هذه المواجهة دون أن يرهبها أو يرهب ذنبها ـ دون أن يرهب رؤيتها وإثم صنعها. إن المؤمنين ليمجدون الله بأكبر الذنوب، إنهم يمجدونه بأنه هو الذي يهب الجمال ويهب الدمامة. يا له من مجد مذنب. يا له من ثناء هو كل الهجاء. إذن لقد افترضوه لا يرى، لقد افترضوا الله كائناً لا يستطيع أن يرى، لهذا لا يرى قبح المواجهة بين الجمال والدمامة.

أما أن يفترضوه كائناً يرى ذنبه دون أن يتعذب أو يرهب أو يكره أو يتأثم من ذنبه فذلك افتراض هو أشنع وأقسى وأهجى وأغبى من كل الافتراضات الأخرى التي يمكن أن تفترض للإله، بل التي يمكن أن تفترض لأي وحش خيالي.

إن المؤمنين إن كانوا قد افترضوا الله لا يرى مواجهة الدمامة للجمال أو قبح هذه المواجهة فقد قسوا عليه مثل قسوته هو حينما خلق هذه المواجهة الصعبة بين الجمال والدمامة ـ وإن كانوا قد افترضوه يرى ذلك ويعلم أنه سوف يراه ويظل يراه فقد قسوا عليه أيضاً مثل قسوته هو حينما ظل صامتاً أمام هذه المواجهة بين النقيضين، لا يعالج ولا ينقذ منها، بل ولا يغضب أو يحزن، أو يتوب من أن يكرر ما فعل. ولكن هل يمكن أن تكون قسوة من يمدح بالذنب أو من لا يرى الذنب ذنباً مثل قسوة من يصنع الذنب ويعيشه ويريده ويدبره؟

إن المؤمنين قد افترضوا الله لا يرى لأنهم هم لا يرون. إن الرؤية ليست في تفكيرهم، إنه ليس في حسابهم أو تفكيرهم أنه قد يوجد إنسان أو كائن يرى. وما هي الرؤية في تصورهم؟ إنها ليست موجودة في تصورهم، ليست من تصوراتهم. إنهم لم يعيشوها ولم يروها ولم يدرسوها. إنهم لم يقرأوا عنها شيئاً، ولم يسمعوا حديثاً عنها. إن الرؤية ليست درساً في مدارسهم أو معابدهم أو منابرهم. وأيضاً قد افترضوا ـ أي المؤمنون ـ أن الله لا يعاني من مواجهة العذاب لأنهم هم لا يعانون. والذي لا يمجد نفسه ـ ولو كذباً ـ بالمعاناة كيف يفهم أن يمجد إلهه أو أي شيء آخر بأنه يعاني؟ إن الشيء الذي لا نتصوره مدحاً لأنفسنا لن نتصوره مدحاً لأربابنا أو لأي شيء نحترمه. إننا نمدح أربابنا بما نتمنى أن يكون لنا أو فينا. إن المؤمنين لو كانوا يرون ويعانون في رؤيتهم لكان مستحيلاً أن يفترضوا وجود الإله ـ لكان مستحيلاً أن يفترضوه افتراضاً، لأنهم حينئذٍ لا بد أن يفترضوه يرى ويعاني من

رؤيته. وإذا افترضوه يرى ويعاني فإنهم حينئذٍ لن يستطيعوا أن يفترضوه صائغ هذا الكون أو في مواجهته، مهما ظلموه في تقدير مستوياته الأخلاقية والنفسية والفنية.

إن الشرط الأول، أو الشرط الدائم للمؤمن ليكون مؤمناً أن يكون عاجزاً عن الرؤية وعن المعاناة. إن الرؤية والمعاناة نفي لكل احتمالات الإيمان، لكل احتمالات أن يكون فوق هذا الكون كائن يرى ويقرأ ويعاني - يرى الآلام والعاهات والتفاهات والدمامات، ويقرؤها ويعانيها. إن الرؤية والمعاناة رفض لكل معنى رحيم أو نبيل في هذا الكون أو من ورائه. إن الرؤية والمعاناة تحولان هذا الكون إلى شيء لا يمكن أن يتهم به أحد، وإلى شيء لا يمكن أن يرضى أحد بأن يتهم به.

لقد كان مستحيلاً أن يكون المؤمن يرى ويقرأ ويعاني، ثم يرى أن الله لا يرى ولا يقرأ ولا يعاني. وقد كان مستحيلاً أيضاً أن يرى أن الله يستطيع أن يرى هذا الكون ويقرأ رؤيته ويعانيها. إذن لقد كان مستحيلاً أن يرى المؤمن بأن فوق هذا الكون إلهاً يرى ويقرأ ويعاني. إذن لا بد أن يكون هذا الكون في اعتقاد المؤمن بلا إله أو أن يكون الإله الذي فوقه إلهاً عجيباً، إلهاً لا يرى ولا يقرأ ولا يعاني من رؤيته.

وقد كان هذا الإله العجيب الذي لا يرى ولا يقرأ ولا يعاني هو الشخصية الكاملة للإله الكامل في عقيدة المؤمن. لقد كان الإله دائماً كائناً عجيباً في عقيدة المؤمن وتصوره.

إن المؤمن لم ير نقصاً أو ذنباً أو ذماً للإله أن يكون لا يرى ولا يقرأ ولا يعاني أو يتعذب مما يرى ويقرأ، أو حينما يرى ويقرأ. إن الرؤية القارئة المعانية لم تكن في تصور المؤمن شيئاً مطلوباً أو شيئاً محسوباً، أو حتى شيئاً موجوداً. لم تكن حتى ولا فكرة، حتى ولا تصوراً.

إنه هو أي المؤمن لا يرى ولا يقرأ ولا يعاني أية معاناة من رؤيته، وإنه لم يشعر أنه بذلك مذنب أو ناقص أو عاجز أو فاقد معنى من معاني الكمال والقوة. إذن كيف يطالب الله بكمال لم يتصوره، بل لم يتصوره كمالاً، ولم يتصوره شيئاً يكون أو يكونه أحد. إن مقاسات الإله موجودة دائماً في نفس المؤمن، مأخوذة منها، مقدرة دائماً على مقاساتها هي ، أي على مقاسات نفس المؤمن. إن المؤمن يحوّل نقائصه إلى صفات كمال للإله. إن الإله محكوم أبداً بنفس المؤمن، إن قامة الإله مقدودة دائماً ومقدود طولها وشموخها من نفس المؤمن، من طوله وشموخه. إذن فالمؤمن لا بد أن يتحول إلى عدوان على الإله وإلى تحقير وتشويه له لأنه لا بد أن يراه ويفهمه من خلال ذاته، من خلال نقائصه وأهوائه ونماذجه.

* * *

إنك لو كنت ترى لكانت رؤيتك للشمس وللكواكب والسماء، وللأزهار والحقول، وللجمال والصحة، وللانتصارات والمسرات، تتحول إلى كل هذا النقيض.

ولكن حينما تكون إنساناً يرى فإن رؤيتك لن تكون فقط هي رؤية الشيء في نقيضه، لن تكون

هي فقط تحول الأشياء إلى نقيضها. لن تكون رؤيتك حينئذٍ هي أن ترى الظلام والضآلة في رؤيتك للشمس، وأن ترى الدمامة والمرض والشيخوخة في رؤيتك للجمال والصحة والشباب، وأن ترى الأحزان والدموع في رؤيتك للمسرات والابتسامات، وأن ترى الهزائم والمذلات في رؤيتك للانتصارات والأمجاد، وأن ترى الصحارى والقحط في رؤيتك للحقول والأزهار. أن تكون حينئذٍ هذه هي رؤيتك. بل لن تكون هذه ـ احتمالاً ـ هي بعض رؤيتك. إن رؤيتك حينئذٍ ستكون بلا واسطة وبلا تحويل. إن رؤيتك حينئذٍ ستمتلىء بلا وسيط، وبلا نقيض، ستمتلىء بالآلام والدمامات غير المحولة وغير المفسرة لتكون آلاماً ودمامات، ولتفهم على أنها آلام ودمامات. سيجعلك حينئذٍ الألم والدمامة المباشران لا ترى الألم والدمامة غير المباشرين.

سترى حينئذٍ الشيء في الشيء لا في نقيضه. إنك حينئذٍ قد تكون عاجزاً عن رؤية الشمس والسماء والجمال والأزهار والحقول والانتصارات والضحكات لترى فيها النقيض، لتقرأ في رؤيتك لها نقيضها. إن الآلام والدمامات المباشرة ستتزاحم حينئذٍ على عينيك، ستملأ عليها حينئذٍ كل رؤيتها، فلا تستطيع أن ترى بالتحويل أو بالانتقال من النقيض إلى النقيض. إن الدمامات والعاهات والآلام المباشرة ستسد حينئذٍ على عينيك الطريق إلى السماء، إلى النجوم، إلى الرؤية برؤية النقيض.

إنك لو كنت إنساناً يرى لما وجدت عيناك في هذا الكون وفي هذه الحياة وفي هؤلاء الناس، طريقاً واحداً ليس مسدوداً بالآلام والعاهات والتفاهات والدمامات والذنوب.

إنك لو كنت إنساناً يرى لما استطعت أن تجد درباً واحداً مهما كان ضيقاً ومهجوراً منبوذاً تخطو فيه إحدى قدميك ولو خطوة واحدة من خطواتها، دون أن تكون هذه الخطوة الواحدة فوق مواكب العاهات والدمامات والتفاهات والآلام والذنوب الضاجة أو الصامتة.

إنك لو كنت إنساناً يرى لكان من الصعب أو المستحيل أن تخطو، أن تتحرك، لأنك حينئذٍ سترى كل الآفاق والاتجاهات مسدودة متزاحمة بالذنوب والدموع والأحزان، وبالفوضى والأخطاء والعبث. إنك حينئذٍ لن تجد مكاناً توجه إليه خطوتك. إنك حينئذٍ لن تجد اتجاهاً تصوب إليه نظرتك. إنك حينئذٍ ستجد كل الطرق والاتجاهات مغلقة أمام خطواتك وأمام رؤاك. إنك حينئذٍ ستصبح مثل إنسان مؤمن جداً، يريد أن يخطو فوق أرض مغطاة كلها بأجساد الآلهة العارية النائمة، وينظر إلى أفق مملوء كله بأعضاء الآلهة المحرمة أي بأعضائها الداخلية. إنه لشيء يصعب تصديقه واحتماله أن تكون إنساناً يرى ثم تستطيع أو تجسر أن تمارس قدميك أو عينيك. إنك حينئذٍ ستجد كل شيء وحوشاً تفترسك، تفترس خطواتك ونظراتك.

إنك حينئذٍ لن تستطيع أن ترى الشمس أو القمر أو الجمال أو الصحة أو الشباب أو المسرات أو الضحكات أو الأزاهير لتحتج بها على الظلام والدمامة والأمراض والأحزان والدموع والشيخوخة والصحارى، أي على قبح ذلك.

إن رؤية الشيء الذي لا يلائم برؤية الشيء الذي يلائم إنما تكون حين لا يملأ الشيء الذي لا يلائم

رؤيتنا، أي حين يأذن لنا الشيء غير الملائم برؤية الشيء الملائم لننتقل من رؤية الشيء إلى رؤية نقيضه.

هل نستطيع أن نرى الجمال لنحتج به على الدمامة إذا كانت الدمامة قد ملأت كل رؤيتنا؟ هل نستطيع أن نرى الصحة لنحتج بها على المرض إذا كان المرض قد ملأ كل رؤيتنا؟ هل نستطيع أن نرى الحقيقة والصدق لنحتج بهما على العبث والكذب إذا كان العبث والكذب قد ملآ كل رؤيتنا؟

إن جميع أولئك الأقلين جداً، أولئك الأقلين الذين رأوا الكون ـ لأنهم كانوا مصابين بمرض الرؤية ـ إنما رأوا منه أو فيه عاهاته ودماماته وآلامه المواجهة فقط، إنهم لم يروا آلامه أو عاهاته أو دمامته غير المواجهة أي المتخفية وراء أضدادها ونقائضها.

إنهم لم يروا الصحة أو القوة أو الجمال أو الشمس أو الحقول أو الأنهار أو الصدق ليحتجوا به على نقيضه، أو ليروا فيه نقيضه. لقد كان النقيض يملأ كل رؤيتهم، فلم يروا سواه.

لقد كانت العاهات والتفاهات والدمامات والعبث والآلام تملأ كل رؤاهم، فلم يروا غيرها. لهذا لم يحتجوا على نقيض ذلك، لم يحتجوا على الصحة أو القوة أو الجمال أو الشمس أو الحقول أو الأنهار أو على الصدق أو على الحقائق لأن رؤيتها تنقل إلى رؤية نقيضها، أو لأنها تتحول إلى نقيضها.

إنهم لم يحتجوا على شيء من ذلك لأنهم لم يروا شيئاً منه. لقد كانت كل عيونهم مملوءة برؤية النقيض، مشغولة بذلك النقيض الزاحم المالىء لكل طرقهم وآفاقهم.

إن عيونهم لم تكن تستطيع أن تصل إلى النجوم أو إلى الشمس أو إلى الابتسامات أو إلى الأنهار والحقول أو إلى الجمال والصحة أو إلى الصدق أو إلى الذكاء أو إلى الشرف، إنها لم تكن تصل إلى ذلك لترى به دمامة النقيض. إن عيونهم لم تكن تستطيع الوصول إلى شيء من ذلك لكثرة الزحام عليها، على عيونهم.

لقد كان زحام الآلام والدمامات المواجهة على عيونهم مانعاً لها أن ترى الآلام والدمامات المتخفية وراء الآلام والدمامات المواجهة. لقد سترت الوحوش المواجهة جميع الوحوش المستترة. إن الوحوش المواجهة المكشوفة لم تترك وقتاً ما ولا مكاناً ما لكثرتها ورهبتها وقبح طلعتها ـ لم تترك وقتاً ما، ولا مكاناً ما للوحوش المستترة لكي ترى، لكي يراها المصابون بمرض الرؤية النادر الوقوع، بمرض الرؤية الوقور النبيل الخجول الذي أصبح من أندر الأمراض في كل التاريخ وكل المجتمعات لأنه ظل في كل تاريخه وقوراً نبيلاً خجولاً. ولأنه ظل أبداً كذلك ظل أبداً من أندر الأمراض. إن مرض الرؤية هو أنبل الأمراض لأنه أندرها.

لهذا لم نجد في جميع «الرائين» من رأوا الدمامة أو البذاءة أو الظلم أو الوحشية في الجمال أو في الصحة أو في السرور أو في القوة لأنهم لم يروا شيئاً من ذلك. لقد كانت عيونهم مملوءة، لقد كان الزحام عليها رهيباً. لقد كانت عيونهم مملوءة بالأهوال المكشوفة. لقد كانت عيونهم مشغولة عن

الأهوال المستترة بالأهوال المكشوفة. إن رؤية الأهوال المستترة مستوى من السعادة لأن رؤيتها تعني أن الأهوال المكشوفة لم تكن مغلقة كل الرؤية.

لقد كانت الوحوش المكشوفة المواجهة تخفي عن عيونهم كل الوحوش المستترة، لقد كانت تسد عليها كل اتجاهات الرؤية.

لقد كان عالمهم مملوءاً بالوحوش التي هي وحوش بلا تفسير ولا منطق، فلم يأذن لهم بأن يروا الوحوش بالتفسير والمنطق. أي الوحوش التي تصبح وحوشاً بالتفسير والمنطق.

إن الجمال وحش بالتفسير والمنطق، أما الدمامة فإنها وحش بلا تفسير وبلا منطق. ولقد كانت رؤيتهم للوحش بلا تفسير ولا منطق ـ أي رؤيتهم للدمامة ـ مانعة من رؤيتهم للوحش بالتفسير والمنطق ـ أي مانعة من رؤيتهم للجمال. لهذا لم يروا وحشية الجمال ودمامته، لهذا لم يحتجوا عليه، لهذا لم يروا فيه خطيئة حامله، ولا خطيئة مدبره وقاسمه ومبدعه، لهذا كانوا يرون في الجمال فناً غافراً، ولم يروا فيه ظلماً فاجراً، لم يروا فيه لؤم التدبير ولا لؤم المدبر، ولا وحشية الإخراج ولا وحشية المخرج، ولم يروا فيه وحشية العارض. إنهم لم يروا شيئاً من وقاحات الجمال ولا من بذاءاته ولا من دماماته ولا من ذنوبه الكبيرة التي لا تغفر بأي أسلوب أو سبب من أساليب الغفران وأسبابه لأنهم لم يروه أي لم يروا الجمال. لقد استهلكتهم رؤية الدمامات.

* * *

إن العيون لم توضع في البشر لكي يروا بها، إن أحداً لم يدبر أو يرد لها أن تكون كذلك، إنها هي لا تستطيع ولا تريد أن تكون كذلك، وإن حامليها لا يريدون لها أن تكون كذلك، وأنهم لا يستطيعون أن يجعلوها كذلك، بل إنهم لا يريدون أن يستطيعوا ذلك.

إنه لا يمكن أن يفترض بأن الشمس أو النجوم، أو بأن أية شخصية أخرى نبيلة ذكية في هذا الكون، أو تحكمه من بعيد، من فوق ـ هي التي وضعت في البشر عيونهم، وهي التي جعلتها أجهزة رائية لكي يروها، لكي يروا عاهاتها وتشوهاتها وذنوبها بها. إن الشمس أو النجوم لن تدبر في البشر أو في أية كائنات أخرى عيوناً قادرة على رؤيتها. إن الشمس والنجوم ترفض أن تكون مرئية لو كانت قادرة على الرفض والتقبل.

إن أي كائن يصوغ هذا الكون ويصبح وحدة من وحداته المحكومة بأخلاقه وبصياغاته الجسدية والمنطقية لن يقبل أو يدبر بأن توجد عيون مبصرة لتراه. إنه لن يكون معادياً لنفسه أو بليداً على المستوى الذي يجعله يقبل أن يكون مرئياً، مرئية صياغاته النفسية والعقلية والجسدية. إنه حينئذٍ لا بد أن يحارب كل العيون التي قد ترى. إنه لا بد أن يفقأ كل العيون ليظل مستتراً، لئلا تراه عين واحدة كما هو عارياً في جسده وفي منطقه وفي سلوكه. إن رؤية الشيء كما هو بكل صفاته وتفاسيره وتقاسيمه وتعبيراته ونياته لأسلوب رهيب من أساليب القتل والتحقير والسباب.

إنه حينئذٍ سيحارب، سيحارب كل شيء وبكل سلاح لئلا توجد عيون قد ترى، قد تراه عارياً مقروءاً في كل تعبيراته المنطقية والنفسية والسلوكية والتفسيرية، في كل صوره بلا غطاء. إنه حينئذٍ لا بد أن يحول كل شيء إلى أغطية، إلى حجب متداخلة ليستتر بها، ليستر ذاته وصفاته وبشاعاته الرهيبة لئلا تراها عين واحدة، لئلا ترى منه العيون شيئاً.

إنه حينئذٍ سيصنع كل شيء لكي يكون محجوباً. إنه سيخترع أكثف الثياب الساترة. إنه سيكون أحوج من البشر الذين اخترعوا البيوت والثياب وكل الجدران والحجب لكي يستتروا وراءها، لكي يكونوا غير مرئيين. إن كل شيء يهرب من أن يكون مرئياً كما هو بكل حدوده وتفاسيره وصفاته ونياته. إن كل شيء يهرب من أن يكون مقروءاً بكل لغاته وطبعاته، مرئياً بكل أزيائه، بكل العيون.

إنه لا يوجد من لا يمارس أساليب كثيرة من أساليب الهرب من أن يكون مرئياً أو مقروءاً بكل صوره وبكل نصوصه.

إن مدبر هذا الكون وصانعه ومخرجه هو أحوج الكائنات إلى ألا توجد عيون، بل إلى فقء كل العيون. إنه أحوج الكائنات إلى الاستتار، بل إلى الظلام الذي يجعله لا يرى، بل الذي يجعله لا يرى هو نفسه. إن رؤيته لنفسه تقتله بقدر ما تقتله رؤية الآخرين له. إن صانع ومخرج ومدبر هذا الكون لمحتاج إلى أن يفقأ عيني نفسه مثل احتياجه إلى أن يفقأ عيون كل الآخرين. إن رؤيته هي أقسى خصومه، حتى رؤيته هو لنفسه.

إن العيون إذن لم توضع في البشر لكي يروا بها. إنه لن يوجد من يفعل ذلك أو من يريده أو من يوافق عليه أو من يتهاون في مقاومته. إنه لا يوجد من لا تعذبه العيون الرائية. إنه لا يوجد من لا يخافها أو من لا يهرب منها أو من لا يقاومها. إن كل الأجساد حتى أجساد الجمادات والحيوانات تخشى العيون الرائية وتتعذب بها. إنها هجاء لها.

إن الرؤية تصادم وتنافر ورفض وتحقير وعذاب. إنها دائماً مناقضة، تناقض الرائي، وتناقض ما ينبغي ويطلب، وتناقض المنطق. إنها دائماً ضد كل الشروط والمستويات المطلوبة. إن الرؤية خروج على جميع النماذج والاحتياجات. إنها فضح وهجاء للمرئي مهما كانت صياغاته.

أما العيون فإنها ليست لشيء لذلك. إنها للنقيض، إنها نقيض للرؤية ودفاع عن قبحها وتجميل لقبحها.

إن موهبة العيون أن تصنع التلاؤم والتوافق مع كل الأشياء، مع أوقحها وأقبحها وأكثرها ظلماً وغباءً. إن موهبة العيون أن تتلاءم وتتوافق وتصطلح مع أبشع الدمامات والتشوهات والآلام، بل أن تحول هذه الدمامات والتشوهات والذنوب والبلادات إلى جمال وذكاء ومنطق وعدالة وحب وفنون، أن تحولها إلى أخلاق إله ومنطق إله ـ أن تتفاهم معها بلا أي خلاف أو تصادم أو غضب أو عتاب.

إن الذين يملكون عيوناً دون أن يملكوا رؤية لا بد أن يتفاهموا ويتلاءموا مع الدمامات والآلام

والتشوهات أكثر من الذين لا عيون لهم... إن موهبة العيون أن ترتب الالف للأشياء، للأشياء الدميمة والشوهاء والبليدة جداً. وأن تكرر وتكرر التعود على الأشياء والتحمل لها بل والغفران لها بإدمان النظر إليها، بل وأن تحاول الإعجاب بها، بل وتصنع هذا الإعجاب بالتكرار والالف والمداومة على النظر إليها، بل على النظر الباحث عن التوافق والتلاؤم، بل الباحث عن الإعجاب، بل عن الحب، بل عن الاقتناع، بل عن الإيمان بها، وبما يكون، بما لا بد من مواجهته والعيش معه. إن موهبة العيون أن تحول أقبح الأشياء وأكثرها ظلماً إلى أجمل الأشياء وأكثرها عدلاً بتكرار وإدمان النظر إليها. إن إدمان النظر إلى الأشياء يغفر لها كل قبحها وسخفها وظلمها ويحولها إلى النقيض.

إن الأشياء كما هي فاجعة مروعة، فاجعة مروعة بما فيها من تشوه وظلم وغباء وعبث وعذاب وتفاهة وتكرار ومصير وتفاسير. إن الأشياء كل الأشياء محتاجة إلى عملية تسويغ كبيرة باهظة. وقد جاءت العيون ـ وكأنها قد جاءت بتدبير ـ لتؤدي عملية التسويغ هذه، لتضعف من أهوال الرؤية.

إن العيون لم تجيء إلى الإنسان لكي تكون فيه أعضاء ميتة أي أعضاء بلا وظيفة. بل لقد جاءت ـ أو كأنها قد جاءت ـ لتكون أعضاء مضادة. إنها لم تجيء لتكون فقط غير رائية، بل لقد جاءت لتكون ضد الرؤية، أي لتقاوم الرؤية، بل لتغفر للرؤية كل وحوشها وأهوالها، ولتحول كل دماماتها وعاهاتها وتفاهاتها إلى جمال، وإلى فن، وإلى عبقرية إله وضمير إله، وعدل وذكاء إله، وحب ورحمة إله.

إن العيون لم تجيء فقط غير رائية وغير قادرة على الرؤية، بل لقد جاءت لتزور الرؤية، لتزور الأشياء، لتجعل الأشياء نقيض نفسها وفوق نفسها، إن العجز عن الرؤية مزية تعجز عنها العيون. إن العيون لا تصمت عن الأشياء ولكنها تنظر إلى الأشياء لتزور في رؤيتها. إن صمت العيون مزية عجزت عنها العيون.

إن العيون المتكررة قد جعلتنا نرى الأنهار والأمطار من أجمل الأشياء وأذكاها وأنبلها أخلاقاً. ولكن لو أن العيون لم تجعلنا نكرر النظر إليها ونتعود على هذا النظر إليها وعلى النظر إلى ما في سلوكها من حماقات باطشة عدوانية، ثم رأيناها أي الأنهار والأمطار لأول مرة، ورأينا كيف تمارس أخلاقها ونفسها، وكيف تدمر وتغرق وتجيء وتمتنع وتجود وتبخل. كيف تجيء هنا بلا حساب ولا أوان، وتمتنع فلا تجيء هناك إلا بتقتير شحيح جداً، أو تمتنع عن المجيء البتة بلا دمعة رحمة أو حزن على المنتظرين لها، الجائعين إليها، المستشفعين بكل الآلهة إلى قلبها العصي.

نعم لو أن الصورة جاءت كذلك فماذا يمكن أن تكون حينئذٍ رؤيتنا للأنهار والأمطار؟ إنها حتماً لن تكون جمالاً ولا فناً ولا ثناءً على الآلهة المبدعة. إنها حينئذٍ لن تكون موضوعاً لقصيدة شاعر أو لثناء خطيب، أو لتعاليم نبي. إن رؤيتها حينئذٍ ستكون فاجعة مروعة، فاجعة، مروعة.

إن الأنهار والأمطار لن تكون حينئذٍ أفضل ذكاء أو أخلاقاً من أي سفيه جاهل أحمق طاغية قاتل مدمر مبذر مجنون. إنها حينئذٍ لن تكون أفضل أو أذكى من سلطان أو قيصر عربي يعطي ويمنع لا

بخلاً ولا كرماً لكنها خطرات من وساوسه كما يقول شاعر قديم ـ يصف جواداً عربياً بل يصف كل جود عربي.

ماذا لو أننا لم نتعود ونألف نظرنا المتكرر إلى من يضربون أو يهانون أو يشتمون أو يجلدون أو يقتلون أو يحقرون أو يبكون، أو إلى من يعانون الهزائم والفضائح والتشوهات والأمراض والعاهات والخوف والخطر والشعور بالنقص وبالسقوط وبالانحطاط وبالجوع والحرمان والسجون والمعتقلات والمحاكمات والحسد والغيرة والجهل والغباء والضعف وتفوق الآخرين والخصوم؟

ماذا لو أن نظرنا الدائم المتكرر لم يألف ذلك ولم يقتل الشعور به، ولم يسقط الشعور ضده، بل ولم يحول الشعور به إلى شعور ملائم، إلى جمال ومنطق، وإلى مذاهب وأديان وعبادات، لأن النظر إليه تكرر وتكرر فسقط كل شعور ضده، بل وخلق شعوراً ملائماً به؟

ماذا لو أننا نفاجأ برؤية ذلك وبالشعور ضده وبه لأول مرة؟

ماذا لو أننا لم نألف ونتعود النظر المتكرر إلى ذلك، ثم ذهبنا نتصوره ونشعر به ونعلمه، ونعرف معناه، ونقرأ تفاسيره، ونفكر في دلالاته وفي قبحه وفي كل بشاعاته؟ ماذا لو أن نظرنا الدائم إلى الأشياء القبيحة والأليمة والذميمة لم يقتل في نفوسنا موهبة الاستقباح والاشمئزاز والرفض والقدرة على الرؤية؟

ماذا لو أن عيوننا المتكررة لم تسقط ـ بالتكرار والالف والتعويد ـ شعورنا المضاد لما في الكون والحياة والناس من دمامات وآلام ومناقضات لاشتراطاتنا واحتياجاتنا، ولنماذجنا العقلية والأخلاقية ـ فرأينا لأول مرة شيخاً كبيراً يعاني آلام وتشوهات شيخوخته، أو طفلاً يعاني آلام وتشوهات أحد الأمراض الفادحة المستعصية القبيحة الرهيبة الموجودة في كل مكان دون أن تستطيع رؤيتها أية عين ـ أو رأينا ـ لأول مرة أيضاً ـ إنساناً يموت أو يشنق أو يبكي أو يجلد أو يضرب أو يحقر أو يهان أو يبصق على وجهه أو على كرامته أو على شرفه دون أن يستطيع الدفاع أو دون أن يجرؤ على الدفاع، ودون أن يموت غضباً ورفضاً وانقهاراً؟

ماذا لو رأينا لأول مرة الدموع في عيني رجل كبير، لو رأيناه راكعاً متوسلاً توسل وركوع الاسترحام، تحت أبشع أساليب التعذيب والتحقير والاذلال والانهزام والعجز عن المقاومة أو الخوف منها ـ ماذا لو رأينا لأول مرة رجلاً كبيراً يبكي أو يتضرع أو يتوسل تحت أهوال العذاب أو الخوف أو الجبن؟ إن منظر الرجل الكبير باكياً أو متوسلاً أو راكعاً أو مسترحماً أو خائفاً أو مستسلماً أو متملقاً لهو منظر يتحول إلى حكم بالإعدام على كل ما في هذا الكون من احتمالات النبل أو الشرف أو الحب أو الجمال أو وجود الإله. إن كل ما يمكن أن تعطيه الآلهة أو ما يمكن أن يكون فيها من عبقرية أو قدرة لن يستطيع أن يكون ثمناً لهذا المنظر أو تكفيراً عنه.

ماذا لو أننا رأينا لأول مرة رجلاً واحداً مسيطراً يجن فتجن الدنيا كلها، أو يغضب فيصيب غضبه

الدنيا كلها، أو يحارب فتندفع الدنيا كلها إلى الحرب، أو يريد فيمارس إرادته ضد الدنيا كلها، أو يصاب بالغباء، أو يتعب جهازه العصبي فتعاني الدنيا كلها من غبائه ومن تعب جهازه العصبي، دافعة كل ثمن ذلك، أو يكذب فتتحدث الدنيا كلها عن كذبته، وتتناقلها بتوتر وحماس كل أجهزة الدنيا، أو يحول مجتمعاً كبيراً كاملاً إلى مساومات ومضاربات ومتاجرات واستعراضات وإلى عروض شخصية، يحتاج إليها ويريدها ويمارسها وحده استجابة لانفعالاته وتقديراته ومخاوفه ووساوسه ومطامحه الخاصة، أو يكون بذيئاً فتدق لبذاءته كل الأجراس، وتقتحم بذاءته كل الآذان، وتخطب بها كل المنابر؟ هل يهجو البشر أو الحياة أو الآلهة مثل هذا الرجل، مثل هذا الذي يحدث دائماً؟ هل يهجو مجد الأشياء مثل هذا الرجل؟

ماذا لو أننا رأينا شيئاً من ذلك لأول مرة دون أن يكون نظرنا الدائم المتكرر إلى الآلام والدمامات والمظالم والبشاعات والغباوات قد قتل فينا الشعور المضاد، دون أن يكون نظرنا المتكرر الدائم إلى الكون والحياة والناس قد قتل فينا القدرة على الرؤية الغاضبة المستبشعة؟

ماذا، ماذا، ماذا؟ أواه. ما أقسى أن نرى الأشياء قبل أن تقتل فينا عيوننا قدرتنا على الرؤية والرفض والاشمئزاز..

... هل يمكن حينئذٍ أن نرى في الكون شيئاً جميلاً أو معقولاً أو رحيماً؟ هل يمكن حينئذٍ أن نغفر له أو أن نتحدث عما فيه من أنهار أو أمطار أو سهول أو حقول أو ثروات أو جبال تتحول إلى قصائد وصلوات وموسيقى تسمعها وتقرؤها وتعزفها العيون بانبهار؟ هل يمكن حينئذٍ أن نتحدث عما فيه من ضخامة، من ضخامة في شموسه ونجومه وآفاقه وأبعاده وفي كل احتمالاته؟

هل يمكن أن نرى حينئذٍ فوقه إلهاً يطالبنا بالصلاة والشكر والحب له، وبالإيمان والإعجاب به، ثمناً لرحمته وصداقته لنا، ثمناً لنبل أخلاقه ونظافة قلبه وضخامة عبقرياته؟

هل يمكن حينئذٍ أن نذهب لنلتمس فوقه إلهاً ليكون تفسيره ومقاسه، لأنه هو لا يستطيع أن يكون تفسير نفسه أو مقاس نفسه، لأنه عظيم، عظيم؟

هل كان ممكناً حينئذٍ أن يوجد أي محراب أو منبر أو معبد لتمجيد أي شيء أو لعبادة أي شيء؟

إن المواجهة الدائمة قد قتلت في عيوننا إرادة الرؤية والقدرة عليها. لهذا ماتت فينا موهبة الاشمئزاز والاستبشاع والغضب والرفض. لهذا أمكن أن نحيا، بل وأن نضحك، بل وأن نعجب لكل هذه الأهوال من الذنوب والآلام والدمامات والتشوهات. بل لهذا أمكن ألا نصعق أو نجن أو نموت استفظاعاً لوحشية المواجهة الدائمة. إن نظرنا الدائم المكرر إلى هذا الكون المشوه قد صنع منا إنساناً قد يشك أحياناً في أن قلبه ينبض لشدة سكونه، وفي أن أعصابه تحيا لشدة بلادتها، وفي أنه يستطيع أن يقبل أو يرفض بعقله أو بأخلاقه.

... إن الرؤية هي الهول الذي لا بد أن يقتل أو يصعق أو يصيب بالجنون. لهذا كانت غير ممكنة

ولا مسموحاً بها، لهذا لم تصبح أي الرؤية مطلباً أو مذهباً أو ديناً أو تعليماً لأي معلم أو نبي أو قديس أو زعيم. لهذا كانت الرؤية زندقة وبذاءة وفسوقاً في تعاليم جميع الأنبياء والقديسين والقادة، في كل مجتمع، وفي كل عصر وفي كل مكان. لقد كان مستحيلاً في جميع العصور أن يوجد أي زعيم أو نبي أو قديس أو معلم لا يقاوم الرؤية. لقد كان الأنبياء والمعلمون والزعماء والقادة والوعاظ الذين يعلمون ضد الرؤية ويحرمونها ويشتمونها ويحمون منها هم كل الأنبياء والمعلمين والزعماء والقادة والوعاظ هم كل الزمان وكل المجتمعات وكل التاريخ... إن كل الأنبياء والمعلمين والزعماء والقادة والوعاظ يعلمون دائماً ضد أن يكون الكون أو الحياة أو الناس أو المذاهب أو الآلهة أو أي شيء مرئياً. إنهم جميعاً يخافون ذلك ويرفضونه ويعاقبون عليه. إن التعاليم ضد الرؤية والعقاب عليها هما من عمل كل الأنبياء والمعلمين وكل الزعماء والقادة والحكام، بل هما من عمل كل الناس. إن من دروس الآباء لأبنائهم والأزواج لأزواجهم أن يعلموهم ضد الرؤية.

ولكن أن يكونوا هم مرئيين فهذا هو الزندقة والإثم اللذان لا يحرمون شيئاً مثلما يحرمونهما، ولا يخافون شيئاً كما يخافونهما، ولا يعاقبون على شيء مثلما يعاقبون عليهما، إنه لا يوجد ولم يوجد زعيم أو قائد أو معلم أو نبي أو إله يقبل أن يكون مرئياً، أو لا يعاقب على رؤيته، أو لا يؤلف اللعنات على من يرونه أو على من يحاولون رؤيته أو يبيحون رؤيته. إن أشد الناس خوفاً من أن يكونوا مرئيين هم الكبار، هم الكبار جداً، هم الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة والحكام وكل الكبار جداً.

لقد كانت كل تعاليم هؤلاء وسلوكهم، واهتماماتهم ومذاهبهم وقوانينهم وأديانهم أساليب مختلفة يعنون بها كلها تحريم الرؤية ومنعها؛ رؤية الكون والحياة والأشياء والناس، ورؤيتهم هم. لقد كانوا يعنون بتجريمهم لرؤية الأشياء التحريم لرؤيتهم هم. لقد كان جعل رؤيتهم محرمة أو ممنوعة أو مستحيلة هو قصدهم دائماً من كل تحريم لكل رؤية، ومن كل تحريم لكل شيء، ومن كل شيء يدبرونه أو يريدونه أو يصنعونه. إنه لا نبوة ولا رسالة ولا مذهب ولا قيادة ولا تعاليم بدون التحريم لرؤية من جاءوا بها.

إن جميع المنابر والكتب المقدسة وجميع المذاهب والنظريات والعظات وجميع التعاليم عن الغيب وعن الثواب والعقاب الغائبين، وعن الأخلاق والاحتشام والحب والتهذيب، وأن جميع العبادات والصلوات والطقوس.ـ إن جميع ذلك ـ على أحد وجوهه وتفاسيره وحوافزه ـ ليس إلا صناعة ملابس مختلفة النوع والصيغة والقيمة والقدرة لتكون ساترة، بل لتكون سلاحاً ضد العيون الرائية، ضد العيون المحاربة بالرؤية والتحديق ـ ضد العيون المحاربة للدمامات والآلام والوقاحات التي يعيشها الكون، ويعيشها كل المعلمين والأنبياء والآلهة، وكل الزعماء والقادة والحكام، وكل الكبار جداً، وكل الصغار جداً أيضاً.

إنهم إذا قالوا لك: صل واقرأ هذا الكتاب المقدس، أو آمن بهذا الدين أو بهذا المذهب أو بهذا الزعيم، أو استمع إلى هذا الخطيب أو إلى هذا الخطاب الذي سوف يلقيه الزعيم، أو إلى هذه الموعظة

التي سوف يلقيها ذلك الشيخ أو الكاهن، فإن بعض ما يعنون أن يحرموا عليك أن ترى، أن ترى الكون أو الحياة أو الناس أو الأشياء التي أمروك بقراءتها أو بممارستها، أو بالإيمان بها أو بالاستماع إليها. وأن يحرموا عليك أكثر وأكثر أن تراهم هم، أن تراهم هم.. إن تحريم رؤيتهم هم هي كل القضية في كل حساباتهم.

إنهم حينما يقولون لك: انظر إلى الكون أو الحياة أو إلى الناس أو إلى الجمال أو إلى الشمس أو إلى النجوم أو إلى الأنهار والحقول والأزهار، أو انظر إلينا، فإنهم إنما يعنون أن يقولوا لك: لا تر، لا تر، فإننا نحرم عليك أن ترى، نحرم عليك الرؤية لأي شيء، نحرم عليك أن ترى ما ندعوك إلى رؤيته. إنهم يريدون أن يقولوا لك: مارس عينيك ضد الرؤية، مارسهما كما تمارس شهواتك وأعضاءك التناسلية، كما تمارسها بلا رؤية وضد الرؤية. مارس عينيك، مارسهما لئلا ترى بهما فالعيون تمارس لكي تصبح عاجزة عن الرؤية. فالعيون لا تمارس إلا لكي تقتل بممارستها كل ممارسات الرؤية.

إنهم إنما يريدون أن يقولوا: افرض على عينيك أن تنظر إلى الأشياء المشوهة والعابثة والدميمة والظالمة وإلى كل أساليب وأنواع العذاب حتى تتآلف معها عيناك، وحتى ترضاها وتعشقها، وحتى تراها كل الجمال والعدل والحب والنظافة والعبقرية والألوهية. إنهم إنما يريدون أن يقولوا لك: صل بعينيك، انظر كما تصلي، انظر إلى الأشياء كما تنظر إلى صلاتك، كما تنظر إلى الإله الذي تصلي له وتؤمن به. إنهم يريدون أن يقولوا لك: افقأ عينيك..

وإنهم يريدون أن يقولوا لك: انظر، انظر، انظر حتى تصبح عاجزاً عن الرؤية.. حتى تصبح تمارس عينيك كما تمارس أعضاءك التناسلية، وكما تمارس جهازك الهضمي والمضغي واللعابي، وكما تمارس غددك الصماء أو كما تمارسك غددك الصماء، أو كما تمارس الغدد الصماء نفسها وأخلاقها وتعاليمها في ذاتك وضد ذاتك ومن أجل ذاتك ـ وكما تمارس عقلك ضد أعضائك التناسلية، كما تمارس عقلك وأخلاقك ضد جوعك، وضد إحساسك بجوعك، وضد طاعتك لجوعك. وهل تمارس شيئاً من هذا ضد شيء من هذا... إنهم جميعاً يقولون لك ـ ولكن بأساليب مختلفة ـ انظر إلى عدلنا وتقوانا وذكائنا وقوتنا وإبداعنا وإصلاحنا وانتصاراتنا وإحساننا إليك وحبنا لك، وإلى جمالنا وشهرتنا وعالميتنا وإلى جميع مزايانا. ولكن ليس فيهم من يقول لك: انظر إلى نقيض ذلك فينا.. ليس فيهم من يقول لك انظر إلى عيب من عيوبنا أو إلى ذنب من ذنوبنا، أو إلى دمامة من دماماتنا مهما كان ذلك هو كل ما يوجد فيهم.

إنهم حينئذ لا يريدون بذلك أن تراهم، وإنما يريدون أن تؤمن بهم وأن تقدسهم وتطيعهم.

إنهم كذلك يقولون لك: انظر إلى جمال الكون وسخائه وخيراته وضخامته، وإلى حبه وصداقته لك، وإلى شموسه وأنهاره وحقوله وإلى أشيائه الأخرى الطيبة أو التي تبدو كذلك، ولكنهم لا يقولون لك: انظر إلى ما في الكون من عذاب وعبث وجور ودمامات وأحزان. إنهم يقولون لك: انظر إلى

سخاء الآلهة وذكائها في الطبيعة، ولكنهم لم يقولوا لك قط: انظر إلى شح الآلهة وغبائها في الطبيعة.

إنهم بذلك لا يدعونك إلى رؤية الكون، ولكن يدعونك إلى الاقتناع والاستسلام والرضا والعبادة والتقبل. إنهم بذلك يدعونك إلى اتباعهم وتصديقهم والخضوع لتعاليمهم ولكل الحماقات التي يسوقونك إليها أو يعلمونك إياها، ثم يسوغونها لك ويجرعونك إياها بالتحدث الدائم عن الجمال والذكاء والحب والصداقة والعبقرية الموجودة في الكون والحياة والآلهة وفيهم وفي المذاهب وفي كل شيء.

وكما أنهم لا يريدون منك أن تراهم حينما يقولون لك انظر إلى مزايانا، وإنما يريدون منك أن تؤمن بهم وتطيعهم وتقدسهم، فكذلك حينما يقولون لك: انظر إلى جمال الكون هم لا يريدون أن ترى الكون، وإنما يريدون أن تقتنع بأن كل شيء جميل وطيب ومعقول وصديق لكي تصبر وتخضع وتؤمن وتتعبد ـ لكي تواجه كل الدمامات والتشوهات والذنوب والعبث والآلام والأحزان، هاتفاً مصلياً شاكراً مثنياً، مقبلاً للتراب، واضعاً جبهتك على الأرض، متعبداً للإبداع والروعة والجمال والعبقرية، مصافحاً بكل أخلاقك وحبك وقلبك للإله الذي استطاع أن يفعل كل هذا وأن يعطي كل هذا، وأن يحب كل هذا الحب وأن يصادق كل هذه الصداقة.

إن رؤية الجمال والنبل والخير في الكون سبب من أسباب الطاعة والانخداع بالطغاة والزعماء والمعلمين الأنانيين الكاذبين. وإن هذه الرؤية لأسلوب من أساليب هؤلاء الطغاة والزعماء والمعلمين في إخضاع الناس لطغيانهم وأكاذيبهم وحماقاتهم ومظالمهم ولتسلطهم، بل ولرؤية أعظم مستويات الجمال والعدل والذكاء والحب والخير فيهم، أي في أبشع مستويات الدمامة والجور والبلادة والحقد والأنانية والشرور التي يمارسون ويعيشون ويحملون، بل ويعلمون ويوزعون، بل ويحولونها إلى مذاهب وآلهة وأديان وعبقريات، يقاتلون ويعادون ويشاتمون عليها وباسمها.

لقد أدركت الآلهة بذكائها الكوني، بذكائها غير الإنساني، أن الرؤية هي أقوى أعداء الآلهة، وأنها أفتك الأسلحة التي تستطيع بوحشية غير معهودة أن تنفذ إلى تشوهاتها ووقاحاتها فتفتك بها. لهذا دبرت وقررت ـ أي الآلهة ـ أن تجعل البشر عاجزين عن الرؤية، لهذا قضت بأن تخلق لهم عيوناً لكي يصبحوا عاجزين عن الرؤية بل ومقاومين للرؤية ورائين ضد الرؤية.

لقد قضت الآلهة بأن تجعل البشر عاجزين عن الرؤية فخلقت لهم عيوناً. لقد خلقت لهم عيوناً لأنها تريدهم بلا رؤية، بل تريدهم ضد الرؤية مقاومة وتدريباً.

إن الرؤية سلاح مقاتل، يقاتل كل شيء، إنها لا توقع السلام ولا الصلح ولا الهدنة مع أي شخص، في أي وقت، تحت أي ظرف، إنها أبداً سلاح مقاتل قاتل.

إن كل عمل الرؤية أن تكون سلاحاً إنها ليست إلا سلاحاً يقاتل في كل الجبهات.

أما العيون فهي منطق تسليم واستسلام وتقبل وإعجاب واعتذار. إنها تعتذر عن أقبح الذنوب

والشرور والعاهات والتشوهات لتجعل منها أجمل وأفضل وأنبل وأذكى الأشياء. لتجعل منها صفات إله وجمال إله وعبقرية إله. إن العيون ليست إلا اعتذاراً عن أبشع الدمامات والذنوب والآلام. إنها الصديق الدائم لتشوهات وآثام الآلهة والطبيعة، ولتشوهات وآثام الزعماء والقادة والمعلمين وكل الناس وكل الحشرات.

لهذا كانت الآلهة دائماً صديقة للعيون، حفية بها، متعاملة معها، مثنية عليها، محكمة لها. لقد كانت تطالبها دائماً بأن تنظر، وتنظر، لكي تؤمن وتعجب، ولكي تدعو إلى الإيمان والإعجاب، ولكي تجد في كل الأشياء، في كل العاهات والدمامات والأحزان كل أسباب الإعجاب والإيمان. لهذا كانت الآلهة دائماً صديقة للعيون، مباركة لها، آمرة بممارستها، شاكرة لها. لقد كانت الآلهة دائماً تطالب العيون بأن تنظر وتستمر تنظر لأنها تعلم أنها دائماً منطق استسلام وتقبل وإعجاب واعتذار، وأنها لا يمكن أن تكون جهاز رؤية.

مادا يمكن أن يجد البشر أمامهم لو أن عيونهم تحولت فجأة إلى رؤية وإلى تحديق في كل الأشياء؟ هل يستطيع الخيال حينئذٍ أن يتصور بشاعة ودمامة المواجهة؟

هل يقبل البشر أن يحدث ذلك؟ ولو حدث فهل يستطيعون أن يمارسوا عيونهم حينئذٍ؟ هل يستطيع حينئذٍ إنسان واحد أن يعاين منظراً واحداً من هذه المناظر، أو أن يرى عاهة واحدة من هذه العاهات؟ إن تفجر جميع المتفجرات حينئذٍ في أعصاب وأعضاء وذات إنسان ما لن يكون أكثر تعذيباً له من أن يستعمل عينيه في رؤية هذا الكون بتحديق، في رؤية أجمل الآلهة وجهاً.

هل يحتمل أن يحدث هذا في يوم من الأيام؟ هل يحتمل أن تتحول عيون البشر إلى رؤية ولكن بدون فجأة، لأن حدوث ذلك فجأة ليس احتمالاً، لكنه افتراض أو تصور فقط؟

ولعل هذا الاحتمال يساوي الاحتمال لأن يصبح البشر لا يتعاملون ولا يعملون ولا يحيون ولا يرضون أو يحسون حياتهم أو يمارسونها إلا بالمنطق، كما لا يقبلون أنفسهم أو يمارسونها أو يريدونها أو يريدون لها أو يريدون بها أو يحترمونها أو يستجيبون لها إلا بالمنطق. إن البشر لن يفعلوا غير أن ينتحروا لو أنهم لم يمارسوا أو يقبلوا أو يحترموا أو يطيعوا حياتهم وذواتهم، أو يستجيبوا للأشياء ويتعاملوا معها، إلا بالمنطق.

إن عقل الإنسان ليس للبحث عن المنطق في الأشياء ولا لممارسة الأشياء بالمنطق، ولا لتحويل الأشياء إلى منطق. إن ذلك لا يراد ولا يستطاع، إنه لا يوجد من يستطيعه أو يريده. ولكن عقل الإنسان هو جهاز تلاؤم مع الأشياء بلا منطق وضد المنطق. إنه جهاز استسلام وخضوع للأشياء، إنه جهاز تعبد وإيمان. إن العقل ليس جهازاً منطقياً، وإنه ليس حليفاً أو صديقاً للمنطق. إنه أبداً خروج على المنطق. إن جميع معارك العقل واستعمالاته ليست إلا خروجاً على المنطق.

كذلك عيناه. إنهما ليستا للرؤية ولكن للتلاؤم والاستسلام والخضوع، إنهما للتعبد والإيمان، إنهما

مثل العقل. وهل يحتمل أن تكون عينا الإنسان أقوى رؤية من عقله؟ هل يحتمل أن يكون عقله ليس للرؤية أو ضد الرؤية ثم تكون عيناه للرؤية؟

إن الصحيح أن عيني الإنسان لم تخلقا لتؤديا عملاً، أي لتكون لهما وظيفة، كما أن وجوده لم يجيء ليؤدي عملاً أي لتكون له وظيفة. لقد وجدت عيناه كما وجد أي حجر في قاع البحر أو فوق قمة الجبل، وكما وجدت أية حشرة بذيئة أو كما وجد أي مرض خبيث. لقد وجدت الأمراض والعاهات والتشوهات والحشرات، ووجدت الصحارى المجدبة والصخور الكئيبة التي تسد الطريق والتي يتعثر عليها الشيوخ والضعاف وفاقدو العيون ـ لقد وجد كل ذلك وغير ذلك بالتفسير والتعليل الذي وجدت به العيون... إنه لم يوجد شيء في هذا الكون من أجل شيء، كما أن الكون بكل كتلته، بكل جسمه لم يوجد من أجل شيء، أو من أجل كون آخر أو جسم آخر أو كتلة أخرى. إن شيئاً لم يوجد من أجل شيء. ولكن الشيء يوجد مع الشيء ومن الشيء وكما وجد الشيء. إنه كما وجد الشيء الذي فسر غيره وجد الشيء الذي فسر بغيره.

إن أعضاء الإنسان وحواسه لم توجد لأنه محتاج إليها ولا لكي تؤدي عملاً ما أو وظيفة ما، كما أن ذاته لم توجد لتؤدي وظيفة أو عملاً ما، ولا لأن أحداً محتاج إليها. إن الإنسان لا يعطي احتياجه، وإن أي شيء في هذا الكون لم يعط احتياجه، إنه لم يعط ما أعطي لأنه محتاج إليه، كما أنه لم يعط الشيخوخة والموت والأمراض لأنه محتاج إليها، وكما أنه لم يعط ذاته ووجوده لأنه محتاج إليهما. إن ما يعطاه الإنسان ضد احتياجه أكثر وأعظم مما يعطاه ملائماً لاحتياجه. وكما أن ما أعطيه ضد الاحتياج ليس استجابة للاحتياج فكذلك ما أعطيه ملائماً للاحتياج.

وإذا كان يعطى احتياجه فلماذا أعطي الاحتياج إلى احتياجه؟ أي لماذا جعل محتاجاً إلى شيء ما؟ أن إعطاءه الاحتياج إعطاء بلا احتياج. إن إعطاء الإنسان ذاته ووجوده وحياته ليكون محتاجاً إلى أشياء، ليكون محتاجاً إلى أعضائه وحواسه أسلوب من أساليب الإعطاء بلا احتياج. والإعطاء بلا احتياج يساوي في التفسير الإعطاء مع الاحتياج.

لعله لا يمكن أن يوجد الإنسان، أو أن يوجد ويعيش بدون أن تكون له عينان أو حواس. وإذا لم يكن يستطيع أن يوجد أو أن يعيش إلا بأن تكون له أعضاء وحواس فلماذا يراد له أن يوجد أو أن يعيش؟ وأي احتياج قد استجيب له بإعطاء الإنسان وجوده وحياته؟ لقد جاء الإنسان بلا احتياج إليه، وكذلك جاءت عيناه وحواسه وأعضاؤه. وبقدر ما جاءت الأمراض والحشرات دون احتياج إليها، كذلك جاء الإنسان بنفس صيغته وموهبته. إنه لم يوجد حتم من أي نوع يوجب أن تخلق للإنسان عيناه سوى حتم العشوائية وسوى الحتم الذي تفقد به عيناه.

إن احتياجات الإنسان لا حدود لها. فإن كان يعطى كل احتياجاته فإنه كان يجب أن يكون ما يعطاه بلا حدود حتى حواسه فإنها ـ كان ـ يجب أن تكون في قوتها بلا حدود، وإن عددها ـ كان ـ يجب أن يكون أكثر مما كان. لأن احتياجه إلى حواسه وإلى قوتها بلا حدود، أو هو ـ أي احتياجه ـ

أكثر مما هي، أي أكثر وأعنف من حواسه الموجودة. فإن كان احتياج الإنسان إلى عينيه هو الذي صنعهما فلماذا لم يصنعهما بقدر احتياجه إليهما، ولماذا يفقدهما إذن، ولماذا يصيبهما الضعف لتكونا أقل جداً من احتياجاته؟ ولماذا لم يعط احتياجاته الأخرى التي هي أكبر من العينين؟

أما إن كان الإنسان لا يعطى كل احتياجاته فلماذا إذن أعطي عينيه وحواسه؟ ولماذا لم يحرم من احتياجه إلى العينين وإلى الحواس الأخرى كما حرم من احتياجاته الأخرى؟ هل يحتمل أن احتياجه إلى حاسة الشم أعظم من احتياجاته الأخرى التي حرم منها؟ هل يحتمل أن إعطاءه هذه الحاسة أفضل من إعطائه الاحتياجات الكثيرة والحادة التي حرم منها؟

نعم، لماذا أعطي احتياجه إلى الحواس التي منها العينان، ولم يعط احتياجاته الأخرى إلى الأشياء الأخرى؟ إن رفض الاستجابة لكل الاحتياجات يساوي في التفسير والمعنى رفض الاستجابة لبعض الاحتياجات، وإن الاستجابة لبعض الاحتياجات يجب أن تكون استجابة لكل الاحتياجات من حيث التفسير والمنطق وإلا كانت الاستجابة رفضاً في المعنى.

ومن هو هذا الكائن الكوني الطيب الذي يفرض على نفسه وعلى عبقريته أن يعطي الإنسان وكل الكائنات الأخرى ما تحتاج إليه؟ إذن لماذا لم يفعل هذا الكائن الكوني الطيب شيئاً ليحمي هذه الكائنات التي أحدها الإنسان من الآلام والعاهات ومن الأمراض والموت والشيخوخة؟ هل افترض هذا الكائن الكوني الطيب أن العاهات والأمراض والموت والشيخوخة وكل الأحزان والآلام احتياجات جيدة من احتياجات الإنسان، أو افترض أن حمايته من هذه الآفات ليست شيئاً يستحق الاهتمام أو الممارسة لأنها آفات صغيرة، سهلة معاناتها وسهل إغفال علاجها وأن تركه لها دون حماية ليس ذنباً وليس تقصيراً؟

إن ترك الإنسان بلا احتياج وبلا من عليه بالاستجابة لهذا الاحتياج وبلا علاج له منه لأفضل له من إصابته بالاحتياج أو من فرض الاحتياج عليه، ثم معالجته منه أو من بعضه. كما أن تركي بلا مرض، وبلا إصابتي بجرح أفضل وأنبل لي من أن أصاب بمرض أو بجرح، ثم أعالج وأشفى منه.

كما أن حمايتي من الجوع والخطر والخوف والاتهام ظلماً أفضل لي من أن أجوع وأخاف وأتألم وأهدد ثم أعالج من ذلك أو من بعض ذلك علاجاً مستمراً متجدداً غير شاف لأن احتياجي إليه يظل مستمراً أو متجدداً أبداً وغير مشفي شفاء كاملاً. ثم أظل أجوع وأخاف وأتهم وأظلم وأواجه الخطر من جديد وباستمرار لكي أعالج من ذلك أو يحاول علاجي منه من جديد أيضاً وباستمرار. وهل يوجد أسلوب للسخرية والتعذيب أعظم من هذا؟ وهل يوجد هازل أعظم ممن يفعل هذا؟

إذن لماذا لم يكن هذا الأسلوب الأفضل هو ما يختاره ذلك الكائن الكوني الطيب للإنسان وغيره من الكائنات الأخرى؟ لماذا لم يحمها من الاحتياج بدل أن يفرض عليها الاحتياج ويعذبها بالاحتياج، ليذهب يعالجها من احتياجها الذي صنعه هو - ليعالجها بالمعاناة وبلا شفاء؟ إذا كان الاحتياج إلى الشيء هو الذي يوجد الشيء فقبل وجودي هل كنت محتاجاً إلى وجودي لكي أوجد استجابة

لاحتياجي إلى وجودي، أو هل كائن آخر محتاجاً إلى وجودي، فكان وجودي استجابة لاحتياجه؟

إن الأشياء لا تحدث في الطبيعة لأنها مطلوبة أو معقولة أو جميلة أو مريحة أو استجابة لاحتياج، ولكن الأشياء تحدث في الطبيعة لأنها لا بد أن تحدث. إن الطبيعة لا تفعل مستجيبة للاحتياج ولا رافضة له. إن الطبيعة لم تصنع للحشرة البصر أو أية حاسة أو أي عضو آخر لأن الحشرة محتاجة إلى ذلك، كما أنها لم تصنع نفس الحشرة أو صيغة الحشرة لأن الكون أو لأن شيئاً ما محتاج إلى وجود الحشرة وإلى أن تكون بالصيغة التي جاءت بها. وان الاحتياج نفسه لم يصنع العضو أو الحاسة أو الذات أو صيغة الذات. إن الاحتياج ليس قوة خالقة. إن حاجتنا إلى أن نكون بلا ألم وإلى أن يكون ذكاؤنا وقوتنا بلا حدود لن يجعلنا كذلك. إن القانون الذي خلق الاحتياج هو القانون الذي خلق العضو أو الحاسة التي ظنت استجابة للاحتياج.

إن الأشياء لا تحدث بالتدبير ولا بالاختيار ولا بالمطالبة ولا بالمجاملة ولا بالحاجة ولا لأن حدوثها هو الأفضل أو الأذكى أو الأكثر إعطاء للراحة أو للابتسام أو للسرور. ولكنها تحدث بالتعاقب والتراكم والتسلسل أي بالضرورة الذاتية التي لا تفسير لها. إنها تحدث ضد الحاجة بالأسلوب الذي به تحدث وكأنها استجابة للحاجة. إن مبدأ الايجاد للأشياء كان بلا حاجة، وإن جعل الشيء محتاجاً كان ضد الاحتياج. فلماذا حدث هذا؟

إن الطبيعة لا تبحث عن الوظيفة في الأشياء، إنها لا توظف الأشياء ولا تجعل لها وظائف، ولا تحاول أن توجد بين الشيء ووظيفته ـ أي وما يظن وظيفته ـ تكافؤاً أو شيئاً من الذكاء أو المنطق أو الجمال. إن كل شيء ضد الوظيفية في الأشياء. لو افترضت الحواس في الحشرة وظيفية فهل يمكن افتراض الحشرة نفسها وظيفية؟ ولو افترضت الشمس منطقاً وظيفياً في الكون فهل يمكن افتراض الكون نفسه منطقاً وظيفياً؟

إن الطبيعة لم تصنع الشمس أو النجوم أو الأرض أو الأنهار أو الجبال، أو الصحارى أو الحشرات أو الأمراض أو التشوهات أو الإنسان أو عيني الإنسان. إنها لم تصنع شيئاً من ذلك، ولم تهبه صيغته التي جاء بها لأن ذلك وظيفة ولا لأنها تبحث عن وظيفة. إن الطبيعة تصنع بالضرورة فقط. ويراد بالضرورة كون الشيء هو الشيء بلا منطق ولا تعليل ولا احتياج، وبلا خطة وبلا هدف. إنه لا يراد بالضرورة الضرورة العقلية أو الأدبية أو الأخلاقية، بل الضرورة الذاتية. إن الضرورة الذاتية لا تعني إلا كون الشيء هو ذاته بلا معنى أو قانون أو تفسير خارجي.

إن الوظيفية ليست في نفس الأشياء. ولكنها في سلوك الإنسان وفي احتياجه وفي أمانيه وتفاسيره. لقد تصور أن الشمس والنجوم والأنهار والأمطار أساليب وظيفية في هذا الكون بل في هذا العالم، كما تصور أن يديه وعينيه ورجليه وأنفه وأعضاءه التناسلية أعضاء وظيفية، ركبت فيه وأعطيت لها صياغاتها وعملياتها لتؤدي وظيفة ما. خاضعة لمنطق ما، لمريد ما. ولكن الإنسان لم يسأل بأسلوب المحاسب المقاتل: ولماذا الوظيفة؟ تؤدى لمن؟ ومن تؤدى له أو من أجله لماذا هو؟ وهل هو وظيفة أيضاً،

ووظيفة لمن؟ وإذا كان وظيفة فمن هو وظيفة له لمن هو وظيفة ـ أي من الوظيفة من أجله هو وظيفة من أجل من أو من أجل شيء؟ ومن هو المدبر لهذا التوظيف أو لهذه الوظائف المتعاقبة المتداخلة المتلازمة؟ وهذا المدبر لهذا التوظيف، أو لهذه الوظائف، هل هو أيضاً وظيفة، ووظيفة لمن؟ ومن جعله كذلك، وذلك الذي جعله من الذي جعله؟

المدبر من دبره، والذي الوظيفة من أجله هو وظيفة من أجل من أو وظيفة لأي شيء؟ السبب من سببه، والمفكر من فكره، والواهب من وهبه، والخالق من خلقه، والأول من جعله أولاً؟ ومجموع ذلك: السبب وسببه، المفكر ومن فكره، الموهوب ومن وهبه، المخلوق وخالقه، الأول وجاعله، الأول وأوله، الأول ولاحقه، الوظيفة ومن هي من أجله، الحاسة وصاحبها، العين وحاملها، الشيء ومنطقه، الشيء وأجزاؤه، الكائن وأعضاؤه، الكون وكواكبه، الكواكب ومكوكبها، الإنسان وعوالمه.

مجموع ذلك هل هو وظيفة، ووظيفة لمن؟ هل بعضه وظيفة لبعض، هل بعضه من أجل بعض؟ والبعضان من أجل ماذا؟ وهما ـ الموظف والموظف من أجله هما وظيفة لمن أو وظيفة لأي شيء؟ إنه لو كان كل كتاب موضوعاً فوق كتاب لكان كتاب ما موضوعاً على غير كتاب، ولكان مجموع الكتب ليس موضوعاً فوق كتاب.

عيناك من أجلك. وأنت وعيناك من أجل من، أو من أجل أي شيء؟ الشمس والقمر والأنهار والحقول من أجل الحياة ومن أجلك، موظفة عندك وعند الحياة. ولكن أنت والحياة والشمس والقمر والحقول والأنهار الموظفة من أجلك ومن أجل الحياة ـ من أجل من أو موظفون عند من؟ الشمس سراجك ولكن أنت وسراجك سراج لمن، أو سراجان لمن؟

أنت موظف عند الإله، والإله موظف عندك. ولكن أنت والإله موظفان عند من؟

أنت من أجل عبادة الإله، ولكن الإله من أجل ماذا؟ أنت من أجل الإله ولكن الإله من أجل من؟ وأنتما من أجل من؟.. الإله وكل شيء من أجل من أو من أجل أي شيء؟

عبادتك استجابة لإرادة الإله أو لرغبة الإله في العبادة أو لحاجته إليها. ولكن إرادة الإله لعبادتك ورغبته فيها وحاجته إليها من أجل ماذا؟ أنت تطيع الإله، ولكن الإله يطيع من في مطالبته لك بأن تطيعه؟

أنت جئت لتعبد الإله. ولكن الإله جاء لماذا؟ هل جاء ليكون معبودك؟ أي هل جاء لأنك أنت لا بد أن تعبد شيئاً فجاء لتجد هذا الشيء الذي لا بد أن تعبده؟ وإذن أنت لماذا جئت لتكون محتاجاً إلى عبادة شيء؟ إذا كان تعبدك تخلصاً من مجيئك أو ثمن مجيئك فمجيئك تخلص مماذا، أو ثمن لماذا؟ إذا كان الإله قد خلقك وجاء لكي تستفرغ عليه همومك وتفاهاتك فأنت لماذا جئت أو خلقت أو لماذا جئت أو خلقت مصاباً بالهموم والتفاهات المحتاجة إلى الاستفراغ؟

إذا كنت أنت محتاجاً إلى أن تكون عابداً فلماذا جئت كذلك؟ وإذا كان الإله محتاجاً إلى أن

يكون معبوداً فلماذا جاء كذلك؟ إذا كان الشيء لا بد أن يحقق صفاته ووظائفه واحتياجاته أو يحاول تحقيقها فلماذا جاء بهذه الصفات والوظائف والاحتياجات؟ بل فلماذا جاء؟ إذا كان محتوماً عليك أن تكون مستجيباً لذاتك فلماذا جئت بذاتك؟ إذا كانت تحكمك ذاتك فمن الذي حكم ذاتك ـ فمن الذي صاغ ذاتك لتكون حاكمة لك؟ ولماذا؟

لماذا جاءت الأعضاء التناسلية في الإنسان وفي الكائنات الأخرى، ولماذا جاءت بهذا الجوع وبهذه الوقاحات؟ لماذا جاءت بوظيفتها؟ لماذا جاءت بهباتها؟ أي احتياج إلى ذلك، من المحتاج إليه، من المدبر له؟ ما حاجة هذا المدبر إلى تدبيره؟ من صنع فيه حاجته هذه؟ من وضع فيه القدرة على هذا التدبير؟ هل يوجد مدبر أعلى يسعد بوجود هذه الأعضاء التناسلية وبممارساتها الفضاحة؟ ومن وضع فيه هذه السعادة، ولماذا جاء محتاجاً إلى رؤية ممارسيها المفتضحين؟ ومن الذي عاقبه بأن جعله محتاجاً إلى مشاهدة هذا الافتضاح؟

هل يوجد أي احتمال بأن وجود الأعضاء التناسلية بقدرتها وأسلوبها المشهودين احتياج من احتياجات الطبيعة أو من احتياجات أي كائن في الطبيعة أو فوق الطبيعة أو من وراء الطبيعة؟

وهل يوجد أي احتمال بأن وجود الحياة أو وجود التناسل حاجة من حاجات الطبيعة أو من حاجات أي كائن آخر؟ هل تموت الشمس لو لم يوجد التناسل والحياة؟ ولو ماتت الشمس ولم توجد الحياة فمن ذا يخسر أو يموت؟ ولو ماتت جميع الآلهة التي تخلق الأشياء فمن ذا حينئذٍ يخسر أو يموت أو حتى يعرف؟

لقد جاءت الأعضاء التناسلية وجاءت عملياتها البذيئة دون أن تكون احتياجاً لأحد، حتى ولا احتياجاً لنفسها. لقد جاءت كما يجيء موتها وعجزها وشيخوختها. لقد جاءت كما تجيء الأمراض والآلام والأحزان والعاهات والنقائص والزلازل والبراكين. لقد جاءت كما تجيء الصحارى والجبال والقحط والحشرات المحاربة للحياة. لقد جاءت جزافاً، جاءت بلا حاجة ولا وظيفة بل لقد جاءت ضد الحاجة والوظيفة، لقد جاءت كما جاءت الحاجة والوظيفة. إنها ليست استجابة للحاجة والوظيفة كما أن الحاجة والوظيفة ليستا استجابة لحاجة أو وظيفة.

* *

«إن الوظيفة هي التي خلقت العضو». «إن الحاجة هي التي خلقت العضو». «إن الاستعمال هو الذي خلق العضو».

«إن أيدينا وأرجلنا وأعيننا وكل أعضائنا وحواسنا إنما صنعتها وظيفتها ـ إنما صنعها الاحتياج إليها ـ: احتياجنا واحتياج حياتنا إليها ـ إنما صنعها استعمالها، استعمالنا لها، الدائم المتكرر المفروض على احتياجنا إليها وعلى احتياج الحياة إليها، أو الذي فرضته الحياة علينا..». «إن الحياة والوجود يدبران لنفسيهما، إنهما يدبران ما يلائمهما، إنهما يصنعان التلاؤم مع احتياجاتهما وظروفهما وكأنهما خالقان مبدعان ذكيان. إن جميع أعضائنا وحواسنا من إبداع هذا التدبير للتلاؤم».

هل صحيح هذا؟ أليس هذا يساوي القول: بأن الجبال والأنهار والصخور والرمال والتراب والأودية بكل صفاتها وحدودها وأعماقها وأبعادها وارتفاعها وأماكنها وتاريخها وأوزانها وألوانها وأعضائها وآفاتها وعاهاتها وجمالها ودماماتها.

إن ذلك كله إنما خلقته وصاغته الوظيفة أو الحاجة أو الاستعمال؟

أليس هذا يساوي أن يقال: «إن الشموس والنجوم والأرض وجميع الأكوان المرئية وغير المرئية، المعلومة وغير المعلومة، بكل هيئاتها ومستوياتها وتعدادها واحتمالاتها وأعمارها، وبكل قوتها وضعفها، وبكل إشراقها وإظلامها، وبكل حكمتها وسفهها، وبكل إسرافها وبخلها.

«أفما خلقتها وأعطتها كل صيغها وأخلاقها وتفاسيرها ومعانيها الوظيفة أو الحاجة أو الاستعمال المتكرر الدائم؟»

أليس هذا يشبه أن يقال: إن الاستعمال أو الوظيفة أو الحاجة هي التي أخرجت الإنسان بكل صيغه كما هي بلا تغيير وبلا مزيد وبلا نقصان وبلا تحسين وبلا تعديل وبلا مراجعة وبلا قراءة أو دراسة جديدة له، لأن هذا الإخراج بهذه الصيغة هو الملائم والمساوي وحده للاستعمال وللحاجة وللوظيفة؟

أليس هذا يشبه أن يقال: إن الاستعمال أو الوظيفة أو الحاجة هي التي جعلت له يدين فقط ولم تجعلهما أكثر، وجعلتهما بحجمهما وبعدد أصابعهما وبمكانهما ـ وجعلت له رجلين فقط بحجمهما وطولهما وتعداد أصابعهما وقوتهما وبكل صفاتهما واستعمالاتهما ـ وجعلت له عينين فقط بمكانهما وقدرتهما ولونهما وحدودهما واتساعهما وضيقهما وجمالهما ودمامامتهما ـ وجعلت جسمه وذاته كما هما بكل ما فيهما من أعضاء وأجهزة ووظائف واستعدادات وخصائص وقوة وضعف وذكاء وغباء وموت ومرض وخوف وانهيار وهزائم وجوع ـ بكل نماذجهما ومستوياتهما وحدودهما واحتمالاتهما، لأن جعلهما أي جعل جسمه وذاته ـ كما هما هو وحده الملائم لاستعمالهما ولوظيفتهما ولاحتياجاتهما، وأن أي تغيير في ذلك ولو إلى الأفضل والأقوى ينافي الاستعمال والحاجة والوظيفة؟

هل يجرؤ أي منطق أن يقول إن الاستعمال أو إن الحاجة أو الوظيفة ترفض أو تنافي أن يكون نموذج الإنسان: نموذج ذاته وجسمه وأعضائه وحواسه ومشاعره وأفكاره وقوته وضعفه وذكائه وغبائه وحياته.

أن يكون كل ذلك أو بعضه على غير ما كان عليه، أن يكون أفضل وأقوى، أن يكون مغايراً؟

هل يجرؤ أي منطق على الزعم أو على الاقتناع بأن الاستعمال أو الوظيفة أو الحاجة هي التي حتمت أن يكون الإنسان ـ أن يكون جسمه وذاته وكل صفاته واستعداداته واحتمالاته، أن يكون كل شيء كما كان، بلا زيادة أو نقصان أو تغيير أو تعديل؟ هل يجرؤ منطق على زعم ذلك أو على الاقناع به؟ هل يجرؤ أي منطق؟

هل يجرؤ أي منطق أن يزعم أو يقتنع بأن الاستعمال أو الوظيفة أو الحاجة ترفض أن تكون عينا

الإنسان أكثر مما كانتا أو أقوى أو أجمل أو أقدر على الحياة والعمل والبقاء والتحمل وعلى التسديد والبعد في الرؤية، أو ترفض أن يتغير مكانهما، أو أن يكون في قفاه عيون أو عينان أو عين كما في وجهه؟

هل يجرؤ أي منطق أن يقتنع أو يزعم ـ هل يجرؤ؟

هل يجرؤ أي منطق على الزعم أو الاقتناع بأن الاستعمال أو الحاجة أو الوظيفة هي التي حتمت أن تخلق هذه الحشرة، وأن تكون بهذا النموذج وبهذا العدد وبهذه الأخلاق والصفات؟ هل يجرؤ أي منطق على الزعم أو الاقتناع بأن خلق هذه الحشرة وكما خلقت هو وحده الملائم لاستعمال أو لوظيفة أو لحاجة الإله أو الطبيعة أو الحشرة نفسها؟

إن الاستعمال لا يكون إلا بعد وجود الشيء. إذن لا يمكن أن يكون استعمال الشيء هو الذي يوجده. وأن الوظيفة والحاجة في العضو وإلى العضو لا تكونان إلا بعد وجود الذات. إذن لا يمكن أن تكونا هما اللتين توجدان الذات، كما لا يمكن أن تكونا هما اللتين توجدان العضو.

إنه نوع من اللاهوتية الزعم بأن الاستعمال أو الوظيفة أو الحاجة هي التي توجد الأشياء وتصوغها وتصوغ نماذجها ومستوياتها وصفاتها. إنها لاهوتية، إنها اقتناع بالتدبير والقصد وبتوظيف الأشياء حيث لا قصد ولا تدبير ولا وظيفية في الأشياء. إن المنطق اللاهوتي ليس هو فقط المنطق المؤمن بالإله.

إن العقائد اللاهوتية تقول: إن الآلهة هي التي تخلق الأشياء بالتدبير وتهبها قدراتها وصفاتها لتؤدي وظيفة ما. إن هذا التفكير أو الاعتقاد يساوي التفكير أو الاعتقاد الذاهب إلى أن الاستعمال أو الحاجة أو الوظيفة هي التي تخلق الأشياء بالتدبير أيضاً لتؤدي وظيفة ما. إن المنطق الذي يبحث عنه التدبير وعن الوظيفة في الأشياء هو منطق لاهوتي وإن أنكر الآلهة. لقد آمنا بالآلهة لأننا لاهوتيون، ولم نؤمن بالآلهة لأننا وجدناها أو عرفناها أو أحببناها أو لأن من مصلحتنا أن تكون موجودة.

وإذا سئل الاعتقاد اللاهوتي: ولماذا هذه الوظيفة؟ ولماذا مؤديها، ولماذا العضو الذي يقوم بها؟ ولماذا من يحتاج إلى هذا العضو؟ ولماذا يجيء محتاجاً إليه؟ ولماذا يستجاب إلى احتياجه؟ ولماذا القصة كلها ـ من يستفيد منها؟ من يحتاج إليها؟ من يسعد بمشاهدتها، ومن يفرضها؟ لماذا الشيء وتوابعه ولوازمه ونتائجه؟ لماذا العضو وصاحبه؟

إذا سئل الاعتقاد اللاهوتي بهذه الصرامة وبهذا الأسلوب لم يكن عجزه أو حيرته أو هزيمته أعظم من عجز وحيرة وهزيمة القائلين بأن الاستعمال أو الوظيفة أو الحاجة هي الخالقة والمدبرة والواهبة للأشياء بكل صيغها وصفاتها ومستوياتها لو سئلوا نفس هذه الأسئلة بنفس الصرامة والإصرار والأسلوب. إن القول بأن الآلهة هي التي خلقت أعضاءنا لتؤدي وظائفها ليس أضعف ذكاء من القول بأن الحاجة أو الوظيفة هي التي خلقتها.

إذن فعينا الإنسان لم تخلقا لأنهما وظيفة أو لأنهما حاجة أو لأنهما عمل، أو لأنهما رؤية.

إن عيني الإنسان لم تخلقا ولم تدبرا ولم تختارا ولم توظفا. لم ترهما الآلهة أو الطبيعة طريقهما الطويل الحالك، ولم تر بهما جمالها أو نظافتها. إن عيني الإنسان لم تخلقا ولم تدبرا ولم تختارا ولم تصاغا ولم توظفا، ولكنهما جاءتا فقط، جاءتا فقط. لقد جاءتا بالمنطق الذي جاءت به التشوهات والعاهات. لقد جاءتا كما تجيء الحشرات، وكما تجيء الآلهة والطغاة ليقتلوا ويعتقلوا ويعاقبوا عيوننا، ليسلبوها شجاعتها. وكما يجيء المعلمون الأغبياء ليفسدوا ذكاء وأخلاق عيوننا، ليفقدوها القدرة على الرؤية، بل ليحولوها إلى أجهزة تزوير، ترى كل الجمال والذكاء والصدق والمنطق في كل القبح والغباء والكذب والعبث.

إن كل شيء في الطبيعة يجيء فقط، يجيء لأنه يجيء لا لأنه وظيفة أو حاجة أو منطق أو تدبير. إن الطبيعة كلها مجيء، إنها لا تساوي ولا تعني إلا المجيء. إن مجيء الطبيعة بلا تفسير أو تدبير أو تخطيط أو وظيفة أو حاجة هو كل التخطيط والتدبير والحاجة والوظيفة والتفسير للطبيعة وفي الطبيعة. إنه مجيء فقط، إنه مجيء لا يمكن فهمه أو تفسيره أو حتى غفرانه، إنه مجيء لا يمكن أن تفهم له وظيفة أو منطق أو خطة. ولأنه مجيء هو كل المجيء فإن كل مجيء قد حدث بلا وظيفة وبلا منطق وبلا خطة وبلا احتياج إليه.

حتى الآلهة ـ إذا كانت قد جاءت ـ إنها ليست إلا مجيئاً فقط. إنها ليست تدبيراً أو حاجة أو وظيفة أو خطة، إنها مجيء فقط. إنها ليست مجيئاً ـ إن كانت قد جاءت ـ ولكنها سقوط، سقوط فقط، إنها سقوط أليم. لقد سقطت الآلهة على نفسها وعلى الكون وعلى الناس إن كانت قد جاءت. إنها لم تجئ على قدميها ولا بشهوتها ولا بتدبيرها، إنها لم تجئ محمولة على رؤوس الناس أو على رؤوس الحشرات أو على هامة الطبيعة تحت دوي هائل من الهتاف والصلوات. إنها لم تجيء بدعوة باكية مسترحمة موجهة إليها من الناس أو من الحشرات أو من الطبيعة. إنها لم تجيء لأنها حاجة أو وظيفة أو جمال أو علاج لشيء أو حل لمشكلة. إنها قد جاءت إن كانت قد جاءت عدواناً على نفسها وعلى الطبيعة وعلى الناس وعلى كل شيء. إن الآلهة لم تجيء إن كانت قد جاءت لأنها وظيفة أو مطلب أو احتياج أو جمال، بل لأنها مجيء عدواني.

لقد جاءت عيوننا كما جاءت الآلهة، لقد سقطت علينا عيوننا كما سقطت علينا الآلهة ليس لأنها حاجة أو وظيفة أو تدبير أو رؤية، ولكن لأنها سقوط. لقد سقطت علينا عيوننا كما يسقط علينا المرض والموت والشيخوخة. إن الشيخوخة أو المرض، أو الموت لا يسقط على عيوننا لأنه وظيفة أو احتياج أو تدبير، وكذلك عيوننا هي لا تسقط علينا لأنها وظيفة أو احتياج أو استعمال.

إن كل شيء فينا وفي الكون سقوط، إن كل شيء سقوط لا احتياج ولا توظيف ولا استجابة لطلب. إن أي شيء لم يأت عزاء أو مجاملة أو تحية أو استجابة لشيء حتى ولا استجابة للآلهة. إن أي شيء لا يجيء لحساب شيء حتى ولا لحساب نفسه. إن اي شيء لا يجيء بحساب ماإن كل شيء يجيء ضد كل حساب.

إن الشمس لم تأت مجاملة وتحية لعيوننا، وإن عيوننا لم تأت ابتهاجاً بالشمس أو شكراً لها على سخائها أو تحديقاً في جمالها. إن الآلهة لم تأت تمجيداً للإنسان، إنها لم تأت احتفاء بمجيئه وبعذابه وبهوانه وبجوعه وبفضائحه ثم بمرضه وشيخوخته وموته. وإن الإنسان لم يأت لكي يستقبل الآلهة، لكي يصلي لها، لكي يشبع جوعها إلى أن تعبد وتطاع وتهون لها الهامات والقامات والعقول والأخلاق ـ لكي يشبع جوعها إلى التفرد بالكبرياء والقهر وبالعبث العظيم، أو إلى الدموع والأحزان والآلام تقاسى أمامها وفي ضميرها.

إن الإنسان لم يأت لكي يكون سروراً وعزاء للآلهة الحزينة المصابة بالأنانية المتوحشة. إنه لم يأت ليكون ضحكات للآلهة المريضة بالكآبة الرهيبة المستعصية. إنه لم يأت ليقتل أحزان الآلهة بآلامه وتفاهاته وضعفه وتعريه وبممارساته المملوءة بالبذاءة والافتضاح والجوع، وبأغانيه ورقصاته المبتذلة. إنه لم يأت ليكون فناناً في تعليم الآلهة مبادىء السرور وجمال الضحك، أو ليقتل من حياتها الفراغ الكئيب العقيم.

إن الإنسان لم يأت لكي يمارس مسراته وهمومه في عيون الآلهة وفي قلوبها لكي تنسى مشاكلها وتبعاتها العقيمة، ولكي تتحمل وحدتها الموحشة أو لكي تتعلم منه الصبر والاحتمال أو لكي تتعلم منه الرحمة والذكاء والحب والتواضع والنظام، أو لكي تتعلم منه الرحمة والذكاء والحب والتواضع والنظام، أو لكي تتعلم منه الحضارة والنظافة والرخاء والمستويات الجديدة الجيدة أو لكي تتعلم منه القوة والمنطق والذكاء. وهل يوجد من يحتاج إلى أن يتعلم كل ذلك لأنه يفقده كله مثل الآلهة؟

وهل يوجد من يحتاج إلى أن يتعلم مثل الآلهة؟ وهل يوجد عاجز عن أن يتعلم مثل الآلهة؟

إن الإنسان لم يأت لتتعلم منه الآلهة الارتجاف أمام دموع المعذبين والمقهورين والمفتضحين، أو لتتعلم منه احترام الشيوخ وحب الأطفال، أو لتتعلم منه الحياء والخجل والوقار والتهذيب والإنسانية.

إن الإنسان لم يأت لكي يعلم الآلهة ويفسر لها أخلاق وعبقرية الألوهية، لكي يدربها على معاناة واكتساب هذه الأخلاق وهذه العبقرية. إنه لم يأت لكي يفسر لها البعد الهائل بين حقيقتها وبين وظيفتها، أو بين ما تدعيه لنفسها وما يراد منها، أو بين ما تفعله وتستطيعه، أو بين دعواها ومستواها.

إن الإنسان لم يأت لكي تكون نقائصه وذنوبه إغراء للآلهة بالمزيد من نقائصها وذنوبها، أو لكي تكون ذنوبه ونقائصه اعتذاراً عن ذنوبها ونقائصها.

إن الإنسان لم يأت لكي ترى الآلهة أخلاقه وتخجل من أخلاقها ـ فتحاول أن تأخذ عنه مستوى أخلاقه.

إن الإنسان لم يأت ليكون تعويضاً للآلهة عن حرمانها من الزوجة والأبناء والأشباه.

إن الإنسان لم يأت ليكون شاعراً مغنياً على أبواب الآلهة ـ على أبوابها المغلقة ـ على أبواب الآلهة التي يدعى على الوقوف بها وإلى قرعها كل الناس، دون أن تفتح لأحد منهم.

إن الإنسان لم يأت ليكون دواء لغيرة الآلهة المفترسة التي تريد أن يكون لها كل الحب والاحترام والإيمان والصلاة والخلود والكبرياء والطفولة المستبدة ـ والتي تغار وتغار، وتصغر وتصغر في غيرتها حتى لتذهب تغار من الأصنام والأوثان الترابية، ومن الحيوانات والحشرات، ومن الناس ومن الأطفال أن يكونوا لها شركاء، أو يوهبوا شيئاً من الإيمان أو الاحترام أو الصلاة أو التقديس. حتى لتذهب تخشى منافسة الأحجار والأشجار والموتى لها على المجد والوحدانية. حتى لتذهب تعاقب من جنون غيرتها على حب الأطفال وعلى الاشتغال بتقبيلهم عن الصلاة لها، وعن الاشتغال بالثناء عليها، وبتقبيل توابيتها، وبتشييد قبورها، وبالبكاء في محاريبها بلا كرامة ولا وقار ولا سمو.

إن الإنسان إذن لم يأت من أجل الآلهة، وإن الآلهة إذن لم تأت من أجل الإنسان.

إذن لماذا جاءت، ولماذا جاء؟ لماذا جاءت الآلهة إذن؟ هل جاءت لتعاني وتتعذب فقط؟ ولماذا جاء الإنسان إذن؟ هل جاء ليجوع إلى الجنس والطعام والنوم ليمارس جوعه أو يعجز، ليكرر الجوع والممارسة أو العجز، ثم يموت دون أن يشيعه أو يعلم به أو يحزن له أحد؟

إن الشيء ينبت في نفسه، أو ينبت نفسه، أو تنبته نفسه، كما تنبت فينا العيون دون أن تكون لها وظيفة ودون أن يراد منها أن تكون لها وظيفة، وكما تنبت الأمراض الخبيثة في أجسام الأطفال، وكما نبتت الأرض في الكون، ونبتت الجبال في الأرض، ونبتت الصخور في الجبال، ونبتت الأعشاب والحشرات في الصخور، ونبتت الأوهام والأكاذيب والمخاوف في العقول، ونبتت العقول في الرؤوس دون أن يدعوها أو يعلم بها أو يدبرها أحد. إن الوظيفة أو الحاجة لم تخلق العيون في الوجوه إلا بقدر ما خلقت أي الوظيفة أو الحاجة الصخور في الجبال.

إن كل شيء إذن ليس إلا عملية إنبات في نفسه وضد نفسه، بلا وظيفة أو احتياج أو استعمال أو منبت. حتى الآلهة، لقد نبتت في نفسها وضد نفسها دون أن تكون لها وظيفة ودون احتياج إليها أو احتياجها هي إلى نفسها، ودون أن يصنعها الاستعمال، ودون أن يكون لها مريد أو مدبر أو منبت، بل ودون أن تريد نفسها أو تدبرها أو تختارها أو ترضى بها أو ترضى عنها. إن الآلهة هي أشهر الكائنات التي نبتت في نفسها وضد نفسها وضد كل شيء دون أن تدبر هي أو غيرها لها ذلك، ودون أن يراد أو يعرف لماذا أو كيف.

إن الآلهة لم تدبر أن تكون موجودة بقدر ما هي موجودة، وموجودة بقدر الاحتياج إليها واحتياجها إلى نفسها، وبقدر ما لها من وظيفة، وبقدر ما صاغها الاستعمال لها واستعمالها هي لنفسها.

إن الآلهة لم تدبر أن تكون موجودة كذلك إلا بقدر ما دبر الحجر أن يكون موجوداً كما هو موجود، وبقدر ما دبر الأنف الدميم في الوجه الدميم في المخلوق الدميم أن يكون دميماً كما كان، في ذلك الوجه، وفي ذلك المخلوق، ليكون حزناً كاملاً أو اغتباطاً أثيماً لمنافسه أو لحاسده أو لحامل نقيضه.

إن جميع لغات البشر في كل تاريخهم، جميع لغات شعرائهم وأنبيائهم ووعاظهم ومفكريهم وعلمائهم المتحدثة عن الحكمة والمنطق والتدبير والاختيار والحاجة والوظيفة والاستعمال الخالق للعضو، وعن كل معاني الخلق والإبداع والاصطفاء في الطبيعة وفي كل الأشياء ـ إن جميع هذه اللغات ذات التعبيرات الهائمة المقروءة غير المفسرة، والمفسرة غير المساءلة، والمساءلة غير المجيبة، والمجيبة غير الفاهمة أو المقنعة.

إن جميع هذه اللغات والتعبيرات إنما تعني تعبيراً واحداً لا يعني إلا معنى واحداً وتفسيراً واحداً. إن جميع هذه اللغات والتعبيرات لا تعني إلا كلمة «الإنبات» التي لا تعني إلا أن الشيء ينبت في نفسه وينبت نفسه ضد نفسه بلا وظيفة أو حاجة أو استعمال، وبلا تدبير أو اختيار أو اصطفاء أو طلب أو منبت.

وهكذا كانت عيوننا، لقد جاءت كنبات، جاءت مثل شيء ينبت بلا تدبير أو تفسير، ولم تجيء كوظيفة، لتؤدي وظيفة.

إن عيوننا لم تجيء لتكون رؤية، ولتكون أي شيء. إن عيوننا ليست وظيفة وليست بحثاً عن وظيفة. إن عيوننا مثل الكهف في الجبل أو الشق في الجدار أو الحفرة في الأرض. إنها مكان فقط وليست وظيفة.

إن أي شيء في هذا الكون ليس وظيفة ولا يمكن أن يكون وظيفة ولا يراد له أن يكون كذلك. لأن الكون كله ليس وظيفة، ولا يوجد من يريد أو من يستطيع أن يجعله وظيفة.

إنه لو وجد من يمكن أن يكون الكون وظيفة عنده لكانت الآلهة هي وحدها التي الكون وظيفة أو موظف عندها. ولو كان الكون وظيفة أو موظفاً عند الآلهة لما كان هناك أسوأ حظاً من الآلهة في موظفيها وفي التوظيف لها ولديها.

* *

ولكن ما هو الجمال، وما الدمامة؟ وهل يوجد جمال أو توجد دمامة؟ هل هما شيئان، هل هما شيء واحد؟ هل توجد حدود بينهما؟ هل ترى هذه الحدود؟ ما هي هذه الحدود؟ هل خططها أحد؟ هل رآها أحد؟ هل اعترف بها أحد؟ هل رضي بها أحد؟ هل تحولت إلى قرار دولي؟ هل تحولت إلى أي قرار على أي مستوى؟ هل أقرها أي دين من الأديان أو أي مذهب من المذاهب أو أي معلم أو مفكر في العالم؟

متى وضعت هذه الحدود؟ ومن وضعها؟ هل هم الشعراء؟ هل هم العلماء؟ هل هم الأنبياء، هل هم المفكرون، هل هم الفنانون، هل هم القادة والزعماء، هل هم الجماهير، هل هم السعداء، هل هم المعذبون، هل هم الضعفاء، هل هم الأقوياء، هل هم المصابون بالجمال، هل هم المصابون بالدمامة، هل هم الذين يرون، هل هم الذين لا يرون؟ هل وضعت هذه الحدود بالتقليد، هل وضعت بالابتكار؟

هل رآها الناس أم آمنوا بها؟ هل رأوها كما رأوا الله أم كما رأوا الموت والعذاب والغباء؟ هل آمنوا بها تعليماً أم تفكيراً؟ هل سمعوا فصدقوا، أم رأوا ووجدوا فانبهروا؟

هل يوجد جمال، هل توجد دمامة؟ هل هما شيئان؟ من وضع هذا، من وضع هذه؟ أين يوجد هذا، وأين توجد هذه؟ لماذا يوضع هذا هنا وتوضع هذه هناك ـ لماذا، لماذا؟

هل يوجد هذا بدون هذه، وهل توجد هذه بدون هذا؟ هل يمكن أن يسكن أحدهما في هذا البيت دون أن يسكن معه شيء من الآخر؟ هل يمكن أن يدخل أحدهما الجنة ويدخل الآخر النار دون أن يدخل كل منهما مع الآخر، دون أن يدخلا معاً النار، دون أن يدخلا معاً الجنة ـ دون أن يدخل أهل النار الجنة، ويدخل أهل الجنة النار؟

هل رأى الجمال نفسه، هل عرف نفسه، هل عاش نفسه، هل لمس نفسه، هل آمن بنفسه؟ هل رأت الدمامة نفسها، هل عرفت نفسها، هل عاشت نفسها، هل لمست نفسها، هل آمنت بنفسها؟ هل اعترف كل منهما بالآخر، للآخر، هل رأى كل منهما الآخر، هل عرف كل منهما حدود الآخر؟ هل اقتنع كل منهما بنفسه، برؤيته لنفسه وبمعرفته لنفسه، أم برؤية الآخرين وبحديثهم وباقتناعهم وبأهوائهم وبحبهم وبغضهم، وبمقاييسهم، وبجوعهم، وبتعبهم، وبضلالهم وبأكاذيبهم وبتلقينهم وبتقليدهم؟ هل عشق الجمال نفسه، هل جاع إليها، هل مارس نفسه كعاشق، هل أحس بنفسه إحساس الاستمتاع الممارس؟ هل استمتع الجمال بنفسه كأنه عاشق جائع يعالج جوعه؟

هل الجمال موجود؟ ما هذا الساحر العالمي الكوني الأبدي الذي فتن الحياة وفتن التاريخ وفتن كل البشر؟ ما هذا الساحر الذي استعبد كل العيون، وكل القلوب، وكل الأخلاق، بل وكل المذاهب والأديان؟

ما هذا الفاسق الذي أفسد كل الأخلاق والنيات والعقول والقلوب حتى أخلاق ونيات وعقول وقلوب كل الأنبياء والقديسين والمعلمين والمحرمين لكل المسرات واللذائذ؟

ما هذا الوثن الكوني الذي تصلي له كل الجباه في كل المحاريب بكل اللغات بكل الكتب المقدسة، بكل الأساليب، بكل العشق والافتضاح؟

ما هذا الذي تتحدث عنه بتعبد وانبهار وانتهار كل الآلهة، والأنبياء والشعراء والوعاظ والأطفال والشيوخ والجائعين والأقوياء والضعفاء، والأذكياء والأغبياء، وكل الأتقياء والفاسقين، والمؤمنين والمتمردين، وكل الناس؟

ما هذا الذي يتحدث عنه كل العالم دون أن يشك فيما يتحدث عنه: في وجوده أو في حدوده، أو في معرفته، أو في الاتفاق عليه، أو في صفاته ـ ودون أن يفسره أو يحدده أو يثبته أو يقنع به، أو يشير إليه، أو يسأل عنه ـ ودون أن يكون فناناً أو شاعراً أو عالماً أو خبيراً أو ذكياً أو متعلماً، أو حتى قارئاً، أو حتى نظيفاً، أو حتى محباً، أو حتى مفرقاً بين الألوان والمناظر، أو حتى مفضلاً النور على

الظلام، أو عارفاً الفرق بينهما ـ بل دون أن يكون مبصراً، أو قادراً على أن يكون مبصراً؟ ما هذا الفنان الذي يدرك فنه ويعجب به ويتحدث عنه جميع من لا يعرفون عن الفنون أي شيء؟

ما هذا الذي يراه، ويجده، ويعرفه ويتحدث عنه كل إنسان، ويبالغ في الإيمان به، والإحساس به، والجنون به، والتعبد له والنضال لخلقه وتعميمه والوصول إليه ولامتلاكه، كل الناس حتى من لا يملكون أي مستوى من الجمال النفسي أو الفكري أو الأخلاقي أو الإنساني، ولا أي مستوى من الحماس أو الانفعال أو الحب أو المعرفة أو الرؤية أو المقاومة أو التطلع أو الرفض أو الغضب أو الكبرياء.

حتى من لا يملكون أي مستوى من النظافة أو السمو أو الاشتراط أو الثقافة أو الحضارة أو الممارسات الجميلة أو الظروف الواهبة المعلمة الفنانة؟

هل الجمال رؤية أم إحساس أم قراءة أم تقليد أم تشريع أم سماع أم تكرار، أم هو جوع وتعب وفرار ومعاناة نفسية أو عقلية أو تاريخية أو اجتماعية، أو أية معاناة؟

هل الجمال تلقين كالإيمان بالله وبصفاته وبجماله، أو كالإيمان بالأنبياء وبالملائكة، بذكائهم وبجمالهم، وبأخلاقياتهم؟

هل الجمال وجود ما، أم شوق ما، أم حالة ما؟

هل الجمال يساوي نفسه أم يساوي جوعنا وألمنا وهربنا وأحزاننا وضياعنا وظروفنا وحالتنا النفسية والاجتماعية والتاريخية والصحية والحضارية؟ هل الجمال في عيوننا ومنطقنا ومقاييسنا الجمالية والعقلية والأخلاقية، أم هو في أعضائنا وغددنا وأعصابنا ـ هل هو هجوم منا أم هجوم علينا؟

هل جمال البحر والقمر والنجم والصباح والزهر يساوي البحر والقمر والنجم والصباح والزهر، أم يساوي جوع الإنسان والطير والحشرات وحاجتها إلى أن تهتف وتغرد وتصلي وتمارس وتهرب وتفتضح؟

هل القمر جميل أم نحن مفتونون وضالون ومتلهفون ومتطلعون ومحزونون وناظرون بلا عيون؟

هل الحياة أو الكون أو الطعام أو النوم أو الغناء أو الرقص أو التفكير أو الإيمان أو المذهب أو الإله أو الزعيم أو المعلم جميل أم الإنسان جائع ومعذب ومتعب وحزين وهارب ومعبر باللغة والحركة والصوت والأنين والاتضاع والافتضاح؟ هل شيء من ذلك جميل أم الإنسان خائف وراكع وتابع وهاتف وضارع وضائع ومحكوم عليه بالاقتناع بشيء ما؟ هل حياة الحشرة أو طعامها أو مكانها جميل أم هي جائعة وممارسة وحشرة؟

هل الإنسان في رؤيته للجمال وإحساسه به أصدق أو أذكى من الحشرة؟ هل الحشرة في رؤيتها للجمال وإحساسها به وممارستها له فنانة أو ذكية؟ هل هي تعبير صادق عن جمال الكون أو جمال الحياة أو جمال الآلهة؟ هل الذباب مغرداً ومتراقصاً يعبر عن جمال ما يرى ويمارس، أم عن مستواه

هو؟ هل هو تعبير عن جمال الكون أم عن حالته؟ هل الإنسان ـ مصلياً هاتفاً ـ يعبر عما يجد ويرى أم عن حالته هو؟

هل الحشرة ذكية أو نظيفة أو شاعرة أو متحدثة عن جمال الإله وعن حبه ونظافته، أو عن جمال الطبيعة وعن حبها ونظافتها حينما تمارس علاقاتها الجنسية وتجن بهذه العلاقات وبجمال جنسها الآخر؟

هل الإنسان حينما يذهب إلى المعابد ليصلي ويؤمن ويدعو، وحينما يقاتل ويموت دفاعاً عن أنبيائه وزعمائه وأديانه ومذاهبه أو عن أي أسلوب من أساليب حياته، وحينما يفقد كل وقاره وحيائه في حب الجنس، ويغرق في ممارساته الفضاحة، وحينما يهتف إعجاباً بأحد مناظر الطبيعة، بجمالها وبعبقرية منطقها وبرحمة تدبيرها، وحينما يفتن بحبه لأبنائه وبإعجابه بذكائهم وجمالهم وبمستقبلهم الذي سيزينون به الكون والتاريخ والبشر، وحينما يجن ويذنب ويفتضح من أجلهم أو من أجل الاحتفاظ بحياته أو بشيء فيها.

هل الإنسان حينما يفعل بعض ذلك أو كل ذلك يعبر عن جمال أو عن ذكاء أو عن نظافة أو عن قيمة في الأشياء، في أي شيء، أم هو يعبر عن حالته: عن آلامه وأحزانه وتفاهاته ودماماته، عن كل ما فيه من حرمان واحتياج، يعبر عنهما ـ أي عن الاحتياج والحرمان ـ بشتى الأساليب.

هل الإنسان حينما يفعل ذلك يعبر عن آلهته ومذاهبه وأديانه، وعن حياته وأبنائه، وعن الكون ـ عما في ذلك من جمال ونظافة وذكاء وقيمة، أم هو يعبر عن حالته هو بأسلوب ما من أساليب التعبير كما يفعل الذباب أو أية حشرة تمارس حياتها وعلاقاتها الجنسية، وحينما تضج تغريداً وغناءً وتراقصاً كأنها أعمق وأتقى صلاة وإيماناً وحباً ومشاهدة لجمال الإله وجمال التقوى وجمال الطبيعة المؤمنة المسكونة بالآلهة ـ كأنها أتقى وأصدق وأكثر انبهاراً وإيماناً بجمال ما ترى من أي قديس أو من أي نبي يتناجى مع إلهه فوق جبل المناجاة، وقد غرقا: الإله والنبي في عناق حزين فضاح مميت قد جعل كلاً منهما لا يعرف أيهما هو نفسه وأيهما هو الآخر، أيهما الإله وأيهما النبي، أيهما العاشق وأيهما المعشوق، أيهما الأكبر والأقوى والأفضل، وأيهما الأصغر والأضعف والأقل فضيلة؟

لو أن أي إنسان أو أي كائن لم ير الكون ولم يتحدث عنه أي حديث، ولم يعان الجوع والاحتياج والحرمان والألم بأي أسلوب وعلى أي مستوى.

ثم فجأة رأى القمر أو الليل أو الصباح أو المطر أو النهر أو البحر أو الطير أو الورد، أو رأى من يصلون ويعبدون ويهتفون ويسجدون، أو من يعظون أو يخطبون أو يعلمون، أو من يحبون ويمارسون حبهم، أو من ينامون ويأكلون، أو من يدربون على الحروب أو من يحاربون، أو من يحتفلون بزعيم أو قائد أو معلم، أو من يؤمرون ويطيعون، أو من يضحكون ويقهقهون ويتزينون ويضعون الأصباغ وأدوات الزينة على وجوههم وأجسامهم، أو من يقفون أمام المرآة بإعجاب واستعراض، أو من يسيرون بانبهار وصلف، عارضين حركاتهم وخيلاءهم وحدود أجسادهم بزهو بذيء بليد على

عيون الآخرين وعلى شهواتهم وجوعهم ـ عارضين جوع أعضائهم الداخلية على جوع أعضاء الآخرين الداخلية.

نعم، لو أن أي إنسان أو أي كائن كان كذلك، ثم رأى ذلك فجأة فهل يمكن أن يرى فيه أي جمال أو أي ذكاء أو أي سمو أو أي وقار؟

بل أليس حتماً أن ذلك الإنسان أو ذلك الكائن سيصعق حينئذٍ من بشاعة الدمامة والبلادة والبذاءة والسخف والعار والافتضاح؟

إنه حتماً لن يجد حينئذٍ فيما يواجه جمال أو ذكاء أو عبقرية إله، ليحوله إلى كتب مقدسة إلى قديسين وأنبياء ليصلوا له، وليمجدوه وليصبحوا أناشيد لاهثة راكعة تحت قدميه ـ كما لن يجد حينئذٍ فيما يواجه جمال أو ذكاء أو عبقرية كون عظيم رائع، يبهره ويبهره ليخلق من ذاته أعظم الشعراء والفنانين لكي يهبوا أعظم القصائد والفنون ثناء على ذلك الكون الرائع العظيم.

أنا أجوع وأحتاج وأخاف وأحب وأبغض وأمارس نفسي، وأمارس الناس والأشياء وأعيش في مجتمع وأتعامل مع الكون. إذن فالكون فيه ذكاء وجمال ومنطق وآلهة رائعة، رائعة في جمالها وذكائها ونظافتها، وفي رحمتها وحبها وصداقاتها.

أنا لا أجوع ـ لو كنت كذلك ـ ولا أحتاج ولا أتعذب ولا أعاني، ولا أحب ولا أبغض ولا أحزن ولا أخاف ولا أمارس شيئاً. إذن فأنا أرى هولاً وكوناً من الدمامات والغباوات والعبث والسخف والتفاهة والتنافر والحقارة، والجنون والضياع ـ بل فأنا لا أرى شيئاً، لا أرى قبحاً ولا جمالاً، ولا أرى ذكاءً ولا غباءً، لا أرى شيئاً يعني شيئاً أو شيئاً يمكن تفسيره بشيء.

إني حينما أرى الأشياء لا أرى الأشياء وإنما أرى نفسي، إنما أرى ذاتي متحولة إلى أشياء. إني لا أستطيع أن أرى الأشياء في ذاتها، ولكني أرى دائماً الأشياء في ذاتي. إني لا أرى الأشياء كما هي وإنما أراها كما أنا. إني لا أرى القمر أو الزهرة أو الصباح أو الطعام أو الجنس أو الناس بعيني أو بمنطقي أو بتجاربي أو بأخلاقي أو بتقواي أو بحدودهم وصفاتهم. ولكني أرى ذلك بأماني وجوعي واحتياجي وقدرتي وضعفي وبحبي وبغضي، وبخوفي وآلامي وأحزاني.

* *

أجل.. ولكن لماذا هذا؟ لماذا نرى الأشياء هكذا. هذه الرؤية المختلفة؟ لماذا نرى هذا جميلاً وذاك دميماً، لماذا نرى هذا النموذج هو الجمال ولا نرى النقيض أو المخالف هو الجمال؟ لماذا نرى هذا جمالاً ولا نراه دمامة؟ لماذا نرى هذا دمامة ولا نراه جمالاً؟ لماذا يكون الورد جميلاً دون النباتات الأخرى ـ أو لماذا يعد أو يرى الورد أجمل منها؟ لماذا يكون هذا النموذج أو هذا الحجم أو هذا الاتساع والطول واللون من الأجسام والأشياء هو الجمال دون النموذج أو الحجم أو اللون الآخر أو المخالف أو المناقض؟

لماذا نصر أو نقتنع مثلاً بأن الزهرة أجمل من السنبلة أو من عنقود العنب أو من أية ثمرة نتغذى بها؟

لماذا نرى أن الصلاة والركوع والسجود للآلهة، وأن البكاء تحت كبريائهم تضرعاً إليهم، وأن الهتاف للزعماء والقادة، وأن الاحتفال بهم وإلقاء الخطب أمامهم، وأن قراءة تعاليم المعلمين والإيمان بها وحفظها واتباعها، وأن الإيمان بالأديان والعقائد التاريخية، وبالأرباب المتوحشين.

لماذا نرى أن ذلك أجمل أو أذكى أو أكثر وقاراً واحتراماً للنفس من أن نمشي عراة في الطرقات المزدحمة ونفعل العار بأسلوب فيه كل معاني وتعبيرات الإعلان؟

إنه بالتقليد والتتابع والقراءة والتكرار حدث هذا ورسخ. إننا نجيء فنجد المجتمع والتعاليم والنبوات والكتب والثقافات التي نقرؤها ونتعلمها تقول لنا بأساليب فيها كل التأكيد والاقتناع والتدين ومعاني الاجماع والسخرية ممن يخالف أو لا يقتنع - بأن هذا النموذج، أو بأن هذا الشيء هو الجمال، كل الجمال، وبأن النقيض أو المخالف هو الدمامة كل الدمامة، فنصدق ونتبع ونرى الأشياء كما قيل لنا وكما وجدنا من قبلنا يرون ويقولون ويتدينون.

كما يقال لنا أن هذا الإله أو هذا النبي أو هذا الزعيم أو هذا الدين أو هذا المذهب هو الحق والجمال والذكاء، فنصدق ونقتنع وكأننا قد صنعنا اقتناعنا وإيماننا مبتدئين من أنفسنا ومنطقنا، بل كأننا قد رأينا ووجدنا وأمسكنا بأيدينا، بل كأن الإله الذي حدثنا عنه في السوق موجود في بيوتنا بكل صفاته التي نؤمن بها، نلمسه وننام ونأكل معه على مائدته، ونجد فيه كل صفاته ونتعامل معها وعليها وبها في بيوتنا التي يعايشنا فيها بكل أزيائه، وبكل رهبوته ورحموته وجبروته، وبكل جماله المصنوعة مقاييسه من آلام الإنسان وأحزانه وجوعه وموته وشيخوخته، ومن كل ما في الحياة والكون من زلازل وبراكين وقحط وأوبئة وعبث ووقاحات وتفاهات وصحارى كئيبة بذيئة، تعيش فيها جميع مستويات الغباء والفسوق الأخلاقي والنفسي، تعيش فيها جميع هموم الأرباب وبداوتهم الخالدة وفنونهم التي لم تتدخل فيها الفنون. إن الصحارى هي التعبير العنيف عن بداوة الآلهة. لقد عرفنا جمال إلهنا من السوق لا من عيوننا ولا من عقولنا.. لقد صنعت لنا السوق عيوننا وعقولنا كما صنعت لنا صلواتنا وشتائمنا وأحقادنا وعبقرية آلهتنا وأنبيائنا وزعمائنا.

.. إننا لو جئنا إلى مجتمع تتحدث كل أدوات التعبير فيه عن جمال شجرة القطن أو شجرة الجرجير أو عن جمال شجرة الشعير أو عن جمال جريد النخيل، دون التحدث عن جمال الورد أو الأزهار أو القمر أو النجوم لكان محتوماً أن نجد كل الجمال وأن نرى كل الجمال في هذه الأشياء التي جئنا فوجدنا مجتمعنا يتحدث عن جمالها، فوجدنا كل آلهة مجتمعنا وشعرائه وأنبيائه وكتّابه ومغنّيه ووعّاظه يتحدثون بكل الإيمان والحماس عن جمالها، دون أن يتحدثوا عن جمال ما نراه اليوم جميلاً.

إن أدوات المجتمع الذي نجيء إليه هي التي تصنع لنا عيوننا، وهي التي تصنع لعيوننا رؤيتها وذكاءها

وأخلاقها وتقواها، كما أن هذه الأدوت هي التي تصنع لنا آلهتنا وأنبيائنا وزعماءنا، وتصنع لآلهتنا وأنبيائنا وزعمائنا صفاتهم وجمالهم وجميع مزاياهم.

لقد رأينا كل الجمال في المرض الوبيل وفي العاهة المذلة لأنه قد قيل لن أن المرض والعاهة هما من أتقى وأقوى الأساليب في التعبير عن جمال الإله وعن إحسانه إلينا وصداقته لنا. لقد قالوا لنا إن المرض والعاهة أسلوبان من أساليب التجميل التي يزين بها الإله نفسه فآمنا وقاتلنا من لم يصدقوا ذلك لأنهم زنادقة هاجون لجمال الإله. نعم، إنهم لزنادقة أولئك الذين ينكرون أن يكون المرض أو العاهة هبة إله أو تدبير إله أو جمال إله. لأن إنكار ذلك لا يعني إلا إنكار وجود الإله.

إذن كيف لا نرى كل الجمال والنظافة في حجر أسود حزين لأننا علمنا أن نراه كذلك؟ وكيف لا نرى في ذلك الحجر الأسود الحزين شفة الإله وكل ما في شفة الإله من جمال، فنذهب بجنون من التقوى نقبله، أي نقبل شفة الإله، أي جمال الإله المتجمع في شفتيه؟ إننا إذ نقبل الحجر لا نقبل حجراً، وإنما نقبل الإله، نقبل جمال الإله، جمال ذاته وجمال صفاته المتجمع في الحجر - في ذلك الحجر المعبود الأسود الحزين البدوي. أجل لقد وجدنا ورأينا في حجر كئيب دميم بدوي جمال إله وشفة إله وشهوة إله فرحنا نقبله ونؤلهه ونحج إليه ونقاتل دفاعاً عن أمجاده..

ولو أننا حينما جئنا هنا وضعنا في مجتمع يدرس أنبياؤه وشعراؤه وحكماؤه جمال الذباب، ويعلمون أهل ذلك المجتمع أن جمال الآلهة والنجوم ليس إلاّ بعض الجمال المخزون في عيني الذباب وفي جناحيه وفي قامته الهيفاء الرشيقة لكان محتوماً أن نصدق ذلك، بل لكان محتوماً أن نرى ونجد ذلك، بل وأن نذهب ننظر برهبة وإيمان وتقى إلى عيون الذباب وإلى أجنحتها وقاماتها لنرى روعة جمال الآلهة وجمال النجوم، لنسبح الله ونحمده ونصلي له حينما يقع الذباب على عيوننا وطعامنا وأشيائنا، لنهتف لجمال الآلهة في عينيه وأجنحته وطنينه.

بل إننا لم نزل نعتقد ذلك ونصدقه ونراه. إننا لم نزل نعتقد ونصدق أن الذباب - وكذا كل الحشرات والهوام والآلام - ليست إلا بعض جمال الإله، أي إلا بعض جمال رحمة الآلهة وحكمته ومنطقه، وبعض جمال صداقته وحبه للحياة وللإنسان. لقد آمنا بأن الذباب ليس إلا جمالاً فكرياً ونفسياً وأخلاقياً للإله، بل ولإيمان الإنسان، لأن من لم يؤمن هذا الإيمان فلن يكون مؤمناً بالإله. إن رفض الإيمان بقيمة الذباب الفكرية والأخلاقية والنفسية رفض للإيمان بالإله.

إن الإيمان بأن الذباب جمال منطقي وجمال أخلاقي هو أبشع من الإيمان بأن الذباب جمال ذاتي مادي. ولقد آمنا بأن الذباب هو أعلى مستويات الجمال المنطقي والأخلاقي، لأننا قد آمنا بأن الإله قد صاغ الذباب وألقاه علينا ليحقق حكمته ورحمته ومنطقه وأخلاقه، بل ليجعل هذه الحياة جميلة، ليجعل هذا الكون جميلاً. لقد آمنا بأن الله قد صاغ الذباب وفرض علينا معايشته ومساكنته لكي يكون - أي الإله - جميلاً، لكي يكون رائع الجمال. لقد آمنا بأن الذباب ليس إلا إعلاناً عن جمال

الإله وعن نظافته. إن الإيمان بأن الذباب هو كل الجمال بكل أنواعه ومستوياته ليس أكثر قبحاً من الإيمان بأن هذا الكون الذي الذباب هو أحد كائناته ليس إلا تدبير وخلق الإله.

وما يدبره ويصنعه الإله بحكمته ومنطقه وأخلاقه أليس محتوماً أن يكون جميلاً جمالاً أخلاقياً ومنطقياً وعقلياً، بل ومادياً؟ وهل يمكن أن يكون الشيء الذي يعبر عن منطق الإله وجمال أخلاقه وحكمته فاقداً للجمال المادي أو للجمال الذاتي؟ هل يمكن أن يكون ما يدبره ويخلقه الإله غير جميل بكل مستويات الجمال وأساليبه؟ هل يمكن أن يصنع الله غير الجمال؟ هل يمكن أن يصنع الله ما ليس جميلاً ولو بالحكمة والمنطق والتدبير والأخلاق؟ هل يخلق الله الدمامة من أي نوع؟ ولماذا؟

* *

لا توجد لدينا مقاييس من أي نوع لنعرف بها ما هو الجمال وما الدمامة، ولنعرف بها الفروق بينهما إن كانت بينهما فروق. إننا لا نستطيع أن نعرف ذلك بأية وسيلة. إننا لا نستطيع أن نعرف ذلك لا بالمنطق ولا بالأخلاق ولا بالرؤية ولا بالأحاسيس ولا بالإرادة أو الشهوة. وإذا وضعنا مقاييس لنعرف بها حدود هذا من هذه فهذه المقاييس كيف وضعناها، بأية مقاييس وضعناها، وكيف نعرف صدقها، كيف نعرف صدق تلك المقاييس. إذا كان الجمال والدمامة محكومين أو معروفين أو مقدرين بمقاييس فهذه المقاييس خاضعة أو معروفة أو موضوعة بأية مقاييس؟ كيف نعرف صحة مقاييس المقاييس؟

إننا لم نعرف ولا نستطيع أن نعرف هذا من هذه، ولا هذه من هذا، ولكننا فقط نحكم، لأننا علمنا أن نحكم، ولأننا جئنا فوجدنا من يحكمون فحكمنا كما وجدناهم يحكمون. إن الكون وإن الأشياء وإن الطبيعة وإن الحياة ـ إن شيئاً من ذلك لا ينقسم إلى دمامة وإلى جمال، وإنما تنقسم أحكامنا على الأشياء، إننا نحن الذين نرى شيئاً دميماً وشيئاً جميلاً دون أن نعرف، ولكن لأننا علمنا أو وجدنا أو احتجنا أو شعرنا. لذلك رأينا. لقد رأينا مع أننا لم نر أو لأننا لم نر.. إننا لم ننظر، لهذا رأينا. إننا لم نر ولكن حكمنا واقتنعنا وقلنا.. لا، بل لقد نظرنا ولم نر. بل لقد نظرنا ضد الرؤية. إننا ننظر لئلا نرى، وننظر لنحكم ونقتنع ضد الرؤية.

إن جميع الأشياء هي دائماً في نفسها صامتة، إنها دائماً صامتة، إنها ليست جميلة ولا دميمة. إنها لا تتحدث عن نفسها لا بهذا ولا بهذا. إننا نحن الذين نقول لها: أنت جميلة أو أنت دميمة دون أن ترد علينا، ودون أن تقبل أو ترفض، ودون أن تسمعنا، ودون أن ترضى أو تغضب. إن جميع الأشياء هي أشياء فقط، ليست أكثر من كونها أشياء، ليست جمالاً ولا دمامة، ليست ذكاء ولا بلادة، ليست عدلاً ولا ظلماً.

إننا نحن الذين نجعل الأشياء أكثر من أشياء، نحن الذين نجعل الأشياء جمالاً ودمامة، ذكاء وغباء، ظلماً وعدلاً، أي نجعلها أكثر من أشياء. إن رؤيتنا للأشياء وحكمنا عليها واحتياجنا إليها يجعلها أكثر من أشياء وأكثر من نفسها.

.. إننا نحن الذين نجعل الأشياء أكثر من كونها أشياء. نحن المتهمون للأشياء. إن دمامة الأشياء وجمالها فينا لا في الأشياء. إن جميع مزايا الأشياء ورذائلها، حتى ذكاؤها وغباؤها فينا لا في الأشياء.

إنه ليس لنا قدرة من أي نوع على أن نعرف الجمال أو الدمامة. إننا لم نعرف، وإننا لن نستطيع أن نعرف. لقد ظللنا نرى أقبح الأشياء هي أكثر الأشياء جمالاً. لقد ظللنا في كل تاريخنا نرى أبشع الدمامات هي أعلى مستويات الجمال لأننا علمنا أن نرى ذلك كذلك.

أعني لقد ظللنا نرى أن شيئاً دميم، وأن شيئاً جميل مع أن الأشياء في ذاتها صامتة، ليست هذا ولا هذه. لقد ظللنا نرى أن هذا جمال جداً وأن هذا دمامة جداً، مع أننا لو عكسنا حكمنا أو رؤيتنا لكان ذلك معقولاً جداً، أو لكان أقرب إلى الصدق لو كان في الأشياء جمال ودمامة.

لقد رأينا أن الحياة وممارستنا للحياة، وأن الجنس وممارساتنا للجنس، وأن التناسل، وأن التكاثر والتباهي بالأبناء، وأن إحضارهم إلى هذه الدنيا، وأن كل ألوان العلاقات فيما بيننا وألوان الأزياء، وأن كل أساليب التجمل ووضع الزينات على الوجوه والعيون والأعضاء الأخرى، وأن الحروب والأزياء العسكرية، وأن الشجاعة والمبارزة والقتل، وأن الصلوات والسجود والركوع والبكاء في المعابد، خوفاً من الآلهة، أو تملقاً للآلهة، أو بيعاً للآلهة، أو إعلاناً عن الآلهة. وأن الهتاف للزعماء والقادة والمذاهب. وأن الموت والقتل باسم دين أو إله أو مذهب أو نبي أو وطن. وأن وجودك لتكون طفلاً ثم غلاماً ثم شاباً ثم رجلاً ثم شيخاً ثم هرماً ومريضاً ومعتوهاً وعاجزاً، ثم لتكون ميتاً، مع كل ظروف ذلك والتزاماته المعروفة وغير المعروفة، المتوقعة وغير المتوقعة. وأن صيغة هذا الكون بشموسه وأقماره ونجومه وتفاهاته وعبثه وضياعه وعمقه وسوء توزيعه وقسوة أخلاقه وفسوق ضميره. وأن صيغة هذه الحياة بآلامها وهمومها وحشراتها وأمراضها وعاهاتها، وأن صيغة هذا الإنسان بمذاهبه وآلهته وأديانه وأوطانه وأحقاده وخلافاته وخصوماته وحروبه وأجناسه وأكاذيبه وشتائمه وغوغائياته وجوعه وأنانيته، وأن صيغته بكل كينونتها المادية والذاتية، بكل مقاساتها ومستوياتها.

نعم لقد رأينا أن كل ذلك درجات عليا من الجمال، نمارسه ونسعد به، ونتعامل عليه، ونستيقنه، ونقاتل بحياتنا وبكرامتنا وبشرفنا وبمنطقنا وغضبنا وبكل حبنا وبغضنا ومذاهبنا دونه.

إننا إذن لا نستطيع أن نعرف الجمال أو الدمامة. إن الجمال عندنا يساوي الممارسة أو الحاجة إلى الممارسة أو الشعور بالحاجة إلى الممارسة. إن جمال أي شيء لا يعني إلا احتمالات ممارستنا له، ممارستنا العملية أو الفكرية أو الشعورية أو التعليمية.

إن هذا هو ما يعنيه ويساويه الجمال في حساب أية حشرة.

إننا مخلوقات تمارس، ولسنا مخلوقات تعرف الجمال والدمامة أو تضع مقاييسهما. وهكذا الحشرات. إننا مخلوقات تمارس الجمال والدمامة دون أن تستطيع معرفة الفرق بينهما، أو تستطيع تحديد الحدود بينهما أو وضع مقاييس كل منهما. وهكذا جميع الحشرات والهوام الترابية. إن جميع

الهوام والحشرات تمارس الجمال والدمامة كما يمارسها البشر. وليس عجز هذه الحشرات والهوام عن معرفة الفرق بين الجمال والدمامة، وعن تحديد الحدود بينهما وعن وضع مقاييسهما أعظم من عجز البشر عن ذلك.

كيف رأينا ما نراه جمالاً جمالاً، وما نراه دمامة دمامة؟ هل نستطيع أن نعرف كيف حدث ذلك؟ هل نستطيع أن نقتنع بصواب ما حدث؟

وممارساتنا للأشياء كيف حدثت؟ لماذا نمارس هذا أو نرغب في ممارسته دون هذا؟ ولماذا نمارس ممارساتنا بهذا الأسلوب؟ هل جاء هذا بقانون البحث عن الجمال والرغبة فيه، وبقانون رفض الدمامة والرغبة في رفضها؟ هل هذا هو فقط الطريق إلى الجمال؟ هل جاء كل هذا بأسلوب جمالي؟ هل هذا هو كل الصيغ الجمالية؟ هل هذا يعني شيئاً، هل يعني أي منطق؟

ونحن كيف جئنا؟ كيف جئنا بهذه الصيغة وحدها دون غيرها؟ هل جاءت صيغة مجيئنا تحقيقاً لكل معاني الجمال ولكل احتمالاته؟ هل نكون خروجاً على كل صيغ الجمال لو أننا جئنا بصيغة أخرى أو لو أننا جئنا بغير الصيغة التي جئنا بها؟ هل نكون خروجاً على كل صيغ الجمال؟ ومن هو ذلك الكائن الذي رفض هذا الخروج؟

كيف رأينا أن الإنسان جميل، أن صيغته الذاتية والإنسانية جميلة؟ كيف لم نر الإنسان هو أبشع صيغ الدمامة؟ كيف اقتنعنا بأن لرؤيتنا قيمة منطقية أو أخلاقية أو قيمة من أي نوع؟ كيف لم نر أن الكون وأن الحياة وأن الإنسان وأن الأرض هي أعلى ما يمكن من صيغ الدمامة؟ كيف لم نر ذلك، كيف لم نقتنع به؟ لماذا رأينا العكس؟ على أي نموذج أو مقياس جمالي رأينا العكس؟

هل يمكن أن نعرف الجمال أو أن نعرف الدمامة؟ هل يوجد جمال، هل توجد دمامة؟ هل يوجد جمال ودمامة؟ هل يمكن أن نعرف وأن نعرف أننا نعرف؟

كيف نعرف أن معرفتنا تعني شيئاً، كيف نعرف أن معرفتنا تعني صواباً أو تعني منطقاً أو حقيقة؟ كيف نعرف أن معرفتنا تعني معرفة؟

* *

إن رؤيتنا للجمال وإحساسنا به وممارساتنا له أساليب مختلفة من أساليب الدمامة، الدمامة فينا والدمامة في الأشياء، في الطبيعة والكون ـ أو أساليب مختلفة من أساليب الإعلان عن هذه الدمامة الكونية الشاملة. إن رؤيتنا للجمال وإحساسنا به وممارستنا له ـ إن ذلك تعبير عن دمامة الأشياء، إنه إعلان عن دمامة الأشياء ـ إنه إعلان وتعبير عن دمامة الوجود وعن دمامة الممارسة للوجود.

إن رؤيتنا للجمال، وإن إحساسنا به، وإن ممارستنا له تعني أننا جائعون ومتألمون وهاربون ومحتاجون وتافهون وحزانى ومحكومون بالتعب والملل وبالضيق، وبالبحث عن المفارقة، عن مفارقة أنفسنا، أي عن مفارقتنا لأنفسنا، وعن مفارقتنا للأشياء. إننا بدون ذلك ـ وهذا قد سبق الحديث عنه ـ

لن نستطيع أن نرى أو أن نحس جمالاً، ولن نستطيع أن نمارس جمالاً ولا أن نمارس شيئاً، لأن الاحساس بالجمال وكذا الرؤية والممارسة للجمال، بل الممارسة لأي شيء تعبير وإعلان عن الجوع والاحتياج والهرب والحاجة إلى المفارقة. إن ذلك ـ أي الرؤية والاحساس والممارسة ـ إعلان وتعبير عن كل هذه المعاني والضرورات والظروف الأليمة. إن ذلك ـ أي الإحساس والرؤية والممارسة ـ ليس إلا تداوياً من هذه الظروف والضرورات والمعاني والآلام المحكوم بها على الإنسان. إنه ليس إلا تداوياً من دمامة الوجود ومن وقاحته وتفاهاته وعبثه، ومن دمامات أنفسنا وذواتنا، ومن وقاحاتها وتفاهاتها وعبثها.

إنك بدون ذلك ـ وهذا قد سبق تأكيده ـ لن تجد في الموسيقى، ولا في الغناء والأناشيد، ولا في أي شيء يسمع أو يرى أو يمارس أو يشتهى أو يفهم ويعقل أي جمال، أو سحر، أو تأثير أو هبة إله.

إن جمال التفكير أو المنطق أو الإيمان أو الحماس، أو الشجاعة أو الوفاء أو العدل أو الصدق أو الذكاء أو الشرف أو الصداقة أو الكرامة أو الرفض أو الإباء أو النظافة أو العلم أو الحضارة أو المسكن أو الصحة أو الشباب أو السعادة أو الرقص أو السرور أو الابتسام.

إن جمال كل ذلك لا يعني إلا ما يساويه من الظروف والضرورات والكينونات والمشاعر المضادة الأليمة الدميمة التي نحاول أن نتداوى ونهرب منها، وأن نحتج عليها، وأن نشمئز منها، وأن نقاوم شعورنا بها ورؤيتنا لها، والتي نحاول أن نخفيها وأن نضع عليها الستائر.

إن شيئاً لن يكون جميلاً، وإننا لن نرى جمال أي شيء إلا بقدر ما نعيش ونرى ونحس الآلام والاحتياجات والدمامات والجوع والأحزان، وبقدر ما نخاف منها ونواجهها، وبقدر ما نحاول الهرب والمفارقة، وبقدر ما نعاني من الاشمئزاز والاستفراغ العقلي والأخلاقي والنفسي والإنساني، وبقدر ما في الحياة والكون وما في أنفسنا من دمامات متوحشة تطحننا طحناً رهيباً حياً مستمراً.

إن التفكير لن يكون جميلاً ولن نراه جميلاً بقدر ما نواجه من دمامات، وما نعاني من آلام وتعب واحتجاج واشمئزاز ورفض ووقاحات وذنوب في كل مواجهاتنا وتفاسيرنا واحتمالاتنا وتوقعاتنا. إن التفكير الحر المحارب الشجاع لن يكون جميلاً إلا بقدر ما يواجه من آلهة دموية غبية، ومن كون دميم غبي ومن بشر يعيشون كل الدمامات والغباوات. إن التفكير الحر الشجاع المحارب ليس إلا هرباً.

هل يعني جمال العدل ورؤيتنا لجماله شيئاً أكثر من دمامة الظلم ومن رؤيتنا لهذه الدمامة ومعاناتنا النفسية والعقلية والأخلاقية والسلوكية لها ـ بل من معاناتنا النفسية والعقلية والسلوكية والأخلاقية لكل الأشياء، حتى من معاناتنا لأنفسنا؟

بل هل يعني جمال العدل ورؤيتنا لجماله شيئاً أكثر من دمامة الكون ومعاناتنا له، بل واشمئزازنا منه واستقباحنا له: لأخلاقه وعبثه وسخفه وغبائه ومظالمه، ومن رؤيتنا لكل ذلك وتجرعنا الدائم له؟ بل هل

يعني ذلك شيئاً أكثر من دمامة أنفسنا، ومن ضيقنا بها وبالتعامل معها والمصاحبة لها ولما نعاني من مخاوف ومجاعات وهموم وتجارب رهيبة كالحة؟

إن الجمال إذن، أعني إن إحساسنا بأن شيئاً ما جميل، وأن رؤيتنا له كذلك لا يعنيان إلا إننا جائعون وهاربون ومتألمون ورافضون ومحتجون وباكون، وإننا أيضاً محاصرون بالدمامات ـ أي أن وجود الجمال في إحساسنا واقتناعنا ورؤيتنا وممارساتنا يعني أن الكون نقيض، محارب لنا. وليست الدمامة في جميع تعبيراتها وصورها سوى مناقضة لنا: مناقضة لاحتياجاتنا ولآمالنا ورغباتنا، ولرؤيتنا ومنطقنا. فإذا كان الكون نقيضاً لنا كان المعنى والتفسير: إنه دميم، دميم.

إذن فإحساسنا بأن شيئاً ما جميل لا يعني إلا أن الكون دميم، لأن الإحساس بالجمال ـ مرئياً ومرغوباً فيه ـ لا يكون بدون جوع وهرب ورفض وشكوى وبكاء واحتجاج وتعب وخوف. والدمامة ليست شيئاً غير ذلك، ليست شيئاً أفضل من ذلك، أو ليست واهبة غيره، أو ليست واهبة شيئاً أفضل من ذلك. الدمامة لا تعني غير المعاني التي يعنيها الإحساس بالجمال والتي تعنيها رؤية الجمال. إنه لو كان كل شيء جميلاً، أي لو لم يكن في الكون والحياة ما يناقضنا ويعذبنا لما أحسسنا بأن شيئاً ما جميل.

إن رؤيتك للجمال تعني أنك هارب وجائع ومعذب وحزين، وأن كونك هارباً وجائعاً ومعذباً وحزيناً يعني أن الكون دميم، وإلا فلماذا أنت هارب وجائع ومعذب وحزين؟ هل يمكن أن تكون هارباً وجائعاً وحزيناً لو لم يكن الكون دميماً أي لو كان كل شيء جميلاً؟

إن رؤيتك للجمال إذن لا تعني إلا التعبير أو الإعلان عن دمامة الكون والحياة والأشياء والبشر، وعن محاصرتك الدائمة بهذه الدمامة، بكل مستويات وأساليب وأصناف الدمامات. إن رؤيتك للجمال ليست إلا أسلوباً من أساليب التفلت والتململ ـ بالرؤية والإحساس ـ من قبضة الدمامات. إن رؤية الجمال ليست إلا محاولة للهرب بالعين والإحساس من هذا العالم إلى عالم غير موجود.

إن رؤيتك للجمال ـ مرئياً ومشتهى ـ لا تعني إلا فرارك، إلا محاولتك الفرار من زحوف الدمامات عليك وعلى كل شيء. إن رؤيتك هذه لا تعني إلا هزيمتك أمام هذه الزحوف. إنها لا تعني إلا انسحاقك وإلا سقوطك إعياء وخوفاً وضياعاً واستصراخاً وعجزاً عن الرؤية والفهم وعن الاختيار والاشتراط. إن رؤية الجمال والإحساس به والجوع إليه فرار من شيء ما. إنك بدون أن تكون فاراً من شيء ما لن ترى جمالاً ولن تجوع إلى جمال ولن تحس بجمال.

إذن فالكون والحياة والناس والأشياء أما دمامة ـ أي في رؤيتنا واقتناعنا ـ وأما جمال ـ أي في رؤيتنا وإحساسنا واقتناعنا وإحساسنا ـ وأما جمال لا يعني إلا الاعلان والتعبير عن الدمامة ـ لا يعني إلا أن يدل على الدمامة ويتحدث عنها ويفسر بمختلف التفاسير والأساليب قوة بشاعتها وشمولها. إن الجمال لا يعني إلا أن يفسر بصراخ وقسوة معاني الدمامة ووحشيتها. إن الجمال ليس إلا نبياً يتحدث عن الدمامة ويدل عليها.

إن الجمال ليس إلا دمامة، لأنه ليس إلا إعلاناً وتعبيراً عن الدمامة، وليس إلا تدليلاً عليها وتضخيماً لها. وهل يكون الاعلان والتعبير عن الدمامة غير دمامة؟ هل يكون التضخيم للدمامة والتدليل عليها إلا دمامة؟

إن جمال الطعام لا يساوي ولا يعني إلا شدة جوعك، وهل شدة جوعك جمال؟ إذن فهل جمال الطعام جمال أم دمامة؟ هل شدة الجوع جمال أم دمامة؟

إن جمال الطعام إعلان عن الجوع. وهل الاعلان عن الجوع جمال؟ هل يمكن أن يكون جمالاً؟

إن هتافاتك للآلهة والزعماء، وإن دعاءك وتضرعك، وإن إيمانك وصلواتك ـ إن شيئاً من ذلك لا يعني إلا أنك مطارد من داخلك أو من خارجك بأسلوب من أساليب المطاردة. ولكنه لا يعني أن عقائدك ومذاهبك، وأن آلهتك وزعماءك يساوون رؤيتك لهم، أو إيمانك بهم، أو هتافك وصلواتك وضراعاتك، أو أن فيهم من الإغراء والتأثير عليك ما يساوي تأثرك بهم، أو أن الشمس قد وهبتهم من الجمال والإشراق والنظافة ما يجعلك تراهم كما رأيتهم، وتقتنع بهم كما اقتنعت ـ أو ما يجعلهم يستحقون أن تهبهم من جنونك وضعفك كل ما وهبتهم.

وكذلك رؤيتك لجمال أي شيء إنما تعني أنك مطارد من داخلك أو من خارجك ـ أي أن رؤيتك لأي جمال إنما تعني أنه محكوم عليك بهذه الرؤية ـ لأنك أنت محكوم عليك، لا لأن ذلك الجمال، أي لا لأن ذلك الذي رأيته جمالاً يستحق أن يحكم عليك أو يستطيع أن يحكم عليك. إنك محكوم عليك بلا حاكم بل من داخلك.

إن رؤيتك للجمال تعني أن في الأمر شيئاً غير جميل حكم عليك بهذه الرؤية ـ أي أن رؤية الجمال ليست إلا أسلوباً من أساليب الدمامة، وأنها ليست إلا معاناة للدمامة. إنك لا ترى الجمال إلا بقدر ما تعاني من الدمامة أي بقدر ما في حياتك وذاتك وفي الأشياء حولك من دمامات.

إن ممارستك للجمال هي أعلى مستويات الدمامة، وأقسى أساليب التعبير والاعلان والتحدث عن الدمامة، إنها أقسى أساليب الشعور بها ـ أي بالدمامة وبقوتها وقوة ضغطها عليك وعلى كل شيء. إن ممارسة الجمال دمامة في ذاتها ـ أي في ذات الممارسة وفي أسلوبها وفي ظروفها، وفي تعبيراتها وفي حوافزها وأهدافها ونتائجها، وفي كل صيغها ولغاتها ومعانيها ودلالاتها.

إن ممارسة الجمال افتضاح، إنها افتضاح عالمي. إن ممارسة الجمال دمامة عالمية. إن ممارسته ليست أقل دمامة من ممارسة أية دمامة، إن ممارسته ليست أقل دمامة من أية دمامة. إن في هذه الممارسة كل معاني الدمامات، وكل تعبيراتها، وكل افتضاحاتها، وكل بذاءاتها.

* *

إذن لقد آمنا بالجمال وبنماذجه ومقاييسه بالتقليد والتتابع، لا بالرؤية أو المنطق أو الاقتناع، كما آمنا بالمذاهب والعقائد وبالآلهة والزعماء والمعلمين وبنماذجهم المثالية وصفاتهم المطلوبة أو المشترطة.

وكما كان ممكناً أن نؤمن بالأديان والمذاهب وبالزعماء والآلهة الآخرين المناقضين لمن آمنا بهم، والخارجين عليهم. وكما كان ممكناً أيضاً أن تكون نماذج عقائدنا ومذاهبنا ونماذج آلهتنا وأنبيائنا ومعلمينا وصفاتهم مخالفة ونقيضة للنماذج والصفات التي تصورناها وآمنا بها لهؤلاء الآلهة والأنبياء، ولهذه المذاهب والأديان ـ أي لو اختلف تعليمنا ـ.

نعم، كما كان ذلك ممكناً فقد كان ممكناً أن تكون نماذج الجمال الذي تصورناه واقتنعنا به، وأن تكون مقاييسه مخالفة ونقيضة ومقنعة لنا جداً، جداً ـ أي لو اختلف تلقيننا. إننا كائنات تتلقى ما يلقى فيها، حتى نماذج الجمال ووحداته ومقاييسه، حتى نماذج الآلهة والأنبياء وصفاتهم ـ حتى كل ذلك نتلقاه تلقياً.

إن الإنسان كائن لغوي، إنه يتلقى كل أشيائه، حتى مرئياته وآلهته، باللغة. إن اللغة عنده جهاز شامل، إنها جهاز تفكير ورؤية، إنه يرى ويفكر بلغته أقوى وأكثر مما يكفر ويرى بعقله وعينيه.

لقد قالوا لنا: إن الغزالة أجمل من الجمل ومن البغل والحمار والفرس ومن الشاة. لقد قالوا لنا إن الغزالة هي نموذج الجمال، فصدقنا وآمنا، بل ورأينا ذلك رؤية، ورحنا نتحدث به ونتعامل عليه في أشعارنا وآدابنا وفي كل كلامنا.

لقد اقتنعنا بأن الغزال هو نموذج الجمال، وبأنه أجمل من كل الحيوانات الأخرى لأنه قد قيل لنا ذلك. حتى الشعراء والأدباء والعلماء قد آمنوا بذلك وذهبوا يتعاملون عليه في أشعارهم وآدابهم وفي كل كلامهم. حتى الشعراء والعلماء والأدباء قد رأوا وصدقوا لأنه قد قيل لهم. حتى هؤلاء قد صدقوا أن الغزال هو النموذج للجمال لأنهم قد وجدوا مجتمعهم يقول ذلك.

حتى الذين لم يروا الغزال قط قد صدقوا أنه نموذج الجمال وراحوا يتحدثون بذلك كما يتحدثون عن صفات وأخلاق الإله الذي لم يروه ولم يتعاملوا معه. إن أكثر الشعراء والأدباء الذين فتنوا بجمال الغزال وتحدثوا عنه كأعلى نموذج للجمال ـ إن أكثر هؤلاء الشعراء والأدباء لم يشاهدوا في حياتهم غزالاً ما، أو إذا كانوا قد شاهدوه فإنهم لم يحاولوا أن يقرأوا جماله أو يناقشوه على أي مستوى من مستويات القراءة أو المناقشة. إنهم إن كانوا قد رأوا فإنهم لم يروا، لقد رأوا ما قيل لهم وما اقتنعوا به، ولم يروا ما أمامهم ـ لقد واجهوا ولم يروا إن كانوا قد واجهوا.

لقد قرأوا ذلك من الكتب والأشعار وسمعوه من أحاديث الناس فأصبح لديهم ديناً من الأديان، مثل صفات الإله وصفات الجنة والنار في عقيدة الشيخ والمؤمن وفي تصورهما وإيمانهما. لقد تحولت القراءة والسماع إلى إيمان بالجمال كما تحولا أي القراءة والسماع إلى إيمان بالآلهة. إن القراءة والسماع يتحولان إلى رؤية واقتناع.

.. إننا لو جئنا فوجدنا الحديث والتعاليم عن جمال الناقة أو البغلة أو الهرة كما وجدنا ذلك عن جمال الغزالة. ولم نجد أي حديث أو تعليم عن جمال الغزال، لآمنا وتحدثنا بما وجدنا الحديث

والتعاليم عنه. وأن الأمر لكذلك في جميع نماذجنا الجمالية. إن كل نماذجنا الجمالية هي أحاديث وتعاليم، وإن كل نماذجنا الاعتقادية والمذهبية والأخلاقية لكذلك أيضاً.

نعم، إن الإنسان كائن لغوي. إنه باللغة يجد ويقتنع ويرى ويشعر ويؤمن ويحكم ويحاكم ويخاصم. لقد صنعت له لغته كل آلهته ومعلميه وأبطاله وكل نماذجه ومثله وقيمه بل وحبه وبغضه وصداقاته وعداواته.

ولقد قالوا لنا أيضاً: إن الإله لا يأكل ولا ينام ولا يمارس العلاقات الجنسية. وأنه واحد أحد غيور غضوب أناني منتقم. وأنه جبار متكبر، وإنه يحب نفسه حباً لا يحبه أحد لنفسه، وأن هذه المغالاة في حبه لنفسه جعلت أخلاقه غير معقولة وجعلتها بلا شبيه. حتى أنه من مغالاته في حبه لنفسه وغضبه لها لا يستطيع أن يغفر لمن يخالفه في الرأي، أو لمن يعجز عن رؤيته لأنه قد أصاب بصره بالآفة الرهيبة، أو لأنه لم يستطع أو يرد أن يهبه بصراً حاداً، أو لأنه هو أي الإله لم يستطع أن يكون كبيراً أو واضحاً أو مشرقاً ليراه الآخرون الذين فرض عليهم أن يروه مهما كانت رؤيته غير مستطاعة بل مستحيلة، بل مهما كانت رؤيته هي الموت والجنون والافتضاح، بل مهما كانت شهوته في أن يكون مرئياً شهوة هي أكبر من كل معاني الهجاء والتحقير، بل مهما كانت شهوته في أن يكون مرئياً لا يمكن أن تكون أسلوباً من أساليب الوقار أو الذكاء أو الاحترام للنفس. إننا لن نستطيع أن نفهم كائناً يفرض على كل الكائنات أن تراه وأن تؤمن به وأن تهتف وتصلي له وإلا فكل الويل وكل العذاب لها. أي كائن هذا الكائن الذي يجد كل لذته وسعادته في أن يراه الآخرون وأن يقتنعوا بل وأن يمدحوه وإلا فقأ عيونهم وفقد كل وقاره ورحمته وسعادته؟ ما هي السعادة في أن يراك الآخرون؟ ما فائدتك، ما لذتك، ما غوايتك من ذلك؟ كيف تصوروا الإله بهذا المستوى ـ كيف تصوروه؟ كيف رأوا صيغته هذه جمالاً بل كل الجمال؟

لقد قالوا لنا كل ذلك عن الإله ـ كما قالوا لنا عن جمال الغزالة ـ فصدقنا وصلينا وروينا، بل ورأينا. ولو أنهم قالوا لنا عن الإله نقيض ذلك لصدقنا أيضاً وصلينا وروينا ورأينا. لقد صنعوا لنا الإله وصفاته وأخلاقه بالألفاظ كما صنعوا لنا جمال الغزالة. إن نموذج الإله صناعة لغوية كجمال الغزالة.

هل يحتمل أن يكون اقتناعنا واطمئناننا أقل لو أنهم علمونا بأن الآلهة ليسوا واحداً بل كثيرون، أو لو أنهم علمونا بأن الإله يأكل وينام ويلد ويمارس الجنس، وأنه لا أحد يشبهه في ذلك ـ لو أنهم قالوا لنا: إن الإله هو أوفر الكائنات حظاً في ممارساته للجنس وفي استغراقه في النوم وفي ضخامة موائده وفي كثرة أبنائه وجمالهم وقوتهم وصحتهم؟ ولكن لماذا لم يقولوا لنا ذلك؟ هل ذلك نوع من الحسد أو الغيرة أو العقاب؟ هل حسدوا الإله أن يكون كذلك، أو عاقبوه لأنه أشقاهم وحرمهم، فلم يجعلوه كذلك؟ لماذا وضعوا الإله في هذه النماذج والمستويات البائسة الحزينة؟ لماذا أرادوا أن يجعلوه بائساً محروماً معذباً؟

إنهم لو قالوا لنا ذلك لكان المتوقع أن يكون اقتناعنا واطمئناننا أعظم لأن الإله المستريح السعيد

المسرور المستمتع يوثق به: بذكائه وبأخلاقه وبمقدرته وبصداقته وبحبه وبسلامة مزاجه النفسي أكثر مما يوثق بالإله الذي هو نقيض ذلك - بالإله الذي هو نموذج الحرمان والكآبة والتوتر والتعب والتوحد والإرهاق. ولأن المفروض أن يكون الإله هو أفضل الكائنات حظاً وأعظمها سروراً واستمتاعاً، وألا يهب مخلوقاته طيبات ومزايا ومسرات يحرمها على نفسه أو يحرم نفسه منها. كيف تتصور المخلوقات أن يحرم الإله نفسه من مسرات وحظوظ ومتع يناضل ويكد لكي يحققها لها أي للمخلوقات؟

إني لأعترف بأني عاجز أن أفهم كيف استطعنا أن نتصور أو نصدق النموذج الذي علمونا إياه عن الإله. كيف استطعنا تصوره وتصديقه؟ إنه نموذج لا مثيل له في بؤسه وضعفه وهوانه وأحزانه، وإنه تصور لا مثيل له في قسوته ووحشيته وكآبته وعقمه وغبائه. إنه لا مثيل لنموذج الإله في تصور المؤمنين. إن أي عدو متوحش القسوة عبقري الخيال لو أراد أن يختار لعدوه نموذجاً يهبه كل العذاب والتحقير لما وجد أقوى من نموذج الإله في تصور المؤمنين به.. لقد علمونا عنه: أنه كائن يعيش وحده، انه معزول عن كل العالم وعن كل شيء ومخالف لكل شيء ومتوحد في كل شيء. إنه محروم من كل المسرات، ومن كل الممارسات، ومن كل الأشباه والأمثال، ومن كل الأصحاب والأصدقاء، ومن كل الأقارب، ومن الزوجات والأبناء ومن كل الأعوان والمستشارين، ومن كل الصداقات والزيارات والعلاقات والمحالفات والمشاركات. لقد جعلوه وحشاً متفرداً، وحزناً متفرداً، وعذاباً متفرداً، وحرماناً متفرداً، وكآبة متفردة.

إنه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يعشق ولا يحب ولا يضحك ولا يسر ولا يطرب ولا يغني، ولا يجد ما يرضيه. إنه لا يتلقى أي ثمن ولا أي عزاء. إنه أبداً صيغة واحدة من الهول. إنه النموذج الوحيد في العذاب والحرمان، كما أنه النموذج الرهيب للعذاب والحرمان.

إنه يقف فوق كون كله ضده ونقيضه، كله خارج عليه ومخالف له. كله غيظ له ولأنبيائه ورسله وتعاليمه. كله عصيان، وزندقات، وبذاءات، وتحديات له. كله افتضاح وعار وزور. كله يتفجر في عينيه وفي ضميره وفي منطقه - يتفجر تكذيباً ورفضاً ونكراً وعاراً.

عيناه تحترقان أبداً، وضميره يتعذب أبداً، وأمانيه تموت وتصدم أبداً، وتعاليمه يلقى بها في التراب أبداً، يلقى بها مدحورة ذليلة تحت أقدام الشهوات، تحت أقدام الشيطان أبداً. كرامته وشرفه مهانان أبداً، وأنصاره والمؤمنون به مهزومون وأغبياء أبداً، وملوثون ومنافقون وكذابون أبداً - يكذبون باسمه، ويضعفون باسمه، وينافقون باسمه، ويفعلون كل أخطائهم وتلوثاتهم وذنوبهم باسمه. يصنعون ما يريدون ثم يزعمون أنهم لا يصنعون إلا ما يريد. يمارسون بلاداتهم البذيئة ثم يزعمون أنهم لا يمارسون إلا ذكاءه ومنطقه وإرادته. يصلون له بلا تقوى وبلا طهارة ولا نظافة ولا حب، ثم يزعمون أنهم يشيدون له مجد التقوى والحب ومجد الطهارة والنظافة فوق هذه الأرض. خصمه أبداً متفوق عليه. المعركة بينه وبين خصمه الشيطان لم تكن في يوم ما قريبة من التكافؤ. إنه أبداً، إنه أبداً مهزوم، وإنه أبداً يائس من الانتصار. إنها ليست معركة، ولكنها عملية إذلال يواجهه بها أبداً خصمه الجبار.

ليس له من يعزيه أو يجامله. لا يجد ما يهبه شيئاً من العزاء أو المجاملة أو التفاؤل. كل شيء يتحداه ويتعداه ويغيظه ويعصيه، ويتحول بين يديه إلى تشاؤم وإرهاب وأحزان.

إنه يظل كما كان أبداً تاريخياً، يظل في بداوته الأولى. إنه يظل في مستوياته وارتفاعاته القديمة التي خاطب منها أنبياءه ورجاله الأوائل، ليملي عليهم أخلاق ومنطق وذكاء بداوة الطبيعة التي لا تتغير ولا تتحضر ولا تقهر ولا تفهم. إنه يظل أبداً كالطبيعة التي صاغها في بداوته، لا يتحضر ولا يتغير. إنه يظل ويريد أن يظل بدوياً كالطبيعة التي صاغها بدوية ويرفض، أو لا يعرف أن تتحضر أو تتغير.

إنه يظل أبداً كذلك بينما يتغير كل شيء أمامه فيتخطاه ويخيفه ويهزمه، ويعجز عن فهمه وعن التوافق معه، ويعجز عن رؤيته. إن رؤيته تعذبه وتقتله. إنه يتحول إلى غريب أمام كل شيء. إنه يتحول إلى غريب أمام كل الناس وأمام كل الأشياء. إنه يتحول إلى غريب لا مثيل لغربته، ولا عزاء له أمام غربته وفي غربته. إن كل شيء يتحول إلى خوف له. إنه لا يجد ما يهبه الأمان أو الأمل أو الصداقة أو الإصغاء إليه أو الاستماع إلى أنينه أو إلى شكواه أو إلى أغانيه الحزينة. وهل يوجد أنين كأنين الإله أو حزين كالإله؟

إن كل شيء يتغير ويتخطاه يتخطى صفاته وذكاءه وكل مستوياته وارتفاعاته، وأن كل شيء يصبح أعلى من قامته، إن كل شيء يتخطاه: يتخطى أنبياءه وكتبه وتعاليمه ومحاريبه وصلواته. إن كل شيء يتخطاه، يتخطاه ذكاءً وأخلاقاً وسلوكاً. إنه الكائن العجيب الذي يظل أبداً بصيغة واحدة، لا يكون غيرها ولا يفهم غيرها ولا يريد غيرها. إنه الكائن العجيب الذي يستحق الرحمة لا الإعجاب. إنه المعبود الذي يستحق كل الرثاء.

حتى الطبيعة، إنها تحاربه وتعصيه وتغيظه وتخرج عليه وتفلت من قبضته ومن فنونه ومن تعاليمه ووقاره. إنها تخرج عليه وتعصيه وتخيف وقاره بزلازلها وبراكينها وتشوهاتها وأعاصيرها وبكل أحداثها الفاجعة، وبكل أحداثها غير المؤدبة أو المتوقرة.

إنما بذلك تسيء إلى وقاره وذكائه وتهذيبه وإلى فنونه وإلى قوانينه وإلى احترامه لنفسه وإلى رغبته في أن يبدو مسيطراً قوياً مطاعاً، لا يتمرّد عليه شيء من مخلوقاته، ولا يسيء إليه شيء.

أليست زلازل الطبيعة وبراكينها وتشويهاتها وأعاصيرها وكل أحداثها الفاجعة الشريرة أشد عصياناً للإله وغيظاً لقلبه من كل آثام البشر؟ أليست الطبيعة بحماقاتها هذه أكثر خروجاً عليه وإساءة إلى أخلاقه وذكائه وإلى كرامته وعبقريته وشرفه من كل ما يصنع البشر؟ هل يوجد من يستطيع أن يعصي الإله مثلما تستطيع أن تعصيه الطبيعة؟

هل يوجد عاص مثل الطبيعة، أو معصي مثل الإله؟ هل يوجد عاص ومعصي مثل الإله والطبيعة؟

إن الطبيعة في أحداثها الفاجعة العدوانية لا تصلي للإله ولا تثني على عبقريته الأخلاقية أو العقلية. إنها في ذلك تتمرد على الإله وتعصيه وتتحول إلى سباب لأخلاقه، ولوقاره وذكائه وحكمته ورحمته،

ولقدرته ولموهبته الفنية. إن الطبيعة بأحداثها الأليمة الحمقاء تشتم الإله: تشتم أخلاقه وتشتم عبقريته. إنه لا شيء يشتم موهبة الإله ويشتم أخلاقه مثلما تشتمها الطبيعة بنزواتها الشريرة.

إذن فكل شيء يتمرد على الإله، كل شيء يصنع له الغيظ والغضب والحزن، حتى الطبيعة. إن الطبيعة هي أوقح شاتم للإله. إنه لا شيء يصنع الغضب والغيظ والأحزان للإله مثل الطبيعة. إنها أوقح شاتم للإله.

إذن ما الذي يمكن أن يهبه المسرة أو الرضا أو التفاؤل أو أي مستوى أو أسلوب من أساليب السعادة أو مستوياتها؟ ما الذي يمكن إذن أن يهب الإله المسرة أو الرضا أو التفاؤل أو شيئاً ما من الأمل أو السعادة؟ أي شيء حينئذٍ يجعله يتحمل وجوده القاسي جداً، يتحمل آلام وأحزان وحرمان كينونته الفاجعة؟ إن الإله لكائن يستحق أن تقام من أجله المآتم والمباكي لتذرف عليه الدموع والأحزان، لا أن تشيد باسمه المعابد ليصلى له ويمجد. إنه يستحق البكاء لا الصلاة، إنه يستحق أن يرحم لا أن يمجد أو يعبد.

إنهم لقساة، لقساة جداً، إنهم لأقسى القساة: أولئك الذين تصوروا هذا النموذج للإله، والذين علمونا هذا النموذج عنه بالأسلوب الذي علمونا به أن الغزالة نموذج للجمال، وأن أرداف المرأة معبد من معابد الجمال الكوني، وأن ضيق خصرها هو الجمال الذي يفضل القديسون والنبيون النظر إليه على النظر إلى وجه الإله مبتسماً، وأن يشغلوا بالثناء عليه وبالإعجاب به عن الاعتذار إلى أعصاب الإله غاضباً وعن النظر إلى الشمس منتحرة.

إنهم لأشد القساة: أولئك المؤمنون الذين ابتكروا هذا النموذج للإله وحكموا به عليه. كيف اهتدت قسوتهم إلى هذا النموذج، كيف ارتفعت إليه وحشيتهم؟ إنهم لأشد القساة، إنهم لأشد القساة. إن أحداً لم يقس على أحد مثلما قسا المؤمنون على الإله حينما ابتكروا له هذا النموذج وتصوروا له هذه الحياة.

هل في هذا احتمال أي احتمال بأنهم أرادوا بهذا النموذج احترام الإله وتمجيده وإرضاءه، أم أن كل الاحتمالات، بل كل اليقين أنهم لم يريدوا بذلك إلا معاقبة الإله والتنكيل به والإساءة إليه؟ إن القضية ليست قضية قوم أرادوا أن يحترموا الإله فأخطأوا. إن القضية هي قضية قوم أرادوا أن يعاقبوا الإله، أن ينكلوا به. ولكن حينما أرادوا أن يعاقبوا الإله ويسيئوا إليه وينكلوا به كيف استطاعوا أن يبلغوا كل هذه الوحشية، وأن يهتدوا إليها؟ كيف عرفوا ثم كيف استطاعوا؟ إنه لشيء يرهب المنطق. إن خيالاً ما لم يتصور عذاباً وبشاعةً مثلما تصور خيال المؤمنين عن الإله وللإله.

* *

ولكن.. نعم ولكن..

إذا كنا قد آمنا بالنماذج الجمالية تقليداً واتباعاً لمن كانوا قبلنا، فأولئك الذين كانوا قبلنا والذين

أخذنا عنهم نماذجهم ومقاييسهم ووحداتهم الجمالية كيف اختاروا هم أو عرفوا هذه النماذج والمقاييس والوحدات وحدودها حدوداً للجمال ورأوها كذلك؟

إننا قد افترضنا أن الجمال ليس في الشيء الجميل ولكنه في الإنسان الذي رآه جميلاً أو أحسه أو اقتنع به كذلك. إذن كيف اهتدى أولئك الذين أخذنا عنهم نماذج الجمال إلى نماذجهم؟ إن كانوا قد قلدوا واتبعوا مثلنا فإن التساؤل حينئذٍ ينطلق إلى أولئك الذين كانوا قبلهم وأخذوا عنهم. وأما إن كانوا مبتكرين ومبتدئين برؤية نماذجهم فإن هذا التساؤل ينطلق إليهم بلا وسيط. إن البداية حيرة وظلام وتعجيز. إن مطالبتك بأن تكون أول من يخلق أو يبتكر أو يختار ـ دون أن تكون مسبوقاً بأية بداية، أي بأن تنطلق من الفراغ، لأسلوب باهظ من أساليب التعجيز والتعذيب. كيف رأوا وكانوا أول من رأى ـ كيف رأوا الجمال والدمامة؟ كيف رأوا أن هذا جمال، وأن هذه دمامة؟ كيف؟ كيف عرفوا نماذجهم واقتنعوا بها؟

لقد عرفوا هذه النماذج واقتنعوا بها ـ مع أنه كان من الممكن أن يعرفوا نماذج أخرى مخالفة أو مناقضة ويقتنعوا بها.. ولقد عرفوا هذه النماذج واقتنعوا بها تحت ظروفهم المتعددة الخاصة. لقد كانوا في ظروف خاصة معينة جعلتهم يرون نماذج الجمال كما رأوها وجعلتهم يقتنعون بنماذجهم كما اقتنعوا. لقد كانوا كالذين رأوا أن هذا الزي أو هذا النظام أو هذا التفكير أو هذا الدين أو هذا النبي أو هذا الإله أو هذا الشاعر أو هذا المفكر أو هذا الطعام هو الأجمل أو الأفضل أو الأصدق أو الأقوى ـ أو أنه هو وحده الجمال والفضيلة والصدق والقوة والصحيح. لقد رأوا ذلك مع أنه كان ممكناً أن يروا النقيض وأنه لممكن دائماً أن يروا النقيض، وأن يروا أجمل وأفضل ما رأوا هو أقبح وأردأ ما رأوا.

إنها نماذج ومقاييس وأحكام خاضعة دائماً للظروف، للظروف الخاصة، إنها ليست خاضعة للمنطق ولا للصدق ولا للعدل ولا للظروف العامة، بل ولا لحقيقة الأشياء أو لطبيعتها. إن عيوننا محكومة بظروفنا مثل عقولنا وأخلاقنا وشهواتنا. إن عيوننا ليست أقل ضلالاً وتزويراً من تفكيرنا أو من أهوائنا أو من مصالحنا. إن عيوننا لا ترى رؤية شاملة، كما أن عقولنا لا تفكر تفكيراً شاملاً، كما أن أخلاقنا لا تكون كينونة شاملة، كما أن أقدامنا لا تتحرك حركة شاملة. إن ظروف الشيء ليست حتماً خارجية، إن ظروف الشيء قد تكون هي نفس الشيء.

إن أخلاقنا لا تختار أو تشتهي الأفضل، وإن عقولنا لا تفهم أو تصدق أو تعقل دائماً الأذكى أو الأصح أو الأقوى، إن عيوننا كذلك لا ترى دائماً الأجمل، إنها لا تبهر دائماً بالأجمل. إن عيوننا قد تكون غبية جداً كما تكون عقولنا وأخلاقنا. إن عيوننا قد تكون أغبى من عقولنا ومن أخلاقنا. إن العيون الغبية ليست أقل من العقول أو الأديان الغبية.

إننا ننظر بالمرآة التي عندنا والتي نجدها، لا بكل مرآة ولا بأفضل مرآة ولا بأقوى مرآة. إن مرآتنا لا ترى كل الوجوه ولا أجمل الوجوه. إنها لا ترى إلا الوجه الذي يواجهها. إنها لا ترفض أن ترى الوجه

الذي أمامها لأنه يوجد وجه أجمل منه... لقد رأى أولئك أن الأجمل، أو أن الجمال هو هذا، أو هو هذا النموذج.

ولماذا رأوا كذلك؟ لقد رأوا كذلك كما رأوا أن هذا الإله أو هذا الدين هو الأفضل والأجمل والأصدق، وأن هذا النموذج للإله أو للدين، وأن هذه الصيغة هما أفضل وأجمل النماذج والصيغ.

ولماذا رأوا هذا الدين وهذا الإله دون غيرهما، ولماذا رأوهما بهذا النموذج أو بهذه الصيغة دون النماذج والصيغ الأخرى؟

لقد رأوهما، ورأوهما كذلك كما رأوا أن هذا اللباس، أو أن هذا الطعام، أو أن هذا الطبخ والإعداد للطعام، أو أن هذا السلوك، أو أن هذا الأسلوب في الحياة وفي التعامل مع الناس، أو أن هذا التزين والعرض للذات هو الأفضل والأنبل والأذكى.

ولكن لماذا رأوا ذلك؟

لقد رأوه بالقدرة والمستوى وبالتاريخ وبالملاءمة وبالشهوة التي لا تخضع للمنطق، وبالظروف الكثيرة المتعددة. لقد رأوه بالصدفة أحياناً. لقد رأوه بلا سبب مفهوم أو محتمل فهمه كما جاءوا هم بالأسلوب الذي جاءوا به ـ كما جاءوا هم بالصيغة التي جاءوا بها دون سبب مفهوم أو محتمل أن يكون مفهوماً. لماذا جاءوا هكذا، لماذا جاءوا بهذا الأسلوب والصيغة والمستوى؟ إنه سؤال يساوي: لماذا رأوا أن هذا هو الجمال، وهو نموذج الجمال.

إنه لا يمكن أن تكون كل الأسباب معقولة. إنه لو كانت جميع النتائج مفهومة أو معقولة لما كان ممكناً أن تكون الأسباب مفهومة أو معقولة، أو لما كان ممكناً أن تكون كل الأسباب مفهومة أو معقولة. إنه لا بد أن تظل كل الأسباب أو بعض الأسباب غير معقولة أو غير مفهومة، بل إنه لا يمكن أن تكون كل الأسباب مفهومة أو معقولة. إن ذلك شيء مستحيل. إن الأشياء لا يمكن أن تكون مفهومة أو معقولة مهما كان محتوماً أن يكون فيها ما يفهم ويعقل. إن الأشياء لا يمكن أن تكون معقولة مهما كانت مفهومة أو مفسرة.

إن الأسباب الأولى لا يمكن أن تفهم أو أن تعقل، إنها لا يمكن أن تعقل مهما أمكن أن تفهم أو تفسر.

إننا لو فهمنا أو عقلنا بأننا قد جئنا لأن الكون قد جاء لما كان ممكناً أن نفهم أو نعقل لماذا جاء الكون. وأننا لو فهمنا أو عقلنا أن الكون قد جاء لأن الله قد جاء لما كان ممكناً أن نفهم أو نعقل لماذا جاء الله.

ولو أننا فهمنا وعقلنا بأن الطبيعة هي التي خلقتنا لما استطعنا أن نفهم أو نعرف من الذي خلق الطبيعة، ولو أننا فهمنا وعرفنا بأن الله هو الذي خلق الطبيعة لما استطعنا أن نفهم أو نعرف من الذي

خلق الله. ولو أننا فهمنا وفسرنا كل شيء لما استطعنا أن نعقله. إن ما نستطيع أن نفهمه أو نفسره لا نستطيع أن نعقله.

إن الشيء قد يكون مفسراً ومفهوماً ولكنه لا يكون معقولاً. إننا قد نفسر المرض أو الموت ولكننا لا نستطيع أن نعقله.

إننا نعاني ونحزن ونجوع ونحب ونبغض ونشيخ ونمرض ونموت ونشعر ونتخيل ونستطيع أن نفهم أحياناً لأننا جئنا بهذه الصيغة. ولكن لماذا جئنا بهذه الصيغة؟

إننا نحيا، وإن الحشرات أيضاً تحيا لأن ظروف الحياة موجودة، ولكن لماذا كانت ظروف الحياة موجودة؟

إننا ندافع عن بقائنا لأننا نريد الاستمساك ببقائنا، أو لأننا نرفض أن نزول أو نموت. ولكن لماذا نريد الاستمساك ببقائنا أو لماذا نرفض الموت والزوال؟ إن كنا نفعل ذلك لأننا قد جئنا كذلك، فلماذا جئنا كذلك؟

إنه مهما كان ممكناً أن تفهم الأشياء وأن تفسر فإن أي شيء، بل فإن كل شيء، كل الأشياء لا يمكن أن تعقل، أن تكون معقولة.. إنه بقدر ما كان مجيئنا ومجيء الأشياء غير معقول وغير ممكن أن يفسر بالمنطق، وبقدر ما كان مجيئنا ومجيء الأشياء بهذا الأسلوب وهذه الصيغة غير معقول أو غير ممكن تفسيره فإن سلوكنا وأحكامنا واختيارنا وتلاؤمنا وتنافرنا كذلك غير ممكن أن يكون معقولاً أو مفسراً بالمنطق.

إنه بقدر ما كان مجيئنا مجيئاً فقط لا منطقاً، وبقدر ما كان مجيء الشمس والبرغوث مجيئاً فقط لا منطقاً، فإن رؤيتنا للجمال والدمامة أو فإن رؤيتنا بأن هذا جمال، وبأن هذه دمامة، رؤية بلا منطق. إننا نرى بلا منطق كما نكون ونجوع ونذهب بلا منطق. إنه كما جاءت صور عيوننا ومكانها وعددها وقوتها بلا منطق فإنها ـ أي عيوننا ـ كذلك ترى هذا جمالاً وترى ذاك دمامة بلا منطق أيضاً.

إن منطق كل شيء هو ذاته، لهذا فإن منطق عيوننا هو ذات عيوننا.

إن خطأ أي شيء هو منطقه أي هو صوابه، وإن خطأ أي شيء هو ذاته، أي هو منطقه.

إن الشيء لا يكون مخطئاً أو خطأ إلا إذا حكم عليه بغيره، أي بغير ذاته وقوانينه أو بغير إرادته وأخلاقه. إنه بدون الحكم عليه بغيره لا يكون مخطئاً ولا خطأ مهما حدث ومهما جاء.

* *

أيها الكون، أيتها الحياة، أيتها الأشياء.. أنت لست جمالاً ولست دمامة. أنت لست صورة ولست رؤية ولست لغة. أنت صمت أعمى، صمت لا تعبير فيه، صمت لا يعرف أية لغة ولا يستطيع أن يتعلم لغة من اللغات. أنت ظلام لا رؤية ولا حدود فيه. حتى الصورة، أنت لست صورة.

أيها الكون، أيتها الحياة، أيتها الأشياء.

أنت لست حقاً ولا باطلاً، ولست عدلاً ولا ظلماً، ولست ذكاءً ولا غباءً. لست جمالاً ولا دمامة. أنت لست تعبيراً ولست اتهاماً ولا دفاعاً، ولست قضية، ولست مذهباً من المذاهب. أنت لا تؤمنين بأي إله ولا بأي دين. أنت لست إيماناً ولا كفراً. لست مذنبة ولست متدينة.

أيها الكون، أيتها الحياة، أيتها الأشياء. أنت لست شيئاً يتكلم أو يعرف أو يقرأ أو يرى أو يحكم أو يحاكم. أنت لست شيئاً سوى الإنسان.

إن الإنسان هو جمالك ودمامتك، وهو ذكاؤك وغباؤك، وهو صورتك ورؤيتك، وهو لغتك وتعبيرك، وهو ظلمك وعدلك. هو الحق والباطل فيك. هو الحكم لك وهو الحكم ضدك. هو كل محاكماتك. هو إلهك وهو نفس إلهك.

أيها الكون، أيتها الحياة، أيتها الأشياء.. لا، أنت لست صمتاً، لست صمتاً. أنت لغة، أنت كل اللغات.. أنت دمامة، دمامة جداً.. أنت دمامة، حتى جمالك، إنه دمامة، إنه أقبح وأوقح دمامة.

أنت نقيض للإنسان، حتى جمالك، إنه نقيض للإنسان.

أنت تصنعين للإنسان ـ حتى جمالك ـ أنت تصنعين للإنسان الجوع والدموع والأحزان والخوف والارتجاف والغيرة والحسد والتشوهات والبغض والحقد والضعف والغباء والتفاهة والأنانية والعري والافتضاح والعار ـ أنت تصنعين له، حتى جمالك يصنع له ـ أنت تصنعين له ـ حتى جمالك يصنع له ـ كل الجبن والهوان والركوع، بكل جبهته، وبكل قامته على الأرض، على كل الأرض.

أنت تتحولين ـ حتى جمالك يتحول ـ إلى عدوان على الإنسان، وإلى إذلال له، وإلى تحطيم وتحقير لذاته ولحياته ولشرفه ولكرامته ولطهارته ولنظافته. إلى موت لأعضائه الحية السعيدة، وإلى ممارسات بذيئة ملوثة، وإلى نهايات عقيمة عابثة رهيبة.. أنت تتحولين إلى عدوان شامل على الإنسان، وإلى إذلال شامل، وإلى تحطيم شامل، وإلى قتل شامل ـ حتى جمالك، إنه يتحول إلى كل ذلك.

أنت تتحولين ـ حتى جمالك يتحول إلى نقيض للإنسان، إلى نقيض لأخلاقه ولمنطقه ولآماله ولأهدافه ولشرفه ولكرامته ولكبريائه، لكل احتياجات وأساليب حياته.

أنت نقيض للإنسان ـ حتى جمالك نقيض له ـ أنت غيظ للإنسان، حتى جمالك غيظ له ـ أنت إعلان عن تفاهة الإنسان وعن دمامته وعن سقوطه، وعن ورطته الشاملة.

وهل الدمامة بكل صورها وأشكالها ومستوياتها شيء أكثر من المناقضة للإنسان ومن الغيظ له ومن الإعلان عن دمامته وتفاهاته؟ هل الدمامة شيء غير العصيان لأخلاق الإنسان ولأمانيه ولمقاييسه ولمشاعره، ولعينيه؟ هل الدمامة شيء غير العصيان للإنسان والخروج عليه ـ هل الدمامة غير الخروج على مشاعر الإنسان؟

أيها الكون، أيتها الحياة، أيتها الأشياء ـ أنت إذن دمامة، دمامة. أنت لست صمتاً، أنت تعبير، تعبير. أنت تعبير فيه كل الدمامات، كل أنواعها وكل لغاتها وكل مستوياتها وكل هتافها. أنت كل

العصيان للعيون والأخلاق والمشاعر ـ أنت كل الخروج على الإنسان. إذن أنت كل الدمامات، كل الدمامات.

لقد حدثنا الأطفال طويلاً، طويلاً عن جمالك.

لقد حدثونا طويلاً، طويلاً عن جمال جسدك ـ أيها الكون، أيتها الحياة، أيتها الأشياء ـ وعن جمال أخلاقك، وعن جمال منطقك، وعن جمال حبك وصداقاتك، وعن جمال ممارساتك. عن جمال ممارساتك للإنسان، وجمال ممارسات الإنسان لك، وعن جمال علاقاتك: علاقاتك بالإنسان، وعلاقات الإنسان بك، وعلاقات بعضك ببعض، لقد حدثونا عن جمال علاقاتك بالآلهة وعن جمال علاقات الآلهة بك.

لقد حدثنا الأطفال والمراهقين طويلاً، طويلاً عن جمال آلهتك، وعن جمال منطقهم وتدبيرهم وخططهم، وعن جمال أخلاقهم وذكائهم وحبهم، وعن جمال ممارساتهم لأنفسهم وممارساتهم لك وللإنسان.

لقد حدثونا طويلاً، طويلاً بكتبهم المقدسة، ورواية عن آلهتك، وبتعاليمهم وأشعارهم، وبفنونهم ومواعظهم، وبنحتهم وتصويرهم، وبكل صلواتهم وارتجافاتهم، وبكل همومهم وآلامهم.

لقد حدثونا طويلاً، طويلاً عن جمال المنطق الذي حوّلك إلى فكرة، وعن جمال الفن الذي حوّلك إلى صورة أو الذي أخرجك صورة، وعن جمال الصورة التي صارت جسدك أو التي صارت شموسك ونجومك وأرضك وصحاريك وجبالك وسهولك وأنهارك وصخورك وزلازلك وبراكينك وحشراتك ونباتاتك وكل وقاحاتك وتشوهاتك الجسدية. لقد حدثونا بانبهار عن جمال عاهاتك الجسدية، وعما في تشوهاتك الذاتية من جمال الآلهة ومن فنون الآلهة وعبقرياتها وحبها للجمال، وحبها لما في الدمامات من جمال.

لقد حدثونا طويلاً عن جمال الأهداف العقلية والأخلاقية والكونية والآلهية التي أصبحت من أجلها فكرة، والتي جئت من أجلها، والتي تناضلين وتقاسين وتهرولين في سبيل الوصول إليها.

وهل هم قد أحسوا بجمالك ورأوه فحدثونا عما أحسوا أو رأوا؟

ولكن ماذا يعني إحساسهم بجمالك ورؤيتهم له وحديثهم عنه؟

إن إحساسهم بجمالك ورؤيتهم له وحديثهم عنه هو أقسى مستويات الدمامة. لقد فرضت عليهم الدمامة وجعلتهم يعيشونها ويتعلمونها ويتقربون إليها ويستمتعون بها، ويرونها، ويرونها وحدها، ويرونها أبداً. لقد خلقت فيهم الدمامة. لقد خلقت الدمامة في حياتهم وفي عقولهم وفي مشاعرهم وفي أعصابهم وخيالاتهم ورؤاهم وفي ممارساتهم ومستوياتهم ـ لقد سلبتهم الشعور ضدها والرفض لها والغضب منها ـ لقد جعلتهم دمامة. لقد جعلت كل شيء فيهم دمامة. لقد هبطت بهم إلى أردأ مستويات الدمامة ـ لقد حكمت عليهم بأن يمارسوا الدمامة، بأن يمارسوها، ويمارسوها ـ وبأن يجوعوا

إليها، ويجوعوا، ويجوعوا. لقد جعلتهم دائماً جياعاً إلى الدمامة مهما تغذوا بها. لقد حكمت عليهم بالجوع الدائم إلى الدمامات.

لقد فعلت كل ذلك. لقد فعلت كل ذلك بقسوة وفحش وديمومة وشمول وإصرار حتى رأوك جمالاً، وحتى راحوا يتحدثون عن جمالك، ويصلون له، ويحولون كل أربابهم وأنبيائهم ومعلميهم إلى شعراء، يحولون كل موهبتهم إلى قصائد في امتداح جمالك أي في امتداح دماماتك.

لقد حوّلت كل شيء فيهم إلى وعاء وتجربة للدمامات. إن عيونهم، وإن آذانهم، وإن عقولهم، وإن خيالاتهم، وإن إيمانهم، وإن عقائدهم، وإن صلواتهم، وإن نماذجهم وصور أربابهم في تصوراتهم وتعاليمهم: إن كل ذلك قد حولته فيهم إلى أوعية وتجارب للدمامات.

لقد كان حديثهم عن جمالك أسلوباً من أساليب البكاء والاعتذار.

لقد كان أسلوباً من أساليب البكاء. لقد كانوا يبكون من عذابهم وافتضاحهم، من عذاب كينونتهم وافتضاحها، مما في كينونتهم ومواجهاتهم من عذاب ودمامات، مما فيك وفيهم من عذاب ودمامات. لقد حوّلوا بكاءهم إلى حديث عن جمالك. إن حديثهم عن جمالك أسلوب من أساليب البكاء. لقد كانوا يبكون بأسلوب من يتحدثون. وما أكثر ما يزور البشر بكاءهم. ما أكثر الصيغ التي يعبر بها البشر عن بكائهم. ما أكثر ما يتحدث الناس، وما يعلمون، وما يغنون، وما يعظون، وما يصبحون قادة وأنبياء، وهم لا يعنون إلا أن يبكوا بأسلوب ما، بأي أسلوب. إن كل لغات البشر وتعبيراتهم ليست إلا لغات وتعبيرات عن البكاء مهما جاء الأسلوب. إن البكاء هو التفسير الشامل للإنسان.

ولقد كان أيضاً أسلوباً من أساليب الاعتذار. لقد كانوا يعتذرون حينما كانوا يتحدثون عن جمالك. كانوا يعتذرون عن ورطتهم، وعن ضعفهم وسقوطهم، وعن عجزهم وتلوثهم. لقد كانوا يعتذرون وهم يتحدثون عن جمالك. إنهم لم يكونوا يرون جمالك أو يتحدثون عنه ـ لقد كانوا يعتذرون.

لقد كانوا عاجزين عن رفضك وعن رفض ممارستك ـ لقد كانوا عاجزين عن رفض الدمامات فراحوا يتحدثون عن جمالها، عن جمال الدمامات التي عجزوا عن رفضها. لقد كانوا بذلك يدافعون عن أنفسهم، لقد كانوا يعتذرون عن تقبلهم لما لا يستطيعون أن يرفضوه. لقد عجزوا أن يرفضوا، وخافوا أن يفتضحوا، أن يعيروا، وألا يقبلوا أنفسهم، وألا تقبلهم أنفسهم، وألا يستمتعوا بما لا يستطيعون رفضه، فذهبوا يتحدثون عن الجمال، ذهبوا يبالغون جداً في حديثهم عن الجمال، خيفة ألا يصدقوا، ألا يصدقوا ـ خيفة ألا يصدقوا أنفسهم أو ألا تصدقهم أنفسهم ـ خيفة ألا يصدقوا ما يقولون، وألا يصدق بعضهم بعضاً. إن اعتقادهم بأن الكون جميل يشبه اعتقادك بأن إلهك أو دينك أو نظامك أو مذهبك أو تفكيرك أو وطنك أو سلوكك أو وجودك أو بقاءك جميل لأنك لا تستطيع أو

لا تريد التخلي عنه. إنه اعتذار عن العجز لا حديث عن الحقيقة. إنك قد تحاول أن تعتذر عن نفسك بأن تخطىء أو تكذب في رؤيتك أو في تفكيرك أو في اقتناعك...

هل يمكن أن يكون هذا الكون جميلاً، أو هل يمكن الغفران لمن يجرؤ على التحدث عن جماله حتى ولو لم يوجد فيه إلا مهان واحد أو حقير واحد أو نذل واحد أو غدار واحد أو خسيس واحد أو مصلوب واحد أو جائع واحد أو أعمى واحد أو مشوه واحد أو دميم واحد أو مظلوم واحد أو ضائع واحد أو معتوه واحد؟ أليس وجود الأعمى أو المشوه أو الدميم أو الجائع أو المريض دمامة ثم وجود المبصر أو السوي أو الجميل أو المتخم أو السليم المعافى مواجهاً لنقيضه دمامة أخرى؟ أليس وجود المصاب بلا نقيض أقل دمامة وفجوراً؟

هل يمكن أن يكون هذا الكون جميلاً، أو هل يمكن الغفران لمن يتحدثون عن جماله حتى ولو لم يوجد فيه إلا طاغية واحد، حتى لو لم يوجد فيه إلا زعيم واحد ـ إلا ما في نفس زعيم كبير واحد من البذاءات والأحقاد والفحش والظلام والكبرياء والغباء، ومن الأكاذيب والسوء، ومن نيات الغدر والخيانة والبطش، ومن الآثام والدمامات، ومن الهموم والمخاوف والجراح، ومن الأشباح والأموات والقتلى والمقابر، ومن احتمالات الحروب والجنون والويلات والمآتم؟ أواه، ما أعظم وأبشع ما في نفوس وقبور الزعماء والقادة من القتلى والمآتم والهموم.

ما أقبح وأبشع وأكثر المقابر المدفونة في نفوس وأخلاق وأقدار الزعماء والقادة والمعلمين الذين كانوا والذين سوف يكونون.

إن ما في مقبرة قائد واحد من قادة التاريخ العظام ـ إن ما في مقبرة قائد واحد من الآلام والخراب والهموم والتشويهات ومن الأرامل والأيتام والجثث التي كان قد أهداها يوماً للأرض ولآلهة الكون، والتي وضعت معه في مقبرته كأوسمة من الجحيم، وكصبيغ للجمال، لجمال البشر، وجمال الكون والحياة والمذاهب والأديان والآلهة والحروب والمعلمين الذين قد يكونون من دعاة ذلك.

نعم، إن ما في مقبرة مثل هذا القائد من هذه الويلات المدفونة معه في قبره والموضوعة في حسابات جمال الإنسان والتاريخ والحياة، ليجعل أي تحدث عن أي جمال في الكون أو في الحياة أو في الأشياء أو في الآلهة أو في الإنسان استهزاء وقحاً.

كم من الأيتام والأرامل والمشوهين المدفونين مع جثة أي قائد عظيم قد دفن مجد التاريخ في قبائحه وعاهاته وذنوبه.

إن ما في الشمس، أو ما في النهر، أو ما في السحاب من احتمالات الخراب والذنوب والعذاب والبلادة والوقاحة والعدوان والتشويهات ـ إن ما في تاريخ الشمس، أو ما في تاريخ النهر، أو ما في تاريخ السحاب من ذلك ليجعل كل حديث عن الجمال في أي شيء استهزاء وقحاً. نعم، كم في

تاريخ وحياة واحتمالات السحاب والشموس والأنهار من خراب وعدوان وتعذيب وبلادة ووقاحة وتشويه.

إن ممارسة الإنسان لنفسه أو لجوعه أو لشبعه أو لهمومه أو لمسراته أو لخوفه أو لأمنه أو لحبه أو لبغضه أو لأعضائه، أو لأربابه، أو لعباداته وصلواته وإيمانه أو لعلاقاته أو لصداقاته.

إن ممارسة الإنسان للغاته أو لتعاليمه أو لنياته أو لأكاذيبه أو لكل احتياجاته وأحزانه.

إن ممارسته للآخرين أو للأشياء أو لموته أو لحياته أو لمجيئه أو لذهابه.

نعم، إن ممارسة الإنسان لكل ذلك وما في هذه الممارسة من حقارات ومخاوف وصغائر ودمامات لتجعل كل حديث عن الجمال في أي شيء، في أي مكان استهزاء وقحاً.

إن أي إنسان يجرؤ على التسلل بنظراته إلى داخل نفسه، إلى مشاعره ومخاوفه، وإلى نياته واهتماماته ورغباته، وإلى ضعفه ونقائصه، وإلى تلوثاته، وإلى حقده وكرهه وغيرته ـ إلى ما يريد، إلى كل ما يريد ويتمنى، إلى ما يصنع له الفرح وما يصنع له الحزن، إلى ما يصنع له الهزيمة وما يصنع له الانتصار، إلى ما يصنع له التكبر وما يصنع له الاتضاع.

نعم، إن أي إنسان يجرؤ إلى النظر بجسارة إلى داخل نفسه، إلى ما يتقاتل فيها من حشرات يحاول أن يزورها، أو أن يخفيها بكل ما ابتكر البشر من لغات وبلاغة وتعاليم، ومن آلهة وأديان ومذاهب ونظريات ومنابر ومن أنبياء ومعلمين.

إن أي إنسان يجرؤ على النظر إلى عالم نفسه الداخلي بلا أغطية أو حواجز أو حراسات فلن يستطيع أن يرى أي جمال في أي مكان، في أي شيء مهما كانت وقاحة عينيه، أو مهما كانت قدرة عينيه ومشاعره على الكذب والغواية والوقاحة، بل مهما كان فاجر الرؤية، فاجر الغباء.

إن أي إنسان يستطيع أن يتسلل إلى داخل نفسه بأية وسيلة ليواجه ويعرف ويتعامل فلن يجرؤ على التحدث عن أي جمال مهما كانت بذاءاته وفجوره اللغوي والأخلاقي والنفسي، مهما كان فجور ناسيره.

ولو أن أقوى إنسان إيماناً لبس زي الشيطان وشخصيته لكي يستطيع بسهولة أن ينفذ إلى نفس نبيه ومعلمه، وليتغلغل في كهوفها ودروبها، وليعيش فيها ويشاهد ويعاني ويجرؤ ويكتشف نياتها وأخلاقها وعوالمها الخبيثة، ثم استطاع أن يفعل ذلك وأن يمارس هذه الرحلة العجيبة الرهيبة غير الشائقة داخل نفس نبيه ومعلمه ـ لكان الجواب المعقول أن يحمل السلاح ليقاتل كل من يتحدثون عن أي جمال في هذا الكون، وعن أي جمال في نفوس المعلمين العظام، في نفوس من يعلمون جمال السماء وجمال الآلهة.

إنك لو استطعت أن تقتحم بعيون مبصرة محدقة نفس واحد من هؤلاء المعلمين الخالدين العظام

الذين جاءونا ليبلغونا حدود طموح الإله وشهواته، وليقرأوا علينا قصائده في تمجيده لنفسه وفي تحقيره لنا تمجيداً لنفسه أيضاً، لهالك أن تسمع أي حديث عن الجمال.

ولو أن أعظم نبي استطاع أن يقوم برحلة داخل نفس إلهه الذي بعثه ليعلم الناس جمال الحب وجمال البغض وجمال التعصب وجمال التسامح، وجمال الرحمة والرفق، وجمال القسوة والعنف ـ لكانت هذه الرحلة هي أعظم اكتشاف، لأعظم معرض، تتجمع فيه أعجب وأعظم الدمامات. إن الإله لو جرؤ على النظر إلى داخل نفسه لكان تحدثه عن الجمال أكثر استهزاء من تحدث الشيطان عن حبه وصداقته للإنسان. ولكن أليس الشيطان صديقاً ومحباً حقاً للإنسان؟

هل يوجد محب أو صديق للإنسان مثل الشيطان أو غير الشيطان؟ أليس هو المعلم لقلب الإنسان كل رقصاته وخفقاته النشوى؟ أليس الشيطان هو التعويض النبيل يقدمه الكائن المجهول اعتذاراً عن كآبة الآلهة والمعلمين والمذاهب والعقائد؟

أيها الأطفال، أيها الأطفال المتحدثون عن الجمال. إن حديثكم عن الجمال هو أقسى أساليب الدمامة. إن حديثكم أيها الأطفال عن الجمال هو أصدق الأحاديث عن الدمامة، إنه أقوى أساليب التعبير عنها. أيها الأطفال ـ أيها الأطفال ـ إن رؤيتكم للدمامة جمالاً هي أعنف مستويات الدمامة. إن رؤية الدمامة جمالاً لن تكون إلا دمامة.

لقد عشتم الدمامة، وعاشتكم الدمامة. إنكم لن تعيشوا سواها، ولم تروا سواها ولم تتعاملوا مع سواها، ولم تفهموا سواها.. حتى ذهبتم تتحدثون عن جمالها، وحتى حولتم آلهتكم وأنبياءكم وكل وعاظكم ومفكريكم إلى شعراء يتغزلون بجمالها، ويصلون لجمالها.

أيها الأطفال، أيها المتحدثون عن الجمال، عن جمال الدمامة..

أيها الأطفال، أيها الأطفال.

إنكم أيها الأطفال لم تعيشوا سوى الدمامة، فلم تستطيعوا أن تعرفوا أنها دمامة. إنكم لم تعرفوا. كيف تعرفون أيها الأطفال؟

إن أسوأ مستويات الدمامة أيها الأطفال أن تتحدثوا عن جمالها. أن يوجد من يتحدثون عن جمالها..

أيها الأطفال، أيها الأطفال.. أيها المتحدثون عن جمال الدمامة.

إن حديثكم هذا هو أسوأ دمامة تمارسونها، وأقسى دمامة تمارسكم..

أيها الأطفال.. أيها المتحدثون عن جمال الدمامة، عن جمال المرض والموت والشيخوخة والتشويه، وعن جمال الذباب والبرغوث.. أيها المتحدثون عن جمال الكون والحياة اللذين فيهما كل هذا، وعن جمال الإله أو المنطق الذي يخلق ويدبر ويتقبل كل هذا.

أيها الأطفال المشوهون الحزانى. أيها الأميون بعيونهم واشتراطاتهم وأحاسيسهم وباشمئزازهم.

أيها الأنبياء والمعلمون والشعراء والوعاظ. أيها المحدثون عن الجمال لأنهم لم يعيشوا أو يجدوا أو يروا أو يصنعوا إلا الدمامات..

توجد قولة مشهورة تقول: «كن جميلاً تر الوجود جميلاً». وهذه القولة يجب ألا تفهم وألا تفسر لكي تظل صادقة ومفهومة ومفسرة ومنشدة باستمتاع وإيمان وتعبد.

إن أكثر حقائقنا أو كل حقائقنا يجب ألا يحاول فهمها أو تفسيرها أو التدليل عليها لكي يظل الاقتناع بها ممكناً، ولكي تظل مفهومة ـ نعم ولكي تظل مفهومة. إن أكثر الحقائق لا يمكن فهمها إلا بالعجز عن فهمها وبالكف عن محاولة فهمها.

... ماذا يعني أن تكون جميلاً؟؟ هل يعني أن يكون وجهك أو عقلك أو تهذيبك أو أخلاقك أو نفسك جميلة؟ وماذا يعني هنا بأن يكون وجهك أو عقلك أو نفسك أو أخلاقك جميلة؟ وماذا يعني أنك سترى الكون جميلاً لو كان عقلك أو وجهك أو نفسك أو أخلاقك جميلة؟

ما العلاقة أو التلازم بين جمال وجهك أو عقلك أو أخلاقك وبين جمال الكون، أو بين ذلك وبين رؤيتك للكون جميلاً؟ ألا يمكن أن يكون عقلك أو خلقك أو وجهك جميلاً ثم يكون الوجود دميماً أو أن تراه كذلك؟ ألا يمكن أن يكون عقلك أو خلقك أو وجهك دميماً ثم يكون الوجود جميلاً أو أن تراه جميلاً؟ ـ ألا يمكن؟

هل تتحول الحشرات والعاهات والتفاهات والطغيان والمظالم والعبث والأكاذيب والغباوات والحقارات والأوبئة والزلازل والبراكين وحماقات التوزيع في الطبيعة وجميع الآلام والأحزان والتلوثات إلى جمال، أو هل تراها جمالاً لو أن عقلك كان جميلاً، أو لو أن وجهك كان جميلاً، أو لو أن أخلاقك كانت جميلة؟ هل من الجمال أن ترى الذنوب أو المظالم أو المفاسد أو الآلام جمالاً؟

أليس هذا يساوي أن يقال: كن إنساناً تر الطغيان والحروب والقتل والعدوان شيئاً جميلاً، أو كن نبياً تر الزندقة شيئاً جميلاً؟

أليس هذا مثل أن يقال: كن جيد العقل والنفس والأخلاق، أو جميل العقل والنفس والأخلاق والوجه لتصبح الدمامات والحقارات والمظالم والتشوهات جميلة، أو لكي تراها جميلة؟

أليس هذا يعني أن يقال: كن ذكياً لكي يصبح الغباء جميلاً، أو لكي تراه جميلاً، أو كن صادقاً ومحباً وصديقاً ورحيماً ونظيفاً وشريفاً وعادلاً لكي ترى الأكاذيب والبغضاء والقسوة والظلم والنذالة والتلوث والحقارة جمالاً، أو لكي يصبح كل ذلك جمالاً... كن جميل الوجه والجسم لكي تصبح كل الدمامات في كل الوجوه والأجسام، وفي كل الأشياء جميلة أو لكي تراها جميلة؟

أليس صحيح أن يقال العكس، أن يقال: «كن جميلاً تر الوجود دميماً» مثل أن يقال: «كن عادلاً تر الظلم دميماً، وكن رحيماً تر العنف دميماً، وكن محباً تر البغض دميماً، وكن متسامحاً تر التعصب دميماً، وكن مؤمناً تر الكفر شيئاً دميماً، وكن وفياً تر الغدر شيئاً دميماً؟».

أليس الأصح من تلك القولة أن يقال:

«كن دميماً تر الوجود جميلاً ـ كن غبياً تر الوجود جميلاً ـ كن ضئيلاً، كن غير ناقد، كن غير مبصر، كن بلا خيال، وبلا طموح، كن كل ذلك تر الوجود جميلاً..»؟

«كن بلا احتجاج وبلا رفض وبلا غضب وبلا شروط وبلا منطق تر الوجود جميلاً».

«كن صرصاراً، كن أية حشرة تر الوجود جميلاً، أو يصبح كل شيء في الوجود جميلاً، أو لئلا تبصر في الوجود ما ليس جميلاً»؟

إن الدميم البليد الضئيل الذي لا يملك غضباً ولا رفضاً ولا احتجاجاً ولا خيالاً ولا حساً ولا عقلاً ناقداً قد يرى الوجود جميلاً، أو قد يعجز عن رؤية دماماته، أو قد يغفر له دماماته، لأنه بلا مستوى ولا احتجاج ولا شروط عقلية أو أخلاقية أو فنية تجعله ينكر أو يرفض أو يغضب أو يطالب أو يعاف شيئاً ـ يعافه بعقله أو بأخلاقه أو بكبريائه أو بخياله أو بأي مستوى من مستوياته. أما الإنسان الآخر الذي هو أكبر من ذلك فلا بد أن يفجعه الكون وتفجعه كل الأشياء بدمامتها وتفاهاتها وذنوبها. إنه لا بد أن يواجه كوناً لا يستطيع فهمه ولا غفرانه ولا تقبله. إنك بقدر ما تكون كبيراً وجميلاً ونظيفاً وإنساناً ترى ذنوب الأشياء وعاهاتها ودماماتها.

إن رؤية الدمامة مستوى من مستويات النقد. إن الناقد يرى الدمامة ويرفضها ويبالغ في رؤيتها وفي رفضها. ولكن الذي لا ينقد لن يستطيع أن يرى أية دمامة مهما بشعت وعظمت، فكيف إذن يرفضها؟

والنقد أليس مستوى من مستويات الجمال وفناً وتفسيراً من فنونه ومن تفاسيره؟

إن الإلحاح في رؤية الدمامات والنقائص والذنوب في الأشياء مستوى إنساني. إنه كلما ارتفع البشر في مستوياتهم الإنسانية رأوا دمامات الأشياء ونقائصها وذنوبها أكثر، بل أصبحوا مرضى بالرؤية. إن رؤية الذنوب والدمامات والنقائص مستوى إنساني. إن المستوى الإنساني مريض بالرؤية، مريض برؤية الذنوب والعاهات والآلام، مريض بنقدها وبالغضب منها وبالتفجع بها. إن المستوى الإنساني مريض بالكون، برؤية عيوبه.

إن الإنسان مستوى من مستويات النقد، إذن هو مستوى من مستويات الرؤية، إذن هو مستوى من مستويات الرفض والاحتجاج والغضب، إذن هو مستوى من مستويات الإحساس ومن مستويات الإدراك لدمامات الوجود ونقائصه وذنوبه. إن المرض إذن برؤية الذنوب والعاهات والآلام مستوى إنساني. إن رؤية الدمامات والتفجع بها مستوى إنساني. إن الإنسان بقدر ما يكون كبيراً يكون مريضاً برؤية ذنوب الأشياء وعاهاتها.

إذن فالإنسان الجميل ليس هو الذي يرى الوجود جميلاً، وليس هو الذي يصمت عن دمامات الوجود، وليس هو الذي يقتات بها هاتفاً ومنشداً ومصلياً لأربابها المتفضلين.

إن الذي لا يرى دمامات هذا الوجود، أو الذي لا تثيره دمامات هذا الوجود، أو الذي يصمت عن دمامات هذا الوجود لهو إحدى دمامات الوجود، بل لهو أكبر دمامات هذا الوجود. إن الصمت عن الغضب من الدمامات، وعن رؤيتها ونقدها، وعن التفجع بها، لهو مستوى بليد من مستويات الدمامات. إن الصمت عن مقاومة الدمامات بالرؤية والفكر والغضب والاشمئزاز لهو دمامة بليدة حزينة مهينة.

إن الذي يمتدح نفسه أو يمتدح إنساناً آخر بكونه يرى الوجود جميلاً، أو بكونه يرى كل ما في الوجود جميلاً، أو بكونه لا يرى في الوجود شيئاً دميماً ـ لهو إنسان يثني على نفسه ويثني على من يثني عليه بكونه إنساناً لا يستطيع أن يرى، ولا يستطيع أن ينقد، ولا يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الإنسان الذي يقاوم بمشاعره أو بمنطقه أو بعينيه أو بلغته.

إن الذي لا يرى دمامات الأشياء، أو الذي يرى الأشياء جميلة، هو كالذي يرى كل الأشياء عادلة وذكية. إن ذلك إنسان لا يقاوم، ولا يشترط. إنه إنسان فاقد المستويات. إنه إنسان بلا تفاسير الإنسان.

إن هذا الثناء يشبه أن يثني على نفسه أو على من يريد الثناء عليه بكونه لا يرفض الهوان ولا يرفض الهزيمة ولا يرفض التلوث ولا السقوط ولا الدناءة ولا العار ولا التشوه.

بكونه يتقبل كل شيء ويمارس كل شيء ويستجيب لكل شيء، ولا يغضبه أو يؤلمه شيء.

بكونه حشرة في ممارساته وتلوثه وتقبله، وبكونه أقل من حشرة باقتناعه وإيمانه، وبرؤيته وثنائه وإعجابه المنطوق المتحول إلى لغة وشعر وتعاليم وتفكير، المتحول إلى نبوات وإلى آلهة وإلى كتب مقدسة ـ بكونه متفوقاً على الحشرة في ذلك. إن جميع تعاليم المعلمين الخالدين ليست إلا ثناء على الدمامات وتعليماً لها.

يا له من ثناء هو أقسى أساليب الذم، ويا له من ذم يثني به الإنسان على نفسه وعلى أربابه ومعلميه.

إن الثناء على من يرى الوجود جميلاً كالثناء على من يرى عذابه، أو طاغيته أو مذهبه أو إلهه أو نظامه ودينه أو وطنه أو وجوده الأليم الرديء البليد جداً جميلاً وعادلاً ومتفوقاً وبلا أي عيب أو ذنب، إن الثناء في الحالتين هو ثناء على الاستسلام والهوان والطاعة. فالاقتناع بأن الحاكم أو النظام أو الدين أو المذهب أو الوطن أو المستوى الموجود أو المفروض جيد وعادل ونموذج في مزاياه ـ اقتناع مطلوب لأنه يتحول إلى طاعة وتقبل واستسلام للأقوياء والمسيطرين والحاكمين من زعماء وقادة ومعلمين ووعاظ. وكذلك الاقتناع بأن الوجود جميل أو ذكي أو عادل أو بأنه صياغة منطقية، يهب نفس النتيجة، أي يهب الرضا والتقبل والاستسلام الذي يطالب به دائماً الأقوياء والمتسلطون وكل أصناف المعلمين والماكرين. إن المطلوب دائماً أن تكون الجماهير متقبلة وراضية ومستسلمة. إنه لا مجد

للأرباب ولا للزعماء والمعلمين إلا بأن تكون الجماهير كذلك. إن تقبل عاهات الكون ثناء على القادة والمعلمين والأقوياء.

... إن الأرباب والمبلغين عنهم يفرضون دائماً على المؤمنين الاقتناع بأن كل ما في الوجود هو أعظم الصيغ الجمالية والعقلية والأخلاقية. إن الفكرة في ذلك هي الرغبة في إخضاع المؤمنين وفي جعلهم يتقبلون ممارسة الطاعة والاستسلام، وممارسة الآلام والإهانات والدمامات بلا أية شروط، وبلا أي تفكير في الرفض أو الاحتجاج أو حتى التساؤل عما يعانون أو يرون أو ينتظرون أو يعرفون. إنها بحث عن الطاعة بكل مستوياتها وصيغها وأساليبها، وبكل أسبابها وتفاسيرها ومنطقها.

إن الدعوة إذن إلى رؤية الوجود جميلاً، وإلى الاقتناع بأنه كذلك، لا يعنى بها إلا الدعوة إلى الخضوع والطاعة والاستسلام والتقبل والتجرع. إنها دعوة إلى الصلاة، إلى الركوع في كل معبد، وإلى تقبل كل الإهانات والآلام والمظالم، وإلى شكرها، وإلى الإيمان بكل الآلهة دون اشتراط عليهم أو فيهم أو لهم ـ دون اشتراط أي مستوى لأخلاقهم أو لذكائهم أو لمواهبهم. إن رؤية الجمال في الكون أو في الأشياء أسلوب من أساليب الغفران لجميع الآلام والإهانات، إن الذين يدعوننا إلى أن نرى الوجود أو كل شيء جميلاً إنما يدعوننا إلى أن نغفر بل ونتقبل جميع الآلام والإهانات والحقارات.

... إن هذه الدعوة إذن ليست دعوة إلى الجمال أو إلى رؤية الجمال أو التخلق به. إنها دعوة إلى رؤية الطغيان جميلاً، وإلى رؤية الظلم جميلاً، وإلى رؤية الكذب جميلاً، وإلى رؤية الغباء جميلاً، وإلى رؤية المرض والتشوه والموت والألم جميلاً ـ إلى رؤية كل الآلهة القاتلة الدميمة الغبية جميلة وصديقة ورحيمة وعبقرية. إنها دعوة إلى التسليم دون أية مقاومة بأي أسلوب وعلى أي مستوى حتى ولا بالرؤية، دون أية مقاومة حتى ولا بالغضب.

إن التمرد على رؤية الوجود جميلاً لهو تمرد على أضخم الأكاذيب والغباوات وأشملها وأكثرها افتضاحاً وتوقحاً. وهل توجد أية غباوات أو أكاذيب غير غباوات وأكاذيب الوجود؟

إن التمرد على الدعوة إلى رؤية الوجود جميلاً لهو تمرد على الدعوة إلى تحويل أبشع الدمامات إلى أديان ومذاهب وفلسفات، وإلى أخلاق آلهة وأنبياء، وإلى منطق آلهة وأنبياء.

إن التمرد على رؤية الوجود جميلاً لهو تمرد على رؤية أي إله أو أي نبي أو أي منطق أو أية أخلاق أو أي جمال في الأمراض أو في الأحزان أو في الموت أو في الشيخوخة أو في التشوهات أو في الزلازل والبراكين أو في الجوع أو في الحسد والحقد والبغضاء والعداوات.

إن التمرد على رؤية الوجود جميلاً لهو تمرد على الإنسان المستسلم المتقبل المتجرع الجبان العقل والنفس والأخلاق والمستوى. إنه تمرد على الإنسان الذي كان أو على الإنسان الحشرة أي على الإنسان الذي يتقبل ويمارس كحشرة، ويؤمن ويقتنع ويمتدح أقل من حشرة. على الإنسان الذي هو

أقل من حشرة لأنه هو يتقبل ويمارس ثم يذهب يؤمن ويثني، أما الحشرة فإنها تتقبل وتمارس فقط دون أن تؤمن أو تثني على تقبلها وممارساتها.

إن التمرد على رؤية الوجود جميلاً لهو تمرد على الحشرة في الإنسان، وعلى المستوى الذي هو أقل من حشرة في الإنسان. إنه تمرد على الإنسان الذي حول تقبل الحشرة وممارساتها فيه إلى منطق وتدين ونبوات وتعاليم وفنون وصلوات، إنه تمرد على تحويل أخلاق وغرائز وجوع الحشرة في الإنسان إلى آلهة وأنبياء ومذاهب وأديان، إلى مستويات وتعاليم آلهة وأنبياء ومذاهب وأديان.

إنه تمرد على الإنسان الذي لم يكتف بأن يتقبل ويمارس الآلام والهوان والحقارات والذنوب والغباء والعبث والجوع كحشرة، بل يرتفع بتقبله وبممارساته هذه إلى تقبل وممارسات للجمال، للجمال الذي يجب أن يحول الإيمان به إلى دعوة - إلى مزية - إلى ثناء على نفسه لأنه يؤمن به، ولأنه يدعو إلى الإيمان به، ولأنه يراه جميلاً، ولأنه يدعو إلى رؤيته جميلاً.

إن التمرد على رؤية الوجود جميلاً لهو أعلى وأشمل مستويات التمرد، لهو أشجع وأذكى مستويات التمرد. إنه لتمرد على كل الطغيان والغباء والكذب والعبث، وعلى كل الدمامات والتفاهات والحقارات والمظالم والآلام. إنه تمرد على كل ذلك ولو بالتفكير والمنطق والنموذج.

إنه تمرد الإنسان في صيغته الفكرية والأخلاقية والنفسية التي تهزم فيها كل مستويات الحشرة في كل ممارساتها وتقبلها. إنه تمرد الإنسان في صيغته التي قد يكون مجيئها ليس خلقاً من أخلاق الحياة، ولا شوطاً من أشواطها، ولا أملاً من آمالها، ولا فكرة من فكرها، ولا أنشودة من أناشيدها. إنه تمرد الإنسان في صيغته التي قد يكون مجيئها مشكوكاً فيه، مشكوكاً فيه جداً.

* *

أيها المتحدث عن الجمال وحولك كل هذه العاهات والآلام والأحزان والدمامات...

.. أيها المصلي لجمال إلهك، ولأخلاق إلهك الجميلة وحولك كل هذه العاهات والآلام والأحزان والدمامات.

... أيها المبتسم لجمال وجهك وحولك كل هذه العاهات والآلام والأحزان والدمامات.

... أيها الناظر إلى المرآة بإعجاب وثناء وانبهار ومغازلة وحولك كل هذه العاهات والآلام والأحزان والدمامات.

أيها المحدق بعينيه بحثاً عن جمال القمر، عن جمال الإنسان من جمال القمر، وفي عينيك كل هذه الدمامات والعاهات والآلام والأحزان، وفي أذنيك كل هذه الآهات والصرخات والأنين العاجز عن أن يكون صراخاً، وفي ضمير تاريخك كل بلادة الآلهة والطغاة والمعلمين، وكل قسوتهم ودماماتهم.

أيها المتحدث عن جمال الإنسان وفي نفسك كل هذه الذنوب والأحقاد والبغضاء، وفي نفسك

وفي أعضائك كل هذه الآفات والآثام والتلوثات والحشرات والجوع إلى الحشرات والآثام والتلوثات...

أيها المتحدث عن جمال الإنسان وأنت تعايش أعضاءك ونياتك، وأنت تعرف كيف تتعامل بك أعضاؤك ونياتك، وكيف تتعامل بأعضائك ونياتك، وأنت تعرف بماذا تطالبك أعضاؤك ونياتك، وأنت لا تخفى عليك تفاسير أعضائك أو نياتك، وأنت تعرف كيف تجوع أعضاؤك ونياتك، وإلى ماذا تجوع أعضاؤك ونياتك، بل وأنت تعرف إلى ماذا تجوع مذاهبك وآلهتك وأديانك....

أيها المبهور بجمال تعاليمك أو بجمال مذاهبك وأديانك...

أيها المبهور بجمال زوجتك وأبنائك، وبجمال قديسيك وأنبيائك وحولك كل هذه العاهات والآلام والأحزان والدمامات.

إنك لتسحقني ذعراً واشمئزازاً وغضباً.. إنك لتسحقني..

إنك لتشتمني.. أيها المبهور بعينيك. إنك لتشتمني..

أيها المتحدث عن جمال الوجود الذي فيه كل هذه الدموع والحقارات والتشوهات. والذي فيه كل هذا الضياع والعبث والضلال..

.. وكل هؤلاء المشوهين والمشتومين والمهانين والمهزومين والمحقرين والبله..

.. والذي فيه كل هؤلاء الطغاة والآلهة والمعلمين، وكل هذه النظم والمذاهب المتعصبة والعدوانية الغبية.

أيها المتحدث.. إنك لتشتمني، إنك لتسحقني ذعراً واشمئزازاً وغضباً.

* *

أيها المتحدث عن جمال وجود يبصق ذبابه على عيون أطفاله، وعلى نفوس أنبيائه، وعلى توابيت أربابه دون أن يمنع ذلك طغاته أو قضاته أو تعاليمه أو مذاهبه أو أديانه أو شموسه وأقماره ـ دون أن يمنع ذلك جماله، حتى جماله لا يمنع أن يتقيأ ذبابه على عيون أطفاله، وعلى نفوس أنبيائه، وعلى توابيت أربابه. حتى جماله، حتى جماله.

لا تحدّق في القمر

«لا تحدق في آلهتك ولا في زعمائك وأنبيائك، ولا في مذاهبك وأديانك ونظمك.. لا تحدق في ثوارك ووعاظك. لا تحدق في أشيائك فإن تحديقك فيها يقتلك أو يقتلها، إنه حتماً يفسد علاقات الحب والاحترام بينك وبينها. لا تحدق فإن التحديق يفسد حبك وإعجابك بعينيك. لا تحدق فإن التحديق عدوان على مرئياتك.. لا تحدق في القمر فإنه جميل، فإن كل جمال في وجه الإله وفي أخلاقه يعيش في وجه القمر وفي ذكائه. لا تحدق في وجه القمر لكي يظل جميلاً، لكي تظل تراه جميلاً لا تحدق فإن التحديق عدوان على الجمال وعلى الإيمان، إن التحديق يقتل كل جمال الأشياء. لا تحدق فإن التحديق عدو لعينيك، إنه يفسدهما ويحولهما إلى خائنتين لك، وإلى مكذبتين لك. إن التحديق يحوّل عينيك إلى عدوان عليك وعلى كل الأشياء.. إلى عدوان على جمال الآلهة وعلى جمال الزعماء والمعلمين وعلى جمال المذاهب والعقائد، وعلى جمال الشعر والحب والموسيقى وعلى جمال الانتصارات. لا تحدق لئلا تفقد الإيمان بمزايا العيون، لئلا تفقد الإيمان بمزايا الشمس وبضخامة الإشراق فيها. لا تحدق لئلا تعجز عن رؤية الجمال في عيون النجوم المتطلعة إليك وإلى أحزانك بمودة ورثاء وأحزان. لا تحدق فإن التحديق قاتل لكل آلهتك، مفسد لجمال مرآتك، لنظراتها الحانية عليك.. لا تحدق فإن إلهتك لا تخاف شيئاً مثلما تخاف التحديق، ولا تنهاك عن شيء مثلما تنهاك عن التحديق. لا تحدق فإنه لا شيء يقتل إلهك سوى التحديق.. لا تحدق في القمر لكي يظل جميلاً وتراه جميلاً ولكي يظل الإله المطل من وجه القمر جميلاً..»

إذا أغضبتنا أفكار أو مذاهب أو عقائد أو آلهة لا توافق أفكارنا أو مذاهبنا أو عقائدنا أو آلهتنا وحاولنا معاقبتها فإن كان الذي أغضبنا هو سقوطها أو انفجارها في رؤوس أصحابها أو في رؤوس المصابين بها، فهذا شيء لا يستحق الغضب، بل لا يجوز أن يغضب، وهو شيء لا يستطاع منعه أو تحريمه بالعقاب. إنه عمل وظيفي من أعمال العقل، يجيء اضطراراً. إنه ليس اختياراً يخضع للرضا والغضب والإنكار، أو للتحليل والتحريم والأمر والنهي. إنه كسقوط الرؤية في العين، وكاختلاف الألوان أمامها وفيها، وكإيراق الشجرة، وكسقوط الحزن والابتهاج في القلب حين وجود أسبابهما وظروفهما. إن ذلك كوجود الطاقة في العضل والإحساس في الجهاز العصبي. إن ذلك كمجيء الإنسان في صيغة إنسان، كمجيء لون جلده في لون جلده، وكمجيء عينيه أو أذنيه في مكانهما وبالصيغة التي جاءتا بها.

وبقدر ما هو جنون وظلم معاقبة العين على عمل الرؤية فيها وعلى اختلاف الألوان أمامها وعلى تفريقها أو تمييزها بين الألوان، أو معاقبة القلب على الابتهاج والاكتئاب، أو معاقبة الشجرة على الإثمار أو على نوع ثمرتها، كذلك هو جنون وظلم ومعاقبة العقل على طاقة الحكم والنقد فيه، أو على قبوله ورفضه، أو على إعجابه واشمئزازه، أو على تعامله مع نفسه ومع الأشياء حوله.

إن الاختلاف بين عقل وعقل في الحكم على الأشياء، واختلاف الرؤية فيهما، واختلاف الأرباب والمذاهب والمرائي الساقطة فيهما هو اختلاف في الطاقة والحركة والظروف. وليس اختلافاً في الإرادة أو في صداقة الخير والحق، أو في صداقة الشر والباطل. إنه كاختلاف بصر وبصر، أو عضل وعضل، أو أذن وأذن في العمل والقدرة، وفي الاستقبال والعجز. وفي القبول والرفض.

إن معاقبة العقول والأفكار على اختلافها أو على إيمانها وإنكارها، أو على صفات أو جنسيات المذاهب والأرباب والمعتقدات الموجودة فيها، المتسلطة عليها، يساوي معاقبة الحواس على تفاوتها أو على اختلاف مرئياتها ومحسوساتها. وإذا كان الفكر الذي يخالفنا ضالاً ـ أو مهما افترضناه كذلك ـ

فإنه لن تجوز لنا معاداة أو معاقبة صاحبه إلا إذا جازت لنا معاقبة الناس أو معاداتهم حينما يعجزون عن الاتفاق على مرئياتهم ومسموعاتهم لما بين أعضائهم وحواسهم من تفاوت في الصحة والمرض والقدرة والطبيعة.

إنه يجب الرثاء لمن يخالفنا إذا كان مخطئاً مثلما يجب الرثاء لمن لا يستطيع أن يسمع أو يرى لآفة في إحدى حاستيه أو في حاستيه معاً. إنه لن يجوز لك أن تحتقر أو تبغض إنساناً لأنك ترى الصواب أكثر منه إلا بمقدار ما يجوز أن تحتقر أو تبغض صديقك لأن قلبك أو بصرك أقوى من قلبه وبصره.

إنك إذا عاديت أو عاقبت أو احتقرت من لم يستطع أن يقتنع بمذهبك أو بدينك أو بإلهك، أو من لم يستطع أن يرى جمال إلهك أو دينك أو مذهبك كما تراه أنت، أو كما تحسب أنك تراه، فإنك في سخفك وبلادتك ووحشيتك لن تكون أفضل ممن يعاقبك أو يعاديك أو يحتقرك لأنك لم تستطع أن ترى الهباءة التي يراها هو في الظلمة، أو التي يزعم أنه يراها، أو التي يظن أنه يراها، مثلما يراها، أو لأنه يسمع أبعد منك، أو لأنه يسمع الأصوات التي لا تسمعها أنت لأنها لا توجد إلا في أذنيه.

إن اختلاف الفكر الواحد وتغيره في حكمه على الأشياء ليس إلا ولادة طبيعية متعددة مختلفة ناتجة عن عديد من العمليات التي منها الظروف والتعب والراحة والإيحاء والتحريض والصحة والمرض والوضع الاجتماعي والحالة النفسية والقراءة وقانون التراكم والقلق والمال والعرض الذاتي. وهذه الظروف والأسباب التي لا استقرار ولا صيغة دائمة لها محتوم أن تصنع دائماً حالات ورؤى واستجابات فكرية لا استقرار ولا صيغة ولا تحدد أو توحد لها. إنها لا بد أن تصنع عديد الولادات المختلفة في صفاتها وأخلاقها وفي صحتها ومرضها وفي قوتها وضعفها. إنها لا بد أن تصنع آلهة ومذاهب، وأن تسقط آلهة ومذاهب، وأن تصنع لهذه الآلهة والمذاهب أشتات الصور والقيم والصفات والتفاسير.

إن انتظار إله أو مذهب واحد بصورة واحدة تحت كل هذه الظروف والأسباب يساوي انتظار حدث واحد بصيغة واحدة على بعد واحد تحت كل وحدات وعمليات كل هذا الكون. إن بقاءك كل حياتك على مستوى واحد من الانفعالات أو بصيغة انفعالية واحدة ليس أقوى في قانون الاحتمالات من بقاء إله واحد أو مذهب واحد بمستوى واحد من القوة والجمال والوضوح في اقتناعك، كل حياتك، تحت كل ظروفك.

إن كل حالة من هذه الحالات طبيعية لأنها تعبير طبيعي عن تجمع وتزاحم عوامل معينة يكون محتوماً أن تلد هذه الحالة الفكرية بعد أن يكون محتوماً أن تحبل بها، كما يكون الحبل بحالة المطر وولادته تعبيراً محتوماً عن جمع من العمليات والاحتشادات الطبيعية، عن حشود من أخلاق الطبيعة وضروراتها وهمومها. والتقلب أو التفاوت أو التعاقب في حالات المطر وفي حالات الفكر، أو في حالات الرؤية العقلية لا يعني وجود عمليات ذاتية منفصلة عن ظروفها وأسبابها، أو متحررة في تكونها أو في سلوكها من الإلزامات الذاتية والخارجية. إنه لا حرية للنتائج في كونها نتائج، أو في

مجيئها وتعبيرها كما تحكم أسبابها إذا تجمعت أسبابها، كما أنه لا حرية للحبل في أن يكون حبلاً أو في أن يكون حالة محتومة تحت أسبابه، ولا للولادة في أن تكون ولادة، ولا للفكر في أن يكون قبولاً أو رفضاً، ولا للإله أو المذهب في أن يكون مقبولاً أو مرفوضاً، مقنعاً أو عاجزاً عن الاقناع. إن الإيمان بالآلهة والمذاهب نوع من الحبل بها ـ إنه أسلوب من أساليب الحبل. إن الإيمان بالآلهة والمذاهب ليس إلا حبلاً متولداً عن تلقيح. ولكنه حبل وتلقيح قد يكون غير شرعي وغير فاضل أو جيد أو ذكي.

إن موضوع الحرية هي الأسباب التي لم تصبح مسببة تسبيباً كاملاً. ولكن إذا لم توجد كل الأسباب الشرطية فلن يحدث الشيء، وإذا وجدت فلا بد أن يحدث حتماً. فمتى إذن يكون الشيء حراً في كينونته، وجوداً أو عجزاً عن الوجود، موجوداً أو غير موجود؟

إن الحرية هي أن تبدو وتتحرك وكأنك سبب أول فاعل مستقل بينما أنت نتيجة محكومة محتومة مفعولة، أو بينما أنت مسبب محكوم محتوم مفعول.

إن كل موقف من مواقفك المتغيرة ليس إلا نتيجة محكومة لأسباب حاكمة. إن انتقالك من مكان إلى مكان أو من موقف إلى موقف، أو من منطق ورأي إلى منطق ورأي آخر، أو من إرادة ما إلى إرادة أخرى مناقضة، حيث تبدو مطلق الحرية ـ إن انتقالك هذا ليس أكثر حرية من انتقال الطقس من حالة المطر والسحاب والضباب والبرد إلى حالة الصحو والشمس والدفء، أو العكس. إنها حرية في الرؤية والصورة والأسلوب، لا في التفسير ولا في وجود الأسباب ولا في كونها أسباباً ملزمة. وهل الحرية المحكومة بأسبابها الملزمة حرية؟ هل الحرية المحتومة حرية؟ أليست الحرية هي أن ما كان يستطيع ألا يكون، وأن ما لم يكن يستطيع أن يكون؟ وهل يوجد شيء يملك مثل هذه الحرية؟ هل توجد إذن حرية؟.

إنك لن تستطيع أن تقف موقفاً إلا إذا تجمعت الأسباب التي تجعلك تقفه أو تستطيع أن تقفه، وتريد أن تقفه. وإذا تجمعت أسباب موقف ما فهل تستطيع ألا تقفه؟ إذا كنت لا تستطيع ألا تقفه فكيف تكون حراً؟ وإذا كنت تستطيع ألا تقفه فكيف إذن وقفته، أو فلماذا إذن وقفته؟ إن الشيء بكل أسبابه مجتمعة محتوم، وبدون كل أسبابه المجتمعة لن يكون. إن ما كان ليس ممكناً ألا يكون، وإن ما لم يكن ليس ممكناً أن يكون. إن هذه هي كل القضية وكل الحرية.

إنك صيغة حرية لا منطق حرية ولا حالة حرية. إن المطر وكذا الحر والبرد صيغة حرية، لا حرية.

إن الحرية هي أن يكون الشيء حيث يكون محتوماً أن يكون، وألا يكون حيث يكون مستحيلاً أن يكون ـ أو هي: أن يكون الشيء كما لا بد أن يكون، وألا يكون بالأسلوب الذي به لن يكون. إن الحرية هي أن تتحدث عنها وأن تظنها وأن تكون كما هو محتوم أن تكون لا كما تريد أن تكون أو تدبر أن تكون.

إن الحرية هي أن تكون خاضعاً لهذا الطاغية أو لهذا المذهب حيث يكون محتوماً أن تخضع له،

وأن تنكره وتخرج عليه حيث يكون محتوماً أن تفعل ذلك. إن خروجك على الطاغية وخضوعك المهين له كلاهما حرية، أو كلاهما فقد للحرية. إنك تخرج عليه حين يكون الخروج محتوماً وتخضع له حين يكون الخضوع محتوماً.

إنك قد تشعر أنك حر. وقد تحاول أن تقنع الطبيعة بأنك أنت وحدك الحر دونها. وقد تذلها بالافتخار عليه بحريتك الواحدة في هذا الكون البليد الرهيب المستعبد بلا قوة أخرى تستعبده.

ولكن هل أنت حر لأنك تشعر أنك حر، أو لأنك ترى نفسك كالأسلوب الحر؟ ها، إنك تارة تكذب وتجبن وتسرق، وتارة تصدق وتكون شجاعاً وأميناً. إذن أنت حر.

ولكن، ها أن الطقس يكون غيماً وبرداً وأعصاراً يوماً، ويوماً يكون النقيض. إذن هو حر. إذن أنت حر كالطقس! ولكنك تنكر حرية الطقس. فهل أنت أكثر منه حرية؟ هل أنت إلا طقس؟ هل الإنسان إلا أسلوب من أساليب الطقس؟

* *

وأما إن كان الذي يغضبنا من الأفكار والآلهة والأديان والمذاهب المخالفة هو التعبير عنها وإبداءها، أي هو ولادتها لا الحبل بها، فهذا ليس صحيحاً في قصدنا أو سلوكنا. إننا لا نعاقب أو نؤاخذ أو نعادي المخالف لنا لأنه قد كشف لنا عن فكره أو عن مذهبه أو عن إلهه أو عن رفضه لأفكارنا أو لمذاهبنا أو لآلهتنا واعتقاداتنا، بل لأنه اعتقد ذلك. إننا نعده عدواً وضالاً وشريراً لأنه قد اعتقد، لا لأنه قد أعلن عن اعتقاده. إن إعلانه عن اعتقاده جعلنا نعرفه، لهذا نعاديه وقد نقاتله لأننا عرفناه، لا لأنه عرفنا بما في نفسه. إن التعريف ليس ذنباً ولكن الذنب هو ما عرف به. إن زندقتك في أن تعتقد الزندقة لا في أن تعلنها أو تكشفها.

والناس في الغالب يعدون الكشف عما في النفس فضيلة وشجاعة وصراحة يتحدثون عن الإعجاب بها وعن الشكر لمن يمارسها، حتى وإن كان ذلك الذي يكشفون عنه خطأً دينياً أو مذهبياً أو فكرياً.

إن اعتقاد الرأي المخالف لنا خطأ وذنب على هذا الحساب، وإن إظهار نقيضه خطأ أو ذنب آخر لأنه كذب ونفاق وخداع. إذن فالمعتقد المخالف المظهر لنا خلاف اعتقاده مذنب مرتين. أما المخالف المظهر لخلافه علينا في عقيدته فمذنب مرة واحدة.

إن الذين يرون أن الله أو أن القانون الأخلاقي يعاقب على الآراء الرديئة أو الضالة، لا يرون أن العقاب من أجل إبداء تلك الآراء، بل من أجل اعتقادها.

وهل يمكن أن يروا في النفاق أو في الإلزام به والإلجاء إليه فضيلة دينية أو أخلاقية أو وطنية أو إنسانية مهما ألزم به واضطر إليه دعاة الأديان والأخلاق والمذهبية والوطنية والإنسانية بمعاقبتهم ومعاداتهم لمن يتحدثون عن أنفسهم بصدق وشجاعة؟

وإذا كان النفاق هو شر الأخلاق كما تقول التعاليم القديمة، وكما تقول الأديان والأنبياء والزعماء وكهان المذاهب وجميع ألوان المعلمين وحملة الألواح، بل كما يقول هؤلاء الذين يصنعون النفاق ـ نعم، إذا كان النفاق هو شر الأخلاق فإن المجتمع الذي يضطر الناس إلى أن ينافقوا، لأنه يجعل للنفاق ثمناً أو يجعله ضرورة وأمناً واحتياجاً، هو شر المجتمعات، وهو شر من المنافقين أنفسهم، بل إنه هو المنافق، هو المسؤول عن ذنب من ينافقون. إن الزعماء والأنبياء والمتحدثين باسمهم، وكل المذهبيين الذين يخيفون المخالفين ويخيفون كل من لم يستطيعوا أن يقنعوا بما يقال لهم ـ إن هؤلاء الذين يضطرون ذوي الآراء والمذاهب المخالفة إلى أن ينافقوا هم أعظم منهم ذنوباً، بل إنهم هم المذنبون. إن من يضطرك إلى أن تنافق أو يحرضك بأحد الأساليب على أن تنافق هو أحد المنافقين، هو شرهما، بل هو كلاهما. إن الزعيم أو النبي الذي يخيفك أو يغريك فتنافق هو المنافق. إن الزعماء والأنبياء والحكام هم المنافقون إذن ودائماً. إن المنافق ليس إلا إنساناً يستقبل أخلاق الأنبياء والمعلمين والزعماء والمذهبيين، إنه ليس إلا وعاء لأخلاقهم وجهاز تنفيذ لشهواتهم وإرادتهم وأوامرهم ومصالحهم. إنهم هم الذين صنعوه وأرادوه منافقاً. إن المنافق هو التفسير الأليم للأنبياء والزعماء ولكل المعلمين والمذهبيين.

فالنفاق إن كان رذيلة فإن الذي يلزم بهذه الرذيلة شر من الذي يلتزمها. أليس الذي يصنع الخوف أضخم ذنباً من الذي يصيبه الخوف. إنه لمن المستحيل أن نؤذي المخالفين ونخيفهم ونصنع لهم الضرر دون أن نعد محرضين على النفاق، داعين إليه، صانعين له. إن الظروف التي تجعل النفاق أو الخطأ حتماً هي أسوأ شريك فيه، بل أسوأ فاعل له. إن الذي يمنعك من الرؤية هو الصانع للعمى، وإن الذي يمنعك من الكلام أو من السماع هو الصانع للبكم والصمم.

وإذا كان الرأي الآخر المخالف مرضاً فهل يكون كتمانه سبيلاً إلى الشفاء منه؟ أليس ظهور الأمراض والعلم بها ـ لا مجرد وجودها هو الذي خلق الطب؟ إنه عن إعلان الأمراض تجيء احتمالات الشفاء والصحة، وإنه عن إعلان الأفكار الرديئة تجيء احتمالات الأفكار الطيبة.

أليس الذين يفرضون على أصحاب الآراء والمذاهب المريضة إخفاء آرائهم ومذاهبهم حماية للآخرين منها، يشبهون من يفرضون على المرضى إخفاء أمراضهم وإنكار وجودها، وقاية كذلك للآخرين منها؟

كيف يمكن أن يعبد الله وتحترم الحقيقة بإخفاء أو إنكار أفكار موجودة ضد الله أو ضد الحقيقة؟ كيف يرضى الله أو يعجب الحقيقة أن تعلن رأياً أنت تعتقد خلافه؟ هل يمكن أن يحقر الله أو تحقر الحقيقة بأكثر من هذا؟ إذا كان الله يعلم أن المنافق منافق فكيف يمكن أن يكون غضبه على من يكرهون من لا يؤمنون به على أن يعبدوه ويهتفوا له ويعلنوا إيمانهم به نفاقاً؟

إن أفضل وأتقى المجتمعات هو المجتمع الذي لا يضع أية حراسة على العلاقات والمواصلات بين التفكير والتعبير ـ هو المجتمع الذي لا يجعلني أصلي للإله الذي أرفضه والذي لا أجده، أو يجعلني

أهتف وأنشد القصائد والمدائح في الزعيم أو المعلم أو النبي الذي تلعنه أخلاقي وأفكاري وتجاربي.

هل توجد نذالة مثل إله أو نبي أو زعيم يضطر من يرفضه ويلعنه إلى أن يمتدحه ويصلي ويهتف له؟

أليس الذي يعلن عجزه عن الإيمان بالنبي أفضل من الذي يصلي وراءه بلا طهارة وهو لا يؤمن به؟ أليس شر المجتمعات هي المجتمعات التي تجعل من لا يؤمنون بالأنبياء يصلون بصلواتهم ويتحدثون بتعاليمهم ويخاصمون الناس ويعادونهم، بل ويقاتلونهم باسم الغضب والحب لهم والإيمان بهم والدفاع عنهم؟ أليس النبي يجعل الذين لا يؤمنون به يصلون وراءه بلا إيمان ولا طهارة لأنه يمنعهم من أن يعلنوا أو يمارسوا رأيهم فيه؟

إنه إن كان المنافقون نباتاً رديئاً فإن أردأ أرض هي الأرض التي تنبتهم.

إن اضطرار الآخرين إلى ابتلاع أفكارهم، أو حتى إلى ابتلاع زندقاتهم، ليموتوا بها وليكونوا كالحبل الذي لا يتحول إلى ولادة، كالحبل الذي يعاقب لو تحول إلى ولادة ـ إن اضطرار الآخرين إلى ذلك ليس له إلا أحد تفسيرين: أما الجهل وأما الظلم، وأما الظلم والجهل. فالذي يمنع أو يعاقب أي تفكير هو حتماً أما ظالم وأما جاهل، وأما ظالم وجاهل. وإذا لم يكن هناك ظلم أو جهل فلن يوجد من يرغب في خنق أية فكرة مهما كانت مخالفة أو ضالة. إن كل رغبة في خنق الأفكار المخالفة ليست سوى رغبة جاهلة أو رغبة ظالمة.

إن الذين يعاقبون الأفكار والمذاهب المخالفة أو الأخرى، هم أسوأ المخطئين، إنهم مخطئون بأخطاء عديدة في خطأ واحد. إنهم يعلمون الكذب ويأمرون به ويجعلونه شيئاً محتوماً. وإنهم كذلك ليعاقبون على كينونة طبيعية، ويحاولون منع ما لا يستطاع منعه. إنهم يحاولون أن يمنعوا الحبل مع وجود أسبابه الكاملة، ويمنعون الولادة مع وجود الحبل. إنه لا مثيل لهم في الغباء والظلم. إن لهم أمثالاً كثيرين. إنه لا توجد رذيلة بلا مثيل. إن لكل رذيلة في هذه الحياة لأمثالاً. إن الحياة لا تعرف الوحدانية في السوء أو في الغباء أو في الظلم. إن أعلى مستويات الغباء والحقارة والظلم لا بد أن يوجد ما ينافسها من الغباوات والحقارات والمظالم.

* *

إن المنافق ليس مخصوصاً أو محابى بمزية شريرة ولا بطبيعة محكوم عليها بالغدر والنذالة. بل إن المنافق قد يكون متفوقاً في شيء ما، في ذكاء أو في خلق أو في ضخامة شأن أو مكان. إنه في الغالب ليس هاوياً بل محترف، إنه ليس عاشقاً للنفاق، ولكنه مكره عليه، أو مدفوع له ثمنه. وثمن النفاق قد يكون أدبياً أو معنوياً أو نفسياً، كما قد يكون مادياً: وهل يوجد من يدفع ثمن النفاق مثل الآلهة والأنبياء والزعماء والحكام؟ وهل يوجد من يعلمه مثلهم؟

إن المنافق ليس وارثاً بل متعلم. إن النفاق ليس رغبة جنسية تلدها الذات، ولكنه شذوذ جنسي تصنعه وتعلمه الظروف الأخرى اللئيمة. إنه ليس إرادة أو شهوة بل تعليم.

إن الكبار والمتفوقين في شيء ما أو في أشياء قد يضطرون إلى النفاق وإلى ابتلاع أنفسهم وإلى قتل أفكارهم داخل حلوقهم وأعصابهم أكثر مما يضطر الصغار ومن لا مزية لهم إلى ذلك، لأن المتفوقين يكونون في الغالب خارجين على آلهة السوق ورافضين بعقولهم وأخلاقهم لما يقوله ويعلمه النبي والسلطان المتسلطان على السوق. إن السوق هي دائماً سوق النبي أو السلطان أو سوقهما معا.

إن النبي والسلطان هما الموجودان دائماً في السوق ولكن بأزياء وأساليب مختلفة وعلى مستويات متفاوتة، وتحت ظروف ليست متساوية في وقاحتها وقبحها.

وحينئذٍ لا يستطيع المتفوقون التعبير عما يعرفون ويريدون، أي عن تفوقهم لأن سوق النبي والسلطان سوف تأكلهم حتماً، سوف تصلبهم. وإذن ما المخرج؟ إنه النفاق، إنه التكلم بلغة السوق، إنه الهتاف للنبي والسلطان، إنه الصلاة وراءهما بلا طهارة وبلا إيمان. إن من أكثر الأشياء دمامة وبذاءة في حياة الإنسان هي صلاته وراء النبي والسلطان بلا طهارة أو إيمان. إن هذه الصلاة لمن أقبح العاهات في أخلاق الأشياء.

إن معنى هذا أن أحوج الناس إلى النفاق هم المتفوقون، لأن تفوقهم يجعلهم خارجين عقلياً ونفسياً وأخلاقياً على السوق وعلى ما فيها من أنبياء ومعلمين ومذهبيين وزعماء وأبطال وتاريخ. وهذا الخروج المتفوق لا يستطيع أن يمارس نفسه في أسواق الأنبياء والزعماء والمعلمين والمذهبيين ممارسة حرة وصادقة. وحينئذٍ يحاول أن ينافق. إن النفاق ـ وأكاد أخص النفاق الفكري والمذهبي قد يكون عقاباً في كل التاريخ لم يكن يعاني منه في الغالب إلا المتفوقون، أو مثلما يعاني منه المتفوقون. إنه لمحكوم على التفوق بالنفاق بقدر ما هو محكوم على الجمال المخيف بالحسد، بالنظرات والرغبات الآثمة المؤمنة بالعدوان، الممارسة للعدوان.

إن الإنسان أحوج إلى الكذب والنفاق من الحيوان، وإن الكبار أحوج إلى الكذب والنفاق من الأطفال في سوق النبي والسلطان. ولكن المتفوقين قد يكونون أقدر على الرفض وعلى التحدي وعلى المقاومة وعلى دفع ثمن الكبرياء، كما قد يكونون أقوى اشتهاء لذلك، وأكثر إحساساً بالحاجة إلى تمجيد أنفسهم وإلى عرضها عرضاً قوياً. وهذا قد يجعلهم أكثر رفضاً للنفاق ومقاومة لسوق النبي والسلطان، أي يجعلهم أحوج إلى النفاق وأجدر برفضه ومقاومته وأعجز عن تقبله.

إن المتفوقين لهم أكثر الناس نفاقاً، وأكثرهم تمرداً على النفاق، ورفضاً له، ومقاومة لإغراءاته.

إنه ليس الفرق بين من ينافق وغيره فرقاً في الأخلاق أو في الشهوات أو في النيات، ولكنه فرق في الفكر أو العقيدة أو الظروف. قد يكون المنافق أكبر من المجتمع ومن الآلهة والأنبياء والمذاهب الموجودة في السوق، وأكبر من التاريخ الذي يعيش في هؤلاء الآلهة والأنبياء والمذاهب، فيحتاج إلى أن يتصاغر ويتضاءل، وإلى أن يقص أو أن يخفي شيئاً من صعود قامته، لكي يستطيع أن يسير في السوق، وتستطيع السوق أن تتقبل طوله وامتداده. لعل النفاق ليس إلا تقصيراً للقامة التي هي أطول من

المجتمع، وتصغيراً للذات التي هي أكبر من كل ما حولها من الذوات. لعل النفاق ليس إلا تواضعاً لمجاملة الصغار.

إن النفاق لا يعالج بمخاطبة النيات أو الأخلاق، ولا بالتخويف أو العقوبات. إنه ليس له إلا علاج واحد من طرف واحد، هو ألا نعاقب أو نؤذي أصحاب الأفكار والمذاهب المخالفة، وألا نتحداهم أو نسيء إليهم أو نختار عليهم ذوي الأفكار والمذاهب الموافقة حتى لنبدو وكأننا نرشوهم. إن مجازاة ذوي الآراء والمذاهب الموافقة نوع من العدوان على ذوي المذاهب والآراء المخالفة، إنه نوع من الإرهاب لهم.

إن المجتمعات التي تعاقب النفاق هي التي تخلق النفاق، أما التي تقضي عليه فهي التي لا تحوج إليه، هي التي لا تجعل له ثمناً، ولا تجعله أسلوباً من أساليب الباحثين عن النجاة والأمن، أو من أساليب الباحثين عن المجد والإعجاب والحظوة في وحي النبي أو في حاشية السلطان وموكبه أو في ضعف وبلادة الجماهير. إنه لا مثيل للنبي والسلطان في سخائهما حينما يقومان ثمن النفاق. إن النبي والسلطان هما أسخى الناس في دفع ثمن النفاق وفي تقويم هذا الثمن وفي تحويله إلى دين.

أنت مثلاً ترى آراء تخالف عقائد المجتمع، والمجتمع لا يأذن لك بأن تقول آراءك المخالفة له. وأنت لا تستطيع أن تقاتل المجتمع وتنتصر عليه لتفرض عليه الإيمان بآرائك أو التسامح معها أو في الاستماع إليها. وأنت لا تستطيع ولا تريد أن تموت شهيداً أو أن تعيش طريداً مقهوراً. وأنت لا تستطيع أن تصمت وأن تخفي نفسك على المجتمع الذي يفرض عليك أن تكون تعبيراً، أن تكون لغة صائحة ذليلة من لغاته. إنك لا تستطيع أن تصمت وإن المجتمع يرفض لك هذا الصمت. إن المجتمعات تفرض علينا أن تكون فوقنا ثياب، ولكنها تفرض علينا أيضاً أن نكون عراة مفتضحين. إن الافتضاح فن من فنون المجتمع. إن المجتمع يرفض ويعاقب ويسحق من يحاولون أن يرفضوا كل فنون الافتضاح إن الافتضاح احتياج مجتمع أو حالة مجتمع، وليس مستوى حضارة، ولهذا فإن كل المجتمعات مهما كانت مستوياتها الحضارية والاجتماعية بل والأخلاقية لا بد أن تمارس الافتضاح وأن تفرضه وتحوله إلى دين ومذهب.

إن المجتمع يفرض عليك أن تحارب، وأن تعادي وتخاصم، وأن تؤمن وتصلي وتهتف، وأن تؤيد وتوافق وتتلاءم وتفعل وأن تكون تعبيراً وسلوكاً وصيغة ما. إنه يفرض عليك أن تصرخ وتعلن. إنه إذن يفرض عليك أن تفتضح وتتعرى مهما فرض عليك أن تكون لك وفوقك ثياب. إن المجتمع يفرض عليك أن تكون اجتماعياً، أي أن تمارس نفسك داخل الآخرين كما يفعل الآخرون نفس الشيء. وهذا قمة الافتضاح.

إذن حينما تجد نفسك في مثل هذا المجتمع، وتجد أنك لا تستطيع أن تؤمن بأوثانه وأربابه ومذاهبه، وتجد أنك لا تستطيع أن تجعله يؤمن بآرائك، ولا تستطيع أن تقاتله وتنتصر عليه، ولا تستطيع أو لا تريد أن تجعله يقتلك، أو يعاقبك، أو يطاردك، أو يفسرك باحتقار وتخويف وريبة، أو يحدق فيك

بتهديد وغضب وبغضاء ـ ثم لا تستطيع أن تصمت كل الصمت، ولا يستطيع هو أن يجعلك تصمت مثل هذا الصمت.

نعم حينما تكون في موقف مثل هذا الموقف، حينما تكون قصة مثل هذه القصة التي لا بد أن تكونها ولو أحياناً، فهل تستطيع أن تكون غير منافق، هل يستطيع أي كائن آخر أن يكون غير منافق؟

هل يستطيع أحد من المعلمين ضد النفاق، من الذين يجيئون في موكب أنبياء ليعلنوا النفاق، لتكون كل نبواتهم وتعاليمهم لعن النفاق ـ هل يستطيع أحد من هؤلاء حينما يكون في مثل هذا الموقف ألا يكون منافقاً؟

حاول أيها المعلم، أيها النبي المقاوم للنفاق بغضب ترتجف منه السموات والشموس أن تجد أسلوباً لنفسك، لتقواك وشرفك غير أن تنافق كما ينافق أي إنسان، بل كما ينافق أفجر إنسان؟

إنه لسفه وظلم يملكان كل أساليب ومستويات التفوق في الغباء أن تطارد صاحب الرأي المخالف ثم تحرم عليه أن ينافق أو تلعنه إذا نافق. إن النفاق الواقع تحت ضغط وتهديد الجهل أو الطغيان نوع من الفضيلة ومن التدين الحزينين الباكيين المقهورين. إنه أصغر وأضعف مستويات الفضيلة والتدين. إنه الهجاء الأليم المؤدب للطغيان والجهل. إنه الهجاء المتواضع الباكي، إنه النقد المهزوم.

إن النفاق الفكري هو أقسى أساليب الهجاء للجهل والطغيان، إنه أقسى أساليب الهجاء للسيف والنبي والسلطان.

إن تأثيم النفاق معناه المطالبة بالإعلان عن الآراء والمذاهب المخالفة، بل معناه محاربة كتمانها. فإذا ذهبنا نعاقب أو نهدد أو نعير من يبدون آراءهم ومذاهبهم المخالفة لنا، بل من يبدون زندقاتهم، لم يوجد من يتفوقون علينا في الحماقة والبذاءة والنذالة والظلم والسخف. هل يوجد مثل نذالة أو حماقة أو بذاءة من يشتمون ويحقرون النفاق ثم يحاكمون ويعاقبون من يقول كل آرائه وعقائده؟ هل يوجد مثل المجتمعات في نذالتها وحماقتها وبذاءتها وغباوتها؟

إن رذيلة النفاق ليست سوى أنه تفوق مغلوب أو ضعف معذور أو هزيمة المسؤول عنها غير المهزوم. إن النفاق خوف أو احتياج أو هزيمة. إنه مفهوم أو مفسر أو معذور لأنه ضعف أمام جبروت. والضعف ليس ذنباً، بل آفة أو تعذيب أو ظلم. والضعيف يستحق التعويض والاعتذار والعزاء، ولا يستحق العقاب ولا اللعن أو التحقير. إنه لا أحد يستحق اعتذار واستغفار وتوبة كل الأنبياء والسلاطين والمعلمين والمذهبيين مثل المفكر الذي يضطر إلى أن يخاف وينافق. إنه المذنب الذي يجب أن يتاب بين يديه.

إن الآخرين يشاركون حتماً في صنع أخلاقنا ومشاعرنا بأخلاقهم وتصرفاتهم ومشاعرهم نحونا.

إن أشد سوءاً وذنباً من المنافق ومن صاحبه الآراء والمذاهب الخارجة أو الضالة هم الذين يجزون على النفاق، ويلجأون أو يحوجون إليه. إنه لا يوجد أشد ضلالاً أو غباءً أو عدواناً ممن يقولون لنا

كونوا صادقين ثم يعاقبوننا حينما نصدق أو لا نصدق ـ ممن يعاقبوننا إذا صدقنا، ويعاقبوننا ويلعنوننا إذا لم نصدق.

هل يوجد من يستحق غضبنا واشمئزازنا أكثر ممن يذهب يتلو علينا آياته وأناجيله، يلعننا ويهددنا لو نافقنا، ويلعننا ويهددنا لو كانت لنا آراء أو مذاهب أو آلهة تخالف الآراء والمذاهب والآلهة التي يحدثنا عنها ويدعونا إلى الإيمان بها ـ أو يلعننا ويهددنا لو أعلنا عن آرائنا ومذاهبنا وآلهتنا التي تخالف ذواتها وصفاتها وأخلاقها المذاهب والآراء والآلهة التي تحدثنا عنها وتدعونا إليها آياته وأحاديثه وأناجيله؟

إذن هل يوجد من يستحقون غضبنا واشمئزازنا مثل أصحاب الآيات والأحاديث والأناجيل والمذاهب والتعاليم ومن الثوار والأحرار، لأنه لا يوجد غير هؤلاء، أو مثلهم، أو أكثر منهم من يتلون علينا آياتهم وأحاديثهم وأناجيلهم وتعاليمهم ومذاهبهم وقوانينهم، ليلعنونا ويهددونا لو نافقنا، وليلعنونا ويهددونا لو كانت لنا آراء أو مذاهب أو آلهة غير آرائهم ومذاهبهم وآلهتهم، أو لو أعلنا عن آرائنا ومذاهبنا وآلهتنا المخالفة؟ إن أصحاب الآيات والأحاديث والأناجيل والمذاهب والتعاليم والثوار هم أكثر سكان الكون طفولة متوحشة عدوانية.

إن هؤلاء هم أكثر وأقوى وأشهر من يفسدون الأخلاق والأفكار والعقائد والضمائر التي يجيئون في زعمهم لإصلاحها. أيها النبي، أيها المعلم ـ أيها المذهب والنظام والسلطان.. أنت تفرض علي أن أكون صادقاً وتعاقبني إذا صدقت ـ أنت تنهاني عن النفاق وتأمرني بالنفاق، وتجعلني منافقاً. أنت لا مثيل لك في سذاجتك أو في صفاقتك.

أنت تخجلني وتحزنني بغبائك وظلمك وسخفك. أنت تملؤني بالغيظ والغضب والاشمئزاز وبالرثاء لك. أنت كائن لا يمكن فهمه أو لا يمكن احتماله. أنت أقسى هجاء لكل تفاسير الإنسان.

أنا عاجز عن الاقتناع بك وبما تقول لي وبما تريد مني، وعاجز عن أن أقول لك ذلك ـ عاجز عن أن أقول لك إني عاجز. إذن كيف يمكن أن أتعامل معك، وكيف تتصور أنه من الممكن أو من المقبول أن أتعامل معك؟ أنت كائن لا حدود للرثاء لك والاشمئزاز منك.

أنت تمنعني من أن أقول لك إني عاجز عن الاقتناع بك، وتعاقبني لو قلت لك ذلك، وتطالبني بأن أقوله، وتعاقبني لو قلته. وأنت عاجز عن إقناعي بما تريد مني أن أقتنع به، وبما تريد مني قوله. وأنت أيضاً تمنعني من أن أصمت، وتعاقبني وتهددني لو صمت. هل أنت كائن تفهم نفسك، أو ترضى عن نفسك، أو تقبل أن تكون نفسك أو تجرؤ على الافتخار بنفسك؟

أنت تمنعني من أن أكون موجوداً، ومن أن أكون غير موجود، من أن أكون فاضلاً ومن أن أكون رديئاً. أنت شيء رهيب، بذيء.. أنت شيء لا يمكن فهمه أو غفرانه أو الاعتذار عنه. لهذا أنت نبي ومعلم وسلطان وواعظ ومذهب ونظام. إنك هؤلاء لأنك هكذا تفكر وتكون وتريد.

أيها النبي، أيها المعلم والواعظ، أيها المذهب والنظام والسلطان أنت تعاقبني بذكائك وبأخلاقك

وبالاشمئزاز منك وبالغضب عليك وبالرثاء لك. أنت تعاقبني، تعاقبني، تعاقب ذكائي وأخلاقي وكل مستويات وجودي. إنه لا أحد يعاقب ذكائي وأخلاقي مثل النبي والسلطان والمذهب والسيف.

أيها النبي، أيها السلطان، أيها السيف أنا لا أستطيع الاقتناع بك وبما تقول لي وبما تريد مني الاقتناع به. ولا أستطيع كذلك أن أقول إني غير مقتنع، لأن العجز عن الاقتناع بك وبما تقول وتريد، وإعلان هذا العجز، أسلوب من أساليب الخروج عليك والرفض لك. وأنت لا تستطيع ولا تريد أن تغفر لي خروجي عليك ورفضي لك. أنت تحب ذاتك وتغضب لها بأسلوب بذيء..

وأنا أيضاً لا أستطيع أن أقول إني مقتنع لأن ذلك كذب عليك ونفاق لك. إنه نفاق وكذب ضدك. وأنت تحرم علي الكذب عليك والنفاق لك في إيماني بك، وحديثي عنك، وحديثي إليك، لأن ذلك أسلوب من أساليب المقاومة والرفض لك من الداخل. وأنت تحرم علي أن أرفضك أو أقاومك ولو حتى من الداخل. ولأن الكذب عليك والنفاق لك أسلوب من أساليب الخداع والتحقير لك والاستهزاء بك. إن الصدق لك الخارج عليك يكرمك أكثر مما يكرمك الكذب عليك الملائم لك. ولكن هل أنت تفهم ذلك أو تتقبله؟

إن الذي يقول لنا إنه مؤمن بنا وبما نقول ونعتقد ونريد منه ـ وهو ليس كذلك ـ إنما هو إنسان يقاومنا ويرفضنا بعقله أو بأخلاقه وأهوائه، أو بمصالحه وظروفه ـ إنه يقاومنا ويرفضنا من داخله. إنه إذن ليس صديقاً ولا سلاماً لنا، إنه عدو بالتربص أو بالاحتمالات. إنه عدو لم يحمل السلاح، إنه في معنى السلاح وإن لم يكن ذات السلاح. إنه تحقير واستهزاء بنا مهما كان مجاملاً أو محابياً أو صديقاً أو خائفاً. إن الكذب علينا بقصد أن يكون كذباً لنا هجاء لعقولنا وأخلاقنا وشجاعتنا.

وأنا أيضاً لا أستطيع أن أصمت عنك أو أمامك أو إزاءك. إنك ترفض صمتي، إنك تريد مني أن أكون هتافاً وضجيجاً وصلاة لك لا أن أكون صمتاً. إن صمتي هجاء وتمرد وضلال. هكذا يقول لي النبي والسلطان والمذهب والسيف والمجتمع الذي يحكمه النبي والسلطان والمذهب والسيف.

إنك أيها النبي والسلطان والمذهب والنظام والواعظ والسيف لا تقبل مني ألا أكون لك وألا أكون عليك. إنك تصر على أن أكون لك. إنك لهذا ترفض أن أكون صمتاً عنك أو أمامك أو فيك أو حولك. إنك ترفض أن أكون صمتاً حتى حينما أكون عاجزاً عن الاقتناع بك، لأن الصمت عنك ومعك وأمامك وفيك أسلوب من أساليب المقاومة والرفض لك.

إني محكوم علي بأن أكون هتافاً وإعلاناً وضجيجاً وصلاة وكذباً ونفاقاً. إن الصدق والصمت والاستتار والاحترام للنفس أخلاق محرمة علي، يحرمها علي النبي والسلطان والسوق الخاضعة للنبي وللسلطان.

أنت أيها النبي، أيها السلطان، أيها السيف لا تقبل مني أن أصدق. ولا تقبل مني أن أكذب، ولا تقبل مني أن أسكت كيف لا تموت فراراً من عارك ومن ذنبك ومن سفاهتك؟ كيف لا تموت؟ كيف

لا أموت أنا رثاء لك واشمئزازاً منك؟ وكيف لا يموت كل البشر من عار أنبيائهم وسلاطينهم، من عار أن لهم أنبياء وسلاطين، من عار أنهم يقادون ويحكمون بالأنبياء والسلاطين؟

أيها الكائن الذي قد جاء هنا، لتكون له وحده آلهة وأنبياء وزعماء ومذاهب ونظم، ليسرقوا ولتسرق منه كل احتمالات الشجاعة والذكاء والشرف والكرامة والحب والتسامح.

أيها الكائن المخصوص بأن تكون له آلهة وأنبياء ومعلمون وزعماء ومذاهب ونظم وأكاذيب دينية ومذهبية ليكون مسلوب الشجاعة والذكاء والكبرياء والحرية والصدق لأنه مخصوص بأن يتعاقب عليه ويتجمع فيه، كل الوقت، في كل التاريخ، في كل المجتمعات، تحت كل الظروف، زعماء وأنبياء ومعلمون ومذاهب ونظم وثوار ووعاظ، لا تحديد لعددهم، ولا توقيت لمجيئهم وخروجهم، ولا مقياس لذكائهم وأخلاقهم، ولا نموذج لصفاتهم ـ لا رقابة ولا تشريع ولا اشتراط ولا قانون عليهم أو على كينونتهم أو على مكانهم أو على زمانهم، أو على دعاواهم، أو على أكاذيبهم، أو على طغيانهم ـ لا تشترط فيهم أية مزية.

أيها الكائن المخصوص بأن تنطلق عليه وحوش غير محددة العدد أو الصفات أو الزمان، غير محكومة بأي قانون ولا بأية أخلاق ولا بأية قيود أو حراسة ولا بأية نماذج.

أيهذا الكائن المخصوص...

لا تحدق في آلهتك، ولا في زعمائك وأنبيائك، ولا في مذاهبك وأديانك ونظمك، ولا في ثوارك ووعاظك.. لا تحدق في هذه ولا في هؤلاء، فإن تحديقك فيها وفيهم يقتلك أو يقتلها ويقتلهم، وهو أي التحديق يفسد حتماً العلاقات بينك وبينها وبينهم ـ يفسد علاقات الحب والإعجاب والرضا والاحترام. أنت تؤمن وتعجب وتحترم وترضى لأنك لا تحدق. ولم تحدق. ولعلك لا تستطيع أن تفعل ذلك.

لا تحدق في القمر فإنه جميل، فإن وجهه يحمل كل ما في وجه الإله وأخلاق الإله من جمال. لا تحدق في وجه القمر لكي يظل جميلاً. لا تحدق فيه لكي تظل ترى كل جمال الإله في وجهه.

لا تحدق فإن التحديق عدو الجمال، لا تحدق في الأشياء فإن التحديق يقتل كل جمال في الأشياء. لا تحدق فإن التحديق يقتل عينيك، فإنه يفسدهما ويحولهما إلى خائنتين، وإلى مكذبتين لك. إن التحديق يحوّل عينيك إلى عدوان عليك. إن عينيك صديقتان لك وسلام وجمال في حياتك لأنهما لا تحدقان. إن عينيك لو خلقتا محدقتين لكان محتوماً أن تقتلهما وتفجرهما أو أن تقتل وجودك أو تقتل جميع الأشياء حولك.

لا تحدق في الأشياء لئلا تفقد الإيمان بمزايا عينيك، لئلا تفقد الإيمان بمزايا الشمس، بضخامة الإشراق فيها.. لئلا تعجز عن رؤية الجمال في عيون النجوم، في إيماءاتها إليك، في ابتساماتها المجاملة لأحزانك، المسرورة بأحزانك، الهاتفة بالموت لك ولجميع أبنائك وآبائك.

لا تحدق، لا تحدق، فإن التحديق قاتل لكل آلهتك.

إن آلهتك لا تخاف شيئاً مثلما تخاف التحديق. إنه لا شيء يقتل آلهتك سوى التحديق.

ما رأيت أحد المعلمين يحمل أناجيله وآياته ورواياته، يعلم ويعظ ويفسر ويتلو ويبكي ويخيف بآلهته وجحيمه إلا صحت بكل خوفي واشمئزازي وتفكيري:

اللهم اجعله يعلم بلسانه لا بنياته ولا بتفكيره ولا بسلوكه ولا برغبته.. اللهم اجعله منافقاً يؤمن بالعقل والحياة وبالناس، ويتعامل معهم بأخلاقهم وظروفهم واحتياجاتهم، وبالحب لهم والعطف عليهم وعلى آلامهم وضعفهم وأحزانهم، ولا تجعله مؤمناً يصدق ما يقول ويتعامل به.

اللهم اجعله يقول بقلبه وفكره وأخلاقه وأعماله غير ما يقوله بلسانه وتعاليمه، مما يرويه عن آلهته وأنبيائه، عن كتبه وقبوره.. اللهم اجعله يا إلهي العظيم كاذباً منافقاً خادعاً، ولا تجعله صادقاً يعلم التعصب والحقد والبغضاء والكبر السماوي والجهل والغباء والبداوة العقلية والأخلاقية تحت شعار الحب للإله ـ ويعلم الكفر بالذكاء وبالحضارة وبالعبقرية وبالناس، حماية للصلاة والإيمان والفضيلة من الشيطان.

أريدك وتريدك الحياة يا صاحب السور والأناجيل والروايات منافقاً كذاباً ولا نريدك صادقاً مؤمناً ملتزماً.

معلم الدين والمذهب إن كان منافقاً كاذباً فهو رذيلة أخلاقية أو رذيلة لغوية وعظية، وإن كان صادقاً فهو رذيلة أخلاقية ولغوية ووعظية وفكرية وإنسانية وحضارية.

الواعظ أو المعلم الكاذب المنافق كائن يضع غباءه وعدوانه في لسانه وفوق منبره وعلى صحائفه فقط، أما الواعظ أو المعلم الصادق فإنه كائن يعيش غباؤه وعدوانه في لسانه وعقله وفي أخلاقه وفي كل مستوياته.

إذن اللهم اجعل لنا معلماً أو واعظاً غبياً وعدوانياً حينما يتكلم ويصعد المنبر ويقرأ كتبه، ولا تجعل لنا واعظاً أو معلماً بليداً ومتوحشاً حينما نمارسه ويمارسنا بلسانه وكتبه وتعاليمه وخطبه وبأخلاقه وتفكيره وسلوكه.

اللهم عاقبنا برذيلة واحدة ولا تعاقبنا بعديد من الرذائل.. اللهم عاقبنا بنفاق معلم المذهب ومعلم الدين، ولا تعاقبنا بصدقه. اللهم عاقبنا بلسان المعلم وخطبه وكتبه وبكل منابره، ولا تعاقبنا بأخلاقه ونياته وشهواته وسلوكه ومنطقه. أي اللهم اجعله منافقاً كذاباً ولا تجعله صادقاً مؤمناً ملتزماً.

إني ما رأيت واحداً من هؤلاء المتحدثين عن المذاهب وعن السماء وتعاليمها إلا هتفت بكل صدقي وإيماني.

إن أسوأ ما فيك ـ يا معلم الآلهة والمذاهب، يا واهب الآلهة والمذاهب، يا مشوه الحياة بالآلهة والمذاهب ـ إن أسوأ ما فيك أن تكون صادقاً في حديثك عن آلهتك ومذاهبك واعتقاداتك ـ أن تكون

ملتزما بما تقول عن آلهتك ومذاهبك واعتقاداتك. إن الالتزام بما تتحدث به عن أربابك ومعتقداتك ومذاهبك ليس وحشية أو همجية فقط، إنه أكثر من ذلك.

إذن كن كاذباً، كن كاذباً، لكي تستطيع أن تر الناس والأشياء، ولكي يستطيع الناس أن يروك دون أن تقتلهم رؤيتك. إنك كاذباً تظل إنساناً تستطاع رؤيته وفهمه والتعامل معه. أما صادقاً فإنك تصبح شيئاً فظيعاً، فظيعاً.

ما أفظع رؤيتك يا معلم الآلهة والمذاهب لو كنت صادقاً، ما أفظع الناس والأشياء حينئذٍ في عينيك. لقد استطعت أن ترى الناس وأن يراك الناس لأنك كنت منافقاً. يا مشوه الناس والحياة بالآلهة والمذاهب، يا معاقب الذكاء والكرامة والحب بالآلهة والمذاهب لقد كان مستحيلاً أن تستطيع رؤية الناس والأشياء أو أن تستطيع الأشياء والناس رؤيتك لو لم تكن منافقاً.

إن المضلل الصادق المؤمن بتضليله هو أفظع المضللين، وإن الضال بلسانه هو أتقى وأفضل الضالين، إنه أتقى وأفضل من الضال بلسانه وقلبه وعقله وأخلاقه وسلوكه.

إن صادق كل قوم هو الأفضل والأتقى في الافتراض الغالب إلا من يعلمون الدين والمذاهب العدوانية المتعصبة فإن الأفضل الأتقى في هؤلاء المعلمين هو الكاذب المنافق، هو الأكذب الأكثر نفاقاً.

إن الكاذب المنافق في هؤلاء يصبح إنساناً رديئاً، أما الصادق المخلص الملتزم فإنه يتحول إلى وحش من السماء، له كل وحشية السماء.

إن أعنف الناس تعصباً ووحشية وبلادة وعدواناً على الإنسان هم المعلمون الصادقون الملتزمون بتعاليمهم، الملتزمون لآلهتهم ومعتقداتهم ومذاهبهم، الممارسون لها بوفاء وإيمان.

إن المعلمين لا يكونون متسامحين أو أصدقاء أو رحماء أو أتقياء أو مستقبلين للذكاء أو للإنسان أو للحياة أو للعيون الضارعة أو الباكية أو الخائفة أو المبتسمة المرحبة أو المستنجدة إلا بقدر ما يكونون كاذبين منافقين، يقولون ويعلمون ويخطبون ويغضبون ويبكون ويصرخون دون أن يصدقوا أو يؤمنوا أو يلتزموا، لأنهم حينئذٍ يظلون بشراً ولا يتحولون إلى زبانية تعيش في أرواحهم كل غلظة السماء وكبريائها.

إن أردأ الناس وأردأ أعداء الإنسان هم هؤلاء الذين لم تقم الحياة ولم تتكامل ولم يتحول التسامح والحب والحرية والذكاء إلى مزايا حضارية وإنسانية ودينية إلا بعصيانهم، إلا بعصيان تعاليمهم وعصيان آياتهم وأناجيلهم ـ ولم يصبحوا هم قادرين على أن يعيشوا في الناس ومع الناس، أو يقبل الناس أن يعيشوا معهم وفيهم إلا بعصيانهم لأنفسهم، إلا بعصيانهم لتعاليمهم ولآياتهم ولأحاديثهم ولأناجيلهم. إنه لا يوجد مثل أصحاب الأناجيل والآيات والمذاهب والمعتقدات في أنهم لا يستطيعون أن يحيوا أو يحيوا مع الآخرين ويحيا معهم الآخرون إلا بقدر ما يعصون آياتهم وأناجيلهم وعقائدهم ومذاهبهم.

إنه لم يكن ممكناً أن يكون معلمو المذاهب والأديان ومؤرخو الآلهة صادقين أو ملتزمين بسلوكهم أو نياتهم. لهذا كان ممكناً أن يتخاطبوا ويتعاملوا مع أعضائهم بصداقة واشتهاء، وأن تتعامل وتتخاطب معهم أعضاء الآخرين بحماس وتوافق. ولهذا كان ممكناً أيضاً أن يجدوا في أجسامهم أعصاباً وقلوباً وشهوات تحب وتتطلع وتغازل وتمارس كل ما في أجساد بنات الشيطان من غواية وافتتان.

إن الالتزام بالمذهب أو بالعقيدة الدينية التزاماً نفسياً وفكرياً وأخلاقياً هو انتحار ووحشية وعدوان، بل جنون. وإنه لمستحيل أن تحيا أو أن تسالم أو أن تصادق أو أن تغفر أو أن تحب أو أن تتطلع إلى النجوم المستلقية بلا احتشام على أذرعة الظلام الغادر لو أنك التزمت هذا الالتزام لمذهبك أو لعقيدتك الدينية بقدر ما هو مستحيل أن تكون رحيماً أو متسامحاً أو إنسانياً أو عادلاً لو أنك التزمت أن تعيش أخلاق الملتزمين الصادقين دينياً أو مذهبياً. إن لك أصدقاء، وإن لك لعاطفة ودموعاً قد تتساقط من عينيك، وإنك لم تصبح وحشاً لأنك لست صادقاً مع مذهبك أو اعتقادك، لأنك منافق وكاذب.

ماذا لو أن أي متحدث عن نفسه ومتحدث إلى الآخرين كان صادقاً، كان غير كاذب، غير منافق؟ ماذا لو أن الإله كان صادقاً في حديثه عن نفسه وفي وصفه لنفسه ولأخلاقه ـ لو كان صادقاً في حديثه عن غضبه وعن شرفه وعن وعيده وتهديده وانتقامه، وعن كبريائه وإبائه، وعن استمساكه بكل تعاليمه وأقواله، وبكل اشترطاته لنفسه وعلى نفسه وعلى الحياة والكون وعلى الناس، بكل أوصافه لنفسه؟ وهل يمكن أن تكون الآلهة صادقة؟ هل صدقت الآلهة في أي عصر؟ لقد عاشت الأشياء لأن الآلهة لا تصدق.

إن الإله الصادق لشيء لا يمكن احتماله، لا يمكن أن تحتمله الحياة أو الناس. إنه لم يكن ممكناً احتمال الإله إلا لأنه لم يكن ملتزماً بشيء مما يقول ومما يتحدث عن نفسه وعن أخلاقه. لقد كان في سلوكه معزولاً عن أقواله. لقد كانت هذه هي مزيته العظمى. إن مزية كل إله أن يكون غير صادق وغير ملتزم. إن الإله الصادق الملتزم نفي لنفسه ونفي لكل شيء غيره. إن الالتزام والصدق في الإله يعنيان ألا يوجد. ويعنيان أن يموت وأن يموت كل شيء لو وجد.

وماذا لو أن أي زعيم أو قائد أو حاكم كان صادقاً غير كاذب وغير منافق في حديثه عن صرامته في مثاليته، عن عدله، وعن شرفه في حبه وبغضه وفي كل همومه الانفعالية، وعن نزاهته الدينية والمذهبية والإنسانية والفكرية، وعن استمساكه بكل مواقف الشهامة والكرامة والشرف، وعن رفضه لكل ما يهين كبرياءه أو شجاعته أو قدرته أو تصميمه أو نخوته أو نظافته، وعن أن كل ما يقوله وما يصف به نفسه لا بد أن يتحول إلى سلوك وإلى أخلاق له وللمجتمع الذي يقف فوقه ويتحدث باسمه؟

إنه لو وجد أي زعيم أو حاكم أو قائد يصدق مع ما يقول عن نفسه وعن تعاليمه ومذهبه وإلهه لما وجد أكثر وحشية ودمامة منه.

وماذا لو أن أي إنسان عادي كان صادقاً فيما يقول عن شروطه التي لن يتسامح في واحد منها لقبوله التعامل مع نفسه ومع الحياة ومع الآخرين، وفيما يقول عن أن له شروطاً نفسية وفكرية وتاريخية وأخلاقية، يقاتل ويشاتم ويعادي ويموت ويتعذب ويفتضح دفاعاً عنها ووقوفاً عندها ـ ويحاسب نياته ومشاعره وأخلاقه وأفكاره وتحديقاته وحبه وبغضه عليها وبها؟

لقد كان نفاق وكذب جميع المتحدثين، جميع المعلمين والآلهة والزعماء والقادة والحكام وجميع الناس العاديين، محتومين. لقد كان الصدق هو العذاب والفسوق والزندقة والجنون والمحال، بقدر ما كان الكذب والنفاق هو التقوى والفضيلة والحتم.

لقد كان البشر وهم يتقدمون في طريقهم الصعبة المتوحشة يحاربون حربين: يحاربون ضد وقاحات الطبيعة، ويحاربون ضد الخائفين من الطبيعة المخوفين بها. وكان الخائفين من الطبيعة والمخوفون بها يقاومون كل خطوات البشر المقتحمة المتخطية للأسوار وللسدود والتعاويذ الغيبية. وكانوا يضعون الكتب المقدسة، ويؤلفون الأناشيد المتدينة في هجاء هؤلاء المقتحمين. لقد كانت نبواتهم هي الدعوة إلى عصيان الحياة. لقد كانوا منافسين للحياة ولمن يريدون أو يحاولون تغييرها أو الصعود بها. لقد كانوا يأبون عليها أن تتحضر أو تتطور أو تصاب بالذكاء. وقد كانت المنافسة في حساباتهم الدينية شيئاً مفروضاً. إنهم دعاة الغيب وأنبياؤه، إذن هم دائماً ضد المشهود الكائن، أو الذي قد يكون ويصبح مشهوداً. وإنهم لضد الإبداع الإنساني. لقد كانوا ضد الإبداع الإنساني لأنهم ضد أن تتغير الحياة أو الأشياء. إن تغيرها يخيفهم ويرهقهم ويتحداهم. إن الخوف من الحياة ومن الأشياء والعجز عنها يتحولان إلى نبوات وتعاليم وتقوى.

ومع أن رسالة هؤلاء كانت محاربة العصيان فلقد كانوا هم أشد العصاة عصياناً. كانوا يعصون تطور الحياة، ويعصون الإنسانية ويعصون احتياجاتها وضروراتها وتجددها وحرياتها وضميرها واستجاباتها لهواتفها وجوعها وهمومها. لقد كانوا يعصون كل أساليب واحتمالات كل عبقرية. ولكن أليست الطاعة تعني العصيان، والعصيان يعني الطاعة؟ أليست الطاعة لشيء تعني العصيان لشيء، والعصيان لشيء يعني الطاعة لشيء آخر؟

ما هي الحرية، وما التسامح والحب والتفكير والمنطق الإنساني.. وما الحضارة؟ إن ذلك هو العصيان للآيات والأحاديث والأناجيل، وللمواعظ والتعاليم والمذاهب العدوانية المتعصبة ـ إن ذلك هو التخطي لها والخروج عليها ورفض الالتزام بها، إن كل ذلك لا يعني أكثر من ذلك.

إن كل مزايا الإنسان الأخلاقية والفكرية والتحررية والحضارية لا تساوي أكثر من خروجه على تعاليم ومواعظ آياته وأناجيله ومذاهبه، لا تساوي أكثر من كونه كذاباً منافقاً غير ملتزم بها وغير صادق معها مهما تحدث عنها وبها وإليها، مهما صلى بها ولها، وقاتل مثل وحش همجي تحت علم منقوش عليه اسمها.

إن هؤلاء الواعظين والمعلمين للمذاهب وللآلهة والمعتقدات لا يختلفون في صفات ونماذج مذاهبهم وآلهتهم ومعتقداتهم فيها من تسامح أو حرية أو ذكاء أو حب أو من استعداد للتغير والتطور والتقبل ولكنهم يختلفون في كذبهم ونفاقهم، أي في أساليب تعبيرهم عن كذبهم ونفاقهم، وفي اللغات التي يعرفونها ويستطيعونها ويستعملونها في ممارستهم للكذب والنفاق، كما يختلفون في وقوعهم تحت الظروف التي يمارسون فيها كذبهم ونفاقهم، وكما تختلف نفس هذه الظروف.

إنهم لا يتغيرون أو يختلفون في تفكيرهم أو في تسامحهم أو في أخلاقهم أو في تقبلهم أو في تحررهم وفي ترحيبهم بحرية الآخرين لأن آلهتهم أو مذاهبهم أو تعاليمهم ومعتقداتهم مختلفة ومتغيرة، أو تختلف وتتغير في صفاتها أو في أخلاقها أو في ذكائها أو في أية مزية من المزايا، بل لأن الظروف التي يواجهون تحكم عليهم بأن يختلفوا ويتغيروا في تعبيراتهم عن ممارساتهم لآلهتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم، أي عن ممارساتهم لكذبهم ونفاقهم باسم آلهتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم ومهما اختلفت آلهتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم وتعاليمهم فلا يمكن أن تكون هي سبب اختلافهم أو تفاوتهم في أخلاقهم وتسامحهم وتغيرهم وتطورهم أو في ذكائهم أو في أية مزية من مزاياهم.

إن المعلمين للمذاهب والآلهة والمعتقدات حينما يتقبلون بعض التسامح أو بعض الحرية، أو بعض التفكير والتغيير، أو بعض الاعتذار عن الآخرين والمخالفين، أو بعض الحب والغفران لهم، أو بعض الاعتراف لهم ببعض المزايا أو ببعض الحق في أن يعيشوا دون أن يقتلوا كأكثر الحشرات قذارة وعدواناً.

إن هؤلاء حينما يفعلون ذلك أو شيئاً منه دون أن تصاب تقواهم أو إيمانهم أو احترامهم لآلهتهم وعقائدهم ومذاهبهم بالرجفان والغضب والصراخ والبكاء، ودون أن يحرموا ويلعنوا ـ لا يفعلونه لأن أفكارهم قد تغيرت أو تسامحت، ولا لأن آلهتهم أو مذاهبهم أو عقائدهم قد أصابها التواضع والذكاء والإنصاف فأذنت لهم، بل لأنهم كاذبون منافقون لا يخضعون إلا للتوافق مع الظروف المتغيرة المتبدلة أبداً، ولا يريدون إلا التغذي بالآثام والمغانم التي تحرمها وتلعنها آياتهم وأناجيلهم ومذاهبهم العدوانية القتالية.

إن آلهة الناس ومذاهبهم وعقائدهم لا تتحول إلى شهوات ومجاعات وظروف لهم وفيهم وهم لا يخضعون إلا لذلك.

وإن كانت أفكارهم قد تغيرت فهي لم تتغير عن ذكاء أو تسامح أو عدل أو محبة للحقيقة أو عن إرادة للتغيير، أو عن اقتناع أو عمق أو تفكير، ولكن عن شهوة أو خوف، أو عن طول إلف ورؤية، أو عن تقليد، أو عن رغبة في عرض الذات، أو هتافاً مع السوق وسيراً على خطواتها المصلوبة أبداً على طريقها المصلوب.

ما أقسى وأفظع الأشياء والحياة والآلهة التي تصوغ هذا الكون إذا كنت أفضل صلوات الإنسان وإيمانه وأخلاقه أن يكون منافقاً كاذباً، وألا يكون صادقاً ملتزماً.

ما أقسى وأقبح منظر هؤلاء المعلمين للآلهة والمعتقدات والمذاهب حينما ينهضون ليتحدثوا بصراخ وإعجاب وكبرياء عن آلهتهم وأنبيائهم ومذاهبهم، عن آياتهم وأحاديثهم وأناجيلهم ـ ليتحدثوا فوق كل منبر وبكل لسان وبلاغة وإعلان، عن مزايا التسامح والحرية والتفكير والحب للآخرين وللمخالفين والاعتذار عن مواقفهم وظروفهم ونياتهم بالأسلوب والحماس اللذين يعتذرون بهما عن أنفسهم ـ وليتحدثوا عن مزايا كل حضارة جديدة، حتى عن مزاياها الدينية ـ وليزعموا أن كل تسامح وفكر وحرية ومحبة وتطور وذكاء وحضارة ليست إلا بعض عطايا آلهتهم وأنبيائهم ومذاهبهم، ليست إلا بعض تعاليم آياتهم وأحاديثهم وأناجيلهم ـ ليست إلا بعض الحروف الميتة في سطور كتبهم القديمة، المنقوشة على قبور آلهتهم وأنبيائهم ومذاهبهم التي قد ماتت، قد ماتت من تقادمها. وفظاعة أمراضها. إن هؤلاء المعلمين لمستعدون دائماً تحت الظروف الأخرى أن يصلبوا كل من يؤمنون أو يطالبون بشيء من الحرية أو التسامح أو التفكير أو الحب أو الحضارة تحت شعار الدفاع عن آلهتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم، وتحت شعار الاحترام لها. فكيف إذن يمكن أن يكون عقابهم لمن يمارسون ويحيون ذلك أو شيئاً من ذلك؟ بل إن هؤلاء المعلمين للآلهة والمذاهب لمستعدون تحت الظروف الأخرى أن يصلبوا آلهتهم ومذاهبهم وأنبياءهم تحت شعارات الدفاع عن آلهتهم وأنبيائهم ومذاهبهم.

إنهم تحت الظروف الملائمة لمستعدون أن ينكروا الإله بحجة المحافظة على الإيمان به. إنهم قد ينكرون الدين ليزعموا أن إنكارهم له إنما يعني الاستمساك به على مستوى أذكى وأتقى وأقوى.

لقد أمكن أن يتعايش الناس وأن يبدوا أحياناً طيبين وأحراراً ومحبوبين وإنسانيين لأنهم غير ملتزمين، لأنهم كاذبون منافقون في علاقاتهم بآلهتهم وعقائدهم ومذاهبهم. لقد كان محالاً أن يكونوا صادقين أو ملتزمين لهذا أمكن أن يكونوا إنسانيين ومعقولين ولو أحياناً، ولو على مستويات متواضعة.

كل الناس يلعنون النفاق والكذب ويعملون ضدهما، وكلهم يمارسونهما ويباركونهما ويحرضون عليهما، ويرفضون أو يعاقبون أن يعاملوا بغيرهما. إنهم جميعاً يعاقبون الصادقين ويرفضونهم ويخافونهم. إنهم جميعاً يريدون أن يتعاملوا مع الكاذبين والمنافقين، يريدون أن يكذب لهم وعليهم، وأن ينافقهم وينافق لهم كل من يتعاملون معهم.

كل القوانين والأخلاق والأديان والمذاهب تعلّم ضد الكذب والنفاق، وكلها ـ بكل الأساليب والمواقف ـ تحرض عليهما وتلزم بهما، بل وتعاقب من يترفعون عنهما. هل يوجد من يستطيع أن يحيا تحت أي مذهب أو دين، أو قانون أو نظام أو تقاليد أو إله دون أن يكذب وينافق؟ هل يوجد من يستطيع التعامل مع مذهبه أو دينه أو نظامه أو مجتمعه بالصدق وحده؟ إن كل الناس، كل المعلمين ينصحون بمحبة الآخرين، بل بمحبة الذئاب، وبالترفع عن الأنانية. ولكن هل في الناس أو في المعلمين من يستطيعون أن يحبوا الآخرين ـ أن يحبوهم لا أن يريدوهم أو يشتهوهم أو يتلاءموا معهم أو يعبروا عن أنفسهم بهم، أو يمارسوا أنفسهم بممارستهم لهم، أو بواسطتهم؟ كل الناس يمارسون الناس ويعيشونهم، ولكن هل يحبونهم؟

إننا جميعاً نتغذى بالناس، ولكن هل نستطيع أن نحبهم؟ وما هو الحب؟ هل عرفنا تفسيره؟ هل حاولنا أن نعرف تفسيره؟

هل في الناس أو في المعلمين من يستطيع أن يكون أكثر أو أقل أنانية أو عجزاً عن حب الآخرين من أي إنسان آخر؟ أليس الناس جميعاً متساوين في أنانيتهم وفي عجزهم عن حب الآخرين إلى المدى الذي لا يترك لأحد على أحد فضلاً أو تفوقاً في ذلك، لأنهم جميعاً أنانيون وعاجزون عن الحب ـ عن الحب لا عن التعامل والجوع والتغذي ـ إلى المستوى الذي يمنع وجود التفاوت بينهم؟ أليس كل الاختلاف بين الناس والمعلمين في ذلك لا يعني إلا اختلافهم في أساليب التعبير عن أنانيتهم، لا في وجود هذه الأنانية أو في فقدها، لا في قوتها أو ضعفها؟ إنك تحب كما تجوع. هل أنت تجوع لأنك تحب، أم تحب لأنك تجوع؟ هل تجوع إلى الإنسان لأنك تحب أم لأنك تشتهي وتتغذى؟ هل تجوع إلى الطعام أم تحب الطعام؟

إن كل الناس ـ حتى معلميهم الخالدين ـ يطلبون من الآخرين ما لا يستطيعون، بل وما لا يريدون هم أن يكونوه ـ بل ويهجون كل من لم يستطع أو يرد أن يفعل هذا الذي لا يستطيعون هم أو لا يريدون هم أن يفعلوه. إن كل الناس يريدون أن تعيش في بيوتهم وفي ثيابهم رذائل الأبالسة، وأن تتجمع في بيوت وثياب أعدائهم كل فضائل الملائكة والقديسين. إن كل الناس ـ حتى المعلمين الخالدين ـ يريدون أن يعيشوا وأن يعاملوا الآخرين، وأن يتعاملوا بالشهوات، وأن يعيش خصومهم ـ أن يعيش كل الآخرين، وأن يعاملوهم ويتعاملوا معهم بالتعاليم وبالتقوى وبالحب. إنك تريد مني أن أكون قديساً حينما أعاملك، ولكنك لا تريد لنفسك ولا من نفسك أن تكون هذا القديس حينما تعاملني أو حينما تعامل شهواتك واحتياجاتك.

إن الناس جميعاً ـ حتى المعلمين الخالدين، حتى الذين جاءوا يحملون إلى الأرض مفاتيح السماء وأخلاقها ـ إنهم جميعاً حتى هؤلاء يتخاطبون أو يتكلمون بأبلغ وأتقى لغات السماء، ولكنهم يتعاملون ويتعايشون بكل عفونات الأرض، بكل أخلاق وشهوات وضعف ديدان الأرض.

إن كل الناس حتى الذين جاءوا يحملون إلى الأرض أخلاق ومفاتيح السماء يلعنون الكذب والنفاق ولكنهم لا يريدون أن يعاملوا إلا بالكذب والنفاق، إنهم ليعاقبون كل من يحاولون أن يعاملوهم بغير الكذب والنفاق.

إن الكذب والنفاق هما العملة التاريخية والأبدية التي يتعامل عليها ويعامل بها كل الأنبياء والمصلحين والقادة وكل المذهبيين والمعلمين.

إن الناس جميعاً يتعلمون ويعلمون كآلهة وأنبياء ويحيون ويشتهون ويحتاجون ويتألمون ويجوعون ويضعفون ويكذبون وينافقون كديدان. ولكن هل تكذب أو تنافق الديدان؟ هل الكذب والنفاق موهبة ديدان أم موهبة آلهة وأنبياء وزعماء؟ وهل تعاليم الآلهة والأنبياء والزعماء أفضل أو أتقى من حياتهم ونياتهم؟

إن كل الناس يحاولون أن يخفوا عن الآخرين ما يفعله كل الآخرين، وأن يستروا عن العيون ما تعرفه كل العيون، ما تراه كل العيون. إنهم جميعاً يحاولون أن يستتروا وراء الثياب بينما يوجد كل الناس داخل الثياب ـ إنهم يريدون أن يخفوا أجسامهم عمن يعيشون داخل أجسامهم، عمن يعيشون بأجسام هي نسخ مكررة من أجسامهم. إن كل الناس يعيشون ويوجدون داخل جسمك مهما وضعت عليه من الحرس ووضعت له من الحدود. إن كل العيون تراك من داخلك بكل تفاصيلك بلا أية أقنعة مهما لبست وصنعت من الثياب.

إن كل إنسان يناضل أشد وأغبى النضال لكي يصنع العديد من الأقنعة الساترة، لكي يحاول أن يخفي وراءها رذائله وتفاهاته الشعورية والنفسية عمن يعيشون نفس هذه الرذائل والتفاهات بنفس العمق والافتضاح والبذاءة، وعمن يحاولون كذلك مثله أن يخفوا عنه مثلما يحاول أن يخفي عنهم.

أن يخفي وأن يخفوا أعضاء موجودة فيهم جميعاً بحدود لا تختلف وبأخلاق وممارسات لا تختلف أيضاً ـ كأنهم يريدون أن ينكروا وجود هذه الأعضاء أو ينكروا وظيفتها أو بذاءتها أو فحشها ـ كأنهم مقتنعون أنهم يستطيعون أن ينكروا وجود هذه الأعضاء. إن كل الناس يتصرفون وكأنهم يحاولون أو يطمعون أن يقنعوا كل الآخرين أنه لا توجد في أجسامهم أعضاء هي موجودة في كل أجسام كل الآخرين. إن كل الناس يتصرفون وكأنهم يحاولون أن يقنعوا كل الناس أن أخلاق أجسامهم ليست مثل أخلاق الأجسام الأخرى التي هي مثل الأجسام الأخرى.

إن الناس جميعاً مرضى بمرض عالمي واحد، ولكن كل واحد منهم يحاول بغفلة وإصرار حزينين أن يخفي مرضه هذا، أن يخفي مرضه العالمي عن كل الآخرين المصابين بنفس المرض على مستوى لا يقبل التفاوت، بينما المخفي يعلم أن الآخرين الذين يحاول الإخفاء عليهم وعنهم هم مصابون مثله بنفس المرض، بنفس المستوى.

إن البشر هم أعجب وأسذج الكائنات في هذه الدنيا، إنه لا مثيل لسذاجة البشر في هذه القضية.

إنهم كائنات كثيرة وكبيرة جداً من المرضى، يقيمون في مستشفى واحد، ويعانون، على مستوى لا يتفاوت، من علة واحدة، ويعلمون جميعاً أنهم جميعاً مصابون بهذه العلة الواحدة، وأنه ليس فيهم من لا يعاني من هذه العلة، ثم يصر كل منهم، مؤكداً بكل وسائل وأساليب ولغات التوكيد أنه ليس مريضاً، ويذهب يحاول أن يخفي بكل لغات وأساليب ووسائل الإخفاء عن المرضى مثله أنه مريض مثلهم.

إنهم يئنون جميعاً، ولكنهم ينكرون جميعاً أنهم مرضى أو أنهم يئنون. إنهم جميعاً عراة، واقفاً بعضهم أمام بعض، ولكنهم جميعاً يعرضون أجسامهم جميعاً، زاعمين جميعاً أنهم جميعاً لابسون لأجمل وأكثف الحلل.

* *

لا تحدّق في القمر

لا تحدق في آلهتك ولا في أنبيائك ولا في زعمائك ولا في مذاهبك وأديانك.. لا تحدق في القمر لئلا تبالغ في تحقير عينيك لئلا ترفض أن تكون لك عينان. لا تحدق في نفسك لئلا تقتل عينيك.

كيف ابتكر الإنسان عقله

«.. ما الذي ابتكر للإنسان عقله؟ إنه الذي ابتكر له أنبياءه وزعماءه ومهرجيه وأديانه ومذاهبه وتعاليمه. إنه الذي ابتكر له جوعه وآثامه وأكاذيبه وأحزانه وآلامه ومخاوفه وأنينه ودموعه وصراخه وصلواته ونفاقه.. إنه الذي ابتكر له الموت والشيخوخة والهوان».

«.. إن الإنسان لا يعاني أو يغضب أو يحتج أو يرفض أو يشمئز أو يتعذب لأنه يواجه بل لأنه إنسان. إنه يكون ويرى ويقاوم وينتقد ويحاسب بقدر ما هو إنسان لا بقدر ما تكون الأشياء حوله أو معه أو ضده. إنه يواجه بقدر ما يكون إنساناً لا بقدر ما تكون الأشياء التي تواجهه. إنه ليس كل إنسان يكون إنساناً. إنه لا يوجد أكثر عجزاً من الإنسان عن أن يكون إنساناً».

«.. إن المعاناة الإنسانية ليست في الأشياء، أو ليست فيها فقط بل وفي من يعاني. إن قبح الشيء أو غباءه أو بذاءته لا تساوي فقط بذاءته أو قبحه أو غباءه بل وإحساسنا به...»

«إن إحساسنا بالشيء لا يساوي الشيء بل يساوينا نحن. إن جهاز الإحساس بالشيء فينا لا في الشيء»..

إنه يسأل بحماس وابتهاج من يشعر أنه قد ربح كل المعركة.

يقول لقد أخذت منا كل أربابنا وزعمائنا وأنبيائنا ومعلمينا وكل مذاهبنا وتعاليمنا وكل ما نعرف من منابع التفكير وأساليب الحياة. لقد رفضت أن يكون في أي شيء من ذلك ما يهدي أو ينفع أو يقنع أو يستطيع أن يكون قائداً للإنسان أو للحياة.

... يقول لقد أخذت منا كل عيوننا فأية عيون أنت معطينا، فأي جهاز تعده لنا لكي نرى به الطريق والأشياء؟

يقول لقد أخذت منا كل جيادنا، فهل أنت معطينا جياداً غيرها؟ لقد هدمت جميع أكواخنا فهل شيدت لنا قصوراً؟ لقد أغلقت جميع معابدنا فأي إله تعده لنا لا يحتاج إلى عبادتنا أو معابدنا؟

يقول بابتهاج من اصطاد أكبر النجوم: لقد قتلت كل قادتنا وأبطالنا وأدلائنا، وأغلقت جميع الطرق التي نعرف والتي اعتادت أقدامنا السير فيها بلا رؤية وبلا معرفة، واعتادت عيوننا الرؤية فيها بلا نهار ولا نور.

لقد أخذت منا كل شيء نعرفه ونعيشه ونتعامل معه ونلقي عليه كل ضعفنا وحيرتنا وضياعنا وآمالنا، ونجعله مسؤولاً عن كل ما لا نريد أن نكون مسؤولين عنه وعن كل ما لا نستطيع أن نكون مسؤولين عنه.

يقول بنشوة من أسر إله هذا الكون بعد معركة كونية جند لها الإله كل أكوانه:

لقد أخذت منا كل شيء قد أعطانا إياه التاريخ، معتصراً له من دموع آبائنا ومن جراحهم ومن آلامهم النازفة، فماذا أنت معطينا مكان ما أخذت لنشيد عليه وجودنا القوي الذكي النظيف الذي تزعم أنك تريده وتنشده لنا؟

ماذا تريد أن تعطينا مكان ما أخذت منا لكي نستطيع أن نستمر نعيش آلامنا وتفاهاتنا وغباواتنا

وتشوهاتنا، واجدين لها أقوى وأجمل التفاسير والمسوغات، متحدين ومفاخرين، بل ومقاتلين بها كل ما لدى الآخرين من آلام وتفاهات وغباوات وتشوهات بكل النزق والغرور والوقاحة والعدوانية؟

ما هي عطاياك ووسائلك الجديدة والبديلة التي نستطيع أن نتقبل بها وجودنا وكينوناتنا المختلفة ونطورها ونفسرها بها، والتي نستطيع أن نعرف بها طريقنا ونستمر على السير فيه، بحثاً عن البقاء وعن التلاؤم وعن الصداقة مع هذا الكون الفظ الهمجي المتناقض الذي فرض علينا بلا شهامة أو عدل أو ذكاء أو منطق أن نعيشه وأن نواجهه ونفهمه ونتوافق معه وأن نخوض ضده معركة دائمة بذيئة دون أن تتكافأ معه في القوة أو في الضخامة أو في الوحشية، ودون أن يتكافأ معنا في الذكاء أو في الضرورات أو في الالتزام أو في الرؤية والأحاسيس الأليمة الباهظة؟

* *

إنا نطالبك، نطالبك ونرفض أن تكون آخذاً فقط غير معط شيئاً. قد يكون الجواب عن هذه المساءلات الحادة:

إنه لا شيء هنا يعطى أو يمكن أن يعطى أو يحتاج إليه أو إلى إعطائه. إن كل ما نملكه من أرباب وأنبياء وزعماء ومعلمين وقادة، ومن مذاهب وأديان وتعاليم ـ نعم إن جميع ما نملكه من ذلك ليس هو الذي أعطانا وجودنا وكينونتنا ومستوياتنا، وليس هو الذي علمنا الصبر على ذلك، أو الالتزام أو الإيمان به، أو الاحترام له، أو الاقتناع بمنطقه أو بتفاسيره أو بمسوغاته، أو الاستمرار فيه، أو الرضا عنه، أو القتال والمخاصمة دونه بكل الوحشية والنذالة اللتين نقاتل ونخاصم بهما.

إن شيئاً من ذلك لم يكن هو قائدنا أو معلمنا أو محرضنا أو مقنعنا أو هادينا أو المنشد أو الواعظ لنا في هذه المعركة الخسيسة التافهة التفاسير والأهداف والحوافز ـ أعني معركة وجودنا وإصرارنا عليه وعلى كل تبعاته والتزاماته البذيئة الحزينة. إننا لم نتعلم من أربابنا وأنبيائنا وزعمائنا وقادتنا ووعاظنا أو من أدياننا ومذاهبنا إلا بقدر ما تعلمت الحشرات والأنهار والنجوم ذكاءها وسلوكها واستمرارها ونظامها. إن هذه لم تتعلم وإنما كانت، وإننا نحن أيضاً لم نتعلم وإنما كنا. لقد كانت تعاليمنا كينونة ولم تكن تعليماً. من علم تعاليمنا أن تصبح تعاليم؟

لقد كان قائدنا ومعلمنا وقائد ومعلم جميع الكائنات شيئاً لم نختره ولم نرده ولم نطلبه. إنه الضرورة. إنه الضرورة التي تحتاج إلى تفسير والتي لا تحتاج إلى تفسير أو التي لا يمكن تفسيرها أو التي مهما فسرت فإنها تظل بلا تفسير ومحتاجة إلى تفسير وباحثة عن تفسير.

لقد كانت الضرورة هي القائد والمعلم لكل شيء ولكل واحد، وهي الحاكم على كل شيء وكل أحد. إن الضرورة لم تكن هي أقوى القادة والمعلمين، بل لقد كانت هي كل القادة وكل المعلمين. لقد كانت أقسى وأقوى وأوقح وأشرس القادة والمعلمين. إنها القائد والمعلم اللذان لا يمكن أن يعصيا أو أن

يخرج عليهما أو أن يخلعا أو أن يستبدا بهما أو أن يضعفا أو يهرما أو يموتا. إن الضرورة هي الشيء في كل حالاته، وليست صفة أو نموذجاً يكون عليه الشيء ويسقط عنه.

إن كل ما هو ضرورة من ضرورات وجودنا أو بقائنا أو سيرنا في طريق النمو أو اللذة أو التلاؤم والتوافق مع أنفسنا ومع احتياجاتنا ومع مخاوفنا ومع الأشياء بل ومع الأبالسة والأعداء فهو المعلم العالمي بل الكوني الذي يخضع له كل المعلمين ويتعلم منه كل المعلمين بل ويخلق ويصوغ كل المعلمين وكل تعاليمهم وأخلاقهم ونياتهم. أما كل ما ليس كذلك فلا بد أن يكون خروجاً على الأخلاق والتعاليم والمعلمين، بل وعلى الأديان والعقل.

إن جميع التعاليم والمعلمين ليسوا إلا بحثاً عن هذا المعلم العالمي وتجنداً في جيشه واستشهاداً في سبيله. إن العقل نفسه في جميع غزواته واقتحاماته وتحليقاته الرائعة الباسلة ليس إلاجندياً ذليلاً في جيش هذا المعلم الأحمق الغبي.

إنه لمفروض ومحتوم علينا بلا تعاليم أو معلمين بل وضد التعاليم والمعلمين أن نلقي بأيدينا وخطواتنا ونياتنا بل وبأربابنا وأنبيائنا وزعمائنا إلى ضروراتنا، حاكمة متحكمة مفكرة مفسرة مطلقة متفردة، غير مأمورة ولا مزجورة ولا ملجومة ولا معلمة. إنها هي معلمة نفسها وزاجرتها ولاجمتها وآمرتها وناهيتها. إن في الضرورة كل أربابها وأنبيائها وزعمائها وقادتها ومعلميها.

إن ملائكة الحياة وشياطينها في نفس الحياة. إن في ذات كل ملاك رأس شيطان. وإن في ذات كل شيطان قلب ملاك. إنه لا يوجد ملاك بلا صفات شيطان، كما لا يوجد أي شيطان بلا صفات أي ملاك.

إن في ذلك ضروراتنا وفي أخلاقها وفي منطقها كل أوامرها ونواهيها وكل فسوقها وتقواها.

ماذا لو علم الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة والمعلمون أنهم جميعاً ليسوا سوى جنود ورعايا ومفسرين ومنفذين لوقاحات الضرورة وطغيانها؟ هل يرضون حينئذٍ كثيراً عن أمجادهم؟ بأية نظرات سوف ينظرون إلى أنفسهم لو علموا أنهم ليسوا أكبر ولا أنظف ولا أذكى من الضرورات؟ كيف يستطيعون التحديق في وجوههم لو عرفوا أنهم لا يساوون في كل معانيهم أكثر من ضرورات الجوع والخوف والأمن، ومن التفسير لها والبحث عنها؟ ولكن ما هي الضرورة التي نتحدث عنها؟ ما هذا الإله الذي تتحول جميع الآلهة إلى أتباع وتفاسير له وإلى تعبيرات مختلفة عنه؟ ما هذا النبي الذي لا يحتاج إلى ملاك يوحي إليه، ولا إلى إله يبعث إليه أي ملاك ولا يحتاج الاقتناع بنبوته إلى أية معجزة كونية أو أخلاقية أو إنسانية؟

ما هذا الإله الذي لا يستطيع أحد أو شيء أن يعصيه، والذي تتحول كل الأشياء وكل الناس إلى أنبياء له، يفسرونه ويعلمون ويبلغون عنه؟

ما هذا النبي الذي كل العالم يصلي وراءه ويؤمن بدينه ويحفظ أوامر كتابه المقدس؟

ما هذه الضرورة التي يقع الحديث عنها بهذا الأسلوب؟

أليس الحديث عن الضرورة مثل الحديث عن الآلهة وعن سكان السماء؟ أليس تحديثاً مستمراً ومثيراً وكبيراً بلا موضوع وبلا قضية؟ أليس اسماً جهيراً رهيباً دون مسمى؟ أليست أكبر الأسماء دائماً أو أحياناً لأقل المسميات أو بلا مسميات؟ أليست الأسماء دائماً أكبر من الأشياء؟

إنه لو كان ممكناً تفسير الضرورة لقلت إنها هي الانقياد للذات المنقادة والمستسلمة والعائشة تحت قسوة وجبروت تحريضاتها واملاءاتها الذاتية بلا تعاليم بل وضد التعاليم، مثلما يفعل وينقاد النجم والنهر والشجرة والحشرة. إن الضرورة هي الذات، أو هي الشيء، فاعلة نفسها ومستجيبة لنفسها، فاعلاً نفسه ومستجيباً لنفسه. ومهما كانت الظروف الخارجية فإن الشيء يفعل نفسه ويستجيب لنفسه. إن كل ما تستطيعه الظروف الخارجية أنها تجعل الشيء يفعل نفسه أو ذاته ويستجيب لها. إن الظروف لا تجعل الشيء يخرج على نفسه أو يتجاوزها أبداً.

إن كل الأشياء ما سوى الإنسان توجد وتتحرك وتتعامل وتحيا وتبقى بالقوانين والإملاءات الذاتية وحدها، أي دون أية مذاهب أو أفكار أو تعاليم أو أوامر أو نواه أو إغراءات أو تهديدات من أي نوع وبأي أسلوب. إنها تفعل كل ذواتها واحتمالاتها وقدراتها، وكل غباواتها وعبقرياتها بما ندعوه الضرورة، أي بالذاتية.

إنها تفعل ذاتها وقدراتها وخطواتها بأسلوب قد يبدو أكثر عبقرية من جميع العبقريات، وأعلى ذكاء ونظاماً وصدقاً وتقوى من جميع التعاليم والمعلمين. أليس النهر يبدو أحياناً أو دائماً أذكى وأتقى وأصدق وأوفى وأكثر عبقرية من جميع الأنبياء والقديسين والعباقرة؟

إن الإنسان مثل كل الأشياء، مثل النبتة والبرغوث، محكوم ومحتوم عليه أن يعيش، بل وأن يفكر ويفهم، بل وأن يمرض ويموت ويتمزق بالضرورة وحدها. إنه لا شيء غيرها مهما كانت الأشياء الكثيرة غيرها. إنها هي وحدها دون جميع الأشياء التي تقوده وتحميه وتعلمه دون كل القيادات والتعاليم التي وضعها لنفسه أو زعمها لنفسه بمعاناة وضجيج وأهوال وتهاويل.

إن البشر مهما وضعوا لأنفسهم، أو مهما فرض عليهم من مذاهب وتعاليم وتقاليد، ومن آلهة وأنبياء وقادة فإنه لا شيء يقودهم أو يعلمهم غير الضرورة، أي غير ذواتهم وغير املاءاتها وقدراتها واحتياجاتها، كالنهر أو النجم أو الشجرة أو الحشرة. وإنهم لا يستطيعون الانقياد أو الطاعة لغيرها أو التعلم من غيرها مهما أرادوا أن يفعلوا لو كان ممكناً أن يريدوا. إنهم يبحثون عن ضروراتهم في آلهتهم وأنبيائهم، ولا يبحثون عن آلهتهم وأنبيائهم في ضروراتهم. إنهم لا يبحثون عن آلهتهم أو عن أنبيائهم حينما يبحثون عن آلهتهم وأنبيائهم.

لو أردنا أن نضع تعريفات أخرى للضرورة أو أن نعبر عنها بكلمات أخرى لقلنا: إنها هي أن نتصادم بأنفسنا وبالكون وبالآخرين وبظروفنا، بكل قدرتنا ورغبتنا وبذاءتنا وخوفنا وجوعنا، وبكل

مزايانا ورذائلنا الأخرى، دون أية قيود أو تعاليم من أي نوع، مثلما تفعل الفئران والبراغيث في تصادمها بنفسها وباحتياجاتها وبمخاوفها وبكل أعدائها ومنافسيها. إننا في بحثنا عن التلاؤم الذاتي وفي خوفنا من التصادم الذاتي لسنا أتقى من فئران أو من براغيث. وإننا في كل سلوكنا ونياتنا لا نفعل غير هذا البحث عن التلاؤم الذاتي وغير الخوف من التصادم الذاتي.

إننا لسنا أكثر خروجاً على قانون التلاؤم والتصادم الذاتيين من البراغيث والفئران. إن جميع أنبيائنا ومعلمينا وزعمائنا وقادتنا وأربابنا لم يستطيعوا أن يجعلونا قادرين على كسر هذا القانون أو مريدين لكسره أكثر من البراغيث والفئران، أعني قانون التلاؤم والتصادم الذاتيين، بل إن هؤلاء لا يجيئون إلا لكي يعلمونا الخضوع لهذا القانون.

إننا لا نوجد ولا نحيا ولا نتغير ولا نصر على الاستمساك بأنفسنا وعلى الدفاع عنها والغضب لها إلا بالضرورة، وإننا كذلك لا نطيع إلا الضرورة، ولا نريد أو نستطيع أن نطيع شيئاً سواها، مهما جهلناها وجهلنا تفاسيرها ومهما شتمناها وحقرناها وسخرنا منها.

إننا لا نستطيع الخروج على الضرورة ولا إرادة الخروج عليها مهما خرجنا عليها أو أردنا الخروج عليها. إننا حين نخرج عليها لسنا إلا باحثين عنها، ومريدين ملبين لها. إن الخروج على الضرورة لا يعني إلا الخضوع لها والدخول فيها بأسلوب آخر. إن الضرورة هي التي تعصي الضرورة.

إن جميع من جاءوا إلينا من المعلمين والقادة ليعلمونا عصيان الضرورة عليها ليسوا إلا أنبياء لها ودعاة إليها، وإلا باحثين ومعبرين عنها. إنهم بحث عن الضرورة واستجابة لها بصيغة البحث عن مقاومتها.

إن الشيء ونقيضه كليهما بحث عن الضرورة وطاعة لها. إن الذي يطيع إلهه أو زعيمه أو دينه أو مذهبه، لا يطيع إلهه ولا زعيمه ولا دينه، ولا مذهبه، ولكنه يطيع ضروراته بأسلوب ما. إن الآلهة والأديان والمذاهب والزعماء والقادة والأنبياء ليسوا إلا أساليب مختلفة أو مزورة من أساليب الضرورة.

إن الذي يطيع إلهه أو نبيه أو زعيمه أو مذهبه أو دينه لا يطيعه وإنما يطيع الضرورة، وإن الذي يعصي إلهه أو نبيه أو زعيمه أو دينه أو مذهبه لا يعصيه وإنما يطيع الضرورة. إنك في كل حالاتك لا بد أن تكون مطيعاً وعاصياً، مطيعاً للضرورة وعاصياً كل ما سواها.

إذن من المطيع، ومن العاصي؟ وما الفرق بينهما، ومن الأتقى أو الأفضل؟ إن كل مطيع هو عاص، وإن كل عاص هو مطيع، كما أن كل طاعة هي معصية وكل معصية هي طاعة..

إننا قد نعجز أن نعرف ما هي الضرورة، أو أن نضع لها تعريفاً متفقاً عليه أو مقبولاً. ولكننا مهما عجزنا هذا العجز فإننا لسنا إلا تعبيراً من تعبيرات الضرورة ولسنا إلا صيغة من صيغها ولغة من لغاتها. حتى عجزنا عن تفسير الضرورة وعن وضع تعريفات لها مقبولة أو مفهومة هو أي عجزنا هذا ليس إلا معنى من معاني الضرورة وإلا حكماً من أحكامها.

إن التوكيد هنا على الضرورة وبأنها هي المعلمة والقائدة لكل شيء ولكل أحد هو توكيد لا يهب ولا يعلم شيئاً لأن جميع الناس مقودون محكومون بها، ومطيعون لها، سواء أعلموا ذلك أم لم يعلموه. فالناس لا يطيعون الضرورة بمنطق العلم بقيمتها ووحدانيتها بل بمنطق حتميتها. هل الإله يطيع نفسه ويستمسك بها لعلمه بقيمة طاعته لنفسه وبقيمة استمساكه بها أم هو يفعل ذلك خضوعاً لإملاء الضررورة ولطغيانها عليه؟

إن الضرورة الذاتية هي التي ربطت وتربط بين وحدات هذا الكون، وساقته وتسوقه في طريقه وهوانه دون أن يكون له أو لوحداته أو لأي شيء آخر رأي أو مصلحة أو تدبير. إنها أي الضرورة إذن عدوان لا مثيل لقبحه وسفهه. إنها عدوان على كل شيء، عدوان كوني لا يستفيد منه أحد... وهل يوجد عدوان لا يستفيد منه أحد حتى ولو في ظن ممارسه أو في حساباته؟ إن هذا العدوان هو عدوان الضرروة، هو عدوان الشيء على نفسه أو على ذاته أو على وجوده. إنه العدوان الذي يعاقب كل أحد حتى فاعله، والذي لا يستفيد منه أحد حتى ولا فاعله. مع أن كل عدوان لا بد أن يكون له ثمن أو يؤمل بأن يكون له ثمن حتى ولو تقديراً أو انتظاراً أو شعوراً.

إن وقاحة الضرورة جعلت كل شيء معتدياً ومعتدى عليه. لقد أوجدت عدواناً بلا معتدٍ، ومعتدى عليه دون احتجاج أو شكوى أو حتى شعور بالعدوان.

إن عدوان الضرورة هو العدوان الذي لا يرفضه أو ينكره أو يقاومه أو يحتج عليه أو يشكو منه أحد.

إن العقل نفسه ليس إلا ابتكار هذا الكائن الوقح، هذا المعتدي اعتداءً كونياً. إن العقل البائس الحزين ليس إلا ابتكاراً وصياغة الضرورة البائسة الحزينة.

إن العقل نفسه ليس إلا إبداع وعطاء هذا الشيء الذي لن نستطيع معرفته مهما تحدثنا عنه وأشرنا إليه وخضعنا له.

لقد كان يعتقد ولا يزال يعتقد بأن العقل هو قائد ومعلم كل شيء. لقد كان ولا يزال يخطب لهذا الاعتقاد عن قيادة العقل ونبوته لكل الأشياء فوق جميع المنابر. وفي ضمير هذا الاعتقاد يعيش هذا السؤال:

والعقل من قاده ويقوده وعلمه ويعلمه؟ أي من الذي، أو ما الذي جعله قائداً ومعلماً؟ أي من الذي، أو ما الذي ابتكره وطوره وصاغه حتى أصبح قائداً ومعلماً لكل شيء ولكل أحد؟ أليس الذي ابتكر أعضاءنا وطورها وصاغها وعلمها وظائفها وجوعها وبذاءاتها وتلوثها هو الذي ابتكر عقولنا وطورها وصاغها وعلمها أن تكون ما كانت أو كما كانت؟

أليس الذي خلق كل شيء فينا ولنا خالقاً واحداً؟ أليس الخالق دائماً والخالق لكل شيء هو خالقاً واحداً مهما كان الاختلاف عليه؟

إن العقل ـ هذا الكائن المضطهد المهان المهزوم، وهذا الخالق المنتصر الجبار القهار ـ إن العقل هذا ليس إلا مخلوقاً ووليداً من مخلوقات وأولاد هذا الكائن الوقح، من مخلوقات وابتكارات الضرورة التي لا مثيل لغبائها وعجزها وقبحها وقسوتها، والتي لا مثيل أيضاً لذكائها ولقوتها ولجمالها ولرحمتها. أي التي لا مثيل لها في أي شيء لأنها هي كل شيء.

إنه لا مثيل للضرورة مذمومة ولا مثيل لها ممدوحة. إنها هي كل الامتداح وكل الهجاء، لأنها أي الضرورة هي كل الأشياء. وإذا كنت كل الأشياء فأنت حتماً كل المديح وكل الذم، كل من يمدح وكل من يذم.

إن العقل ـ هذا الطفل الكبير، هذا الدليل الضال، هذا العزيز المهان، هذا الحر المستعبد، هذا الذي يمجده ويدعيه كل الناس، ويحقره ويصلبه ويبرأ منه كل الناس ـ إن العقل هذا ليس إلا أحد مخلوقات الضرورة وأحد أبنائها وحراسها وخدمها، يبحث لها عن الطريق ويفتحه ويعبده تحت أقدامها، ويتحسس رضاها وشهواتها واتجاهاتها، ويساعدها على الانتصار. إنه يساعدها ضد نفسه، إنه يحارب معها حيثما تحاربه لكي تنتصر عليه. إنه لا يحارب مع نفسه، إنه دائماً يحارب ضد نفسه. إنه لا يحايد من نفسه، إنه دائماً منحاز ضدها، منحاز إلى خصومه.

إن العقل يصنع لنفسه الهزائم لكي يصنع للضرورة الانتصارات. إن العقل يقاتل دائماً متجنداً في جيوش أعدائه. فهل يوجد كالعقل في هوانه ونذالته، أو في فدائيته ونبله؟ هل يوجد كالعقل تنازلاً عن كرامته وعن كبريائه وعن حقوقه لكي يطيع ويخدم أعداءه؟

إن الضرورة لا يمكن أن تخضع للعقل، وإنه لا يطالبها ولا يريد منها أن تفعل ذلك أي أن تخضع له. إن هذا ليس من شهواته ولا من عمله ولا من مجده أو طموحه. إن طموح العقل طموح عبد تابع، وليس طموح سيد أو قائد متبوع. إنه لا يعمل لمجده، ولا يريد أو يشتهي لمجده. إنه لا يملك طموحاً، إن كل ما يملكه هو الطاعة. إن طموحه طموح زائف محكوم مأمور. إنه ليس طموحاً ولكنه عبودية. إنه لا مجد للعقل سوى مجد العبودية والهزائم.

إنه أي العقل لا يضاد الضرورة ولا ينافسها. حتى هذا، العقل لا يصنعه ولا يكونه ولا يستطيعه ولا يتمناه. إنه يبحث عنها ليطيعها ويخدمها، لا ليضادها أو ينافسها أو يناقشها أو ليحاسبها أو حتى ليسائلها. حتى المساءلة للضرورة، إن العقل لا يفعلها ولا يجرؤ عليها ولا يشتهيها.

إنه لا مثيل لتهذيب العقل أمام الضرورة. إنه من تهذيبه لا يجرؤ على مساءلتها أو على التحديق فيها.

إن جميع مغامرات وعمليات العقل والعلم موهوبة ومجندة لتلمس الضرورة وللبحث عن أهوائها واحتياجاتها واتجاهاتها، وللتطويع لها ولإعطائها كل التأييد والحماس لتقوى وتهتدي وتنتصر في خطواتها واملاءاتها العابثة السخيفة التي لا يمكن فهمها ولا تفسيرها ولا تسويغها ولا الدفاع عنها،

ولا الاقتناع أو الاعجاب بها، مهما كان محتوماً الاستسلام لها بلا شهامة أو حصافة، وبلا كرامة أو شرف أو ذكاء، بل مهما كان محتوماً الإعجاب والاقتناع بها، بل مهما كان محتوماً الافتتان بها والجنون في الدفاع عنها وفقد كل مستويات الذكاء لتسويغها وتفسيرها.

إن الإنسان ليس خيراً من الحيوان لأن عقله يقاوم ضروراته كما قد يظن، بينما الحيوان عبد للضرورة وحدها ودائماً. بل الإنسان خير من الحيوان ومن كل الكائنات الأخرى كما يرضينا أن نزعم ذلك لأنفسنا لأن الإنسان يقدر على تحقيق ضروراته أكثر من الحيوان، وبأسلوب يبدو أكثر إخضاعاً لهذه الضرورات. والإنسان أقدر من الحيوان على تحقيق هذه الضرورات لمزاياه المتعددة التي إحداها العقل.

إن تفوق الإنسان على الحيوان وكذا على الكائنات الأخرى المعروفة هو تفوق ذاتي وليس تفوقاً عقلياً كما قد يظن ذلك دائماً أو أحياناً. إنه تفوق ذاتي تحول إلى تفوق عقلي أو نتج عنه التفوق العقلي. وأنا هنا افترض أن الإنسان حتماً متفوق على الحيوان وعلى كل ما عداه من الكائنات الأخرى المعروفة. وقد يكون هذا الافتراض غروراً أو غباءً أو ظلماً أو طغياناً إنسانياً لم يوجد من يحاسب أو يعاقب أو يقاضي البشر عليه.

إنها دعوة من جانب واحد ولحساب أحد الخصمين. إنها دعوى على خصوم صامتين لا يمكن أن يرفضوا أو يتكلموا. إنها اتهام يوجه بلغة لا يعرفها من يسقط فوقهم الاتهام. إن الإنسان يخاصم ويقاضي ويفاخر بل ويجادل دائماً خصوماً أو أنداداً ومنافسين صامتين لا يستطيعون أن يتكلموا أو يعارضوا أو يحتجوا أو حتى يسمعوا.

نعم، كما أن تفوق الإنسان على الإنسان، أو الحيوان على الحيوان، أو المادة على المادة، ليس تفوقاً عقلياً فقط. إن التفوق العقلي هو أحد التعبيرات عن التفوق الذاتي. إن التفوق العقلي أو الأخلاقي أو العاطفي أو الإنساني أو التاريخي ليس إلا معنى من معاني التفوق الذاتي. إن التفوق الذاتي هو الذي يصوغ ويهب جميع معاني التفوق وصيغه.

وتفوق العقل على العقل ماذا يعني من أنواع أو معاني التفوق؟ أليس أيضاً تفوقاً ذاتياً، أي تفوقاً في ذات العقل المتفوق على ذات العقل المتفوق عليه؟ لماذا هذا العقل أذكى من العقل الآخر؟

إننا لو سألنا: لماذا هذا الجسم أو هذا العضل أقوى أو أجمل أو أصح أو أوفى من ذلك الجسم أو ذاك العضل لكان الجواب المحتوم والذي يجب أن يكون محتوماً: لأن أحد الجسمين أو العضلين متفوق تفوقاً ذاتياً على الآخر. إنه لا يمكن أن يكون هناك جواب أو احتمالات جواب عن هذا السؤال غير الجواب. إنه لن يوجد في جميع خزائن الأجوبة جواب سواه.

ومثل هذا الجواب يجب أن يكون الجواب عن السؤال الأول أو السابق. أي يجب أن يكون: لأن أحد العقلين متفوق تفوقاً ذاتياً على العقل الآخر، لهذا تفاوتا في الطاقة أو في التعبير عن الذات. إنه لو

تساوى العقلان ذاتياً لكان محالاً ألا يتساويا ذكاءً وطاقة. أجل، إن التفوق الذاتي هو الذي يصنع جميع التفوقات حتى تفوق العقل على العقل. إنه لا تفسير غير هذا. إنه التفسير العالمي.

هل تفوق الجواد على الحمار أو البغل، أو تفوق الصقر على الغراب أو البومة تفوق عقلي أم ذاتي أم ماذا؟ هل يمكن أن يكون تفوق الشمس على القمر أو تفوق الزهرة على أية نبتة أخرى إلا تفوقاً ذاتياً.

إن صياغة الذات المتفوقة تعطيها التفوق على ما سواها دون أن يوجد أي تفوق عقلي، بل دون أن يوجد العقل كما يتفوق الحجر على الحجر والشجر على الشجر، وكما يتفوق النفط على أخلاق وضمائر وتاريخ مالكيه ولو في بعض البلاد، وكما يتفوق أي النفط أي بعض النفط، أي في بعض البلاد على جميع قدرات ومواهب مالكيه الذاتية والإنسانية.

أي كما يتفوق النفط أي بعض النفط تفوقاً ذاتياً على البشر أي على بعض البشر، بعض الأحيان، في بعض البلاد، أي على كل قدراتهم ومواهبهم الذاتية والنفسية.

إن تفوق النفط على كثير من أهله ليس تفوقاً عقلياً، بل إنه تفوق ذاتي. إنه تفوق أشمل من التفوق العقلي. إنه لو كان تفوق بعض النفط على بعض الناس الذين يملكونه أو يعيشونه أو يعيشون فوقه أو حوله أو تحته تفوقاً عقلياً فقط لكان الذنب أو العار أو الضعف ذنباً أو عاراً أو ضعفاً مهذباً ورحيماً وممكناً غفرانه.

إن التفوق العقلي هنا هو تفوق واحد من عديد التفوقات، من التفوقات الشاملة.

وإذا كان تفوق ذات على ذات يعني تفوق عقل على عقل فهل يكون التفسير لذلك أن تفوق النفط ذاتياً على قومه الذين ولد تحتهم أو الذين ولدوا فوقه يعني تفوق عقله على عقولهم؟ إن المفروض هنا أن يكون الجواب: نعم. إنه الجواب المحتوم.

لقد تحول النفط إلى قوة علمية وحضارية وعقلية هائلة حينما وضع تحت الظروف الملائمة أي تحت الظروف العلمية والحضارية والعقلية. ولكن قومه، أي قوم النفط الذين ولد تحتهم أو ولدوا فوقه هل استطاعوا أن يتحولوا إلى شيء كبير، إلى أية قوة حضارية أو علمية أو عقلية حينما وضعوا تحت الظروف الملائمة، أي تحت الظروف الحضارية والعلمية والعقلية؟ أليس هذا يعني تفوق النفط عقلياً على قومه الذين ولد تحتهم أو الذين ولدوا فوقه؟ لماذا أصبح النفط العربي شيئاً عظيماً حينما وضع تحت الظروف العظيمة ولم يصبح قومه العرب كذلك حينما وضعوا تحت هذه الظروف؟ لماذا لم يصبح هذا سؤالاً عالمياً بل موضوعاً عالمياً؟

إذن لقد كان تفوق النفط ذاتياً على قوم ما في بلد ما يعني حتماً تفوقه عليهم عقلياً، لأن تفوق الذات على الذات يعني حتماً تفوق العقل على العقل، بل يعني تفوق النفس والأخلاق والأحاسيس والاستجابات والقدرة على النفس وعلى الأخلاق وعلى الأحاسيس والاستجابات والقدرة. إن التفوق

أو التفاوت في التعبير أو في التفسير أو في الأداء لا يجيء من الفراغ، إنه لا يجيء إلا من التفوق أو من التفاوت أو من التفوق في النموذج الذاتي.

إن التفوق العقلي ليس هو الذي صنع التفوق الذاتي، بل إن التفوق الذاتي هو الذي صنع التفوق العقلي. إن التفوق العقلي يدل على التفوق الذاتي ولكنه لم يصنعه. لأن التفوق العقلي لا يوجد أو يجيء إلا بعد وجود أو مجيء التفوق الذاتي. وقد يوجد التفوق الذاتي دون أن يوجد التفوق العقلي. ولكن التفوق الأخير لا يمكن أن يوجد دون أو قبل وجود التفوق الأول.

إنه لو كان الإنسان قد وجد بصيغته الموجودة التي يعيشها الآن دون أن يملك العقل أو التفوق العقلي على الكائنات الأخرى لكان بذلك متفوقاً عليها بصيغته الذاتية وبخصائصه وصفاته ونماذجه وبمستوياته الأخرى المتفوقة التي ليس منها العقل.

إن الإنسان متفوق على جميع الكائنات سواه بأشياء كثيرة غير تفوقه العقلي. إن نماذجه الذاتية والأدبية والشعورية متفوقة على نماذج الموجودات الأخرى.

ولكن هل يمكن أن تكون للإنسان صيغه أو نماذجه الذاتية والشعورية والنفسية والأدبية أو الأخلاقية هذه دون أن يبلغ طور العقل أو طور التفوق العقلي الذي بلغه.

وإذا كان ذلك ممكناً فكيف إذن أصبح حتماً وواقعاً؟ وهل الممكن أن يتحول إلى حتم أو إلى واقع؟ أليس الحتم هو فقط الذي يتحول إلى حتم أو إلى واقع، أما الممكن فيظل أبداً ممكناً. إن ما حدث لا بد أن يحدث وما لم يحدث لم يكن ممكناً أن يحدث. لقد كان محتوماً وجود هذا الكون بكل صيغته، بكل أجزائه وبراغيثه وكان مستحيلاً وجوده بصيغة أخرى.

إن جميع التعاليم إنما وضعت وأريد منها وبها في الغالب أن تزجر الضرورات وأن تذلها وتهزمها، مع أن البواعث والحوافز لهذه التعاليم هي الاستجابة للضرورات والبحث عنها وعن احتياجاتها واتجاهاتها، كما سبق في السطور السالفة. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. فالتعاليم التي أريد بها أن تقاوم الضرورات وتقهرها هي من صنع الضرورات ومن إملائها وإيحائها وتعليمها.

ولكن أليست الضرورات متعارضة ومتضادة ومتناقضة؟ فكيف يمكن حينئذٍ أن تكون حكماً على نفسها وعلى كل شيء سواها؟ وكيف يكون الإيمان بزعامتها وقيادتها شيئاً مشروعاً أو معقولاً؟ وقد يكون من التكرار المغفور أن نقول:

إن في ذات الضرورة عقلها وهداها، كما أن في ذاتها أيضاً ضلالها ـ وجنونها. وإنها بمحاولاتها ووقاحتها لا بد أن تهتدي إلى اجتناب هذا التناقض أو التضاد أو التعارض، أو إلى ترويضه وإلى التوفيق وعقد الصلح بين وحداته المتناقضة.

إن تجنب التناقض أو ترويضه والتوفيق بين اتجاهاته حاجة من حاجات الضرورة، إذن فهو ضرورة.

وإذن فإحدى ضرورات الحياة أو الوجود أو إحدى ضرورات الضرورة تجنب التصادم المؤلم أو القاتل، أي محاولة هذا التجنب.

إن محاولة النجاة واتقاء الألم والورطات قانون من قوانين الضرورة. وإذا كانت الضرورات ضالة ومتناقضة ولا يمكن أن تكون إلا كذلك فهي مع ذلك كل القادة وكل المعلمين، كل القادة وكل المعلمين للإنسان وللبعوضة المحاربة للإنسان، للشيء ولنقيضه.

إن عمل الذات بقانون الذات وبشهواتها وإملاءاتها هو الشريعة الكونية والإنسانية التي فرضتها وأنزلتها ألوهية لا يمكن عصيانها ولا الاختلاف عليها مهما كان الاختلاف في تفسير لغاتها وأوامرها وفي تفسير حوافزها وأهدافها اختلافاً لا يمكن علاجه ولا الاتفاق عليه. إن أي نبي حينما يصنع بين ضروراته التوافق إنما يصنع ذلك ويعرفه بإملاء الضرورات نفسها عليه لا بما جاءه به الملاك من وحي ولا بما في قلبه من خوف الإله أو من حبه.

إن عمل الذات بقانون وضغوط الذات على الذات هو الدين والمذهب الكونيان والإنسانيان اللذان إنما أنزلت وجاءت جميع أديان ومذاهب الأنبياء والمعلمين بحثاً عنهما وتفسيراً لهما، وصيغاً من صيغهما، وأحاسيس من أحاسيسهما، وخوفاً منهما، وطاعة لأوامرهما، وهتافاً من هتافاتهما، وهتافاً لهما.

ولو حاولنا أن نبحث عن المزيد من تعريفات الضرورة لقلنا:

إن الشيء يصبح ضرورة حينما يكون قطعة من الحياة ـ حينما يكون إحساساً ذاتياً من أحاسيس الحياة، وحينما يكون محتوماً عليها أن تشتهيه وتجوع إليه وتطلبه من داخلها بلا أوامر أو تعاليم أو تلقين، بلا أنبياء يملكون الجنة والسماء ويعدون بهما، ويملكون الغضب والجحيم ويهددون بهما، بل بالعصيان لكل الأنبياء.

ولكن هل يمكن أن يفهم هذا أو يتحدد؟ ماذا يعني بكلمة القطعة من الحياة، أو بتعبير الإحساس الذاتي للحياة أو في الحياة؟

إنها كلمات تقال، وقد تسمع وتعاد. وقد تصنع الإحساس بالرهبة والاقتناع والاحترام والإعجاب. إنها كلمات أو تعبيرات قد تكون معفاة من أن تكون مفهومة أو مفسرة، ومن أن تكون مطالبة بأن تكون لها تفاسير أو معان يمكن أن تفهم أو أن تفسر. ما أكثر الكلمات والتعبيرات والتعاليم بل والنبوات التي تكون معفاة من أن تكون مفهومة أو مفسرة، ما أكثر الأشياء التي هي كذلك. إن الكلام المعفى من أن يكون له أي تفسير أو أي معنى، ومن أن يكون مطالباً بذلك هو أبلغ وأقوى وأجمل الكلام وأكثره ارجافاً وإثارة وإقناعاً وصدقاً وقوة في كل التاريخ وفي كل المجتمعات. إن الكلام ليهزنا ويعجبنا لأنه بلا تفسير ولا معنى أكثر وأقوى مما يصنع بنا ولنا ذلك لأن له تفسيراً ومعنى.

إن أقوى وأخلد الآلهة والزعماء والمعلمين وأكثرهم اتباعاً وإقناعاً هم الآلهة والزعماء والمعلمون الذين يقولون كلاماً لا يمكن أن يكون مفهوماً أو مفسراً، بل الذي لا يمكن أن يكون له أي تفسير ولا أي معنى. وإن أخلد الكلام وأقواه سحراً وإقناعاً في تاريخ البشر وتاريخ الكلام هو الكلام المعفى من التفاسير والمعاني والمعفى من المطالبة بشيء من ذلك.

إن تفاسير الأشياء ومعانيها لتصغير لها وإفساد لسحرها وروعتها وإضعاف لكبريائها.

لعل ما يريده البشر أن يقال لهم أن يخاطبوا وأن يسمعوا، ولكنهم لا يريدون أو لا يشترطون أن تكون لما يقال لهم ولما يخاطبون به ولما يسمعون أية معان أو تفاسير، كما لا يريدون أن يطالبوا بفهم أو بتفسير تلك المعاني والتفاسير، أو أن تلقن وتقال لهم، أي تلك المعاني والتفاسير. لعلهم يريدون فقط أن يخاطبوا ويسمعوا. لعل السماع والمخاطبة أقوى وأجمل من كل المعاني ومن كل التفاسير في شهوات الجماهير وفي جوعها.

لعل المعاني والتفاسير تحديد وتقييد وظهور، والبشر لا يسعدون إلا بإطلاق الغموض والخفاء. لعل الكلمة المفهومة المحددة هي أسخف الكلمات وأبخلها وأكثرها عدواناً وأقلها إثارة وجمالاً وصداقة للإنسان، وأقلها أيضاً عزاء لآلامه ولاحتياجاته. لعل وضع المعاني والتفاسير للكلمات نوع من هتك عرضها أو عفتها. لعل حمايتها من المعاني والتفاسير نوع من حماية عفتها في تصور الناس.

لعل هذه التعريفات للضرورة كالقراءة في الصلاة. وهل تطالب القراءة في الصلاة أن تكون مفهومة أو مفسرة، أو أن يكون لها أي تفسير أو أي معنى؟ أليس وضع أي معنى أو أي تفسير لها أي للقراءة في الصلاة يفسدها ويسلبها كل جمالها وفنها وسحرها، بل يسلبها كل معانيها وتفاسيرها غير الموجودة وغير المفسرة وغير المفهومة، والتي لا ينبغي أن تكون موجودة أو مفسرة أو مفهومة؟

هل تستطيع أن تعجب أو أن ترحب بمن يحاولون أو يريدون أن يفهموا أو يفسروا القراءة في الصلاة؟ هل تستطيع أن تستمع لمن يحاولون أو يريدون أن يفعلوا ذلك؟

هل تستطيع أن ترحب بمن يحاولون أن يفسروا أو يفهموا لماذا أنت مسرور وراض عن نفسك معجب بها؟ أو لماذا تتقبل وجودك وظروفك وممارساتك وهمومك وآلامك بكل هذا الصبر والاستسلام؟

* *

إن العصيان لمطالب وشهوات الحياة الذاتية ولهتافاتها الطبيعية هو المعنى الشامل للتقاليد والعقائد والنبوات والمذاهب العنيفة التي يبتكرها الإنسان ليقاتل بها نفسه، أو التي يبتكرها فريق من الناس ليقاتلوا أو ليخضعوا أو ليعاقبوا أو ليصطادوا بها خفقات قلوب الناس وضربات أيديهم وخطوات أقدامهم وغضب واحتياجات عقولهم وأحاسيسهم أو التي يصنعها الإنسان تحت ظروف غير ملائمة لضروراته، أو مضللة لها ولاتجاهاتها، أو مفسدة لذكائها، أو مرهقة لخطواتها ــ أو يوم كانت تتقاذفه

ضروراته وأوهامه، مختلطة عليه في ظلام طفولته، عاجزاً عن التفاهم بل عن التخاطب معها، وإن كان خاضعاً لها مهما خاض الحروب التعليمية أو الدينية أو المذهبية أو الأخلاقية ضدها. إن جميع البشر في جميع العصور لا بد أن يصنعوا بينهم أو أن يجدوا بينهم من يقاتلونهم بالعقائد والتعاليم وبالمذاهب العنيفة ومن يهزمون بها كل تحليقاتهم وتحويماتهم وأشواقهم.

إنه ما من مطلب أو شهوة ذاتية من مطالب الحياة أو شهواتها يحرم أو تحرم في أي مجتمع من المجتمعات إلا ولا بد أن يكون في الأمر أحد أمرين خاطئين: أما أن هذا المطلب أو هذه الشهوة المحرمة كاذبة وليست مطلباً أو شهوة من مطالب الحياة وشهواتها، وإنما استولدناه أو استولدناها بأخطائنا، وفي ضربنا العشوائي البائس المجهد في تيه الضرورات الرهيب ـ وأما أن هذا التحريم لهذا المطلب أو لهذه الشهوة أسلوب من أساليب الإسراف الأخلاقي أو الديني أو المذهبي أو التعليمي الذي لا بد أن نمارسه ضد أنفسنا ومن أجل أنفسنا، والذي لا بد أن يمارسه ضدنا وبنا وفينا الأنبياء والزعماء وجميع أصناف القادة والمعلمين المقاتلين لطموحنا.

وما أكثر ما يعاقب الإنسان نفسه، ويخيف ذكاءه ونشاطه، ويزجر حماسه وطغيان ضروراته، احتراماً لضعفه أو لغبائه، وإشفاقاً عليه وحماية له من المعاناة والهزائم.

نعم، ما أكثر ما يفعل الإنسان بنفسه كل ذلك حينما يسرف في تعليم الأخلاق والأديان والمذاهب والآداب العنيفة في تحريمها وزجرها وتعففها وطغيانها.

إن التعفف النفسي والفكري والأخلاقي ليس إلا أسلوباً من أساليب الرفق بضعفنا وغبائنا والمحاباة لهما.

لقد كان الإنسان دائماً يفعل ذلك وكأنه إنما يحاول الصعود إلى أعلى مستويات التقوى والتطهر والتأدب، بينما كانت حوافزه الرفق بضعفه وغبائه، ومحاولة الهرب من الاقتحام الصعب، أو الاستجابة لخوف يعيش في داخله بل يعيش في ظروفه الخارجية أو في تاريخه المتراكم أو لعجزه عن التوفيق بين ضروراته المتضادة المتخاصمة المتحاربة عليه.

إن أي نبي بكل تعاليمه العنيفة المتعصبة المتوقرة لا يساوي في حساباتنا ونياتنا أكثر أو أفضل أو أتقى من حيرتنا وتوزعنا وتمزقنا بين ضروراتنا وضروراتنا، بين ضعفنا واحتياجاتنا، بين إرادتنا وعجزنا، بين خوفنا وطموحنا، بين كبريائنا وعذابنا.

إن جميع الأنبياء والمعلمين لا يساوون في حياتنا أكثر من إحساسنا بطغيان ضروراتنا علينا ومن محاولاتنا المحاباة والاستجابة لوقاحاتها.

إننا قد نطيع تعاليم النبي المبالغة جداً في عنفها وفي تعصبها وتقواها وفي تحريمها ونهيها لأننا نريد أن نخيف ذكاءنا وحماسنا ونشاطنا من الاقتحام والمعاناة، لأن ذلك يرهقنا ويكلفنا ويعرضنا، ولأننا نريد أن نحمي ضعفنا، ولأننا نشفق عليه ونستجيب له. إننا قد نصدق التعاليم العنيفة جداً في زجرها

لنا لأننا نريد أن نحمي ذكاءنا أو غباءنا من المخاطرات أو المغامرات ومن التصادم المدمر.

وتعاليم الأنبياء وجميع المعلمين مهما كانت عنيفة ومخيفة ومتعصبة فإنها تتحول إلى إراحة وإعفاء وتبريد لذكائنا وحماسنا ومخاوفنا ولأشواطنا وتطلعاتنا القتالة.

إن التعاليم قد تتحول إلى معتقلات لأشواطنا ولهفاتنا وتطلعاتنا وانطلاقاتنا ولأفكارنا. وهذا أليس شيئاً مريحاً ومنقذاً؟

إن المتألمين والمحرومين قد يذهبون، بل حتماً يذهبون يعالجون، أو يحاولون أن يعالجوا آلامهم وحرمانهم بأنواع أو بمستويات وأساليب أخرى من الآلام والحرمان، يتدعونها ويفرضونها على حياتهم، تحت أشتات كثيرة من التفاسير والتسويغات والتعاليم.

إن الإيمان بالعقائد والتعاليم والمذاهب التي تصنع العذاب والحرمان قد يكون أسلوباً من أساليب البحث عن الحرمان والعذاب ومن أساليب توقيعهما على النفس ومعاقبتها بهما، احتجاجاً على عذاب وحرمان آخرين، أو تفريغاً لهذا العذاب والحرمان الآخرين، أو محاولة للهرب منهما أو للانصراف والتلهي عنهما، أو تغطية عليهما، أو تصغيراً لهما، أو إعلاناً عنهما، أو معاقبة لأسبابهما وظروفهما، أو تململاً تحتهما بلا منطق أو تدبير.

إن المتألمين هم أكثر الناس بل أكثر الكائنات ابتكاراً لأسباب الألم. إنهم يصنعون للألم أسباباً من الأديان والمذاهب والأخلاق والتعاليم، ومن الآلهة والأنبياء والزعماء، ومن الحروب والخصومات والعداوات وكل الحماقات الأخرى. إنهم أكثر استجابة لأسباب الألم وابتكاراً لها وترحيباً بها. إنهم يستجيبون للحروب وللعداوات وللسير وراء الأنبياء والزعماء والمعلمين الذين يصنعون أشد الآلام ويوقعونها بهم أكثر مما يستجيب لذلك أولئك الذين لا يعانون شيئاً من الآلام أو شيئاً من الآلام الصعبة الباهظة. انظر. إن إيمانك بعقيدة أو بدين أو بزعيم أو بحثك عن ذلك قد يكون أسلوباً من أساليبك في ابتكار الآلام وابتكار أسبابها أو في الترحيب بها.

إن المتألمين ليذهبون يقاومون الآلام أو يحتجون عليها أو يشتمونها أو يعلنون عن رفضها وعن بحها وعن الغضب عليها بابتكار المزيد منها ومن أسبابها.

إن الخائفين ليذهبون يصنعون المزيد من أسباب الخوف والمزيد من أنبيائه وقادته والقادة إليه.

* *

إن أحاسيس الحياة ومجاعاتها لا تكذب، وإذا كذبت فإن كذبها هو الكذب الذي يجب تصديقه وطاعته واحترامه. إنه كذب أصدق من النبوات. إنه الكذب الذي لم تجيء النبوات ولا الديانات ولا التعاليم ولا المذاهب إلا لطاعته وتصديقه والاستجابة لكل ذنوبه ووقاحته إنه الكذب الذي تخطب له كل المنابر المتدينة الصادقة، وأيضاً كل المنابر الفاجرة الكاذبة. إنه الكذب الذي يحترمه ويدعو إليه أعظم الأنبياء والمعلمين بقدر ما يحترمه ويدعو إليه أفسق الخارجين على الأنبياء والمعلمين.

إن أي نبي أو معلم لا يستطيع أن يكون صادقاً أو تقياً أو ذكياً أو عظيماً إلا بمقدار ما يستطيع أن يستجيب لأكاذيب الحياة أي لأكاذيب الضرورة، وبمقدار ما يستطيع أن يعي هذه الأكاذيب وأن يحترمها ويعلمها وأن يصبح نبيها أو معلمها العظيم.

إن صدق أي نبي لا يمكن أن يعرف أو يقوم إلا بأسلوب تعامله مع أكاذيب الحياة أي ضروراتها.

إن الضرورات قد تعد أصدق الصدق، وقد تعد أيضاً أكذب الكذب. إنها قد تفسر بهذا التفسير، وقد تفسر بالتفسير المناقض. وقد يصدق هذا التفسير كما قد يصدق نقيضه. وهذا لأن الحياة قد تكون أصدق الصدق أو كل الصدق، كما أنها قد تكون أكذب الكذب أو كل الكذب. وهل يستطاع أن يحكم لأحد الافتراضين أو التفسيرين أو الرأيين على الآخر؟ هل الحياة صدق أم كذب؟ من يستطيع أن يعرف الجواب؟

إنه لمن الممكن أن يجيء نبي ليعلن ويعلم بأن الحياة بكل ما فيها وما معها من ضرورات هي كل الصدق وأعظم الصدق، ثم يجد الاتباع والمؤمنين والمصدقين، كما أن من الممكن أيضاً أن يجيء نبي آخر أو أن يجيء هذا النبي نفسه ليعلن ويعلم بأن الحياة وكل ضروراتها هي كل الكذب وأعظم الكذب، ثم يجد أيضاً حظه من الاتباع والمؤمنين والمصدقين الأبرار. ثم هل يمكن أن يوجد من يستطيع أن يعرف وأن يحكم أي النبيين هو الصادق؟ أيهما النبي الذي أوحى إليه الملاك وأيهما النبي الذي أوحى إليه الشيطان..؟

إن في الموقف عقدة لا يمكن حلها أو هل يمكن حلها؟

إن الطبيعة والإنسان هما فقط الموجودان. فإذا أصدر الإنسان حكمه على الطبيعة أو على الحياة أو على الأشياء أو حتى على نفسه فما هي مقاييسه أو شهوده أو نماذجه التي يمكن أن يعرف بها قيمة حكمه والتي تجيز له أو توجب عليه أن يصدر أي حكم عليها، وأن يكون حكمه هذا دون نقيضه؟

إن الشيء إذن هو نموذج نفسه ومقاسها وتفسيرها ومنطقها والحكم عليها وهو شاهدها ودليلها وهجاؤها والثناء عليها، وهو برهان صدقها وبرهان كذبها. إن هذا يساوي أن يكون الثوب هو نموذج وقياس نفسه بلا جسد يوضع على مقاسه. أن يساوي الحكم على القامة بأنها طويلة أو قصيرة، بأنها نحيلة أو بدينة، أو الحكم على الشيء بأنه صغير أو كبير، قريب أو بعيد، حينما تكون القامة وحدها دون أية قامة أخرى، وحينما يكون الشيء هو الموجود وحده، هو كل الوجود دون أي وجود آخر ـ أي حين لا توجد أية قامات أخرى ليكون الحكم على تلك القامة بأنها طويلة أو قصيرة، نحيلة أو بدينة قياساً على تلك القامات الأخرى، وحين لا يوجد أي شيء آخر ليكون الحكم على ذلك الشيء بأنه صغير أو كبير، قريب أو بعيد قياساً على ذلك الشيء، ومحسوباً ببعده. إنه حكم لا يمكن أن يوجد من يستطيع أن يعرف أنه حكم صادق أو كيف يمكن أن يكون صادقاً...

إن الشيء بلا شيء آخر هو أشياء أخرى لا يمكن الحكم عليه بأنه صغير أو كبير، ولا بأنه قريب أو

بعيد، ولا يمكن أن يكون هذا أو هذا. بل إن الحكم عليه حينئذٍ بأنه كبير وبعيد جداً يساوي الحكم عليه بأنه صغير وقريب جداً، لأنه لا منطق ولا نموذج للحكم عليه بهذا أو بنقيضه حينما يكون وحده. إذن فكل حكم عليه يساوي أي حكم آخر.

إذن فالحكم على الحياة أو على الطبيعة وعلى ضروراتها بأنها هي أصدق الصدق أو كل الصدق يساوي الحكم عليها بأنها هي أكذب الكذب أو كل الكذب لأنها هي كل الوجود. إنه لا يوجد شيء آخر ليكون هو النموذج أو القياس أو المنطق أو الدليل أو الشاهد في الحكم عليها. إنه لا توجد قامة أخرى لتكون هذه القامة قصيرة أو طويلة، نحيلة أو بدينة، قياساً عليها أي على تلك القامة الأخرى.

إنه لا يوجد شيء آخر ليكون هذا الشيء صغيراً أو كبيراً، قريباً أو بعيداً، قياساً على ذلك الشيء الآخر ومحسوباً بعده أو قربه بمكانه. إن الحكم على الشيء لا يكون إلا بنموذج. إنه لو كان شيء ما وحده ولو في نوعه لكان الحكم عليه شيئاً مستحيلاً أو غير مفهوم أو غير عادل.

إن هذه هي العقدة التي لا يمكن حلها في هذا الموقف، أي في موقف الحكم على الضرورات وفي التفسير لها: هل هي أصدق الصدق وكل الصدق، أم هي أكذب الكذب وكل الكذب. ولكن ما هو الصدق وما هو الكذب؟ إن الإنسان يرى دائماً صدقاً ويرى دائماً كذباً. وإنه ليتحدث دائماً عن هذا وهذا. ولكن كيف يعرف أنه قد عرف؟ وكيف يصدق نفسه؟ من يشهد له؟

إنه ما من صواب أو خطأ وقع أو يقع في هذا الكون إلا وكان سببه أو الدافع إليه هو الاستجابة لأكذب الكذب ولكل الكذب، أو لأصدق الصدق ولكل الصدق ـ أي هو الاستجابة للضرورات التي هي أصدق وكل الصدق، أو التي هي أكذب الكذب وكل الكذب.

أي إنها الاستجابة لما نسميه صدقاً ونسميه كذباً دون أن نعرف ما هو الصدق، وما هو الكذب، وما الفرق بينهما.

ولكننا نختلف ونخطيء في أسلوب الاستجابة وفي القدرة على الاستجابة، وفي التفسير والتقدير إن أعظم قديس لا يختلف عن أعظم فاجر شرير إلا في أسلوب الاستجابة لوقاحات وبذاءات الضرورة، أو القدرة على الاستجابة، أو في التفسير والتقدير لذلك.

إن أحداً لا يحاول أن يطيع بل ولا يستطيع أن يطيع سوى هواتف هذه القوة الباغية العدوانية المفروضة على كل كائن، بلا هدف نبيل، بل وبلا هدف غير نبيل.

إنه لا أحد يستطيع أو يريد أن يطيع غير أكذب الأكاذيب وكل الأكاذيب، أو أصدق الصدق وكُل الصدق. ومرة أخرى: أليس الحديث عن الصدق والكذب حديثاً عن شيء لن يوجد قانون أو معجزة أو مذهب أو دين أو أي شيء يجعلنا نعرفه أو نعرف أننا نعرفه؟

أليس حديثاً عما لا نعرف وعما لا نستطيع أن نعرف وعما لن نعرف أننا نعرف؟

* *

إنه لو قيل:

أليست جميع المعتقدات والمذاهب والتعاليم وجميع الأنبياء والزعماء والمعلمين وسائل مختلفة من وسائل التعبير عن الضرورة، كما ذكر فيما سبق ـ أليسوا جميعاً رسل الضرورة وأنبيائها وقديسيها ـ أليسوا جميعاً رسل وأنبياء وقديسي هذا الوحش الرهيب الذي يعيش في أعضاء ونيات كل الناس وكل الأشياء؟

أليسوا جميعاً جنود هذا الوحش ولغاته وصرخاته وعوائه؟

أليسوا أعنف وأقوى أساليبه في الهجوم والإلحاح والعدوان والإعلان عن نفسه؟

إذن لماذا تنكرهم وترفضهم، أو إذا كانوا كذلك فلماذا تنكرهم وترفضهم؟

كيف تؤمن بالنبوة أو بالرسالة أو بالمذهب أو بالتعاليم وتباركها وتدعو إليها وتهبها كل الاحترام والتأييد ثم تنكر وترفض كل أنبيائها ورسلها ومعلميها؟

كيف تتقبل الخفقات والنظرات وتنكر العيون والقلوب؟ كيف تغفر الحب ولا تغفر من يحبون؟ كيف تتقبل الوقاحات والتلوثات والآثام والصغائر وترفض أو تنكر المتوقحين والمتلوثين والآثمين والصغار ـ أو كيف تتقبل هذه وترفض أو تنكر دعاتها ومعلميها وممارسيها؟

كيف تسامح الطغيان والغباء ثم لا تسامح الطغاة والأغبياء؟

إنه لو قيل ذلك لوجب أن يكون الجواب:

نعم، إن هؤلاء كما وصفت، إن مكانهم من الضرورات لكذلك. ولكنهم قد يكونون ضرورات قد ماتت، أو ضرورات خاصة وليست شاملة أو دائمة، أو ضرورات مرضية، أو إعلانية استعراضية كاذبة. والأنبياء والزعماء والمعلمون لا بد أن يكونوا مرضى بهذا المرض الشهير الشرير، مرض الإعلان والاستعراض. إن مرضهم هذا هو أخبث الأمراض وأكثرها وحشية وعدواناً وبذاءة وتشويهاً.

نعم، إن هؤلاء هم حتماً تعبيرات، ولكنهم قد يكونون تعبيرات عن أنفسهم فقط، أو عن زمانهم فقط، أو عن ظروفهم فقط، لا عن كل الإنسان ولا عن كل الظروف ولا عن كل الأزمان. إنهم قد يكونون هم الضرورة الميتة أو المتخلفة أو الهمجية أو البليدة أو الخاصة المناقضة والمقاومة للضرورة الحية أو المتقدمة أو المتحضرة أو الذكية أو العامة.

وإنهم أيضاً قد يكونون تعبيرات غير عادلة أو غير صادقة أو غير متوازنة أو غير مهذبة. إنهم حينئذٍ لا بد أن يصبحوا عدواناً على الضرورة وتضليلاً لها وخروجاً عليها وعصياناً لأوامرها مهما كانوا استجابة لها وبحثاً عنها. وإنهم أيضاً لا بد أن يكونوا تشويهاً للضرورة. إن الضرورة تشوه كما تشوه

جميع الأشياء والأنبياء والزعماء والقادة هم أقسى المشوهين لها. إنه لهذا كان رفضهم وإنكارهم وعياً بل وإخلاصاً للضرورة وتلبية لإملاءاتها واحتياجاتها الصادقة الأصيلة. إنه لهذا كان الانتصار عليهم انتصاراً لها.

أجل، إن كل انتصار على الزعماء والقادة والمعلمين وعلى العقائد والمذاهب والتعاليم هو انتصار للضرروة واستجابة لنداءاتها وهتافاتها الأصيلة العدوانية.

ولكن أليس من الممكن أن يكون هؤلاء ضرورات أصيلة صادقة ذكية شاملة عائشة، أو تعبيراً عن مثل هذه الضرورات ومع هذا نرفضها ونقاومها ونتمنى هزيمتها؟ أليست الضرورات تقاوم وتضاد وتنفي الضرورات؟ أليس الشيء يقاوم وينفي نفسه؟ أليس الذكاء يقاتل الذكاء؟ أليس الغباء يقاتل الغباء؟ أليست الحياة والشجاعة تقاتلان الحياة والشجاعة؟ أليست الحشرة تقاتل الحشرة، والإنسان يقاتل الإنسان، والألم يقاتل الألم، والبذاءات تقاتل البذاءات؟ أليس الحجر يصادم الحجر وينفيه ويحطمه؟

إذن فأنت وأنا ضرورات ترفض وتقاوم الضرورات الأخرى أمثالها وإذن فمقاومة الزعماء والأنبياء والقادة والعقائد والتعاليم والمذاهب أسلوب من أساليب مقاومة الضرورات للضرورات، ومن أساليب التناقض والتصادم والتنافي بينها. إن كل تقدم أو تأخر ليس إلا مقاومة ضرورة لضرورة أو نفي وجود لوجود آخر.

* *

وإذن ما الذي ابتكر للإنسان عقله؟

إنه ابتكر له أنبياءه وزعماءه ومهرجيه وأديانه ومذاهبه وتعاليمه.. إنه الذي ابتكر له جوعه وآثامه وأكاذيبه وأحزانه وآلامه ومخاوفه وأنينه ودموعه وصراخه وصلواته ونفاقه. إنه الذي ابتكر له الموت والشيخوخة والهوان.

إنه الضرورة. إنه الشيء الذي يمكن الحديث عنه ويكثر الحديث عنه، دون أن تمكن معرفته.

إن مجتمعاً ما أو إنساناً ما لو أنه نال جميع احتياجاته المادية والنفسية والشعورية، ولم تمارس الطبيعة ضده أو فيه أي إيلام أو تهديد أو تخويف أو إرهاق أو مناقضة، لما كان ممكناً أن يمارس أي ضلال أو خطأ أو ظلم أو أي انحراف أو أي دين أو أي مذهب أو أية تعاليم أو أي إله، بل ولا أي عقل أو تفكير أو منطق ـ بل لما كان ممكناً أن يريد شيئاً من ذلك.

إن الغواية والانحراف، وإن البحث عن ذلك بالبحث عن الآلهة والأنبياء والزعماء وعن التعاليم والمذاهب والمعتقدات المتعصبة العدوانية الحاقدة، وبالإيمان بها والتعصب لها وباتباعها ـ إن ذلك كله هو التعبير العالمي والشامل عن الوقوع في الآلام والأخطار والمناقضات وعن مواجهتها وهو أيضاً التعبير

العالمي الشامل عن الاحتجاج عليها، أي على الآلام والأخطار والمناقضات. إن ذلك كله هو التعبير عن آلامنا وهمومنا الإنسانية، لا عن آلامنا وهمومنا الواقعية فقط.

إننا نعاني جوعاً إنسانياً شاملاً باهظ العذاب، ونعاني حرماناً وضياعاً ومخاوف وآلاماً على كل الاتجاهات والجبهات والمستويات. إننا نعاني كل ذلك مهما أخذنا أو وجدنا أو ملكنا من أسباب ووسائل الأمن والامتلاك. إننا نعاني معاناة إنسانية. والمعاناة الإنسانية لا تحدد أو تحسب بأسباب معينة أو معلومة أو معدودة أو محفوظة، ولا تحسم أي المعاناة الإنسانية أو تداوى بعطايا معينة أو بامتلاك أو بظفر أو بانتصار أو بتفوق أو بأخذ معين أو كبير. إن الإنسان لا يعاني أو يتعذب أو يحتج أو يغضب أو يرفض لأنه يواجه بل لأنه إنسان. إنه يكون بقدر ما هو إنسان لا بقدر ما تكون الأشياء أمامه أو حوله أو له أو ضده.

إن المعاناة الإنسانية لا تساوي الظروف الخارجية، لا تساوي ما يؤخذ أو ما يعطى أو ما يحرم أو يمنع أو يمتنع، ولكنها أي المعاناة الإنسانية تساوي نفسها. إنها لا تساوي إلا نفسها. إن المعاناة ليست في الأشياء، أو ليست فيها فقط بل وفي من يعاني. إن قبح الشيء لا يساوي قبحه فقط بل وإحساسنا به.

إن الإنسان لا يساوي في قبوله أو في رفضه، في إعجابه أو في اشمئزازه، في سروره أو في أحزانه، في رضاه أو في غضبه، في حبه أو في بغضه، في ثورته أو في استسلامه، في اقتناعه أو في عجزه عن الاقتناع.

إن الإنسان في كل ذلك أو في بعضه لا يساوي ما يجد أو ما لا يجد، ما يستطيعه أو ما لا يستطيعه، وإنما يساوي نفسه، ذاته. كذلك معاناته لا تحدد أو تحسب أو تقوم بالأشياء موجودة أو مفقودة، مهما كانت الأشياء. إنها أي معاناة الإنسان لا تساوي إلا نفسها. إنها لا تساوي الأشياء التي حولها أو التي تواجهها أو التي تملكها أو التي تفقدها أو التي تناقضها.

إن الإنسان الذي يمتلك الشمس بكل توابعها لن ينتظر منه أن يكون أقل معاناة ممن لا يظفر في كل حياته بكل آماله بخطفة سريعة مسروقة من ضوئها. إن الإله المالك لكل هذا الكون لو كان إنساناً لما كانت معاناته لأنه يملك كل هذا أقل من معاناة إنسان لا يملك التراب الذي يضع جبهته عليه حينما يصلي لأوثانه وطغاته.

ولأن الإنسان يعاني ولا بد أن يعاني دائماً بلا قياس أو نموذج أو شفاء كان محتوماً عليه أن يضل ويخطىء ويمارس جميع الغوايات والانحرافات والبذاءات العقلية والاعتقادية والسلوكية والنفسية. إنه لذلك لا بد أن يمارس أوقح وأقبح الأرباب والأنبياء والزعماء والمعلمين، وأن يمارس كذلك أشد المذاهب والأديان والتعاليم غباء وعدواناً وتعصباً.

إن الإنسان يعاني ويمارس لأنه محتاج إلى الممارسة ومحكوم عليه بالمعاناة لا لأنه محتاج إلى ما يمارس وما يعاني من أجله.

إنه بذلك كأنما يحاول أن يعاقب أو يشاتم الآلهة والطبيعة ويعلن احتجاجه ورفضه وغضبه واشمئزازه مما يجد ويعاني ويعرف ويرى ويواجه.

كأنه بذلك إنما يحتج على مستواه الإنساني الذي لا بد أن يفرض عليه معاناة ليست لها نماذج أو مقاييس أو حدود غير نفسها. كأنه يعاتب أو يعاقب مستواه الذي لا بد أن يفرض عليه معاناة لا تداوى أو تحسم أو تسترضى بالأشياء، بامتلاك الأشياء.

إن تفاهاتنا وحماقاتنا وأخطاءنا العقلية والمذهبية والدينية والأخلاقية والعاطفية لا تساوي أكثر من معاناتنا ومن حتم هذه المعاناة علينا. ولكن معاناتنا لا تساوي أي شيء غير نفسها، لا تساوي شيئاً غيرنا، أو لا تساوي شيئاً غير كونها معاناة إنسانية.

إن صراخنا لا يساوي أكثر من آلامنا وضعفنا ومخاوفنا وجوعنا وأن أنيننا لا يساوي أكثر من أمراضنا وجراحنا ومن شعورنا وأحاسيسنا بها ومن تفكيرنا فيها. وإن أكاذيبنا وأوهامنا وعقائدنا وتعاليمنا الغبية البلهاء ليست أكبر من مواجهاتنا والتزاماتنا وتجاربنا الأليمة أو المتوقعة، ومن رؤيتنا لها وتركيزنا عليها ومن تحديقنا النفسي والفكري فيها.

ولكن ذلك كله لا يساوي أكثر من كوننا محكوماً علينا بالمعاناة الإنسانية التي لا تساوي الأشياء أو الظروف أو الكون كله، والتي لا يساويها كل الكون ولا كل الأشياء أو كل الظروف، وإنما تساوي نفسها. إن المعاناة الإنسانية لا تساوي شيئاً ما، وإن كل شيء لا يساويها.

وماذا تساوي المعاناة الإنسانية في نفسها - أي ماذا تساوي نفس المعاناة الإنسانية؟ إنها تساوي أن نمارس الغوايات والأخطاء والأكاذيب والآلام والأحزان والمجاعات، وأن نمارس الأنبياء والزعماء والأرباب والمذاهب والمعتقدات العدوانية البلهاء بلا نماذج أو مقاييس أو شفاء، وبلا وقار أو تهذيب أو تقوى أخلاقية.

إننا لن نضل أو نخطىء أو نظلم أو نكذب أو نبغض أو نخاصم أو نحسد أو نعتدي، ولن نريد أن نشتهي أو نتقبل ذلك، ولن نجد له أي مذاق أو وظيفة في أخلاقنا أو في أفكارنا أو في مشاعرنا أو في احتياجاتنا أو في جوعنا.

نعم، إننا لن نفعل شيئاً من ذلك أو نجد شيئاً منه لولا أننا نعاني معاناة إنسانية. ولكننا لن نشفى من المعاناة الإنسانية.

إذن هل يمكن أن نشفى من ممارسة الغوايات والأخطاء والأكاذيب والغباوات، أو من ممارسة الهموم والآلام والانفعالات الأليمة الرديئة، أو من ممارسة الزعماء والأنبياء والقادة والآلهة والمعلمين المتعادين المتخاصمين، أو من ممارسة المذاهب والعقائد والتعاليم الحاقدة العدوانية المشوهة، أو من ممارسة

الابتكار للأفكار المريضة بكل أمراض الغباء، وأمراض الحقد، وأمراض العدوان، وأمراض الحرب والبغضاء، وأمراض التناقض، وأمراض النذالة والنفاق والكذب والسفه؟

إن الحياة حتى في مستوياتها العليا، وهي حياة الإنسان محايدة في أهوائها وسلوكها بين الأشياء، بين ما ندعوه خيراً وما ندعوه شراً. إنها محايدة بين الملائكة والأبالسة إنها أي الحياة لا تحب الملائكة ولا الأنبياء ولا القديسين، ولا تكره أعداءهم والخارجين عليهم. إنها ليست لها علاقات ولا أهواء محابية أو خاصة بفريق أو بأحد أو بشيء.

إن الحياة لا تفعل هذا أو هذا، ولا تريد هذا أو هذا إلا تضرعاً وتملقاً ونفاقاً واستجابة وحماية لآلامها ومخاوفها وضعفها وضروراتها التي قد تكون مضللة أو موجهة بظروف مضللة. إنها لا تفعل أو تريد تديناً أو تأدباً أو طاعة أو احتراماً للآلهة أو للأنبياء أو للزعماء أو للقادة أو للعقائد والتعاليم والمذاهب. إنها لا تحب ولا تكره ولا تطيع ولا تعصي ولكنها تكون. إنها تكون فقط دون أن تكون لها أية نية أو خطة أو رسالة أو تفسير. إنه لا يعيش في ضميرها أو في منطقها أو في أخلاقها وشهواتها أبالسة ولا ملائكة ولا آلهة ولا أديان ولا خروج على الأديان. إنه لا حساب لهؤلاء ولا لهذه في حساباتها.

إن حياد الحياة يسقط كل التعاليم وكل النظريات القائلة بأن الإنسان خيّر والقائلة بأنه شرير. إن حيادها يؤكد أنه أي الإنسان ضرورات فقط، ضرورات تمارس نفسها، لا تمارس فجوراً ولا تقوى، ولا تتعبد لآلهة ولا لأبالسة.

إن الحياة طاقات أو ضرورات تمارس الانفجارات والتمزق، وظمأ يمارس الارتواء ثم الظمأ ثم الارتواء ثم الارتواء والظمأ، وآلة تمارس الدوران الذاتي. إن الحياة طاقات أو ضرورات تمارس نفسها وتمارس كل ذلك بلا خطة أو هدف، وبلا فضيلة أو تقوى، وبلا رذيلة أو خروج على التقوى. إن تقواها وفجورها لا يعنيان إلا اختلاف مناظرها على من يشاهدونها من خارجها. إن الحياة وجود فقط، وجود بأسلوب ما. إنها ليست ذكاء ولا غباء وإنها ليست جمالاً ولا دمامة. وإنها لا تريد أن تكون هذا أو هذا ولا تعرف الفرق بين هذا وهذا. إنها محايدة بين صيغها.

إن الغواية والشيطان لا يحبان إنساناً ما، ولا يحبان معايشته أو مصاحبته أكثر أو أعمق مما يحبان أي إنسان آخر أو مما يحبان مصاحبته أو معايشته. وإن أي إنسان لا يحب الغواية والشيطان، أو يكرههما أو يعرف مزاياهما أو رذائلهما أكثر أو أصدق من أي إنسان آخر. وهل الإله والملاك يحبان إنساناً ما أو يحبان معايشته أو مصاحبته أو رؤيته أكثر وأعمق مما يحبان أي إنسان آخر أو مما يحبان معايشته أو صحبته أو رؤيته؟ إن قوماً يزعمون أن ذلك حادث.

إن الشيطان كائن عادل. إنه لا يوجد في هذا العالم كائن يشبه الشيطان في عدله إنه ينحاز ولا يحابي. إنه لا يعيش أو يكره أحداً أكثر من أحد.

ليت جميع أنبيائنا وزعمائنا ومعلمينا ـ ليتهم جميعاً يتعلمون من الشيطان النزاهة والعدل والتقوى، بل والذكاء والشهامة والحب، بل والصدق والشجاعة والبراءة. ليت جميع قديسينا يتعلمون من الشيطان البراءة النفسية والفكرية والكبرياء على النفاق والجبن وعلى الركوع للطغاة.

إن الشيطان هو الكائن العالمي العظيم الذي لم يعتد في حياته على أحد، أو يظلم أحداً، أو يتهم أحداً، أو يضل أحداً، أو يفسد أحداً، أو يخلق أو يشوه أحداً.

إنه لم يهبط في منطقه أو في أخلاقه إلى خلق المشوهين وإلى تشويه الأسوياء.

إن الشيطان لم يحاول في كل تاريخه الطويل الضخم المثير أن يصبح إلهاً أو نبياً أو زعيماً أو قائداً، يعلم الناس المخدوعين الأكاذيب والغوايات والأوهام الغبية، يعلمهم المذاهب والأديان والأفكار المتعصبة العدوانية الحاقدة الشاتمة المخاصمة المتهمة، ويقودهم إلى الحروب والخصومات والحماقات وإلى الموت وإلى كل أساليب ومستويات العذاب والإذلال والتحقير والخداع والتشويه والتشوه. إن الشيطان لم يحاول أو يطمع أن يكون إلهاً أو نبياً أو زعيماً أو قائداً ليمارس ما يمارسون من التشويه والتضليل والعدوان. إذن هل يوجد أتقى أو أفضل من الشيطان؟

ليت جميع أربابنا ومعلمينا وزعمائنا وقادتنا يتعلمون من الشيطان مزاياه. وهل يستطيعون أن يفعلوا ذلك ـ هل يستطيعون أن يريدوا ذلك؟

ولأنهم لا يستطيعون ذلك ولا يريدونه، ذهبوا جميعاً يداوون عجزهم بهذه الأحقاد والعداوات والاتهامات والشتائم وبهذه المحاريب والمنابر والأديان والعقائد والكتب المقدسة التي لا مثيل لها في ضخامتها وجنونها وافتضاحها وغبائها وعدوانيتها، والتي حولوها إلى أسلحة عالمية وظلوا يطلقونها بأساليب كلها جنون وعار ونذالة على صدر هذا الكائن البريء النبيل. إن عدوان البشر على الشيطان عدوان يموت من قبحه كل عدوان.

إن الشيطان لا يعني إلا أعظم قصة في الشهامة قرأها التاريخ بل قرأها الكون، وإن موقف البشر منه ولا سيما موقف أربابهم ومعلميهم ودعاتهم ووعاظهم لا يعني إلا أكبر قصة في النذالة قرأها التاريخ بل قرأها الكون.

إن القصة القديمة، قصة الروح أو الأرواح الشريرة التي توسوس للنفوس بالإثم، وقصة النفس الظمأى إلى الارتواء بالإثم، وقصة القدر الغادر السماوي المتحجب بنذالة وخبث لكي يدفع بضحاياه، بالأبرياء الغافلين المسالمين ـ يدفع بهم بيديه الباطشتين غير المنظورتين إلى مواقعة الجريمة والخطيئة، وقصة الاستعداد الغاشم اللئيم الغيبي لممارسة وعشق كل أنواع الفساد، وقصة الآلهة الشاذة المريضة جداً، التي تخلق الضلال وتعاقب بالضلال، وتختار للضلال، وتدبر وتشقى في التدبير للضلال، وتدفع إلى الضلال بمكر ولؤم ولا أعجب ولا أنذل منهما، ثم تحاسب وتحاكم وتعاقب على الضلال، ثم تعلن غضبها على الضلال؟

نعم إن كل هذه الأقاصيص والمعتقدات المحفوظة والمقروءة والمنزلة والمطلقة والمسددة من جميع الأفواه، ومن فوق جميع المحاريب والمنابر، ومن جميع التلاوات والآيات والعظات ـ إن هذه الأقاصيص والمعتقدات المأثورة التي كان المعلمون والدعاة الأولون يفسرون بها تخبطات وضربات الضرورات والاحتياجات والآلام المكبوحة والمحرومة والضاجة ـ إنها لم تكن إلا تهجياً عقلياً ونفسياً وإنسانياً، يعبر تعبيراً عاجزاً مذعوراً مهزوماً عن حرمان الإنسان وعن عذابه وحيرته وتململه تحت ضغوط ضروراته المتصادمة المتعاقبة والمتآمرة على سحقه وإرهاقه وإذلاله. ويعبر كذلك عن تلمس الإنسان لنفسه في ظلام أعمى تحت أقسى الظروف، وسط كون كله حراب ووحوش منطلقة ومصوبة إلى كل مكان في جسمه وعقله ومشاعره ونظراته واتجاهاته وطرق حياته. هل يوجد هدف مقصود ومصاب مسددة إليه جميع السهام والضربات في وضع وموقف لا يمكن الافلات فيهما ومنهما مثل الإنسان؟

إن البشر لو أزالوا جميع منابر الوعظ، وأضاعوا جميع منازل الوحي، وأسكتوا تراتيلهم لجميع الآيات، وحطموا جميع ألواح الوصايا، وحولوا جميع الصحائف التي يكتبون عليها جميع أناجيلهم وقرآنهم وسورهم إلى حرائق في جميع ميادينهم، ثم استطاعوا أن يبتكروا من ذلك ـ تعاونهم موهبة الشيطان وضميره علاجاً لآلامهم ومخاوفهم وضياعهم واحتجاجهم وأنينهم وصراخهم ـ علاجاً لجميع ضروراتهم، لاستطاعوا بذلك أن يعاقبوا ويؤدبوا كل شهوات ونيات الفساد في أعضائهم وعقولهم وضمائرهم وأخلاقهم أكثر وأعمق مما تستطيع أن تصنع لهم ذلك جميع منابر الدنيا، وجميع ألواحها، وجميع أناجيلها وسورها وآياتها المكتوبة بدموع وهموم السماء، وبخشونة وإرهاب الآلهة، وبجميع بلاغة وحماسة جميع الأنبياء والمعلمين المرضى بالوقاحة والفظاظة ـ المرضى بكل بلاغة وحماسة الحقد والبغضاء وشهوات الانتقام والتعذيب والاذلال والتحقير.

إن النفوس الأليمة الحزينة المحرومة لا بد أن تفرز الانحرافات والغوايات والمذاهب والعقائد والتعاليم العدوانية، وأن تفرز أيضاً الأنبياء والزعماء والقادة والآلهة والطغاة العدوانيين وأن تفرز كذلك الأفكار الضالة والمتصادمة والمتناقضة.

إن مثل هذه النفوس لا بد أن تفرز كل ذلك كما تفرز الغدد المريضة الأليمة إفرازاتها غير الجيدة وغير المريحة. إنها إذا لم تفرز كان ذلك دليلاً على مرضها لا على صحتها، كما أن الغدة إذا لم تفرز فلا بد أن يعني ذلك مرضها لا سلامتها. إن جميع ما لدينا الآن وجميع ما كان لنا في التاريخ من أنبياء وزعماء وقادة وآلهة طغاة عدوانيين ليسوا شيئاً أكثر أو أفضل من إفرازات النفوس الحزينة الأليمة المحرومة المعذبة.

إن الألم هو كل الغواية والفساد والنذالة والغباء. إنه هو كل الأبالسة وكل الخالقين والمدبرين والمريدين والمعلمين لكل ذلك.

إن الألم هو كل الآلهة المتوحشة الخالقة لأهوال الجحيم. إنه أي الألم هو الملهم للإيمان بهذه الآلهة والصائغ لأخلاقها وصفاتها.

إنه هو المبتكر لعقولنا، الواهب لها قوتها وضعفها، صحتها واعتلالها. إنه هو المفسر لعقولنا والمحرك المعلم لها أخطاءها وصوابها، نذالتها وشهامتها.

نعم، إن رفض الألم هو الذي وهب الإنسان عقله كما وهبه كل ذنوبه وأخطائه.

الفكر جهاز لا يمكن تصحيحه

«.. إن عقل الإنسان هو الشاهد الذي لا يجد من يشهد له والناقد المزكي الذي لا يجد من ينقده أو يزكيه. إنه النبي الذي لا يوجد من يوحي إليه، لا يوجد من يبعث إليه بملاك الوحي، ولا من يصحح له نبوته، أو من يحمي نبوته من تدخل وسوساته ومؤامراته. إن المنطق الإنساني هو النبوة التي لا تستطيع أن تكون نبوة لنفسها أو هو النبي الذي لا يستطيع أن يكون نبياً إلى نفسه أو أن يخاطب نفسه. إنه النبي الذي لا يمكن أن يخلق له نبي أو يبعث إليه بنبي. إن منطق الإنسان هو النبي الذي لا يوجد من يقنعه بأنه نبي أو يقنعه بصدق نبوته أو بأنه مطلوب منه أن يعلم نبوته أو بأن أسلوبه في تعليمها صحيح أو بأن ما يفعله أو يريده أو يراه أو يقتنع به هو عمل من أعمال النبوة. إن الإنسان ليصنع أدق الأجهزة لضبط الأشياء وحسابها وللتحكم فيها وفي استجابتها ونتائجها ولجعلها قوانين مقررة معروفة ومحسوبة. ولكنه لا يستطيع أن يصنع أي جهاز لضبط تفكيره ومنطقه، لضبط استجاباته ورؤاه وتفاسيره واحتجاجاته ولضبط إيمانه ورفضه، أو لضبط اختياره لأربابه وأنبيائه وزعمائه أو اختياره لأديانه ومذاهبه وتعاليمه، وضبط رؤيته لهم ولها. يا لها من قضية. إن منطق الأشياء ليس منطقياً. إن منطق الإنسان ليس له منطق. إن الخالق ليس له خالق».

«.. إن المتخلفين ليتحولون إلى نوع من الخطر على المتقدمين. إنهم ليتحولون إلى عاهات وذنوب وضعف في حياتهم ومجتمعاتهم. إن المتخلفين ليسوا مزية أو صيداً أو ربحاً أو استغلالاً للمتقدمين كما يقال ويظن. بل إنهم هموم وتشوهات وآلام لا يراها أو يتعذب بها أو يسأل عنها أو يطالب بعلاجها أو يسدد حساباتها أو يشتم بها إلا المتقدمون..».

أفكار الإنسان واعتقاداته ومذاهبه تعبير غير متحدد وغير محكوم أو مضبوط بقانون أو بمنطق أو بجهاز، عن ظروفه التاريخية والعرقية والزمانية والمكانية والاجتماعية والصحية والنفسية والسياسية والحضارية والثقافية بل والجسدية. إنها إذن أي أفكاره وعقائده ومذاهبه تعبير عن موجهات ومواجهات متناقضة ومعقدة وغير محددة أو مهذبة في تعدادها وأخلاقها وكينوناتها واحتمالاتها بل وفي تأثيراتها.

إنه لا يمكن أن يتخلق أو يجيء فكر أو اعتقاد أو مذهب من الفراغ أو من نفسه. إنه لا يخلق نفسه، وإنه لا يمكن أن يوجد أو أن يظل منفصلاً عن أسلوب الحياة التي يحياها الفرد أو تحياها الجماعة.

إن عقائدنا وأفكارنا ومذاهبنا هي دائماً حاصل استجابتنا ومواجهتنا لأنفسنا ولظروفنا الذاتية وللآخرين وللكون الذي نعيشه ويعشنا بكل وجودنا ووجوده. ولكن الاستجابة للمواجهة الواحدة تجيء متناقضة، أي تجيء الشيء ونقيضه.

إن المواجهة الواحدة لتصبح أحياناً إيماناً وإعجاباً أو حباً كما تصبح أحياناً أخرى كفراً أو اشمئزازاً أو بغضاً.

إن هذه هي القضية الصعبة التي لا علاج أو حل لها. إنها القضية التي يطلب أو يفترض دائماً أن يكون لها علاج وحل.

إنها قد تجيء استجابة موافقة كما قد تجيء استجابة مخالفة. إن الاستجابتين تمنحهما مواجهة واحدة. إن جهازاً واحداً يعطي نتيجتين متضادتين تحت ظروف وعمليات واحدة. إن حامل الجهاز أو المواجه قد يكون أيضاً واحداً، إنه قد يكون واحداً كما قد يكون متعدداً. إن الواحد قد يتعدد في رؤاه ومواقفه كما قد يتوحد المتعددون.

إننا قد نفكر تفكيراً رجعياً أو يدعى رجعياً لأننا نعيش أوضاعاً رجعية أو تدعى رجعية، كما أننا قد

نفكر تفكيراً تقدمياً أو يظن تقدمياً لأننا نعيش نفس الأوضاع الرجعية أو المزعومة رجعية. وقد نفكر تفكيراً تقدمياً لأننا نعيش أوضاعاً تقدمية، وقد نفكر تفكيراً رجعياً لأننا نعيش أوضاعاً تقدمية أو مزعومة تقدمية.

إن أي تغير يصيب صحة الإنسان أو قدراته أو نماذجه البدنية لا بد أن يغير من استجاباته الفكرية والاعتقادية والمذهبية ومن تفسيره للأشياء ومن رؤيته لها ـ أو لا بد أن يصنع ذلك التغير استجابة عقلية أو اعتقادية أو مذهبية. ولكنها استجابة قد تكون الشيء وقد تكون نقيضه. إنها استجابة بلا قانون موحد وبلا جهاز ضبط.

إن الاستجابات لجميع المواجهات لتبدو وكأنها خبط عشواء. كأنها بلا أي قانون أو نظام أو أخلاق. إن رؤى الإنسان الفكرية لتبدو وكأنها لا مثيل لها في الفوضى والضلال والعمى والضعف والكذب.

إن الحياة الأليمة المتخلفة لا بد أن توحي بأفكار وعقائد وتفاسير مرتدة عن مثل هذه الحياة. ولكن هذه الأفكار والعقائد والتفاسير لا تجيء نموذجاً واحداً. إنها قد تجيء موافقة للحياة التي ارتدت عنها، مدافعة عنها بأسلوب التعبد والإيمان وبحماسهما. وقد تجيء أي الأفكار والعقائد والتفاسير رافضة لها أي لتلك الحياة، محتجة عليها، مشمئزة منها بلا حدود. إن أية حياة ومواجهات لا بد أن توحي بمنطق ما، بعقيدة أو مذهب أو تفسير أو تصور. ولكن كيف يجيء ذلك المنطق؟

لقد صنع الكون الواحد الفكر المعجب المبهور به وبالإله الذي أراده ودبره وخلقه وأخرجه ثم جلس فوقه يثني على نفسه، وعلى عبقريته وقوته ورحمته وحبه، وعلى إحسانه إلى نفسه، وعلى تكريمه لها بما صنع وأعطى كما قد صنع هذا الكون الواحد نفسه الفكر الآخر المناقض بكل قوة المناقضة وبكل أساليبها ومستوياتها وقسوتها، وبكل أسلحتها.

لقد تحول هذا الكون الواحد إلى أنبياء يدعون إلى الإيمان والإعجاب وإلى أنبياء يدعون إلى الرفض والاشمئزاز.

إن الوضع أو المنظر أو الوجود أو الشيء الواحد ليصنع المنطق والمنطق الآخر. إنه ليصنع المنطق المؤيد المبهور إلى حد الإيمان والتعبد. وإنه أيضاً ليصنع المنطق المناقض الرافض بكل معاني الاشمئزاز أو الغضب والاستفظاع. إنه ليصنع الدفاع عن الشيء والهجوم عليه. إنه ليوجد الإله ويصلي له، وإنه أيضاً ليصلبه. وإنه كذلك ليبعث النبي ويوحي إليه، كما أنه هو الذي ينفيه ويرفضه.

إن وجود الصرصار في المطبخ أو فوق مائدة الطعام أو داخل غرفة النوم قد يصنع أقسى الاحتجاج على منطق الكون وعلى منطق جميع الأشياء. كما قد يصنع أي الصرصار، الايمان والثناء على الخالق العظيم. لقد حول منطق الإنسان الصرصار إلى صلاة لأذكى وأنظف إله، كما حوّله إلى شعور بالعار من كل صلاة ومن كل إله.

أما الحياة القوية المتقدمة المريحة فالمفروض أن تصنع أفكاراً وعقائد وتفاسير وتصورات هي أكثر قوة وتقدماً وتحليقاً. ولكنها أي هذه الحياة قد تصنع نقيض هذه الأفكار والعقائد والتفاسير والتصورات. إنها قد تبحث عن الضعف والتخلف والغباء، هاربة من التقدم والذكاء ومن القوة المتعبة.

إن مثل هذه الحياة قد تبحث عن نقيضها، مبتدعة لمنطق هذا النقيض.

إن منطق الإنسان وتفكيره ليسا جهازاً علمياً. إنهما تهويمات غير معقولة أو مضبوطة بشيء. إنهما كالقدر الأعمى. كالقدر المتحرك في الظلام بلا هاد أو شرف أو وقار.

إن منطق الإنسان أو تفكيره هو الذي يصنع جميع الأجهزة العلمية وجميع أجهزة الضبط التي لا شيء يفوقها أو يساويها في القوة والاتقان والدقة. ولكنه هو أي منطق الإنسان أو تفكيره لا يستطيع أن يكون جهازاً علمياً مثل الأجهزة التي يصنعها والتي يصنع بها. إنه لا يستطيع أن يكون جهازاً من أي نوع ولا على أي مستوى.

إن تفكير الإنسان هو أكثر الأشياء افتضاحاً وتنافياً وتناقضاً مع ذاته وعجزاً عن الاتقان والضبط. إنه مهما ضبط الأشياء وضبط نتائجها فإنه لا يستطيع ضبط نفسه أو ضبط نتائج عملياته ومواجهاته.

إنه قد توجد وسائل لتجعل جميع الأشياء أجهزة ضابطة ومضبوطة، أو تجعلها وحدانية النتائج، قانونيتها معروفتها. حتى أعضاء الإنسان: قلبه وكبده ورئته وغدده، إنها أجهزة ضابطة ومضبوطة ووحدانية النتائج وقانونيتها ومعروفتها، أي مع اختلاف مستوياتها وظروفها ومواجهاتها. ولكنه اختلاف إذا تساوى تساوت نتائجه.

أما الشيء الذي هو وحده لا يستطيع أن يكون كذلك فهو الفكر أو المنطق الإنساني. إن خطواته واستجاباته ونتائجه وتفاسيره لا يمكن أن تكون موحدة ولا قانونية ولا معروفة بل ولا متوقعة باحتمال أقوى.

إننا لن نستطيع أن نعرف ولو بالاحتمال الأقوى ماذا يمكن أن يكون منطق كائن يقذف به ساعة يولد إلى أحد الكواكب الكونية ليعيش هناك. هل يكون مؤمناً أم ملحداً، متشائماً فكرياً أم متفائلاً: مبصراً جمالاً أم قبحاً، جداً أم هزلاً، عبثاً أم تدبيراً، ماذا يمكن أن يكون مذهبه ونظامه.

إنه لا شيء يتفوق على منطق الإنسان أو يماثله في منافاته لنفسه وفي مناقضته لها وفي خروجه عليها، وفي إعطائه للشيء ولنقيضه في حالة واحدة وتحت ظروف واحدة.

إنه لا شيء يتفوق على تفكير الإنسان في فقده للذكاء ولأخلاق الذكاء، نعم، إن الذكاء ليس ذكياً، ليس ذكياً في أسلوب وجوده وتوزعه، وفي تكونه وفي ممارساته ومواجهاته لنفسه وللأشياء. إن مجيء الذكاء بكل الأسلوب الذي به جاء ليس ذكاء.

هذا الذكاء الخارق في هذا الإنسان، بهذا المستوى، في هذا الوقت، تحت هذه الظروف، في هذا

المكان، ليمارس بهذا الأسلوب الذي يمارس به والذي يمارس به نفسه ـ نعم هذا الذكاء بهذه الأوصاف والتحديدات هل هو ذكاء؟

بأي ذكاء جاء هذا الذكاء بأسلوبه وفي مكانه وفي وقته وتحت ظروفه وفي مستواه؟

هل العبقرية ذكية في أسلوب مجيئها؟ هل هي ذكية في وجودها في هذا الإنسان، في هذا الوقت، في هذا المكان، في هذا المجتمع، بهذه الصيغة، بهذا النوع أو اللون من العبقريات، دون الآخرين، ودون الأماكن والأوقات والصيغ الأخرى، ودون ألوان وأنواع العبقريات الأخرى؟

إذن هل العبقرية ذكية، هل الذكاء ذكي؟

هل الجمال جميل أو ذكي وأخلاقي في مجيئه بالأسلوب الذي جاء به وأمام كل ظروفه ونتائجه؟

إنه لا شيء مثل الفكر الإنساني في إعطائه للشيء ونقيضه، وفي رؤيته للشيء الواحد صغيراً وكبيراً، جميلاً ودميماً، حقاً وباطلاً، صدقاً وكذباً، ذكاءً وغباءً، ظلماً وعدلاً، رحمة وقسوة، حرية وفقداً للحرية، بل موجوداً وغير موجود. دون أن توجد أية وسيلة تشفيه من دائه هذا أو تقنعه بأنه مصاب بأي داء.

إن فكر الإنسان أو منطقه هو المريض الذي لن تستطيع جميع حضارات الإنسان وعبقرياته أن تصنع له طبيباً.

إنه لم توجد أية وسيلة تستطيع أن تجعل التفكير الإنساني مضبوطاً في ذاته أو في رؤاه، أو في نتائجه، أو في انفعالاته وشهواته، أو في أخلاقه، أو في قوته وضعفه، أو في ذكائه وغبائه، أو في رضاه وغضبه، أو في قبوله ورفضه، أو في اقتناعه وعجزه عن الاقتناع، أو في ممارساته لفضائحه وهوانه وأكاذيبه. وهل يمكن أن توجد مثل هذه الوسيلة يوماً ما؟

إنه لا يوجد مثل المنطق الإنساني هواناً وضلالاً وغباء وكذباً وانهزاماً أو ابتداعاً وتسويغاً للهوان والضلال والغباء والكذب والانهزام، بل وتسويغاً وابتداعاً للغباء.

إنه لا شيء مثل الفكر الإنساني يعلم ويسوغ ويفسر الأوهام والغوايات والبلادات والأكاذيب، بينما هو وحده المرجو للشفاء من ذلك.

إنه الطبيب الذي يهب الأمراض ويباركها ويحميها ويسوغها ويفسر مزاياها.

إنه ليراد من عقل الإنسان أن يضبط وأن يداوي كل شيء، ولكن لا يوجد شيء يضبطه أو يداويه هو. إنه هو المعلم والطبيب لكل شيء ولكل أحد دون أن يوجد له هو طبيب أو معلم، ودون أن يوجد من يدله أو يشهد له بأن تطبيبه أو تعليمه خطأ أو صواب، أو بأن له الحق بأن يكون طبيباً معلماً.

إن عقل الإنسان هو الشاهد الذي لا يوجد من يشهد له أنه الناقد والمزكي الذي لا يجد من ينتقده أو يزكيه.

إنه النبي الذي لا يوجد من يوحي إليه، من يبعث له ملاك الوحي، أو من يصحح له نبوته، أو من يحمي نبوته من تدخل الشيطان ومن وسوساته ومغالطاته.

إن العقل الإنساني هو النبي الذي لا تستطيع نبوته أن تكون نبوة له، أو النبي الذي لا يستطيع أن يكون نبياً لنفسه، أو النبي الذي لا يستطيع أن يخاطب نفسه.

إن عقل الإنسان هو النبي الذي لا يمكن أن يخلق له نبي أو يبعث اليه نبي.

إنه النبي الذي لا يوجد من يقنعه بأنه نبي، أو يقنعه بصدق نبوته، أو بأنه مطلوب منه بأن يعلم بنبوته، أو بأن أسلوبه في تعليمها صحيح، أو بأن ما يفعله أو يريده أو يراه أو يقتنع به من النبوة.

* *

أواه.. كيف يعرف هذا؟ كيف يعرف النبي أنه نبي؟ كيف يعرف أن الملاك الذي جاء إليه ملاك وليس زي ملاك أو لغة ملاك أو تزييف ملاك؟ كيف يعرف؟ كيف يعرف التفكير أو المنطق بأنه تفكير أو منطق، وليس خروجاً على التفكير والمنطق أو تزييفاً لهما؟ كيف يعرف أنه صواب؟ كيف يعرف ملاك الوحي أن الإنسان الذي أمامه هو النبي الذي بعث إليه بالوحي؟

أواه.. كيف تستطاع معرفة هذا؟ وكيف يقبل بدون معرفة؟ كيف يعرف النبي أنه نبي، أو يعرف المنطق أنه منطق، أو يعرف الخطأ أنه خطأ أو يعرف الصواب أنه صواب؟ كيف يعرف هذا؟

كيف يعرف الملاك أن من أمامه هو الإنسان المقصود بالنبوة؟

كيف نعرف نحن أن الملاك لم يخطىء؟ كيف يعرف الإنسان الذي جاء إليه الملاك بالوحي أنه لم يخطىء فيه؟

أواه.. كيف يعرف الإله أنه إله، أو أنه طيب أو عادل أو ذكي أو جميل أو أنه أفضل وأكمل نماذج الآلهة؟ كيف يعرف أنه قد كان كما ينبغي أو كما يمكن أن يكون؟ على أي نموذج قاس الإله نفسه ليعرف أنه النموذج الأفضل؟

كيف يعرف الذكي أنه ذكي أو الغبي أنه غبي؟

أواه.. ما أصعب الأشياء. ما أصعب أن نعرف، وأن نعرف أننا نعرف، أو أننا لا نعرف؟ ما أصعب أن نقتنع بصدق اقتناعنا؟ إن أصعب منه أن نقتنع بفساد اقتناعنا. ما أصعب الاقتناع لو كان يشترط في الاقتناع المعرفة؟

ما أصعب أن نقتنع بأن الأشياء التي نراها ونفهمها ونفسرها ونقتنع بها هي كما نراها. ونفهمها ونفسرها ونقتنع بها؟

ما أصعب أن نقتنع بذلك مهما اقتنعنا به أو مهما بدا أننا مقتنعون؟ ما أصعب أن يكون اقتناعنا

مقتنعاً؟ ما أصعب أن يكون اقتناعنا يعني أننا نعرف؟ ما أصعب حياتنا وأصعب الأشياء لو كنا لا نقتنع إلا إذا كنا نعرف؟

ما أصعب أن نقتنع بأننا نساوي رؤيتنا لأنفسنا، أو أنفسنا تساوي خضوعنا لها، أو أن الإله يساوي حديثه عن نفسه أو حديث أنبيائه عنه؟

ما أصعب أن يكون اقتناعنا يعني أننا أذكياء أو طيبون؟ ما أصعب أن يجد آلهتنا أو أنبياؤنا أو زعماؤنا من يؤمنون بهم لو كنا لا نؤمن إلا إذا كنا نعرف؟

أواه.. ما أصعب الأشياء.. ما أصعب أن نكون كما نريد، أو ألا نريد إلا كما ينبغي أن نكون وكما ينبغي أن نريد؟

ما أصعب أن نفكر كما نريد أن نكون وكما نستطيع أن نكون وما أصعب ألا نفكر إلا كما ينبغي أن نفكر وكما ينبغي أن نكون؟

ما أصعب كل شيء لو كنا نعرف أن الصعب صعب أو نحس بأنه صعب. ولكن ما أصعب أن نعرف أو نشعر بأن الصعب صعب أو أن نتعامل أو نتحدث وكأنه كذلك. إذن هل يمكن أن تتغير عقائد أو أفكار أو مذاهب أو تفاسير أو رؤى أي قوم قبل أن تتغير حياتهم وأوضاعهم، ودون أن تتغير؟

نعم، قد تتغير احتجاجاً على تلك الحياة والأوضاع المثيرة للاحتجاج والاشمئزاز والغضب، أو عجزاً عن التلاؤم معها، أو بحثاً عن الاختلاف معها، أو سأماً منها، أو بقانون التجاوز والمفارقة. إن التجاوز والمفارقة قانون. إن التجاوز والمفارقة للذات وللظروف وللمكان والكينونة مفروض على كل شيء ولو إلى الموت والجحيم والجنون والخراب والعذاب. وهل يمكن أن تتغير حياة أو أوضاع أو ظروف أي قوم ثم لا تتغير أفكارهم أو عقائدهم أو مذاهبهم أو رؤاهم أو تفاسيرهم للأشياء ولأنفسهم؟

إن ذلك لمستحيل لأن الوضع، أي وضع، لا بد أن يصنع المنطق والمنطق المناقض له كما ذكر. إن كل وضع لا بد أن يتحول إلى تفاسير ولكنها تفاسير متناقضة. إن الوضع الجديد لا يمكن أن يتحول إلى صمت في عقول أو تفاسير أو رؤى مشاهديه أو معامليه.

إن أفكارنا وعقائدنا وتفاسيرنا ورؤانا وهمومنا لمحتوم أن تتغير إذا تغيرت حياتنا وأساليبها، أو إذا تغيرت مواجهاتنا وممارساتنا، كما يتغير صهيل الجواد أو أي حيوان. ويتغير بريق شعره وتواثب حركاته ومشاعره نحونا وتحديقه فينا واستجاباته لنا، حينما تتغير ظروفه وحياته وطعامه ومكانه ومواجهاته.

وتتغير أيضاً عقائدنا وأفكارنا ورؤانا وتفاسيرنا حتى ولو لم تتغير حياتنا ولا أساليبها ولا مواجهاتها. إنها تتغير بمنطق الرفض والاحتجاج على ما هو موجود، وعلى دوامه، وعلى دوام تصادمنا به وتألمنا منه، وبمنطق العجز عن التلاؤم الكامل، وبمنطق البحث عن الاختلاف على ما وجد والسأم منه، أو

بمنطق التخطي والفراق. إن كل شيء يحكمه منطق التخطي والمفارقة بلا بحث عن الأفضل بل بلا بحث عن شيء.

إن ديمومة القبح أو ديمومة الأوضاع الأليمة الدميمة لهي أكثر وأشد تحريضاً لتفكيرنا وخروجاً عليه من جميع المحرضات الأخرى. إن دوام ذلك ليحرض أكثر وأشد من زواله على تغير المنطق المواجه المعاني لهذا الدوام.

ولكن لماذا يحتج قوم بتفكيرهم وعقائدهم وتفاسيرهم ورؤاهم على ظروفهم ومواجهاتهم التي قد تكون جيدة والتي قد تكون رديئة ـ أو لماذا تتغير أفكارهم وعقائدهم وتفاسيرهم ورؤاهم احتجاجاً على مواجهاتهم وظروفهم حتى ولو كانت هذه الظروف والمواجهات جيدة أو محسوبة جيدة، بينما يذهب أقوام آخرون ويهضمون كل شيء، كل ألم ودمامة وتفاهة وهوان، يهضمونه بكل منطقهم وتفكيرهم وبكل عقائدهم ومذاهبهم وتفاسيرهم، ويتلاءمون معه بكل مستويات التلاؤم ولغاته، بل يحولونه إلى إيمان وقداسة وإلى أمجاد آلهة وأنبياء ومعلمين، بل يذهبون يقاومون ويكرهون كل من يحاولون الاحتجاج عليه، أو النقد له، أو الغضب منه، أو البكاء تحت وقعه، أو التعليم ضده، أو الشك فيه، مهما كان خارجاً على كل منطق ورؤية وتفسير وتفكير، ومهما كان معادياً لكل شيء طيب وجميل في الحياة وفي الإنسان، أي لكل شيء يلائمهم ويريدونه.

نعم، لماذا يوجد هؤلاء القوم ويوجد الآخرون المناقضون لهم؟

ما منطق هذا الاختلاف، أو ما أخلاقه؟ وهل يفترض أو يتحتم أو يحتمل أن يكون ذلك بمنطق أو بأخلاق أو أن يكون له منطق أو أن تكون له أخلاق؟

إن عقائد الناس وأفكارهم ورؤاهم لا تعادي أو ترفض أو تبصر الظروف والمواجهات والأوضاع والأشياء بقدر ما فيها من قبح وغباء وبذاءة وظلم وخروج على المنطق. ولكنهم يعادون ويرفضون ويبصرون ذلك بقدرهم هم، بقدر مواهبهم وبقدر نماذجهم الذاتية والنفسية والإنسانية التي تصنع وتصوغ وتحكم نماذجهم الفكرية والمذهبية والاعتقادية.

إن الناس يصوغون آلهتهم وعقائدهم وإيمانهم على مقاسات ذواتهم لا على مقاسات الشمس أو القمر أو أي شيء حولهم.

إن الناس يختلفون جداً في استجاباتهم لما يواجهون ويقاسون، رفضاً وقبولاً، إعجاباً واستنكاراً لاختلاف مستوياتهم ونماذجهم العقلية أو الذاتية أو الإنسانية التي تصنع الاختلاف بينهم في قبول الإثارة ورفضها، في القدرة على رؤية دمامة الذباب، وفي العجز عن هذه الرؤية.

إن الإيمان بالإله أو بذكاء الكون أو بأن له منطقاً أو تفسيراً يعني حتماً العجز عن رؤية دمامة الذباب.

إن أبشع معارض الدمامة والغباء في الكون وفي المجتمعات لتتحول إلى أعظم معارض الجمال

والفنون في منطق قوم، وفي رؤاهم وتفاسيرهم وفي اعتقاداتهم الدينية أو المذهبية. إن الصورة واحدة، ولكن كم تختلف الرؤية والتفسير لها والحكم عليها. لقد بدت أجمل صورة وأقبح صورة.

إن الصورة واحدة وإن المنظر واحد ولكن العيون عديدة. إن العين واحدة ولكنها ترى الشيء الواحد بأحجام وألوان متعددة. حتى العيون، إنها لا ترى الأشياء الواحدة بحجم واحد، أو ببعد واحد، أو بلون واحد. إن أهواء المنطق واستعداداته تفسد العيون وتفسد ذوات الأشياء أمامها. إن العقول، ذكية وغبية، عدوان على العيون وعلى جميع الحواس، إنها استبداد بها وامتلاك لقدرتها ولوظائفها. إن أهواء العقول استبعاد للحواس.

قد يكون المرضى والمحرومون والمظلومون والمعذبون والمحكومون بأوضاع وظروف أليمة ورديئة أضعف حصانة عقلية، وأسهل استجابة للخرافة والغواية وللوعد الكاذب والأمل الخادع. لأن أسلحة المقاومة الفكرية والنفسية لديهم أضعف، ولأنهم أكثر انتظاراً للغزاة والفاتحين، وأكثر انفتاحاً أمامهم. إذ إن الآلام التي يقاسون قد استهلكت أو حطمت أو هزمت فيهم جميع الطاقات الإنسانية المقاومة للغزاة وللمهاجمين، لقد فقدوا الحواجز والخطوط الدفاعية، وأصبحوا مستقبلين فقط. إنهم كجيش يغزى بلا صحة ولا قوة ولا سلاح وبلا إرادة قتال. إنهم كجيش يغزى وهو في حالة انتظار للغزاة وترحيب بهم، أو بلا أية مشاعر إزاءهم.

ولأنهم أيضاً قد فقدوا إيمانهم وثقتهم بالنظم والمذاهب والأوضاع وبالنبوات والزعامات والقيادات التي جربوها وقاسوا منها طويلاً، فلم يجدوا فيها أي خير أو صدق. فصاروا يتطلعون إلى أي شيء يجيء، إلى أي لص أو كذاب، وإلى كل من يطرق حدودهم دون مقاومة أو غضب أو ذكاء أو بكاء.

إن النبوات والنظم والأوضاع والمذاهب التي لم تنقذ قد تكون دعاية لما هو أردأ منها وتبشيراً به.

وهل يخشى الذين لا يملكون شيئاً أن يجيء اللصوص، أو يخشى المحكوم عليهم بالموت أن يجيء أي وباء، أو يخشى الفاقدون لكل حرياتهم أن يجيء من يحتمل أن يسلب الناس بعض حرياتهم أو كل حرياتهم؟

هل يخشى الذين غرقت حقولهم أو الذين لم تنبت حقولهم أو الذين اغتصبت حقولهم أن يجيء الجراد.

ولكن قد يكون هؤلاء أعصى على الاستجابة لأية دعوة أو نداء من أي نوع وبأية لغة وتحت أي شعار. لأن الاستجابة أسلوب من أساليب الحركة والقوة والتحرر والمقاومة. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء قد فقدوا كل قدرة ورغبة في أن يفعلوا وعلى أن يفعلوا أي شيء. إن الاستجابة للقادم الجديد قد تكون أسلوباً من أساليب المخاطرة والالتزام الذي لا بد أن يتحول إلى معاناة وإلى مقاومة وتحد صعب.

ومن المحتمل أيضاً أن تكون تجارب هؤلاء الماضية الطويلة الحزينة قد جعلتهم يقنطون من أن يجدوا

أو ينتظروا أي خير أو صدق ممن يمكن أن يجيئوا أو فيما يمكن أن يجيء. إذن فلماذا يستجيبون لأي طارق أو لأي مقبل؟ لماذا يرحبون أو يؤمنون أو يصدقون أو يتبعون، أو يستمعون إلى من يقرأ لهم النجوم أو يحدثهم عن الغيب وعن أسراره واحتمالاته السعيدة؟

لقد كذب جميع من قرأوا لهم النجوم الطالعة فكيف ينتظرون الصدق ممن سوف يجيئون ليقرأوا لهم النجوم الغائبة؟

وعلى تفسير آخر قد يكون الذين يواجهون ويعيشون ظروفاً جيدة وقوية، فيها عطاء وعدل وصدق وتقدم ـ نعم، قد يكون هؤلاء أكثر استعداداً للوقوع في الغوايات والخدع، وأكثر تقبلاً وتصديقاً للدعايات الماكرة، وأقرب إلى الإيمان بالأنبياء والدعاة والمعلمين الكاذبين والضالين والزائفين.

إن الذين يعيشون في مثل هذه الظروف قد يكونون أكثر ثقة بالناس وبالعالم وبالدعاة وبالزعماء، وأكثر تصديقاً لما يقال لهم ولما يسمعون. قد تكون آذانهم وعقولهم دون أية حراسة. إنها لم تجرب الخوف. إذن كيف تتوقع اللصوص والأعداء والغادرين؟ هل يمكن أن يتصور الموت أو القتل أو الكذب أو الغدر أو الخيانة من لم يجرب أو ير أو يواجه أو يعلم ويلقن ذلك؟ هل يمكن أن يتصور الإنسان الموت أو الشيخوخة لو لم يرهما في كائن ما؟

إن هؤلاء قد يكونون أبعد عن الشك والتوجس وسوء الظن. إنهم لم يعانوا كثيراً الشك أو التوجس أو سوء الظن بالآخرين أو بالأشياء أو بالدعاة أو بالزعماء والمعلمين. إن تجاربهم لم تتحول إلى صيغة اتهام أو تكذيب لكل ما قد كان ولكل ما قد يكون.

هل يمكن أن يكون من ولدوا أو عاشوا في الجنة أذكياء أو مفكرين أو مقاومين؟ هل يمكن أن يوجد أكثر غفلة وانخداعاً وتبلداً وعجزاً ممن يولدون ويعيشون في الجنة التي لا يوجد فيها إلا ما يريح ويشتهى ويتمنى؟

لقد اعتاد هؤلاء بتجاربهم الطويلة أن يصدقوا الكلام والمذاهب والشعارات والدعاة والزعماء والناس والحياة، بالأسلوب الذي اعتادوا به أن يصدقوا الشمس والأنهار والحقول والأمطار في أنها لا بد أن تجيء وأن تهب نفسها في أوانها وبأسلوبها. لقد صدقوا فلم يخدعهم التصديق.

هل يمكن أن يوجد من يكذب الشمس حينما تودعه قائلة سأطلع عليك غداً كما طلعت عليك اليوم وأمس؟

إن هؤلاء إذن لا يقاسون التوجس والحذر والرغبة في الرفض والاشمئزاز واليأس مثلما يقاسي الآخرون الذين تعودوا وعرفوا بالممارسات والتجارب الطويلة ألا يحترموا أو يصدقوا شيئاً يقال لهم، أو يوعدون به، أو يدعون إليه، أو يموتون ويتعذبون في سبيله أو باسمه، أو يتعاملون عليه أو به، أو شيئاً يرونه، أو ينتظرونه. إن هؤلاء لمعذورون جداً لو أنهم قد شكوا في أن الشمس قد تجيء غداً، أو أنها سوف تهبهم ضياءها غداً. لأنهم لم يجربوا أن يصدقوا ولأنهم قد جربوا فكذب كل ما جربوا ومن

جربوا، وكل ما صدقوا ومن صدقوا. لقد كان معقولاً أن يصبح الأنبياء والزعماء والمعلمون عدواناً على الطبيعة لأنهم بوعودهم المقروءة والمسموعة يتحولون إلى تشكيك في وعودها المجربة، لقد كان المفروض والمنتظر ألا يصدق هؤلاء الناس قوانين الطبيعة لما جربوا من أكاذيب النبوات والزعامات والمذاهب. إن كل شيء ليزجرهم عن أن يصدقوا حتى ولا بأن النهار سوف يجيء غداً، حتى ولا بأن الربيع سوف يجيء في موسمه القادم، حتى ولا بأن النهر سوف يمتلىء مرة أخرى، حتى ولا بأن الحقول سوف تحبل بالحياة في موعد الحبل بالحياة. ولكن هل كذبوا كما يجب أن يكذبوا؟ وهل فعلوا ما هم حريون به؟

إذن قد تكون المجتمعات القوية الغنية السعيدة العادلة الذكية أكثر انخداعاً وتقبلاً للغوايات والغباوات، وتصديقاً للأكاذيب المفتضحة جداً. كما قد تكون أقل ذكاءً وتفكيراً وكرامة عقلية. لأنها لم تجرب أن تشك وتحذر وتخاف على ذكائها ومنطقها وتقواها، وعلى محاريبها ومنابرها من اللصوص والغربان

وإذن قد تكون المجتمعات المتخلفة المتألمة المظلومة المسحوقة المستعبدة أحد وأشرس ذكاءً وتفكيراً وشكاً وحذراً ورؤية وتحليقاً فوق الغربان، فوق الغربان التي تتحول إلى أنبياء وزعماء وقادة وقديسين.

إن هذا هو المفروض، فهل هو الواقع؟ وأبداً ما أبعد الواقع عن المفروض. وأبداً، ما أعظم حظوظ غربان المحاريب والمنابر. ما أعظم حظوظ الغربان في كل المجتمعات. إنه في كل التاريخ كانت الغربان تتحول إلى أنبياء وزعماء وقادة وقديسين. فهل رفض الناس الغربان المتحولة؟

من المشاهدات المتكررة أن مجتمعات متقدمة جداً في فنونها وفي مستوياتها الحضارية، تعيش في غفلة وفي خمول فكري لا يصدقان. إنها لتبدو وكأنها تمارس مواهبها وإبداعاتها الحضارية والعلمية بالأسلوب الذي تمارس به الطبيعة قواها ونشاطاتها، أي دون أن تملك أي مستوى من مستويات التفكير أو النقد أو الرؤية أو الشك أو الحساسية الذهنية. إن أضخم العبقريات العلمية والفنية لا ترفض بل ولا تغضب أن تعيش في مستويات فكرية ونقدية واحتجاجية وشعورية ليست أفضل من مستويات الحشرات.

كما أن من المشاهدات المتكررة أيضاً أن مجتمعات أخرى متخلفة كثيراً ولكنها تملك وتمارس حساسية فكرية ونقدية ورؤى حادة قد تكون بعيدة وذكية. أعني أن أفراداً في مثل هذه المجتمعات يملكون ويمارسون ذلك فيبدون وكأنهم هم المجتمعات.

ولعل السبب في هذا وهذا هو اختلاف تجارب هذه المجتمعات.

إنه لهذا قد يحمل المستقبل خطراً على المجتمعات المتقدمة حضارياً والتي تعيش عبقريتها وتفوقها العلمي والفني بلا خبث فكري أو نفسي أو أخلاقي، وبلا توجس من سوء الظن والنيات. إن مثل هذه المجتمعات قد تواجه خطراً توقعه بها المجتمعات المناقضة التي تملك حدة التفكير والتوتر والتوجس

الأخلاقي والنفسي وتملك شدة الحساسية وسوء الظن وخبث النيات مع التخلف والعجز والهوان والحقد القتال.

إن المتخلفين يملكون خبثاً حاداً وأحقاداً وعداوات حادة، ويملك المتقدمون نقيض ذلك. أليس هذا الامتلاك المتضاد يعني احتمالات خطيرة وحزينة بل وبذيئة؟

أجل، إنها لتوجد هنا احتمالات خطر يصنعه المتخلفون للمتقدمين. ولكن ليس محتوماً أن يكون خطراً قاتلاً، فقد يكون خطراً مؤذياً أو مرهقاً أو مسيئاً أو صانعاً للاشمئزاز والغيظ والاحتقار فقط.

إنه خطر، ولكن ما نوعه وما مستواه؟ إنه خطر لن يكون سعيداً أو نبيلاً..

إن العقدة أو المشكلة أو المأساة ليست هي فقط أن المتخلف قد يعجز عن الأخذ بذكاء وقوة عن المتقدم، أو في أنه يأخذ عنه ثم ينكره ويشتمه ويتهمه بأنه هو الذي خلقه متخلفاً أو بأنه هو الذي أعطاه. وليست كذلك العقدة أو المشكلة أو المأساة في أن المتخلف يحقد على المتقدم، وفي أنه يصبح حملاً ثقيلاً أليماً عليه.

إن العقدة والمشكلة والمأساة في أن المتخلف يصبح نوعاً من الخطر ومن المضايقة والهجاء والتشويه والعذاب والحزن والاتهام للمتقدم.

إن المتخلفين يتحولون إلى عاهات في حياة ومجتمعات المتقدمين. ليس المتخلفون مزية للمتقدمين لأنهم كما يقال يستغلونهم ويخضعونهم، بل إنهم آلام وهموم وتشوهات لا يراها ولا يفهمها ولا يتعذب بها ولا يسأل عنها ولا يطالب بعلاجها إلا المتقدمون، بل لا يسدد حسابها سواهم.

إنه ليس في هذه الدنيا إنسان واحد يستطيع أن يعيش بلا كوكب يراه أو كوكب ينتظره. إنه لا يوجد من يستطيع أن يحيا بلا حقيقة وبلا خديعة.

إن الاحتلام بديل غير مقنع أو مشبع أو غير جيد عن الارتواء الجنسي، وإن الذين لا يجدون أمانيهم أو جناتهم في هذه الأرض لا بد أن يتطلعوا إليها أو ينشدوها فوق النجوم، أو في الاحتلام، أو في التمني، أو في المستقبل، أو في التاريخ، أو في أفواه الأنبياء والزعماء والدجالين، أو في نعيب الغربان. إن البشر في كل تاريخهم لم يحكموا أو يقادوا بشيء مثلما حكموا وقيدوا بنعيب الغربان.

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بحدوده كما هي فقط، أي بحدود ذاته، أو حدود حياته، أو حدود قدرته وموهبته، أو بحدود احتياجاته وعالمه. كما لا يستطيع أن يقوم نفسه أو وجوده تقويماً منطقياً.

* * *

إن كثيراً من المجتمعات لم تشاهد ولم تعش نظماً وأوضاعاً جيدة أو نظيفة، يقودها منطق ذكي أو أخلاق جيدة، فهل يمكن أن يكون لمثل هذه المجتمعات منطق ذكي أو تصرف ذكي أو موهبة أو

أخلاق؟ وهل المنطق الصحيح الذكي في كل حالاته إلا نسخة مصححة من تجارب الحياة ومن مشاهداتها؟

نعم إنه لكذلك دائماً. ولكنه قد يكون نسخة مضادة أو معارضة أو نافذة أو رافضة. أي إنه قد يكون نسخة قد جاءت لتكون تصحيحاً لأخطاء الكون والحياة والسلوك والنظم الموجودة، لا لتعيشها أو لتكونها أو لتكون مثلها أو تأييداً لها، بل لتتفوق عليها وتتخطاها.

إن المنطق لا يواجه الواقع أو يفسره أو يقرؤه بأسلوب واحد بل ولا بمنطق واحد أو أخلاق واحدة.

إن المنطق قد ينطلق من موطنه أو من صفوفه مؤيداً، وقد ينطلق مقاوماً أو رافضاً. إن مولد المنطق وموطنه لا يحددان نوعه أو مستوياته الصحية. وقد يقاوم أي المنطق موطنه الجيد، وقد يؤيد موطنه الرديء.

إن الانفعالات والمواجهات الرديئة الأليمة قد تسلب العقل ذكاءه وصحته وقدرته واستقامته ومنطقيته، كما قد تشيده وتصححه وتهبه الحماس والنماء والذكاء والقدرة على الرؤية والتحليق والمنطقية.

وإن الانفعالات والتجارب والمواجهات الأخرى المناقضة لتهب أيضاً المنطق للحالتين. أي إنها قد تصنعه عظيماً وذكياً ومقاوماً، وقد تصنعه بنفس الاحتمال رديئاً وبليداً وضعيفاً ومهزوماً.

إنه لا توجد حالة أو وسيلة تجعل المنطق الإنساني كما يراد منه أو كما ينبغي له، أو تجعله يستجيب استجابة موحدة أو معروفة قبل حدوثها.

إن الطعام الذي قد يهب عقل الإنسان السمنة والقوة والنشاط والجمال هو نفس الطعام الذي قد يهبه الهزال والضعف والخمول والدمامة.

إن المشهد أو المنظر أو الوجود الذي يجعل عقلك يرتجف ويضج من هول الدمامة والبشاعة هو نفس المشهد أو المنظر أو الوجود الذي يجعل عقلك يؤمن ويصلي ويهتف إعجاباً من روعة وجمال وذكاء ما يشاهد ويجد.

إن تفكيرك قد يقفز ويتجدد ويتكامل لأن مواجهاته وممارساته عظيمة وذكية، وقد يخمد ويهون ويتبلد ويستسلم تحت نفس هذه المواجهات والممارسات. وقد يكون أيضاً الشيء ونقيضه تحت المواجهات والممارسات المناقضة الأخرى. إنك قد تعجز عن التصديق والاقتناع لأن زعيمك أو نبيك رديء أو غبي، وقد يزداد تفكيرك تصديقاً واقتناعاً لأن نبيك أو زعيمك نموذج أعلى في البلادة والرداءة. أو أنك تكون هذا أو هذا مع كون زعيمك أو نبيك هذا أو هذا، أي بلا سببية هنا.

لعل الاعتقادات الضخمة الزائغة التي التوت على قدمي التاريخ وامتدت فوق ضميره ـ لعلها لم تكن إلا ضرباً من التعبير الأليم الحزين البليد عن الألم الرهيب الذي لم يكن يوجد له مداو أو راث، أو ضرباً من الاحتجاج العقيم على مثل هذا الألم.

ولعلها أي لعل هذه الاعتقادات لم تكن إلا نشداناً ضالاً ضائعاً لعدالة أو سعادة أحست بالحاجة إليهما النفوس وإرادتهما، وتحرقت طويلاً شوقاً إليهما وتمنياً لهما. ولكنها لم تجدهما أو تظفر بهما. ولكنه نشدان قد جاء منحرفاً وزائغاً في لغته وفي صورته وفي أسلوبه.

ولعل الأمر: أنه كلما حقق الإنسان احتياجاته وقضى على آلامه، وملأ حياته بما يغنيه عن الاحتلام، عن الاحتلام بالآلهة وبالدعاة وبالمذاهب وبالزعماء الأغبياء المرضى، استقام تفكيره وضاقت كهوف وصحارى نفسه عن الأباطيل، وعن أن تتعشق الآمال الخادعة، أو أن تتطلع إلى النجوم الآفلة لأن سماءها مملوءة بالنجوم المتهللة اللامعة، أو بالنجوم الكئيبة الدميمة. ولكنه حينئذٍ قد يفقد بريق ذهنه وفروسيته.

نعم، لعل ما يصحح تفكيرنا هو ما يفسده. ولعل الغذاء الذي يهب عقولنا الصحة والقوة والحماس والذكاء والتوثب هو نفس الغذاء الذي يصيبها بالهزال والمرض والضعف والهزيمة والخمود والغباء. ولعل الحشرة التي نجد فيها أخلاق وسخاء ونظافة وموهبة ومنطق أعظم الآلهة هي التي نجد فيها كل التفاهة والدمامة والغباء والعبث في كل الأشياء. ولعل الإله الذي يصنع لنا المرض والموت والفقر والصحراء والجحيم هو الذي نرجوه ليعالجنا من ذلك ونشكو إليه ما يصيبنا به.

* *

إنه ليصنع الغيظ والضيق واليأس أن يكون الأمر كذلك، أي أن يكون عقل الإنسان قادراً على أن يبتكر الأجهزة العبقرية في اتقانها وذكائها، لقياس الأشياء وضبطها ولحساباتها التي لا تخطىء، ثم يكون عاجزاً، ولعله عجز أبدي، عن ابتكار أي جهاز لضبط نفسه، أي لضبط الإنسان، أي لضبط منطقه وأفكاره وعقائده ورؤاه، أو لضبط أخلاقه وهمومه وإرادته وشهواته وأحاسيسه نحو الأشياء، وضبط رؤيته لها، وجوعه إليها، وحكمه عليها. إنه لشيء مخيف أن يكون كل شيء في الإنسان ليس له جهاز ضبط. إن الإبرة لتضبط بقياس دون الإنسان.

إنه ليصنع الضيق والحيرة والأسى أن يستطيع الإنسان بعبقرية لا حدود لها أن يضبط ذكاء أجهزته ومنطقها وأخلاقها، دون أن يستطيع ضبط رؤيته لأربابه ومذاهبه وعقائده وزعاماته، أو ضبط اقتناعه بها وتفاسيره لها. إنه ليؤمن ويقتنع بكل شيء، ويراه ويفسره ويتصوره بلا أي قياس أو قانون أو منطق.

إنه يستطيع بعبقرية غير محدودة أن يصنع الذكاء والمنطق والأخلاق للأشياء وفي الأشياء، ثم لا يستطيع أن يصنع أي ذكاء أو منطق لذكائه ولمنطقه، أو أي عقل لعقله. إنه ليستطيع بلا حدود أن يضع الضوابط والحدود والمقاسات لكل شيء ثم لا يستطيع أن يصنع شيئاً من ذلك لتفكيره ولمنطقه. فهل هذه مزية؟ هل هي مزية للخالق أن يخلق مخلوقاته ويعجز عن خلق ذاته؟.. ولكن أليست هذه هي موهبة الخالق.. أن يخلق الأشياء دون أن يستطيع خلق نفسه أو يراد منه ذلك؟

إن كل ذكاء الإنسان ومنطقه لا يستطيعان أن يضبطا ذكاءه ومنطقه، أو يضبطا استجاباتهما

لنفسيهما أو للأشياء، أو ممارساتهما لنفسيهما أو للأشياء. إنه ليس ذنب المنطق في أنه يتصرف ويتعامل بلا أخلاق، بل وفي أنه يتخلق ويتصرف بلا ذكاء. إنه ليس منافقاً ومهزوماً وجباناً وكذاباً فقط، بل وضال ومخدوع وعاجز وبليد.

وأي ذنوب منطق الإنسان أعظم: نفاقه وجبنه وخوفه، أم ضلاله وغباؤه وانخداعه وفوضاه؟

نعم، إن منطق الإنسان بليد جداً في تخلقه وفي استجابته وفي ممارسته لنفسه وفي رؤيته لها، مهما كان ذكياً وعبقرياً جداً في إبداعه وخلقه وإخراجه للأشياء وفي سيطرته عليها. إنه عبقري جداً في تعامله مع الأشياء وفي عمله فيها، ولكنه بليد جداً في كينونته وفي تعامله مع نفسه.

إن منطق أعظم عبقري عرف وأبدع أعظم الأشياء لهو كل البلادة في تخلقه وتوزعه وفي ممارسته لنفسه، وفي سيطرته عليها وفي فهمه لها، وفي استعداده للاستغواء، وللإيمان بالشيء ونقيضه، ولرؤية الجمال والدمامة، العدل والظلم، التدبير والعبث في المنظر الواحد والحالة الواحدة.

إن منطق أعظم عبقري ليصاب بالبلادة وبالغواية وبالهزيمة والخوف كما يصاب بذلك منطق أي إنسان آخر.

* *

إننا نحن المؤمنين جداً لنترك لله باقتناع أن يفعل عنا كل ما عجزنا عنه لكي نذهب نتحدث باقتناع أيضاً عن أنفسنا بزهو المتوكلين المقتنعين، ولكي نذهب باقتناع أيضاً نتحدث عن الله كصديق لا مثيل لصداقته، كصديق واقف أمام أبوابنا وأمام شفاهنا ورغباتنا ليسمع منا ومنها الأوامر والطلبات والتضرعات الموجهة إليه بإلحاح وإصرار وتدلل، لكي يقفز من فوق كرسيه مثل طفل مرح نشيط قوي مهذب ليستجيب لنا، ثم ليضع أحر وأصدق وأطول القبلات على جباهنا وأيدينا، شكراً واعترافاً لنا لأننا قد قبلنا منه أن يستجيب ويفعل لنا. لقد وهبناه بذلك كل ما يتمناه ويريده لنفسه من سعادة وسرور وإعجاب بأخلاقه ومواهبه ونشاطه.

ولكن ليس فينا وباقتناع أيضاً من يترك لله، أو من يرى أو يقتنع أن يترك لله، أن يفعل لنا شيئاً نستطيعه نحن. إننا نحن المؤمنين جداً لا نتوكل على الله، ولا نؤمن، أو نقتنع بالتوكل عليه إلا حينما نكون عاجزين أن نفعل.

إنه ليس فينا قادرون متوكلون أو مؤمنون بأن علينا أن نتوكل. إن الله لا يساوي في منطقنا وفي حسابنا وسلوكنا أكثر أو أفضل من عجزنا عن التدبير والتفكير والعمل. إن الله لا يساوي في تفكيرنا أو في حياتنا شيئاً. إننا لا نترك لله إلا ما لا نستطيع ولا نترك له أو ننتظر أو نريد منه شيئاً نستطيعه. إذن كم يساوي في حسابنا وكم نهبه من الاحترام والإيمان!

إن كلمة: الله حينما نقولها ولا تعني في منطقنا وسلوكنا إلا: نحن عاجزون عن أن ندبر أو نفكر

أو نفعل أو نقاوم. إننا لن نترك لله ولن نقتنع بأن نترك له أن يقتل عنا الذباب الذي نستطيع ونريد قتله لكي نكون متوكلين ومؤمنين.

ولكننا لا بد أن نترك لله، بكل رهبة وقوة الاقتناع، أن يقتل ويقاتل عنا جميع أعدائنا الذين لا نستطيع قتلهم أو قتالهم، أو لا نجرؤ عليه تحت الاقتناع والإيمان بأننا متوكلون.

إننا لن نترك لله أن يسرق لنا الطعام من أفواه الشيوخ والأطفال الجائعين إذا استطعنا سرقته، اقتناعاً بأننا متوكلون. ولكننا لا بد أن نترك له باقتناع مهيب، باقتناع لا اعتراض عليه من المنطق أو من الذكاء أو من الإيمان، أن يزرع لنا الصحراء التي لا نستطيع نحن ولا يستطيع هو زراعتها، وأن ينزل لنا المطر الذي لا يستطيع هو ولا نستطيع نحن إنزاله. إننا لا نطلب من الإله ولا نرجوه إلا للشيء الذي لا يمكن أن يفعله. إنه لا يوجد كائن لا يستجيب لأي شيء يطلبه منه غير الإله. إنه الكائن الوحيد العاجز أبداً عن الاستجابة لأنه الكائن الذي يطلب منه ما لا يستطاع.

إن المؤمن هو الذي يضع الله في المكان الذي لا يريد أو لا يستطيع أن يكون فيه، ويهبه العمل الذي لا يريد أو لا يستطيع عمله، مقتنعاً بأنه يمارس أعلى مستويات الاحترام لله والتوكل عليه.

إن المؤمن هو الذي يضع الإله في مكان الحرج والعجز. إنه يرجوه ويطالبه حيث لا جواب.

إننا نحن المؤمنين لقادرون دائماً على الإيمان بعدل الله وبحكمة الحياة وبذكاء القدر حينما نكون في ظروف وأوضاع تحابينا وتهبنا وتمكن لنا من السيطرة والأخذ والاستغفال.

إننا لسنا هنا فاجرين وكاذبين.وخادعين فقط، بل وضالون ومخدوعون وأغبياء.

إن الأقوياء المتسلطين في المجتمعات المتدينة لا بد أن يبطشوا بخصومهم وبمخالفيهم وبكل من لا يهبونهم كل ولائهم، ثم لا بد أن يقولوا إنهم يقاومون الإلحاد، وهم يعنون بالإلحاد كل تفكير أو سلوك قد ينقد أو يضعف النظام الذي يحكمون باسمه. وكذلك الأقوياء المتسلطون في المجتمعات غير المتدينة، إنهم لا بد أن يمارسوا مثل هذا البطش بالخصوم والمخالفين وبكل من يحتمل فيهم الخروج والرفض والنقد وضعف الولاء. ولكن هؤلاء إنما يقاومون الخونة والرجعيين والأعداء والمتآمرين. وهم يعنون بهم كل من لا يباركون طغيانهم وجنونهم، أو لا يهتفون وينشدون لاستعراضاتهم الباهظة، أو لمذاهبهم ومغامراتهم العدوانية الحمقاء. إن هؤلاء وهؤلاء لا يفتكون بالخصوم والمخالفين أو بمن يظنونهم خصوماً ومخالفين فقط. بل يفتكون بهم ويسوغون فتكهم بهم تسويغاً فكرياً وأخلاقياً وإنسانياً. يسوغونه بالآلهة والمذاهب.

إن الفاجر والضال هنا ليست هي أخلاق هؤلاء أو شهواتهم أو نياتهم فقط، بل واقتناعات منطقهم وبلاداته وتفاسيره ورؤاه واستعداداته للإصابة بكل معاني الغواية ومستوياتها.

إن القضية هنا ليست هي أن المنطق يتقبل الهزائم وأسباب الإغراء لأنه جبان وضعيف ووصولي،

فيتخلق بلا تدبير أو وعي أو تعمد للذنب كما تملي عليه ضغوط الإغراء والهزائم والمواجهات الصعبة المتكررة المفروضة.

بل القضية أيضاً أن المنطق هو جهاز لا يمكن أن يكون منطقياً، كما لا يمكن تفسيره أو ضبطه أو حساب ما يمكن أن يفعله بالمنطق.

إن المنطق ليس جهازاً مضبوطاً مهما كان جهازاً ضابطاً.

إن هذه هي القضية إنها القضية التي لا يوجد لها قضاة. إنه لو كان إله الناس سوطاً لوجدت فلسفات ومذاهب تمجد السياط وتعلم مزاياها وتتحدث عن منافعها للأجساد، ولوجد لها المعلمون والمبشرون ليدللوا على قدرتها الخارقة في التمكين للإيمان والحب والنبل من القلوب، ولألف الأقوياء المحاكم لمحاكمة كل من يرتابون في ألوهيتها أي في ألوهية السياط، أو في مزاياها الدينية أو المذهبية أو الأخلاقية أو الإنسانية. وهل آمن البشر في كل تاريخهم بمزايا أي شيء مثلما آمنوا بمزايا السياط؟ وهل ينافس السياط أي شيء في مزاياها؟ وهل يمكن أن تكون للأديان أو للمذاهب أو للزعامات كل هذه المزايا لولا مزايا السياط؟ وإنه ليمكن أيضاً أن يفترض المنطق أن السوط إله عظيم رحيم قبل أن يزعم له ذلك او دون أن يزعم، أو قبل أن يصبح كذلك، أي قبل أن يصبح إلهاً عظيماً رحيماً.

إن المنطق قد يقتنع بالسوط إلهاً بعد أن يصبح إلهاً، وقد يقتنع بافتراضه إلهاً قبل أن يصبح إلهاً. وهل يستطيع أو استطاع السوط ألا يكون إلهاً؟ وهل وجد إله له عالمية وديمومة مثل عالمية وديمومة السوط الإله؟

لقد اقتنع المنطق في تاريخه الطويل بآلهة ترفض السياط كبراً بنفسها أن تخوض معها أية مباراة للمنافسة على الجمال، أو على الذكاء، أو على الحب والرحمة، أو على أمجاد التاريخ. إن السوط لم يصبح إلهاً لأنه يخيف، إن هذا ليس هو السبب كله، بل ولأنه لا منطق لمنطق الإنسان. إنه ليس الخوف وحده بل والعجز عن المنطق.

إن المتسلطين الطغاة لا بد أن يبطشوا بالمخالفين وبكل من يخافون منهم الخروج والتمرد، ولا بد أن يقهروهم. إنهم لا بد أن يمارسوا البطش والطغيان تحت أي اسم أو أية دعوى. إنه أحياناً اسم إله أو دعواه. وقد يكون أيضاً اسم أو دعوى مذهب أو نظام أو وطن أو أي شيء.

إن بطش وطغيان الآلهة والأنبياء والقديسين ليسا أشد أو أعظم تعصباً وهمجية ووحشية وبغضاً وبلادة من بطش وطغيان المذاهب والنظم والأوطان والقوميات. إن الآلهة والأنبياء والقديسين ليسوا أقدر أو أجرأ على إذلال المنطق وعلى إرهابه وإغوائه وخداعه وإفساده من المذاهب والنظم والأوطان والقوميات.

إن اسم الإله أو اسم النبي أو اسم القديس ليس أقوى أظفاراً أو أنياباً أو ظمأً إلى الدماء من أي اسم

آخر. إن جميع الأسماء تتساوى في تدينها بالقمع والقهر، وفي إرادتها لهما، وفي تفسيرها وتسويغها لما تصنع وتريد.

إن عرش الله ليس أكثر أو أقوى إذلالاً وترويعاً لحامليه وللراكعين تحته من أي اسم آخر. إن أي كتاب مقدس قديم ليس أكثر بداوة في انفعالاته وضرباته وبغضائه وتعصبه من أي مذهب أو نظام حديث.

إن الآلهة والأديان الشائخة لن تكون أقدر على العدوان أو على الرغبة فيه من الزعامات والمذاهب الشابة.

إن عرش الإله أو عرش أي نبي عاش في صحراء التاريخ ليس أكبر أو أثقل العروش. إنه لا أوزان ولا أحجام للعروش، ولكن الأوزان والأحجام للجالسين فوقها. إن وحشية الدين أو المذهب لا تساوي الدين أو المذهب ولكن تساوي الحاكمين والضاربين باسمه...

إن سياط النبي أو السياط في يد النبي ليست أغلظ ولا أطول ولا أكثر فظاظة أو عشقاً للظهور من سياط أي زعيم أو قائد أو ثائر، أو من السياط في يد أي زعيم أو قائد أو ثائر. إن القادمين من السماء ليسوا أعرف بأنواع السياط وبأقواها ولا أقدر على الضرب بها وعلى إعطائها القوة والقداسة والشرعية والمنطقية من المتفجرين عن التراب.

إن الإنسان طاقات أخلاقية وفكرية ومذهبية ونفسية وتفسيرية مختزنة. إنه طاقات معروضة أو مباحة أو محتملة أو منتظرة. إنه طاقات قابلة للتحويل إلى جميع التعبيرات، إلى جميع الأكاذيب والبلادات والتفاهات والحماقات، وإلى جميع الذنوب والمعاصي والصلوات والتقوى، وإلى جميع المذاهب والتعاليم والتفاسير، وإلى جميع الأفكار، وإلى كل أساليب الخروج على جميع الأفكار. إلى كل شيء ونقيضه.

إنه بالسهولة وبالسرعة التي ينتقل بها من آمن إلى خائف، ومن واقف إلى جالس، ومن راض إلى غاضب، ومن محب إلى مبغض، ومن مادح إلى هاج، ومن صادق إلى كاذب، ومن مصل أمام الله إلى متعر أمام الشيطان، ومن راءٍ لكل الجمال والذكاء إلى راء لكل الدمامة والبلادة، ومن مقتنع ومصدق إلى رافض ومكذب، ومن صانع للحرب ومؤمن بها إلى صانع للسلام وداع إليه، ومن مخاصم ومتحدث عن الرذائل إلى مصادق ومعلن عن المزايا.

نعم إنه بهذا الانتقال السريع السهل يعبر الإنسان تعبيراً عالمياً أبدياً عن مستوياته المنطقية والأخلاقية والمذهبية والدينية والوطنية.

إن الإنسان يتنقل فكرياً ومذهبياً تنقلاً متضاداً ومتناقضاً دون أن يوجد حكم أو نموذج أو منطق أو قياس يحميه أو يصححه أو يحتكم إليه.

إن الإنسان نص يمكن تفسيره وقراءته بجميع اللغات واللهجات دون أن تكون بعض هذه اللغات

أو اللهجات أقوى أو أفضل أو آصل أو أوضح من اللغات أو اللهجات الأخرى. إنه نص يمكن أن يقرأ ويصلى به في جميع المعابد والصلوات المتناقضة المتخاصمة بل وخارج جميع المعابد والصلوات بل وضد جميع المعابد والصلوات.

بل إن الإنسان ليس لغة لا في النطق به ولا في تفسيره. إن اللغة لا بد أن تكون حروفاً أي ألفاظاً وتفاسير معروفة متقررة. فهل الإنسان كذلك منطقاً أو تفاسير أو أخلاقاً أو مشاعر أو مذاهب أو أدياناً أو استجابة لذلك؟

هل الإنسان لغة معروفة متقررة في ألفاظها أو في تفاسيرها أو في التحدث بها أو في قرءاتها؟ لقد صنع الإنسان اللغات الكثيرة، ولكن هل استطاع هو أن يصبح لغة تمكن قراءتها وتفسيرها؟

* *

أجل، إن الإنسان يصنع أدق الأجهزة لضبط الأشياء، ولحسابها وللتحكم فيها وفي استجاباتها، ولجعلها قوانين معروفة محسوبة.

ولكنه لم يستطع، ولعله لن يستطيع أن يصنع أي جهاز لضبط منطقه أو تفكيره، لضبط استجاباته أو رؤاه أو تفاسيره أو احتجاجاته أو اقتناعه، أو لضبط اختياره للآلهة والأنبياء والزعماء والمعلمين واختياره للمذاهب والأديان والتعاليم، أو لضبط إدراكه لصفات القوة والجمال ولصفات الضعف والدمامة فيمن يختار وفيما يختار، بل أو لضبط أحزانه ودموعه، أي أحزان منطقه ودموعه. إنه لا فوضى مثل فوضى منطق الإنسان في اختياره لأربابه وزعمائه وأنبيائه وفي اختياره وتصوره لصفاتهم ولمواهبهم ولقوتهم وضعفهم، وفي رؤيته وتمنيه لهم.

أليس هذا شيئاً يصنع كل معاني الضيق والغضب والحسرة والقنوط؟

يا لها من قضية.. إن الخالق الأعظم لا يجد من يخلقه ليكون خالقاً منطقياً.. وإن صانع كل الأجهزة العلمية لا يجد جهازاً يصنعه ليكون جهازاً منطقياً.. إن منطق الأشياء ليس منطقياً. إن الإله والإنسان ليسا منطقيين في منطقيهما، ولا في كينونتهما، ولا في استجاباتهما، ولا في ذاتيهما.

يا لها من قضية حزينة التفاسير والنتائج والأخلاق.

إن منطق الإنسان الذي يصنع أجهزة ضبط وقياس لكل الأشياء لا يستطيع أن يصنع لنفسه مثل هذه الأجهزة ولا يجد من يصنعها له.

ولكن أليس ذلك هو الأفضل والأكثر إعطاءً للروعة وللنشوة وللجمال وللقدرة على التحليق في الآفاق والمتاهات البعيدة السعيدة المتزاحمة بالأشباح والأوهام المخادعة والمغطية لدمامة وبلادة الحقيقة والتحدد والانضباط؟ نعم، أليس عجز المنطق عن أن يكون جهازاً مضبوطاً أو ضابطاً لنفسه مثل الأجهزة التي يبتكرها ويضبطها هو الأفضل والأروع والأقدر على التحليق في الأعالي وفي التيه بلا حدود أو قيود؟

م د ك

لماذا الوَهم أعظم مجداً مِنَ الحقيقَة

«.. إن جميع الأوهام ليست سوى محاولات في الغالب غير مقصودة للاعتذار عن وقاحات الحقائق وقبحها. إن الإنسان ليتحول إلى اعتذار وصفح جميل عن الآلهة والطبيعة والبشر حينما يذهب يفسر الأشياء غير المفهومة تفاسير مفهومة، ويفسنر الأشياء الدميمة تفاسير جميلة، ويفسر العبث كأنه كل الجد، ويفسر الكذب كأنه أصدق الصدق، ويفسر الجنون كأنه أعلى مستويات العقل والعبقرية، ويفسر الذباب واقعاً على أخلاق النبي وعلى جبينه وكأنه يد الإله تصافح كرامة الإنسان وكبرياءه». إن جميع الأوهام ليست إلا تفاسير جميلة وسعيدة لمواجهات أليمة وقبيحة وحزينة ـ أو ليست إلا محاولات للفرار من الدمامات والآلام والتفاهات والعبث».

«.. إن الحقيقة هي الوهم الصادق، أي الوهم الحقيقي، أي الوهم الذي تحقق. إنها هي الوهم الذي أصبح واقعاً أو موجوداً أو وجوداً له ذات أو شبح. أما الأشياء التي لم توجد بينما نتحدث عنها ونؤمن بها كالأشياء الموجودة فإنها هي الأوهام التي لم توجد. إنها هي الأوهام الطيبة. إن الحقائق هي العدوان الذي قد وجد. أما الأوهام فإنها العدوان الذي لم يوجد. الأوهام تحدث عن الألم والورطة. أما الحقائق فمواجهة للألم والورطة..».

م د ك

إذا كنت ممن يحكمون على الأشياء ويفسرونها بالعقائد أو بالمذاهب فلا محالة من أن تظل تعالج الخطأ والهزيمة بالإصرار عليهما أو على تكرار أسبابهما. لأن الذين يفسرون الأحداث والأشياء، ويحاسبونها بالمذاهب والعقائد لا يجرون عليها أحكاماً عقلية، ولا يضعونها تحت التجارب. إنهم حينئذٍ لا يفسرونها بموقف الإنسان منها، بل بموقف الإنسان من المذهب أو العقيدة، أو بموقف المذهب أو العقيدة منها. أي أنهم يجعلون الخطأ أو العجز في تطبيق المذهب أو الاعتقاد وفي الحماس والتعصب له، لا في قدرة الإنسان أو في أخلاقه أو في ظروفه أو في ظروف الأحداث والأشياء، أي لا في ظروف الحياة واحتمالاتها وقوانينها.

إنهم لن يفهموا أن المسؤول هو الإنسان أو الواقع وليس المذهب أو العقيدة. إنهم لهذا لن يروا أنهم قد أخطأوا أو قصروا فيما فعلوا مهما أخطأوا وقصروا ومهما وهب لهم خطأهم وتقصيرهم من آلام وخسران وهزائم، ومهما سرقا من تفكيرهم وحماسهم وتعبهم الضائع. إنهم لن يعرفوا حينئذٍ أن القضية هي قضية الإنسان وواقعه وليست قضية الإنسان ومذهبه أو عقائده وأربابه..

إنهم لا بد أن يذهبوا حينئذٍ يعتقدون ويعلنون أن الذنب كله هو أنهم قد قصروا في فروض الطاعة والالتزام بالاعتقاد أو بالمذهب وبالتوافق معه والحماس له. وحينئذٍ يذهبون يحاولون أن يغطوا عجزهم أو تقصيرهم أو جهلهم الذاتي لا جهلهم المذهبي أو الاعتقادي، بالحماس أو التعصب المتجدد لذلك الاعتقاد أو لذلك المذهب الذي صنع لهم الألم والخسران والهزيمة، أو الذي لم يصنع لهم شيئاً لا هذا ولا نقيضه، وبتحويل اهتمامهم ونشاطهم إليه، أي إلى ذلك المذهب أو المعتقد، رافعين من طاقة إيمانهم به ورغبتهم فيه وتوبتهم واعتذارهم إليه، ومن جنون الدعاية له وإلى الاستمساك به.

إنهم حينئذٍ لا بد أن يذهبوا يخيطون جراحهم بالخناجر، ويتخلصون من الشرق بالماء بابتلاع الأبر، ويتداوون من التوتر بالأرق، ومن الهزال والضعف بالجوع، ومن خوف الظلام بفقء العيون. إنهم لا بد أن يظلوا كمن يفعلون ذلك. إنهم لا بد أن يذهبوا يستشفون من أمراضهم البدنية بتزيين قبور آبائهم،

وبالوقوف والبكاء فوقها، ويستشفون من ضعف أبصارهم بالتحديق في تشوهات وذنوب معلميهم وأنبيائهم.

.. إن المعتقدين، ولا سيما المعتقدين لعقائد دينية أو شبه دينية وجميع العقائد هي دينية أو شبه دينية، نعم، إن المعتقدين لا يعلمون أن هناك دائماً نتائج وأحداثاً متقلبة بل ومتضادة لأنها محكومة بوسائل وقوانين ومقدمات هي كذلك متقلبة ومتضادة. إنهم لا يعلمون أن الأحداث لا يمكن أن يصنعها أو يصوغها سبب واحد، وأنها لا تصنع أو تصاغ بالإيمان ولا بالمذهب ولا بالعقيدة، بل بالضرورة وبالإنسان، وبمستوياته ومواهبه وأخلاقه كيفما كان مذهبه أو اعتقاده، وكيفما كان بلا مذهب وبلا اعتقاد، بل وبلا إيمان.

إن أي إنسان لا يمكن أن يساوي مذهبه أو إيمانه كما أن أي وحش أو برغوث لن يساوي إخلاصه أو اعتقاده.

إن المعتقدين مهما اختلفت معتقداتهم يظلون يعتقدون ويرون أنه يوجد شيء واحد ثابت تصدر عنه كل الأشياء والأحداث، وتفسر به كل الأشياء وكل الأحداث، وتصحح بل وتداوى به كل الأشياء وكل الأحداث. إن هذا الشيء الواحد الثابت هو المذهب أو الاعتقاد ـ هو الإله أو النبي أو صانع المذهب أو صانع النظام أو معلمه ـ هو الإيمان والإخلاص والاتباع والتعصب لذلك.

إذن إذا جاءت النتائج أو الأحداث أو التوقعات غير جيدة أو غير ملائمة فالعلاج هو الحماس والتعصب لذلك الشيء الواحد الثابت، هو الرجوع والتوبة والمبايعة الصادقة الباكية ـ هو تجديد العهد والولاء والإيمان بذلك الشيء الواحد الثابت الذي هو المذهب أو المعتقد المختار أو الإله أو النبي أو صانع المذهب أو معلمه.

إن العلاج حينئذٍ هو محاسبة النفس على التزامها المذهبي أو الاعتقادي ومعاقبتها من داخلها ـ هو زجرها لتكون أكثر وأصدق التزاماً للمذهب أو للاعتقاد.

إن المعتقدين كما يرون أن الاعتقاد أو المذهب هو الذي يصنع ويصوغ التطورات الاجتماعية والحضارية والإنسانية بل والطبيعية أحياناً فإنهم يرون أيضاً أن الاعتقاد أو المذهب هو الذي يصنع ويصوغ الإنسان ـ يصنع ويصوغ ذكاءه وغباءه وأخلاقه وقوته وضعفه وانتصاراته وهزائمه.

إنهم يرون أن المذهب وكذا الاعتقاد قوة خالقة ومغيرة ومحولة وناقلة للشيء وللإنسان إلى نقيض نفسه وإلى أكبر من احتمالاته ومن موهبته ومن قدرته ومن أخلاقه وذكاءه...

إن المعتقد لا يرى أن الإنسان بذكائه وغبائه، وبقوته وضعفه، وبكل مواهبه ونياته واهتماماته ومستوياته وظروفه منفصل عن مذهبه وعن عقائده، بقدر انفصال أخلاق الطبيعة وأحداثها وقوانينها وقوتها وضعفها وذكائها وغبائها عن كل مذهب واعتقاد. إن مواهب الإنسان منفصلة عن مذاهبه وعقائده وعن آلهته وأنبيائه ومعلميه وقادته بقدر انفصال أحداث الطبيعة وقواها عن ذلك.

إن المعتقد لا يرى في الأحداث والأشياء بل ولا في مواهب الإنسان المختلفة ترابطاً بليداً محتوماً قاسياً عقيماً متوحشاً همجياً، تحكمه أسباب هي أيضاً محكومة بأسباب ليست معتقدة ولا مؤمنة، عن أسباب أخرى لا تحترم العقائد ولا المعتقدين ولا الأرباب ولا المعلمين ـ لا تحترم مشيئتهم ولا طموحهم ولا مزاعمهم ولا حبهم أو بغضهم، ولا ترثي أي الأسباب لهمومهم أي لهموم الأرباب والمعلمين، ولا لافتضاحهم ولا لعارهم.

ما أقل أن يستفيد المعتقد من الأحداث، وما أقل أن يقرأها أو أن يحدق فيها تحديق ناظر متسائل مهما ناقضته وناقضت مذهبه أو اعتقاده أو تفاسيره لمذهبه أو لاعتقاده، ومهما خرجت على أربابه أو على معلميه أو على تعاليمهم، ومهما تعاملت معه أي الأحداث بقسوة وتقريع وسخرية. إن المعتقد لا يحاسب نفسه على موهبتها أو على طاقتها أو على خمولها وحماسها وإنما يحاسبها على مذاهبها وعقائدها. إنه لا يحاسب فيها الإنسان بل يحاسب فيها الإله والمذهب.

إن المعتقد بقوة يظل أبداً يعاود تجربة الخطأ الأول أو الخطأ الدائم أو الخطأ الذي لا يصبح خطأ. إنه الخطأ الذي لا يموت ولا يكتشف ولا يعاب ولا يعاف بل ولا يتهم أو يساءل. إنه الخطأ المتحول إلى إله يفعل كل شيء ولا يعاب فيه شيء.

إن المعتقد ـ سواء أكان معتقد مذهب أو معتقد عقيدة دينية ـ إن المعتقد هذا يحوّل خطأه إلى إله لا يحاسبه ولا يعاقبه ولا ينقده ولا يفسره ولا يتركه ولا يقتله بل ولا يسائله. إنه يحاسب كل شيء به ولا يحاسبه هو بشيء. إنه لا يحاسب أي شيء بذاته، ولا يزنه أو يقيسه بذاته أو بحجمه، بل بالمذهب أو بالاعتقاد. إنه يريد من المذهب أو من المعتقد أن يعطيه أو أن يصنع له ما عجزت عنه موهبته أو قدرته أو ظروفه.

إن الناس والأشياء لا يساوون ولا تساوي ذواتهم أو ذواتها، بل يساوون وتساوي المذهب أو الاعتقاد، والالتزام به أو العجز عن الالتزام. إن الذي يقف موقفاً بليداً أو يفعل شيئاً بليداً لن يكون المسؤول أو الملوم مستوى ذكائه بل اعتقاده أو مذهبه ومستوى التزامه به..

إن المذهب والاعتقاد هما كل القوة والضعف، وكل الخطأ والصواب، وكل الذكاء والغباء. إن الجواد إذا عجز أو سقط فالعيب في المذهب أو في العقيدة، لا في ذاته ولا في حياته ولا في صفاته. إن السلاح الذي تعجز رصاصاته عن إصابة الأهداف، وإن الجيش الذي يعجز عن الانتصار على الأعداء ليس هو المعيب بل المعيب هو العجز عن طاعة الإله أو المذهب.

هل يموت الإله؟ هل يموت حينما يواجه أسباب الموت؟ وهل يواجه الإله أسباب الموت مهما واجهها؟ إن المذهب والاعتقاد يتحولان إلى إله في حسابات المؤمنين بهما، يحاسب ويفسر ويفهم ويقوم ويحدد كل شيء بهما بينما هما مبرآن ومنزهان من كل الذنوب والمحاسبات، كما أنهما أي المذهب والاعتقاد أو المذهب والإله مبرآن ومنزهان أيضاً من أن يصنعا أو يهبا أي شيء جيد أو قوي.

إن المعتقد لا بد أن يجدد الحماس والدعوة إلى العمل بالأسباب التي أصابته بأفدح الاندحارات، والتي لا بد أن تصيبه باندحارات أخرى، أو التي لا تستطيع إنقاذه من أي اندحار. إنه لا يستطيع أن يرى أو أن يفهم أسباب اندحاره. إنه لن يقدر أنه قد يكون لاندحاره أسباب غير التقصير في الحماس والتعصب للمذهب أو للاعتقاد، أو في الاستمساك به، أو في الفهم له.

إن المعتقد لا يرى ولا يحاول أن يرى لأنه يعتقد. إن الاعتقاد رفض وتمويت وهزيمة لكل الحواس والتجارب. إنه إصابة بالعمى الشامل. إنه إغلاق شامل لعلاقة الإنسان الذهنية بالأشياء وبالأحداث. إن المعتقد لا يتعامل مع الأشياء والأحداث وإنما يتعامل مع مذهبه أو عقيدته إذا أراد أن يتعامل مع الأشياء والأحداث أو أن يفهمها.

أنت تعتقد بمذهب أو بدين. إذن أنت لا ترى ولا تجرب، ولا تتصادم أو تتناقض أو تتعامل ذهنياً أو أخلاقياً بالدمامات والعاهات والأخطاء ولا بالأشياء أو بالأحداث، وإنما تعتقدها أو تعتقد إزاءها أو تتعلم الاعتقاد بها والتفسير والتسويغ لها.. إنك تتعلم كيف تفهمها وتفسرها وتؤمن بها، بل تتعلم كيف تراها. إن المعتقد يرى الأشياء بالتعليم، لهذا لا يستطيع أن يراها.

إن المعتقد لا يرى الشمس - إنه لم يرها قط، وإنه لن يراها أبداً، ولكنه كان، ولا بد أن يظل، يعتقدها. إن المعتقد في كل تاريخه لم يستطع أن يرى الشمس ولا مرة واحدة. هل يوجد إنسان واحد له عينان لم ير الشمس ولو مرة واحدة؟ نعم، إنه المعتقد..

إن الذي يعتقد الأشياء أو يعتقد بها أو يعلم اعتقادها لا يستطيع أن يراها لأن الاعتقاد قتل للرؤية، كما أن الرؤية قتل للاعتقاد. إن وجود أحدهما نفي للآخر. إن وجود النبي أو معلم المذهب فقد لوجود العيون في الإنسان.

لقد ظل المعتقد في كل تاريخه وتحت كل ظروفه ومستوياته عاجزاً عن رؤية الذباب. واقعاً بكل دماماته فوق عينيه، وفوق عيون أطفاله، وفوق جباه أنبيائه وزعمائه. لقد كان عاجزاً عن رؤية ما في هذا المنظر الذبابي الإنساني من دمامات وبذاءات وهوان لأنه لم يكن يعتقد بهذه الدمامات والبذاءات والهوان، أو لأنه علم أنها ليست دمامات ولا بذاءات ولا هواناً، أو لأنه لم يعلم أنها دمامات وبذاءات وهوان. إنه لا يرى ولا يفهم ولا يفسر ولا يعاني ولكنه يتعلم. حتى قيمة الذباب أو دمامته لا يراها ولا يفهمها ولا يفسرها ولا يعاني منها، وإنما يتعلمها.

لقد كان يعتقد أن هذه الدمامات والبذاءات والاهانات إنما تساوي جمال الإله ورحمته وحبه وذكاءه وأخلاقه إذا كان يعتقد اعتقاداً دينياً، أو تساوي جمال الطبيعة والمستقبل ورحمتهما وحبهما وذكاءهما وأخلاقهما وعبقرية المعلم وصدقه وإخلاصه ونضاله إذا كان يعتقد اعتقاداً مذهبياً.

إنه لم يحدث في كل التاريخ أن استطاع مؤمن واحد أن يرى ذباباً واحداً. لقد كانت عين المؤمن عرشاً لمجد الذباب دائماً دون أن تراه. نعم، لأنه كان يعتقد اعتقاداً ظل عاجزاً عن رؤية الذباب. لقد

ظل عاجزاً عن رؤية الذباب، واقعاً بكل دماماته وبذاءاته وإهاناته، داخل عينيه، وداخل عيون أطفاله، وفوق جباه أنبيائه وزعمائه لأنه كان معتقداً أن أنبياءه ومعلميه لم يعلموه قبح هذه الرؤية بل لقد علموه جمالها. إذن كيف يرى قبحها؟ لقد علموه جمال هذه الرؤية لأنها من منطق الإله ومن تدبيرها إذا كان معلموه أنبياء، ولأنها من منطق الطبيعة الطيبة ومن تدبيرها إذا كان معلموه صناع مذاهب.

إن المعتقد صامت بعقله وبرؤيته وبأخلاقه وأحاسيسه عن جميع الأشياء وجميع الأحداث، وإن جميع الأحداث والأشياء لصامتة عنه كذلك، أي بمستوى صمته عنها، إنه لا يتقاتل أو يتزاحم أو يتناقض مع أي شيء ولا مع أي حدث لا بأفكاره ولا بتفاسيره ولا بتحديقاته. إنه مكان للأحداث وللأشياء فقط، وليس عميلاً أو مقاتلاً أو مخاصماً أو منافساً أو نداً لها. إنه يتعايش مع الأشياء ومع الأحداث كما تتعايش الأشياء والأحداث بعضها مع بعض.

إن اعتقاده الديني أو المذهبي قد جعله مؤدباً ومهذباً ومتواضعاً ومتسامحاً وكريماً جداً في فهمه، وفي رؤيته، وفي تفسيره، وفي مقاومته للأحداث وللأشياء، وفي غضبه عليها، وفي استنكاره لها، وفي تألمه منها، وفي اشتراطه عليها. وهل يشترط عليها أية شروط؟ وهل يشترط لها أية شروط؟

إن أنبياء الإنسان ومعلميه يجيئون إليه ليعلموه أن يكون مؤدباً جداً مع كل ما يواجه ويعاني ويمارس. إنهم يجيئون إليه ليميتوا فيه كل خصومة أو تناقض بين منطقه وحواسه وبين أي شيء دميم أو بليد أو أليم.

ولكن هل يوجد من يحيا أو يتعامل أو يفكر أو يحس أو يرى باعتقاده أو بمذهبه؟ أليس جميع الناس يكونون قوتهم وضعفهم لا عقائدهم ولا مذاهبهم، لا آلهتهم ولا أنبياءهم ولا زعماءهم ولا قادتهم ولا معلميهم؟

أليس المعتقد أو المذهبي يتحدث فقط عن عقيدته أو عن مذهبه دون أن يحياها أو يحياه؟ وهل يستطيع أن يحيا عقيدته أو مذهبه أكثر مما يستطيع أن يفعل ذلك خصم عقيدته أو خصم مذهبه؟ هل يستطيع أقوى الناس اعتقاداً وأكثرهم حديثاً عن اعتقاده أن يعيش عقيدته أو مذهبه، إلهه أو معلمه أقوى أو أكثر مما يستطيع أن يعيش ذلك أي ذئب أو أي برغوث؟

إن الذي يتحدث عن عقيدته أو عن مذهبه أو عن آلهته وأنبيائه وزعمائه ومعلميه لا يتحدث عن شيء من ذلك، وإنما يتحدث عن نفسه باسم شيء آخر. إن مثله كمثل الذي يذهب يبكي الاطلال ويناجي النجوم. إنه يبكي آلامه وهمومه وضياعه وحيرته، ويناجي أشياء في نفسه، يناجي جوعاً في نفسه. إن الأطلال والنجوم ليست في حسابه، وإن مذهبه وعقيدته ليسا في حسابه إلا بقدر ما الأطلال والنجوم في حسابه. إن الذي يتحدث عن مذهبه أو عن عقيدته أو عن نبيه أو معلمه لا يتحدث بحرارة أكثر من الحرارة التي تخاطب بها النجوم والأطلال والذكريات.

إن الذي يصلي بضراعة وبكاء وصدق وارتجاف لا يعبد إلهه بل لا يراه ولا يشعر به ولا يعطف

عليه ولا يبكي له أو من أجله ولا يحس بأحاسيسه، ولا يحزن بقلبه أو لقلبه، ولا يجوع بجوعه أو لجوعه، ولا يدري ماذا يريد أي ماذا يريد إلهه، ولا يحاول أن يعرف ماذا يريد، ولا يريد أن يعرف، ولا يجد أية قيمة أو نشوة في أن يعرف. إن الإله ليس في باله. إن احتياجات الإله وشهواته وراحته ليست في حساب أي إنسان يؤمن به أو يتعبد له.

ولكن ذلك هو إنسان يتملق ويعاني ويبكي مشاكله وأحزانه وآلامه، أو يلعنها، أو يحاول أن يغالطها أو يخدعها، أو أن يطرحها بعيداً عنه بأسلوب من يتحدث مع كائن غير ذاته. إنه ليس إلا إنساناً يتحدث مع ذاته بلغة قديمة.

إن جميع الناس محتاجون إلى أن يتحدثوا مع أنفسهم وإلى أنفسهم بلغات قديمة. إن جميع العبادات والصلوات ليست إلا أحاديث إلى الذات ومع الذات بلغات قديمة. إن جميع البشر لا بد أن يظلوا يتكلمون اللغات القديمة بقدر ما يظلون يمارسون ويعيشون أعضاءهم القديمة. إن لغات وأعضاء آبائهم خالدة فيهم.

إنه لن يوجد إنسان واحد يؤمن بمذهب أو بعقيدة لو كان ذلك يعني التعامل أو التحدث مع غير الذات والضرورات، أو إلى غير الذات والضرورات، أو لو كان يعني الاحترام لغير الذات والضرورات. إن جميع أحاديث البشر عن الآلهة والمذاهب والمعتقدات ليست إلا أحاديث عن الذات وعن الضرورات بلغة ليست صادقة ولا ذكية ولا مدروسة.

... إنه لم يكن ممكناً أن يوجد مثل هذا الإنسان الواحد لو كان ذلك يعني التفوق على البرغوث في خضوعه لضروراته، وفي جوعه إلى الطعام والجنس دون أن يستأذن أي إله أو معلم أو نبي أو أي مذهب أو أية عقيدة.

إن الاتباع لأي مذهب أو لأية عقيدة والإيمان بهما ليسا إلا بحثاً عن الشهوات والاحتياجات وعن الاستماع إلى نداء الأعضاء الجائعة، يجيء بأسلوب البحث عن مجد الآلهة والأنبياء والمعلمين، وبأسلوب الاقتناع بذكائهم وصدقهم، وبأسلوب محاولة التمجيد والاحترام لهم، وبأسلوب الإيمان بالأديان والتعاليم والمذاهب. إن الإيمان بالآلهة والأنبياء والمعلمين والتمجيد لهم ليسا إلا استجابة لنداء الأعضاء جاءا بصيغة مزورة بدون نية التزوير في الغالب.

إن الاعتقاد والاتباع للمذهب أو للدين ليسا إلا حديثاً إلى الشيطان قد جاء بأسلوب الحديث إلى الله وإلى الأنبياء والزعماء والمعلمين. إنها ليست إلا قبلة موجهة إلى جبين الشيطان ومخاطباً بها ضمير الشيطان توضع خطأ وأحياناً عمداً على جباه الآلهة والأنبياء والزعماء والمعلمين، وتخاطب بها ضمائرهم. إن جميع الشفاه لا تبحث إلا عن جبهة الشيطان مهما أعلنت عن سواها.. إن جبهة الشيطان لتسرق وتستقبل جميع القبلات الموضوعة على جبهة الإله أو التي أريد لها ذلك.

إن المعتقد ليس إلا كائناً يخاطب أعضاءه بواسطة الآلهة والأنبياء والمعلمين، وبلغة الآلهة والأنبياء

والمعلمين، وباسم المذاهب والأديان، ومن داخل المحاريب وفوق المنابر. إنه يخاطب أعضاءه البذيئة ولكنه يخجل فيخطىء أو يكذب فيستتر، وحينئذٍ يبدو كمن يخاطب آلهته وأنبياءه ومعلميه. إنه يخاطب أعضاءه الداخلية في المعابد وفوق المنابر وفي النوادي والمؤتمرات العالمية ـ إنه يفعل ذلك وكأنه يصلي ويقرأ الكتب المنزلة ويتخاطب مع أربابه وأنبيائه ومعلميه ويطيعهم، ويفسر تعاليمهم.

إنه يفعل ذلك حينما يصلي ويقرأ الكتب المنزلة، وحينما يتخاطب مع أربابه وأنبيائه ومعلميه، وحينما يطيعهم ويحترمهم ويفسر تعاليمهم ونياتهم وأخلاقهم.

إن المعتقد ليس أكثر عصياناً لأعضائه أو أقل إحساساً بجوعها وضغوطها أو استماعاً إلى هتافها وإلحاحها، من أي زنديق.

إن أعضاء أي معتقد ليست أكثر حياء في تعبيرها عن بذاءاتها، وفي إحساسها ببذاءاتها أمام الإله وفي عينيه، من أعضاء أي فاجر أو زنديق.

إن الله ليس صديقاً لأعضاء المعتقدين أكثر من صداقته لأعضاء الفجار والملحدين. إن الله لا يحابي أعضاء أكثر من أعضاء، وإن الطبيعة لا تفعل ذلك. إنهما أي الله والطبيعة يصنعان التفاوت بين الأعضاء دون أن يقصدا أو يعرفا المحاباة.

إن الأعضاء ليس فيها معتقد وغير معتقد، ليس فيها مؤمن وزنديق والمحكومون بأعضاء لا تختلف ولا تتفاوت في إيمانها وكفرها، كيف يمكن أن يختلفوا أو يتفاوتوا في إيمانهم وكفرهم، أو في طاعتهم وعصيانهم، أو في التزامهم بمعاني إيمانهم وكفرهم؟

إن جميع الناس محكومون ـ كالحشرات ـ بأعضاء ليس لها آلهة ولا أنبياء ولا معلمون ولا مذاهب ولا أديان. إذن كيف يمكن أن يختلفوا لاختلاف آلهتهم ومعلميهم وأنبيائهم، أو لاختلاف مذاهبهم وأديانهم، أو لاختلافهم في الإيمان بالآلهة والأنبياء والمعلمين، أو بالأديان والمذاهب، أو في رفضهم للإيمان بذلك؟

والأعضاء التي ليست لها أديان ولا مذاهب ولا آلهة ولا أنبياء ولا معلمون لن تتأدب أو تتنازل عن أخلاقها ووقاحاتها ومجاعاتها احتراماً أو طاعة لمن يزعمون أن لهم أدياناً ومذاهب وآلهة وأنبياء ومعلمين.

في كل عصر، أو لكل عصر أوهام وحقائق ـ أي لا بد أن توجد في جميع العصور والمجتمعات أفكار وعقائد ومذاهب وفلسفات هي أقرب إلى أن تكون معقولة أو حقائق، أو إلى أن تزعم كذلك. كما توجد أفكار وعقائد ومذاهب وفلسفات هي أقرب إلى أن تكون غير معقولة أو تكون أوهاماً، أو إلى أن تزعم وترى كذلك.

ودائماً كانت الأوهام أو الأكثر توتراً وتحويماً في الأحلام هي أقدر على الانتصار والانتشار في

السوق وعلى اصطياد الأنصار والمؤمنين. وكانت دائماً هي الأقدم والأعرق والأكثر جرأة وإعلاناً وصياحاً وتعالياً.

لقد كانت توجد هنا دائماً مباراة غير عادلة وغير متكافئة.

إنه لو دخل السوق نبيان أو زعيمان لكان أقدرهما على الانتصار هو أقدرهما على صياغة الأوهام المثيرة الكبيرة المستحيلة، وعلى إتقان عرضها والترويج لها. ولكان أقربهما إلى الهزيمة وأحراهما بها هو أكثرهما صدقاً في الاستمساك بالحقائق وفي التحدث عنها، وفي عرضها بكل ما فيها من مرارة ووحشية ودمامة وإيلام.

فلماذا هذا؟ لماذا يسارع أكثر الناس إلى تصديق الأوهام والأكاذيب العقلية، وإلى الترحيب بها، وإلى التجند في مواكبها وطوابيرها، بينما يخافون الحقيقة والصدق العقلي، ويفرون منهما، ويعانون من مواجهتهما، ولا يجدون فيهما راحتهم أو اطمئنانهم؟ لماذا يصرون على أن يروا الأشياء في غير ذواتها وصورها، ويفهموها بغير منطقها، ويعاملوها ويتعاملوا بها ومعها بغير أخلاقها، ويتحدثوا عنها بغير لغاتها؟

هل يعني هذا أن الخرافة قوية وجميلة ومهذبة وواهبة وملائمة لحياة الإنسان ولكل احتياجاته ومعانيه، وأن الحقيقة هي نقيض ذلك، أم يعني أن الناس يريدون أن يكونوا ضالين ومخدوعين؟ هل توجد علاقة ما غير معروفة حتى اليوم بين الإنسان وبين الخرافات والأكاذيب العقلية؟ ما هذه العلاقة، ما نوعها، ما تاريخها، ما ذكاؤها، ما أخلاقها؟

هل الغواية موهبة إنسانية، أو معنى إنساني، أو احتياج إنساني؟ هل هي كرامة، أو كبرياء إنسانية، أو تفوق أو ذكاء إنساني أو أعظم الأمجاد الإنسانية؟

هل الضلال شفاء من رؤية الدمامات والتفاهات والآلام والأحزان؟ هل هو شفاء من معاناة كل ذلك، ومن الاتهام به ومن الالتزام أو الإلزام بمقاومته والانتصار عليه أو حتى الانتصار عليه؟ ما القصة؟ ما قصة أشواق الإنسان الخالدة إلى الغواية؟ هل يمكن فهم هذا؟ هل يمكن فهم هذه الأشواق؟

إن للأوهام أربع مزايا تتفوق بها على الحقائق.

إحدى هذه المزايا أن الأوهام قد انحدرت إلينا مع التاريخ، مع موكبه الرهيب المهيب. والتاريخ هو تلك القوة الغاشمة الزاحفة بكل أساليب الزحف وبكل طرقه ومن كل آفاقه وبكل لغاته وأسلحته وجيوشه وقادته ودعاته.

إنه تلك القوة التي تزحف بكل شيء على كل شيء بكل شيء وكأنها هي كل شيء، دون أن تجد أية مقاومة، أو أي أسلوب من أساليب الرفض أو المعاداة. إنه لا يوجد من لايزحف عليه التاريخ أو من لا يزحف في التاريخ أو من لا يزحف فيه التاريخ..

إننا نجيء والتاريخ موجود في كل شيء فينا، موجود في عقولنا وفي مشاعرنا، وفي أخلاقنا، وفي

همومنا، وفي لغاتنا وأزيائنا وتعاليمنا، وفي أربابنا ومعلمينا وأنبيائنا، وفي أدياننا ومذاهبنا، بل وفي أجسامنا وبيوتنا، وفي كل أخلاق وأساليب حياتنا. بل نجيء وهو كل ما نعلم ونملك ونواجه ونرى. إنه لا يوجد فينا أو في الحياة موجود شامل في وجوده وطاغ في وجوده مثل التاريخ أو أكثر من التاريخ..

إننا نجيء وقد صاغنا وحده، وأخرجنا وحده، وعلمنا وحده، ونحن امتلاكه وحده. إننا نجيء ونحن لا نملك سواه، ولا يملكنا سواه.

إننا إذن نجيء وهو كل القوة وكل الأشياء التي نجدها ونخضع لها.

إذن فالأوهام لا بد أن تكون لها كل قوة التاريخ أو بعض قوة التاريخ الذي هذه قوته. إنها أي الأوهام هي كل البدء وكل الولادة وكل المكان والمواجهات. إنها الأب والأم والأقارب والجيران والمدرسة والمجتمع وإنها الرؤية والسماع والضمير..

إن من مزايا التاريخ أو من أسباب قوته أنه استمرار في الوجود. والاستمرار قوة من قوى الكون والأشياء، ومن قوى الحياة والأحياء. ولكن التغير والمفارقة وإرادتهما والاحتياج إليهما قوة وقانون أيضاً في جميع الأشياء والكائنات. إن جميع الكائنات وجميع الأشياء محكومة بالنقيضين الخالدين: بقانون التغير والمفارقة وبإرادتهما والاحتياج إليهما وبقوتهما، وبقانون الاستمرار وبإرادته وقوته.

أما المزية الثانية للأوهام فهي أنها تعطي المؤمنين بها عطاءً سخياً جداً، عطاءً لا يقيده أو يضبطه شيء. لا تقيده ولا تضبطه الظروف، ولا احتمالات القدرة والعجز، ولا الاشتراطات العقلية أو الأخلاقية، ولا الصدق، ولا خوف الافتضاح أو التجربة. بل تعطيهم وكأنها تبحث عن الافتضاح والعار. إنها تعطي بلا قانون وبلا شروط وبلا ثمن بل وبلا انتظار أو توقع أو مطالبة...

إن الأوهام تعطي ذلك وعوداً شعرية خلابة مؤكدة موقعة بكل توقيعات الآلهة ـ وعوداً فيها كل مبالغات الخيال والتمني وكل أشواطهما، دون أي قيد أو شرط من قيود أو شروط المنطق أو الواقع. وهل يوجد من لا يريد أو من لا ينتظر أن يعطي وأن لا يأخذ بلا أي قيود أو شروط من الواقع أو المنطق أو من لا يسحره تأميل ذلك؟

هل يوجد أروع أو أقوى سحراً وإقناعاً من العطاء بلا أية شروط أو قيود من المنطق أو الواقع؟ هل يوجد أنبل أو أنقى أو أكرم أو أقوى على الاقناع من الوعود المستحيلة السداد؟ هل يوجد أسخف أو أردأ أو أكثر بذاءة وعدواناً وإيذاءً من قيود الواقع والمنطق؟ هل يوجد من لا تشقيه هذه الشروط والقيود؟

إن البشر جميعاً ودائماً محتاجون إلى الوعود التي لا يمكن أن تصدق، والتي لو صدقت لأصبحت شيئاً فظيعاً وكريهاً وبذيئاً. إن الوعود التي لن تصدق والتي لو صدقت لكانت مرفوضة هي أنبل أساليب الاعتذار عن قبح الأشياء وعن قسوتها.

ما أجمل وأروع الوعود التي لو صدقت لكانت عذاباً وعاراً وجنوناً.

ما أفظع أن تكون وعود الأنبياء والقديسين ووعود الآلهة والوعود بالآلهة صادقة.. ما أفظع ذلك.. ما أفظعه. ما أجمل وأنبل وأرحم وأذكى أن تظل هذه الوعود وعوداً فقط. ما أجمل وأرحم أن تظل الآلهة ووعودها وعوداً فقط.

أما المزية الثالثة للأوهام فهي أنها مريحة. إنها تريح المؤمنين بها من المعاناة، من معاناة التفكير والشك والاحتمالات التي تفترضها وتفرضها الحقائق الكئيبة. إن كل عذاب الإنسان وأهواله من الحقائق. إن الأوهام لا تستطيع أن تصنع له أي عذاب.

إن الأوهام تحل للمؤمنين بها جميعاً المشاكل وأعصى المشاكل الكونية والإنسانية وكل شيء حلاً سهلاً نهائياً أبدياً. إنها كل الدواء والأطباء، وكل التفاسير والمفسرين. إنها كل العبقرية، وكل القدرة، وكل الإخلاص والحب والرحمة والفداء.

إنه ليس كالأوهام في السخاء والعزاء والذكاء أيضاً. إنه ليس كالأوهام في إعطائها التفاسير والحلول والأدوية والعلاج والشفاء لكل شيء صعب ومستحيل وغير مفهوم بل وغير موجود. إنها تداوي من آلام وأهوال وهموم الحقائق. وإنها تفعل كل ذلك، دون أن تصنع هي أي ألم أو أي خوف حقيقي. وهل تصنع الأوهام أشياء حقيقية؟

إن الحلول والتفاسير الخاطئة هي أقوى اعتذار عما في الأشياء من ذنوب وبلادات وآلام وتفاهة وعبث ووحشية.

إن جميع الأوهام ليست سوى محاولات للاعتذار عن وقاحات الحقائق وقبحها.

إن الإنسان ليتحول إلى اعتذار وصفح عن الآلهة والطبيعة بل وعن البشر حينما يذهب يفسر الأشياء غير المفهومة تفاسير مفهومة، ويفسر الأشياء الدميمة تفاسير جميلة، ويفسر العبث كأنه كل الجد، ويفسر الكذب كأنه أصدق الصدق، ويفسر الجنون كأنه أعلى مستويات العقل والعبقرية، ويفسر الذباب، واقعاً على أخلاق النبي وعلى جبينه، وكأنه يد الإله تصافح كرامة الإنسان وكبرياءه.

إن الإنسان ليبالغ في محاباته لنفسه حينما يذهب يفسر هذه التفاسير. إن جميع الأوهام ليست سوى تفاسير جميلة لمواجهات قبيحة وأليمة، أو ليست إلا محاولات لذلك.

إن الأوهام نبيلة ورحيمة ومهذبة. إنها لا ترهق ولا تقسو ولا تضطر إلى الاقتحام ثم الضياع في متاهات ومجاهل الأسباب والتعقيدات المتداخلة وغير المتناهية. إنها أي الأوهام لا توقع المؤمنين بها في المتاعب والمشقات التي لا تنتهي، متاعب ومشقات الفهم والتفاسير لقوانين هذا الكون وحماقاته التي تنطلق عنها جميع الاحتمالات والأحداث الطبيعية المتزاحمة المتناقضة المتصادمة المتوحشة المتجمعة في ضمير وفي قلب هذا الوجود الغليظ القلب والضمير والأخلاق.

إن كل شيء محلول ومفسر ومفهوم شمولاً وتأييداً بفكرة بسيطة وسهلة وملائمة ومهذبة في منطقها وتوقعها ونتائجها وفي أخلاقها.

إن كل شيء سهل وطيب ومعقول ونبيل وخير، يحكمه ويدبره منطق وقوة خيران ومعقولان ورحيمان وصديقان وذكيان ومحبان.

هكذا ترى وتعلم الأوهام. إذن ما أجدرها بأن تتفوق وتنتصر على كل خصم ونقيض وعدو.. وإذن ما أصغر وأتفه وأردأ الحقائق، وأغباها وأظلمها حينما تحاول أن تقاوم أو تنافس الأوهام. أليست هذه المنافسة عدواناً على الإنسان؟ ولكن أليست الأوهام أحياناً هي التفسير بالأصعب أو الأقبح أو الأردأ؟ إذن ألا يجب الحذر هنا؟ ألا يجب الاحتياط في إطلاق الحكم في هذه القضية؟

وأما المزية الرابعة والكبرى للأوهام فهي أن الاوهام ليست إلا تعبيراً عن أمانينا واحتياجاتنا وقدراتنا ومخاوفنا، وعما يلائمنا، وعما نريد ونحب أن يكون وأن نكون. أما الحقائق فإنها ليست إلا تعبيراً أليماً عنيفاً بذيئاً عدوانياً عن الواقع الأليم العنيف البذيء العدواني، الخارج بكل قسوة ووقاحة وبلا أية مجاملة على احتياجاتنا وقدراتنا وآمالنا، أي الخارج علينا بكل مقاييسنا ونماذجنا وحدودنا.

الأوهام تعبير عنا، أما الحقائق فإنها تعبير عن الطبيعة. والطبيعة غالباً أو دائماً خصم لنا ونقيض. إنها لن تكون صديقة أو ملائمة لنا كما نريد ونحتاج ونتمنى. إننا دائماً نحاول أن نصوغ الطبيعة لكي تجيء ملائمة لنا أو أقرب إلى التلاؤم كذلك نذهب نتمناها ونفسرها ونتخيلها بالصيغة الملائمة لنا. وهذا هو معنى الأوهام أو الحافز عليها..

إننا لن نصنع أي وهم أو نؤمن به ما لم يكن ملائماً لنا أو أمنية من أمانينا أو مأخوذاً من أنفسنا واحتياجاتنا على نحو ما. إن أوهامنا لا تكون خروجاً شاملاً علينا. إنها بحث دائم عنا. إنها محاولة انقاذ لنا. إنها هي نحن جاءت بصيغة أخرى.

أما الحقائق أي الطبيعة فليست كذلك، ليست لها هذه المزايا. إن وجود الصرصار أو الذباب في بيوتنا خروج شامل وحاد علينا دون أية ملاءمة لنا. ولكن الاعتقاد بأن الذباب أو الصرصار ليس إلا أسلوباً من أساليب الرحمة والحب لنا والبر بنا، يكابد الإله المحب البر الرحيم كل ألوان العذاب والإرهاق الفكري والنفسي والأخلاقي والعضلي لكي يخلقه أي يخلق الذباب أو الصرصار، ولكي يصوغه لنا.

نعم، ولكن هذا الاعتقاد بالذباب أو الصرصار ملائم ومريح لنا.

إن هذا الاعتقاد ينقذنا من معاناة الرفض والغضب والاشمئزاز والاحتجاج والمقاومة أحياناً.

إذن فالذباب والصرصار بلا وهم خروج علينا ومناقضة لنا. ولكنهما أي الذباب والصرصار في الوهم ملائمان ومحابيان لنا. إنهما تكريم وتمجيد لنا.

إن الوهم يقنعنا بأن الذباب والصرصار ليسا إلا أسلوبين من أساليب تكريم وتمجيد وتدليل الإله لنا.

إذن فنحن حينما نستجيب للأوهام أكثر وأصدق من استجابتنا للحقائق فالتفسير لذلك إننا

نستجيب لأنفسنا أكثر وأصدق من استجابتنا للطبيعة ـ أي نستجيب لأصدقائنا أكثر وأصدق من استجابتنا لأعدائنا ـ أي نستجيب لما يلائمنا أكثر وأصدق مما نستجيب لما يناقضنا.

الأوهام هي نحن، أي هي شهواتنا. ولكن الحقائق هي الطبيعة. ومحتوم أن نتلاءم مع أنفسنا وشهواتنا وأن ننحاز لها أكثر من تلاؤمنا مع الطبيعة ومن انحيازنا إليها. إن الأوهام هي الاحتجاج العالمي والتاريخي على عجز الحقائق عن أن تكون ذكية أو صديقة أو رحيمة أو ملائمة أو معقولة أو سارة. إنها ليست موهبة عقل أو أخطاء عقل ولكنها أماني حياة ورفض حياة.

ولكن هل توجد أوهام وحقائق؟ ما الفرق بين هذه وهذه؟ أليست الحقائق هي الأوهام الموجودة أو التي وجدت؟ أليست الحقائق هي الأوهام الصادقة؟ أما الأوهام فإنها هي الأوهام غير الموجودة، هي الأوهام التي لم توجد ولم تصدق. إنها الأوهام التي لم تتحول إلى عدوان وإلى تشوهات وآلام وهموم، لأنها لم تتحول إلى وجود، أي إلى وهم موجود. وكل آلام البشر ومشاكلهم وهمومهم وفضائحهم ودمامتهم في الأوهام التي وجدت أي في الحقائق. وقد ذكر هذا في السطور السابقة. إن كل ألم ودمامة وفضيحة وبلادة وتفاهة وهزيمة لن تكون إلا حقيقة، أي لن تكون إلا وجوداً لا وهماً. نعم، فالوهم لا يكون شيئاً من ذلك.

أليست الحشرة أو الإنسان أو الشمس هي الوهم الموجود؟ لأن وجود ذلك، ووجود أي شيء وكل شيء وهم. لأنه لا منطق ولا هدف ولا تفسير ولا وظيفة له أو لوجوده. إذن فهو ليس إلا وهماً قد وجد.

إذن فإن كل ما وجد أو كل موجود ووجود ليس إلا وهماً موجوداً، ليس إلا وهماً حقيقياً أو وهماً صادقاً. نعم، إنه الوهم الصادق.

إن الحقيقة هي الوهم الحقيقي. إنها الوهم الصادق. إن الحقيقة أو الواقع أو الموجود أو الوجود هو الوهم الذي له شبح أو له ذات.

أما الأشياء التي لم توجد بينما نتحدث عنها ونؤمن بها كالأشياء الموجودة فهي الأوهام التي لم توجد. إنها الأوهام الطيبة التي لا تعتدي ولا تؤلم ولا تذل أو ترهق أو تتعب أو تؤذي أو تهزم أو تفضح كما تصنع الأوهام الموجودة، أي كما تصنع الحقائق. إن الفرق بين الحقائق والأوهام أن الحقائق أوهام قد أصبحت لها أشباح أو ذوات، بينما الأوهام ظلت أوهاماً فقط بلا أشباح ولا ذوات، أي بلا وجود.

إذن لا توجد حقائق وأوهام، وإنما توجد أوهام فقط: أوهام موجودة، وأوهام ليست موجودة. فالحقائق هي الأوهام الموجودة، أما الأوهام فهي الأوهام غير الموجودة أي الحقائق هي العبث والقبح اللذان قد وجدا. أما الأوهام فهي الجمال الذي لم يوجد، أو الدمامة التي لم توجد، أو العبث أو الغباء الذي لم يوجد. الحقائق هي العدوان الذي قد وجد. أما الأوهام فإنها العدوان الذي لم يوجد. الأوهام هي التحدث عن الألم والورطة، أما الحقائق فإنها هي المواجهة والمقاساة للألم والورطة.

ومع هذا فلا بد من الالتزام بالافتراض القديم المعروف الذي يفترض أنه توجد حقائق وأوهام، ويفترض أن بين هذه وهذه فرقاً هائلة.

بهذه المزايا الأربع ظلت الخرافات الكبرى أقوى وأروع من الحقائق، أو ظلت بعض الخرافات أقوى وأقدر على الاقناع بنفسها من بعض الحقائق أو من كل الحقائق. إن الخرافات أو الأوهام لم تذهب تقاسي وتناضل بحثاً عن البشر أو عمن يؤمنون بها. إنها لم تهاجم أو تغز أو تطارد. لقد كانت مهذبة ومتوارية وهاربة.

ولكن البشر هم الذين جنوا بحثاً عنها وعدواناً عليها حتى لقد صنعوا أنبياء وزعماء كل عبقريتهم ونضالهم الدعوة إليها والامتداح لها. ولكن كيف، أو لماذا توجد أو وجدت الخرافة في بدء وجودها وهي ليس لها وجود من ذاتها أو في ذاتها؟

كيف اخترع الناس الخرافة، وكيف اهتدوا إلى الإيمان بها وهي لا وجود لها؟ أليس اختراع الخرافة والإيمان بها موهبة أصعب من موهبة الإيمان بالحقيقة لأنه وصول إلى الأصعب؟ أليست رؤية غير الموجود والاقتناع بوجوده أصعب وأكثر عبقرية وتحويماً وتطلعاً نفسياً من رؤية الموجود ومن الاقتناع بوجوده؟ أليست رؤية جمال ما ليس موجوداً أو الاحساس به وبقيمته أعظم مستويات وفنون الرؤية، وأعلى مستويات الإحساس وفنونه؟

... أليست رؤية غير الموجود أبعد تحليقات الاختراق والاكتشاف والتجاوز؟ أليست تحليقاً فوق الموجود والجائز. والمحتمل؟ أليس هذا التحليق هو أعلى مستويات التحليق؟

وقد ينبغي أن يكون الجواب على هذه التساؤلات أن الإيمان بالخرافة ليس هو أن تفعل أو تفهم شيئاً أو أن تتحول إلى شيء ـ بل هو ألا تكون شيئاً وألا تحاول شيئاً ـ هو أن تظل كما جئت وكما وجدت. أما رفض الإيمان بالخرافة فإنه مستوى من مستويات الخروج والتجاوز لنفسك، أو لصيغة مجيئك ووجودك الأول.

إن الإيمان بالخرافة لا يعني أن تدرك ولكن يعني عجزك عن الإدراك، لأن الخرافة هي الأول، هي الوجود الأول.

إن الخرافة هي الإنسان في صيغه وقراءاته الأولى.

ولما كان تفسير الكون والحياة تفسيراً علمياً أو تفسيراً صحيحاً من الأمور الصعبة التي لا يمكن بلوغها إلا بعد مستويات عالية وبعيدة من التقدم الإنساني، صار من المستحيل أن يستطاع تفسيرهما قبل الاشواط الطويلة في طريق المعرفة والتقدم الإنساني الشامل. وحتى بعد هذه الأشواط الطويلة في طريق المعرفة والتقدم الإنساني الشامل ظل تفسيرهما أن الكون والحياة تفسيراً علمياً أو صحيحاً مطلباً صعباً.

إن معنى هذا أنه من المفروض أو المحتوم أن تكون الأوهام هي معارف وحقائق الإنسان الأولى بلا

معاناة أو تلقين أو تعليم. كما أنه محتوم أن تكون البداوة هي حضارة الإنسان الأولى. إن الحصول على البداوة ليس معاناة في التعليم أو في أي شيء، وهكذا كون الاوهام هي معارف الإنسان وحقائقه الأولى دون معاناة من أي نوع.

إن الإنسان إذا لم يعرف فهو يجهل. وهو في البداية لا يمكن أن يعرف. إذن حتماً هو في البداية يجهل، أي حتماً هو في البداية يؤمن بالخرافة.

إن الإيمان بالخرافة هو أكبر المعنيين للجهل، إذ لا توجد منطقة عازلة في التقدير بين معنى «يجهل الحقيقة» ومعنى «يؤمن بالخرافة».

ولكن ألا يوجد ولو أحياناً من يجهل الحقيقة ومع هذا يرفض الإيمان بالخرافة؟

إن الخرافة استمرار وليست نشوءاً ولا ابتداء. إن الخرافة مهما أصبحت تعليماً فإنها في بدايتها ليست تعليماً. إننا نعلم الخرافة التي وجدت، ولكن كيف وجدت؟ لقد وجدت بالاستمرار أي بالعجز عن التفوق عليها وعن تخطيها.

لقد وجدت الخرافة بالأسلوب الذي وجد به الجهل بالقراءة والكتابة، وبالأسلوب الذي وجدت به الصحراء.

* *

ولكن كيف يصدق الزعم بأن الاوهام أقوى من الحقائق؟ كيف يكون صدقاً أن الخطأ أقوى من الصواب، أو أن توهم الشبع أو الصحة أو القوة أو الذكاء أقوى من الشبع ومن الصحة ومن القوة ومن الذكاء؟

ألسنا نجد ونعلم ونرى دائماً أن الحقائق تقتحم على الأوهام حدودها وحصونها ودروبها فتهزمها وتحتل مواقعها وتصبح أي الحقائق هي القائدة للحياة وللناس ولكل شيء.

إنه لو كانت الأوهام هي الأقوى لما ظلت الحياة والأشياء تتحرك دائماً أو غالباً إلى الأفضل أو الأذكى أو الأصدق أو الأقوى، ولما استطاع الناس حينئذٍ أن ينتقلوا إلى أية حقيقة أو يغادروا أية خرافة.

إن أية خرافة لم تهزم وتسقط نبلاً أو تفضلاً منها، بل لأن الحقيقة التي هاجمتها أقوى منها.

كيف؟ ألم تر؟ ما أكثر مصارع الأوهام واندحاراتها. إن الحياة والتاريخ ليسا إلا طرقاً طويلة مملوءة بأشلاء الأوهام التي عبرت فوقها أكبر وأكثر الحقائق، دافعة بالإنسان إلى هذه الحضارة وإلى حضارات أخرى مقبلة هي أكبر وأعظم روعة..

ألم يكن الإنسان في كل تاريخه جلاداً عظيماً للأوهام؟ أليس الإنسان هو وحده الزنديق في هذا العالم لمقاومته الاوهام؟

نعم، إن كل هذا صحيح. ولكن الذي انتصر وينتصر ليس هو منطق الفهم للحقيقة أو الإيمان بها.

إنه ليس الذي انتصر أو ينتصر هو الحقيقة أو ذكاء الحقيقة أو قوة الحقيقة. بل الذي انتصر وينتصر هو منطق الحركة والتغير وضرورتهما. إن الناس بمنطق الإيمان بالخرافة يبلغون أعلى وأقصى مستويات الحضارة والتقدم. إن الحضارة والتقدم لا يصنعان أو يبلغان بمنطق الحقيقة أو باحترام الحقيقة أو بقوة الحقيقة. إن الحضارة والتقدم كينونة وليسا حقيقة أو احتراماً لها أي للحقيقة وإيماناً بها. إنهما ليسا حقيقة بقدر ما هما ليسا مذهباً أو ديناً أو زعيماً أو نبياً.

إن كل شيء في الكون والحياة يعمل ويتحرك ويؤدي ذاته وسلوكه ويمارسهما دون أي معرفة بالحقيقة أو احترام لها أو إيمان بها.

إن الذين يملكون الحقيقة ويموتون في سبيل امتلاكها لا يفعلون ذلك لأنهم يحترمون الحقيقة بل لأنهم لا بد أن يتحركوا.

حتى أعضاء الإنسان، حتى قلبه وكبده ورئتاه وكل غدده وكل شيء فيه يعمل دون أن يفعل شيئاً أو يحترم شيئاً أو يريد شيئاً، بل ودون أن يستطيع الرفض للعمل.

حتى الجنود الأذكياء والمتعلمون والمثقفون جداً.. حتى هؤلاء الجنود، يموتون في الحروب دون أن يعرفوا أو يريدوا أن يعرفوا لماذا يفعلون، أي لماذا يتقبلون أن يموتوا أو يفعلوا الموت لأنفسهم وللآخرين، ودون أن يحترموا أية حقيقة أو يبحثوا عن أية حقيقة. إنهم يموتون كما يموت الذباب في معاركه وخطواته. إن أي جندي يموت في أية معركة لا يعرف الحقيقة أو الوهم فيها أكثر أو أفضل مما تعرف أية حشرة أسباب موتها.

إن الذين يقولون إن الجندي لا يبذل حياته قاتلاً ومقتولاً إلا بقدر ما يعرف الحقيقة أو يحترمها أو يريدها، وبقدر ما يعرف عماذا يدافع وماذا يريد ـ نعم، إن الذين يقولون مثل هذا إنما يقولون أصغر وأسخف الأوهام.

إن هذا القول يساوي القول بأن الوحش أو الذباب لا يموت في معاركه إلا بقدر ما يعرف الحقيقة ويحترمها.

إنه قد يكون أجهل الناس بما يريدون أو بما يراد منهم هم أكثر الناس بذلاً لأرواحهم ولحماقاتهم. إن الموت والتقبل له، أي الاستسلام له ليسا مستوى ذكاء أو معرفة أو مستوى أخلاق، كما أن الحياة والتقبل أي الاستسلام لها ليسا كذلك.

وهكذا الإنسان. إنه يعمل الحياة والحضارات وينتقل من طور إلى آخر، دون أن يبلغ طور الإيمان بالحقيقة، أو طور الاحترام لها ومعرفتها أو إرادتها.

إن بلوغ هذا الطور ليس شرطاً في أي شيء. إنه ليس شرطاً في كينونة الإنسان ولا في كينونة أية حشرة.

حتى أعظم عبقري. إنه يصنع عبقريته دون أن يعرف الحقيقة أو يريدها أو يحترمها. إن العبقري

يصنع عبقريته ويهبها بالحوافز والضرورات التي يصنع ويهب بها التافه تفاهته. إنه يصنع عبقريته بالمنطق الذي تؤدي به أعضاؤه وظائفها وحماقاتها. إن العبقري لا يكون عبقرياً لأنه يعرف الحقيقة أو يريدها أو يحترمها إلا بقدر ما يكون النهر كبيراً أو النجم لامعاً أو الوجه جميلاً لأنه يعرف الحقيقة ويريدها ويعشقها.

إن أعلى وأكثر المجتمعات تقدماً ليست أكثرها إيماناً بالحقائق أو فهماً أو احتراماً أو إرادة لها.

إن التقدم والتخلف ليسا نبوة ولا خروجاً على النبوة، وليسا صلاة أو رفضاً للصلاة.

إن المتقدمين جداً ليسوا أكثر رفضاً للأوهام من المتخلفين، كما أن المتخلفين جداً ليسوا أكثر رفضاً للحقائق من المتقدمين. إن أكثر الأشجار والحقول ثماراً وخصوبة ليست أكثر الأشجار والحقول رفضاً للأوهام وتقبلاً للحقائق أو معرفة بهذه وهذه.

هل يمكن أن يعرف الإنسان الحقيقة، أو يريد معرفتها أو تسعده معرفتها؟ هل يجهلها بحثاً عن الراحة أم عجزاً عن معرفتها أي عن معرفة الحقيقة؟

قال سؤال سابق: ما الخرافة وما الحقيقة.

نموذج الخرافة أن الحشرة والإنسان قد خلقا بتدبير ومنطق ليصنعا الحياة وليتناسلا، ويؤديا أهدافاً مقصودة ومرادة ومعلومة للآلهة أو للحياة أو للوجود. أما النموذج للحقيقة فهو أنهما أي الحشرة والإنسان قد وجدا ولم يخلقا أو يدبرا أو يرادا أو يرد منهما أو بهما أي شيء. لقد أصبح حتماً عليهما بلا أية مصلحة أو منطق لهما أو لأحد غيرهما أن يخوضا أوحال الحياة وذنوبها وتفاهاتها، ويعيشاها بالضرورة والألم والعبودية ضد مصلحتهما. إن كل الأشياء الموجودة هي أشياء قد وجدت ولكنها لم تخلق. إن في الخلق معنى أكثر أو أكبر من معنى الوجود، أي أكثر وأكبر من أين يكون الشيء موجوداً فقط.

نموذج الحقيقة أن وجودهما يساوي منطقياً فناءهما. أما نموذج الخرافة فالاعتقاد بأن في وجودهما معنى فكرياً وأخلاقياً أسمى من فنائهما أي الإنسان والحشرة.

نحن نحيا لأن للحياة معنى. هذا نموذج الخرافة. نحن نحيا لأننا نحيا. هذا نموذج الحقيقة. تفسير الحياة أو الإنسان أو أي شيء بنفسه لا لأي منطق آخر حقيقة. أما الخرافة فإنها تفسير الأشياء بغير نفسها، بأي منطق ذاتي أو خارجي.

نموذج الخرافة أن الثوار يثورون لأنهم يعطفون على الضعفاء والمقهورين. ولأنهم أيضاً يموتون كرهاً ورفضاً للطغيان والفساد والظلم والتخلف والبلادة.

أما نموذج الحقيقة فالثوار يثورون لأنهم يحقدون أو يطمحون أو ينافسون أو يقلدون، أو لأنهم متوترون أو غاضبون أو هاربون أو معلنون، أو لأنهم محكومون بأخلاق الافتراس وبمواهب الذئاب.

إنهم يثورون بالتقوى وبالحب اللذين يقتلون بهما الثوار الذين يثورون عليهم مهما كانوا أصدق وأشمل وأعظم منهم ثورية وإيماناً.

* *

الاعتقاد وكذا ممارسة الفضيلة ضرب من الهرب ومن البحث عن الاصطدام بالكون وبالآخرين وبالذات، ومن الاتقاء لهذا الاصطدام. إنهما أي الاعتقاد والفضيلة ليسا طاقة من طاقات الروح أو الذهن أو التقوى أو الحب.

إن الفضيلة أو ممارستها هي مقدار عجزنا عن فعل الرذيلة. أي أن الفضيلة هي الرذيلة في حالة عجزها وهزيمتها وهوانها وعذابها. إنها ليست غيرها ولا نقيضها.

إن العقيدة نوع من الراحة أو الرهبة. إنها نوع من رهبة الوصول إلى منابع النهر البعيدة الموحشة، ومن رهبة الصعود إلى قمة الجبل المخيفة.

إن العقيدة أو الإيمان أسلوب من أساليب رهبة التحديق بكل البصر إلى كل المنظر أو كل الخطر أو إلى كل الحقيقة. إن الخطر والخوف قد يكونان في الرؤية، وإن الهرب قد يكون من الرؤية. إن كل العيون والعقول والأعصاب تهرب من الرؤية، من كل الرؤية أو من بعضها أو من شمولها أو من صدقها أو من ذكائها..

إن هذا هو أحد أسباب قوة الاقتناع بالأوهام وبالعقائد وبالتعاليم السهلة المحرمة للرؤية.

إن الأوهام والعقائد والتعاليم تحمي من الرؤية. إنها ترفضها وتنكرها وتحرمها وتحاول أن تغني عنها. إن الرؤية لا بد أن تكون مقلقة ومخيفة ومتعبة ومشوهة مهما كانت قوة الصورة أو جمالها أو استواؤها.

إن كل الأشياء لتشوهها الرؤية.. لترهبها وتهزمها وتذلها.. لتذل كبرياءها وإعجابها بنفسها.

إن التعاليم والأوهام والعقائد ـ مهما كان نوعها أو ربها أو نبيها أو معلمها ـ تحمي من التحديق بكل العقل، إلى كل المشكلة، بكل تفاسيرها ومنطقها، وبكل قسوتها وبذاءتها، وبكل دمامتها وصعوبتها، وبكل ما فيها من بلادات وذنوب وتفاهات وعبث واحتمالات تتفجر عذاباً وارهاباً ولؤماً.

هل يستطيع أحد أن يحدق بكل نفسه إلى كل تفاسير المشكلة وإلى كل وجوهها؟

هل يستطيع أحد أن يحدق في عيون الآلهة أو في أخلاق الأشياء أو في وجوهها؟ لقد كان الهرب من التحديق دائماً وفي كل التاريخ مزكياً للآلهة وللنبوات وللزعامات وللتعاليم والأكاذيب ولكل ألوان الاوهام، وحامياً لها من الافتضاح والموت والانهزام، ومبشراً بمزاياها، وساتراً لكل ذنوبها وعاهاتها.

إن التحديق هو العدو العالمي الخالد لجميع الأنبياء والمعلمين ولجميع المذاهب والأديان ولجميع الناس والأشياء.

لقد كان الهرب من الارهاق والمعاناة ومن التحديق في وجوه الأشياء وأخلاقها وفي تفاسيرها هو دائماً المزية التي كانت تهب القدرة على الإيمان بالدمامات والتفاهات، والتي كانت تهب هذا الإيمان القوة والثبات والبقاء والاقتناع والذكاء والحماس والجنون. لقد كان هذا الهرب هو الذي يهب الوجوه والأشياء جمالها ونظافتها وبراءتها وقيمها.

إن محاولة الهرب من التحديق هي التي وهبت جميع الأنبياء والمعلمين معجزاتهم الخارقة المذهلة، كما وهبتهم قدرتهم على الإقناع والخلود والانتصار.

إن التقي المتعبد، والمؤمن بعقيدة أو بمذهب ليسا إلا هاربين من تكاليف هذا الارهاق والمعاناة والرؤية المخيفة للأشياء. إنهما أي التقي المتعبد والمؤمن بالعقيدة أو بالمذهب ليسا خيراً من الرافض والفاجر إلا بمقدار ما يكون الخائف أو الهارب خيراً من المواجه والمقاوم ـ أو إلا بمقدار ما يكون الجاهل والجبان والذي لا يعمل شيئاً أفضل من العالم والشجاع ومن الذي يعمل كثيراً ـ أو إلا بمقدار ما يكون الجالس والمقعد والعاجز عن الحركة والخائف من الحركة أفضل من السائر المسرع ومن الصاعد ـ أو إلا بمقدار ما يكون الفاقد للبصر أو الرافض لممارسة الإبصار أفضل من المبصر ومن الممارس لإبصاره. إن كل إنسان لا بد أن يكون ولو أحياناً عاجزاً أن يبصر، ورافضاً أن يبصر وخائفاً أن يبصر. إنه لا يوجد من يستطيع أو يريد أن يبصر دائماً.

إن اختيار أحد الأسلوبين ليس إلا كاختيار إنسان أن يرفض ويقاوم ويفهم ويواجه ويرى ويتعب، واختيار إنسان آخر أن يسلم ويضعف ويهرب ويعمى ويجبن ويستريح. إن تفضيل الإيمان على الجمود أو على الشك ليس إلا تفضيلاً للعمى على البصر، وللعجز عن الرؤية وللكف عنها على القدرة عليها وعلى ممارستها. إنه تفضيل للهرب على المقاومة، وللضعف على القوة، وللخوف والهزيمة على الانتصار والشجاعة.

إن المؤمن ليس إلا إنساناً أرهبه أن يرى أو عجز أن يرى أو اختار ألا يرى أو علم أن يرى، إن الذي يعلّم الرؤية لن يرى. إن الرؤية ليست تعليماً. إن تعليم الرؤية مقاومة للرؤية. إن القائد أو المعلم أو النبي الذي يقول لنا: انظروا، إنما يعني أن يحرّم علينا الرؤية ويفرض علينا الإيمان..

إن الحماس للاعتقاد أو للفضيلة قد يكون أسلوباً من أساليب الغضب أو الإعراض أو التظاهر بالإعراض عن شيء أردناه ولم نستطعه أو نظفر به، أو خفنا منه ومن مواجهته، أو بدا لنا شيئاً صعباً أو رهيب الاحتمالات، فرأينا ـ وكأننا نعاقب ونثأر لأنفسنا ـ أن نتحول إلى شيء آخر مضاد، نلجأ إليه لا اقتناعاً بالحاجة إليه، ولا اشتهاء له، ولا إيماناً به، ولا بحثاً عن القوة أو عن المجد. ولكننا نحاول بذلك أن نغطي موقفنا ونياتنا ومشاعرنا نحو الشيء الآخر الذي شعرنا بالاحتياج إليه، والذي أردناه وتمنيناه بكل شهواتنا وأنانياتنا، غير أننا لم نستطعه، أو لم نجرؤ عليه، أو لم نحاول دفع ثمنه، فهزمنا دونه. والمهزوم قد يحاول أن يفعل شيئاً ولو هزيمة أخرى أو شيئاً هو أردأ من الهزيمة. إن أخلاق الأشياء وصورها وتفاسيرها لتصبيها الهزيمة في حسابات المهزوم وفي مواقفه منها وعلاقاته بها.

أجل، إن الحماس الديني والمذهبي والأخلاقي كثيراً ما يعني الهجوم الحانق المغيظ المتخفي على قوم تفوقوا علينا في شيء نهواه ونتمناه ونتمنى التفوق فيه، ولكننا لم نستطع، وحينئذٍ لم نستطع أن نكون نبلاء ولا أذكياء في مواجهتنا، لأنفسنا ولمن تفوقوا علينا. لقد ذهبنا نحاول أن نهاجم تفوقهم، أو نشتمه، أو نضعفه، أو ننكره، أو نتكبر عليه بتفاهة وضآلة.

وأيضاً لقد ذهبنا نحاول أن نقنع أنفسنا ونقنع الآخرين بهذا الأسلوب الصغير بأننا لسنا دون من تفوقوا علينا، وأننا لم نهزم أو نجبن أو نعجز أو نجهل أو نقصر أو نكسل، وإنما تورعنا وتدينا وشمخنا. لقد كنا نتسامى فقط.

إننا نستطيع أن نتفوق على أولئك الذين تفوقوا علينا، أو بدوا وكأنهم قد تفوقوا علينا. إننا نستطيع التفـوق عليهـم فـي سياق آخر هو أكبر وأصعب، وفي قضايا أخرى هي أفضل وأنبل وأتقى وأشرف.

إننا لم نعجز فقط بل وصغرنا فكرياً ونفسياً وأخلاقياً. وإنها لموهبة خارقة أن تعجز ثم لا تصغر.

إن إنساناً ما قد يذهب يلج لجاجاً عنيداً بعيداً في الدفاع عن الإله أو عن دين أو عن مذهب من المذاهب، أو في التعصب له. وقد يعني هذا أن ذلك الإنسان قد عجز عن النقيض، أو خافه، أو هابه، أو لم يعرف كيف يتعامل معه وكيف يواجهه، وكيف يكون من جنوده، أو استعظم دفع الثمن.

لقد ذهب يشتم ذلك النقيض، ويشتم أهله وأتباعه، ويحقره ويحقرهم بالتعصب لذلك الإله أو الدين أو المذهب، وبالإيمان به وبالدفاع عنه. لقد آمن بالإله أو بالنبي أو بالمعلم أو بالمذهب أو بالدين لكي يعتدي. لقد أراد أن يقاتل ويبغض ويشتم ويحقر وينافس، ولم يرد أن يؤمن أو يتدين.

إن الناس ليؤمنون بالآلهة وبالأديان والمذاهب ليشاتموا ويقاتلوا بها أكثر من إيمانهم بها ليحترموها أو ليطيعوها.

لقد أراد بذلك أن يبطل الاحتمال بأنه قد عجز أو هزم أو ضعف أو خاف، أو أخطأ، أو تفوق عليه الآخرون، أو أنه قد اختار الأقل أو الأردأ أو الأذل أو الأبلد. لقد ذهب يغطي ذاته ويزيفها بالآلهة والأنبياء والمعلمين وبالمذاهب والأديان وبكل صغار الأوهام. وهل في البشر من لم يغطوا أنفسهم بذلك أو بشيء منه؟

إنه ليس إلا إنساناً يحقر الآخرين وينافسهم ويحاول إخفاء تفوقهم وانتصارهم، وليس إنساناً يحترم الآلهة أو الأديان أو المذاهب التي يتظاهر بالدفاع عنها وبالتعصب لها وبالإيمان بها بلا تهذيب أو وقار أو نظافة أو نية صالحة. هل حامل السلاح يحمله ليحترمه أم ليستعمله؟ أليس حامل الإله أو النبي أو المعلم أو المذهب أو الدين مثل حامل السلاح في نياته؟

إذن فالفضيلة الروحية، وكذلك أحياناً الحماسة المذهبية ليست دائماً أو غالباً إلا احتجاجاً على العجز عن النقيض، أو تغطية على ذلك العجز، أو مشاتمة يشتم بها العاجزون القادرين، ويشتمون بها

آمالهم وأشواقهم واحتياجاتهم التي عجزوا عن بلوغها، أو أسلوباً من أساليب المنافسة الحزينة التي لا تكافؤ فيها.

إن الناس قد يذهبون يحولون شتم آمالهم أو أشواقهم أو احتياجاتهم التي يعجزون عن تحقيقها إلى مذاهب وأديان وتعاليم. إنهم يحتاجون إلى شتم ما يعجزون عنه، وحينئذٍ يذهبون يحولون شتائمهم إلى أشياء مثالية يتكلمها نبي أو معلم مذهب.

إذن لقد أصبحنا روحانيين جداً، أو بدونا كذلك لأننا ماديون جداً، وأصبحنا مذهبيين جداً لأننا غاضبون أو حاقدون أو مهزومون أو عدوانيون أو حاسدون أو محاربون أو مشاتمون جداً.

وإذن فالروحانية، وأيضاً المذهبية هي الرد الخائب على هزيمتنا في معركة نتمنى الانتصار فيها ونحسد المنتصرين، ونحول حسدنا لهم إلى ثناء على الإله وعلى التعاليم والأديان، أو على أحد المذاهب المقاومة للإله وللأديان والتعاليم.

إن جميع مذاهبنا وعقائدنا ليست إلا ردوداً على انفعالاتنا ومواجهاتنا. إنها ردود بلا جهاز ضبط أو توجيه.

إنها لأخلاق تاريخية وأبدية وعالمية: أن يحوّل البشر تحاسدهم وتنافسهم إلى مبالغات في الثناء على الآلهة والأديان والمذاهب، وإلى تمجيد لأوهامهم البذيئة. إذن كم في الثناء على الآلهة والأديان والأوهام من تمجيد لها واقتناع بها؟ وإذن كم تستطيع الآلهة والأديان والمذاهب أن ترضى عن نفسها أو عن مجدها، أو أن تعجب بدعاتها وأتباعها وبالمقاتلين والمشاتمين في سبيلها؟

لو أننا كنا منتصرين دائماً في جميع ما نريد ونتمنى من آثام وشهوات وطموح هل يكون حينئذٍ محتوماً أو محتملاً أن نصبح روحانيين أو مذهبيين، وأن تظل دائماً تتفجر في أنفسنا وأمانينا جراح وكهوف وسراديب روحانية ومذهبية لكي نظل نتسرب وننصب منها إلى قاع الهزائم والأوهام كلما عجزنا عن النصر الذي نجد فيه طموحنا وشهواتنا ومسراتنا ورضانا عن أنفسنا وعن مواهبنا؟

أليست الروحانية والمذهبية هما أحد أساليبنا الخالدة في التعبير عن هزائمنا وجراحنا وغيظنا وحقدنا العاجز الذليل؟ أليست الروحانية والمذهبية هما اللغتين العالميتين اللتين يتحدث بهما كل العالم عن هزائمه وجراحه وعن غيظه وأحقاده الضالة الضائعة؟

ما أبشع الهزائم وأبشع ما تفعل بنا؟ إنها أبشع تشويه لكل معاني الإنسان وأخلاقه وتعبيراته ومنطقه فينا.

إن الهزائم لتعاقبنا بجميع الانحرافات الفكرية والنفسية والسلوكية والشعورية والاعتقادية والمذهبية أيضاً. إن الهزيمة لا تهبنا الهوان والعذاب فقط بل والإيمان بالأوهام، إنها تهبنا الآلهة والأنبياء والزعماء والأديان والمذاهب. إن هزائم الإنسان هي أكبر محاب للآلهة والأنبياء والزعماء وللأديان والمذاهب لأنها أي الهزائم هي التي تصنع الإيمان بهم.

إن أكبر ثمن ندفعه للهزيمة أن نصبح أكثر إغراء للإصابة بهزيمة أخرى. إن المهزوم قد يحاول التداوي من هزيمته أو الاحتجاج عليها بأخطاء منطقية وأخلاقية وشعورية تتحول إلى هزائم جديدة هي أكبر وأفظع.

إن الناس يحولون عجزهم الذاتي والإنساني والحضاري إلى عجز فكري وديني وأخلاقي ونفسي، وإلى دعايات وتعاليم روحية ومذهبية، وإلى كل ألوان التعاليم وإلى كل الأوهام الضالة الحمقاء. إن الناس لا يضلون أو يخطئون فيعجزون ولكنهم يعجزون فيضلون ويخطئون. إن الضلال والخطأ ليسا في المنطق بل في القدرة. إنهما ليسا غواية ولكنهما غضب واحتجاج.

إن هذه هي القضية. إن القضية المحاكمة هنا هي أن الهزيمة ليست هزيمة فقط. إنها تشويه شامل للإنسان. إنها إفساد لذكائه ولأخلاقه ولمشاعره، ولقدرته وللغته ولرؤيته للأشياء. إن الهزيمة عدوان شامل على وجود الإنسان.

هل يستطيع المهزوم أمام الطبيعة وأمام الأعداء أن يكون سوياً أو بريئاً من العاهات النفسية أو الأخلاقية أو الدينية أو المذهبية؟ إنك لنموذج من البشر غير معقول لو أنك حولت هزيمتك إلى ذكاء أو إلى نضج نفسي أو سلوكي أو تعبيري. إنك لكائن خارج على جميع التفاسير لو أنك هزمت دون أن تتشوه عقلياً أو أخلاقياً أو نفسياً أو اعتقادياً.

إنه ليس للأوهام والأكاذيب العقلية أنبياء ومعلمون، وللحقائق والصدق أنبياء ومعلمون آخرون. إن أنبياء ومعلمي هذه هم أنبياء ومعلمو هذه.

إن المنطق الذي يخلق أنبياء ومعلمي الحقائق والصدق هو المنطق الذي يخلق أنبياء ومعلمي الأوهام والأكاذيب.

إن المجتمعات ليست مجتمعات حقائق وصدق عقلي، ومجتمعات أوهام وأكاذيب عقلية. إن جميع المجتمعات هي مجتمعات لهذه ولهذه. إن مجتمعات هذه هي مجتمعات هذه.

إن الفرق في القوة والضعف وليس في الحقيقة أو الوهم، ولا في الصدق أو الكذب. إنه كالفرق بين الحيوان القوي أو الشجاع أو المفترس، وبين الحيوان الآخر المناقض في مزاياه أو في رذائله.

وهل الفرق بين الحيوانين فرق بين الحقيقة والوهم، أو بين الصدق العقلي والكذب العقلي، أم هو فرق بين قوتين وذاتين؟

إنه لحق أن الأقوياء هم أكثر إصابة بالأوهام وممارسة لها من الضعفاء، لأنهم أي الأقوياء يفكرون أكثر، ويبدعون أكثر، ويفعلون أكثر، ويحيون أكثر. إنهم إذن يتعاملون مع الأوهام ومع الأكاذيب العقلية أكثر.

حتى الحيوانات والجمادات. إن أقواها وأعظمها هو أكثرها تعاملاً بالأوهام وعطاء للأوهام وعرضاً

لها. إن أكبر الأشياء هي أكبر الأوهام، أي أن أسلوبها في الخروج على المنطق وفي التعامل بالعبث وفي التعبير عن العبث وعن الخروج على المنطق هو أكبر الأساليب.

إن أقوى الكائنات والناس حياة هم أكثرهم مواجهة للأوهام وإيماناً بها وتعاملاً عليها وإبداعاً لها وإعلاناً عنها وشوقاً واحتياجاً إليها.

هل يوجد كالآلهة احتواء للأوهام وعرضاً وإعطاء وإرادة لها ومطالبة بها؟ أليست الشمس أكثر تفسيراً وتخليداً لمعاني الوهم وتعبيراً عنه من أية شمعة؟

وحينئذٍ ستظل عاقلاً مهما أصبحت مجنوناً

«.. إنك إذا كنت مؤمناً بالروحانية أو متحدثاً باسمها فإنك حينئذٍ تستطيع أن تكون مجنوناً وضالاً وغبياً وكذاباً ومنافقاً وكوناً واسعاً ضخماً من الخرافات والجهالات والغباوات والأكاذيب والأباطيل دون أن تكون متهماً بشيء من ذلك بل دون أن تكون شيئاً من ذلك إنك حينئذٍ تستطيع أن تتعرى داخل كل عين وفوق كل منبر وفي كل محراب دون أن يراك أو يصدم بك أحد. إن العالم لم يسمح ولن يسمح لأحد بأن يعيش كل ذنوبه ونقائصه وأكاذيبه وغباواته ومكايده وأن يعلنها ويحارب بها بكل الأساليب وفي كل الجبهات مثلما سمح ويسمح بكل ذلك للمتحدثين عن الروحانية ولمعلميها».

«إنك إذا كنت من المتحدثين عن الروحانية ومن المعلمين لها فإنك حينئذٍ مطلق السخف والغباء والادعاء والأكاذيب والتضليل والعدوان. إنه لا قيود حينئذٍ على خطواتك ولا على نياتك ولا على منطقك ولا على أخلاقك. إنك حينئذٍ عاقل مهما أصبحت مجنوناً، ومجنون مهما كنت عاقلاً، وممارس لكل مستويات وألوان الافتضاح والعار مهما عاديتهما وذممتهما. إنك حينئذٍ لصادق مهما كنت كاذباً وكاذب مهما أردت أن تكون صادقاً. إنك حينئذٍ لتقي مخلص مهما غاصت نياتك ومقاصدك في الأوحال والفجور. إنك حينئذٍ لنبي ومعلم عظيم مهما كنت لصاً ودجالاً غبياً».

«.. إني أنصحك أنصحك جداً.. إذا أردت أن تكون كذاباً ومنافقاً ولصاً مخادعاً وبليداً وممارساً للعار والافتضاح بلا حدود ولا عقاب ولا اشمئزاز بل ومشكوراً فكن معلماً للروحانية أو موظفاً في أجهزتها».

وحدانية الحياة والوجود، وثنائيتهما مذهبان فكريان، أو تاريخان للفكر وللإنسان. إنهما يريان الحياة والأشياء رؤيتين مختلفتين أو رأيين مختلفين، كما يدعوان حضارة البشر إلى اتجاهين ومنطقين مختلفين. وإنهما ليفسران الإنسان تفسيرين متناقضين متخاصمين. كيف يستطيع أن يعايش ذاته أو جسمه من يؤمن بأن في داخله وحشاً أو كائناً آخر غريباً ونقيضاً؟ كيف يطمئن إلى ملابسه من يظن أو يعتقد أن في داخلها كائناً آخر أقوى، أتقى أو أفجر؟

إننا نؤمن بثنائية الأشياء، بثنائية الكون والحياة وبثنائية ذواتنا. إننا لسنا ذواتنا فقط. إن في داخل ذواتنا كائنات أخرى، كائنات تخالفنا بل وتناقضنا في أهوائها وقدراتها ومنطقها وتاريخها وفي كل صفاتها واحتمالاتها وتعبيراتها وشهواتها واحتياجاتها. إننا مسكونون بكائنات غريبة عدوانية مفروضة علينا، أو فارضة وجودها علينا دون أن ندعوها أو نعرفها أو نختارها أو نستأذن فيها أو في كينونتها أو نماذجها.

إننا مساكن أو كهوف أو معتقلات لوحوش لا نعلم عنها شيئاً ولا نعلم أين كانت ولا من أين جاءت ولا لماذا اختارتنا دون غيرنا ودون غيرها.

إن أفكارنا ومشاعرنا وكل قوانا وتعبيراتنا النفسية والأخلاقية والإنسانية والمذهبية والدينية هي غير أجسامنا وغير قواها وصفاتها واحتياجاتها وغير استجاباتها لضروراتها وآلامها وإملاءاتها ومجاعاتها.

إنه ليس بين الساكن والمسكون، أو بين الكهف والوحش، أو بين المعتقل والمحكوم عليه بالاعتقال وحدانية أو حتى تشابه أو تقارب في الذوات أو في الصفات أو في المواهب أو في الوظائف أو في القدرات أو في الأخلاق.

إنه ليس بينهما أي تحالف أو تكافؤ أو تعاون أو مجاملات أو صداقات أو حتى شيء من التعامل بالرحمة أو العدل أو التهذيب. إنه ليس بينهما تفاهم أو سلام أو حتى اشتراك في لغة التخاطب. إنه أحدهما لا يعبر عن الآخر، بل ولا يتأثر به على أي مستوى من مستويات التأثر أو التعبير.

لقد ظللنا دائماً، وإننا لا نزال كذلك نتعامل مع أنفسنا وذواتنا ومع مشاكلنا وآلامنا واحتياجاتنا واهتماماتنا ومع كل الأشياء، ونفهمها ونفسرها بهذا الإيمان بهذه الثنائية ـ أو لقد كان هذا التعامل هو الذي يجب أن يكون.

إننا لسنا أجساماً أو ذوات أو كائنات مادية جاءت بصيغة ما، معبرة تعبيرات مادية بأسلوب ما من أساليب التعبير لأن أساليب التعبيرات المادية وكذلك صيغ الكائنات المادية مختلفة كاختلاف ذواتها ووجودها. بل نحن أرواح أو في داخلنا أرواح هي نحن أو هي كل معانينا وتفاسيرنا وقوتنا وضعفنا.

إننا أرواح أو إن فينا لأرواحاً مخالفة أو نقيضة لنا. إذن لسنا نحن الموجودين، ولسنا نحن أنفسنا أو ذواتنا أو أجسامنا. إننا كهوف فقط تسكننا وحوش، وحوش تعادينا وتناقضنا ولا تحترمنا أو تبحث عن التلاؤم بنا. إنها وحوش تأكلنا، تفترس جميع معانينا وليست وحوشاً تسكننا فقط. إننا إذن أردأ حظاً من الكهوف والمغارات المسكونة بالوحوش الغابية.

إنك مؤمن بأن في داخلك روحاً تحكمك أو هي أنت، ولست أنت ذاتك أو جسمك أو احتياجاتك وصفاتك المادية أو الجسمية أو الذاتية. إذن لن تكون، أو يجب ألا تكون أذكى أو أفضل في تعاملك مع جسمك أو مع ذاتك منك في تعاملك مع القلم الذي في يدك، أو مع الورق الذي تخط فوقه، أو مع الكرسي الذي تجلس عليه أي لو أنك آمنت بأن في داخل القلم أو الورق أو الكرسي روحاً تحكمه، أو بأنه ليس هو ذاته أو جسمه أو صفاته أو قدرته المادية أو الفنية، وبأنه ليس هو الذي يكون أو لا يكون، يلائم أو لا يلائم، يعمل أو لا يعمل ـ بل تلك قوة أخرى. أجل، إنك لمطالب بأن تعتقد أن داخل هذا القلم والورق والكرسي روحاً لأنك مؤمن بأن في داخل ذاتك روحاً أي لكي تكون عادلاً وعاقلاً في جنونك.

إن إيمانك بأن في داخل ذاتك روحاً أو قوة أخرى هي التي تكونك وتحركك وتريد لك وتفكر وترى عنك يساوي إيماني بأن في داخل ذات هذا القلم روحاً أو قوة أخرى هي التي تكونه وتحركه وتعمل عنه أو ترفض العمل، وهي أيضاً أي تلك الروح أو تلك القوة التي تريد له أن يعمل ويكون قادراً على العمل، وهي أيضاً التي ترفض له ذلك. إذن لا تعتقد بأنك أذكى أو أعقل أو أفضل منطقاً ممن يعتقد بأن في داخل القلم الذي في يده روحاً أو قوة أخرى تحركه وتعمل عنه وتعمل به وتريد له وتريد به وتريد منه وترفض منه وله.

إن إيماننا بأن في داخل ذواتنا أرواحاً قد أفسد علاقاتنا بأنفسنا وبذواتنا وبسلوكنا إفساداً شاملاً. إننا لا نحاول ـ باقتناع أو بشمول أو بمقدرة ـ أن نعالج فسادنا أو غباءنا أو ضلالنا أو غوايتنا أو احترامنا للشيطان أو رؤيتنا لمزايا الشيطان، أو أن نعالج ضعفنا أو هزائمنا أو همومنا أو تخلفنا أو خمود أحاسيسنا أو انحرافاتنا النفسية أو العقلية أو الأخلاقية أو الدينية أو المذهبية ـ نعم إننا لا نحاول أن نعالج شيئاً من ذلك باقتناع وبشمول وبمقدرة علاجاً مادياً، أي بعلاجنا لذواتنا وأجسامنا بقوانين الحياة

والمادة وضروراتهما واحتياجاتهما وصفاتهما ـ أو لا نجعل ذلك هو العلاج الأفضل أو الأقوى أو المجدي، أو لا نقتنع بذلك.

نعم، لقد أفسد إيماننا هذا علاقاتنا بأنفسنا وبوجودنا، أو كان المفروض أن يفسدها.

إننا لهذا لا نعالج هذا العلاج بهذا المستوى أو لا نقتنع بهذا العلاج لأننا نعتقد أننا نعالج عالماً آخر، عالماً نقيضاً لنا وللأشياء ولما نعرف ونمارس. إنه عالم آخر متناقض أو مخالف لكل ما نعرف، مخالف أو متناقض له بكل أخلاقه وتفاسيره ومعانيه واحتياجاته. إنه عالم يسكن فينا ويحكمنا ويحيانا ويناقضنا ويخرج علينا في جميع التفاسير المعروفة وغير المعروفة.

إنه العالم الروحاني، أو عالم أرواحنا التي هي ليست مادية، والتي لا تخضع لما تخضع له المادة، ولا تحتاج احتياج المادة، ولا تفسر أو تفهم كما تفسر وتفهم المادة، ولا تفهم الأشياء أو تفسرها فهماً أو تفسيراً ماديين، ولا تتعامل مع الأشياء أو مع الذوات التي تسكنها بالأسلوب المادي أو بالضرورات والاحتياجات المادية. إنها عصيان شامل للمادة وللأجسام التي تسكن فيها، وخروج عليها، وتحد لكل أخلاقها وضعفها ولكل إغراءاتها وجنونها.

إن الروحانية أو الأرواح طغيان وعدوان على الأجسام وعلى المادة لا مثيل لهما في البلادة والوحشية.

إنه لشيء صعب أو فظيع أو بذيء أو جنوني أن تكون ذاتك مسكونة بكائن آخر لا تعرفه ولم تختره ولم يختر لك ليكون ملائماً أو صديقاً أو مريحاً لك، ولكي يكون التفاهم والاتفاق بينكما محتومين أو ممكنين، ولكي يكون تعامل أحدكما مع الآخر عادلاً وكريماً.

أن تكون ذاتك مسكونة بكائن آخر يناقضك ويتحداك ويخالفك. يريد غير ما تريد، ويشتهي غير ما تشتهي، ويستطيع غير ما تستطيع، ويطالب بغير ما تطالب، ويفهم غير ما تفهم، ويتعامل مع نفسه ومع الأشياء ومعك بغير أسلوبك، وبغير حوافزك وأهدافك ومنطقك ورغبتك وقدرتك وحاجتك وضروراتك.

أن تكون ذاتك مسكونة بكائن آخر شيء لا مثيل له في البذاءة والوقاحة والقبح والعدوان.

إذن كم هو شيء صعب وفظيع وبذيء وجنوني أن تكون فيك روح أو أن تكون لك روح. إنه لافتراض شرير وعدواني وقبيح أن تفترض بأنك روح لا ذات، أو بأنك روح وذات، أو بأنك مسكون بروح ولست ذاتاً فقط أو جسماً فقط أو مادة فقط جاءت بصيغة ما وبأسلوب ما. إن هذا يساوي أن تعتقد بأن في السيارة التي تركبها أو في الدواء أو في الطعام الذي تتناوله روحاً أو بأن له روحاً أو مسكون بروح أو أنه روح وذات لا ذات فقط.

إننا ـ لأننا مسكونون بكائنات أخرى هي أرواحنا ـ لا نحسب أو نحاسب أو نفسر قلوبنا أو أعضاءنا أو أخلاقنا بقلوبنا أو بأعضائنا أو بأخلاقنا. إننا لا نحاسب أو نحسب أو نفهم ذواتنا أو

أجسامنا بذواتنا أو بأجسامنا لأننا لسنا أجسامنا وذواتنا، أو لسنا أجسامنا وذواتنا وحدها أو فقط. إننا لا نوجه أحاديثنا أو تعاليمنا أو أمرنا ونواهينا أو نقدنا إلى أجسامنا أو إلى ذواتنا حينما نريد منها أن تكون شيئاً آخر، أو حينما نعاني منها وننكر عليها ونرفض لها ونشمئز من كينوناتها ومن أخلاقها.

إننا نتوجه إلى القمر حينما نريد الوصول إلى الأرض. إننا نذهب نداوي النجوم حينما تصاب أعضاؤنا بالمرض.

إننا لا نجد ذكاء القمر أو غباءه أو جماله أو دمامته أو عظمته أو تفاهته أو مجده أو هوانه في ذات القمر. إننا سنفترضه إنساناً، سنفترضه كائناً حياً لنجد ذكاءه وغباءه، وجماله ودمامته، عظمته وتفاهته، مجده وهوانه ـ لنجد كل ذلك في روحه لا في ذاته ولا في جسمه. إن للقمر روحاً بقدر ما للإنسان روح. إنه يعيش بروحه لا بجسمه كالإنسان. إن ذات الإنسان ليست هي الإنسان. إن روح الإنسان هي الإنسان. إنه ليس ذاته. وإن القمر لكذلك. إن القمر هو روحه الساكنة فيه. إنه ليس ذاته كالإنسان.

إننا لا نجد أي شيء هو ذاته كما لا نجد ذات الإنسان هي الإنسان. إن كل الأشياء لا تحسب أو تحاسب أو تفسر بذوات الأشياء بقدر ما الإنسان لا يفسر ولا يحسب أو يحاسب بذاته.

إننا نواجه في جميع الأشياء الطاقات والأخلاق والتفاسير الروحية التي لا تتحدد ولا تفسر بذوات الأشياء أو بقوانينها أو باحتمالاتها وإمكاناتها، والتي تفعل بدون المادة، بل وخارجة ومناقضة للمادة ولالتزاماتها وضروراتها وشروطها.

إن الإيمان بثنائية الحياة أو بثنائية الأشياء أو بثنائية الإنسان أي بوجود الأرواح أو الروحانية لا بد أن يعني كل هذا.

إن أردأ وأغبى ما في الروحانية أنها ليست خاضعة أو ملتزمة أو محترمة لأي قانون ولا لأي منطق ولا لأي تقاليد، لا في موضوعاتها ولا في ذواتها ولا في تفاسيرها ولا في الحكم عليها أو في رؤيتها. إن موضوعاتها هي كل الأشياء، وإن إمكاناتها وقدراتها وتفاسيرها فوق كل الأشياء، وإن التدليل عليها والاقتناع بها لا يحتاجان إلى أي ذكاء أو منطق أو دليل أو إلى أية معاناة. إنها تتسع لكل غباء وكذب وخرافة وادعاء وجنون ومحال. إنها لا تساوي أن نجد أو أن نحترم أو أن نفهم، بل تساوي أن نقول وأن نروي وأن نشتهي وأن نؤمن. إنها إطلاق لا يمكن ضبطه بقانون، أو قياسه بقانون، أو تفسيره بمنطق. إنها كالتمني أو التصور أو الاحتلام. إنها انطلاق في عالم من الجنون لا حدود له ولا حراسة عليه ولا مستويات لمن يعيشون فيه أو ينضمون إليه.

إن الروحانية لا تحاكم ولا تحاسب ولا تجادل. إنها إذن لن تصبح مذنبة أو متهمة أو مفهومة أو معقولة أو موضوعة تحت أية شروط. إنها لن تطالب بشيء من ذلك.

إن الروحانية هي الغباء والجنون العالميان المعفيان عالمياً من أن يحاسبهما أو يحاكمهما أو يؤاخذهما أو يحاورهما أي منطق أو أي قانون أو أية حضارة.

إنك إذا كنت مؤمناً بالروح، أي بأن في داخلك أو في داخل هذا الكون روحاً، فإنك حينئذٍ تستطيع أن تقول أي شيء، أي هراء وغباء وكذب وسخف، وأن تؤمن بأي شيء، وأن تجد وتتعامل مع أي محال.

إنك حينئذٍ تستطيع أن تكون مجنوناً وضالاً وغبياً ومنافقاً وكذاباً وكوناً واسعاً ضخماً من الخرافات والمحالات والغباوات والأباطيل والأكاذيب دون أن تكون مخطئاً أو غبياً أو كذاباً أو مجنوناً أو مثيراً للرثاء أو الاشمئزاز أو الغضب، أو متهماً أو محاكماً أو معاقباً بأي منطق أو بأي قانون أو بأي ذكاء أو بأية معرفة أو بأية حضارة. إنك حينئذٍ تستطيع أن تتعرى داخل كل العيون وفوق كل المنابر وفي كل المحاريب دون أن يراك أحد أو أن يصدم بك أحد.

إن الإيمان بالروحانية هو المحلل أو المشرع العالمي لكي تكون وتزعم وتفكر وتروي وتتحدث وتفسر كما تشاء، وكما تتسع لك كل احتمالات الجنون والغواية والنفاق والكذب والمكر والغباء دون أن تخشى مقاومة أو تكذيباً أو سقوطاً أو افتضاحاً أومعاقبة من أي نوع. إن العالم لم يسمح ولا يسمح لأحد بأن يعيش كل آثامه وغبائه وأكاذيبه وأن يعلنها بكل أساليب الإعلان مثلما سمح ويسمح للمتحدثين عن الروحانية.

إنه لم يوجد ولا يوجد جنون أو غباء أو كذب أو عدوان على الآخرين قد غفر ويغفر دولياً، ومورس ويمارس دولياً كالروحانية وكالإيمان بالروحانية، وكدعاوى الروحانية. كما أنه لم يوجد ولن يوجد جنون أفظع من قضايا الروحانية ومن تفاسيرها للأشياء. إن أي جنون عادي يصاب به أي مجنون لهو أكثر ذكاء وعقلاً من أن تؤمن بأن في داخل ذاتك كائناً هو روحك، أو بأن في داخل ذات الذباب أو ذات الصرصار أو ذات القمر روحاً عظمى، تريده وتدبره وتسيره وتحكمه وتحميه وتدعيه وتمجد ذكاءها وأخلاقها وعبقريتها وكرمها وحبها للجمال وللنظافة به.

أجل، إنك إذا كنت مؤمناً بالروح أو بالروحانية، أو بأن ذاتك وذوات كل الأشياء مسكونة أو محكومة بكائنات أخرى نقيضة ومخالفة لها، فلن تخضع حينئذٍ لأي قياس، ولا لأي قانون أو منطق، ولا لأية رؤية، ولا لأية حدود أو شروط.

إنك حينئذٍ مطلق السخف والغباء والادعاء والأكاذيب. إنه لا قيود حينئذٍ على جنونك وضلالك وغواياتك وافتضاحك. إنك حينئذٍ عاقل مهما أصبحت مجنوناً، ومجنون مهما كنت عاقلاً، وممارس للافتضاح مهما عاديته وذممته، وكاذب مهما كنت صادقاً، وصادق مهما كنت كذاباً.

إنك حينئذٍ تستطيع أن تكون محالاً وممارساً للمحال على كل الاتجاهات والجبهات والممارسات والمستويات دون أن ترى نفسك أو تنكرها، ودون أن يراك أو ينكرك أحد.

إنك حينئذٍ تستطيع أن تقول ما تشاء، وأن ترى ما تشاء، وأن تفهم وتفسر وتكذب وتخدع وتضلل وتدعي كيف تشاء، وأن تدعو بكل صراخك وجنونك إلى كل ما تشاء.

إنه مباح لك حينئذٍ أن تبصق على كل منطق وعلى كل معرفة وعلى كل حضارة وعلى كل حقيقة، وفوق كل منبر، وداخل كل محراب، وفوق سطور كل كتاب وفي وجه كل إنسان. إنه لا شيء حينئذٍ يضبطك أو يفسرك أو يحددك أو يحاسبك أو يشترط عليك أو يحولك إلى منطق أو إلى وقار، أو إلى أي مستوى من التهذيب ومحاسبة النفس والسلوك. إني أنصحك. إذا أردت أن تكون كذاباً ومنافقاً ومضللاً وبليداً ومفتضحاً بلا حدود ولا عقاب ولا اشمئزاز بل ومشكوراً فكن موظفاً في أجهزة الروحانية.

إن الله حينئذٍ في عينيك وفي عقلك وفي أعضاك وفي أعصابك. إذن كيف يمكن أن تكون مضبوطاً أو معقولاً أو مقيداً أو متوقراً؟ إن كل ما في العالم من جنون لا بد أن يتحول إلى أعلى مستويات العقل أمام جنون ذات مسكونة بالإله أو بأية روح أخرى.

إننا لم نستطع أن نعرف أن أخلاقنا وانفعالاتنا، وأن هدانا وضلالنا، وأن ملائكتنا وأبالستنا وآلهتنا بل وأن أرواحنا وأفكارنا، وحبنا وبغضنا وإيماننا وكفرنا، بل وأن صحتنا النفسية، وكذا أمراضنا النفسية، بل وجميع حالاتنا النفسية.

إننا لم نستطع أن نعرف أن كل ذلك ليس سوى ذواتنا المادية، ليس سوى أعضائنا واحتياجاتنا ونداءاتها ومطالباتها قد جاءت بأسلوب ما أو بصيغة ما أو بتعبير ما، متعاملة، متخاصمة ومتناقضة ومتوافقة ومتصارعة مع ظروفها وضروراتها المادية، متحولة إلى طاقات وتعبيرات ولغات مختلفة مثل سائر الطاقات والتعبيرات واللغات المتولدة عن المادة، أعطيناها أسماء إنسانية أو أسماء لغوية.

لقد ظللنا دائماً لهذا نعالج جراح الجواد بزجره ولعنه وضربه، وظل الجواد يزداد إجهاداً وهزالاً وإعياءً وبلادة كلما زدناه زجراً ولعناً وضرباً. هل عالج جراح الجواد بلعنه وزجره وضربه أحد مثلنا؟ هل ضرب أو زجر أو لعن الجواد المجهد العاجز قوم مثلما ضربناه وزجرناه ولعناه؟

لقد ظللنا دائماً لهذا نتخاطب مع النجوم، نذمها أو نمدحها، نتهمها أو نبرئها، نهتف لها أو ضدها، نصلي إليها متضرعين متطلعين حينما تخاصمنا أعضاؤنا وحينما نخاصمها، حينما تخاطبنا أو نخاطبها، حينما نتحدث إلى جوعها وآلامها ونقائصها، وحينما يتحدث إلينا جوعها وآلامها وهمومها ونقائصها. لقد كنا دائماً نذهب نقرأ النجوم ونفسرها كلما أردنا أن نقرأ أعضاءنا وأن نفسرها وأن نتملقها وأن نعالجها من آلامها واحتياجاتها ومن همومها.

لقد ظللنا دائماً لهذا نتكلم بلغة الآلهة وغضبها ومطالبها حينما نريد أن نتكلم بلغة وغضب ومطالب التراب والبراغيث الساكنة والعائشة داخل أعضائنا.

لقد ظللنا دائماً، أي لهذا، نشكو إلى الآلهة آلامنا وضياعنا ومشاكلنا وحيرتنا حينما نريد أن

نشكوها إلى التراب. لقد ظللنا نجد منطق الآلهة وأخلاقها في ذواتنا حينما نعاني فيها أي في ذواتنا أخلاق ومنطق التراب والبراغيث.

لقد ظللنا دائماً نؤمن بالسحر ونتداوى بالسحر ونتحدث به ونصلي له ونتوجه إليه ونبحث عنه ونجده في كل شيء، بل وندعو إليه، لأننا كنا نؤمن بأن ذواتنا ليست هي ذواتنا وبأن الأشياء ليست هي الأشياء، بل إن ذواتنا والأشياء هي الكائنات الأخرى، هي الأرواح التي لا تعيش ولا تفهم ولا تفسر ولا تحاسب ولا تضبط ولا تحاكم بأي منطق ولا بأية أخلاق ولا بأية حضارة أو تقاليد، والتي لا تتعامل هي بأي شيء من ذلك.

إن وضع الأرواح في ذواتنا هي التسويغ الكامل للخروج بأعضائنا وحياتنا عن كل منطق وتفسير وقانون وذكاء.

لقد ظللنا لهذا دائماً نؤمن ونصلي ونبكي ونتضرع ونبتكر الأنبياء والدعاة، ونشيد المعابد والمحاريب، ونؤلف أو ننزل على أنفسنا الكتب المقدسة ونقرؤها ونحفظها بهوان ورهبانية وانكسار ـ لقد ظللنا نفعل ذلك حينما تذهب تخيفنا وتعذبنا وتذلنا عاهات وتشوهات ومجاعات أجسامنا. لقد كانت أعضاؤنا وأخلاق أعضائنا هي أنبياءنا وكتبنا المقدسة ومحاريبنا ومنابرنا وصلواتنا متحولة إلى تعبيرات وصيغ أخرى. إن إحساسك بالإله ليس أكثر من إحساسك بضغط أعضائك عليك. لقد ظللنا دائماً ـ لأننا نؤمن بالروحانية أو بوجود الأرواح ـ نجد الله، الروح العظمى، روح كل شيء ـ ظللنا نجده ونجدُ منطقه وأخلاقه وحكمته ورحمته وذكاءه وكبرياءه في الذبابة، في ضخامتها ونظافتها وبراءتها، في تعليمها للناس معنى الحياة وسمو الحياة ومنطق الحياة، وفي تدليلها على حكمة الإله وعلى مجده وعلى ذكائه وعلى حبه للناس وللنظافة وللضخامة. لقد ظللنا ولا نزال كذلك نراه زنديقاً ذلك الذي لا يستطيع أن يجد كل مجد الإله وذكائه وعبقريته ونظافته وأخلاقه في ذات الذباب وفي كل ممارسات الذباب.

لقد ظللنا دائماً مستوى رديئاً جداً للمجانين ومن المجانين. لقد ظللنا دائماً هذا المستوى الرديء جداً من المجانين وللمجانين لأننا ظللنا دائماً نجد في ذواتنا عالماً آخر غير أعضائنا، ونقيضاً لأعضائنا، ومتفوقاً منتصراً عليها.

إنه لشيء أكثر من المحال ألا تصاب بأقصى مستويات الجنون وأنت تؤمن بأن في داخلك كائناً آخر يخالفك ويناقضك ويحكمك ويستبد بك ويتفوق عليك، ويرى ويفكر ويريد لك وعنك وبك، دون أن تعرف عنه شيئاً أو أن تستشار فيه أو أن تتلاءم أو أن تتفاهم معه، مع أخلاقه أو مع احتياجاته أو مع منطقه أو مع أي مستوى من مستوياته.

إن إيماني بهذا القلم وبهذا الورق وتعاملي بهما لا بد أن يعنيا إيماني بأنهما أي هذا القلم وهذا الورق مستعبدان لذاتيهما ولقوانينهما وضروراتهما المادية، وبأنهما لذلك عاجزان ومحكومان بعجزهما وباستعبادهما، وبأنه لا تعيش فيهما ولا تحكمهما أية روح ولا أية قوة غير وجودهما المادي، وبأنهما لا

يريدان ولا يشاءان وإنما يلتزمان بذاتيهما الماديتين وبصفاتهما الجسمية، وبأنهما وحدانيا الذات لا ثنائياها. إن الإيمان بثنائية الذوات هو أضخم وأشمل جنون مارسه تاريخ الإنسان.

إن إيماني بأن داخل هذا القلم روحاً يساوي إيماني بأن في يدي وحشاً وليس فيها قلم. إذن احذر. إن في يدك وحشاً لا قلماً، لأنك تؤمن بأن في داخل جسمك روحاً. إن هذا يساوي إيمانك بأن في داخل القلم وحشاً.

كيف تستطيع أن تعايش هذا القلم أو أن تضعه في جيبك لو اقتنعت بل لو ظننت بأن في داخله روحاً أو أي كائن آخر لا يخضع للمقاييس أو القوانين المادية؟

إن شعورك بالأمان في تعاملك مع القلم قائم على اقتناعك بأنه لا توجد في داخله أو حوله روح تحكمه.

إذن كيف استطعت معايشة ذاتك مع اقتناعك المصمم بأن في داخلها روحاً، أو كيف جرؤت على الاقتناع بأن في داخلها روحاً؟

لقد كان الجمع بين معايشة الذات والاقتناع بأن في داخلها روحاً جمعا بين ما لا يمكن الجمع بينهما.

ماذا لو كان في داخل هذا الكرسي الذي أجلس عليه أو تجلس أنت عليه روح أو أية قوة أخرى، أو لو كانت أية روح أو أية قوة أخرى تحكمه وتحركه وتصوغه وتتصرف فيه من داخله أو من خارجه، أو لو كانت فيه أو له أية إرادة أو مشيئة أو حرية، أو لو كان قادراً على أن يكون غير ما هو كائن، وعلى أن يتعامل مع نفسه ومعي ومع ما حوله بأي أسلوب آخر، أو بأسلوب مطلق غير محدد أو مضبوط؟

ماذا لو كانت يدي التي أكتب بها وأستعملها محكومة بروح مطلقة أو بقدرة مطلقة أو بمشيئة مطلقة أو بقوانين مطلقة، أو لو كانت تعيش فيها روح، أو لو كانت ثنائية الذات؟ كم في تصور ذلك من الاحتمالات البشعة؟

ماذا يمكن أن يحدث لو كان الإنسان يتلاءم مع اعتقاداته ـ لو كانت اعتقاداته تحكمه، بل لو كانت تؤثر فيه، بل لو كان هو يتذكرها أو يتصورها أو يحترمها حينما يريد أو ينوي أو يتحرك؟

كيف يمكن أن تستقر في ذاتك أو تستقر فيك ذاتك ـ أو كيف تطمئن إلى ذاتك أو تطمئن فيها وعليها ـ أو كيف لا تصاب بكل الجنون والانهيار، أي لو اعتقدت بأن في داخلك كائناً آخر هو روحك التي تخالفك وتناقضك وتخرج عليك في كل شيء: في الأخلاق والمنطق والقدرة والأهواء، وفي الطبيعة والصورة، وفي المنشأ والنسب والتاريخ والمصير، وفي الحافز والهدف، وفي الضرورات والاحتياجات، وفي النموذج والمستوى، والتي تريد غير ما تريد أنت، وتفهم غير ما تفهم، وتستطيع ما لا تستطيع، وترى غير ما ترى، وتحس وتحتاج غير أحاسيسك واحتياجاتك وتجوع غير جوعك،

وتتغذى بغير طعامك، وتخاف غير خوفك، وتصلي وتؤمن غير إيمانك وصلواتك، لأنها نقيض لك وخروج عليك في جميع الصفات والنماذج والمستويات والتفاسير؟

كيف تستطيع أن تحيا أو أن تمارس شيئاً من العقل أو من الاستقرار والوقار والنظام أو من الشعور بالأمن وأنت تؤمن بأن في داخل ذاتك روحاً أو قوة أخرى، وبأن حولك وفوقك روحاً أو قوة عظمى لا تحكمها ولا تضبطها ولا تفسرها القوانين والضرورات المادية والقانونية التي تحكمك وتضبطك وتفسرك؟

وإنها لإحدى مزايا الإنسان، أو لعلها إحدى رذائله: أنه مهما فكر مجنوناً فإنه لا بد أن يعيش عاقلاً ـ إنه لا بد أن يعيش عاقلاً أكثر مما يفكر عاقلاً. إن أعضاء الإنسان أذكى من عقائده واقتناعاته. إنها حتماً أقل غباءً منها مهما كانت أقل منها ذكاء. أليس قلب الإنسان أقل جنوناً من رأسه مهما كان أقل عبقرية منه؟ إن إحدى مزايا الإنسان أو إحدى رذائله: أن سلوكه أقرب إلى العقل من تفكيره أو أقرب من منطقه أو من اقتناعاته. إنه لا بد أن يحيا وأن يمارس حياته ونفسه وأن يمارس الأشياء والآخرين بشيء من العقل مهما خرج في تفكيره أو في منطقه أو في اقتناعاته عن كل مستويات العقل وحدوده. وقد يرى قوم أن العكس هو الصحيح. وقد توجد شواهد تدل على صحة هذا العكس للقضية.

* *

إن المؤمنين بثنائية الوجود والأشياء وبثنائية ذواتهم ـ أي بوجود كائنات روحية أو كائنات غير مادية داخل ذواتهم وحولهم وفوقهم ـ إن هؤلاء المؤمنين لا يمكن أن يتحددوا في الأشياء أو في أنفسهم، ولا أن تتحد الأشياء فيهم. إنهم لا يتحددون في الواقع ولا في التفاسير. إنهم أبداً يبدون بلا حدود أو قانون أو نموذج، وإنهم أبداً يفكرون ويتصورون ويتوقعون ويحكمون ويطالبون ويريدون ويقتنعون بلا أية حدود أو نماذج أو قانون. إنهم كاللصوص والقتلة والمجانين والطغاة والآلهة، يبدون فوق القوانين والنماذج والمنطق والتقاليد والأخلاق لأنهم خارجون عليها وعنها. إن هؤلاء المؤمنين بثنائية الحياة والذوات والأشياء لأكثر خروجاً على المنطق والتفاسير والنماذج والقوانين والأخلاق من منطق الطبيعة ومن أخلاقها وضرباتها وتفاسيرها وحشراتها.

لقد كان الإنسان ولا يزال يواجه ورطة. لقد كان إيمانه بهذا الجنون، أي إيمانه بأنه في داخل ذاته روحاً، وبأن حوله وفوقه روحاً عظمى شاملة وأرواحاً أخرى مساعدة لا عداد لها ـ لقد كان إيمانه هذا تعبيراً عن هذه الورطة.

ولكن ما هذه الورطة؟

إنه لو خيّر الإنسان بين أن يكون روحاً خارقة فوضوية مطلقة، لا تخضع لقانون ولا لنموذج ولا لمنطق ولا لتفسير ولا لأي إلزام ولا لأي مستوى من الأخلاقية، وبين أن يكون كتلة مادية أو ذاتاً مادية

ضئيلة محدودة، محكومة بنفسها وبضعفها وباحتياجاتها وضروراتها المادية الصغيرة التافهة الوقحة، خاضعة للقوانين والالتزامات السخيفة البذيئة التي تخضع لها كل الطبيعة وكل الأشياء.

نعم، إن الإنسان لو خيّر بين هذا وهذا لكان معروفاً جداً ما الذي سوف يذهب إليه اختياره. ولقد خير، أو لقد وجد نفسه وكأنه قد خير. ولقد اختار، لقد كان اختياره أن يهرب من العقل المعذب إلى الجنون المريح. لقد استفظع واستصغر أن يكون منطقاً أو عقلاً فاختار أن يكون جنوناً. لقد اختار أن يكون جنوناً كبيراً ومطلقاً على أن يكون حقيقة صغيرة ومقيدة.

إن الإنسان لم يكن في اختياره هذا يقيم مقارنة بين الذكاء والغباء، أو بين الجنون والعقل، أو بين الصدق والكذب، أو بين الاستتار والافتضاح، بل بين الراحة والعذاب. إن الإنسان يريد دائماً أن تكون كل القيم وكل الأشياء من أجله، ولا يريد أن يكون هو من أجل أية قيمة من القيم ولا من أجل أي شيء من الأشياء. إنه لا يفعل أو يحاول إلا هذا مهما قال غيره.

إن كل قيم الإنسان ومثله و مذاهبه وأديانه وآلهته ونظرياته ليست سوى تفاسير ولغات لجسده ولاحتياجات ومطالب وصفات وظروف هذا الجسد.

إنه لو تغيرت أخلاق وصفات ونماذج وضرورات أجسادنا لتغيرت آلهتنا وأديانِنا ومذاهبنا في تفاسيرنا وتصوراتنا.

لقد كان الإنسان دائماً يجد في الكذب والغباء والجنون والافتضاح من المحاباة والراحة والاستجابة لنداءات وضغوط ومخاوف ومتاعب جسده ولاحتياجات هذا الجسد المادية والشعورية والأمنية أكثر مما كان يجد من ذلك في الذكاء والعقل والصدق والاستتار.

إن أخطاء الإنسان وتفاهاته وغباواته إنما تصنعها إرادته وضروراته أكثر مما يصنعها منطقه أو تفكيره.

لقد كانت كل مثل الإنسان تعبيراً عن أخلاق جسده واستجابة لها وبحثاً عنها.

إن مثل الإنسان لا تكون أبداً تعبيراً عن إيمانه أو عن ذكائه أو عن أي معنى من معانيه الروحية بل عن أنينه.

إن الإيمان بالثنائية أو بالروحانية لم يكن إلا تعبيراً عن المواجهة الصعبة لهذه الورطة. إن هذا الإيمان لم يكن إلا محاولة من محاولات الهرب أو الخروج من أفظع وأضيق الحدود والسدود والقيود. إنه محاولة للخروج والهرب من أبشع طغيان وإذلال وتحقير وتعذيب وتوريط ومحاصرة. ولكنه محاولة خروج أو هرب لا توجد وسائله ولا سبله ولا مكانه.

إنه لشيء فوق كل أساليب ووسائل التعذيب والاستهزاء والعدوان والتصغير أن يكون الإنسان مادة تحكم ذاته وأخلاقه وتفكيره وطموحه وآماله وكل تطلعاته البعيدة المطلقة التحويم والتحليق والأسفار والاقتحام والتجاوز والرؤية بلا مدى ـ تحكمها المادة، وتقيدها أي وتقيد ذاته التي هي بكل هذا الإطلاق قوى المادة المحكومة بالضعف الذاتي المتحدد، وقوانين المادة وسخفها وعجزها وتفاهاتها

وبذاءاتها، ويتعامل عليها وحدها، يتعامل على قوانينها وقواها وضروراتها وسدودها وحدودها وقيودها، بينما هو مالك بلا أي قيد أو حد لموهبة الرؤية والاحتجاج والرفض والاشمئزاز والغضب والطموح والنقد والتطلع والخيال. لقد كان هذا الموقف أسلوباً من أساليب وضع المطلق في المحدد جداً، أو وضع أكبر الأشياء في أصغر الأشياء. لقد كان هذا الموقف الذي وجد الإنسان نفسه فيه معنى من معاني حبس العين المطلقة الرؤية في منظر واحد، في منظر واحد هو أصغر المناظر.

لقد كان تصور الإنسان لنفسه كائناً مادياً فقط محكوماً بضآلة وقيود المادة فقط بينما هو مطلق في خياله وفي رؤاه وفي احتجاجه وغضبه ونقده وطموحه واشمئزازه وتطلعاته وفي ألمه ولذاته ـ نعم لقد كان تصور الإنسان لنفسه كذلك تصوراً يهبه كل التعذيب والتشويه والتحقير والاستهزاء به. لهذا حاول أن يخرج على هذا التصور الأليم وأن يهرب من هذه الورطة. ولقد جاء إيمانه بالثنائية أو بالروحانية أي بأن في ذاته وفي الكون وفي جميع الأشياء كائنات روحانية فيها كل القدرة على الخروج من قيود وضآلة وقانونية المادة.

أجل، لقد جاء إيمانه هذا هو أسلوبه في محاولته للهرب وللخروج من هذه الورطة ومن هذا التصور. لقد حاول أن يهرب من كونه كائناً بلا حدود يعيش في أضيق الحدود.

لقد كان محتوماً أن يحاول الإنسان الهرب من هذا التصور أو من هذه الحقيقة أو من هذه الورطة التي لا أفظع ولا أقبح ولا أقسى منها. لقد آمن بالجنون أو بثنائية الأشياء أو بوجود العالم الروحاني الخارج على كل الحدود والقيود والقوانين، تداوياً من هذه القسوة والفظاعة والقبح، أو احتجاجاً على ذلك أو ستراً له أي محاولة لستره. لقد كان الإنسان محدوداً في ذاته وفي وجوده وقدرته، يعيش فيه عالم ليس محدوداً من الخيال والرؤى والأماني والأفكار والاحتجاجات والتطلعات. وهنا جاءت العقدة أو الورطة. كيف يصبح ما ليس محدوداً محدوداً؟ أو كيف يتقبل غير المحدود المحدود دون جنون.

إن نماذج الروحانيين الاعتقادية والفكرية والأخلاقية والتصورية لا بد أن تكون نماذج استبدادية ومشوهة ودميمة وغير معقولة ولا مهذبة أو محترمة لأنهم يؤمنون بكائنات مطلقة غير معقولة أو غير موضوعة على نموذج أو مثال أو قياس أو قانون أو ضرورة أو حاجة أو خطة أو منطق أو أخلاقية.

إن الروحانيين إذن لا بد أن يكونوا ـ ولو نفسياً وعقلياً وخيالياً ـ مذعورين ومشوهين ومشوشين ومتوقعين لكل ما لا يعقل إلى أقصى حدود السخف الفاضح والجبن الفاضح والتمزق الفاضح. إنهم حينئذٍ لن يطمئنوا إلى قانون أو إلى سبب أو إلى منطق أو إلى تفسير أو إلى تجربة أو إلى معرفة أو إلى شيء، أي ولو منطقياً أو اعتقادياً أو مذهبياً أو نفسياً. إنهم إطلاق من الجنون والغباء والتوقع.

إنهم حينئذٍ لا بد أن يصبحوا في توقعهم وفي اقتناعاتهم وتصوراتهم كمن يحكمهم فرد مطلق لا نموذج له في فرديته وإطلاقه ـ فرد مطلق لا يخشى شيئاً ولا يعجزه شيء، ولا يفسر أو يضبط أو يحدد ما يريده وما يفعله وما يستطيعه منطق أو قانون أو أي شيء ـ بل إنهم لا بد أن يصبحوا كمن

يحكمهم أفراد مطلقون في فرديتهم وفي حكمهم وقوتهم ـ أفراد لا عداد لهم من المستبدين المطلقين الذين لا نماذج ولا مقاسات ولا قوانين لهم في استبدادهم وإطلاقهم ـ من القادرين المتفردين الذين لا يخافون شيئاً ولا يحترمون شيئاً ولا يعجزون عن شيء، ولا يفرقون بين شيء وشيء، ولا يحبون شيئاً دون شيء، ولا يحترمون شيئاً أكثر من شيء ـ من الذين لا يمكن أن يفهم أو يفسر أو يحدد ما يريدون وما يحترمون وما يفعلون وما يستطيعون. وهل يوجد نموذج للطغيان المطلق في جنونه واستبداده وفوضاه وفي قوته ووحشيته مثل طغيان الروحانية أو العالم الروحاني أو مثل طغيان الروح داخل الذات أو فوق العالم لو وجدت مثل هذه الروح؟

إن أي حاكم طاغية مطلق مريض متوحش فاسق مجنون جاهل جداً ليصبح شيئاً معقولاً وطيباً ومهذباً ومستراحاً إليه وموثوقاً به، وواهباً للأمن والحب والاعجاب أكثر من أية روح تعيش وتعمل داخل ذاتك أو حولك وفوقك.

إن ذلك الحاكم مهما كان لا بد أن يكون ـ ولو على نحو ما أو بأسلوب ما ـ خاضعاً لشيء من الضرورة أو الحاجة أو الخوف أو العقل أو النظام أو التقاليد أو حتى لشيء من الحب أو الرحمة أو الحياء أو الاشمئزاز أو الاستفظاع أو الاحتشام والوقار والطمع في الثناء.

إنه لن يوجد طاغية واحد ولا إنسان واحد لا يخضع لكثير من ذلك أو لبعض ذلك.

أما الروح ـ سواء كانت الروح الخاصة أم العامة ـ فإنها لا تخضع لشيء من ذلك. إن جنونها جنون لا قيد عليه. وإنها لغير أخلاقية. إنها ترفض الأخلاقية ولا تستطيعها.

إن الأخلاقية مستوى إنساني. إنها ضرورة إنسانية. إن الأخلاق ليست نموذجاً أو وحياً أو قانوناً كونياً أو روحياً. إنها في كل ظروفها ومستوياتها ليست سوى تعبيرات عن عذاب الإنسان وبكائه.

* *

إن البشر إنما يؤمنون بالحياة وبالأشياء وبممارساتهم المختلفة، بل وبأعضائهم وذواتهم، ويفعلونها ويتعاملون معها ويثقون بها لأنهم يرونها ويعتقدونها محكومة مأسورة بالأسباب والقوانين والضرورات المادية الذاتية المعلومة الموثوق بها التي لا يتدخل فيها أي شيء غير مادي. إنهم يؤمنون ويثقون ويتعاملون بها لأنها مصابة بالعجز الذاتي المادي الذي لا شفاء منه، ولأنهم مقتنعون بإصابتها هذه، لقد أقنعتهم بذلك تجاربهم الطويلة. إن العجز المادي في الأشياء هو الذي جعلها معقولة ومقبولة وجعل التعامل عليها شيئاً ممكناً بل شيئاً موثوقاً به.

إن العجز الذاتي والمادي هو كل معاني النظام والمنطق والأخلاق والتوافق والتعامل الشهم الصديق.

إنك لتثق بالتعامل على أية كتلة مادية محكومة بعجزها المادي الذاتي أكثر من ثقتك بالتعامل مع روح عظمى مطلقة القوة والمشيئة والأخلاق والغضب والانفعالات.

إنك لتثق بالتعامل مع المادة التي لا تملك إرادة ولا تدبيراً ولا شهامة ولا تفكيراً ولا انفعالاً، والتي

لا تطالبك بالالتزام بدين أو بمذهب أو بأخلاق أو بإيمان أو بصدق، والتي لا تعيش فيها أية روح، أكثر مما تثق بالتعامل مع الإله، أعني لو أنك علمت حقاً أنه يريد ويطالب ويفكر ويغضب ويشتهي ويشترط وينفعل ويستطيع كل شيء ولا يحتاج إلى شيء ولا يقيده أو يحكمه أو يعجزه أو يخيفه شيء ـ أعني لو كنت مقتنعاً حقاً بأنه كما تتحدث عنه وكما تتعلمه، وبأنه طليق من قيود المادة ومن عجزها الذاتي ومن ضروراتها المذلة. وهل يوجد أفظع من الإله المطلق؟

إن جميع الذين استطاعوا التعامل مع الإله إنما استطاعوا ذلك لأنهم قد اقتنعوا بأنه لا يستطيع ولا يفعل ولا يريد ولا يغضب ولا ينفعل ولا يتدخل ولا يرى ولا يسمع ولا يفهم ولا يعاقب ولا يحاسب ولا يطالب ـ أي بعد أن اقتنعوا بالتجارب والمشاهدات الطويلة أنه لا يوجد كروح فاعلة مطلقة متحركة، وكذلك بعد أن اقتنعوا بأنه لا توجد حولهم أو فيهم أرواح هي جنود له تعمل وتستطيع وتريد وتشترط وتنفعل وترى وتسمع وتفهم وتغضب وتنفذ مشيئة الله.

هل كنت تستطيع مهما كان فجورك ووقاحتك أن تتجرد من جميع ملابس تقواك ونظافتك وحيائك ورهبتك لو كنت تعلم أن عين الإله أو عيون الأرواح التي أطلقها حولك وعليك تحدق فيك، لتراك من وراء جميع سدودك وجدرانك وستائرك ونوافذك وأبوابك؟

بل هل كان يمكن أن تستطيع النوم أو الحب أو الضحك أو الحياة أو التغذي لو كنت تعلم أن الإله أو أن عيون جنوده وأرواحه المسلطة عليك المبثوثة حولك تحدق فيك بغضب وقدرة واشتراط وبمشيئة ومطالبة ومحاسبة ومراقبة.

أي لو كنت مقتنعاً بأن روحاً واحدة تعيش فيك أو حولك أو فوقك؟ إن ممارستك لحياتك، تعني حتماً أنك لا تؤمن بوجود كائن حولك أو فوقك فعال مطلق، أي تعني أنك لا تؤمن بوجود أية روح لا تخضع لقيود المادة وعجزها وقوانينها ولإذلالها.

إنك بالتجربة لا تؤمن بوجود مثل هذه الروح مهما تحدثت عن وجودها، بل ومهما صليت لها..

إن الإيمان بالمشيئة المطلقة الفعالة القادرة القادمة من فوق الحياة أو من داخل الحياة ليس شيئاً ينافي العقل أو الذكاء فقط، بل ينافي الحياة والممارسة للحياة.

إن الذين لا يؤمنون بأن الحياة والأشياء محكومة بالضرورات والقوانين والأسباب المادية المضبوطة بالعجز الذاتي الأبدي المحتوم، ثم يذهبون مع هذا يفعلون الحياة والأشياء ويتعاملون عليها ويثقون بها ـ هم قوم لا يحاسبون أنفسهم، لا تحاسب ذواتهم. إن عقولهم لا تحاسب اقتناعهم وعقائدهم، وإن عقائدهم واقتناعاتهم وكذا عقولهم لا تحاسب ممارساتهم ونياتهم. كما أن نياتهم وممارساتهم لا تستأذن أو تحاسب عقولهم وعقائدهم أو اقتناعاتهم. إنهم قوم لا يرى بعضهم بعضاً ولا يعاتب بعضهم بعضاً. إن ذواتهم لا ترى ذواتهم، كما أنها لا تعاقبها ولا تنقدها ولا تخجل منها.

أليس كل إنسان لا يرى بعضه بعضاً، لا ترى ذاته ذاته ولا تعاتب أو تحاسب أو تعاقب ذاته ذاته؟

إن عقولهم لا ترى ولا تعاتب ولا تنقد عقائدهم أو اقتناعاتهم أو ممارساتهم أو نياتهم كما أن نياتهم وممارساتهم لا ترى أو تستأذن عقولهم أو عقائدهم أو اقتناعهم. إن نياتهم وممارساتهم لا تستمع إلى عقولهم ومعتقداتهم واقتناعاتهم ولا تفهم عنها ولا تخاف منها.

إن عقولهم لا ترى عقولهم، وإن اقتناعاتهم وعقائدهم لا ترى اقتناعاتهم ومعتقداتهم، وإن ممارساتهم ونياتهم لا ترى ممارساتهم ونياتهم.

إنه لا توجد علاقات بل ولا محادثات بين أجزاء الذات الواحدة ولا بين تحركاتها أو وحداتها أو أخطائها.

إن ذواتهم لا ترى أو تعاتب أو تنقد ذواتهم أو تخجل منها، ولا تحاول التلاؤم معها. إنهم قوم لا يعرفون كيف يؤلفون أنفسهم ولا كيف يخرجونها ولا كيف يتعامل بعضها مع بعض.

إنهم لا يعرفون كيف يؤمنون، ولا كيف يكفرون، ولا كيف يفكرون ولا كيف يرفضون التفكير أو يعجزون عنه، ولا كيف يفهمون ويرون، ولا كيف يرفضون الرؤية والتفكير أو يعجزون عنهما.

إن كفرهم وتفكيرهم وفهمهم ورؤيتهم ليست رؤية ولا فهماً ولا كفراً ولا تفكيراً. إنهم لا يتحولون إلى تعبير أو إلى تفسير عن أي شيء. إنهم لا يتحولون إلى قوة أو إلى تمجيد للشيء الذي يفعلون ويؤيدون، ولا إلى ضعف أو هجاء للشيء الذي يرفضون ويتركون وينكرون. إن مواقفهم كأفكارهم لا تتحول إلى تفاسير ولا إلى منطق للأشياء.

كيف يمكن التعامل بالحياة أو بالأشياء، وكيف يمكن التعامل عليها لو كانت محكومة بمشيئة مطلقة، أو بقدرة مطلقة، أو بروح مطلقة ـ أو لو كانت محكومة بغير ذواتها وبغير قوانينها وصفاتها المادية المضبوطة المحكومة بالعجز وبالعبودية الذاتية؟ كيف يمكن فهمها أو تفسيرها أو الثقة بها أو التحدث عنها أو الإشارة إليها أو وضعها تحت أية حسابات أو معاملات لو لم تكن محكومة بالعجز الذاتي المادي الأبدي؟ نعم، كيف يمكن شيء من ذلك؟ كيف لا يعلم كل إنسان أن ذلك شيء لا يمكن أن يكون ممكناً؟ أليس كل إنسان يعلم أن ذلك غير ممكن مهما كانت عقائده وصلواته؟

إن الأشياء لو كانت حرة أو قادرة قدرة مطلقة أو مريدة أو روحانية أي غير مادية الذات والصفات والأخلاق والنموذج لكان التعامل عليها أو محاسبتها أو وضعها في أية علمية حسابية أو علمية أسلوباً رديئاً من أساليب الجنون أو من أساليب الممارسة الرديئة الفاضحة للاستحالات الشاملة.

إن قيمة جميع الأشياء لا تساوي أكثر من كونها كتلاً وذوات مادية عاجزة مستعبدة خاضعة لعجزها واستعبادها.

إن العجز والاستعباد الذاتيين في الأشياء هما النظام والقوة والمنطق والشعور بالأمن، بل هما الأمن. إن عجز الأشياء وعبوديتها الذاتيين هما الحياة والحضارة والعلم والتقدم والوقاية من الجنون ومن الفوضى ومما هو أردأ من الجنون والفوضى.

إنك معقول ومقبول ومتعامل عليك أمام صديقك وأمام الآخرين لأنك محكوم بالعجز والاستعباد الذاتيين.

إن هذا العجز وهذه العبودية هما منطق الإنسان وذكاؤه وأخلاقه ووقاره. إنه بدونهما لا منطق ولا ذكاء ولا وقار ولا أخلاق بل ولا عقيدة ولا إله ولا مذهب للإنسان. إن جميع نماذج الإنسان ومستوياته وحقائقه هي عطاء وحصيلة العجز والاستعباد الماديين الذاتيين في الأشياء.

حتى معتقدات الإنسان وأديانه واقتناعاته وأربابه إنما وهبه إياها العبودية والعجز الذاتيان اللذان يحكمان كل الأشياء، واللذان يعيشان في كل الأشياء وتعيشهما كل الأشياء. إنه لولا هذه العبودية وهذا العجز لما استطاع الإنسان أن يجد أو أن يضع لأي شيء أي تفسير، ولا أي حساب، ولا أي قانون، ولا أية قيمة، ولا أي ثمن.

ما الذي يجعلك تثق بأعضائك أو بذاتك أو بنموذجك الجسدي أو بقوتك الجسدية لو كنت محكوماً بمشيئة مطلقة غير مادية، أو بروح مطلقة القوة والمشيئة والأخلاق؟

كيف تثق بأنك حينما تستيقظ في صباحك من نومتك العميقة سوف تجد أعضاءك وحدود جسمك ونماذجه كما نمت بها لو كانت توجد روح تريد وتفعل وتفكر وتستطيع خارج القوانين المادية وفوقها وأقوى منها؟

كيف تثق بأن أعضاءك التي نمت بها هي أعضاؤك التي استيقظت بها لو كانت توجد روح تعمل خارج القوانين؟

إنك لو رقدت في قفص مملوء بأفتك الوحوش الغابية الجائعة المهتاجة لما كان اطمئنانك بأنك سوف تجد أعضاءك في الصباح في أماكنها أكثر وأصدق أو أذكى من اطمئنانك بأنك لا بد أن تجد ذاتك كما رقدت بها حينما تستيقظ، أي لو كانت توجد حول سريرك أو فوق سريرك أو داخل ذاتك أو داخل غرفتك أو خارج غرفتك أو فوقها كائن روحي، كائن ليس مادياً في ذاته وفي قدرته وفي حاجته وفي أخلاقه وفي منطقه وفي ضعفه وفي جميع أساليب سلوكه ونياته ومشاعره.

لقد ماتت وحوشك الرهيبة. لهذا تنام في أقفاصها وبين أنيابها. لقد ماتت كل الأرواح من حولك ومن فوقك وفي داخلك. لهذا استطعت أن تعيش وتنام وتتعرى بلا خوف أو توقع أو استتار.

لقد كان مستحيلاً أن تعيش تحت عين حية شاملة. لقد كان مستحيلاً أن تحيا تحت عين إله أو عين شاملة تحدق فيك. لقد ماتت هذه العين. لهذا استطعت أن تعيش وأن تمارس كل أوزارك دون أن تتوقع أية عين غاضبة. لقد ماتت السماء. لقد ماتت كل عيون السماء. إن السماء لا ترى.

إن الروحانيين أي المؤمنين بأن عالماً آخر هو عالم الأرواح يسكن في ذواتهم، أو بأن الكون وكل الأشياء محكومة مسكونة بروح عظمى لا حدود لمشيئتها ولا لقدرتها، وحولها ولها ومعها أرواح أخرى مساعدة لا عداد لها.

نعم، إن الروحانيين لا بد أن يكونوا مجانين أو كاذبين. أليس ممكناً أن يكونوا مجانين وكاذبين؟

إنهم لا بد أن يكونوا مجانين إن توافقوا مع اعتقاداتهم واقتناعاتهم، وكاذبين إن سلكوا سلوك العقلاء. وإنه لحتم أن يسلكوا سلوك العقلاء مهما اعتقدوا عقائد المجانين، ومهما كان كل أنبيائهم ومعلميهم من المجانين، ومهما رفضوا أن يكون لهم أنبياء أو معلمون من غير المجانين، بل ومهما كان أكثر الأنبياء والمعلمين جنوناً هم أعظم وأمجد الأنبياء والمعلمين في أسواقهم وفوق منابرهم وداخل محاريبهم. أليس محتوماً أن تكون لك عقائد واقتناعات مجنونة مهما كان محتوماً أن يكون لك سلوك عاقل أو مهما كان سلوكك عاقلاً؟ أليست هذه الصيغة هي أفضل صيغك المحتملة؟ أليست أفضل صيغ الإنسان أن يكون مجنون الاعتقادات والاقتناعات عاقل الحياة والممارسات؟

إذن هم كاذبون حتماً، وهذا أفضل، أي أفضل من أن يكونوا مجانين.

ولكن لماذا يكون الكذب أفضل من الجنون؟ وهل هذه القضية محتومة ومحتوم تصديقها؟ ولماذا يكون الحكم أو الأمر كذلك؟

إن الكاذب لا يكذب بحثاً عن الجمال أو عن المجد أو عن اللذة. إنه لا يكذب ليكون فناناً أو شاعراً أو فيلسوفاً أو نبياً عظيماً أو زعيماً ساحقاً مهما كذب الفنان أو الشاعر أو الفيلسوف أو الزعيم أو النبي. أي أن هؤلاء لا يكذبون ليكونوا ما يريدون أن يكونوه مهما كان محكوماً عليهم أن يكذبوا، لأنهم قد كانوا، أو لأنهم لا بد أن يكذبوا، أو لأن الكذب هو العقوبة المحتومة لكل من وجد، أو لكل من وجد كبيراً أو أصبح كبيراً. لقد وقعوا في الكذب وقوعاً ولم يطمحوا إليه طموحاً. لقد هجم عليهم الكذب ولم يبحثوا عنه بحثاً. لقد جاع إليهم الكذب ولم يجوعوا هم إليه. إنهم يمارسونه كورطة لا كمزية أو عبقرية.

إن الكذب ليس شهوة ولكنه عقوبة. إن الكاذب كائن يعاني العقاب ويعلن عن العقاب النازل به بأسلوب ليس مفهوماً دائماً وبلغة ليست عالمية التفسير مهما كانت عالمية الممارسة والتداول.

إن الكاذب يكذب لأنه يعاني ويتعذب ويواجه. وإنه ليعاني ويتعذب حينما يكذب. أي أنه يعاني ويتعذب بكذبه أي بسبب كذبه وممارساته للكذب.

إن الكذب معاناة وإنه ناتج عن معاناة. فالكاذب يكذب لأنه يعاني، ثم يعاني لأنه يكذب أو لأنه قد كذب.

فهل الكذب حينئذٍ أفضل من الجنون؟ ولماذا هو أفضل؟

وهل الجنون شيء رديء؟ هل هو أردأ ممارسات الإنسان أو الحياة؟

هل كان حكم الإنسان ضد الجنون حكماً بالعقل أم بالجنون؟ من يدري، ومن يحكم؟

وهل يوجد فاصل بين ما هو عقل وما هو جنون في سلوك الإنسان وفي سلوك الحياة؟ ومن يقيم هذا الفاصل، ومن يراه، ومن يعرفه؟ وكيف تستطيع أن تثق برؤيتك أو بمعرفتك أو بالفاصل الذي

تقيمه بين العقل والجنون أو الذي تراه فاصلاً بينهما؟

كيف استطاع الإنسان أن يهب نفسه الثقة بها؟ لعل هذه الثقة هي أعظم وأعجب هبات النفس للنفس.

لعل الجنون، أي ما نراه جنوناً هو أفضل تدبيرات ومستويات وتخطيطات الإنسان العقلية في مواجهته للجنون الأعظم أو لما هو أفظع من الجنون الأعظم.

لعل الجنون ليس إلا هرباً أو تداوياً من جنون هو أعظم من كل جنون ـ من جنون يتحول كل جنون آخر إلى اعتذار وتكفير عنه.

نعم، لعل كل جنون ليس إلا تدبير العقل ضد ما هو أكبر وأفظع وأخبث من كل جنون.

نعم، لعل الجنون هو أفضل أساليب الاعتذار عن العقل.

لعل الجنون هو أنبل وأذكى أساليب الاحتجاج على جنون العقل.

لعل الجنون هو أشمل صيغ الاحتجاج والغضب على ضخامة وشمول العبث والتفاهات والضياع والتلوث. لعله أشمل صيغ الرفض والرثاء.

هَل تستَطيع أن تحبّ الإله

«.. هل الإله شيء يمكن أن يحب؟ هل الذين يصلون له يحبونه أم يتملقون أخلاقه ويحاولون أن يخدعوا قوته وكبرياءه؟ أليست الألوهية شيئاً يقتل الحب؟ هل يمكن أن تحب من تخاف منه كل الخوف وتتوقع منه كل المخاطر، ويصنع ويعد لك ويوقع بك كل الآلام والأحزان والمخاوف والعاهات والتشوهات والأمراض والضعف والهوان والموت والشيخوخة وأهوال الجحيم والعقاب؟ هل في أعدائك من يوقع بك مثلما يوقع بك إلهك؟ هل يمكن أن تحب وحشاً هو كل الوحوش وكل الافتراس لكل الناس ولكل الأشياء؟ وهل يمكن أن تحب وحشاً قد أكل آباءك وآباء جيرانك وسوف يأكل كل أبنائك وكل أبناء جيرانك قبل أن يأكلك أو بعد أن يأكلك؟ إن الإنسان لو أحب الإله الذي يفعل به وله كل هذا لكان هو أردأ محب ولكان الإله هو أردأ محبوب. إنه حينئذٍ لا فضيلة ولا تقوى للإنسان في أن يكون محباً كما لا مجد ولا تكريم للإله في أن يكون محبوباً. إن المجد والتكريم حينئذٍ لمن تصيبهم البغضاء. إن الحب حينئذٍ هجاء لمن يحبون. إننا حينئذٍ يجب أن نبحث عمن يبغضوننا لا عمن يحبوننا.. إن حب الإله هو أقسى هجاء لذكاء الإنسان ولكرامته ولأخلاق عواطفه ولقلبه ولمن يهبه قلبه. إنه هجاء لكل معاني الحب وقيمه في الأرض...».

الذين نحبهم هل نستطيع أن نعجب بهم ـ أو الذين نعجب بهم هل نستطيع أن نحبهم؟ هل نستطيع أن نحب من يقهروننا أو يهزموننا أو يخيفوننا أو يتحدون إعجابنا بأنفسنا ورضانا عنها ـ هل نستطيع أن نحب من يفعلون بنا ذلك بمزاياهم وتفوقهم أو بجبروتهم وقوتهم، أو بمنطقهم وسلوكهم اللذين لا نستطيع تقبلهما أو فهمهما أو مجاراتهما؟

هل عواطفنا تجيء متجمعة أم مفرقة متنافرة متعارضة؟

هل يمكن الجمع بين الحب والإعجاب، أو بين الحب والخوف، أو بين الحب ووحشية المحبوب السلوكية أو المنطقية أو الذاتية؟ أليست حوافز وأسباب الحب والإعجاب متناقضة أو متعادية أو مختلفة؟ أليست حوافز وأسباب وتفاسير العواطف متنافية؟ أليست العواطف متنافية ومتنافسة؟

إننا قد نعجب بالليث أو بالوحش أو بالعدو أو بالقوي المهين لضعفنا وقد نثني عليه. ولكن هل نحبه؟ هل نستطيع أن نحبه؟ هل نستطيع أن نحب الشجعان والأذكياء الذين تمتلىء مشاعرنا إعجاباً بهم وخوفاً منهم وتضاؤلاً أمامهم، وثناء منطوقاً أو غير منطوق عليهم؟

إننا قد نحب الحيوان الضعيف المستسلم الذي لا نستطيع الاعجاب به ولا الامتداح له. كما قد نحب الإنسان الضعيف أو البليد أو المستسلم أو المهزوم الذي يجعلنا نستطيع أن نعجب بأنفسنا أو نرضى عنها حينما نضعه في منافسة أو في خصومة معها أي مع أنفسنا إننا قد نجد في بلادة جارنا ثناء علينا. إننا لا بد أن نقوّم أنفسنا محسوبة بالآخرين، أو محاسبة بهم، أو مطروحة في مباراة معهم.

ولكن ألسنا نحب الجمال الذي يهب لنا نفسه، ونعجب به، بل ألسنا نحبه حتى وإن لم يهب لنا إلا افتراسه للهفاتنا؟ إذن فالحب والإعجاب قد يجتمعان. وهل نحن حقاً نعجب بالجمال أم أن عواطفنا تتداخل وتصاب بالاختلاط والفوضى؟

هل يمكن ضبط العواطف أو تصنيفها بأي أسلوب أو بأي جهاز أو بأي منطق؟

ولكن المرأة قد تعجب جداً بامرأة أخرى لجمالها ثم لا تستطيع أن تحبها بل ثم لا بد أن تكرهها كراهة تتحول إلى أعنف عذاب، بل أن تكرهها بعداوة متوحشة. هل توجد كراهة تساوي كراهة المرأة الجميلة والدميمة للمرأة الجميلة جداً؟

هل تجتمع عاطفتان متعاديتان أو متناقضتان مثلما يجتمع الاعجاب والبغض، أو الاعجاب والعداوة، أو الاعجاب والخوف؟ هل يوجد مثل الإنسان في تصادم وفي تعادي وفي تنافر مشاعره فيه وفي تشويهها له؟

هل يمكن أن تتهذب أو تتعلم أو تتوقر أو تتدين عواطف الإنسان مهما تهذبت وتعلمت وتدينت لغاته وحضاراته؟

هل توجد ذات تتعذب أو تتشوه أو تتقاتل أو تتنافى من داخلها وبمشاعرها مثل ذات الإنسان؟ هل توجد ذات مثل ذات الإله أو ذات النبي أو ذات الزعيم أو ذات المرأة فيما تلقى وتعاني من عذاب العواطف المتقاتلة المتنافسة المتخاصمة؟

إن الإعجاب رهبة وانبهار ومواجهة للتفوق المذل أو المخيف أو المرهق أو المحرج. إنه شعور غير ملائم لنا. إنه شعور حاد بالمنافسة المضادة والمخيفة والمهينة. إن الإعجاب شعور يتجه إلى أعلى مثل الحقد والحسد. إنه لشيء شاذ أن يتجه الإعجاب إلى أسفل. إن الإعجاب معنى من معاني الخوف أو البكاء وليس معنى من معاني الأمان أو الابتسام إن المعجب ليس إنساناً مبتسماً بل مبهور أو مقهور أو مهدد..

أما الحب فإنه ينطلق أو يتولد عن الشهوة أو الرثاء أو الرحمة أو التوافق والملاءمة، أو عن الشعور بالتفوق على من نهبه حبنا.

إن الحب أحياناً ليس إلا أسلوباً من أساليب الثناء على النفس. إنه إقناع لها بأنها معطية ومتفضلة.

إن من اقتنع بتفوقه على إنسان فإنه لمفروض أو محتوم أن يحب ذلك الإنسان أو أن يشعر نحوه مشاعر مريحة أو مستريحة أو مرحبة محيية. إنه حينئذٍ لن يحقد عليه أو يحسده أو يخاف منه. إذن هل يمكن ألا يحبه أو أن يكرهه؟

إن ذلك الإنسان الذي جعلك تقتنع بتفوقك عليه يهبك القدرة والجرأة على أن ترضى عن نفسك وعلى أن تتحدث عنها وتشير إليها بإعجاب وكبرياء. إن كل إنسان محتاج إلى أن يعجب بنفسه وإلى أن يرضى عنها وإلى أن يصاب بأي قدر أو أسلوب من الكبرياء.

أليس محتوماً أن تحب المرأة الجميلة المرأة الدميمة أكثر مما يمكن أن تحب المرأة الجميلة، وأن يحب الزعيم القوي الطموح الذكي، الزعيم الضعيف الخامل البليد أكثر مما يمكن أن يحب الزعيم المماثل له أو المتفوق عليه بقوته وذكائه وطموحه، وأن يحب الإله الكبير الإله الصغير أكثر مما يمكن أن يحب

الإله الأكبر منه أو المساوي له، وأن يحب النبي أو المعلم الأتباع الأغبياء المصدقين أكثر مما يمكن أن يحب الأتباع الأذكياء الناقدين المبصرين المحاسبين لما يواجهون ويسمعون ويعلمون؟

هل من الاحتمالات أن نحب من يشعروننا بأننا أقل وأضعف منهم أو دونهم في بعض الأشياء أو في كل الأشياء مهما كان إعجابنا بهم واقتناعنا بمزاياهم أو بتقواهم أو بطهارتهم النفسية والأخلاقية؟

هل يمكن أن يحب النبي نبياً آخر جاءت معجزاته وآياته أقوى وأشهر من معجزاته هو ومن آياته؟

هل تستطيع فضائل الإنسان النفسية أو الفكرية أو المذهبية أو الدينية أن تنتصر من داخله على أهوائه؟ إن أي نبي أو قديس لو أراد أن يحب بفضيلته النفسية أو بتقواه أو بنبوته وقداسته فقط، من يستحقون الحب بقدر ما يستحقونه لرفضت ذلك أهواؤه. إن عواطف أي نبي أو أي قديس لا تستطيع أن تتعامل مع الأشياء أو مع النبي والقديس بقدر ما يساوي ذلك النبي أو القديس في السوق. إن عواطف وأهواء أي نبي لا يمكن أن تساوي تعاليمه أو أن تتأثر بها.

إن عواطف الأنبياء والقديسين والكبار جداً ليست أكثر تهذباً أو تأدباً أو تلاؤماً معهم أو حياءً منهم، أو مجاملة وطاعة لهم أو رفقاً بهم أي من داخلها من أية عواطف أخرى. إنها لا تستطيع أن تكون كذلك.

ما أكرم وأنبل وأتقى التافهين والأغبياء والضعفاء والعاجزين في حسابات عواطفنا، وفي مجاملتهم لها وفي رفقهم بها وفي ثنائهم عليها.

إنه لا شيء يهب عواطفنا السلام والمسرات والكبرياء مثل الضعفاء والأغبياء والتافهين والعاجزين والمهزومين والمتخلفين.

أما الأذكياء والأقوياء والمتفوقون وجميع ذوي المستويات الشامخة بل والمستويات النظيفة المتحدية بنظافتها وتقواها ورفضها ـ أما هؤلاء فسحقاً لهم. إنهم الوحوش المفترسة لكل ما في عواطفنا من كبرياء ومن جوع إلى الكبرياء. إن مستوياتهم عدوان على مستوياتنا وغيظ لها. إنهم عدوان على سلامنا النفسي.

إن حبنا وبغضنا وأيضاً جميع عواطفنا ليست أخلاقية. إنها لا تستطيع أن تتعلم الأخلاق. إنها أي عواطفنا حيوانات ووحوش وحشرات، لا يمكن أن ترسل إليها الآلهة بالأنبياء والمعلمين، ولا أن تخاطبها بالأديان ولا أن تقرأ عليها أو لها الكتب المقدسة. إنها لا تعرف لغة الآلهة أو الأنبياء أو المعلمين.

إن النبي الذي يحاول أن يعلم أهواءنا وعواطفنا الأخلاق أو التقوى هو نبي يحتاج إلى أن يتعلم من أهوائنا وعواطفنا قسوة الأشياء.وأخلاقها بدل أن يحاول تعليم الأشياء أو تعليمنا أو تعليم عواطفنا وأهوائنا قوة النبوات أو أخلاقها أو ضعفها. إن مثل هذا النبي ليحتاج إلى أن يتعلم منا بدل أن يحاول تعليمنا. إنه ليحتاج إلى أن يتعلم من عواطفه بدل أن يتعلم من نبوته وبدل أن يعلم بنبوته.

لقد كانت جميع النبوات والتعاليم والمذاهب تعلم العواطف والأهواء لغاتها فقط، إنها لم تكن تستطيع، ولعلها لم تكن تحاول أن تعلمها أخلاقها أو نياتها. إن ذلك لشيء لا يمكن أن يوجد من يستطيعون تعليمه أو ما يستطيع تعليمه. لقد كان البشر في كل تاريخهم يتعلمون التعبير عن عواطفهم لا صياغة عواطفهم. لقد كان جميع الأنبياء والدعاة في كل تاريخهم معلمي لغات لا معلمي نيات أو أخلاق من الداخل.

* *

إن الذين نحتاج إلى مقاومتهم ـ ولو بالشعور ـ لا نستطيع أو لا يمكن أن نحبهم. إن الحب عطاء أو أخذ، أو هو أخذ في أسلوب عطاء، أو عطاء يراد به الأخذ.

إن الحب شهوة ورغبة واطمئنان وتوافق بأسلوب ما أما الاعجاب فانبهار وارتجاف وخوف وانهزام وعجز وشيء من المقاومة ولو الداخلية. إن الحب افتراس وجوع وبحث وتمن. أما الاعجاب فتراجع وتواضع، وتحديق إلى الذات وإلى الأشياء بتصاغر. إن المحب أفضل حظاً من المعجب. إن الاعجاب أقسى تعذيباً ووحشية وأكثر عدواناً من الحب.

إن الحب والاعجاب كلمتان يتحدث بهما الأنبياء والخطباء والزعماء والشعراء والجماهير، ويخطبون بهما، ويعلمونهما، ويقومون بهما جميع الأشياء، ويحاربون أو يسالمون بهما كل شيء وكل أحد، دون أن يتقاتلوا ليفهموهما أو ليفسروهما أو ليتفقوا عليهما، أو ليعلموا متى يوجدان أو يفقدان، أو متى يصدقان أو يكذبان.

إن أحداً من هؤلاء الأنبياء والزعماء والشعراء والخطباء والجماهير لم يذهب ليشكو إلى الآلهة عجزه عن فهم معنى الحب ومعنى الإعجاب، وعن الاتفاق على فهمهما وتفسيرهما، وعلى استعمالهما. إن أحداً منهم لم يذهب ليضرع إلى الإله لكي يجعل الحب والإعجاب مفهومين أو موجودين أو مستعملين بصدق وذكاء وعاطفة بريئة. إن أحداً من هؤلاء لم يشعر بأنه محتاج إلى أن يعرف ما يتحدث عنه وما يؤمن به ويتعامل عليه. إن أحداً منهم لم يبك لأنه لم يعرف أو لأنه يتحدث بما لا يعرف.

والذين آمنوا بالأنبياء وبالمعلمين الروحيين الخالدين ذلك الإيمان الفاضح المذل هل أحبوهم أم أحسوا بهم ولهم وإليهم أحاسيس الرثاء والبكاء والرحمة، لأنهم كانوا يقاسون الضعف والحرمان والهوان والعذاب والإذلال والأحزان والهزائم والظلم؟ هل أعجبوا بهم أم بكوا وحزنوا من أجلهم؟

هل كان ممكناً أن يؤمنوا بهم هذا الإيمان الواهب نفسه بلا شروط أو حدود لو أنهم، أي لو أن أولئك الأنبياء والمعلمين الروحانيين الخالدين، كانوا أقوياء وسعداء ومتفوقين بذكائهم ومواهبهم الخارقة؟ إنهم حينئذٍ قد يعجبون بهم ويخافونهم ويحترمونهم ويحسدونهم، ولكن هل يمكن أن يحبوهم أو أن يؤمنوا بهم إيماناً محباً أو إيمان من قد أحب؟ هل يمكن أن نؤمن إيمان تدين وتقوى بمن

لا نحب؟ هل يمكن أن نؤمن مثل هذا الإيمان بمن نعجب بهم؟ هل أحب الناس أنبياءهم ومعلميهم وقديسيهم؟ وهل أعجبوا بهم؟

هل أحبوهم أو أعجبوا بهم أكثر من حبهم للمعابد والمحاريب التي يصلون فيها أو من إعجابهم بها أو بالأرض التي يسجدون فوقها.

لقد تصور الناس الإله تصوراً رهيباً وباهظاً. فهل استطاعوا مع تصورهم له ذلك التصور الرهيب الباهظ أن يحبوه، أم أنهم خافوه وطمعوا فيه ونافقوه وحاولوا أن يكذبوا عليه ويخدعوه؟

هل الذين يصلون للإله يحبونه أم يروضون ويتملقون قوته وكبرياءه؟

هل الإله شيء يمكن أن يحب أو أن تسعد به أو أن تستريح إليه العواطف أو الضمائر أو الأخلاق أو العقول؟ هل هو شيء يمكن احتماله أو النظر إليه بشوق أو بثقة؟

هل تستطيع العيون أو العقول أو القلوب أن تجد في الإله وجهاً أو قلباً أو معنى أو تفسيراً صديقاً أو مريحاً؟

أليست الألوهية شيئاً يسحق الحب ويذله ويخيفه ويرفضه؟

هل الألوهية أنشودة ألفتها القلوب لتغنيها ولتغني لها أم هي خوف وتهديد تتعذب بهما الأعصاب والظنون؟ هل واجه الإنسان في هذا الكون وحشية أو كآبة، أو هل تصور وحشية أو كآبة مثل وحشية الألوهية وكآبتها؟ هل عاقب الإنسان نفسه بشيء مثلما عاقبها بهذا التصور؟ إنك مهما آمنت وصليت لإلهك بكل ذعرك وجبنك وهزيمتك فإنك لن تستطيع أن تجعل قلبك يحبه. وهل يمكن أن تحب من تخاف منه كل الخوف، وتتوقع منه كل المخاطر، ومن يصنع ويعد لك ويوقع بك كل الآلام والأحزان والمخاوف والعاهات والتشوهات؟ هل لك عدو أو نقيض أو خصم مثل إلهك؟ هل في أعدائك من يوقع بك مثل إلهك؟ هل تصورت لك عدواً مثلما تصورت إلهك؟

هل يستطيع قلبك أن يكون ذليلاً أو نبيلاً، متسامحاً أو غبياً لكي يحب كائناً لا يمكن أن يفهم أخلاقه أو منطقه أو ما يصنع سروره وأحزانه، إنه يحب كائناً يذهب باهتمام لا حدود له يدبر ويريد ويصنع لك وبك كل الأمراض والضعف والشيخوخة والهوان والموت وجميع العاهات والمخاوف والجحيم وأهواله ووحوشه، دون أن يكون أي ذلك الكائن محتاجاً أو جائعاً إلى شيء من ذلك، أو محكوماً عليه به، أو منقذاً له من الموت أو الصلب أو من الكآبة أو من كينونة العبث والضياع؟ هل يستطيع قلبك أن يحب كائناً مثل هذا الكائن؟

لعلك قد اتهمت قلبك وهجوته وظلمته حينما زعمت أنه قد أحب مثل هذا الكائن.

هل تستطيع أن تجعل قلبك يستطيع أن يحب من يطالبك ويرسل إليك الأنبياء والمعلمين لكي يعلموك ويفرضوا عليك أن تهون له وأن تنافقه، دون أن تبقي لعقلك أو لأخلاقك أي قدر من الكرامة أو الحرية أو الذكاء، وأن تلقي بكل كبريائك وابائك وذكائك تحت قدمي جبروته لتكون أذل وأصغر

وأكثر هواناً من جميع الحشرات والديدان، وإلا أوقع بك من العذاب والعقاب والغضب والتحقير ما لا تستطيع أن تتحمله كل الكائنات ولا كل الحشرات والحيوانات؟ هل يستطيع قلبك أن يحب من يفرض عليك من الهوان والخوف والتملق ما لم يفرض على الحشرات، على أصغر الحشرات؟

هل يمكن أن تحب، مهما كنت عفواً غفوراً، من يطالبك ويفرض عليك كل ما جاء الأنبياء والمعلمون ليطالبوك به ويفرضوه عليك من الهوان والصبر والتلقي والتصديق والتضرع والاستسلام والغباء والخوف والإيمان والتوقع؟

هل تحب كائناً لم يوجه إليك أحد من التحقير ومن التهديد بالعقاب مثلما وجه إليك؟

هل يمكن أن تحب كائناً لم تره حتى ولا صورته، ولم تسمعه، ولم تعرفه، ولم تفهمه، ولم تزره، كما لم يزرك ولم يفعل ولو مرة واحدة ما تريده منه وتدعوه له مما هو جدير به، وقادر عليه، ومنتظر منه؟

هل تحب كائناً لم يرد أن يجعلك ولو يوماً واحداً كما تحتاج وكما يجب عليه دون أن يخشى الموت والعقاب لو جعلك كذلك؟

هل المخيف المهدد المعاقب المذل المشوه القاتل الممرض، بلا استمتاع بذلك أو حاجة إليه أو مصلحة لك أو له أو لسواك أو لسواه ـ هل الفاعل لذلك بهذا الأسلوب وبهذه الرغبة والنية يمكن أن يكون محبوباً؟

وهل الإله إلا كل ذلك؟ وهل كل ذلك إلا بعض الإله وبعض مستوياته وبعض صفاته؟ هل توجد لغات تستطيع أن تعبر عما فعل بك الإله وعما ينوي ويعلن أنه سوف يفعله بك ولك من أهوال لا تستطيع جميع أهوال الكون أن تساويه أو تشبهه؟

هل يمكن أن تحب الوباء أو القحط أو الزلزال المدمر أو الوحش المفترس الآكل لكل أبنائك وأجدادك، والذي سوف يصبح مفترساً آكلاً لك ولكل أبنائك وجيرانك وأهلك وأصدقائك، ولكل من تعرف وتحترم وتحب ولكل من لا تعرف أو تحترم أو تحب؟

هل يمكن أن تحب وحشاً هو كل الوحوش وكل الافتراس لكل الناس ولكل شيء؟ بل هو أكثر وأكبر من كل الوحوش ومن كل الافتراس.

إنك لو أحببت من يفعل بك ولك وحولك كل ذلك لكان للحب معنى آخر وتفسير آخر، أي لكان الحب هو أقسى معاني البغضاء والاشمئزاز والرفض والخوف. وهل من المفروض الدائم أن معاني الحب ودلالاته أفضل أو أرحم من دلالات ومعاني النقيض؟

إن أسباب البغض حينئذٍ هي أسباب الحب، وأسباب الحب هي أسباب البغض. إنها حينئذٍ لا توجد أسباب للحب وأسباب للبغض، إن أسبابهما حينئذٍ واحدة. إنها لا توجد إذن فروق بين هذه الأسباب.

إن الذي نحبه حينئذٍ جداً هو الذي نبغضه جداً، أو هو الذي ينبغي أن نبغضه جداً.

إن الإنسان لو أحب الإله الذي يفعل له وبه كل هذا الذي يصيبه والذي يواجهه ويراه ويعرفه لكان الإنسان هو أسوأ وأردأ محب، ولكان الإله هو أسوأ وأردأ محبوب، ولكان الحب هو أردأ وأقبح شيء نوجهه إلى الأشياء الآخرين ونعتدي به على الأشياء وعلى الآخرين.

إنه حينئذٍ لا فضيلة ولا تقوى للإنسان محباً أي في كونه محباً، كما لا مجد أو فخر للإله محبوباً أي في كونه محبوباً. إننا حينئذٍ يجب أن نبحث عمن يبغضوننا لا عمن يحبوننا إننا حينئذٍ يجب أن نخاف ممن يحبوننا. إنهم حينئذٍ هجاء لنا.

إن المجد حينئذٍ لمن تصيبهم البغضاء. إنه إذن أي المجد لمن نبغضهم.

إن حب الإنسان للإله إسقاط لمجد الحب ولكبريائه، وإنه لتشويه وهجاء لمعانيه وتفاسيره، وإنه لتشكيك في تاريخه.

إن حب الإنسان للإله يعني حب كائن أو حب نموذج لا يمكن أن يوجد من يستحق البغض مثله..

إن المحبين والمحبوبين لو فطنوا إلى ذلك أي إلى حب الإنسان للإله الذي يصيبه بكل ما يصيبه به، مريداً مدبراً له، لرفضوا ورهبوا أن يكونوا محبين ومحبوبين، أو لرفضوا ورهبوا الإعلان عن أنهم محبون ومحبوبون، أو لرفضوا ورهبوا الاعتراف بأنهم هؤلاء أو هؤلاء.

أيها الحب. ماذا يمكن أن تساوي العقول أو القلوب أو الأخلاق تتعامل بك في تعاملها مع الإله.

أيها المحبون، أيها المحبوبون. إن الناس يحبون الإله. إذن هل من المجد أن تحبوا أو تحبوا؟ أليس من العار أن تفعلوا؟

* *

إذن فهل أعجبت بالإله؟ إنك لو كنت به معجباً لكنت معجباً بكل ما ترى وتعلم وتقاسي ويقاسي الآخرون، وبكل ما يحدث كما يحدث وكيفما يحدث.

ولكنك لو كنت معجباً بكل ذلك لما أنكرت أو رفضت أو حقرت أو كرهت أي شيء يحدث أو أي شيء يصيبك، ولما غضبت على شيء أو اشمأززت من شيء بل لكان محتوماً أن تشكر كل ما يصيبك وأن تصلي له وأن تستمسك به وأن ترفض مفارقته، وأن تراه أجمل الأشياء وأنبل الأشياء وأرحم الأشياء، وأذكى الأشياء لأنه عطاء وتدبير من يملك كل إعجابك به.

ولكن أليست كل أساليبك ونيات حياتك، وكل أفكارك ومنطقك واهتماماتك ومشاعرك رفضاً وإنكاراً ومطاردة لما ترى وتواجه وتلقى ولكل ما يصيبك من ذلك؟ أليس كل شيء فيك يقاوم ويرفض كل شيء حولك مهما كانت مختلفة أو متفاوتة أو متخفية أساليب هذه المقاومة وهذا الرفض؟

ألست تقاوم وتغضب وتشمئز دائماً أو أحياناً من كل شيء أو من بعض الأشياء، مهما كان خمولك وخمودك واستسلامك وإيمانك وطاعتك للقدر والأحداث، وللمعلمين الذين يجيئون إليك

لكي يعلموك كيف تفقد كل الغضب والاشمئزاز والرفض والمقاومة والكبرياء والذكاء والاشتراط لنفسك والاشتراط على الأشياء أو للأشياء؟

أليس كل ذلك يعني حتماً أنك لست معجباً إعجاباً شاملاً أو مطلقاً بالأشياء؟ أليس فقدك للإعجاب المطلق أو الشامل بالأشياء يعني حتماً أنك لست معجباً بالإله إعجاباً شاملاً أو مطلقاً؟ أليس فقد الإعجاب الشامل المطلق بالإله يعني حتماً فقد أي إعجاب به؟

إن الإعجاب بالإله لا يمكن أن يكون مجزّأ. فأما إعجاب مطلق وشامل أو لا إعجاب. إن الإله لا يكون جيداً ورديئاً، جميلاً ودميماً، عادلاً وظالماً. إنه لا يكون هذا وهذا، بل أما هذا أو هذا، إن الإله لا يكون بعض الذكاء أو بعض الصدق أو بعض العدل.

إن رفضك لكل أو لبعض ما ترى وتواجه وتقاسي ـ إن رفضك له بسلوكك أو بشعورك أو بمنطقك أو بتدبيرك أو بتعليمك أو بغضبك أو بصلواتك وأمانيك، أو بحبك وبغضبك، أو بشهواتك.

إن رفضك هذا ليس إلا رفضاً للإله، وليس إلا تفكيراً وتدبيراً وشعوراً ضده، وليس كذلك إلا مقاومة له وغضباً عليه، واشمئزازاً منه. وإنه أي الإله ليعلم أن الأمر لكذلك. ولكنه قد يغفره لك لأنه يستمتع به، أو لأنه يسعد بأن يراك تقاسي وتتعذب وتحاول مهزوماً ومفجوعاً. إن الإله قد يرضيه خروجك عليه إذا كان خروجك يعني أنك مهزوم ومتألم وضائع ومتمزق. إن تمزق الرعايا والعبيد قد يرضي كبرياء وطموح الآلهة والسادة إذا كان هذا التمزق يعني المزيد من الاستسلام والضعف والعجز في الرعايا والعبيد.

إن جميع مقاوماتك وتدبيراتك ليست إلا تدبيرات ومقاومات للإله، لتدبيره وتفكيره ولأخلاقه ولكل فنونه وشهواته وأهوائه. إن طردك للذباب من فوق وجهك أو طعامك ليس إلا مقاومة ورفضاً للإله. إنه طرد لإرادته ومنطقه.

إن البشر لا يقاومون ولا يرفضون شيئاً أو أحداً غير الإله أو مثلما يرفضون ويقاومون الإله. وإنهم لا يفكرون أو يدبرون ضد أحد أو شيء غيره، أو مثلما يدبرون ويفكرون ضده، ضد ما يريد ويفعل ويرى. إن جميع أعمالهم وأفكارهم موجهة ضد هذا الوجود وضد من فوقه أو من يدبره ويصوغه.

إنه لا أحد مكروه أو مرفوض أو منبوذ أو مخروج عليه أو مهزوء به ومسخور منه أو مراد الفرار منه مثل الإله أي في حساب من يرونه الخالق.

إن الإله هو الكائن الذي لا يرضى به ولا يشتهيه ولا يسعد به ولا يحبه ولا يتعامل به أو معه أو عليه أحد. إنه المنبوذ والمرفوض عالمياً بل كونياً.

إن أية مقاومة لأي شيء، وأي هزء بأي شيء ليسا إلا مقاومة للإله وهزءاً بالإله. إن أي غضب على أي شيء أو من أي شيء، وإن أي اشمئزاز ليسا إلا اشمئزازاً من الإله وغضباً عليه أو منه. إن

الأنبياء والقديسين ليسوا أقل من أعدائهم اشمئزازاً من الإله وغضباً عليه ومنه ومقاومة له لأنهم ليسوا أقل من أعدائهم رفضاً للأشياء واشمئزازاً منها ومقاومة لها وغضباً عليها.

ارفق أيها المؤمن التقي. ارفق بإلهك حينما تحاول أن تقتل حشرة أو أن تشمئز من دمامة أو عاهة أو تفاهة، أو حينما تحاول أن تقاوم أو ترفض ألماً أو مرضاً. ارفق أيها المؤمن التقي حينما تحاول أن تفعل شيئاً من ذلك. ارفق بإلهك فإنك إنما تفعل دائماً ضد إلهك. ارفق أيها النبي، أيها القديس، بإلهك حينما ترفض أو تقاوم ألماً أو مرضاً أو عاهة فإنك إنما ترفض وتقاوم إلهك ـ تدبير ورحمة وذكاء وجمال إلهك.

إن جميع ما تواجه وتعاني وتقاوم وتحتقر وتخاف وترفض ليس إلا إلهك قد جاء في أزياء أخرى، أو قد جاء في تعبيرات وصيغ أخرى.

إن عليك ـ احتراماً لموقفك ـ ألا تقاوم أو ترفض شيئاً، أو ألا تؤمن بأن فوق الأشياء كائناً تؤمن وتعجب بمنطقه وبأخلاقه وقوته وبصداقته.

إن إيمانك هذا مع مقاومتك ورفضك للأشياء أو لأي شيء لهجاء لذكائك ولأخلاقك ولإيمانك أيضاً. أنت تقاوم شيئاً أنت معجب به كل الإعجاب.

كيف أمكن أن تغفر هذا لعقلك أو لأخلاقك؟ كيف لم تصطدم بعقلك وأخلاقك أو تقرأ نفسك بعتاب؟

إذن كيف يمكن أن تكون معجباً بالإله؟ كيف يمكن أن يعجب البشر بالإله مع أن كل حياتهم ونياتهم وأفكارهم ومشاعرهم ليست سوى أساليب مختلفة للخروج عليه ولمطاردته، أي للخروج على ما أراد ودبر واشتهى وفعل، ولمطاردة كل ذلك، أي مع أن كل حياتهم ونياتهم وأفكارهم ومشاعرهم ليست سوى أساليب مختلفة لرفض الاعجاب به ولإعلان هذا الرفض؟

إنهم جميعاً ليفعلون ذلك حتى أنبياؤهم وقديسوهم. نعم حتى جميع أنبيائهم وجميع قديسيهم يفعلون كل ذلك.

إن الإعجاب بالإله لا بد أن يعني وقف المقاومة له، أي وقف المقاومة لما أراد ودبر واشتهى وفعل، أي وقف المقاومة للكون والطبيعة، أي وقف المقاومة لأي شيء، أي وقف الإنسان عن أية مقاومة أو عن كل مقاومة، لأن أية مقاومة وكل مقاومة لأي شيء لن تكون إلا مقاومة للإله.

هل المعجب بالشيء يقاومه، وهل المقاوم للشيء معجب به؟

هل الإعجاب والمقاومة شيء واحد؟ هل أحدهما تفسير للآخر أو تمجيد أو إثبات له أو اعتراف به؟

إذن أنت لا تستطيع أن تحب الإله ولا أن تعجب به. إنك لا تفعل شيئاً من ذلك في سلوكك ولا في منطقك أو نياتك مهما كانت تعاليمك وأحاديثك غير ذلك أو نقيضه. إن أي نبي أو قديس لن يستطيع أن يحب الإله أو أن يعجب به بأخلاقه أو بنياته أو بمنطقه أكثر أو أصدق من أي إنسان آخر،

من أي زنديق آخر.. إذن ما هي علاقاتك بالإله؟ وهل لك علاقة بالإله؟ هل توجد علاقات من أي نوع أو على أي مستوى بين البشر وبين آلهتهم؟ وهل الآلهة في حياة البشر غير لغات يعنون بها معانيهم الخاصة والأليمة والحزينة والجائعة والتي لا تفسير لها؟

هل إلهك في حياتك غير التعبير بلغة أخرى عن أحزانك وآلامك ومجاعاتك وضياعك وبكائك وآهاتك؟

* *

إن البشر في تاريخهم الطويل الحزين لم يحبوا الأقوياء أو المتفوقين أو المنتصرين أو المتكبرين عليهم، وإنما رهبوهم واستسلموا لهم وأطاعوهم، جنوا وماتوا وصلوا وراءهم ولهم. لقد أرادوا بذلك أن يستريحوا من آلام وأخطار وهموم المقاومة والرفض والشك والبحث عن الطريق.

إن الطاعة والاتباع والموت تحت أقدام القادة والأقوياء ليس حباً أو نبلاً أو تهذيباً أو تقوى أو احتراماً أو حياء أو خضوعاً للواجب، لكنها بحث عن الراحة والأمان، أو فرار من المعاناة والخوف. نعم، إننا قد نموت تحت أقدام القادة والطغاة وتحت أقدام المعلمين الزائفين بحثاً عن الأمان والراحة وهرباً من الخوف والقلق. إننا نطيع الخوف لنأمن.

إن الطاعة فرار من الالتزام ومن الواجب ومن الخوف والشجاعة مهما بدت وكأنها التزام وواجب وخوف وشجاعة إنه ليس في الطاعة معنى من معانيها ولا نية من نياتها. إن الطاعة لا تعني إلا نقيض تفاسيرها وتعاليمها. إن الطاعة سباب للمطاع.

لقد رغب البشر حينما أطاعوا الأقوياء والمتفوقين أو من بدوا وكأنهم أقوياء ومتفوقون ـ لقد رغب البشر حينما أطاعوا هؤلاء في أن يلقوا بمشاكلهم وبذنوبهم وهمومهم ومخاوفهم على قوم أرادوا أن تلقى عليهم وطالبوا بهذا الإلقاء عليهم. إن المطاع ليس كائناً يحترم أو يمجد أو ينزه أو حتى يوثق به، ولكنه كائن يسقط عليه أو يلوث أو يتهم أو يشتم أو يعاقب أو يحاكم أو يورط أو يفضح. إن المطاع ليس إلا كائناً يلقي عليه المطيعون كل ذنوبهم وأثقالهم وعاهاتهم ونقائصهم وأوحالهم وهمومهم بلا أية شفقة أو محبة أو رحمة أو احترام له.

* *

أجل، إنها لم توجد ولن أية توجد أية وسيلة ولا أي مذهب أو دين أو تعاليم أو اتفاقات أو نبوات أو مؤتمرات تستطيع أن تجعل عواطف الإنسان أو انفعالاته أو همومه أو تصوراته أو توقعاته أو تحديقاته ورؤاه حضارية أو أخلاقية أو منطقية أو ذكية، أو حتى وطنية. إن جميع الحضارات والنبوات والعبقريات والكتب المنزلة وجميع المحاريب والمنابر لا تستطيع أن تجعل عواطف البشر متحضرة أو مهذبة أو متدينة من داخلها.إن عواطف الإنسان هي الوحوش والحيوانات والحشرات التي لا يمكن ترويضها أو تنظيفها وتعليمها النبوات إلا بالأسلوب واللغة.

إن الظروف حتماً تتغير فتصبح ملائمة للعواطف أو أكثر ملاءمة لها ولكن العواطف مع ذلك لا تتغير. إن لغات التعبير عنها أو أساليب التعبير قد تتغير، أو هي حتماً تتغير وكذا تتغير أهواؤها وأساليبها حينما تتغير ظروفها وتكون أكثر ملاءمة لها. غير أن نفس العواطف لا تتغير ولا تستطيع التغير. إن أخلاقها ونياتها وصفاتها لا تتغير مهما تغيرت لغاتها وأساليبها أو همومها ومسراتها.

إن العواطف لا تستطيع أن تكون عاقلة أو عادلة أو منطقية أو خاضعة لمكانة صاحبها أو لذكائه أو لمستواه أو لما يريد أن يكونه أو يعرف عنه أو ينتظر منه، أو متكافئة مع مواهبه أو مع قدرته أو عمله، أو متسامية فوق البذاءات والتلوث والتوحش والتعري الذاتي والأنانية التي لا تتفاوت مهما تفاوت التعبير عنها.

إن أنانية القاتل ليست أقوى أو أفسق من أنانية الشهيد أو الفدائي. إن أنانية النبي ليست أتقى من أنانية أعدائه.

إن من أبشع ما في العواطف أنها متعرية أبداً تعرياً ذاتياً أي متعرية أمام ذاتها وفي ذاتها إنها لا تستطيع أن تستتر أو تتوقر أو تتهذب من داخلها أو ذاتياً مهما أثقلت جسدها ولغاتها بكل لغات وأزياء الوقار والحياء والتعاليم والفنون الأخرى، ومهما وضعت فوق وجهها السدود المختلفة العديدة الحاجبة.

* *

أيتها العواطف، ما أشد بشاعتك وذنوبك وعدوانك. ما أقبح تفاسيرك، وما أقسى وأصعب بذاءة التحديق فيك. ما أوقح تشويهك للنفوس وللأخلاق وللذكاء وللحياة. للكبار وللصغار، للتافهين وللعباقرة. للوجوه الجميلة وللوجوه الدميمة، للأتقياء وللفجار، للأنبياء ولأعدائهم. ما أقبح دمامتك مستترة وراء الوجوه الجميلة.

ما أقسى وأشمل تشويهك لكل النفوس، ولكل الأخلاق، ولكل العقول، ولكل الذكاء، ولكل الغباء، ولكل الناس، أيتها العواطف المذلة لكل كبرياء، والهابطة بكل شموخ والباصقة على كل نظافة وعلى كل وجه، وفي كل إناء، ما أوقح تبلدك وصمتك أمام مواكب الأحزان والآلام والمظالم والتشوهات والعاهات والأنات.

ما أقبح دماماتك وعاهاتك أيتها الأحقاد، أيها الحسد، أيها البغض، أيتها الغيرة، أيتها النذالة، أيتها الشماتة بالمهزومين وبالمهانين وبالمصابين، وبالضعفاء والأغبياء.

ما أشد وقاحتك ودمامتك حينما تتألقين وتزدهرين في نفوس الكبار وفي نفوس الصغار، في نفوس الأذكياء وفي النفوس البليدة، في النفوس المعذبة وفي النفوس السعيدة، وفي كل النفوس. حتى في نفوس من يجيئون من وراء الكون ومن فوق جميع الأشياء لكي يعلموا ضدك، ولكي يداووا منك. نعم، حتى نفوس من يجيئون ليعلموا ضدك وليداووا منك تتألق فيها وقاحاتك ودماماتك وتزدهرين فيها بكل كبريائك وبذاءاتك.

أيتها الأحقاد والحسد والبغض والغيرة والشماتة، ما أقبح وأوقح وقاحاتك وبذاءاتك حينما تتبرجين وتتوهجين في نفوس الدعاة والزعماء والقادة العظام، وفي نفوس من جاءوا ويجيئون ليعلموا الأرض أخلاق السماء، وكبرياء السماء، وارتفاع السماء. ما أقبحك وأوقحك مطلة بكل كبريائك وبذاءتك من وراء الأزياء والذوات والأجسام الجميلة والنظيفة والموقرة والمهذبة والمعظمة والمحترمة والقوية.

أيتها الوحوش النفسية.. أيتها العاهات.. من أين جئت، وكيف جئت، ولماذا جئت؟ من دعاك، أو فكر فيك، أو أرادك أو ابتكرك؟

هل أنت نبت شيطاني خبيث أم أنت تصميم عبقري؟ هل أنت عطاء إله رحيم أم شيطان رجيم؟

هل أنت عاهة أو موهبة أو ضرورة؟ هل جئت غازية مهاجمة أم جئت مغيثة ملبية؟ هل دعتك الحياة أم سقطت عليها؟

أي النفوس تستقبلك أكثر، وأيها تختارين سكناً لك أفضل: النفوس الكبيرة أم الصغيرة؟ أي الرجال يتعامل بك أقوى: الكبار أم الصغار؟

هل جئت لأن الإنسان لا يحيا أو لا يسعد أو لا يتحضر إلا بك أم جئت بلا تفسير وبلا وظيفة؟

في أي النفوس والأخلاق بدأت وجودك؟ أي الأخلاق أو أي النفوس حبلت بك أولاً؟ هل خلقتك أو حبلت بك النفوس والأخلاق أم هبطت إليها من بعيد، من بعيد جداً، كيف كان اللقاء الأول بينك وبين أول نفس تعاملت بها وعليها، هبطت إليها أو تخلقت فيها أو حبلت بك؟

هل تذكرين أيتها الوحوش النفسية كيف كانت صيغة ونشوة اللقاء الأول بينك وبين أول نفس وفدت إليها أو نبت فيها؟ كيف كانت أولى العلاقات والممارسات بينكما؟ كيف كانت المعانقات الأولى؟ هل تتذكرين ذلك؟ هل تسعدين بتذكره؟

وأيكما وجد أولاً: أنت أيتها الوحوش النفسية أم النفوس التي تشيدين مجدك وتمارسين مسراتها ولذاتك فيها؟ هل أنت سعيدة بوجودك؟ هل أحد سعيد بوجودك؟ إذن لماذا وجدت؟ هل وجدت مظلومة مقهورة؟ من فعل بك ذلك؟ هل يستفيد؟

أيتها الوحوش الإنسانية.. كيف يستطيع الناس أن يعايشوك أو أن يعايشوا أي شيء وأنت تعيشين فيهم؟ كيف يستطيعون وأنت تعيشين في نفوسهم وأخلاقهم أن يتبسموا أو أن يغنوا وأن يلمسوا الزهور أو أن يتحدثوا عنها أو أن يزرعوها أو أن يضعوها فوق ملابسهم أو فوق مكاتبهم أو في حدائقهم، أو أن يتحدثوا إلى الآخرين، أو إلى أنفسهم، أو إلى أربابهم عن الحب أو عن الجمال أو عن النظافة أو عن الطهارة النفسية أو الإنسانية؟

كيف يستطيعون وأنت الساكن الدائم المفضل في أعماقهم، أن يرتفعوا بأبصارهم أو بطموحهم أو بهاماتهم إلى الشموس والنجوم، لينشدوها الأشعار، وليحدثوها عن السمو والنور والكبرياء، أو إلى الآلهة ليقرأوا عليها نياتهم أو ليصلوا لها بقلوبهم التي تعيش فيها هذه العفونات؟ كيف تقبل الآلهة أن

تتعامل مع نفوس أو أن تعيش في نفوس تعيش فيها وتتعامل معها هذه العفونات؟ كيف لا تعاقب من يؤمنون بها؟ كيف يجرؤ الناس على أن يتحدثوا عن أنفسهم إلى أي شيء نظيف أو شامخ؟ كيف يستطيعون أن يشيروا إلى السحاب، أو أن يتحدثوا إليه، أو أن ينطقوا باسمه؟ كيف يجرؤون على الاغتسال في الأنهار؟ ألا يخشون تلويثها؟ ألا يخشون أن تغرق في عفونات أنفسهم؟

هل البشر متفوقون في قوتهم أم في وقاحتهم؟ هل هذه بسالة فيهم أم بذاءة؟ هل الافتضاح بسالة أم بذاءة؟ هل تحدث البشر عن نظافة النفوس وشموخها افتضاح أم قوة؟ هل الافتضاح في الإنسان قوة أم ضعف؟ هل هو خطأ فيه أم منطق؟

أيتها النفوس الإنسانية. كم أنت مسكونة بالوحوش والحشرات، بالدمامات والوقاحات وبالتلوث. كم أنت متفوقة في دمامتك ووقاحتك وتلوثك على كل ما في الطبيعة من دمامة ووقاحة وتلوث.

كيف استطاعت الطبيعة، أيتها النفوس الإنسانية، أن تهبك وتضع فيك من الوقاحة والدمامة والتلوث، ومن الأحقاد والبغضاء والحسد، ومن الشماتة والنذالة ما لم تستطع أن تهب نفسها أو أن تهب ما فيها من وحوش وحشرات ومن كائنات أخرى هي أصغر وأضأل؟

أيتها النفوس. لقد جاملتك الطبيعة أو عاقبتك بأسلوب لم تعاقب أو تجامل بمثله سواك.

أيتها النفوس الإنسانية، كم أنت مسكونة.. أيتها النفوس المسكونة كم هي قبيحة وبذيئة وجوه سكانك، وأخلاق سكانك.

هل يوجد أيتها النفوس المسكونة مثل سكانك بذاءة أو قبحاً أو تلوثاً؟ هل يوجد سكان في دمامة أو همجية سكانك أيتها النفوس المسكونة؟

أيها الآلهة، أيها الأنبياء، أيها المعلمون، كيف جئتم وتجيئون لتتخاطبوا وتتعاملوا مع نفوس البشر، ولتصنعوا مجدكم وتاريخكم ونظافتكم منها، أو لتسعدوا بالتخاطب معها وإليها؟ حزني لكم أيها الآلهة أيها الأنبياء، أيها القديسون. حزني لكم لأنكم لا تسكنون إلا حيث تسكن العفونات، أي لأنكم لا تسكنون إلا في نفوس البشر.

هل خدعتم أيها الآلهة والأنبياء والمعلمون؟ هل أدركتم أنكم قد خدعتم؟ هل أصابكم الخجل الأليم لانخداعكم التاريخي الطويل؟

ألا تجربون نفوس الحشرات والوحوش ألا تجربون عليها نبواتكم وتعاليمكم؟ جربوها جربوها.

جربوها فلقد تتحول تجربتكم لها إلى تكفير واعتذار عن تجاربكم على نفوس البشر. حزني لكم أيها الآلهة، أيها الأنبياء، أيها القديسون. حزني لكم لأنكم لا تجدون لكم سكناً أو مكاناً سوى نفوس البشر. إنكم لا توجدون إلا حيث توجد العفونات؟ كل أحزاني ورثائي لكم إذن.

جربوا البحث عن النظافة والجمال في نفوس الحشرات والوحوش أيها الآلهة والأنبياء والمعلمون. جربوا البحث عن مجدكم في نفوس الحشرات والوحوش، بديلاً عن البحث عن ذلك في نفوس

البشر. جربوا تعاليمكم ونبواتكم على الحشرات والذئاب فلقد جربتموها طويلاً. طويلاً على الإنسان.

جربوا أن تتعاملوا مع نفوس غير نفوس البشر، مع أية نفوس غير نفوس البشر.

كل إنسان محتاج إلى أن يقتنع، أو محكوم عليه بأن يقتنع بأنه موجود، أو بأنه قد أصبح موجوداً في صيغة أو نموذج ما، في نموذج أو صيغة فكرية أو دينية أو مذهبية، أو في نموذج أو صيغة كينونة مختارة أو معينة أو متحققة، وبأنه موجود أو قد أصبح موجوداً في مكان ما.

إن الإنسان لا يقبل أو يتصور أن يكون وجوده وجوداً ذاتياً فقط، أي وجود ذات أو شيء فقط.

إنه لا يقبل أن يكون وجوداً فقط. إنه لا يستطيع تصور ذلك أو تقبله. إنه لا يقبل ولا يكون وجوداً فقط، أي بلا صيغة وبلا مكان. إنه لا بد أن يكون صيغة ومكاناً واقتناعاً ورؤية لنفسه وللآخرين وللوجود حوله. إنه لا بد أن يكون رؤية مذهبية أو اعتقادية، أي رؤية نفسية إنه لا بد أن يصبح صيغة ما، وأن يقتنع أنه قد أصبح هذه الصيغة وأن يتعامل مع الآخرين ومع الأشياء ومع نفسه وكأنه يتعامل بصيغته المعروفة المختارة.

إن الإنسان إذا وجد هذا الوجود هدأت وتوقرت أشواقه وتطلعاته وأسفاره النفسية والفكرية والروحية. إنه قد وجد نفسه ومكانه، لقد وجدهما في صيغة ونموذج وحدود معروفة. إنه لا يستطيع أن يكون بدون ذلك. إن البشر لا يقبلون ولا يستطيعون أن يكونوا صيغة أو صيغاً وجودية فقط بل وصيغاً أخرى غير وجودية أي عقلية وشعورية ومذهبية. وهل من الأفضل أو الأنفع للإنسان أن يجد نفسه ومكانه هذا الوجود أم ألا يجدهما كذلك ليظل دائماً متطلعاً مسافراً باحثاً هائماً في آفاق غير محدودة أو معروفة؟ أليس الارتحال الدائم بلا مكان معروف أو مقصود هو التفسير الكامل لمنطق الحياة ولمنطق الوجود، لمنطق الإنسان أو لمنطق كل موجود؟

إن رحلة الكون ورحلة الإنسان الدائمة ليست بحثاً عن المكان المقصود المعروف ولكنها بحث عن نفس الارتحال.

أليست الحياة الإنسانية، وكذا التقدم الإنساني والحضارة الإنسانية هي الأشواق والتطلعات والأسفار الدائمة الهائمة وراء أشياء لا يمكن اللحاق بها ولا اليأس منها ولا معرفتها ولا تحديدها ولا الاقتناع بها؟ أليست أشواقاً راكضة دائمة بلا بحث عن معشوق؟

أليس ذاك هو الذي يجعل هذه الرحلة في هذا الفراغ أو في هذا العبث أو في هذا التيه مقبولة أو محتملة؟

أليس الضرب الدائم الضال المجنون في التيه المطلق، بحثاً عن المكان وعن الذات، وعن النموذج والصيغة، أي بحثاً عما لا تمكن معرفته أو تحديده أو بلوغه، أو عما لا يمكن وجوده، أو عما لا يراد أو يقصد البحث عنه.

أليس هذا الضرب الدائم الضال في مثل هذا التيه بلا حدود هو قوة الإنسان ومجده وتقدمه

الدائم، بل وعزاءه الجميل بل والمفسر المسوغ لكينونته ولبقائه؟ أليس هذا الضرب الدائم الضال هو الاعتذار الذي يرفعه وجود الإنسان إلى الإنسان، أو الذي يرفعه الإنسان إلى نفسه تكفيراً عما لا يستطاع تكفيره؟

إن الإنسان لا يتقبل في فرضه الفكري أو المذهبي أو الإنساني أن يكون كائناً بلا مكان، أو أن يكون سفينة بلا شاطىء. إنه يريد أن يكون سفينة وشاطئاً، إنه يصر على ذلك. إنه يرفض أو لا يستطيع أن يكون سفينة فقط أو شاطئاً فقط. إنه لا يستطيع إلا أن يكون مسافراً أبداً وأن يجد لسفره تفاسير وأن يبحث عن هذه التفاسير.

إن كل إنسان لا بد أن يقتنع بأنه قد أصبح سفينة وشاطئاً، أو سفينة لها شاطىء أو وراءها شاطىء. إنه يرفض أو يعذبه ويخيفه أن يكون سفينة بلا شاطىء، أو بلا شاطىء معروف، أو تبحث عن شاطىء.

إن كل إنسان يريد أن يكون كل سيره إلى شاطىء يعرفه ويملكه لا إلى غير شاطىء ولا إلى كل شاطىء ولا إلى أي شاطىء.

والإيمان الديني قد يكون أسلوباً ممتازاً لإقناع المؤمن بأنه قد أصبح هذه السفينة وهذا الشاطىء، أو هذه السفينة التي لها أو التي أمامها مثل هذا الشاطىء.

ولهذا فإن من المقرر أو من المفروض الذي لم يتقرر والذي لن يتقرر أن يجيء المؤمن عاجزاً وخامداً في أشواقه ولهفاته وتطلعاته وفي أسفاره إلى الآفاق القصية المجهولة ذات الاحتمالات والمفاجآت الكبيرة وأن يجيء غير قادر على اللحاق بأولئك الذين لم تدبر أو تهيىء لهم السماء أماكنهم أو نماذجهم وصيغهم. إن المتقرر أو المفروض الذي لن يتقرر أن هؤلاء الذين تشيد وتصوغ لهم السماء أماكنهم ونماذجهم وصيغهم لا بد أن تموت أو أن تخمد أشواقهم وتطلعاتهم، وأن يفقدوا أسباب الرغبات في الأسفار الدائمة الهائمة في أعماق المجهول ذي الاحتمالات والمفاجآت التي ليست لها حدود أو مواقف نهائية أو صيغ متحددة أو مقنعة بالاكتفاء أو الاستغناء بها. إن المفروض أو المزعوم أن السماء تغلق الحدود دون الآفاق المجهولة المطلقة. إنها تضع للإنسان صيغة أو صيغاً نهائية وتشيد له مكاناً معروفاً محدداً مرضياً خلاباً لا مهرب منه ولا بديل له ولا رغبة عنه.

إن السماء إذن على هذا الافتراض أو بهذا التفسير منافس مخيف للأرض ولما فيها وعليها. إنها أي السماء منافسة إذن لقوة الأرض ولغواياتها وإغراءاتها، ولكل ما لها من جاذبية وسحر وطغيان.

إن السماء إذن عدوان على الأرض. إنها سرقة وأخذ منها.

إن السماء إذن هزيمة للأرض. إنها هزيمة لها على قياس عالمي. لقد كانت السماء دائماً تسرق من الأرض قلوب سكانها ولهفاتهم وتطلعاتهم وطموحاتهم دون المعاملة بالمثل.

إن السماء إذن لو لم تكن قد وجدت لكانت حظوظ الأرض أعظم وأفضل جداً. إن الإنسان

حينئذٍ لا بد أن يهب نفسه للأرض بأسلوب أقوى وأشمل وأكثر تفرداً وإخلاصاً. إنه حينئذٍ لا بد أن يهب كل نفسه للأرض بلا منافس أو شريك. لقد كانت الأرض دائماً هي المعتدى عليها، وكانت السماء دائماً هي المعتدية. لقد كانت هذه هي القضية الدائمة.

لقد اقتسمت السماء الإنسان مع الأرض اقتساماً لا عدل ولا شهامة فيه. إن هذا هو الذي قد تقرر، أو هو الذي قد افترض ولم يتقرر ولن يتقرر.

إن الإنسان لا بد أن يكون موجوداً في مكان ما، وبصيغة أو بنموذج ما. وإنه لا بد أن يقتنع بأنه قد وحد هذا الوجود في هذا المكان وبهذه الصيغة أو النموذج. إن وجوده في مكان وفي صيغة أو في نموذج قتل لقدميه ولفكره وحماسه عن الارتحال والتفكير والبحث، أو قتل للارتحال وللتفكير والبحث والحماس والمحاولة في قدميه وعقله وهممه..

إذن فهل وجوده في السماء يعني ألا يبالي بوجوده هنا، أو يعني أن يتراخى في الاشتراط لوجوده هنا؟ هل السماء حقاً خطر على الأرض، أو هل وجود الإنسان في السماء خطر على وجوده في الأرض يقيناً أو حتى احتمالاً قوياً؟

هل الإنسان يستطيع أن يكون موجوداً في السماء وفي الأرض أيضاً؟

هل يستطيع الإنسان أن يكون في السماء لأنه مفقود في الأرض أو بقدر ما يكون مفقوداً في الأرض، أو مهما يكن مفقوداً في الأرض.

هل يستطيع الإنسان أن يكون في غير الأرض مهما كان في السماء ومهما تطلع وصلى للسماء؟ هل يستطيع أن يتعلم تقواه من غير الأرض؟

هل الحديث عن السماء أو التطلع إليها أو الصلاة لها محاولة الوجود فيها أو إرادة لهذا الوجود؟ هل ذلك كذلك أم ذلك ليس إلا أساليب مختلفة من أساليب البحث عن الأرض والوجود فيها والبكاء عليها والإصرار على البقاء الدائم فيها والهرب الدائم إليها.

هل تستطيع السماء بكل أهوالها وتهاويلها وبكل مواكب الوافدين منها، ليعلموا ويرهبوا ويعدوا ويصفوا، أن تنافس أية حشرة من حشرات الأرض، أو أية شهوة من شهوات الأرض على الإنسان، على التأثير فيه، أو على خلق اهتماماته، أو على صياغة هذه الاهتمامات؟ أليس الذي يقول: أيتها السماء إنما يعني أن يقول: أيتها الأرض، إني أحبك وأخافك وأجوع إليك؟ أليس التحديق في السماء إنما هو تحديق في الأرض؟

هل تستطيع كل آلهة السماء أن تجعل أي إنسان يرتفع عن الاحساس بأي ألم من آلامه، أو بأية مجاعة من مجاعاته، أو بأية شهوة تافهة أو بذيئة من شهواته، أو بأي هم من همومه، أو تجعله يرتفع عن البكاء والأنين والخوف والارتجاف بالقلب والأعصاب وبالعضلات والكلمات؟ أليس الذي يصلي

ويبكي شوقاً إلى السماء أو خوفاً منها إنما يبكي ويصلي شوقاً إلى الأرض أو خوفاً منها أو طاعة ودينونة لها؟

هل يستطيع أي إنسان، مهما كانت تقواه وإيمانه، أن ينحاز بمخاوفه واهتماماته، إلى السماء بكل ما فيها من آلهة وتهاويل ضد أية حشرة من حشرات الأرض تتعامل مع حياته أو يمكن أن تتعامل عليها، أو ينحاز بحبه وأشواقه إلى هذه الآلهة والتهاويل ضد أية رغبة من رغبات أعضائه؟

إذن هل السماء حقاً عدوان على الأرض، أو هزيمة لها، أو أخذ منها؟

إذن هل تستطيع السماء حقاً أن تكون منافسة للأرض على الإنسان بأي أسلوب أو على أي مستوى؟

هل يستطيع الخوف من الله أو الطموح إلى جزائه أو إلى رؤيته أن يؤرق نبياً أو قديساً مثلما يستطيع أي برغوث يبيت في فراشه أن يؤرقه؟

هل يستطيع أي نبي أو قديس أن يرى بقلبه أو بعينيه جمال الإله مثلما يفرض عليه أن يرى بكل أحاسيسه وبكل حواسه جمال كل رغبة من رغبات أعضائه أو من رغبات قلبه؟

هل جمال الإله أو جمال الإيمان والتقوى في عيني أي نبي أو في قلبه أو في ضميره يعني أو يساوي غير جمال الرغبات والآهات في أعضائه؟ هل لأي شيء جمال أو قيمة أو تفسير خارج أحاسيس الأعضاء ومجاعاتها وإملاءاتها؟

هل يوجد إنسان واحد، عيونه أو ضميره أو مشاعره أو منطقه أو تقواه أو نبوته خارج أعضائه أو غير أعضائه؟؟

إذن هل وجدت في أي مجتمع أو عصر قضية اعتداء أو منافسة أو سرقة بين السماء والأرض؟ إن كانت قد وجدت هذه القضية بأي أسلوب وعلى أي مستوى فأيتهما كانت المعتدية السارقة المنتصرة في معركة التنافس، وأيتهما كانت الأخرى؟

هل انتصرت السماء ولو مرة، وهل انهزمت الأرض ولو مرة إن كانت قد حميت بينهما أية معركة على أي شيء؟

هل قامت في أي وقت أو مكان أية معركة أو خصومة على امتلاك الإنسان بين السماء والأرض مهما كانت معركة أو خصومة غير متكافئة أو غير عادلة لتفوقِ إحداهما على الأخرى؟ ألم تكن السيادة والسلطان جميعاً وأبداً للأرض؟ هل خافت الأرض في أي زمان أو مكان على تفردها بالسيادة والسلطان على الإنسان؟ هل خافت من السماء على تفردها هذا؟

حتى جميع الذين جاءوا ليسرقوا الإنسان من الأرض، من تفرد الأرض بامتلاكه لكي يهبوه السماء، ليجعلوا السماء تتفرد بامتلاكه، هل كانوا إلا دعاة وأنبياء للأرض؟ هل كانوا إلا دعاة وأنبياء للأرض بلغة فيها أسماء السماء؟

هل كانوا يفكرون أو يقتنعون أو يريدون أو يخضعون أو يتعبدون إلا لمنطق الأرض ولإغراءاتها وضغوطها وأهوائها وقوانينها ومجاعاتها ولطغيانها وذنوبها وهمومها ولعبثها وتفاهاتها ومخاوفها وللغاتها وأناشيدها وفي معابدها وهياكلها ومن فوق منابرها؟

ألم يكونوا جميعاً دعاة وأنبياء وجنوداً للأرض ولكن بلغة أخرى؟

أليس النبي الذي يلعن الأرض ويمجد السماء ويدعو إلى مجد السماء إنما هو نبي أو إنسان عادي يمجد الأرض ويدعو إليها وينهى عن السماء بل ويشتم السماء ولكن بصيغة أخرى؟ أليس جميع الأنبياء وجميع الدعاة إنما يجيئون ليكونوا موظفين لدى الأرض؟

هل يلعن النبي الأرض إلا بقدر ما فيه من قوة على حب الأرض؟ وهل يتحدث عن أشواقه إلى السماء إلا بقدر ما فيه من أشواق إلى الأرض؟

أليس النبي الذي يقول، صارخاً وباكياً ومهدداً، اعبدوا الإله أو اصعدوا إلى السماء إنما يتحدث إلى الأرض وعن الأرض وبقوة الأرض وبإملاء الأرض وبالبحث عن الأرض وبالخوف من الأرض وبإرادته للأرض وبأشواقه إليها؟

إن الأنبياء والقديسين ليسوا إلا قوماً يسمون مجاعاتهم إلى الأرض آلهة وسموات، ويدعون مجاعاتهم هذه مجاعات إلى الآلهة وإلى السموات. إنهم قوم يسمون أعضاء الأرض بأسماء الآلهة وبأسماء السماء. إنهم يسمون أعضاءهم ووظائف أعضائهم وذنوب وهموم أعضائهم أشواق آلهة وتعاليم آلهة وأخلاق آلهة وشموخ سموات وبحثاً عن السموات.

إن الأنبياء والقديسين ليسوا إلا قوماً يخطئون في اللغات أو يعبثون بها أو يسخرونها بالتدبير. إن الخلاف بينهم وبين مخالفيهم والخارجين عليهم في تسمية الأشياء وفي فهم الأشياء لا في نفس الأشياء ولا في الخضوع للأشياء.

إن المراد بالأرض هنا جسم الإنسان بما فيه من مجاعات وشهوات وإغراءات وغوايات ومن هموم وآلام وتلوثات وصغائر وضعف وأمراض ومخاوف وأحقاد وانفعالات جيدة ورديئة ومتناقضة.

أما المراد بالسماء فالتخطي لذلك أو رفضه أو الخروج عليه أو الرغبة في هذا التخطي أو الرفض أو الخروج. إن الأرض هي الذات المحكومة بأعضائها المحكومة بوظائفها بكل ما فيها من فجور ووحشية. والسماء هي الكينونة غير ذلك، أو أفضل أو أتقى أو أذكى أو أنظف من ذلك. إذن هل توجد سماء؟

إذن هل وجدت أو هل يمكن أن توجد أية منافسة أو مخاصمة أو حرب بين السماء والأرض على الإنسان، على التفرد بامتلاكه؟

إذن هل جاءت أو هل يمكن أن تجيء نبوات أو أديان أو تعاليم أو مذاهب أو مخاوف أو صلوات أو أية طقوس من أي نوع لتسرق الإنسان من الأرض أو لتسرق شيئاً منه؟

إذن فلتأت أشرس وأطول مواكب الأنبياء والدعاة والمعلمين السحرة ليسرقوا الإنسان من الأرض،

ليهبوه كله للسماء.. لتأت هذه المواكب الطويلة الشرسة المسلحة بكل قوى السحر وإرهابه.. لتأت فإن الأرض لن تشعر بأن خطراً ما يهدد تفردها المطلق والأبدي بالسيادة على الإنسان.

ولتظل الآلهة الحزينة المهجورة في سمواتها تنتظر مجيء الإنسان إليها.. لتظل تعاني دموعها وأحزانها وهزائمها وتتواعد مع مسراتها وانتصاراتها، وتمنيها أضخم وأجمل الأماني.

لتظل أبداً كذلك فإن الإنسان لن يجيء. إنه لن يصعد إليها أبداً كما لم يصعد إليها قط. لتظل الآلهة في سمواتها تعيش أحزانها وآهاتها ولهفاتها.. تعيش هزائمها الأبدية.

إن الآلهة ستظل أبداً مهزومة ومهجورة ومنتظرة في سمواتها الحزينة الموحشة دون زائر أو راغب في الزيارة مهما امتلأت الأرض بالأنبياء وبالدعاة القادمين منها ليعلموا الحب لها والأشواق إليها والخوف منها والإيمان بها. ليعلموا الصعود إليها دون أن يوجد من يريد الصعود أو من يستطيعه أو من يعرف أساليبه مهما وجد من يتحدث بها ويستمع إليها، بل مهما وجد من يعلمها ومن يتعلمها. إن الأرض هي كل الآلهة والأنبياء والأديان والمذاهب وكل السماوات ولكن الاختلاف في الأسماء وفي التعمق في تفسير الأشياء وفي معرفة جنسياتها.

فرعون يكتب سفر الخروج

«.. من كتب لبني إسرائيل سفر الخروج؟ هل كتبه النبي موسى أم كتبه بنو اسرائيل أم كتبته السماء أم كتبه الرواة والتاريخ أم كتبه فرعون أم كتبه كل هؤلاء؟ من كتب سفر الخروج؟ ومن أقوى من كتبه من هؤلاء إن كانوا كلهم قد كتبوه من كتب التاريخ؟ هل كتبه من كتبوه أم من فعلوه؟ من كتب الذين كتبوه وفعلوه؟ من كتب الناس والأشياء؟ هل كان ممكناً أن يوجد موسى أو بنو إسرائيل أو التوراة والأسفار أو أرض الميعاد أو حتى إله بني إسرائيل بكل أخلاقه وتاريخه لولا فرعون وطغيانه؟ أليس فرعون هو الذي خلق موسى وخلق بني إسرائيل وأنزل التوراة والأسفار والوصايا وخلق أرض الميعاد وخلق التاريخ المتولد عن كل ذلك وخلق جميع الأحداث والنتائج المنطلقة عن كل ذلك حتى هذا اليوم وحتى المستقبل القريب والبعيد؟ أليس فرعون هو الذي خلق إله بني إسرائيل بكل همومه وشهواته ومغامراته وانتصاراته؟ إذن أليس طغيان فرعون طغياناً خلاقاً عبقرياً؟ أليس الطغيان الذي يخلق ويهب كل هذا طغياناً خلاقاً عبقرياً؟ إذن أليس الطغيان خلقاً وعبقرية ولو أحياناً؟ أليس الذي يطردنا من عجزنا وصمتنا وهواننا واسترخائنا ــ ولو بالطغيان ــ إلى القوة والانبعاث، وإلى التاريخ والمجد، وإلى الانتصارات الكبرى طارداً تقياً نبيلاً وخلاقاً وهاباً؟ أليس كل الخالقين طاردين، وكل الطاردين خالقين؟...».

الحياة فرار وارتحال محتوم بلا غاية مقصودة أو مرادة أو معروفة أو مقنعة. إن الحياة ليست بحثاً عن هدف ولا شوقاً إلى هدف. إنها ليست خطة أو تخطيطاً إنها أسلوب من أساليب الطرد الذاتي والطرد الخارجي. إن كل شيء لكذلك. إن كل ما في الشمس أو الأرض أو أية قطعة كونية من روعة ونظام لا يساوي أكثر من طردها بذاتها ومن ذاتها أو أكثر من هربها من ذاتها ومن مكانها.

إن الناس لا يتحركون أو يعرفون أو يعملون أو يتغيرون أو يغادرون أنفسهم، أو يصنعون النظريات والمذاهب والآلهة والأديان، أو يصبحون أنبياء وزعماء وكتاباً وثواراً وطغاة، لأنهم بناة ومهندسون، يناضلون ويتعبون ويموتون، ليحققوا أو ليصنعوا أهدافاً أمامية نبيلة معلومة يريدون بلوغها لأن بلوغها يصنع مجدهم، أو مجد أربابهم، أو مجد أنبيائهم وزعمائهم، أو مجد أديانهم ومذاهبهم، أو مجد عقولهم وذكائهم وكبريائهم، أو مجد تاريخهم، أو مجد الشمس أو القمر. ولكنهم يفعلون كل ذلك لأنهم هاربون ومنفيون من أماكنهم ومن أنفسهم، ولأنهم متألمون، ومصابون بالسأم، وكارهون لأنفسهم ولظروفهم وللبقاء فيها، وعاجزون عن البقاء فيها. إنهم يحاولون الهرب ويمارسونه بأي تعبير وعلى أي طريق أو بكل تعبير عن كل طريق. إنهم يصنعون خطواتهم وأشواطهم بالحوافز والأهداف التي تصنعهم بها الآلهة. إنه العجز عن الصمت وعن السكون بوقار. إنه العجز عن البقاء في الذات وفي المكان.

هل النهر والزلزال يدبران أو يقصدان في سلوكهما أن يحققا أو أن يبلغا أهدافاً من أي نوع، أم يتحركان لأنهما لا يستطيعان ألا يفعلا، لأنهما مطاردان ومطرودان بذاتيهما وظروفهما، ومن ذاتيهما وظروفهما؟ حتى الشهوة والإرادة والعبقرية ليست إلا هرباً. وهل الإله يفعل لأنه يريد أو يحقق أهدافاً مفهومة ومدبرة ومرادة أم لأنه مطارد من ذاته وبذاته وهارب منها؟

وهل البشر حينما يحزنون أو يبكون أو يحسدون أو يبغضون أو يتشاتمون، أو يمرضون ويضعفون

ويشيخون ويموتون، يخططون لأهداف أم يفعلون كما يفعل الزلزال والنهر في انطلاقهما وكما تفعل الآلهة حينما تخلق الآلام والعبث.

هل في خطوات البشر من الأهداف والغايات المقصودة أو المعلومة أو المدبرة أو الذكية أكثر مما في خطوات الزلزال أو النهر أو مما في ضربات الإله المتحولة إلى حشرات وعاهات وأمراض وعبث وجنون وإلى بشر يتداوون من وجودهم بالحروب والصلوات والأكاذيب.

هل أظافر وشعور وأقدام الإنسان تطول لأنها تحقق شيئاً أو تريد شيئاً أو تفسر شيئاً أم لأنها لا تستطيع أن تتوقف؟ وهل حياته بكل أساليبها وتعبيراتها تفعل بغير الأسلوب الذي تطول به أظفاره وشعوره وقدماه؟ إننا لأننا نريد ونشتهي. ولكن لماذا نريد ونشتهي؟ أليست الشهوة والإرادة أسلوبين من أساليب الهرب والمطاردة وتعبيرين عنهما؟

هل يتحرك أو يتغير أي شيء إلا لأنه مطرود وهارب، مطرود وهارب بذاته ومن ذاته؟ أليس الخالق والمغير لكل شيء هو قانون الطرد أو المطاردة الموجود داخل كل ذات أو قانون الهرب المحكوم به على كل ذات دون أن تختار أو تدبر أو تريد أو تعرف لماذا؟

إن القلب لا بد أن يخفق في موقف الخفقان، أو قد يخفق، وإن العين لا بد أن تحدق وترتجف، أو قد تحدق وترتجف في موقف التحديق والارتجاف. ولكن لماذا جاءت العين والقلب كذلك؟ لماذا جاءا خافقين ومحدقين ومرتجفين؟ لماذا جاءا محكوماً عليهما بالخفقان والرجفان والتحديق تحت ظروف معينة وفي مواقف معينة؟ أليسا قد حكم عليهما بالأسلوب الذي جاء به الزلزال والنهر محكوماً عليهما بسلوكهما؟ أليس فكر الإنسان وإرادته يتحركان ويتغيران ويعملان بالأسلوب الذي تتحرك وتتغير وتعمل به عيناه وقلبه، أو بالأسلوب الذي يمارسه الزلزال والنهر أو بالأسلوب الذي تطول به قدماه وأظافره وشعره ويجيء به أي شعره كثيفاً غزيراً؟

هل كان ممكناً أن تطول شعورك أو أظافرك أو أن تصاب بالتضخم غدتك الدرقية لو كانت تستطيع ألا تفعل ذلك؟

وهل كان ممكناً أن تعمل أو أن تتغير إرادتك أو أفكارك لو كانت تستطيع أن تكون صامتة وثابتة في مكانها وفي ذاتها دون أن تطرد وتهرب؟

أليست أهداف فكرك وإرادتك حينما تتحركان تساوي في التفسير الشامل أهداف أظفارك وشعورك حينما تطول؟

إن الحياة وهي تخطو في طرقها المجهولة وتصنع أساليبها ومستوياتها المختلفة والمتناقضة لا تعلم شيئاً عن نفسها ولا عن أساليبها ومستوياتها، ولا تقصد أن تحقق هدفاً معروفاً تنوي تحقيقه أو تعشق تحقيقه، بل ولا هدفاً غير معروف. إنها لا تنوي ولا تقصد هدفاً أو شيئاً معروفاً، ولا شيئاً أو هدفاً غير معروف. إنها تخطو لأنها لا تطيق الصبر على نفسها ولا على ما تجد وتواجه، ولأنها لا تترك لكي تبقى في

ذاتها أو في مكانها أو في صمتها وسكونها. إنها تريد الفرار وتبحث عن الفرار ليس من شيء معين، أو من شيء واحد، أو من حالة واحدة، بل من كل شيء ومن كل حالة. وهل هي حقاً تريد الفرار أو تبحث عنه؟ هل النهر أو النجم في فراره يريد الفرار أو يبحث عنه أو يفهمه ويعيه أم يتحرك فقط كما يهوى ويموت حين يهوى ويموت؟

لعل الصحيح أنها لا تريد شيئاً ولا تبحث عن شيء حتى ولا عن الفرار. إنها تتحرك فقط، وتطرد فتخضع بلا إرادة شيء أو البحث عن شيء حتى ولا عن الحركة أو الخضوع أو الفرار، حتى ولا عن إرادة ذلك. كم يمكن أن تكون غفلتنا لو زعمنا أن قلوبنا تنبض وتعمل لأنها تريد أن تصبح لنا الحياة لأنه محكوم عليها بالحركة والهرب والمطاردة.

إن الحياة فرار بلا إرادة للفرار، وإنها حركة وخضوع بلا إرادة للحركة أو للخضوع. إن هذا هو المعنى الذي يجعلها حركة دائمة، لا تقبل ولا تستطيع أن تحدد تحدداً نهائياً في صيغة، أو في حالة، أو في مذهب، أو في عقيدة، أو تحت قبضة إله وزعيم أو نبي أو شيطان. إنه ما من صيغة أو حالة تبلغها الحياة إلا بدأت ترفضها وتطرد منها وتحاول الانتقال إلى سواها مهما كانت تلك الصيغة أو الحالة، بدون أن تفهم ماذا تفعل أو ماذا تريد، أو لماذا تفعل وتريد.

إنها تفعل ذلك دون أن تعرف أنها بما تفعل تطيع أو ترضي إلهاً أو زعيماً أو نبياً أو حتى تستجيب لاحتياج من احتياجاتها.

إن الحياة في تنقلاتها وتبدلاتها تشبه تنقلات وتحركات الهباءة الواقعة تحت شتى الأعاصير. إن أي وضع من أوضاع الهباءة ليس بحثاً عن هدف أو صياغة لهدف، وإنما هو أي ذلك الوضع للهباءة صيغة طرد وهرب، أو صيغة استجابة للطرد وللهرب. إن جميع الأشياء تفعل أطوارها وتحركاتها بالأسلوب الذي تفعل به الهباءة أطوارها وتحركاتها، مستجيبة لطغيان الأعاصير المطاردة لها.

حتما، الحياة، ولا سيما حياة الإنسان تقصد أو تعني في بعض أساليبها وتحركاتها أو في كثير منها أن تبلغ وتحقق أشياء أو أهدافاً تريدها وتفهمها وتخطط لها. إن في الحياة تخطيطاً وتدبيراً وقصداً، وإن لها إرادة وأهدافاً لأنها تحتاج وتجوع وتقاسي أو تمارس الأشواق واللذات والسرور والابتسام، وكذا البكاء والرفض، وكذا كل أساليب ومعاني المعاناة والآلام والاستنكار.

إن الإنسان في كثير من اهتماماته وسلوكه ومواقفه يفكر ويدبر ويقصد لأنه ينفعل ويحتاج ويجوع ويرى ويفهم ويتعذب ويسعد ويقبل ويرفض ويختار.

ولكن لماذا يفعل ذلك، أو لماذا العوامل والضرورات التي قضت عليه بأن يفكر ويدبر ويقصد، أو بأن يكون مفكراً مدبراً قاصداً، أو لماذا يوجد ويحيا ويجيء بهذه الصيغة وهذا النموذج لكي يكون محكوماً عليه بأن يكون مفكراً ومدبراً وقاصداً؟ هل كان ذلك تحقيقاً لهدف أو بحثاً عن هدف أم كان أسلوباً مستبداً من أساليب الطرد ومن أساليب الحركة الهاربة؟

إن مستوى التدبير والتفكير والقصد في الحياة ليس مستوى من مستويات التفكير والتدبير والقصد. إن هذا المستوى لم تبلغه الحياة تحقيقاً لهدف أو بحثاً عن هدف أو استجابة لهدف أو لأنه هدف أو لأنه يتحول إلى نضال من أجل هدف.

إن وجود التفكير والتدبير والقصد، وممارسة ذلك ليسا تفكيراً ولا تدبيراً ولا قصداً. إن وجود ذلك يساوي وجود نقيضه في منطق الحياة والأشياء وفي قصدها.

إن مستوى المقاساة والانفعال والاحتياج والجوع والتعذب والتلذذ والقبول والرفض والاختيار والبكاء والابتسام والسرور.

نعم، إن هذا المستوى الذي يبلغه الإنسان لا يبلغه أو لا يوهبه أو لا يطرد أو يهرب إليه بحثاً عن هدف ولا تحقيقاً لهدف، بل كما يبلغ المستوى الذي يجعله يمرض ويشيخ ويموت، أو كما يوهب هذا المستوى، أو كما يطرد إليه أو يهرب إليه. إن العبقري والفنان. والمؤمن والصادق والقوي مطرود أو هارب إلى أن يكون كذلك بقدر ما الشيخ والمريض والميت والحزين مطرود إلى الشيخوخة والمرض والموت والحزن.

إننا لا نفكر ولا ندبر ولا نقصد ولا نقاسي أو نجوع أو نحتاج أو نختار أو نقبل أو نرفض أو نبكي أو نبتسم أو نسر أو نسعد أو نتعذب ـ أي إننا لا نجيء محكوماً علينا بذلك لأنه مطلوب أو مفيد أو واجب أو هدف أو مدبر، بل نجيء كذلك أو نفعل كل ذلك بالضرورة والحتم، أي بالمطاردة وبالهرب حتى ولو كان ضد الواجب والمصلحة والأخلاق، وضد جميع الأهداف التي نتصورها أو نتمناها أو نتحدث عنها أو نلزم بها.

إننا لا نفعل ذلك بهذا التفسير كما أننا لا نحزن أو نشيخ ونموت ونضعف ونمرض، أو نكره ونخاف لأن ذلك واجب أو مفيد أو مأمور به، بل لأنه محكوم به علينا.

إن الأفضل والواجب والأخلاق والأفكار والأهداف تعبير عن الضرورة وعن قانون الاستطاعة والعجز أي تعبير عن الهرب وعن الخضوع لأساليب ولإملاءات الطرد الذاتية والخارجية. إن كل ما نحسبه ونزعمه قيماً نفسية أو فكرية أو أخلاقية أو دينية أو مذهبية أو إبداعية نضالية لا يعني سوى أساليب الطرد التي نواجهها ونخضع لها وأساليب الهرب التي نؤديها ونحياها.

إنه لا شيء يفعل النموذج أو يبحث عن النموذج، أي يفعل الهدف أو يبحث عنه. وهل يمكن فهم النموذج أي الهدف أو تصوره؟ هل يمكن فهمه أو تصوره؟ ما مقاييسه؟ وهل له مقاييس أو حدود؟

هل النموذج أي الهدف شيء غير الضرورة أو الملاءمة أو الاستجابة لإملاءات الجوع والحاجة والهرب ولضغوط وأساليب الطرد المختلفة؟

هل النموذج أو الهدف شيء غير الشيء كما هو؟ هل لأي شيء نموذج أو هدف غير ذاته وغير كينونته كما كان ويكون؟ وهل كان أو يكون غير الصيغة التي يطرد إليها أو يهرب إليها؟

إنه لا يوجد لأي شيء هدف لأنه لا يوجد لأي شيء نموذج. إن البحث عن الهدف لا يعني إلا البحث عن النموذج. فإذا لم يكن نموذج فكيف يمكن أن يكون هدف؟ كيف يمكن أن تكون هناك صورة ما لم تكن هناك ذات؟

وإذا كانت الصورة هي تفسير الذات فالذات هي تفسير ماذا؟

إن كل الوجود ليس سوى وجود، أي ليس سوى وجود لا نموذج له أي لا هدف له. إذن كيف يكون ويتغير ويتحرك؟ إنه يفعل ذلك هارباً ومطروداً من ذاته وبذاته، ومن ظروفه وبظروفه.

حتى الإله، إنه ليس نموذجاً، بل وجود فقط، أي في عقيدة وتصور المؤمنين به. لهذا فإنه أي الإله بلا شروط ولا صيغ محدودة أو مفروضة أو مشترطة. أي إنه بلا أهداف لا في مجيئه ولا في كينونته ولا في معاناته لنفسه ولأعماله وأهوائه وأمانيه. إنه البدء والمطلق، والبدء والمطلق هل يمكن أن يجيئا على مقاس أي نموذج؟

إن الأول الذي ليس قبله شيء لا يمكن أن يكون له نموذج إنه لا يمكن ضبطه بأية صيغة أو أخلاق أو منطق أو احتياج.

إنه لا أحد يحاسب الإله أي من المؤمنين به على أي فعل أو تفكير أو صيغة، أو على أي ذنب أو خطأ. إنه لا يوجد في المؤمنين من يحاسبون الإله، ولا من يخطئونه ولا من يبصرون خطأه أو ذنبه، ولا من يشترطون عليه أو يشترطون له.

إن الموجود أو الوجود الأول لا بد أن يكون كل الفوضى، كل أساليبها وتفاسيرها وأخطائها وقبحها.

إنه لا يوجد في المؤمنين من يرون الإله نموذجاً أو يرون أنه لا بد أن يكون له نموذج، أي لأنه لا يوجد فيهم من يرون أن له هدفاً أو أنه يجب أن يكون له هدف، أو أنه يجب أن يكون نظاماً أو خاضعاً لنظام.

إنه لا يوجد في المؤمنين من لا يرى الإله كل الفوضى، كل أساليبها وتفاسيرها وذنوبها.. كل الفوضى المغفورة والمعبودة.

إنهم لو كانوا يتصورون أو يشترطون على الإله أن يكون له هدف وألا يتحرك إلا بحثاً عن هدف وبأخلاق ومنطق من لا يعمل إلا لهدف وإيماناً بهدف لكان محتوماً ألا يتصوروه إلا صيغة نموذج، نموذج قاسي الشروط والصفات والمزايا. ولو أنهم تصوروه كذلك لكان محتوماً أن يحاسبوه ويحاكموه على ذنوبه وأخطائه، وأن يروه مذنباً ومخطئاً حينما يفعل الذنب والخطأ، وحينما يجدون فيه أشمل أساليب وتفاسير الفوضى. ولكن هل يوجد مذنب كالإله، مغفورة له جميع ذنوبه، بل معبودة ذنوبه كالإله؟

إن النموذج محاكمة وعقاب وتقييد واشتراط فادح. إن النموذج لكذلك واضعاً وموضوعاً أو

موضوعاً له، أي في حساب من يضعه ويشترطه وفي حساب من يوضع له ويشترط فيه.

إن النموذج لتعجيز للعقل وللأشياء. إنه استحالة. إنه لمستحيل أن يكون للأشياء أو للوجود نموذج، لهذا كان مستحيلاً أن يكون للأشياء أو للوجود هدف ما. إن النموذجية والهدفية ليستا مفقودتين فقط بل هما مستحيلتان. إنهما مستحيلتان بالضرورة لا بالمنطق فقط.

* *

إن أسلوب الحياة والأشياء ومنطقها قائمان على أن تفر مطرودة من شيء لا على أن تجد شيئاً. إن بلوغ الشيء في حركة الحياة والأشياء ليس تعبيراً عن البحث عنه بل عن السقوط فيه.

إن إرادة الشيء سقوط في إرادته لا بحث عن إرادته ولا تدبير لإرادته..

إنها أي الحياة والأشياء كلما تعاظمت وتعاظم وجودها ازدادت قدرتها على الفرار ورغبتها فيه وحاجتها إليه، وكذلك على التغير، ورغبتها فيه وحاجتها إليه، وكذلك أيضاً ازدادت عوامل وأساليب المطاردة لها. إن أكبر الأشياء هي أكثرها هرباً ومواجهة للمطاردات.

إن السأم من الذات، أو الفرار من الذات والطرد منها والخروج عليها، عجزاً عن البقاء فيها، وخضوعاً لقوى المطاردة المختلفة والدائمة، هو مبدع الحركة والتغير وجميع الحضارات. إن قوة الحركة في أي شيء لا تساوي أكثر من قوة الطرد التي تواجهه ومن قوة الهرب فيه.

وأعود لأقول مرة أخرى: لعل الصحيح أن الحياة والأشياء لا تهرب من شيء ولا تقصد أن تهرب، ولكنها تتحرك تحت عوامل وأساليب المطاردة دون قدرة على الرفض أو على نيات الرفض. إنها هاربة دون أن تنوي الهرب أو تريده أو تفهمه أو تفكر فيه.

- إن الحياة وكذا جميع الأشياء لا تنحت نفسها أو صورها على نموذج احتياج ما أو هدف ما أو منطق ما أو على نموذج أية خطة من الخطط الموضوعة أو المقصودة أو المرادة.

إن البشر لم يضعوا صور أو صيغ أنفسهم أو حياتهم على مقاس إرادتهم أو احتياجهم أو احتمالاتهم أو على أي مقاس آخر من أي نوع وبأي تفسير. كما أنهم لم يضعوا إرادتهم أو احتياجاتهم على مثال أو على مقاس أفضل أو أقوى النماذج والاحتمالات.

ولكنهم أي البشر ضجروا أو عجزوا عن البقاء في أنفسهم وفي مواقعهم، فجعلهم ضجرهم أو عجزهم عن البقاء صامتين مستريحين يتحركون ويشعرون بالحاجة إلى الحركة، أو جعلهم ذلك يهربون من ذواتهم ومن مواقعهم، دون أن يقصدوا شيئاً أو يفهموا لماذا. وقد حددت طاقاتهم وظروفهم التي يعملون فيها وبها تحركهم تحديداً اضطرارياً وآلياً لا فكرياً ولا نموذجياً أو هدفياً. إنهم بضرورة الحركة يتحركون، وبطاقاتهم وظروفهم ومواهبهم يتحددون أو تتحدد حركاتهم أو قوة حركاتهم ومستوياتها وصيغها.

إن البشر مع ذلك يتحدثون أحياناً أو دائماً عن المستقبل الذي يريدونه ويقصدونه ويفهمون نماذجه

وقد يحددونها، والذي يضعون له في أذهانهم وأمانيهم صوراً أو صيغاً محددة وكأنها مرئية.

ولكن هذه الصور أو الصيغ أو النماذج أو الأماني ليست أهدافاً مقصودة أو مشرعة أو مسوغة أو مفسرة للحركة أو للتغيير أو للوجود أو حتى للأديان أو المذاهب أو التعاليم. وإنما هي أسلوب من السأم والهرب ومن التعبير عن الحاجة إلى الحركة وعن ضرورة الحركة. إن ضرورة الحركة هي التي تفسر تلك الصور والصيغ والنماذج والأماني، وتفسر تصورها وتمنيها والحديث عنها والشوق إليها. ولكن هذه لا تفسر ضرورة الحركة، وليست هي التي تجعل الحركة مطلوبة أو مدعواً إليها أو محولة إلى أديان ومذاهب ونبوات وزعامات وأمجاد مختلفة الأنساب والجنسيات والشعارات والاعلام. إن جميع الأشياء من أجل الحركة أو من أجل الاحتياج إلى الحركة، ولكن الحركة أو الحاجة إلى الحركة ليست من أجل شيء. إن تلك الصور أو الصيغ أو النماذج أو الأماني ليست سوى ضرب من الحركة الفكرية أو الهرب الفكري الذي هو أسلوب من أساليب الحركة الشاملة أو الهرب الشامل، والذي هو تعبير من تعبيرات الحركة الشاملة أو الهرب الشامل.

إننا نذهب نتحدث عن ذلك التفكير أو المذهب أو النظام ـ إننا دائماً نتحدث عن مذهب ما أو عن دين ما أو عن تفكير ما أو عن نظام ما لأننا لا نطيق البقاء بلا حركة أو بلا نية حركة في وحدتين أو في لحظتين من الزمان، لا لأننا نحدد أو نقصد أو نفهم أو نريد أو نمارس أهدافاً نعرف أنها هي الواجب أو الأفضل أو الأنبل أو الأقوى أو الأكثر ذكاءً أو فداء أو شجاعة أو تقويماً صحيحاً لأنفسنا أو للأشياء، أو الأكثر إعطاءً أو إسعاداً لنا.

إننا نفكر ونتصور ونتمنى لأننا نتحرك ولأننا لا بد أن نتحرك ونتغير بالضرورة أو بالحاجة، ولسنا نتحرك أو نتغير لأننا نفكر ونتصور ونتمنى مهما بدا ذلك كذلك، أو مهما فسر كذلك. وإذا خلقت أفكارنا أو تصوراتنا أو تمنياتنا حركتنا أو حاجتنا إلى الحركة أو دفعتنا إليها فإن الحركة أو الحاجة إلى الحركة هي التي تخلقنا وتهبنا أفكارنا وتصوراتنا وأمانينا. إن الخالق أو الواهب ليس إلا مخلوقاً أو موهوباً، وهبه وخلقه مخلوقه وموهوبه. إن لنا أهدافاً وأخلاقاً لأن لنا حركة، وليست لنا حركة لأن لنا أخلاقاً وأهدافاً. إن لنا أخلاقاً وأهدافاً واحتياجات لأننا موجودون، ولسنا موجودين لأن لنا أهدافاً وأخلاقاً واحتياجات، إننا نرى لأن لنا عيوناً، وليست لنا عيوناً لأننا نريد أن نرى أو لأنه يجب أن نرى.

إن أكثر الناس تغيراً وتحركاً وتغييراً للحياة وللأشياء وإبداعاً لها وتأثيراً فيها هم أكثرهم مللاً وهرباً أي هم أكثرهم حركة وأكثرهم مواجهة واستجابة لعوامل وأساليب المطاردة. وليس هؤلاء هم أكثر الناس أو أقواهم أهدافاً أو إيماناً بالأهداف، ولا أكثرهم فداءً أو شجاعة أو تفكيراً في القيم وتصوراً لها، ورغبة فيها ، وموتاً أو عذاباً في سبيلها. إن الصخرة الكبيرة ليست أقوى سقوطاً من الصخرة الصغيرة لأنها أقوى منها أهدافاً أو شجاعة أو فداءً أو التزاماً بالواجب.

إن أسباب الملل أو الهرب أو الحركة أو الحاجة إلى الحركة أو المطاردة أو الاستجابة للمطاردة

موجودة في نفس الحياة وفي نفس الكائن، وليست في الظروف ولا في أسلوب الظروف.

إن الذين يحيون حياة أقوى أو أفضل قد يكونون أكثر وأقوى مللاً وهرباً وتحركاً وتغيراً وأكثر إرادة لذلك وقدرة عليه، من الذين يحيون حياة أردأ أو أضعف أو أكثر تعذيباً وحرماناً وإذلالاً. إن الجواد الجائع المريض الضعيف المهان قد يكون أقل حركة وأقل قدرة على الحركة ورغبة فيها من الجواد المترف السوي القوي الصحيح. ولهذا فإن تقدم الحياة وتعاظمها لا يمكن أن يتحول إلى هزيمة أو إلى إضعاف لطبيعة الملل والهرب فيها أي لطبيعة التجاوز لها. بل إن تقدم الحياة وتعاظمها يهبانها قدرة على الملل والهرب وشعوراً بالحاجة إليهما أكثر. كما أن هذا التقدم والتعاظم لن يتحولا إلى هزيمة أو إضعاف للعبقرية الموجودة أو إلى منع لوجودها. بل كما أن تخلف الحياة وضآلتها لم يتحولا إلى خلق للعبقرية ولا إلى حماس وتفجر فيها أو إلى إسراع بها أو إلى دعوة لها.

إن هذا هو القانون الذي يجعل الحياة وجميع الأشياء غير قابلة للتوقف عن السير والتجاوز والتغير والمحاولات الدائمة الهائمة، ولا متحددة في أية صيغة أو مستوى أو مذهب أو نظام أو فكرة، أي غير متحددة في أية حركة. إنه لمستحيل أن تتحدد الحياة أو الإنسان أو الحقيقة في مذهب أو في نظام أو في منطق بقدر ما يستحيل وبقدر ما استحال أن تتحدد الطبيعة في صيغة أو في عدد أو في حركة ما.

إن الذي يصنع حياة الإنسان، حتى الذي يصنع أفكاره ومذاهبه هو الذي يصنع وجوده وولادته، وهو الذي يصنع الفيضان والزلزال ومجيء الشمس وذهابها، ويصنع السحاب والضباب والليل والنهار. إنه الحركة وليس الحاجة ولا النموذج ولا الواجب ولا الهدف ولا البحث عنه أو التصور له أو الشوق إليه. كما أنها أي الحركة هي التي تصنع الشجرة والجبل والمصنع والنهر. إنه الحركة فقط، أي إنه الملل والهرب والطرد. إنه ليس شيئاً آخر حتى لا البحث عن اللذة أو السعادة أو الراحة أو الأمن أو المجد. إن هذه هي المسوغات أو الشعارات وليست الأسباب. إننا باسم ذلك نتحرك ونخطو ونمارس جميع حماقاتنا وبذاءاتنا، لا من أجله.. إن ها هنا أكذوبة أو غباوة أو غلطة يتعامل عليها جميع الناس وينوون التعامل عليها.

إنه لو كان محتوماً أن التغير والحركة لا يعنيان إلا الانتقال من الأعظم والأفضل والأذكى ومن المجد واللذة والراحة والسعادة والأمان إلى النقيض، لكانا أي التغير والحركة، أي الملل والهرب مع ذلك محتومين بل ومطلوبين مرادين.

إننا لا نتغير أو نتحرك لأنه مفروض أو محتوم أو معلوم أن يكون تغيرنا وتحركنا أي مللنا وهربنا إلى الأفضل أو الأعظم أو الأذكى أو الأنفع أو الأكثر إعطاء للسعادة أو للذة أو للمجد أو للأمن أو للراحة. كما أننا لا نموت أو نمرض أو نشيخ أو نحزن أو نبكي أو نخاف أو نجوع أو نبغض أو نشتم أو نحسد لأن ذلك هو الأجدر بنا أو الأنفع لنا أو لأربابنا أو لمذاهبنا أو لأنبيائنا أو لزعمائنا أو لأوطاننا أو لآبائنا وتاريخنا. كما أننا لم نوجد ولا نولد لأن ذلك أجدر بأخلاق الطبيعة أو بذكائها أو بإعجابها بعبقريتها، ولا لأنه أنفع لها أي للطبيعة أو أكثر إعطاء لقلبها أو لعيونها السرور أو الجمال أو العزاء.

إن أحداً ما أو شيئاً ما لا يضع على حركته أو تغيره، أي على هربه وملله قيوداً أو شروطاً ما من أي نوع ولا على أي مستوى. إنه لا شيء ولا أحد يحاسب تغيره أو حركته، أي سأمه أو هربه ليكون إلى الأفضل أو الأعظم أو الأذكى أو الأكرم أو الأكثر عطاء إلا بقدر ما يحاسب الزلزال أو الفيضان أو الأعصار نفسه ليكون تحركه إلى الأتقى والأرحم وإلى الأكثر رفقاً بالأشياء وتشييداً لها.

إن الحركة والتغير أو الملل والهرب اللذين هما إلى الأردأ والأنذل والأغبى أكثر من الحركة والتغير أي من السأم والفرار اللذين هما إلى الأعظم أو الأكرم أو الأذكى. ومع هذا فإن أحداً ما أو شيئاً ما لم يتوقف عن الحركة والتغير أو عن السأم والفرار، وإن أحداً ما لم يطالبه أو يلزمه أو ينصحه بالتوقف. إنه لم يأت أي نبي أو زعيم ليحرم على الناس أو على الطبيعة والأشياء الحركة لأن أكثر الحركات هي إلى الأفسق والأظلم والأخبث والأسوأ.

إن التغير والحركة، أو السأم والفرار ليسا وسيلة فقط بل وهدف، أي في سلوك الإنسان وحساباته. بل إنهما ليسا وسيلة وهدفاً فقط، بل وضرورة أيضاً. إنهما ضرورة وقانون وطبيعة وعجز عن الرفض والامتناع، كالتفكير والرؤية والانفعال.

إننا لا نفكر أو نرى أو ننفعل لأن ذلك وسيلة أو هدف أو فداء أو نضال أو بطولة أو مجد أو تقوى، بل لأننا لا نستطيع أن نكف عن ذلك أو أن نفاوض على رفضه.

إنه محتوم علينا أن نفكر حتى ولو كان تفكيرنا لا يعني إلا أن تموت آلهتنا أو أن تتجرد من جمالها وذكائها وكبريائها ومن جميع ملابسها الجميلة المزورة. إننا لا نفكر بالإرادة أو بالتدبير أو بالحب أو بالتقوى أو بالشجاعة أو بالمذهب أو بالدين أو بالتعليم بل بالهرب والخوف والمطاردة وبالعجز والجبن والعصيان.

إننا محكوم علينا بأن نفكر حتى ولو كان تفكيرنا لا يعني إلا أن نخرج من الجنة، أو أن نغادر سعادتنا التي تهبنا إياها بلاهاتنا، أو أن نبدو عراة لا يسترنا أي شيء من تفاسيرنا وأكاذيبنا الساترة المحابية تشوهاتنا وعاهاتنا ولقبحنا.

إننا لا بد أن نفكر حتى ولو لم يستطع تفكيرنا أن يقنعنا بأن في وجودنا رحمة إله أم ذكاء إله أو جمال إله.

إننا لا بد أن ننظر ونرى حتى ولو كان محتوماً أن تقع نظراتنا على الأطفال والشيوخ الأبرياء الذين عبثت بهم تشويهاً وتعذيباً رحمة الإله وعبقريته.

إننا لا بد أن ننظر ونرى حتى ولو لم نر الإله كما حدثنا عنه أنبياؤه، أو نر الأشياء كما نتمناها.

إننا لا بد أن نتحرك ونتغير حتى ولو كان تحركنا وتغيرنا يقوداننا إلى الموت والشيخوخة، وإلى الجنون والحروب والحماقات، وإلى العار والافتضاح.

إن قلوبنا لا بد أن تخفق وتعاني وتخاف وتحزن وتتحطم دون أن تريد أو تستفيد أو تدبر أو تعرف لماذا.

إننا لا بد أن نمل ونهرب ولو من الصحة والقوة ومن الذكاء والاستقامة والوقار والاستتار إلى الاعتلال والضعف والبلادة والانحراف والنزق والعذاب.

إن الفيضان لا بد أن يتحرك بكل قوته ووقاحته دون أن يكون تحركه وسيلة أو هدفاً أو تدبيراً أو شهوة أو ابتساماً أو غناء أو صلاة أو جمالاً أو تحية أو مصافحة للنجوم أو شوقاً إلى حبيب يهتف به ويناديه وينتظره ويغازله، أو تمجيداً لإله مفضوح في كبريائه وفي جوعه إلى الثناء والمجد، وفي بحثه عن الثناء والمجد، وفي مطالبته بهما، وفي خوفه الحزين من أن يرفض أو يطرد أو يفهم أو يحاور أو يساءل أو يحاسب أو يشترط عليه أو أن يطالب بالأخلاق التي يطالب هو بها.

إن كل تطور أو تغير في الإنسان أو في الحياة أو في المادة لن يكون إلا أسلوباً من أساليب الملل والهرب، تحت عوامل المطاردة المختلفة: مطاردة الذات والمكان، وللمطاردة عن الذات والمكان، أو من الذات والمكان. إن كل ذات لا بد أن تكون طاردة كما أنها لا بد أن تكون مطروداً منها وعنها ومطرودة، وإن كل مكان أو وضع لا بد أن يكون طارداً أو مطروداً.

إنه لولا الملل والهرب والمطاردة لما تحرك أو تغير أو تطور أو تحضر أو أبدع شيء أو أحد. إن أحداً ما حينئذٍ لن يسافر، وإن شيئاً ما لن يفعل ذلك، ولن ينوي فعله، ولن يعتقد حينئذٍ أن فعله بطولة أو فداء أو تقوى أو التزام بالمذهب أو بالأخلاق. إن السفر من الذات ومن المكان ومن المستوى أو الحالة هو كل معاني وتفاسير الإبداع والحضارة.

* *

تتجمد أحياناً حياة قوم على أساليب ونماذج مختلفة تحت ظروف راسخة قوية، لا يريدون فراقها، أي فراق تلك الأساليب والنماذج، أو لا يستطيعون فراقها، إن أقدامهم لتبدو حينئذٍ وكأنها عاجزة عن الحركة والتخطي، أو كأنها خائفة منهما.

إن هؤلاء القوم لمحتاجون حينئذٍ إلى أن يطردوا طرداً من حياتهم أو من مكانهم أو من خوفهم أو من صمت أقدامهم الطويل الثقيل ـ من صمتها عن الحركة والتخطي. إن صمت الأقدام عن الخطو هو أقسى صمت وأخطر صمت وإنه لأشهر صمت أيضاً. وإنه لأكثر أنواع الصمت إغراء وقوة. إن لكل الأقدام لصمتاً.

إن هؤلاء الأقوام لمحتاجون حينئذٍ إلى فراعنة عتاة لكي يطردونهم من بلادة الظروف وصمتها، لكي يطردوهم إلى التيه، لكي يتعلموا الحركة والتغير والأسفار والتجاوز، لكي يكتبوا لوجودهم تاريخاً جديداً معروفاً مقروءاً. إن للفراعنة العتاة إذن لمجداً حضارياً وإنسانياً. إن مجدهم الحضاري والإنساني لأعظم من مجد جميع المعلمين الذين جاءوا ليعلموا ضدهم وليشتموهم بالآيات والأناجيل.

إن كل قوم محتاجون إلى فرعون عات، ليضطرهم إلى أن يشقوا البحر ويقتحموا التيه ويصنعوا وجودهم الجديد. إن كل الناس محتاجون إلى من يجعلهم يكتبون لهم سفر خروج بالأسلوب الذي جعل به فرعون القديم بني إسرائيل يكتبون سفر الخروج الذي قالت الأخبار إن السماء هي التي كتبته. إنه ليس محتوماً أن يكون الفرعون المطلوب إنساناً.

من الذي كتب لبني إسرائيل سفر الخروج؟ هل كتبه النبي موسى أم كتبه بنو إسرائيل أم كتبته السماء، أم كتبه الرواة والتاريخ، أم كتبه فرعون، أم كتبه كل هؤلاء؟ ومن أقوى من كتبه من هؤلاء إن كانوا كلهم قد كتبوه؟ إن أحداً لم يعرف بأن من كتبه هو الذي كتبه؟

من كتب التاريخ؟ هل كتبه من كتبوه أم من فعلوه؟ ومن كتب من كتبوه ومن فعلوه؟ من كتب الناس والأشياء؟

هل كان ممكناً أن يوجد موسى أو بنو إسرائيل أو التوراة والأسفار أو أرض الميعاد لولا فرعون وطغيانه الخلاق، الذي خلق النبي موسى وخلق بني إسرائيل وخلق التوراة وخلق أرض الميعاد وخلق كل التاريخ المتولد عن ذلك، وخلق جميع النتائج المنطلقة عنه حتى يومنا هذا وحتى المستقبل البعيد؟

أليس طغيان فرعون عبقرياً خلاقاً؟ أليس الذي يخلق ويهب كل هذا خلاقاً عبقرياً؟

هل يمكن أن يوجد أي قوم لو لم يوجد فرعونهم، أو يوجد أي تاريخ لو لم يوجد فرعونه؟

إذن هل كان فرعون ظالماً للأقدار أو للتاريخ أو للأخلاق أو للناس إذا كان هو الذي قد خلق كل ذلك؟ أليس من خلق كل ذلك هو أعظم الخالقين وأنبل المتفضلين؟

أليس الطارد الذي يطردنا من عجزنا وهواننا وصمتنا إلى القوة والانبعاث، وإلى التاريخ، وإلى الابداع والانتصار والتغيير طارداً تقياً ونبيلاً وخالقاً واهباً؟ أليس جميع الطاردين لنا إنما يطردوننا من العجز والضعف والاسترخاء والهوان إلى الانبعاث الشامل وإلى الأسفار المسكونة بالاحتمالات العظمى؟ إذن أليس جميع الطاردين أتقياء ونبلاء ووهابين حتى ولو كانوا فراعنة عتاة مشتومين من جميع الكتب المنزلة؟

إن الفراعنة الخالقين هم الذين يطردون الناس من أماكنهم ونفوسهم وليسوا الذين يثبتونهم فيها.

إن التغير والحركة محتومان على البشر وعلى كل شيء. إنهما أي التغير والحركة محتومان وليسا فقط مطلوبين. ولكن الناس مع ذلك محتاجون أحياناً أو دائماً إلى أن يطردوا طرداً من تاريخهم، ومن بيوتهم وذواتهم، ومن آلهتهم وأنبيائهم ومذاهبهم ومعابدهم، ومن آبائهم. إن جميع البشر محتاجون إلى أن يقاسوا ويواجهوا جميع أساليب الطرد ولغاته، وجميع أصناف الطاردين بكل قسوتهم وعدوانهم. إنهم لمحتاجون إلى فراعنة يفرضون عليهم هذا الطرد أكثر من احتياجهم إلى أنبياء يفرضون عليهم أن يؤمنوا ويصلوا وأن يستقروا في أرضهم المزروعة بجثث الأرباب وعاهاتهم.

إنه لا يوجد فرد أو مجتمع ليس محتاجاً إلى أن يكون مطروداً، بل ليس مواجهاً ومقاسياً لأنواع

الطرد، ولأصناف الطاردين القساة الأغبياء العدوانيين. أجل، إن الذي يطردنا يخلقنا، وإن الذي يخلقنا يطردنا. إنه ليس للخلق تفسير في الطرد. وهل للطرد تفسير غير الخلق؟ هل أكبر وأعظم الطاردين إلا أكبر وأعظم الخالقين؟ وهل هؤلاء إلا هؤلاء؟ إن المؤمن حينما يقول: أيها الخالق إنما يعني أن يقول: أيها الطارد وإن لم يكن يدري.

إننا قد نرفض أو نهاب استبدال البيوت الحديثة الجميلة بالأكواخ القديمة الكئيبة، أو نعاني من ذلك ونبطىء في الإقدام عليه، وحينئذٍ نحتاج إلى أن نطرد من أكواخنا القديمة الكئيبة، طرداً. وأننا قد نتحمل أو نستسيغ الحياة والبقاء في مكاننا المألوف السهل بلا تاريخ، وبلا توراة أو أسفار أو أنبياء، وبلا تصادم بالتاريخ وبالآخرين وبالأعداء. وحينئذٍ نحتاج إلى فرعون عاتٍ مبدع وخلاق عتوه لكي يطردنا إلى التيه وإلى معاناة التاريخ ومعاناة المناقضين، ولكي تكون لنا توراة وأسفار وأنبياء.

وهل حدث أن أصبح لقوم تاريخ أو أنبياء أو ألواح أو أسفار خروج أو ارتحال عظيم بدون أن يكون لهم فراعنة عتاة؟

وهل في الحياة أو في الحضارة ما ليس طرداً من الأكواخ القديمة الكئيبة إلى البيوت الحديثة الجميلة؟ وأحياناً أليس العكس هو الذي يحدث؟ أو هل في الحياة أو الحضارة ما ليس طرداً من المكان المألوف السهل بلا تاريخ إلى التيه وإلى ما بعد التيه وإلى ما وراءه، يفرضه، أي يفرض الطرد فراعنة متتابعون ومختلفو الجنسيات والصفات والحوافز؟

إن الطرد إلى التيه هو الطريق إلى التاريخ، وإلى موسى وفي يده وفمه وقلبه الألواح، وفي قدميه أرض الميعاد.

نعم، إن كل شيء وكل إنسان ليس إلا مطروداً، وإن كل حركة ليست إلا طرداً أو تعبيراً أو إعلاناً عن الطرد. ولكن من الطارد؟ ومن أين يجيء، ولماذا يجيء؟ ومن يرسله أو يدبره؟

إنه ليس محتوماً أن يكون الطارد دائماً هو غير المطرود، أو أن يكون أي الطارد شيئاً، أو شيئاً معروفاً، أو شيئاً تمكن الإشارة إليه أو مخاطبته، أو شيئاً يمكن أن يثاب أو يحمد أو أن يعاقب أو يلام أو يلعن. إنه ليس محتوماً أن يكون الطارد إلهاً أو زعيماً أو نبياً أو حرباً أو فيضاناً أو زلزالاً أو فرعوناً يطرد إلى التيه ويكتب التوراة ويرسل موسى ويصنع بني إسرائيل ويزرع في أقدامهم أرض الميعاد.

إن كل شيء في الحياة والطبيعة يتغير ويتحرك ويسافر بالطرد، أي بأسلوب ما من أساليب الطرد. ولكن من الطارد له؟ وهل يوجد دائماً من يطرده؟ هل الطارد غير المطرود؟ هل يمكن أن يكون غيره؟

وإن الإنسان ليتحرك ويتغير ويسافر بمعانيه وشهواته أسفاره البعيدة. إنه ليفارق نفسه وتاريخه وآباءه وآلهته وأنبياءه ومذاهبه وأديانه ومساكن آبائه وملابسهم وطعامهم وأخلاقهم وأوهامهم وكل ضعفهم وبذاءاتهم ومستوياتهم. إنه يفعل كل ذلك لأنه يطرد. ولكن من طارده؟

من يطرد الشمس والسحاب والنهر والأعصار والأرض وكل شيء؟

من بطرد قلوبنا وعقولنا ومشاعرنا وأهواءنا وأعضاءنا وأخلاقنا وآلامنا وشهواتنا لكي تخفق وترتجف وتنتقل وتتقلب وتتعذب وتعاني وتسافر وتتحطم وتتلوث وتهون؟

من يطرد عيوننا من أماكنها لترى وتحدق وتواجه وتغوص بعيداً بعيداً في الأوحال والأهوال والدمامات والذنوب والدموع؟

هل يوجد من يعاتبك أو يعاقبك أو يشتمك أو ينهرك أو يهينك أو يخيفك أو يراك أو يحتج عليك أو يشمئز منك أو يقرعك على عيوبك وذنوبك وفضائحك وتفاهاتك أقوى منك أو مثلك أو سواك؟ هل يستطيع أحد أن يوقع بك أو ينال منك أو يوجه إليك أو يجعلك تشعر أو تتعذب إلا من خلال ذاتك أو بواسطة ذاتك؟ إذن هل يوجد مطارد أو مقاوم لك غير ذاتك.

هل يوجد من يهبك الذكاء أو الغباء أو القوة أو الضعف أو الشجاعة أو الجبن أو الصحة أو المرض أو الابتهاج أو الاكتئاب، مثل نفسك أو غير نفسك؟ والذي يعلمك هل يعلمك غير ذاتك أو بغير ذاتك أو غير ما في ذاتك أو غير ما تستطيعه وتهواه وتتمناه ذاتك؟

إذن هل يوجد من يخلقك أو يصوغك أو يعدمك أو يشوهك غير نفسك أو مثل نفسك أو أقوى من نفسك أو خارج نفسك أو عصياناً لنفسك؟

وإذا كانت الأشياء طارداً أو مطروداً فمن الطارد للطارد والمطرود؟

* *

إن الأحداث والمواجهات الصعبة الأليمة قد تبعثنا وتخلقنا دون السهلة المواتية.

إن المسرات والملذات قد تستهلكنا وترهق أو تحطم أقدامنا، أما الآلام والأحزان والصدمات فإنها قد تخرجنا من جمودنا واسترخائنا ومن بيوتنا وأكواخنا، ومن مذاهبنا وعقائدنا ونماذجنا التي شاخت وشاخت أربابها وحماسها. إن طغاتنا الذين يطردوننا ويصنعون لنا الاشمئزاز والملل وإرادة الهرب ليخلقوننا أكثر وأقوى من أنبيائنا الذين يبشروننا ويعدوننا ويدللوننا.

إن كثيراً من الناس أو كل الناس قد يستسلمون إلى البقاء والعيش في مستوياتهم الذليلة المهينة لأنها قد بقيت لهم واستقرت بهم طويلاً ولم تهرب منهم ولم تطردهم أو يوجد من يطردهم منها. لقد منحتهم السلام الأليم الذليل والعيش السهل المستقر. إنها لم تفر من أيديهم ولا من عيونهم أو قلوبهم أو طموحهم أو من عقولهم أو من تصوراتهم. إنها لم تكرههم على الخروج منها إكراهاً. إنها لم تطردهم طرداً. لقد كانت تعتدي عليهم وتضعفهم وتذلهم لأنها لم تطردهم طرداً.

إن الكرسي الذي يقنعك ويستهويك ويستقريك لتجلس عليه دائماً لمضعف وظالم ومفسد لك وقاتل سارق لموهبتك واحتمالاتك.

إن هؤلاء المستقرين لم يجدوا لهم فرعوناً عاتياً ظالماً خلاقاً وهاباً ليقذف بهم إلى التيه ليقذف بهم التيه إلى التاريخ، وإلى أرض الميعاد، وإلى المواجهات الصعبة الملأى بالاحتمالات القوية.

إن موهبة الترك والتجاوز للذات وللمكان وللأوضاع والظروف المستقرة المستسلمة المألوفة موهبة صعبة ومخيفة. إن الناس لا يخرجون أو يسافرون من أنفسهم ومما يجدون بلذة أو بسهولة أو بشجاعة. إن هذا الخروج قد يعذبهم ويرهقهم ويخيفهم. إنه ضرب في التيه المجهول الموحش المسكون بالأخطار والأعداء.

إنهم قد يرهبون ذلك ويقاومونه كما يرهبون الموت ويقاومونه.

إن كليهما أي الموت وهذا الخروج ارتحال وطرد.

إن هؤلاء الذين تجمدت أو صلبت شفافهم على حافات الكؤوس الفارغة أو المرة الشراب، يرتشفون الهوان والحرمان والمرارة، إنهم لو فقدوا كؤوسهم هذه لأحسوا بالظمأ والحرمان. إن هذه الكؤوس لو أنها تحطمت فوق شفاههم أو دون شفاههم لانطلقوا يبحثون عن كؤوس أخرى، أكثر امتلاء وأفضل شراباً. إن الكأس الفارغة أو المرة الشراب قد تكون خصماً أو منافساً للكأس الممتلئة وللكأس اللذيذة الشراب. إن الوهم الحاضر المريح قد يكون خصماً للحقيقة البعيدة المتعبة.

إن البشر أو كثيراً منهم قد يضعفون عن قطع أضعف وأردأ العلاقات والأسباب التي تربطهم بأضعف وأردأ وأقبح مستويات الحياة ونماذجها واحتمالاتها. إنهم حينئذٍ يستمسكون بما يجدون ويعانون، بل يقاتلون ويعادون ويخاصمون دونه بكل استسلام ومهانة وضآلة، دون أن يغيروا أو يرفضوا أو يشمئزوا أو يحتجوا، بل دون أن يروا أية دمامة أو نذالة أو تفاهة في أبشع الدمامات والنذالات والتفاهات التي يواجهون ويعيشون.

إن هؤلاء حينئذٍ لمحتاجون إلى أن يطردوا طرداً من جنتهم المجدبة الكئيبة. إنهم لمحتاجون إلى فرعون عاتٍ، خلاق وهاب بعتوه، ليلقي بهم إلى البحر وإلى التيه وإلى الخروج الكبير، ليعلمهم الخوف والعذاب والضياع كيف يجدون الأحداث الكبيرة المثيرة مختبئة في أنفسهم وفي عجزهم وضعفهم وهوانهم. أليست الأحداث الكبيرة المثيرة تختبىء أحياناً في نفس الضعيف وفي عجزه وهوانه واستسلامه؟

إن الحياة السهلة الكئيبة المواتية هي أخطر حياة لأن من يحيونها قد يستطيعون حينئذٍ الاستمرار فيها مهما كان إذلالها وإفقارها وإجدابها وقبحها، فلا يحاولون أو يريدون أن يغيروها أو يخرجوا منها، لأنهم لا يحاولون أن يرفضوها.

إن أردأ وشر ما في الحياة أنها تتقبل نفسها، بل تسعد وتستمتع بنفسها في كل مستوياتها ونماذجها وأساليبها وصيغها. وإن الإنسان ليتقبل نفسه وحياته، بل ليسعد ويستمتع بنفسه وبحياته كذلك، أي مهما كانت المستويات والنماذج والصيغ والأساليب.

إن الإنسان لا يجد ولا يعرف حدوداً بين ما يقبل وما يرفض لنفسه ولحياته أو في نفسه وفي حياته. إنه لا يفكر في هذه الحدود.

إن الإنسان وكذا كل كائن حي ليمارس أحقر مستويات حياته بالنشوة والإعجاب اللذين يمارس بهما أعلى مستوياتها. إنه ليتغذى بالجوع كما يتغذى بالشبع، ويتغذى بالهوان كما يتغذى بالمجد. وإنه ليتجرع الإذلال والتحقير والحرمان كما يتجرع الطعام الشهي، وكما يتجرع الموعظة الكاذبة البليدة المتحدثة عن مجد الإله وعن جوعه إلى إذلال الإنسان، وعن سعادته أي عن سعادة الإله في أن ينافقه الإنسان، وفي أن يكذب له ويكذب عليه.

وهل تجرع الإنسان فيما تجرع في كل تاريخه مثلما تجرع المواعظ الكاذبة البليدة المتهاوية عليه من كل الأفواه والمنابر؟

إن الذين يفقدون موهبة السأم والهرب وإرادة المفارقة يفقدون عبقرية الابداع والتغيير. إن السأم والهرب وإرادة المفارقة ليست بالعقل فقط، ولا بالأخلاق فقط، ولا بالنفس أو المشاعر فقط، ولا بالكينونة فقط، بل بكل ذلك.

أي ذلك يجب أو ينتظر أن يكون أكثر هرباً وسأماً: الفكر أو المشاعر أم الأخلاق أم الكينونة؟

وقد يكون شيئاً شاذاً جداً أن يبدع أو يتغير أو يغير من لا يملكون موهبة الملل والهرب وإرادة المفارقة، بأفكارهم وأخلاقهم ومشاعرهم وطموحهم وكينوناتهم.

إن موهبة السأم والهرب وإرادة التخطي موهبة خلاقة. إنها موهبة إنسانية خاصة، وإنها شرط في إبداع الحضارات، وفي إبداع الكينونات الكبيرة.

وهل من المحتوم أن نفترض أن أكثر الناس إبداعاً وأقواهم كينونة وحضارة هم أكثرهم مللاً وهرباً وإرادة للمفارقة، ووقوعاً تحت عوامل وقوى المطاردة، واستجابة لهذه العوامل والقوى المطاردة؟ وهل من المحتوم أن نفترض أن العاجزين عن ذلك لا بد أن يكونوا عاجزين عن الابداع والتغير وعن الكينونات المثيرة؟

ألا يمكن أن تكون موهبة الابداع والتغير وموهبة الكينونة الكبيرة منفصلة عن موهبة السأم والهرب وإرادة المفارقة؟ إنهما موهبتان إنسانيتان، ولكن هل من القضاء المقضي أن تكونا متلازمتين؟ أليست المواهب مستقلاً بعضها عن بعض؟ بل أليست متناقضة ومتضادة؟

أليست أقبح الأشياء أن تعيش كل أسباب وموجبات السأم والهرب والتحريض على المفارقة ثم لا تسأم ولا تهرب ولا تفارق بل ولا تملك إرادة المفارقة؟

وهل يوجد من لايعيشون ويواجهون جميع هذه الأسباب والموجبات لكل معاني الهرب والسأم؟

أليست جميع الأشياء في كل الأوقات تحت كل الظروف تحكم على كل إنسان بأن يعيش ويقاسي كل أساليب ومعاني وتفاسير السأم والهرب وإرادة المفارقة؟

أليس كل شيء يتحول إلى نبي للسأم والهرب وإرادة المفارقة بالفكر والنفس والوجود والأخلاق والكينونة؟ أليس في صميم جميع الأشياء أنبياء يعلمون السأم والهرب وكل إرادة المفارقة؟

أليست أفظع الأشياء ألا يموت كل الناس من الملل والهرب وإرادة المفارقة؟

أليس شيئاً فظيعاً أن يواجه ويعيش الإنسان نفسه بكل ما فيها ولها من احتياجات وتفاهات، وأن يواجه ويعيش الآخرين بكل ما فيهم وبكل ما يريدون وينوون ويمارسون، وأن يعيش ويواجه كل هذا الوجود وهذه الأشياء بكل صفاتها وأخلاقها وتفاسيرها ومستوياتها، دون أن تنفجر وتحترق نظراته وأفكاره ومشاعره وأعضاؤه وأخلاقه وكبرياؤه وحماسه من السأم والهرب وإرادة المفارقة؟ أليس شيئاً فظيعاً أن نواجه ونحيا كل هذا بكل هذا التكرار والابتذال والتفاهة دون أن نموت من السأم والهوان والرغبة في الفراق؟

أليس شيئاً فظيعاً أن يتحول الإنسان إلى حجر، إلى تراب في فقده لموهبة الملل والهرب وشهوة المفارقة، أليس كل الناس قد تحولوا إلى حجارة، بل ولدوا حجارة في عجزهم عن السأم والهرب وعن إرادة المفارقة وعن أخلاقها وعن القدرة عليها؟

هل الناس حكماء أم أغبياء؟ هل تبلدوا واستسلموا وتقبلوا وصبروا وتجرعوا بمنطق وعبقرية وبسالة أخلاق أم ببلادة حياة وبلادة أعصاب؟

هل الناس متبلدون لأنهم أتقياء وأذكياء ونبلاء وحلماء أم هم متبلدون لأنهم متبلدون؟

هل بلادة الأعصاب والحس تعني بلادة العقل والأخلاق؟ وهل ذكاء العقل والحس يعني ذكاء الأعصاب وذكاء الأخلاق؟ هل الأفضل للإنسان أن يصاب ببلادة العقل والأخلاق أم ببلادة الحس والأعصاب؟ هل الأخطر عليه أن يصاب بذكاء جسده أم بذكاء منطقه؟ هل الأقسى أن نصاب بفروسية الرؤية والغضب أم بفروسية الحركة؟ هل الأفضل أن نكون كما نكون أم أن نكون كما نفكر ونتمنى؟

إن لذة الحياة وتكاملها في التعب، في الحماس والارتجاف، في الشك والتطلع والجيشان، في البحث عن التغيير والمفارقة وإرادتهما. في السأم من الشمس الطالعة المتكررة، في اليأس من انتظار الشموس المحتجبة التي لن تبزغ..

إن ذلك في البدء بشيء جديد، في رؤية النجم الوليد، في رؤية النهار الجديد في إغراق السفن الراسية وراءه، في الاندفاع إلى المصاعب والحماقات الأمامية، في اقتحام الخوف والمجهول، في التخطي الدائم للذات وللمكان المألوف المعروفة أسراره، في الصعود فوق الحواجز العالية أو التحطم دونها، دون أن يكون وراءها شيء تعرفه أو تطلبه أو تحترمه أو تؤمن به. دؤن أن يكون وراءها إله أو زعيم لتموت أمامه.

إن ذلك في رفض الكون بالعقل والأخلاق وفي النضال ضده بالتغيير.

إن ذلك في الصلاة ضد الأشياء بالمنطق، وفي الصلاة لها بالسلوك وبالشهوة وبالحماس. إنه في

رؤية الآلهة القوية مهزومة ومصلوبة، في محاكمة الآلهة بقسوة وعدوان. في استبدال إله بإله. في تشييد المعابد وهدمها، في الهتاف للزعماء وصلبهم.

ما أروع صلب الزعماء الذين طالما هتفنا لهم، وخفنا منهم، ومتنا فداء لحماقاتهم.

ما أروع أن تكون قاتل الآلهة، آلهة كنت عابدها. ما أروع أن تكون عابدها وقاتلها. إنه في الحماس الدائم، والتوجس الدائم، والتوقع الدائم، والانتظار الدائم، والرؤية الدائمة. إنه في التجدد الدائم، وفي الارتحال الدائم إلى كل الآفاق، إلى أقصى الآفاق، وحيث لا آفاق، ولا رؤية لآفاق، ولا



أجل، إن السباب أو القتال بالكلام عملية تفريغ لذات الإنسان من نفسه. إنها عملية تفريغ باهظة وخاسرة. إن السباب صرف لذات الإنسان إلى عملات زائفة. إن السباب ليس عدواناً فقط على المسبوب بل وسرقة للساب. أيهما المظلوم أكثر: الساب أم المسبوب؟

الذين يحولون مشاعرهم هذه إلى كلام جارح محقر لاعن ليسوا إلا قوماً يفرغون ذواتهم من طاقاتهم، من أسلحتها القتالية. إنهم يفجرون أنفسهم وأسلحتهم تفجيراً سخيفاً بليداً. إن تفريغ الذوات من طاقاتها ومن أسلحتها وتفجيرها في الفضاء فن قديم وخالد وعالمي من فنون الإنسان.

إنك إذا بالغت وأطلت في سب خصمك فلا بد أن تضعف رغبتك في مقاومته أو في قتله أو في هزيمته. وإنك إذا قتلته أو هزمته أو قاومته بانتصار وبسالة فلا بد أن تموت أو تضعف رغبتك في سبه وفي تحقيره وفي التوعد له. أليس المفروض أن الضعيف والمهزوم أكثر من القوي ومن المنتصر رغبة في سب الخصم أو العدو وفي الحقد عليه؟

إن هذه هي الافتراضات أو التفاسير المفهومة والصحيحة التي قد تتغير. إنها قد تتغير، فالإنسان مهما فسر، أو أمكن تفسيره فإنه يظل مع ذلك شيئاً يصعب تفسيره، أو شيئاً لم يفسر، أو يحتاج إلى تفسير، أو يخطأ في تفسيره، أو يختلف في تفسيره.

إن الإنسان لا يفسر بالسهولة أو بالضبط أو بالمنطق أو بالقوانين التي تفسر بها الأشياء. إنه أصعب من الأشياء في تفسيره لأنه أصعب منها في تكوينه وفي قوانينه. إن الإنسان هو أصعب الأشياء تفسيراً لأنه هو وحده التفسير لكل الأشياء.

إنها طاقة واحدة، أو طبيعة واحدة، أو حاجة واحدة. أو ذات واحدة، أو انفعالات واحتشادات واحتجاجات واحدة، فأما أن تحول إلى قتال بالكلام، أي إلى شتائم ولعنات، أو تحول إلى سلوك قوي، إلى مقاومة قتالية. أما تحويلها إلى الأسلوبين معاً بنفس القوة والحماس دون عدوان على أحدهما أو أخذ منه أو انتقاص أو إضعاف له فهذا هو الشيء الذي يحتاج إلى أن يفهم ويفسر بمنطق جديد، أو إلى أن يفهم ويفسر بلا أي منطق.

إن هذا يشبه أن تطلق أو تفجر ذخيرة السلاح الواحدة مرتين في اتجاهين. إن هذا يشبه أن تطلق الرصاصة الواحدة على هدفين متباعدين، أو في اتجاهين مختلفين في وقت واحد. إن معنى هذا أن لطاقة النفسية لا تستنفد أو تنقص بالاستعمال أو أن التعبير عنها ليس وسيلة استنفاد أو استهلاك. إذن لماذا جاءت الصلوات والتضرعات والصراخ والبكاء والكلام والأنين؟

إني ما سمعت زعيماً أو حاكماً أو كاتباً أو خطيباً أو نبياً يلعن الأعداء والأشرار والخصوم، أو يلعن الأبالسة والآلام والخطايا إلا صحت في وجهه دون أن أنطق أو أسمع صوتي أو يسمع هو صوتي:

ألا مهلاً أيها اللاعن الكبير الجليل.. إلا مهلاً أيها المحول لطاقاته ولطاقات جماهيره إلى تقايؤ، لكي تقيئه على أخلاقك وعلى أخلاق جماهيرك.

ألا مهلاً أيها اللاعن الجليل. أنت لا تدري أنك لا تقاتل أو تهزم أو تضعف أو تضرب عدواً. إنك لا تفعل إلا أن تفجر أسلحتك وأسلحة جماهيرك داخل ذاتك وداخل ذوات جماهيرك، وإلا أن تبذر طاقاتك وطاقات جماهيرك تبذيراً هداماً بليداً. إن القائد الشتام المعلم لجماهيره الشتائم المحول لها إلى

شتامة ليس إلا قائداً يحطم السلاح في أيدي جنوده ويسحب القوة من عضلاتهم ويفرغها من احتمالاتها الجيدة.

إنك أيها اللاعن الكبير لتحابي الأبالسة والأشرار والأعداء والفاسدين، وتحابي أيضاً الآلام والخطايا ـ إنك لتحابي هؤلاء وهذه، وتبحث عما يجعلك عاجزاً عن مقاومتهم ومقاومتها، أو راغباً عن هذه المقاومة، مصروفاً عنها، فاقداً لأسلحتها وأسلحة الانتصار فيها.

إنك أيها اللاعن الكبير الجليل لتفعل ذلك حينما تذهب تلعن وتتوعد وتحقر. إنك لتحابي من تشتم وتهدد لأنك بذلك تضعف أو تقتل قوة غضبك عليه ومقاومتك له.

إنك إذن لجندي نافع جداً من جنود الأعداء والأشرار والفاسدين ومن جنود الأبالسة لأنك تحطم السلاح الذي قد يوجه ضدهم أو تعطل أجهزة الإطلاق والتسديد فيه، أو تفسد ذخيرته، أو تطلقه داخل ذاتك وذوات جماهيرك بدل أن تطلقه عليهم أي على الأعداء والأشرار والفاسدين والأبالسة. بل إنك بذلك لتحابي الطبيعة، لأنك بالسباب تفرغ أو تضعف غضبك على أخطائها ومظالمها وعبثها، ورغبتك في تصحيحها وتغييرها، وإحساسك بقبحها..

إنك إذن لجندي مضاد لنفسك ولجماهيرك أيها الزعيم الشاتم أو الحاكم الشاتم أو الكاتب الشاتم أو الخطيب الشاتم أو النبي الشاتم ـ الشاتم للأعداء، أو للأشرار والفاسدين، أو للأبالسة، أو للآلام والخطايا. إن القادة والزعماء والأنبياء والكتاب والخطباء الذين يذهبون يسرفون في الشتائم واللعنات ليسوا إلا جنوداً يقاتلون تحت راية الأعداء. إنهم جنود يطلقون أسلحتهم على الصفوف التي يقفون فيها.

إنه لو تحتم علينا أن ننصح حاكماً أو طاغياً أو زوجاً أو والداً أو أي إنسان غاضب مستثار، لنصرفه عن الانتقام أو عن العدوان بالضرب أو القتل أو بأي أسلوب آخر عنيف، لكان من الصواب والذكاء، بل لكان من الواجب أن ننصحه بأن يشتم، ويشتم، ويشتم، وأن يتوعد ويحقر بكل أساليب الشتم والتحقير والتوعد.

.. لنصحناه أن يخطب بهياج وفصاحة وبغضب وتوتر ضد ذلك الذي استثاره..

إنه لواجب حينئذٍ أن ننصحه هذه النصيحة لكي يريق جميع قطرات غضبه وهياجه، محولاً هياجه وغضبه إلى كلمات شنيعة فضاحة، ولكنها غير قاتلة أو جارحة أو ضارة. إن الكلمات الشنيعة الفضاحة البذيئة العدوانية هي أرحم وأنبل الكلمات لأنها أبعد الكلمات عن أن تكون قاتلة أو جارحة أو ضاربة، ولأنها أقدر الكلمات على تفريغ السلاح من رصاصاته.

إذن أيها الزعماء والحكام والكتاب والوعاظ والخطباء والأنبياء.. إذن أيها الناس جميعاً. لا تسبوا الأعداء، ولا الأشرار والفاسدين، ولا الأبالسة، ولا الطغاة، ولا الظلمة، ولا الأحداث الأليمة ـ لا

تسبوا شيئاً من ذلك، لأن سبكم له يضعف من احتمالات مقاومتكم ورفضكم له وانتصاركم عليه ومن أحاسيسكم ضده ومن رؤيتكم لقبحه.

لا تسبوا فالسباب ليس سلاحاً وليس قوة وليس مجداً ولا تقوى ولا عبقرية ولا تكريماً للآلهة أو للأوطان أو للمذاهب.

ولكن بالغوا، وبالغوا، وبالغوا جداً في سب أصدقائكم وأقاربكم، وفي سب الناس الطيبين والأتقياء والأبرياء، إذا غضبتم عليهم وأوشكتم على الايقاع بهم والظلم لهم.. بالغوا، بالغوا في سب هؤلاء، وفي توعدهم، وفي اتهامهم، وفي العدوان عليهم بالكلام البذيء المجرح، ليكون ذلك هو البديل عن البطش بهم أو عن أي أسلوب آخر عنيف. ولكن من الأذكى والأتقى أن تفعلوا ذلك دون أن يسمعوا أو يعلموا، أن تفعلوه سراً وهمساً إن كان ممكناً. ولكن لا. فإن السب المهموس أو الهامس لا يستطيع أن يكون عملية تفريغ للنفس من شحناتها الرديئة والأليمة. إن أفضل السباب هو أكثره جهراً وإعلاناً وعدواناً وتوقحاً.

انفثوا ثورتكم وغضبكم على هؤلاء، وحولوهما إلى دخان بارد تطلقونه في الفراغ. إن ذلك قد يجعلكم ترضون وتصفحون، وقد يجعلكم أحياناً تحبون وتحترمون وتجدون فيمن سببتم وحقرتم وتوعدتم الروعة والجمال والمزايا التي لن تستطيعوا رؤيتها فيهم لولا سبكم وتحقيركم وتوعدكم لهم، أي لو لم تنفثوا ثورتكم وغضبكم، وتحولوهما إلى دخان بارد تطلقونه في الفراغ، إلى دخان مهدىء للأعصاب الثائرة الغاضبة.

نعم، إن السباب الجاهر المتوقح البذيء لمن أفضل العقاقير المهدئة للأعصاب، المفرغة لها من رصاصاتها القتالة. إنه عقار لم تصنعه الحضارة ولا العلم وإن اعترفا به وباركاه واستعملاه. إنه عقار حضاري وبدوي.

إن أحق الناس بالرثاء هم المظلومون الذين يحولون شتم ظالميهم إلى صلوات وعبادات، وإلى أديان ومذاهب وأخلاق وتعاليم، وإلى وظائف وأعمال ومزايا، تؤدى في كل الأوقات، بكل اللغات والتعبيرات، بكل الأماكن، بكل أساليب التهويل والصراخ والابتهال. إن كثيراً من الأديان والنبوات والمذاهب والتعاليم لتبدو وكأنها إنما جاءت لتعلم المظلومين كيف يشتمون ظالميهم ويقاتلونهم باللعنات.

ما أعظم حظوظ الظالمين الذين يتحول مظلوموهم إلى منابر ومحاريب، وإلى مهرجانات ضاجة حاشدة للانتقام منهم بالشتائم واللعنات وبصوغ التهم الشنيعة الكبيرة لمقاتلتهم بها. كم هو ذكاء في الأقوياء والظلمة والفاسدين السارقين أن يذهبوا يتكرون ويختارون أقوى الشتائم ليشتمهم بها الضعفاء والمقهورون المظلومون.

ما أعظم ذكاء هؤلاء إذا تركوا هؤلاء المظلومين يفعلون ذلك، ويتحولون إلى مثل هذه المنابر

والمحاريب والمهرجانات بل يحولونهم إليها. ما أعظم ذكاء ودهاء وخبث الظالم اللص الشرير إذا ذهب يهيىء الأسباب لكي يكون مشتوماً، مشتوماً بقسوة وهياج.

ليتنا نسبق العالم، كل العالم بهذا الشيء الواحد. ليتنا نسبق كل العالم ولو بهذا الشيء الواحد، أو نهب العالم ولو هذا الشيء الواحد. إنه لشيء واحد يهب المجد لمن وهبوه ولمن سبقوا إليه. إذن ليتنا نهبه أو نسبق إليه.

أجل، ليتنا نستطيع أن نسبق العالم بأن نصدر هذا القانون ثم نستطيع تطبيقه. ليتنا نصدر قانوناً نحرم به الشتائم واللعنات وجميع أساليب الهجاء والتحقير والتهديد، أو ليتنا نفعل ذلك بلا قانون بل بالذكاء أو بالأخلاق أو بالأنانية أو بالاحترام للنفس. إن السباب أسلوب حزين، حزين جداً من أساليب التحقير للنفس. إنه إبداع وعبقرية في الضآلة والحقارة.

ليتنا نفعل ذلك لنبقي على طاقاتنا النفسية وعلى احتجاجاتنا الغاضبة الرافضة المستنكرة المقاومة، لكي نحولها إلى أعمال كبيرة لقهر المظالم والآلام والدمامات والحقارات التي تواجهنا ونواجهها، والتي تعيشنا ونعيشها، والتي تتقبلنا ونتقبلها، دون أن نحارب أو أن نعيش حالة الحرب أو مشاعر الحرب. إننا نعيش كل السلام كل الوقت مع أننا نعيش ونواجه كل الظروف والأسباب التي تصنع كل الحرب.

لقد وجدنا أننا نغفر لهذه المظالم والآلام والدمامات والحقارات، ونفقد المشاعر المضادة لها كلما حولنا أنفسنا إلى سباب ولعنات، وإلى ضجيج من أساليب الوعيد والتهديد التي نقاتل بها والتي نحاول أن ندمر بها حصون وجبهات الآلام والشرور التي تعاني منها حياتنا، أو التي كأنما نحاول أن نفعل بها ذلك. وقد تقول إننا نغفر كل ذلك ونغفر له لأسباب أخرى وليس لأننا نشتمه. قد تقول ذلك وقد يقوله غيرك.

أجل، إن المعلمين والقادة والكتاب والقديسين ليظنون، بل ليزعمون أنهم إنما يؤدون أعمالاً دينية ومذهبية وأخلاقية ووطنية وإنسانية حينما يذهبون يصولون ويجولون سباً ولعناً وتحقيراً وتوعداً وهجوماً على أعراض وأخلاق وعقول ونيات الأعداء والخصوم والفاسدين والأبالسة وجميع الآخرين والمخالفين. وهل يعلمون أنهم بذلك لا يبددون أنفسهم وأسلحتهم الإنسانية فقط بل وأنفس وأسلحة جماهيرهم الهاتفة والمصلية والسائرة بورع وإيمان بليدين وراء كل إمام ومعلم فاسق منافق مخادع يصلي بها دون وضوء أو طهارة أو إيمان أو تقوى؟ نعم، هل يعلمون ذلك؟ إن كانوا يعلمون فما أنبلهم وأتقاهم، وإن لم يكونوا يعلمون فما أذكاهم؟ وهل يجوز وضع القادة والمعلمين والقديسين تحت مقاييس الذكاء والغباء، الفجور أو التقوى؟

إن هذه الجماهير لتغمرها مشاعر الراحة والرضا الجماعية كلما سمعت ورأت خصومها وأعداءها تتهاوى عليهم اللعنات والاتهامات والتهديدات في حشود جماهيرية وشعبية ضاجة بالهياج والجنون. حتى أنها لتوشك أن ترثي لهؤلاء الأعداء والخصوم ولجميع ظالميها لشدة الأهوال التي يلقون من هذه

اللعنات والشتائم والتهديدات. إن الجماهير لتشعر أنها تعاقب وتنتقم بأقسى الأساليب حينما تصلي وراء من يشتمون أعداءها وظالميها.

نعم، هل الزعماء والحكام والأنبياء وجميع المعلمين يعرفون هذه الحقيقة فيذهبون يحاولون الانتفاع بها ولو أحياناً، أم هم يصنعون ذلك ويخدمون مصالحهم عن غباء دون أن يعرفوا أو يقصدوا؟ ولكن هل يصح هذا التساؤل أو هل يجدي؟

إن السباب ليؤدي ما تؤديه العملية الجنسية من استرخاء واكتفاء وراحة. إن السباب إفراز وقذف بل ونشوة وارتجاف كالأعمال الجنسية.

فهل يفعلونه أي السباب بالتفكير والتدبير، أم كما يؤدون العملية الجنسية، كما يؤدونها بالنشوة والاندفاع، أو بالاحتراق والألم والتمزق وبالتفجر الباهظ العنيف البذيء بلا أي منطق؟ ولعله ظلم للسباب أن يسوى أو أن يشبه في مزاياه بالممارسات الجنسية. إن السباب يهب من النشوة والاسترخاء والراحة ومن مشاعر الانتصار وعرض الذات ما لا تستطيع أن تفعل مثله العملية الجنسية.

ولكن إذا كان السباب يهب هذه المزية العظيمة السعيدة أو هذا التمزق أو التفجر المزيج من الألم الباهظ العنيف ومن النشوة الراقصة الغامرة فلماذا يكون أي السباب شيئاً رديئاً أو مرفوضاً أو محرماً؟ وهل تطاق الحياة التي تمنع فيها الممارسات الجنسية؟ وهل يوجد ما يكفي أو ما يقبل أو ما يرضي أن يكون ثمناً لتحريم أو لمنع العلاقات الجنسية؟

لعل السباب هو أنبل تعاليم الأنبياء والقديسين والمعلمين وأكرم عطاياهم للمتألمين الذين لا يستطيعون تحمل آلامهم ولا يستطيعون التخلص منها.

لعل السباب قد داوى الناس من آلامهم أكثر مما داواهم منها كل حبهم وتهذيبهم ومصافحاتهم وصداقاتهم.

* *

ثم أليس ممكناً افتراض السباب محرضاً قوياً على مقاومة الأعداء والفاسدين، وعلى مقاومة الآلام والشرور، وعلى الرفض لها والنفور منها؟ أليس ممكناً افتراض السباب قائداً إلى المقاومة، أو نبياً يعلم المقاومة، أو شاعراً يغني للمقاومة، أو اعصاباً تهب المقاومة الحماس والغضب، أو قلباً يخفق بها ولها؟

أليس ممكناً افتراض السباب عبقرية إنسانية خص بها الإنسان لتتحول إلى عبقرية حضارية وأخلاقية واجتماعية؟

أليس ممكناً الافتراض بأن الذين يسبون أكثر يقاومون أكثر، وإنه لولا السباب وأنبياؤه ومعلموه ومنابره وأجهزته لماتت الرغبة في المقاومة للشرور والأشرار والآلام والدمامات والتفاهات، ولفقدت القدرة عليها أي على المقاومة؟ أليس ممكناً افتراض السباب جهاز مقاومة وتحريض لا جهاز تعجيز أو تثبيط؟ أليس ممكناً افتراض السباب أفضل وأقوى وقود ابتكره الإنسان لحياته، ابتكره له أنبياؤه وزعماؤه

وقديسوه، لكي يغضب ويرفض ويقاوم، لكيلا يتخلى عن الغضب والرفض والمقاومة؟

ألسنا نجد دائماً المتخاصمين والمتناقضين والمتعادين المتعاملين بحروب هي الأهوال والجنون يعدون أقوى الأجهزة الدعائية اللاعنة السابة المحقرة المتوعدة المشهرة المتهمة، ممارسين أقوى وأفجر الأساليب البلاغية، وأقوى وأفجر الألسنة المصابة بكل وقاحة وفجور وفحش الفصاحة، دون أن تخمد أو تموت الحروب أو العداوات بينهم، ودون أن تضعف فيهم الوحشية التي تدبر وتدير هذه الحروب؟ كيف استمر البشر في كل التاريخ يتحاربون ويتعادون بكل الوحشية والجنون، واستمروا مع ذلك يتشاتمون ويتلاعنون ويتهاجون بكل البذاءات والنذالة والافتضاح؟

إنه لو كان السباب يقتل أو ينفي أو يضعف أو ينافي العداوات والبغضاء وإرادة الحروب والقدرة عليها بين البشر وفي نفوسهم، ويحولهم إلى عجز عن ذلك، وإلى رفض له، لكان أي السباب هو أفضل وأتقى أخلاق الإنسان، بل لكان هو أفضل وأتقى أديانه ومذاهبه، أو ما جاءت به أديانه ومذاهبه، بل لكان أي السباب هو أنبل وأكرم وأنفع ما علمت الآلهة للحياة وللأنبياء وللناس من تعاليم وقيم. ما أنبلك وأتقاك أيتها الآلهة حينما علمت الناس الشتائم والبذاءات إن كانت الشتائم والبذاءات تقتل الحروب والعداوات والبغضاء.

إنه لممكن الافتراض بأن الكثير من البغضاء والأحقاد التاريخية أو الدينية أو الأخلاقية لم يكن لها من مدبر وخالق مبدع مخرج سوى السباب المثابر المكرر المخطوب به والمصلى به من فوق أتقى وأعلى المنابر والمحاريب. لهذا كانت جميع المنابر والمحاريب تتعبد بالسباب، وتتعبد بتعليمه للجماهير، لأن جميع المنابر والمحاريب تؤمن بالبغضاء وبالأحقاد وتعلمها وتبشر بها.

لعل السباب هو الذي وهب البغضاء والأحقاد القوية الفعالة المتحركة الخلود والقداسة بعد أن وهبها الشرعية والقانونية والمزايا الأخرى الكثيرة. هل يمكن أن تخلد أو تكون فعالة وقوية ومقبولة لولا تأجيجها؟

أليس السباب عملية تأجيج دائمة للبغضاء والأحقاد؟ أليس عملية إحياء وتنشيط لها؟

هل وجد إنسان واحد استطاع أن يرتفع عن جميع ألوان السباب واللعن والبذاءة اللغوية أو التعبيرية مهما كان مستواه الديني أو الأخلاقي أو الفكري أو الاجتماعي؟

لقد كان السباب بكل معانيه وتعبيراته المختلفة تفسيراً إنسانياً وقيمة إنسانية. لقد كان ديناً إنسانياً عالمياً. لقد كان مستوى إنسانياً رفيعاً.

لقد كان جميع الأنبياء والزعماء الكبار جداً، وجميع واضعي الفلسفات والنظريات الأخلاقية الداعية إلى ما لا يستطاع من الكمال والتطهر والصعود فوق جميع المستويات والاحتمالات ـ لقد كان جميع هؤلاء يعرفون بالممارسة وبالشهوة والهوى هذه اللغة، هذه الصلاة. لقد كانوا جميعاً يؤدونها بأسلوب التدين ومنطقه وجهره وافتضاحه، وبجماعيته وعالميته. بل لقد كان هؤلاء أبلغ وأبرع

وأجرأ على الافتضاح في ممارساتهم بالشهوة والهوى والسلوك لهذه اللغة أو لهذه الصلاة، أي للسباب.

لقد كان السباب هو أتقى صلوات الأنبياء والقديسين لأنبل وأعظم وأكبر الآلهة. لقد كان أعظم فنون النبوات.

لقد يوجد، أو قد يحتمل أن يوجد من يمكن استثناؤه من هذا التعميم. ولو وجد هذا الاستثناء لما ضعف أو أخطأ هذا التعميم. ولعل الذين يكفون عن السباب بألفاظهم هم أكثر الناس سباباً بمشاعرهم ونياتهم. لعل السباب الذي لا ينطق هو أقسى أساليب السباب وأقسى لغاته.

إذن فلعل السباب هو أحد الفنون الإنسانية العالمية الجميلة التي تحيا بها جميع مشاعر وأخلاق وأفكار جميع البشر، بل وجميع ظروفهم القاسية الوقحة، بل وجميع أديانهم ومذاهبهم وتقواهم. لعل السباب إذن جهاز لملء ذات الإنسان بالطاقات والمعاني ثم لتفجير هذه الطاقات والمعاني وتحويلها إلى شتى أساليب الإبداع والتعبيرات القوية.

لعل الحياة بدون شتائم وبذاءات كآبة لا تطاق. لعلها بدون ذلك تدين يقتل فينا الشعور المضاد للأشياء غير الملائمة لنا، ويقتل فينا التعبير عن هذا الشعور، بل ويقتل فينا إرادة هذا التعبير، وإرادة هذا الشعور المضاد للأشياء الرديئة أو الدميمة أو البليدة أو العدوانية. لعل البشر ظلوا يستنكرون أبداً، ويقبلون ويرفضون ويهاجمون ويدافعون، ويصادقون ويعادون أبداً لأنهم ظلوا يشتمون أبداً.

لعل السباب هو أحد أساليب التعبير القوية الحادة ضد الأشياء البليدة والرديئة والكريهة والقبيحة والبذيئة والتافهة. لعله هو القوة المضادة النبيلة التي جعلت الإنسان يختار أبداً ويترك أبداً ويتحرك أبداً بل ويحدق في الأشياء ويحيا فيها أبداً.

لعل السباب هو أحد الأساليب القتالية التي تفوق بها الإنسان على الأشياء ليقاوم بها الأشياء المضادة له، وليلعن بها رفضه لهذه الأشياء ومقاومته لها. لعل السباب هو الجهاز المنمي والمحرك والمفجر فينا لموهبة الرفض والاشمئزاز والغضب الفعال.

لعل السباب هو القوة الدعائية والإعلامية والتحريضية والتحذيرية في حياة الإنسان وفي ذاته.

ما أعظم النشوة الروحية التي تغمر الشاتم وتغمر سامع الشتيمة المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو الوطنية. ما أعظم ذنب من يحاول أن يحرمنا من هذه النشوة.

ما أعظم النشوة التي يعيشها النبي، والتي يعيشها من يصلي وراءه حينما يطلق أي النبي شتائمه على الزنادقة والكافرين والفاسقين، وعلى الشياطين، وعلى جميع المتفوقين، وهو يتوجه إلى إلهه بصلواته ومدائحه وبهجائه لأعدائه.

لعل نشوة الشاتم وسامع الشتيمة أعظم من نشوة المنتصر في حرب أو الظافر بحب، أو من نشوة المكتشف لمنطق يرى أن في خلق الحشرات فضيلة دينية أو أخلاقية أو مذهبية أو إنسانية، أو تفوقاً في

عبقرية الإله وجماله ونظافته، أو في عبقرية الطبيعة وفي جمالها ونظافتها. هل توجد نشوة بين جميع النشوات مثل نشوة الشتيمة منطوقة ومسموعة؟ هل توجد نشوة كنشوة الشتيمة يعيشها كل البشر في كل أعمارهم ومقاماتهم وتحت كل ظروفهم واتجاهاتهم؟

لعل الصلاة قد فرضت من أجل شتم الشيطان وشتم الكفرة أكثر مما فرضت من أجل تمجيد الإله. لعل الشتم في الصلاة يصنع النشوة والسرور في قلب الإله وفي قلب المصلي أكثر مما يصنعهما التمجيد للإله. لعل الإله والمصلي له يريان في الشتم من الثناء على الإله أكثر مما في التوجه إليه بالصلوات والضراعات وبالدموع.

إن كل شيء في الكون والحياة وفي الناس شاتم ومشتوم ولكن اللغات تختلف. إن للشتم لغات كثيرة لا لغة واحدة. إن الشتم ليس لغة فقط وإن لغته ليست واحدة.

إن الكون الذي يمرضنا أو يقتلنا أو يصيبنا بالأحزان والعاهات والشيخوخة أو بالجوع أو بالعار أو بأي ألم أو تحقير أو تشويه أو تخويف أو هزيمة أو إذلال هو يشتمنا بلغة كونية، أي بلغة قتالية لا بلغة كلامية كما يفعل الإنسان حينما يمارس شتائمه الدينية أو المذهبية أو الوطنية أو الأخلاقية أو النفسية.

إن الكون هو كل الشتائم وكل معلمي الشتائم. إن الأنبياء والقادة الشتامين هم إحدى صيغه وتعاليمه.

إننا لنشتم الطبيعة والكون وجميع الأشياء حينما نحتج عليها بتغييرها وبالنضال ضدها، وبرفضها ورفض منطقها وسلوكها، وبالخروج عليها بتخطيها.

إن إبداعنا وتفوقنا اللذين يتحولان إلى رفض لما كان، وإلى خروج عليه، وإلى تجاوز له - إنهما أي إبداعنا وتفوقنا سباب للطبيعة والكون ولجميع الأشياء، بل سباب للآلهة المدبرة والمريدة والخالقة والمخرجة للطبيعة والكون والأشياء التي نرفضها ونخرج عليها ونتخطاها بإبداعنا وتفوقنا وبنضالنا ضدها.

إن الآلهة لا تشتم بأقوى أو أقسى من التصحيح عليها في هذا الكون ومن التدخل فيما فعلت ومن النضال ضده.

ولولا أننا نشتم الطبيعة والأشياء لما غيرناها، أو كرهناها أو تفوقنا عليها أو آمنا بجواز تغييرها أو كراهتها أو التفوق عليها أو بإمكان حدوث ذلك.

ولولا أننا نشتم الإله ونؤمن بجواز شتمه، بل ونتدين بشتمه لما جاوزنا أو رفضنا أو كرهنا أو عصينا أو شتمنا شيئاً مما أراد أو دبر أو خلق أو أخرج أو تقبل، ولما قلنا أو آمنا بشيء من ذلك أو بجواز شيء منه. إنه لا يوجد من لا يكرهون أو يرفضون أو من لا يلعنون ما كان، ويحاولون أو يتمنون الخروج عليه أو من لا يخرجون عليه. إنه إذن لا يوجد من لا يشتمون الإله والطبيعة والأشياء.

إن الذي ينكر أو يرفض أو يسفه أو يقاوم أو يدمر أو يلعن ما أردت أو ما رضيت. أو ما أبدعت، أو

ما دبرت وشيدت بعقلك واقتناعك وأخلاقك وحماسك لهو شاتم لك أكثر من الذي يشتمك بكلماته أو بصلواته. لهذا فإن أكثر الناس شتماً وهجاءً وتحقيراً للإله وللطبيعة هم الذين يصوغون الطبيعة والأشياء صياغات جديدة، أو يدعون إلى صياغاتها هذه الصياغات الجديدة، أو يتقبلون أن تصاغ هذه الصياغات، أو يتمنون ذلك، أو يؤمنون بجوازه. إن العبقرية المبدعة المغيرة للأشياء والصانعة للأشياء والمعالجة للأشياء من أخطائها ونقائصها وآلامها لن تكون إلا سباباً للآلهة وللكون.

إن أشد الناس سباً وهجاء وتحقيراً للإله وللطبيعة هم المزيلون للآلام أو للأخطاء أو للعاهات أو للأمراض أو للمجاعات، أو للوحشية والهمجية والبداوة المخلوقة في الطبيعة وفي الأشياء والمحكوم بها عليها.

إن السباب ليس إلا تعبيراً بالكلمة عن الرفض النفسي أو الفكري أو الأخلاقي. أما التغيير فإنه تعبير بالعبقرية وبالسلاح عن هذا الرفض النفسي أو الفكري أو الأخلاقي.

إن التفوق والتغيير مقاومة، والمقاومة شتم بالحركة أو بلغة الحركة وهي أقوى لغات الشتم. كما أن الشتم مقاومة باللغة أو بحركة اللغة، بل وبحركة النفس والفكر.

نعم، لهذا كان العباقرة هم أشتم الناس للآلهة وللطبيعة بل وللناس إنهم لا يكونون إلا شاتمين لكل شيء.

إن مقاومة الأشياء هو شتم لها بأسلوب هو أقوى من جميع الشتائم، وإن شتم الأشياء هو مقاومة لها بأقل مستويات المقاومة. إن من دمر ما رأيت واستحسنت وامتدحت ورضيت وشيدت ليصنع أفضل أو أعظم أو نقيضاً له ولو في ظنه لهو أعظم شاتم لك.

إن شتم الأشياء هو مقاومة لها بالنفس والإرادة والنية والشهوة وبالفكر أيضاً ولو أحياناً. فهل المقاومة بالنفس والإرادة والنية والشهوة والتفكير هي أقل مستويات المقاومة؟ هل توجد مقاومة خارج هذه المقاومة؟

هل يمكن أن نشتم أي شيء لا نقاومه بأية واحدة من هذه المقاومات؟ هل يشتم ما لا يقاوم؟

إنه لمن الصعب أن نعقل أو نتقبل أو نغفر سلوك البشر. إن جميع أديانهم ونبواتهم وتعاليمهم ومذاهبهم وعقائدهم وأخلاقهم المكتوبة والمتعلمة والمخطوب بها تنكر الشتائم وتحقرها وتهجوها وتشرع لها العقوبات، ولكن هذه الأديان والنبوات ،والتعاليم والمذاهب والعقائد والأخلاق قد حولت الشتائم والبذاءات إلى تاريخ، وإلى خلود، وإلى دعوى مذهبية أو دينية أو أخلاقية، وإلى طقوس جماعية، تؤدى بالاعلان والافتضاح والدوي، تؤدى كأنبل وأتقى الأشياء، وتمجد وتسترضى وتنافق بها الآلهة والأنبياء والزعماء والمعلمون للمذاهب وللنظم. إنه لم يوجد دين ولا مذهب ولا نظام إلا وقد حول الشتائم إلى أفضل وأتقى صلاة لمعلم ذلك الدين أو المذهب أو النظام.

إن تعاليم البشر لتحاكم دائماً سلوكهم ونياتهم وشهواتهم، وتراها خطأ وغواية وفسوقاً. ولكن لعل

هذا السلوك وهذه النيات والشهوات هي الخطأ والفسوق والغواية التي لا بديل عنها في الأوان الذي تحدث فيه وبالصيغة التي تتحول إليها. إن أخطاء الإنسان وغواياته هي المنطق الطبيعي له ولحياته. إن استقامة الإنسان وصوابه ليسا أكثر منطقية أو تقوى من ضلاله وفسوقه. إن الطبيعة لا تتفاوت في منطقها أو تقواها.

* *

هل السباب اكتشاف واختراع، أم هو اختراع دون أن يكون اكتشافاً؟

هل اكتشف البشر مزايا السباب ثم اخترعوه أي لأنهم قد اكتشفوا مزاياه، أم هم قد اخترعوه ومارسوا هذه المزايا دون أن يكتشفوه أو يكتشفوا مزاياه؟

هل البشر يكتشفون مزايا الأشياء ثم يمارسونها أم يمارسونها لأنهم يمارسونها ويكتشفون مزاياها لأنهم يمارسونها؟

هل صنع البشر السباب ومارسوه كما صنعوا السفن ومارسوها، أم هم قد مارسوه فقط كما مارسوا العلاقات الجنسية؟ هل توصل الأنبياء والمعلمون إلى مزايا السباب بالأسلوب الذي توصل به العلماء إلى ما أعطوا واكتشفوا أم هم أي الأنبياء والمعلمون قد مارسوا السباب بالأسلوب الذي مارسوا به الأحزان والآلام؟

إن السباب هو صور الإنسان ومقاساته النفسية قد تحولت إلى كلمات. إنه هو أعضاؤه النفسية المحرمة والمحرم كشفها، والمحجول من كشفها، والمأمور بإخفائها. إنه هو هذه الأعضاء قد حولها إلى كلمات، وألقى عنها كل ملابسها، وذهب يطلقها فوق المنابر ومن فوقها، وفي الميادين والأسواق العامة، وفي المعابد ومن المعابد، وداخل عيون الناس وداخل آذانهم، وفي صلواتهم ونواديهم.

إن السباب هو أعضاء الإنسان المحرمة والمستورة والمأمور بسترها لوقاحتها، قد صورها كلمات، وألقى عنها كل ستر، وربطها فوق فمه، ونصبها فوق فمه، فوق عرش فمه، فوق عرش هو فمه. إن الإنسان ليس سوى فضيحة جالسة فوق عرش، فوق عرش هو لسانه. إن لسان الإنسان عرش يوزع من فوقه فضائحه ونذالاته.

إن السباب هو إنسان يعرض أعضاءه المحرمة المأمور بسترها ـ يعرض أعضاءه المصابة بالعاهات والتشوهات والوقاحة والبذاءة، يعرضها فوق لسانه، وفوق المنابر وفي الميادين والأسواق والنوادي والمعابد العامة، وفي الكتب المقدسة التي كتبتها الآلهة ونقلها عنهم الأنبياء. إن الأنبياء هم رواة شتائم الآلهة ومعلموها.

إن الأنبياء هم أقسى الرواة لأنهم هم الرواة عن الآلهة. هم رواة أخلاقها وشتائمها. إذن هل يوجد رواة كالأنبياء؟

إن السباب هو إنسان يعرض أعضاءه الداخلية الهمجية المهينة لدمامتها، يعرضها ويعلن عنها،

ويتحدث بها على لسان الإله وبواسطته، وعلى ألسنة الأنبياء وبواسطتهم. إن الأنبياء هم قوم يعرضون أعضاءهم النفسية والأخلاقية زاعمين أن الله هو الذي يعرضها بل زاعمين أنهم إنما يعرضون أعضاء الله النفسية والأخلاقية.

إن السباب هو الإنسان الصغير، الصغير جداً ـ إنه هو الإنسان الصغير الكبير قد تحول إلى إنسان صغير، صغير فقط، قد تحول إلى إنسان صغير وضعيف ومنهار وفضاح ومفتضح. قد تحول إلى كلمة هاوية، هاوية. قد تحول إلى حشرة بذيئة وصغيرة ودميمة ووقحة. قد تحول إلى هذه الحشرة، منتصبة شامخة فوق لسانه، معلنة عن كل بذاءتها وضآلتها ودمامتها ووقاحتها من فوق لسانه. إنه لا شيء يعتدى عليه ويظلم مثل لسان الإنسان. إنه الطريق الذي تمر منه جميع بذاءاته وتفاهاته وغباواته وأحقاده وشتائمه.

إن السباب هو الزعيم والقائد والمعلم والمفكر والفنان والقديس والنبي والإله، متحولاً إلى كائن، إلى أصغر كائن ـ متحولاً إلى لغة تمارسها وتتعامل وتتقاتل بها أصغر الأفواه.

حتى الإله إنه سباب. وهل يوجد سباب كالإله. ما أضخم وأنبل الإله متحولاً إلى سباب.. متحولاً إلى كتب مقدسة تقدس السباب وتعلمه وإلى أنبياء يصلون بالسباب ويصلون له ويعلمونه.

إن السباب هو الإنسان الكبير العظيم جداً قد تحول إلى ذات أو إلى نموذج من الكلمات الصغيرة جداً، قد تحول إلى صورة أو إلى أسلوب صغير وتافه وأليم جداً من البشر، من الكائنات الصغيرة المسماة بشراً.

إنه لا شيء يضع للإنسان حدوده ومقاييسه الحزينة الأليمة والصادقة مثل السباب.

إن السباب هو الإله أو النبي أو المعلم أو المفكر أو القديس قد تحول إلى كلمات تعاف الحشرات أن تتعامل، أو أن تتكلم بها. إن السباب هو أحد الأساليب أو أحد المستويات التي يتفوق بها الإنسان في تلوثه وبذاءته على جميع الحشرات.

إن السباب كائن ظالم جداً. إنه كائن يحول مستويات البشر المتفاوتة جداً إلى مستوى واحد من الضآلة والهبوط. إنه يسوي بين القمم والحضيض. إنه يدلل على أنه لا توجد قمم وحضيض. لا توجد حدود فاصلة بين القمم والحضيض. إن في القمة كل معاني وتفاسير الحضيض.. إن السباب هو الاعلان العالمي الرهيب الذي تفسيره: أن البشر جميعاً صغار، إنهم جميعاً صغار حتى الكبار، الكبار جداً هم صغار، صغار جداً. إن السباب يسوي بينهم في الضآلة والانخفاض. إن السباب هو الإنسان معبراً صادقاً. إنه هو الإنسان بلا ملابس ولا جدران ولا غرف ولا حراسة ولا زخرفة ولا عمليات تجميل أو تزييف أو إخفاء.

إن السباب هو الإنسان بلا أكاذيب. إنه هو الإنسان تحت كل جلوده وكل لغاته.

لقد حولت الشتائم والبذاءات البشر إلى ديدان ونمال في الضآلة وفي ضيق وتشابه الأحجام. لقد

حولتهم - مسوية بينهم - إلى حشرات بذيئة، تطلق كل أنواع السموم البذيئة من أفواهها الواسعة بإعلان ومباهاة، وبأساليب فيها جميع معاني التعبد وأحاسيسه وأساليبه في الافتضاح.

وهل وجد مذهب أو دين أو نظام لم يحول السباب إلى إيمان وعبادات وتقوى وإلى تمرد على الشيطان؟

أيها السباب.. إنك أنت الإعلان العالمي المضاد عن ضخامة الإنسان، وعن قدرته على الاستتار، وعن موهبة التهذيب والنظافة والحياء فيه. إنك أيها السباب.. أنت التدليل العالمي البذيء على أن الكبار جداً يستطيعون بسهولة وبلا أية معاناة فكرية أو نفسية أو أخلاقية، أن يكونوا صغاراً جداً صغاراً في لغاتهم وفي مشاعرهم وفي تفكيرهم، وفي خصوماتهم وعداواتهم وأحقادهم، ومن فوق منابرهم، وفي داخل معابدهم، وفي تحدثهم عن أربابهم، وعن أديانهم، وعن مذاهبهم، وعن تقواهم وغيرتهم. إنك أيها السباب، أنت الاعلان العالمي التاريخي على أن البشر سواء في وجود الإنسان الممارس للجوع والضآلة والتلوث والبذاءة داخل كل ذات من ذواتهم.

إنك أنت الاعلان العالمي عن عالمية الإنسان التي تعني أنه لا بد أن يكون ضئيلاً وصغيراً في محتواه وتعبيره أو في أحدهما، أي ولو في بعض معانيه وأخلاقه.

* *

هل كان من المستطاع أن يعيش الإنسان نفسه وحياته وعالمه بلا سباب وبلا أي نوع من البذاءة اللغوية والإنسانية؟ هل كان من المحتوم حينئذٍ أن يشقى ويعاني ويضيق بوجوده أكثر؟ هل محتوم حينئذٍ أن تكون مسراته أقل، وأحزانه أكثر، أو أن يكون تقدمه الحضاري أو الإنساني أبطأ، أو أن يكون غضب الآلهة عليه أشد لأنه لا يشتم باسم الاحترام والصلاة والغضب لها، ولأنه لا يضع الشتائم على لسانه وفي الكتب المنزلة التي ألفتها هي أي الآلهة؟

هل توجد نشوة تساوي نشوة الآلهة حينما توضع الشتائم على ألسنتها وفي كتبها وحينما يشتم كل شيء باسمها ومن أجلها؟

هل كان من الممكن أن تعجب الآلهة بالإنسان أو أن ترضى عنه بل أو أن ترى لوجوده قيمة أو تفسيراً لو أنه لم يتعلم الشتائم ويعلمها ويمارسها ويتعبد بها لها، ويدافع عنها بها - بل هل كان من الممكن حينئذٍ أن تتحدث إليه الآلهة؟

هل كان ممكناً أن تكون اللغات جميلة، ويكون الإنسان بليغاً، ويكون الكلام مقروءاً أو مسموعاً أو مثيراً أو مغرياً أو مؤثراً أو محركاً أو منزلاً على الأنبياء والمعلمين، وعلى الشعراء والخطباء، لو لم تكن الشتائم؟ أليست الشتائم هي الجمال والإغراء والحماس والشعر والسحر بل والمنطق والقوة والنشوة والتقوى في كل شيء؟

هل كان يمكن أن يجد النبي أو الزعيم أو الخطيب أو الواعظ أي إغراء له في أن يصعد المنبر، أو في

أن يخاطب التاريخ والجماهير، أو في أن يتخاطب مع الكلمات، لولا تدفق الشتائم على لسانه وقلبه وأخلاقه، ومن لسانه وقلبه وأخلاقه؟ هل كان يمكن أن يجد النبي أو الزعيم أو المعلم لإلهه أو لمذهبه أو لتعاليمه وأوامره مذاقاً في فمه أو في عقله أو في أعصابه أو في كبريائه لولا الشتائم؟

نعم، هل كان من الممكن أن يعيش الإنسان وجوده وحياته والعالم والأشياء والآخرين حوله بلا شتائم وبلا أي نوع من البذاءات اللغوية والنفسية والأخلاقية؟ وهل يكون ذلك أفضل له، أفضل لدينه أو لمسراته أو لحضارته أو لحياته، بل أو لأخلاقه، بل أو لتوافقه أو لصداقته مع الآخرين، لو أنه حدث؟ هل كان يمكن حينئذٍ أن يرى الإله أو الكون أو أي شيء جميلاً أو معقولاً أو سعيداً أو ذكياً، أي أفضل مما رآه ويراه الآن؟

إذن لماذا لم يفعل الإنسان هذا الأفضل له؟ لماذا اختار الأردأ له؟ هل قصد أم اندفع بلا قصد؟ وكيف يقصد أن يفعل الأردأ له؟ وهل يمكن أن يحدث هذا. وإذا كان قد اندفع بلا قصد أو تدبير فكيف اندفع إلى الأردأ ولم يندفع إلى الأفضل؟

أليس ما يحدث هو دائماً الأفضل والأنفع أي في الأوقات والظروف التي يحدث فيها وتحت إملائها، كما أنه أي ما يحدث هو دائماً الممكن والمستطاع والمعقول، أي في وقته وتحت ظروفه المعينة؟

إذا كان يمكن أو يستطاع أو يحتم أن يحدث في الأشياء أو في الطبيعة أو في حياة البشر وسلوكهم غير ما حدث، أو أفضل وأنفع مما حدث، أي في الوقت الذي حدث فيه، وتحت الظروف التي حدث تحتها، فلماذا لم يحدث ذلك الممكن والمستطاع والمحتوم أو المطلوب ـ ذلك الذي هو الأفضل والأنفع؟

وهل في الكون قوة من أي نوع تناضل لكي لا يحدث الأنفع الأفضل؟ ولماذا ترفض تلك القوة الأنفع الأفضل؟

هل يمكن أن يحدث الزلزال، أو ينزل المطر، أو يجيء الفيضان في الأوقات وتحت الظروف التي يمكن ألا يحدث فيها؟ وهل يمكن ألا يحدث أو ألا يجيء ذلك في الأوقات والظروف التي يحدث ويجيء فيها؟ لو كان ما يحدث يمكن ألا يحدث فكيف إذن حدث؟ ولو كان ما لم يحدث يمكن أن يحدث فكيف إذن لم يحدث؟

هل كان يمكن أن يجيء الإله في نموذجه أو في أخلاقه أو في عبقريته أو في نياته غير ما جاء أو أفضل مما جاء؟ هل كان يمكن أن يكون غير ما كان، أو أفضل مما كان؟ هل كان يمكن، أو كان يستطيع أن ينتصر على الشيطان، أو على شهوات الإنسان أو على ضعف الإنسان، أو على عصيانه، ليكون مطاعاً ومعبوداً أكثر وأقوى وأشمل مما أطيع وعبد؟ هل كان يمكن أن يكون حظه أي حظ الإله أفضل وأعظم مما كان؟

هل كان يمكن أن يكون أي الإله أكثر سروراً أو انتصاراً أو ذكاء أو قوة أو جمالاً أو صداقة وحباً للناس وللأشياء؟

هل يمكن أن يكون ذلك ممكناً، وأن يكون هو الأفضل، ثم لا يحدث؟

إن الإله لم يكن غير ما كان، ولم يكن حظه غير ما كان لأن ذلك لم يكن ممكناً أن يكون، أو لأن ما كان هو الأفضل والأنفع للإله وفي حساباته لنفسه وفي إرادته لنفسه. لو كان ممكناً أن يكون الإله أفضل مما كان لكان السؤال: لماذا لم يكن ذلك الشيء الذي هو أفضل؟ هل يمكن أن يوجد أي تفسير لرفضه أن يكون ذلك الذي هو الأفضل؟

إنه مهما كانت التصورات أو التفسيرات لأخلاق الإله أو لمنطقه أو لمذاهبه، أو لأهوائه النفسية والفنية فإنه لا يمكن التصور بأنه يستطيع أن يكون، أو أن يكون حظه، أفضل مما كان ثم لا يكون.

إن أقل مستويات الاحترام للإله هو الاقتناع بأنه لا يستطيع أن يكون أفضل أو أعظم حظاً مما كان. لا يستطيع أن يكون غير ما كان.

إذن فالله كما هو: أما أن يكون هو أقصى ما يمكن أو ما يستطيع أن يكون، أو أنه هو أجمل وأفضل ما يمكن وما يستطيع وما يريد أن يكون.

إن الله لا بد أن يكون هو أقصى القدرة أو أقصى الجمال والكمال ـ هو أقصى ما يمكن أو أقصى ما يراد.

إنني حين لا أكون فأنا لا أستطيع أو لا أريد وحين لا أريد فأنا لا أستطيع. إذن حين لا أكون هذا فأنا حتماً لا أستطيع أن أكونه: إما بالعجز المطلق أو بالعجز عن إرادته، إما بفقد الشهوة له وإما بالخوف منه أو من عواقبه أو من متاعبه وتبعاته ومعاناته.

إن من عجز عن إرادة الشيء أو عن الإقدام عليه وعن تحمل تبعاته والتزاماته فهو عاجز عنه مهما كان قادراً عليه.

وإذن فالإنسان لو كان يستطيع أن يصنع تاريخه بلا شتائم وبلا بذاءات فهل كان يمكن أن تتحول الشتائم والبذاءات في تاريخه إلى أديان ومذاهب ونبوات، بل إلى أخلاق آلهة وأنبياء وقديسين؟

هل تدين الإنسان في كل تاريخه بشيء مثل تدينه بالشتائم؟ وهل صلى لآلهته أو امتدح أنبياءه ومعلميه وزعمائه مثلما صلى لهم وامتدحهم بالشتائم؟ وهل وضع على ألسنتهم من التعاليم ومن الآيات المنزلة ومن الفنون والشعر مثلما وضع عليها أي على ألسنتهم من الشتائم؟ وهل اتهمهم بأية موهبة مثلما اتهمهم بموهبة الشتائم؟

إن عليك أن تكون حذراً. هل تستطيع أن تعلم بأن تألمك، أي إطلاقك لألمك وتعبيرك عنه بالصوت أو بالكلمة أو بالحركة أو بالصورة ـ هل تستطيع أن تعلم بأن ذلك ليس إلا سحباً من حسابات طاقتك ومقاومتك، ومن حسابات رغبتك في ذلك وقدرتك عليه؟

هل تستطيع فهم هذا أو تصديقه؟ هل تصدق أن تعبيرك عن انفعالك إضعاف لانفعالك، توزيع له، تبديد لقوته ولحماسه ولقدرته على المقاومة والانطلاق؟

إن التألم، أي إطلاق الألم والتعبير عنه بأي أسلوب من أساليب التعبير، نشاط مضاد، أو نشاط سارق مبدد للنشاط. إنه نشاط يسرق ويبدد ويستنفد طاقات الإنسان ويشغلها ويحولها ويلهيها مثلما يفعل العمل المجدي. ومثلما تفعل اللذة الممارسة. إني أعني بذلك تحويل الرفض والغضب والاحتجاجات الأليمة ضد الطبيعة وضد الآلهة والمذاهب والنظم والتاريخ والناس، وضد الذات، وضد كل ما يحدث أو يعلم تحويله إلى تعبيرات أليمة ضاجة مختلفة، إلى صلوات، وإلى تضرعات للآلهة، وإلى صرخات باكية، وإلى دموع حرى غزيرة، وإلى شتائم للسلطان وصلوات إلى الآلهة لتعاقبه.

إن التعبير بالأنين أو بالصراخ أو بالهتاف والدعاء للآلهة ـ إن التعبير بذلك عن الألم الفكري أو الأخلاقي أو الجسدي يضعفه ويسكته.

إن المتألمين أي المطلقين لآلامهم بالتعبيرات المختلفة يتحولون إلى ممارسة الألم، وإلى إتقانه، وإلى التعبد به وله، وإلى الفراغ له. إنهم يجدون في ذلك النشوة والراحة، وأحياناً يجدون فيه كل مشاعر الانتصار والكبرياء، بل مشاعر الانتقام للشرف المهان وللحق المسلوب، كما يجد العاملون السعداء الأقوياء في أداء أعمالهم وفي ممارستهم للذاتهم، بل كما يجد المنتصرون في انتصاراتهم الكبرى.

إن التألم أسلوب من أساليب المحاباة للألم ومن أساليب الاعتذار عنه والتخفيف من قبحه ومن الشعور ضده.

إنك إذا تألمت لأنك ظلمت أو قهرت أو أهنت فذهبت تصلي وتضرع إلى إلهك باكياً صارخاً مرتجفاً، تالياً لكلماته، مثنياً عليه، متحدثاً عن قوته وجبروته وعدله ـ إنك إذا فعلت ذلك فقد حابيت ألمك وظلمك وهوانك، أو حابيت من أوقعوا بك الألم والظلم والقهر والهوان. إن صلاتك ضد آلامك محاباة لآلامك، وإن تضرعاتك إلى إلهك لينتقم لك من طغاتك محاباة لطغاتك.

إن آلهتك إذن وعلاقاتك بهم كيفما كانت محاباة لطغاتك ولآلامك. إن آلهتك انتصار دائم لآلامك ولأعدائك.

إن صلاتك الباكية الضارعة بين يدي إلهك محاباة لطاغيتك. إن صلاتك هذه أسلوب من أساليب تنازلك عن مقاومته ومن أساليب الاضعاف لرغبتك في هذه المقاومة وقدرتك عليها، وإحساسك بطغيانه واستنكارك له. كما أن إلقاءك إلى الفضاء ببعض رصاصاتك التي يجب أن تطلقها كلها على عدوك أسلوب من أساليب المحاباة لذلك العدو الذي يواجهك، ومن أساليب العجز عن الانتصار عليه، ومن أساليب التمكين له. إن دعاءك لإلهك ضد أعدائك أسلوب من أساليب إطلاق سلاحك المعد لأعدائك على غير أعدائك.

إن كل الناس في كل المجتمعات ليشترون الألم، أي ليشترون تحويل الألم إلى تعبيرات؟ وإنهم ليغلون ثمنه بلا اندهاش أو ارتياب في قيمة أو في منطق ما يفعلون.

إنه ليس في البشر من لا يشتري بعض أنواع الألم أو البلادة أو الكذب أو الهوان ويدفع ثمن ذلك.

إن جميع الناس في جميع العصور والمجتمعات ليشترون إطلاق الألم وتحويله إلى غفران وتقبل، كما يشترون أصناف السلع. إن جميع الناس في كل التاريخ ليشترون الأنبياء والمعلمين والزعماء الذين يحولون آلامهم وعصبهم إلى غفران ونسيان وصفح جميل.

إن الذين يشترون كتاباً أو صحيفة أو نبياً أو واعظاً أو زعيماً يبكي ويتألم ويحول الآلام إلى صراخ وتعبيرات دينية أو مذهبية أو أخلاقية، شاتماً الأعداء والخصوم والمتفوقين، وشاتماً الأحداث والظروف الأليمة والرديئة بهياج سعيد ـ وإن الذين يجزون واعظاً أو معلماً أو زعيماً أو نبياً يبكي ويصرخ ويشتم ويحقر بحقد ومرارة متفجرين ضاجين، ويحول الآلام إلى تعبيرات بالصلوات والتضرعات والهتافات، وبالأنين والبكاء، وبالأساليب التعبيرية الأخرى.

نعم، إن الذين يفعلون ذلك ليسوا إلا قوماً يشترون ألماً ويدفعون ثمنه.

إنه إذا تألم غيرنا عنا، أي إذا عبروا عن آلامنا بالأساليب الإعلانية الجماعية الدينية أو المذهبية أو الوطنية أو الأخلاقية، أحسسنا بالراحة والارتواء والاسترخاء والاكتفاء، كالذين تألموا، كالذين مارسوا اللذات والشهوات بامتلاء ورخاء.

إن التعبير عن الآلام أي بأسلوب وتحت أي شعار يتحول أي التعبير عن الآلام إلى شهوات مقضية.

إننا لهذا نرحب ونعجب ونؤمن بالزعماء والأنبياء والوعاظ الذين يتقنون فنون التألم، ويتقنون فن تحويل الآلام إلى تعاليم وأديان ومذاهب وصلوات، وإلى فنون أخرى كثيرة يفرضونها علينا ويعلموننا إياها، ويمارسونها عنا وبنا ومعنا وضدنا. إننا نعجب بالأنبياء والوعاظ لأنهم يتألمون عنا بأساليبهم المعروفة وتألمهم عنا يضعف من شعورنا بآلامنا واحتجاجنا عليها ورغبتنا في مقاومتها.

إن ممارسة الألم أي التألم لتستبد بأكثر الناس أو بكل الناس، أو بقادة الناس وبزعمائهم وأنبيائهم ومعلميهم حتى لتستولي على الكثير من نشاطهم وحماسهم واهتماماتهم.

إن التألم أي التعبير عن الألم والدعوة إليه والتحريض عليه والتضخيم له والتخويف به هو فن جميع المعلمين والدعاة.

إنهم قد يصبحون متألمين فقط، لا يصنعون في الحياة سوى الألم، أي سوى التعبير عنه وسوى إطلاقه وتوزيعه، بكل الأساليب واللغات والمستويات وبكل الدوي والصراخ، وباسم مختلف المذاهب والأديان والنظريات والقوميات والأخلاق.

قد يكون الأديان والمذاهب والأخلاق والقوميات أساليب مختارة للتعبير عن التألم وليست مداواة للتألم أو محاولة للمداواة.

وهل يصنع أكثر الزعماء والأنبياء والوعاظ والقديسين غير هذا؟ وهل يراد من أكثرهم غير هذا؟ وهل لهؤلاء الأكثرين من قيمة أو من وظيفة في الحياة أو في حساب المجتمعات غير هذا؟ وهل لهم من مجد غير هذا أو أكبر من هذا؟ هل لأكثر الأنبياء والزعماء والقديسين من محد أكثر من أن يعبروا عن التألم ويطلقوه ويوزعوه ويعلموا إطلاقه وتوزيعه تحت شتى النظريات والشعارات؟

إن هؤلاء لا يعلمون إلا أنهم يؤدون أعمالاً نافعة وصحيحة بل أعمالاً بطولية، بل أعمالاً كلفتهم بها الآلهة والأديان والمذاهب والأخلاق والعقول والحضارات، بل كلفتهم بها الشموس والنجوم والأنهار والحقول، لكي يستطيعوا أن يصبحوا تفسيراً وثمناً وتسويغاً وتحية لمجيئها ولبقائها ولممارستها لنفسها ولوجودها، ولإعطائها ذاتها، كل ذاتها، للإنسان. نعم، هل يمكن أن يكون للشموس أو للنجوم أو للأنهار والحقول أي تفسير لولا هؤلاء الذين يجيئون ليفسروها ويسوغوها وليتحدثوا عن ذكائها وعن مجدها الفكري؟

إنهم لا يستطيعون أن يتصوروا إلا أن عملهم هذا هو كل الانقاذ والتمجيد والتقويم والتصحيح وإعطاء السرور والذكاء والقوة والمنطق والتفسير للآلهة وللحياة، وللناس، ولكل الأشياء، ولأنفسهم أيضاً. كيف يمكن أن يقتنعوا بأن لمجيئهم تفسيراً أو منطقاً أو نفعاً لولا عملهم هذا، لولا تحويلهم لآلام الناس إلى أساليب قذف كاذب؟

إنهم لا يستطيعون ولا يريدون، ولا يسعدون إلا أن يكونوا صواغاً للآلام، أي إلا أن يحولوها إلى مذاهب وأديان وتعاليم وصلوات، وإلى كتب مقدسة، وإلى هموم كونية ووطنية وإنسانية، وإلى دموع آلهة وأخلاق آلهة.

إن جميع الأنبياء والوعاظ لا يجدون لهم أي مجد أو عمل سوى أن يتحولوا إلى دموع آلهة.

إنهم يحولون الإله إلى أضخم جهاز لإطلاق الألم وتفريغه من ذاته، لتفجيره باطلاً، لإفساد قوته، لامتصاص قوته لتحويلها إلى هباء وضعف وهزيمة، وإلى تقبل للهزيمة وإلى غفران لها.

لقد ظل الإله في كل التاريخ جهازاً جيداً لذلك. لقد ظل الإله أكبر وأشهر جهاز لاستفراغ الآلام ولاستفراغ مشاعر الغضب والرفض والاحتجاج.

إن البشر في كل تاريخهم لم يجدوا جهاز استفراغ يساوي الإله في جودته وضخامته وشموله.

إنه لافتراض له تاريخ إنه بقدر ما يكون الإنسان مصروفاً إلى التألم أي إلى إطلاق آلامه وإلى التعبير عنها بالأساليب المختلفة يشعر أنه بذلك يؤدي ذاته وحياته، ويؤدي حساباتهما، ويشعر أنه يلقي بهما في المعركة المطلوبة أو المفروضة، وأنه لم يبق منهما شيء ليلقي به في شيء آخر أو بأسلوب آخر. إن من يشغل بإطلاق آلامه وبالتعبير عنها بمختلف أساليب التألم لن يخشى عليه باتهام نفسه بأنه لا يؤدي أعمالاً جيدة أو أعمالاً هي كل الأعمال الجيدة.

لهذا فقد يبدو بعض الناس شيئاً شاذاً أو غريباً أو خروجاً على المعقول أو على المفروض أو على المنتظر حينما يستطيعون أن يجمعوا بين صناعة الآلام وأداء الأعمال الأخرى الكبيرة أو الصغيرة.

لقد علمتنا الطبيعة بأساليبها المختلفة أن المتألمين، أي المحولين لآلامهم، لغضبهم واحتجاجاتهم ورفضهم واستنكارهم، ولمضادة الأشياء لهم، أي لمنطقهم ولأمانيهم ولأخلاقهم ولاحتياجاتهم ـ لقد علمتنا الطبيعة أن المحولين لذلك إلى تعبيرات دينية أو مذهبية أو وطنية أو أخلاقية أو إنسانية يجيئون في المحتوم أو في الغالب أو في المفترض أعجز وأضعف وأكثر غفراناً وتقبلاً لما يواجهون ويعانون ويرون من آلام وأخطاء ومظالم وتفاهات ودمامات. إن الأطفال والشيوخ العاجزين قد يكونون هم أقوى وأشهر وأروع النماذج والأمثال لذلك وعلى ذلك. إنهم أكثر هذه الأساليب وأظهرها وأقواها.

ولكن كيف؟ هل الأطفال أشهر أو أظهر أو أقوى تدليلاً على هذه القضية من الأنبياء والزعماء والوعاظ وسائر المعلمين؟ أي الفريقين يستطيع أن يكون قائداً ومعلماً للفريق الآخر في هذه القضية؟ أيهم: الأطفال أم الأنبياء والزعماء والقديسون؟

إن الأطفال قد يبدون نماذج أو أعلى النماذج لذلك. إنهم ليبكون ويتضرعون ويصرخون ويشكون، ويضربون أنفسهم ويضربون الجدران والأرض وكل شيء. إنهم ليتألمون، أي يعبرون عن آلامهم بذلك أي بالبكاء والتضرع وبالشكوى والصراخ وبضرب الأشياء وتحطيمها، بأساليب كأن أحداً لا يستطيع أن يباريهم فيها ـ بأساليب كأنهم يبارون فيها ويتفوقون بها على جميع الأنبياء والزعماء والمعلمين وسائر من يعظون ـ كأنهم يريدون أو يكادون أو يطمعون أن ينافسوا هؤلاء، أي ينافسوا الأنبياء والزعماء والوعاظ والمعلمين. إن الأطفال ليفعلون ذلك وكأن أحداً لا يستطيع أن يتفوق عليهم أو يساويهم ما عدا الأنبياء والزعماء والوعاظ وسائر المعلمين.

إن هذه الأساليب في التألم هي أعظم ما يعمل الأطفال، وكذا الشيوخ العاجزون. وقد تكون هذه الأساليب هي كل ما يعملون ويستطيعون ويتقنون ويريدون.

ومن الذي علم الأطفال والشيوخ الضعفاء وكل العاجزين ذلك؟ كيف اهتدوا إليه وإلى ممارسته؟

إن الأطفال والشيوخ العاجزين هم أكثر الكائنات استفراغاً وتفريغاً للآلام والاحتجاجات، وللغضب، وللتناقض مع الأشياء، ولمواقف الاذلال والقهر والاهانات. إنهم أكثر الكائنات استفراغاً وتفريغاً لكل ذلك. إنهم أقدر الكائنات على تحويله إلى بكاء وصراخ وأنين وشكوى وتضرع، وإلى أساليب استفراغية أخرى كثيرة. هل لأنهم لا يستطيعون أن يعبروا بغير ذلك، أم لأنهم أقدر عليه، أم لأنه أسهل عليهم، أم لأسباب وحوافز أخرى؟ وقد يساوي الأطفال والشيوخ أو يتفوق عليهم في استفراغ الآلام وتفريغها الآلهة وليسوا الأنبياء والزعماء وحدهم. وهل يوجد من يساوي الآلهة في استفراغ آلامها وتفريغها؟

إن الحاجة إلى ممارسة أساليب التألم قد تكون حاجة أصيلة في الإنسان أو في كل نماذج الحياة

وصورها. قد تكون الحاجة إلى التألم بكل أساليبه المختلفة استجابة لتاريخ طويل يعيش داخل الإنسان، وداخل كل مستويات ونماذج الحياة والأحياء.

قد يهب التألم أي التعبير عن الألم النشوة العظمى. قد يكون ضرباً من الشعر والغناء والموسيقى، مؤداة ومسموعة. قد يكون التألم للآخرين أو مع الآخرين أو أمام الآخرين أو على مسمع من الآخرين أو باسم الآخرين ضرباً عالياً من الممارسات الجنسية. وهل الممارسات الجنسية إلا ممارسات للتألم؟ هل هي إلا استفراغ وتفريغ للألم من أجل الآخرين، أو مع الآخرين، أو بواسطة الآخرين، أو أمام الآخرين، أو باسم الآخرين أو على الآخرين؟

بل هل الممارسات الجنسية إلا أسلوب متوحش من الألم والتألم. من أداء الألم وصناعته واستفراغه؟

هل اللذة غير الألم؟ هل الألم غير اللذة؟ هل توجد لذة فقط أي من غير أن تكون ألماً أو من غير أن يكون فيها ألم؟ هل يوجد ألم فقط أي بلا لذة، أي دون أن يكون معنى من معاني اللذة؟ ما هي اللذة، وما هو الألم؟ هل هما شيئان؟ هل هما شيء واحد؟ هل هما الشيء ونقيضه، أو الشيء وأجزاءه أو الشيء ولغاته أو الشيء ومستوياته وتعبيراته أو الشيء ومثيله؟

هل توجد حدود فاصلة بين اللذة والألم؟ هل توجد حدود دولية أو محلية بينهما؟ هل توجد حدود أخلاقية أو علمية أو منطقية أو نفسية بين اللذة والألم؟ هل يوجد من يعرف هذه الحدود؟ هل يوجد من يستطيع أن يميز بينهما؟ هل يوجد من يستطيع ألا يتخطاها أو من لا يريد تخطيها؟

هل يستطيع من لا يتألم أن يتلذذ، أو من لا يتلذذ أن يتألم؟ هل يوجد من يريد أن يكون هذا دون هذا؟

هل الممارسة الجنسية ممارسة للذة أم ممارسة لنوع باهظ خادع من الألم؟ هل يوجد من يعرف ذلك أو من يستطيع أن يقدم جواباً؟

هل يستطيع ممارس الجنس أن يعرف. هل يمارس لذة أم يمارس ألماً رهيباً خداعاً؟ هل يستطيع القاتل أو الضارب أو الشاتم أو المعتدي أو الظالم أو الحاقد أن يعرف هل هو لذة أم ألماً؟

هل اللذات لذات أم آلام ـ أم آلام تمارس بنشوة أو بشهوة أو بحماس كما تمارس كذلك أفظع الآلام؟

هل الإنسان يبحث عن اللذة أم عن الألم في ممارساته ونياته وإراداته أم عنهما معاً، أم هو لا يبحث عن واحد منهما ولكنه يمارس نفسه ووجوده بالأسلوب العشوائي أو الفراري؟ هل ممارسة الموجود لوجوده لذة أم توريط فيه كل معاني التعذيب؟

هل نمارس ممارساتنا لأننا نحب ونختار أم لأننا لا نعرف، لأننا محكوم علينا؟ هل نختار اختيارنا وحبنا؟ لماذا؟

هل الإنسان حينما يصر على أن يوجد ويحيا ويبقى ويصنع الأبناء، وعلى أن يؤمن بالآلهة وبالزعماء وبالأنبياء والمعلمين، وبالأديان والمذاهب الشرسة العدوانية المتعصبة، وبالقوميات والوطنيات المحاربة والمعادية لجاراتها ولمثيلاتها، وعلى أن يخاصم ويشاتم ويكره ويظلم، بل وعلى أن يحب ويصادق ويشتهي ويعدل.

نعم، هل الإنسان حينما يصر على أن يصنع كل ذلك يبحث عن اللذة ويمارسها أم عن الألم ويمارسه؟

هل الذي يكذب ويتوقح ويتآمر ويفجر ويسقط ويتلوث ويقتل ويعادي ليكون زعيماً أو حاكماً أو طاغية أو نبياً أو معلماً أو قائداً ـ هل الذي يفعل كل هذا أو بعض هذا ليكون واحداً من هؤلاء يبحث عن اللذة أم عن الألم ـ وهل هو يمارس لذة أم يمارس ألماً حينما يصبح واحداً منهم فيذهب يمارس نفسه بالأسلوب والنية اللذين يمارس بهما الأنبياء والزعماء والقادة والحكام والطغاة أنفسهم؟ بل هل الإله يبحث عن اللذة أم عن الألم وهل يعرف الفرق بينهما حينما يصر على أن يوجد ويبقى ويتعامل مع البشر وبهم ويرسل إليهم الأنبياء والكتب ويطالبهم بأن يؤمنوا به ويعبدوه؟

هل الشيخ الفاني المتحول بدنه إلى أعجب وأعظم متحف ومعرض للأمراض والآلام والتشوهات والضعف والرفض للحياة ـ هل هو يمارس لذة أم ألماً، وهل يبحث عن اللذة أم عن الألم، حينما يتضرع ويتساقط تحت أقدام كل الأبالسة وكل الآلهة التي فعلت به كل هذا لكي تخلده في آلامه وهوانه وعاهاته وعجزه وهمومه، أو لكي تهبه كل اهتمامها وحماسها والتفاتها، فتبقي عليه ولو يوماً واحداً، ولو ساعة واحدة، لكي تستمتع أي الآلهة بالمزيد من المشاهدة لعبقريتها المعروضة لوحاتها فوق بدنه؟ بل هل الإله يعيش لذة أم ألماً حينما يبقي على هذا الشيخ الفاني وحينما يوقع به ذلك ليحدق في آلامه وليستمع إلى آهاته؟

هل مثل هذا الشيخ يعرف الحدود بين اللذة والألم، أو يعرف ما هي اللذة وما الألم، أو هل يبحث عن اللذة أم عن الألم مهما كان جاهلاً بهما وبالحدود بينهما؟

هل الحشرة في إصرارها على البقاء وفي ممارساتها تبحث عن اللذة أم عن الألم، وهل هي تعرف الفرق بينهما؟ هل الحشرة في مجيئها وفي نضالها لتبقى وفي ممارساتها لوجودها ولحياتها؟

وفي ممارساتها الجنسية ـ هل هي في ذلك تبحث عن اللذة والمجد وتمارسهما أم عن الألم والهوان وتمارسهما؟

وهل الناس، كل الناس، وأي الناس أفضل أو أذكى سلوكاً أو تفكيراً أو تدبيراً أو إرادة من أمثال هذا الشيخ وهذه الحشرة؟

هل هم يعرفون الحدود بين اللذة والألم، أو ما هي اللذة وما الألم ـ أو هل هم يبحثون عن اللذة أم عن الألم أكثر أو أفضل أو أذكى مما تفعل الحشرة؟

هل يستطيع الإنسان أن يضع حدوداً بين اللذة والألم أو تعريفاً لهما أكثر مما تستطيع ذلك أية حشرة؟

إذن هل الذين يمارسون الجنس يمارسون أعظم وأشهر اللذات كما يقولون ويظنون، أم هم يعانون حينما يمارسون الجنس أقسى الآلام الرهيبة الخادعة العالمية، الحضارية البدوية التاريخية الأبدية؟ هل الجنس هو أقسى الآلام العالمية الكونية أم هو أعمق النشوات الكونية العالمية؟ هل توجد في الجنس أعظم خدعة أو غلطة كونية عالمية؟

هل وجد، أو هل يوجد من يستطيع أن يدري أو من يريد أن يدري؟

هل الأفضل للإنسان أن يدري أم ألا يدري؟ أن يدري ما لا يدري أم ألا يدري ما يدري؟

هل يستطيع العلم أن يجعل الناس يدرون ذلك؟ هل يستطيع العلم أن يصنع أو يقيم حدوداً بين اللذات والآلام؟ هل يستطيع أن يجعل اللذات لذات فقط أي بلا آلام، وأن يجعل الآلام آلاماً فقط أي بلا لذات؟ هل يستطيع العلم أن يفعل ذلك؟ وهل من الخير أن يفعله؟

هل الناس يمارسون اللذات تلذذاً أم اضطراراً؟ هل يجوعون فيأكلون باللذة أم بالضرورة؟

هل يجيء الناس ويبقون ويمارسون أنفسهم ووجودهم كمن يستمتعون أم كمن يسقطون؟

وهل الذين يستمتعون يستمتعون أم يئنون ويتعذبون؟ هل يوجد من يستطيع أن يدري؟

* *

نعم، إن الباكين الداعين المتخشعين المصلين بارتجاف وهتاف في معابدهم وبين أيدي أربابهم، وإن الشاكين المستغيثين بزعمائهم وحكامهم وأنبيائهم، وإن الصارخين المولولين المنادين على آلامهم شاكلهم، كأنهم يريدون الإعلان عنها في براعة وإصرار ـ كأنهم يريدون أن يحاسبوا أو يعاقبوا يها الكون والناس، أو أن يحولوا الإعلان عنها إلى اعتذار عن ذنوب الآلهة عن مواهب الآلهة، وأن المستمتعين والقارئين لمن يلعنون ويبكون ويشكون ويتألمون وينادون على آلامهم، وإن الزعماء والأنبياء والوعاظ والخطباء والكتاب الذين يذهبون ينوحون فوق جماهيرهم وأمامها وبها ومعها، خوفاً وحزناً عليها، وحباً واحتراماً لها. ودفاعاً عنها.

إن هؤلاء جميعاً وكذا أمثالهم هم من المستفرغين المفرغين لأنفسهم من غضبها ورفضها واحتجاجها ومن قدرتها على المقاومة ومن رغبتها فيها ـ إنهم من المفجرين لأسلحتهم تفجيراً كاذباً وبعيداً عن الأهداف، بل بلا أهداف.

إن هؤلاء جميعاً من دعاة الغفران للآلام والمظالم والبلادات، وللتعود على التقبل لها، والصفح عنها.

وهل في الأنبياء أو في الزعماء أو في المعلمين أو في الحكماء أو في رجال الدين من ليسوا من هؤلاء الدعاة للصفح والتقبل والغفران للآلام والمظالم والبلادات بل وللدمامات والذنوب والفضائح، بل ولتحويلها إلى مزايا باسم أية فكرة أو مذهب؟

لقد آمن الناس بالآلهة لكي يجعلوا منها غفراناً وتفسيراً وتقبلاً لما لا يمكن غفرانه أو تفسيره أو تقبله.

أجل، إن أكثر الناس أو كل الناس كلما ازدادت الآلام والمشاكل والمظالم فتكاً بهم ومواجهة لهم ازدادوا إلقاء بها خارج أنفسهم وفوق مجتمعاتهم، وحولوها إلى أساليب استفراغية، إلى أساليب تعبدية وشعرية وغنائية وبكائية. إلى أساليب استفراغية لا حدود ولا حصر لابتكاراتها وللتجديد فيها. إن أكثر الناس أو كل الناس لا يكتفون بأن يغفروا للآلام والمظالم والأخطاء والبلادات التي يواجهون بل يحولونها إلى شعر وغناء وهتاف وفنون.

إن أنين الجريح قد يضعف رغبته في المقاومة وقدرته عليها. إن أنينه قد يتحول إلى استرخاء في إرادته أو في غضبه أو في أعصاب يديه. إن الجريح الذي يبتلع أو يحتبس أنينه وعويله ولعناته قد يكون أقدر على الانتقام، وأكثر حماساً له والتزاماً به.

وهل أنين الجريح أو صراخه إلا تفريغ لغضبه ولتصميمه على الثأر وإلا فلماذا يفعل؟ لماذا يئن الجريح أو يصرخ أو يطلق دموعه إذا لم يكن يريد أن يفرغ غضبه وتصميمه على الانتقام؟

إن الشاكي إلى الله هوانه وعذابه قد يكون أقل مقاومة له وإحساساً به واشمئزازاً منه ـ أي قد يصبح كذلك. وقد يكون قاصداً بشكواه إلى الله ما أصابه من هوان وعذاب أن يجعل ذلك، أي شكواه بديلاً أو تعويضاً عن الرفض والمقاومة لذلك الهوان والعذاب.

قد تكون شكواك إلى الله إعلاناً لتنازلك عن المقاومة والغضب. إن شكواك إلى الله قد تكون نوعاً من مسامحته عما فعل بك ومن مسامحة ما تشكو منه إليه. قد تكون تعجيزاً عن الرؤية لأخطائه.

إنه قد يبارك لك عدوك الذي اعتدى عليك وبطش بك أن تذهب إلى الله لتشكوه إليه بصلواتك ولعناتك وتضرعاتك. أي أن عدوك قد يبارك لك أن تذهب إلى إلهك لتستفرغ عليه أي على إلهك غضبك وحقدك عليه أي على عدوك بأسلوب السباب له والصلاة ضده وبأسلوب المطالبة بالانتقام لك منه. إنه لن يرفض أن تشكوه إلى إلهك. بل إن عدوك لخليق أن يرشوك ويأجرك لكي تشكوه إلى إلهك وتطالبه بالانتقام لك منه وتصلي له أي لإلهك ضده.

إن هذه العملية استفراغية يريدها ويتمناها ويرضاها لك كل أعدائك وكل الظالمين والمدينين لك. وليست قيمة هذه العملية الاستفراغية في أنها تعني الإيمان بالله والاعتماد عليه ليؤدي هو بديلاً عنك ممارسة الانتقام لك من أعدائك وظالميك وقاهريك. إن كل هذا لا قيمة له، ولكن القيمة كلها لعملية

الاستفراغ النفسي. والله هنا ليس إلا وسيطاً في هذا الاستفراغ ومساعداً عليه، أو ليس إلا شيئاً جاء الاستفراغ باسمه.

إن الاستفراغ النفسي على الإله وباسمه سلوك بشري، كان يمارسه كل الناس في كل التاريخ. وإنه لا يزال يمارسه حتى اليوم الكثيرون من الناس.

رب قوم كانت أنفسهم تتزاحم وتغلي بالشحنات العظيمة المتوقدة من الاحتجاجات، ومن الغضب والرفض الأخلاقي والفكري والإنساني، ومن سائر الانفعالات الثمينة، ضد ما يمارسون ويواجهون ويجدون ويعرفون، ذهبوا إلى معبد من المعابد، أو إلى مهرجان من المهرجانات، ليخطب فيه زعيم أو قائد أو خطيب، يجيد فن البكاء والتألم وإراقة الانفعالات في أقوى الكلمات بلاغة وحماساً، فأراقوا تلك الشحنات النفسية الثمينة الغاضبة المتوهجة، وحولوها إلى آهات دموع وأنين، وإلى صلوات وتضرعات، وإلى شتائم جيدة، جيدة، منطلقة من كل الأعصاب والأخلاق والأفواه ومن كل الصفوف، وإلى كل أساليب التهديد والتحقير والتشنيع والارتجاف والاتهام.

نعم، رب قوم كانوا كذلك فعلوا كل هذا فرجعوا من مهرجانهم أو من معبدهم، من أمام إلههم أو من أمام زعيمهم أو قائدهم أو خطيبهم ـ رجعوا بلا أي غضب أو احتجاج أو رفض أو نية في المقاومة أو في الغضب أو في الرفض. رجعوا وقد أراقوا كل انفعالاتهم وغفروا كل شيء ونسوا كل شيء. رجعوا وكأنهم قد هزموا كل الآلام والمظالم والدمامات والبلادات والتفاهات والذنوب، وكل الأحداث والأشياء المضادة والقبيحة والمذنبة والمشوهة ـ وكأنهم قد فجروا كل أسلحتهم، وقتلوا كل أعدائهم وآلامهم، وقهروا كل أحداث ووحدات الطبيعة، وأملوا عليها صلحاً وشروطاً لتكون مسالمة ومسلمة لهم، لتكون كما يأمرون ويريدون، لا تعصي ولا تخالف ولا تخرج ولا تتحرك إلا إذا أمروها وأرادوها.

رجعوا وقد غفروا للآلهة كل أخطائها وذنوبها وعجزها ووحشيتها. وكم هي هبات ضخمة أن تجد ما يهبك القدرة على الغفران للآلهة.

وهل يمكن الغفران للآلهة؟ كيف استطاع الإنسان أن يغفر للآلهة؟ كيف استطاع؟

إنها لإحدى معجزات الإنسان العقلية والأخلاقية والنفسية أن يجد أن يفعل ما يجعله يستطيع أن يغفر لآلهته أخلاقها أو ذكاءها أو موهبتها أو حنانها أو عدالتها أو جدها أو صدقها أو نظافتها. لقد كان الإنسان بذلك عظيماً جاداً أو تافهاً جداً.

وفي كل التاريخ بل في كل المجتمعات كانت المنابر والمحاريب والمعابد هي أشهر وأضخم وأقوى الأجهزة العالمية التي تهب الإنسان قدرته الخارقة على أن يغفر ويصفح ويتقبل كل ما يهين ويذل ويحقر ويناقض عقله وأخلاقه وشجاعته وشرفه وذكائه. لقد كانت المنابر والمحاريب والمعابد هي أعظم ما ابتكره البشر محاباة ومجاملة للدمامات والمظالم والآلام والهوان والعبث والبلادة، ليس فقط ليكون

كل ذلك مغفوراً أو مسوغاً أو مقبولاً، بل ليكون معبوداً ومقدساً ومنطقاً نهائياً لا يمكن اختراقه أو التفوق عليه.

* *

إن المسألة قد تكون تعويداً وظروفاً ـ إنها قد تكون كذلك فقط.

إن تفسير المسألة قد يعني أن الذين عودوا أن يحولوا غضبهم وآلامهم واحتجاجهم على غباء ومظالم وبذاءات الكون والناس إلى بكاء وصلاة ـ مع وقوعهم في الظروف الملائمة لهذا التعويد أو الملزمة به ـ بكوا وصلوا ضد ما يشكون وينكرون ويرفضون، فاستفرغوا شكواهم وإنكارهم ورفضهم، فاستراحوا وابتهجوا وافتخروا، كمن عملوا وقاوموا وانتصروا. أما الذين عودوا أن يعملوا ويقاوموا ويرفضوا دون أن يصلوا ويبكوا ويلعنوا ـ أي دون أن يحولوا آلامهم إلى أساليب استفراغية من أساليب التألم ـ مع وجودهم في الظروف الملائمة أو الملزمة بأن يفعلوا ذلك ـ فقد عملوا وقاوموا ورفضوا، وأقلوا من أساليب التألم، أي من الأساليب الاستفراغية ـ أي أقلوا من تحويل آلامهم إلى أساليب تعويضية، يراد منها وبها أن تغني أو تلهي عن المقاومة والغضب والرفض، أو أن تستنفد الطاقة والحماس، أو أن ترخي من شد الأيدي لأصابعها.

يراد منها وبها أن تحطم السلاح وأن تفرغه من رصاصاته المحاربة.. أن تنسيه عمله التاريخي والرسمي والعالمي.

إنه النهر.. قد يسير في طريقه بكل قوته وحماسه وجنونه الغامض، يصنع الحياة ويروي الناس والنباتات والحشرات التي لم تضرع إليه أو ترد منه أن يفعل لها ذلك، والتي لا تدري لماذا يفعل لها، والتي لا تدري هل يستحق الشكر والثناء على هذا الذي يفعل أم يستحق العقاب والهجاء والتوبيخ ـ هل يفعل كصديق أم كعدو أم كعبث، أم يفعل دون أن يكون صديقاً أو عدواً أو عبثاً ـ أم يفعل لأنه لا يستطيع ألا يفعل، أن يحترم سلوكه.

إنه النهر قد يسير كذلك، كما قد يترك ليسير هائماً أو راشداً على قدميه الضالتين الخاطئتين ليصنع الأوحال والمستنقعات والموت والخراب والأحزان والدموع. وفي أي حالتيه يكون النهر أذكى أو أتقى أو أكثر صنعاً للآلام والأحزان والدموع بل والموت والخراب؟

إنه الشيء الواحد، قد يكون هذا وقد يكون نقيضه. وإنه الإنسان قد يحول تناقضه مع الأشياء وتحديها له، وخروجها على منطقه وأخلاقه وكبريائه ـ قد يحول ذلك إلى أساليب استفراغية ذليلة بذيئة، كما قد يحوله إلى نضال وقوة وانتصار ـ كما قد يحول ذلك إلى وقاحات وبذاءات وتفاهات منتصرة عظيمة.

* *

أيها الباكون المتألمون المظلومون المقهورون المحولون لآلامهم ومظالمهم وقهرهم إلى تضرعات

وصلوات ودموع، وإلى خطب فيها صراخ وسباب وبذاءات ـ أليس الذكاء والقوة والإبقاء على الرغبة في المقاومة وعلى القدرة عليها ألا تفعلوا شيئاً من ذلك؟

أليس من الذكاء ومن أساليب الإبقاء على قوتكم وعلى روح المقاومة فيكم ألا تتضرعوا أو تصلوا أو تخطبوا ضد أعدائكم وآلامكم لئلا تتساقط احتمالاتكم وقدراتكم وغضبكم ورفضكم وآلامكم دموعاً وزفرات وصلوات وتضرعات وشتائم؟

أليس من الذكاء ومن أساليب الابقاء على إرادة المقاومة والقدرة عليها ألا تستمعوا إلى من يفعلون لكم أو بكم أو باسمكم أو من أجلكم ذلك؟

احتسبوا كل طاقاتكم وتناقضاتكم وخصوماتكم وعداواتكم العقلية والنفسية والأخلاقية والسلوكية مع الطبيعة ومع الآخرين ومع أنفسكم ـ احتسبوها لتتفجر نضالاً ومقاومة ولذات وقحة حمقاء مقتحمة منتصرة مبدعة مقاتلة.

احتسبوها لتتحول إلى أكف ضاربة وإلى خطوات مقتحمة متجاوزة وإلى تحديقات غاضبة رافضة محاربة.

احتسبوها ولا تتركوها تتقاطر في المعابد وفي المحاريب وتحت المنابر ـ ولا تتركوها تتقاطر تحت أقدام الزعماء والأنبياء والوعاظ والقديسين ـ تتقاطر آهات ودموعاً وصلوات وتضرعات وتعاليم وخطباً وشتائم.. لا تبددوها هباء، هباء. لا تحولوها إلى أكذب نضال..

احتسبوها ولا تتركوا الأنبياء والزعماء والقديسين يسرقونها منكم. إن هؤلاء هم أبداً لصوص عقولكم وأخلاقكم وقدراتكم. إنهم لصوص غضبكم. ولكن لماذا يمكن الزعم بأن هذا هو الذكاء؟ ولماذا لا يكون هو الغباء؟ ما المقياس، وما المنطق الذي يعرف به الذكاء والغباء ويضع الفروق ويخطط الحدود بينهما؟ هل يوجد هذا المنطق أو هذا المقياس؟ هل وجد هذا المنطق وهذا المقياس أو عرفه من يتحدثون عن الذكاء وعن الغباء، ومن يحكمون بهما، أو يتعاملون ويعاملون عليهما وباسمهما؟

وإذا كان هذا هو الذكاء فلماذا لا يكون هو الذي يفعله ويختاره الناس؟

لماذا لا يفعل ويختار الناس هذا الذي هو الذكاء؟ ولماذا يختارون ويفعلون النقيض الذي هو الغباء؟ هل الغباء أفضل أو أنفع أو أكثر إغراء أو أكثر ملاءمة؟

هل الغباء أكثر ذكاء من الذكاء، وأكثر توافقاً مع الحياة ومع الكون ومع الناس.

هل الغباء كل ذلك؟ هل له كل هذه المزايا على الذكاء؟

إذن فليكن الغباء هو الذي يكون، وليكن الذكاء هو الذي لا يكون.

هل الناس هم الذين يختارون الذكاء والغباء، أم الذكاء والغباء هما اللذان يختاران الناس؟

ولكن ما الذكاء، وما الغباء؟ كيف عرفت أن هذا ذكاء وعرفت أن هذا غباء؟

كيف جرؤت أن تسمي هذا ذكاء وهذا غباء؟ ما المنطق، ما المقاييس التي عرفت وحكمت بها؟

كيف عرف الأذكياء أن هذا ذكاء وأن هذا غباء ـ وكيف عرف الأغبياء؟

ما هي الأدوات أو الأجهزة أو الوسائل أو القوانين أو التعاليم أو المذاهب أو الأديان التي عرفوا بها واطمأنوا إلى معرفتهم بها؟ هل عرفوا بلا وسائل معرفة؟ هل عرفوا بلا معرفة؟

كيف عرف الأنبياء أنهم أنبياء؟ كيف عرفوا أن الذي جاء إليهم ملاك وليس شيطاناً أو شيئاً آخر؟ كيف عرفوا أن الذي يسمعونه وسمعوه هو صوت الملاك أو صوت الإله وليس صوتاً آخر؟ ألا توجد في حسابهم أصوات أخرى؟ كيف عرفوا الفروق بين الأصوات؟ هل تعرف الأصوات الصادقة وكذا الأصوات الكاذبة بالأذن؟ وكيف تعرف الأذن أنها قد عرفت؟ كيف عرفوا أي الأنبياء أن التعاليم التي أوحيت إليهم هي تعاليم إله وليست أحلاماً أو تفاسير أحلام، بل وليست احتلاماً أو جوعاً إلى الاحتلام؟ كيف أبعدوا هذه الاحتمالات؟

أليس الأنبياء أيضاً يحلمون ويحتلمون؟ أليست أحلامهم واحتلاماتهم قد تكون غير نبوات وغير وحي؟

كيف عرفوا أنهم ليسوا حالمين أو محتلمين أو مفسرين للأحلام وللاحتلام؟

كيف صدقوا وتقبلوا وعرفوا؟ كيف لم يشكوا أو يتسائلوا أو يتحروا؟ كيف لم يطلبوا برهاناً أو شهادة أو أي شيء؟ كيف لم يعرفوا أنه ليس حتماً أن تكون أحلامهم وكل احتلاماتهم نبوات وأصوات آلهة أو أصوات ملائكة؟ كيف عرفوا أنهم تصوروا أنفسهم؟

كيف لم يموتوا أو يجنوا من الشك والرهبة ومن البحث والتساؤل؟

كيف وهبوا هذه السرعة في التصديق أو هذه الرغبة في التصديق أو هذا التظاهر بالتصديق؟

كيف تعرف أن الصوت الذي تسمعه هو الصوت الذي يذكر اسمه أو الصوت الذي تريده، أو الصوت الذي تثق به وتصدقه؟ كيف تصدق وتثق أن صوت الرعد الذي تسمعه هو صوت الإله أو صوت الملاك أو صوت النبي لو زعم لك ذلك، أو لو صمت عن هذا الزعم؟

كيف تصدق الصوت أو تصدق الصورة بأنها هي المطلوبة وبأنها كما تزعم لنفسها وعن نفسها؟

أليس تصديقك للصوت الذي يناديك لتكون نبياً أو ليزعم لك أنك قد أصبحت نبياً يساوي تصديقك بأن صوت الرعد أو صوت البركان أو صوت الاعصار ليس إلا مبايعة لك بالنبوة؟ وهل النبي إلا إنسان يقول له صوت الرعد أو البركان أو الإعصار: أنت نبي فيصدق ويعلن نفسه نبياً؟.

كيف تصدق أو تعرف لو جاء إليك أو لو ظهر لك من الجدار أو من سن قلمك من يزعم لك أنه هو الإله أو الملاك أو النبي؟ أليس التصديق بالنبوة يعني الاقتناع بأن الإله أو الملاك قد خرج من الجدار أو من سن القلم أو من بين الأظافر التي لم تقلم جيداً؟

كيف تصدق أنك تسمع صوت الإله أو صوت الطبيعة أو صوت الحقيقة لو سمعت صوتاً يناديك من الغمام أو من الظلام، يقول لك: لقد اخترناك زعيماً أو بطلاً أو نبياً أو قديساً أو منقذاً للعالم؟ كيف يصدق الإله أنه إله أو النبي أنه نبي أو الزعيم أنه زعيم أو القديس أنه قديس؟ أي صوت هتف لهم فصدقوا؟

كيف يصدق الناس يوم الدينونة، يوم يبعثون للجزاء ويمثلون بين يدي الديان الأعظم، بين يدي الإله، للحساب، للثواب وللعقاب ـ كيف يصدقون في ذلك اليوم، في ذلك الموقف أنهم حقاً أمام الإله، وأن الذي يدينهم ويقدمهم للدينونة هو الإله الموعود المتوعد الواعد الذي لم يسمعوا الحديث عن شيء مثلما سمعوا الحديث عنه، ولم يخوفوا بأحد أو بشيء مثلما خوفوا به، ولم تهن أو تجرح كبرياؤهم بشيء أو بأحد مثلما جرحت وأهينت بكبريائه، ولم تلعن وتشوه آذانهم وضمائرهم بصفات شيء أو بصفات أحد مثلما لعنت وشوهت بصفاته، ولم يعلموا أي نموذج خارج على جميع النماذج العقلية والنفسية والأخلاقية والذاتية مثلما علموا نموذجه.

نعم، كيف يصدقون هناك وحينذاك أنهم أمام الإله وليسوا أمام أحد الطغاة الذين جربوا وعانوا ورأوا منهم الكثير، الكثير فوق هذه الأرض المريضة بحب الطغاة وبإعطائهم كل أسباب التكاثر والقوة والانتصار والجنون وأسباب المجيء؟

كيف يصدقون؟ كيف يصدقون؟ وهل علم أنهم سوف يصدقون؟

هل يصدقون؟ هل يصدقون؟ هل حق ذلك؟ هل علم ذلك؟

وهل اقتنع أنك أنت وصديقك ستكونان ممن يصدقون؟ ألا يحتمل أي احتمال بل أقوى احتمال أن خدعة كبرى تعد للبشر في ذلك اليوم، يوم يزعم لهم أنهم أمام الله الذي لن يكونه؟

وإذا كنا نحن أبناء العروبة سنصدق أنه هو الإله وليس أحد الطغاة الجبارين الذين تعاقبوا على تاريخنا الجبان المهزوم الذليل الحزين فهل محتوم أو ممكن أن يصدق ذلك الآخرون؟ هل نستطيع أن نقتنع بأن أولئك الآخرين لن يكتشفوه ويرفضوه ويكذبوه ويقاوموه ويثبتوا له أنه ليس إياه؟ نعم، إن الإنسان العربي قد يصدق أنه أمام الإله في يوم الدينونة الرهيب حينما يسمع أصواتاً تقول ذلك كما صدق أنبياؤه أنهم يسمعون صوت الملاك.

أليس محتوماً أن يكتشفه ويسقطه أولئك الآخرون كما اكتشفوا وأسقطوا أضخم الأكاذيب والجهالات والخدع التي كانت تحكم كل التاريخ؟

وحينئذٍ ألا يمكن أن نستفيد نحن العرب من اكتشاف وإسقاط ورفض أولئك الآخرين في هذه القضية ـ قضية أنه ليس هو الإله الذي جمع له الناس وزعم أنه هو إياه، وإنما هو أحد الطغاة الذين جربت منهم الأرض كل الأهوال وكل الحماقات والموت والخراب ولا تزال تكرر تجاربها بنهم

وإعجاب وهوان وبداية. وحتماً، الفروق ليست كبيرة أو ليست واضحة أو محددة بين الطغاة وبين الآلهة في منطق أو في خيال المؤمنين.

نعم، ألا يمكن أن نستفيد حينئذٍ من مقاومة ورفض واكتشاف هؤلاء الآخرين في هذه القضية كما استفدنا من جميع اكتشافاتهم ومقاوماتهم ورفضهم، ومن انتصاراتهم وعبقرياتهم؟ إن غرورنا وكبرياءنا الأصيلين والدائمين لن يستطيعا أن يجعلانا نرفض الاستفادة من اكتشاف أولئك الآخرين في ذلك اليوم كما لم يستطيعا أن يجعلانا نرفض الاستفادة منهم هنا.

وقد يكون ما نستفيده من هؤلاء في هذه القضية هو أعظم وأنفع من جميع ما استفدناه منهم في جميع القضايا. إن ذلك سيكون إنقاذاً لا مثيل له.

إن طاغية لم يسبق له مثيل أو شبيه بين جميع الطغاة، يظهر لجميع البشر، ويحشر جميع البشر، زاعماً أنه إلههم، ليحاسبهم ويعاقبهم ثم يلقي بهم في الجحيم الذي تتحول أوصافه إلى تقايؤ على كل إله وعلى كل نبي وعلى كل قديس وعلى كل إنسان، كما تتحول أي صفاته إلى تحقير وتشويه لكل كينونة ولكل شيء، إلى تحقير وتشويه لكل خيال وذكاء وجمال وحب ووقار واتزان ـ كما تتحول أوصافه إلى أوصاف الجحيم إلى هجاء لكل عبقرية كل البشر لأن بعضهم قد آمن بوجوده أي بوجود الجحيم.

نعم، إن خدعة أو أكذوبة كونية وعالمية بهذا المستوى وبهذه الضخامة والوحشية قد ينقذ أبناء العروبة منها هؤلاء الذين وهبوا أبناء العروبة ووهبوا كل أبناء البشر كل هذه العطايا والمستويات الحضارية والعلمية والعقلية والإنسانية التي يتحول الثناء عليها والإحصاء لها والاعتراف بها أعظم عدوان عليها وتشويه لها لأنها أكبر من كل ثناء وإحصاء واعتراف.

إذن أليس إنقاذنا من هذه الخدعة أو من هذه الأكذوبة الكونية العالمية هو أعظم وأنفع من جميع ما أعطانا هؤلاء الآخرون من عطايا هي أكبر من الإحصاء ومن الثناء والاعتراف؟ إنهم يكتشفون لنا ذلك الطاغية الذي يجمع كل البشر زاعماً أنه الإله العالمي الكوني ليقضي فيهم قضاء نهائياً أبداً يحول كل شيء إلى أعلى مستويات العار والدمامة والجنون والسخف والتشوه والحقارة والتحقير.

إذن إن علينا نحن أبناء العروبة ألا نسارع في ذلك الموقف إلى التصديق بأننا أمام إله. إن علينا أن ننتظر ما يقوله ويكتشفه أولئك الآخرون. فلعلنا أمام طاغية لا أمام إله. لعلهم يكتشفون لنا ذلك كما اكتشفوا لنا نفطنا. وكما اكتشفوا لنا أيضاً ضعفنا وجهلنا.

نعم، إننا أبناء العروبة لن نعرف في ذلك اليوم، في ذلك الموقف، في ذلك الحشر ـ لن نعرف أننا أمام طاغية لا أمام إله. ولكن أولئك الآخرين قد يعرفون، أو لا بد أن يعرفوا كما عرفوا جميع الأشياء التي لم نعرفها نحن أبناء العروبة.

وحينئذٍ قد تنقذنا، أو لا بد أن تنقذنا معرفتهم من هذه الخدعة أو الأكذوبة العالمية الكونية التي

تحدث عنها كل البشر، والتي أرهبت كل البشر، والتي تنتظر كل البشر. لقد وهبنا أولئك الآخرون الحياة هنا فلعلهم يهبوننا الإنقاذ هناك. لقد أعطونا دائماً الأفضل والأذكى والأصدق.

كيف يعرف الإنسان؟ وكيف يعرف أنه يعرف، أو أنه قد عرف؟ وهل يعرف مهما عرف أنه يعرف؟ وهل المعرفة شرط في شيء، في أي شيء؟

هل المعرفة شرط في الاقتناع أو في الإرادة أو في الإعجاب أو في الإقدام أو في القوة أو في الابداع؟ بل هل المعرفة شرط في المعرفة؟ ألسنا نعرف كل شيء دون أن نعرف شيئاً أو لأننا لا نعرف شيئاً؟ أليس أقلنا معرفة هو أكثرنا معرفة؟

أليس أجرؤنا على أن يعلمنا هو أقلنا علماً بما يعلمنا؟ ولكن كيف نعرف أن هذا هو الذي يعرف وأن ذاك هو الذي لا يعرف؟

ماذا لو كان الإنسان لا يريد ولا يشتهي ولا يقدم ولا يفعل ولا يقتنع ولا يتحدث ولا يكون ولا يخاصم ولا يقاوم ولا يرفض ولا يعادي إلا إذا كان يعرف؟ ماذا لو كانت المعرفة شرطاً في الحياة أو في الوجود أو في الكينونة أو في الزعامة أو في النبوة أو في القيادة أو في التعليم أو في التصديق؟

ماذا لو كانت الطبيعة، أو لو كانت الحشرة لا تمارس أية كينونة من كينوناتها إلا إذا كانت تعرف؟ ماذا لو كانت الآلهة لا تريد ولا تدبر ولا تأمر ولا تعلم ولا تخلق إلا إذا كانت تعرف؟

ماذا لو كانت الآلهة تملك موهبة الشك وموهبة الاحترام للمنطق وللمعرفة أو موهبة الاحترام للذات؟

ماذا لو كان الإنسان يعرف؟ ماذا يحدث وماذا يكون حينئذٍ؟

ماذا لو كانت الطبيعة والأشياء تعرف؟ ماذا لو كانت الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة والمعلمون يعرفون، أو لا يفعلون ولا يريدون ولا يقولون إلا ما يعرفون؟

ولكن ما المعرفة، وماذا يعني القول بأن هذا الكائن أو هذا الإنسان عارف أو يعرف؟ وهل توجد معرفة أم كينونة فقط؟ أليس ما ندعوه معرفة ما هو إلا كينونة بأسلوب ما؟ أليست كل معرفة هي كينونة؟ وهل أية كينونة معرفة؟ وهل من الكينونات ما هو معرفة؟ هل تكون لأنك تعرف، أم تعرف وتكون لأنك تكون؟

ألست تكون دون أن تعرف؟ ولكن هل تعرف دون أن تكون؟

أليست المعرفة هي تفسير الكينونة ولغتها وحكمها وعطاءها؟ وهل تكون الكينونة عطاء المعرفة أو لغتها أو تفسيرها أو حكمها؟ أليست الكينونة مهما بدت في أحد الأساليب أنها معطاة أو محكومة أو معبر بها أو مفسر بها في كل الأساليب المعطية والحاكمة والتفسير والتعبير عن كل شيء، والبداية والنموذج والمنطق لكل شيء؟

إنها لو كانت مخلوقة لكانت حتماً هي الخالقة لخالقها، والواهبة لخالقها كل صفاته وأخلاقه وقواه وأفكاره.

إن المعرفة قد تصنع، ولكنها لا تصنع إلا بقوة الكينونة وبتحريضها وأوامرها، وباحتياجاتها وأساليبها، وعلى نموذجها، ولمصلحتها أي لمصلحة الكينونة، وبتعاليمها.

إن الكينونة لم تصنع المعرفة لأنها شرط فيها ولا لأنها شوق من أشواقها أو صلاة من صلواتها، أو حاجة من حاجاتها، أو تدبير من منطقها، أو لأنها جمال أو مجد لها أو فيها. ولكنها تصنع المعرفة بالأسلوب الذي تصنع به كل آفاقها ونقائصها وأخطائها وآلامها وبلاداتها وعبثها. إنها تصنع المعرفة لأنها لا تستطيع إلا أن تصنعها، لا لأنها تريدها أو تدبر لها أو تعرف مزاياها، ولا لأنها لا تستطيع أن تحترم نفسها أو تتقبلها إلا بها.

والإنسان لقد صنع معرفته ومنطقه وأرادهما واستطاعهما ووجدهما بالأسلوب الذي صنع وأراد واستطاع ووجد ودبر به صنع شعر رأسه ووجهه وإبطيه، وصنع حقده وغضبه وخوفه وجوعه وموته.

لقد اكتسب الإنسان طور الكائن الذي يعرف ويفكر بالأسلوب الذي اكتسب به نموذجه الذاتي... بالأسلوب الذي اكتسب به طور من يجوع ويمرض ويشيخ ويموت.

* *

إن القطرات المتحدرة من عيوننا في معبد، أو حين سماع عظة أو حين تذكر جبروت ووعيد إله جبار ـ وإن الأنات والصرخات المتفلتة من أعصابنا وأخلاقنا وأفواهنا، حين معاناتنا لألم أو لهوان أو لهزيمة أو لموقف ذليل أو لضعف ما ـ وإن صلواتنا وتوجهاتنا إلى إله أو إلى نبي أو إلى قديس، ندعو ونطالب ونتضرع ونلهث ونتساقط.

إن ذلك كله ليس إلا ضروراتنا وطاقاتنا واحتجاجاتنا وغضبنا واحتمالات المقاومة فينا قد تحولت إلى أسلحة فاسدة، وإلى مقاومة كاذبة، وإلى استفراغ على ذواتنا.

إن التعاليم والثقافات والعبادات والنبوات التي روضتنا طويلاً، طويلاً على أن نتحول إلى استفراغ على أنفسنا وعلى تاريخنا وعلى حياتنا، بين يدي أربابنا وأنبيائنا وزعمائنا ووعاظنا، وفي معابدنا ومحاريبنا وتحت منابرنا. إن هذه التعاليم والثقافات والنبوات والعبادات لهي أحد أعدائنا الشرسين العالميين. إن علينا أن نقاومها بالأسلوب والحماس اللذين نقاوم بهما أشرس الأعداء. إن كل صلاة وتضرع وصراخ وأنين وسباب ودمعة وتوجه إلى أي إله أو نبي أو قديس بالهتاف والدعاء والمناشدة ـ إن كل ذلك ليس إلا استفراغاً للذات على الذات.

إنه لحق علينا أن نحمي دموعنا وإهاناتنا وهزائمنا وضروراتنا وآلامنا ومشاعرنا الغضبى وأنيننا وصراخنا من التبديد والضياع والتفجير فوق المنابر، وفي المعابد والمحاريب، وفي الصلوات والضراعات والهتافات، وفي مناجاة الآلهة والأنبياء والقديسين، وبين أيديهم، وفي أفواه الزعماء والقادة والوعاظ

والشعراء والكتّاب الشاتمين المحقرين الصارخين المبددين المفجرين لنا على كل الاتجاهات، فوق جميع الكلمات.

نعم، إنه لحق علينا أن نحمي كل ذلك بقدر ما هو حق علينا أن نحمي شرفنا وكرامتنا ونظافتنا وشجاعتنا وذكاءنا وأوطاننا من جميع اللصوص والأعداء، أو بقدر ما هو حق علينا أن نحمي أسلحتنا من أن تفجر تفجيراً كاذباً.

* *

إننا نعني هنا تبديد الألم، أي تبديد قوته، وتبديد الإحساس به، والرفض له، والغضب عليه. إننا نعني استفراغه استفراغاً كاذباً، نعني إنفاقه إنفاقاً كاذباً أو إنفاقاً ضعيفاً. إننا نعني إنفاقه على الأنين والدموع والتضرعات والصلوات وفي الدعاء والهتاف ضده وضد أسبابه وموقعيه بنا. إننا نعني استفراغه في المعابد والمحاريب، وتحت المنابر، وبين أيدي الزعماء والقادة والأنبياء، وبأفواه الزعماء والقادة والأنبياء. إننا نعني تحويله إلى سلاح كاذب، أو سلاح نطلقه بلا أهداف، أو نطلقه على أنفسنا وبين صفوفنا ـ أو نعني التفريغ له لئلا يصبح سلاحاً.

إن الألم قوة، كقوة العقل والذكاء والعلم، وكقوة العضل والسلاح. إنه قوة على جميع الاتجاهات. وإنه ليمكن تبديده كما يمكن تبديد أية قوة.

إن البشر لم يبددوا شيئاً تبديداً كاذباً مثلما بددوا ويبددون آلامهم، أي مثلما خدعوا آلامهم، وخدعوا الشعور بها وخدعوا أساليب مقاومتها والرغبة في مقاومتها. إنهم ما خدعوا شيئاً في أنفسهم مثلما خدعوا فيها طاقة الألم والغضب والرفض والاشمئزاز والرؤية.

لقد ابتكر البشر ومارسوا من الأساليب والأدوات والأجهزة لتبديد قوة الألم وقوة الغضب منه والاحتجاج عليه ما لم يبتكروا ويمارسوا مثله لتبديد أية قوة أخرى من قواهم التي لا بد أن يناضلوا ويبتكروا لتبديدها. لقد كان محكوماً على البشر أن يحتاجوا إلى تبديد قواهم وأن يحولوا محاولات تبديدهم لقواهم إلى أجهزة وأدوات وأساليب متنوعة وكبيرة.

إن أي نبي أو معلم أو زعيم أو قديس قد جاء ليبدد قوى الإنسان وليقتلها بالتخدير والتنويم والتفريغ، لم يستطع أن يبدد، بل ولم يحاول أن يبدد أية قوة من قواه أي من قوى الإنسان مثلما استطاع أن يبدد وحاول أن يبدد فيه قوة الألم أو قوة الرفض للألم والاحتجاج عليه والاستنكار له. وإن أي نبي ومعلم وزعيم وقديس لا بد أن يكون أحد أجهزة وأدوات وأساليب التبديد لقوى الإنسان.

إن أي محراب وأي منبر وأي معبد وأي كتاب منزل وأي دين وأي وعد أو تفاؤل مذهبي ـ إن أي شيء من ذلك ليس سوى جهاز من أجهزة التبديد والتفريغ والتخدير والتنويم والمخادعة لقوة الألم في الإنسان وأيضاً لتبديد قواه الأخرى. إن أي مذهب أو دين أو نبي أو زعيم لا بد أن يكون في حسابه أو في محاولاته تبديد قوة الألم وخداع الألم في المجتمع الذي يجيء إليه.

لقد فرضت الآلام على الإنسان بوحشية، فلم يستطع التداوي أو التخلص منها، ولم يستطع كذلك تحملها. إذن فليحاول تبديدها، ليحاول خداعها وإسكاتها والاحتيال عليها بالمهادنة وبالتنويم والتخدير. إذن فليحولها إلى أساليب استفراغية. إذن فليأت المستفرغون عنه والمستفرغون عليه وفيه والمستفرغون له.

إذن فليأت الأنبياء والزعماء والقديسون وكل أصناف المعلمين ليصبحوا هم أجهزة وأدوات هذه الأساليب الاستفراغية. هل وجد الناس أو يجدون أية مزية للأنبياء والزعماء والقديسين تجعلهم يؤمنون بهم أعظم أو أنفع من هذه المزية، أي من مزية تبديدهم لقوة آلامهم وتحويلها إلى أساليب متنوعة من الاستفراغ؟

* *

إن كل ما نفعله ونهبه ليس إلا تعبيراً ما عن الألم، حتى الابداع والعبقرية والأفكار العظيمة، حتى اللذات والسرور والرقص والضحكات الضاجة من النشوة ـ إن جميع ذلك ليس إلا تعبيراً عن الألم، أو احتجاجاً عليه. إن جميع ذلك ليس إلا ألواناً من رقصات الألم ولغاته. إن اهتزازات وصيحات النشوة ليست سوى ارتجافات وآهات الألم جاءت بأسلوب أكثر خداعاً وعنفاً.

إن كل ذلك ليس سوى احتجاج وغضب قويين وفعالين على تفاهات الكون والحياة والناس، وعلى تفاهات الآلهة والطغاة والعقائد والمذاهب، وعلى المظالم والحقارات التي يواجهها ويعيشها ويصنعها ويتعامل بها الإنسان على أعلى مستوياته الدينية والأخلاقية والإنسانية حتى ليحولها في كبرياء إعلانية مثيرة إلى أديان ومذاهب وفلسفات، وإلى كرامة وطنية أو قومية.

إن كل ذلك ليس سوى تعبير عن الاحتجاج والغضب الحادين على ما في عيون الأشياء وعلى ما في عيون الآلهة من بلادة وغفلة واسترخاء ووحشية وضآلة ومن فضول بذيء. ما أقسى التطلع إلى عيون الآلهة وإلى عيون الأشياء. ما أقدر عيون الآلهة وعيون جميع الأشياء على إثارة الغيظ والغضب والاشمئزاز والكآبة العقلية والأخلاقية.

... إن كل ذلك لا بد أن يصنع آلاماً باهظة ودائمة للإنسان. إن كل ذلك لا بد أن يتحول إلى آلام تتحدى عقله وأخلاقه ورؤيته وتمنياته ومثله وحياته، بل تتحدى أديانه ومذاهبه. إنه حينئذٍ لا بد أن يذهب يرفض ويقاوم ويحتج بأعماله التي قد تعد طيبة والتي قد تعد رديئة. هل يكون إنساناً من لا يحتج؟ هل يكون إنساناً من لا يحتج على ذكاء الآلهة وعلى أخلاقها؟ هل يكون إنساناً من يرضى عن الآلهة؟

إن هذا هو الاحتجاج أو التعبير السوي والقوي. إنه التعبير عن الألم والاحتجاج عليه بالابداع والقوة. إنه الهرب إلى النقيض. إنه الغضب على ما في عيون الآلهة وعيون الطبيعة من بلادة وقسوة ودمامة وموت وفضول. إنه الغضب المقاوم الرافض. إنه الرفض المبدع المتجاوز.

.. أما الاحتجاج أو التعبير البائس أو العاجز أو الضعيف أو البليد، أو الذي يبدو لنا كذلك فهو التعبير عن الألم أو الاحتجاج عليه بالتألم، بتحويل الآلام إلى أساليب استفراغية، أو إلى أساليب قذف كاذب. وهل يوجد من لا يمارسون الأساليب الاستفراغية أو أساليب القذف الكاذب؟ أليست كل الممارسات أساليب مختلفة للاستفراغ أو للقذف الكاذب؟

أليست الصلاة والدعاء والهتاف وسب الشيطان نماذج رائعة لأساليب القذف الكاذب وللأساليب الاستفراغية؟ أليست جميع أعمالنا الأخرى هي نماذج رائعة لهذه الأساليب كالصلاة والدعاء والهتاف وسب الشيطان؟ أليس كذلك ولو في النية والمعنى؟

إن التألم أي التعبير عن الألم بأساليب القذف الكاذب، ليس علاجاً للألم، أي ليس رفضاً أو مقاومة له، وليس كذلك إضعافاً أو إبطالاً لأسبابه، وإنما هو استسلام وهزيمة له. إنه محاولة توقيع هدنة بالتسليم والتقبل والتوافق معه. إنه نوع من تصوف التقبل والاستسلام والرضا والتلاؤم مع كل ما هو كائن وكل ما يمكن أن يكون. إنه ترويض للعقل والأخلاق والنفس على تحويل ما يحدث ويسوء ويوجع ويقهر إلى عبادة. إنه محكوم على جميع البشر أن يمارسوا أساليب مختلفة من الترويض لعقولهم وأخلاقهم ونفوسهم. إن الحياة لمستحيلة وجنون بدون هذا الترويض.

إن التألم ليس إلا تحويلاً للألم إلى استجداء للنجوم البعيدة الغافلة المشغولة بأحزانها وآلامها وتفاهاتها وبمخاوفها وضياعها، ضاربة وضالة في آفاقها الواسعة الرهيبة، مربوطة إليها ومحكومة بها، دون أن تعرف لماذا، ولا إلى أين ولا إلى متى، ولا من الفاعل أو الرابح أو المدبر أو المريد. ودون أن تسأل عن رأيها أو عن مصلحتها أو عن قبولها ورفضها. ودون احترام لكرامتها أو لحريتها أو لمشاعرها ودون فكاك لها من هذه العبودية البائسة الحزينة الكئيبة المظلومة، المجهولة التفاسير.. وقد تكرر مرات أن المراد بالتألم هو التعبير عن الألم والإفراز له ليضعف الشعور به وتضعف الرغبة في مقاومته ويضعف ستقباحه.

إن المراد بالتألم هو البحث عن أسباب لغفران الآلام ولغفران أسبابها وصانعيها.

إن العبقرية والابداع علاج قوي للألم، أو احتجاج قوي عليه، أو رفض قوي له. إنهم أي العبقرية والابداع رد ذكي ملائم على الآلام ـ أو هما الرد الذي نتمناه ونتحدث عنه أحياناً بتعاليمنا ومذاهبنا ومثلنا المختارة المقررة المكتوبة. إننا لا بد أن نرى العبقرية والابداع كذلك لأننا لا بد أن نجد شيئاً نمتدحه ونرضاه ونجعله نموذجاً لسلوكنا وأمانينا.

أما أساليب الاستفراغ أو أساليب القذف الكاذب فإنها بحث عن الاستسلام للآلام وعن التوافق والتعايش معها وفيها بمحبة وطاعة وغفران وصفح، بل بتعبد ورهبانية، دون أن تكون علاجاً لها، بل دون أن يراد لها ذلك. ولكن أيهما أنفع للإنسان: أن يقاوم الآلام أم أن يتعلم معايشتها بسلام؟ من يستطيع أن يحكم أو يعرف؟

إن الأنين والصلاة أسلوبان من أساليب الاعتذار عن الآلام والمظالم والأخطاء والحقارات، من أساليب الإخفاء لها وأساليب الصرف عن رؤية دمامتها. إنهما أي الصلاة والأنين دعوة إلى التسامح مع الدمامات والأخطاء والآلام والحقارات والمظالم والضياع. ولماذا يختار الإنسان الاعتذار عن ذلك على مقاومته؟ أليس يبحث عن الراحة؟ وهل الذكاء إلا بحث عن الراحة؟ وهل العبقرية والنضال المميت إلا بحث عن الراحة؟

إن الصلاة للإله والتضرع إليه بحماس وحرارة وارتجاف تعبيران من تعبيرات الدعوة إلى التسامح والضعف في مقاومة وقاحات الذباب والطغيان والألم والمرض، وفي مقاومة كل وقاحات كل الطبيعة والأشياء. إنهما تعبيران من تعبيرات الدعوة إلى العجز عن رؤية ما في الطبيعة والآلهة والأشياء من قبح وبذاءة وبلادة ووحشية، وإلى العجز عن الإحساس بذلك والإحساس ضده، وعن الغضب عليه ومنه.

إن الصلاة للآلهة والتضرع إليها أسلوبان من أساليب الغفران لها والتعجيز عن رؤيتها والاحتجاج عليها. إنهما أي الصلاة والتضرع إلى الأرباب أو إلى الأنبياء والزعماء والقديسين ـ إنهما مقاومة لموهبة الاشمئزاز والغضب والرفض والتحديق في الإنسان. إنهما لغتان من لغات الإعلان عن الغفران للذباب والطغيان والألم والمرض، وللدمامات والتشوهات والمظالم، وللموت والهوان ـ أو هما لغتان من لغات الإعلان عن الرغبة في هذا الغفران، أو عن الرغبة في التخلي عن كل مقاومة باسلة، وعن كل غضب مقاتل، وعن كل رؤية رافضة أو مستنكرة أو مشمئزة أو حتى ناقدة. إن قيمة الصلاة والهتاف والتضرع للإله أو للزعيم أو للنبي أو للقديس ليست في تمجيده بل في الغفران لذنوبه وفي التعجيز عن رؤية تشوهاته وعاهاته وتفاهاته، وعن الإحساس ضدها، وعن الغضب عليها. إن العجز عن رؤية الإله لأفضل له من عبادته.

إن الإنسان هو أكثر الكائنات احتجاجاً على الطبيعة وعلى الأشياء المعادية المناقضة له المعتدية عليه. ولكنه أكثر هذه الكائنات ابتكاراً لأساليب الاعتذار والصفح عنها. بل إن الإنسان هو وحده الذي يفعل هذا وهذا دون جميع الكائنات.

فهل الإنسان إذن هو أذكى الكائنات وأفضلها وأشجعها أم هو أغباها وأردؤها وأجبنها؟ هل الأفضل للإنسان أن تكون له كل مزاياه ولذاته لتكون له كل رذائله وآلامه أم ألا تكون له هذه لئلا تكون له هذه؟

* *

ولكن حذار من المسارعة إلى تصديق هذه التفاسير للإنسان. فالإنسان كائن صعب تفسيره. إنه كائن يصعب ضبطه بالتفاسير. ونحن هنا نفترض للإنسان تفاسير ولكن يصعب فهمها أو ضبطها. وهل للإنسان حقاً تفاسير؟

إن الإنسان هو وحده الكائن الذي يصنع التفاسير لنفسه وللأشياء، وإنه كذلك هو وحده الكائن الذي لا يساويه أو يشبهه شيء في صعوبة تفسيره.

إنه هو وحده صانع التفاسير، وإنه هو وحده أكثر من يتعب ويضلل ويعجز التفاسير. إنه أكثر من يتعب ويضلل ويعجز التفاسير بمنطقه وبأخلاقه وبكينونته وبحياته، بل وبتفاسيره. إنه بتفاسيره يضلل ويتعب ويعجز التفاسير، كما يضللها ويعجزها ويتعبها بكل مستوياته ونياته وكينوناته وباختلافاته بل وباتفاقاته. وإن كان للإنسان حقاً تفاسير هي أصعب التفاسير فمن الذي يضع هذه التفاسير؟ ومن الذي يراها أو يجدها أو يعرفها أو يحددها أو يتحدث عنها؟

* *

هل يمكن أن يعرف أول من ابتكر السباب أو تعامل به أو تفجر فيه؟

وهل يمكن أن يكون لهذا أول؟

هل يمكن أن يكون هناك أول قد ابتكر الحقد أو الغضب أو الحزن أو الحسد أو الجوع أو النوم أو اللغة أو الصلاة أو التضرع أو الدعاء أو الهتاف أو البكاء أو الغيبة أو النميمة، أو تعامل بذلك، أو تفجر فيه ذلك؟ وهل هذه الآفات ابتكار أم انفجار؟

هل الناس يبتكرون انفعالاتهم وآلامهم والتعبير عنها أم هي تتفجر فيهم تفجراً؟

أليس السباب قد حدث أو جاء أو تخلق أو ابتكر أو تفجر في الناس أو تعاملوا به بالأسلوب الذي أصبح به الناس يحقدون ويغضبون ويحسدون ويحزنون ويجوعون وينامون ويتكلمون ويبكون ويصلون ويهتفون ويتضرعون ويدعون ويغتابون وينمون؟

وهل يمكن أن يكون لشيء من ذلك أول؟ إنها لكثيرة الأشياء التي ليس لها أول والتي لا يمكن أن يكون لها أول. هل الأحداث أو الأشياء أو الطبيعة أو الناس أو الآلام أو الأحزان أو الأخطاء أو البلادات أو التفاهات أو الأكاذيب أو الأخلاق أو المخاوف تجيء أفراداً أم تجيء جماعات؟ بالتعليم أم بالموهبة؟

هل يمكن أن يكون هناك أول من نبتت له عينان أو أذنان أو رجلان، أو أول من أصابته الشيخوخة أو الأمراض أو الموت أو أول من خلق فيه الاستعداد لذلك، أو أول من اقتنعوا بأن من الأذكى والأنفع والأستر لهم أن يمتدحوا الإله ويعصوه، وأن يذموا الشيطان ويطيعوه؟

وإنه لو كان قد وجد أول قد ابتكر السباب أو تعامل به أو تفجر في ذاته لكان ذلك الأول هو الطبيعة أو الآلهة أو الأنبياء والزعماء والقادة والكتّاب والفنانين. وأيهما المتهم الأول في ابتكار السباب وتعليمه: الطبيعة أم الآلهة أم الأنبياء والزعماء والقادة والكتّاب والفنانون أي إن كان يوجد متهم أول؟

وهل السباب يعلم أم فقط يوجه ويحرض ويشرع وتصاغ صيغته وتعلم لغته ووسائله ومكانه وزمانه ويحدد من يسدد إليه ويطلق عليه؟

هل في ضمير التطور الحضاري المتصاعد أن يتخطى الإنسان طور السباب؟ أي هل في نيات المستقبل واحتمالاته أن يصبح الإنسان كائناً لا يحقد ولا يبغض ولا يحسد ولا يحزن ولا يبكي ولا يصلي أو يتضرع أو يدعو أو يصرخ أو يهتف أو يئن أو يسب أو يتعذب بالرؤية والمواجهة والتنافر؟

أي هل يمكن أن يصبح كائناً لا يتناقض أو يتصادم مع الأشياء وبها ومع الآخرين وبهم بمنطقه أو بأخلاقه أو بأحاسيسه واحتياجاته أو بوجوده أو بذاته، أو ألا يعبر عن هذا التناقض والتصادم بأي أسلوب، أو أن يعبر عنه بأساليب أخرى؟ هل يمكن أن يصبح بلا شحنات نفسية وفكرية وأخلاقية، أو ألا يعبر عنها، أو أن يعبر عنها بلغات وصيغ أخرى؟

هل محتوم أن يكون لهذا السؤال جواب؟ وإذا كان له جواب فهل محتوم أو محتمل أن تستطاع معرفته؟ وهل من يعرفون الجواب ـ لو وجدوا ـ يعرفون أنهم قد عرفوه؟ وهل توجد وسائل لدى من يعرفون ليعرفوا بها أنهم قد عرفوا؟ وكيف يعرفون صدق هذه الوسائل لو وجدت؟

كيف يقتنعون بأنهم قد عرفوا مهما عرفوا، ومهما اقتنعوا بأنهم قد عرفوا؟

نعم، كيف يقتنع العارف بمعرفته ويثق بها؟ وكيف يعلن عنها؟

إن من لا يعرف قد يقتنع بأنه يعرف. إذن من يعرف كيف يثق بأنه يعرف؟ لماذا لا يكون ممن لا يعرفون ويظنون أنهم يعرفون؟ هل السباب لغة أم حالة؟ هل هو شعور ونية وموقف أم تعبير؟

هل الساب بحالته وبشعوره وبموقفه ونيته دون لغته وتعبيره ليس ساباً؟

أو هل الذي لا يسب بلسانه ليس ساباً مهما سب بأهوائه وبظروفه وبمصالحه وباتجاهاته وبمناقضاته وتصادماته؟

إذن هل يمكن أن يصبح الإنسان غير ساب بمعانيه وتفاسيره ومعاملاته وبكينوناته وتحديقاته؟

أي هل يستطيع الإنسان أن يكون غير ساب مهما أصبح غير ساب بلغاته وتعبيراته، من فوق منابره، وعلى ألسنة أنبياءه وزعمائه، أي لو استطاع أن يكون غير ساب بهذا الأسلوب وبهذه الأدوات العالمية السباب؟

وهل الذي يسب بوضعه دون أن يسب بقوله متدين أو مهذب؟ وهل هو أكثر تهذيباً أو تديناً ممن يسب بقوله دون أن يسب بوضعه، أو ممن يسب بقوله لأنه يسب بوضعه؟ وإنهم لكثيرون أولئك الذين يسبون بأقوالهم دون أن يسبوا بنفوسهم أو بقلوبهم. وإنهم لكثيرون أولئك الذين يسبون بنفوسهم وقلوبهم ونياتهم وأخلاقهم دون أن يسبوا بلغاتهم..

وهل من يسب بلغته أعظم ذنباً ممن يسب بعيونه أو بهمومه أو بأفكاره أو بقلبه؟

وهل يوجد أو وجد من لا يسب بعيونه وبهمومه وبأفكاره وبقلبه؟

وهل السباب سباب أو هل هو شيء رديء أو بذيء أو مكروه أو مرفوض أو مزعج إلا لأنه سباب بالعيون والهموم وبالأفكار وبالقلوب لا لأنه سباب باللغة؟

وهل يعتقد أنك تسبه من تسبه بلغتك دون أن تسبه بأفكارك أو بتحديقاتك أو بهمومك أو بقلبك؟

وهل يعتقد أنك لا تسبه من تسبه بأفكارك أو بتحديقاتك أو بهمومك أو بقلبك دون أن تسبه بلغتك، أو لأنك لا تسبه بلغتك؟

إذن هل يمكن أن يتخطى الإنسان طور السباب بمعانيه الصامتة والناطقة؟

وهل يمكن أن يوجد إنسان واحد لا يكون ساباً ومسبوباً بشيء من معاني وأساليب السباب الصامتة والناطقة، أو بكل معاني وأساليب هذا السباب أي الصامت منه والناطق؟

إذن أليس العظماء والفضلاء والأذكياء والشرفاء هم أكثر الناس سباباً، أي بمعاني السباب الصامتة، أي بأفكارهم وأخلاقهم وقلوبهم وبهمومهم وتحديقاتهم؟

ما أقسى هذا السباب، سباب العيون والأفكار والأخلاق والقلوب الذي يسبه العظماء والأذكياء والفضلاء والشرفاء. إن هؤلاء لا بد أن يكونوا أكثر الناس عذاباً لأنهم لا بد أن يكونوا أكثر الناس سباباً للأشياء بعيونهم وعقولهم وبأخلاقهم وقلوبهم.

إن هؤلاء لا بد أن يكونوا أكثر الناس تناقضاً مع الأشياء ومع الناس، وتصادماً بها وبهم، واحتجاجاً عليها وعليهم، ورفضاً لها ولهم. وأيضاً لا بد أن تكون الأشياء والناس كذلك أكثر تناقضاً وتصادماً واحتجاجاً ورفضاً في تعاملها وتعاملهم معهم أي مع العظماء والفضلاء والأذكياء والشرفاء وفي مواجهتهم وفي الإحصاء عليهم. إذن لا بد أن يكون هؤلاء هم أشد الناس عذاباً. نعم، لقد كان محتوماً ومعقولاً جداً أن يكون هؤلاء أي العظماء والفضلاء والأذكياء والشرفاء هم أكثر الناس سباباً صامتاً، أي بأفكارهم وأخلاقهم وهمومهم وتحديقاتهم وبقلوبهم وبتمنياتهم وشروطهم. إنه السباب الصامت الذي لا يوجد أعلى منه صوتاً... كما كان محتوماً ومعقولاً أن يكونوا هم أشد الناس عذاباً...

وهذا السباب هو أقسى وأقصى أساليب السباب. بل إن هذا هو كل تفاسير السباب وكل معانيه وأسبابه. إنه السباب الخالد الذي يعيشه ويمارسه كل شيء وكل أحد، منطلقاً منه ومنطلقاً إليه.

هل يمكن أن يكون الجمال أو الذكاء غير ساب للقبح أو للغباء، أو أن يكون الغباء أو القبح غير ساب للذكاء أو للجمال، أي سباباً صامتاً أو سباباً ناطقاً جداً وضاجاً جداً ولكن بلا لغة أو بلغة أخرى؟

أواه.. ما هي الحدود بين المعقول وغير المعقول.. بين الجيد والرديء.. بين النافع والضار.. بين التهذيب والهمجية.. بين ما ينبغي وما لا ينبغي.. بين ما هو مجد وما هو نذالة..؟

ما هي هذه الحدود؟ ومن يضعها أو يعرفها أو يحترمها أو يستمسك بها؟

وهل وجد أو هل يوجد هؤلاء الذين يضعون أو يعرفون أو يحترمون أو يلتزمون هذه الحدود؟

أواه.. أين أنت يا هذه الحدود؟ هل توجدين، وأين توجدين؟

أين الباحثون عنك.. أين هم؟ أين أنت منهم يا هذه الحدود؟

أواه أيتها الحدود.. بين المعقول وغير المعقول، وبين الجيد والرديء، وبين النافع والضار، وبين الحضارة والهمجية، وبين الذكاء والغباء.. وبين المجد والنذالة؟

هل أنت هاربة أو مهروب منك؟ هل الأفضل أن تكوني موجودة أم الأفضل أن تكوني مفقودة؟ هل يوجد من يدري، أو من يريد أن يدري، أو من ينفعه أن يدري؟

هل الناس يدرون لأنهم يدرون أم لأنهم لا يدرون؟ وكم هم الذين يدرون لأنهم لا يدرون.

وهل الذين يدرون يرون بأنهم يدرون أكثر مما يرى الذين لا يدرون بأنهم يدرون؟

* *

أواه أيتها الحدود المفقودة الموجودة.. الهاربة المهروب منها.. التي يتحدث عنها كل إنسان ولا يعرفها أي إنسان، والتي يمتدحها كل إنسان ولا ينوي أو يستطيع الالتزام بها أي إنسان.. أواه أيتها الحدود بين المعقول وغير المعقول.. بين الجيد والرديء.. بين الضار والنافع.. بين التهذيب والهمجية.. بين الذكاء والغباء.. بين المجد والنذالة.

أواه أيتها الحدود..

أيتها الحدود.. هل أنت موجودة؟ إذن لماذا لا يجدك الناس أو يعرفونك أو يلتزمون بك؟ هل أنت غير موجودة ولا يمكن أن تكوني موجودة؟ إذن لماذا يتحدثون عنك ويطالبون بك ويزعمونك ويزعمون أنهم يجدونك؟

هل الناس يريدونك ويستطيعونك؟ إذن لماذا لا يصنعونك؟

هل هم يخافونك ويرفضونك؟ إذن لماذا يمتدحونك؟

أواه أيتها الحدود...

أيتها الحدود بين المعقول وغير المعقول.. بين الجيد والرديء بين النافع والضار.. بين الذكاء والغباء.. بين التهذيب والهمجية.. بين المجد والنذالة.. بين الجمال والدمامة.. بين العظمة والتفاهة.. بين التهريج والبطولة.. بين الهوان والكبرياء.. بين الذكاء والغباء.. بين النبوة والادعاء.. بين النبي والدجال..

.. أواه أيتها الحدود. بين الشيء ونقيضه.

هل أنت موجودة؟ هل يمكن أن تكوني موجودة؟

هل يجدك أحد؟ هل يريدك أحد؟ هل يعرفك أحد؟

أيتها الحدود المكتوبة.. المقروءة.. المخطوب بها.. المنزلة في ألواح كل نبي وكل معلم وكل زعيم وكل خطيب.. وعلى لسان كل بذيء وكذاب وبليد، دون أن يعرفك أو يجدك، أو يريدك أحد..

أواه أيتها الحدود..

أيتها الحدود بين الأشياء وأضدادها...

* *

هل كان يمكن أن يكون الإنسان أذكى أو أفضل أو أكبر مما قد كان، أو هل يمكن أن يكون أذكى أو أفضل أو أكبر مما سوف يكون؟

إذن لماذا لم يكن ولماذا لن يكون هذا الأذكى الأفضل الأكبر؟

أي قانون أو إله أو كائن خير أو شرير يعيش هنا أو يعيش بعيداً قد اختار للإنسان وفرض عليه هذه الصيغة التي قد كانها والصيغ الأخرى التي سوف يكونها؟

.. أي قانون، أو أي إله أو أي كائن خير أو شرير، ذكي أو غبي، قوي أو ضعيف قد اختار وفرض ودبر ورضي ما قد كان وما لا بد أن يكون؟

غباء الإنسان تعويضٌ له عن قسوة الطبيعة عليه

«.. لقد ظل الإنسان في كل تاريخه وتحت كل مستوياته الحضارية والإنسانية والثقافية والنفسية يصوغ آلهته ومذاهبه وتعاليمه ونظرياته لتكون أقوى وأشمل الأجهزة على تبريد انفعالاته وذكائه وتلقين مشاعره كل معاني ومستويات الخمول والاسترخاء والبلادة والعجز عن الغضب والرفض والاحتجاج. لقد كان يصوغ آلهته بلا عيون ولا آذان ولا أعصاب ولا شهامة ولا نظافة لكي يعيش معها وأمامها دون ارتجاف أو تهذيب. لقد صنع لآلهته حواس ولكنه جعلها حواس بلا وظيفة. لقد صاغها بحيث لا تخيفه ولا تزجره ولا تأمره ولا تقلقه. لقد خلق حواس آلهته صماء. لقد كان الله في كل التاريخ هو أضخم وأشهر جهاز للتبريد عرفه الإنسان وحاول أن يقاوم به كل تحريضات واحتجاجات وحماس وذكاء الحياة فيه».

«.. لقد كان الله في كل التاريخ جهازاً ممتازاً أريد به أن يبرد فينا توقد واحتجاج اشمئزازنا العقلي والأخلاقي والنفسي والديني والمذهبي من الذباب من انتصار الذباب علينا. لقد أريد من الإله وبالإله أن يحمي الذباب من غضبنا واشمئزازنا ومن صراخنا استفظاعاً لانتصار الذباب على عبقريتنا وعلى مجدنا وكبريائنا ونظافتنا. لقد أريد من الإله وبالإله أن يحمينا من الغضب والاشمئزاز حينما نجد مجد الذباب قد تفوق على مجدنا ونجد بذاءته قد انتصرت على ذكائنا ونخوتنا وغرورنا وتقوانا وعلى صلواتنا وإيماننا وطهارتنا. لقد كان الذباب دائماً منتصراً علينا فكيف نخفي هذه الهزيمة أو هذا العار أو هذا الاذلال عن أنفسنا وعما ندعيه لأنفسنا من شجاعة ومن إيمان بالطهارة؟ لقد أردنا أن يكون الله هو جهاز الاخفاء. لقد جاء الإله ليكون قتلاً لعيوننا ولكل مشاعر النخوة فينا. لقد جاء الإله ليكون غطاء للذباب ولكل الحشرات لئلا نراها. إن رؤيتنا للذباب لا بد أن تتحول إلى رفض لصلاتنا ولإيماننا ولتحديقنا في أطفالنا وفي المرآة حامدين للمبدع الأعظم. إن الإيمان بالله يحمي عيوننا ومشاعرنا من الرؤية للذباب ومن الغضب والرفض له.. لقد آمنا بالإله لنحتمي به ثم لكي نحتمي منه تصورناه خامداً بطيئاً ساذجاً مخدوعاً يتقبل الرشوة والتوبة والاعتذار والصلاة والدعاء والامتداح جاعلاً الثمن أن يعفو ويغفر ويرضى ويجزي...».

م د ك

إن منطق الإنسان لا يكون خارج الكون، إنه لا يكون شيئاً غير فهم الكون والأشياء وتفسيرها. إنه لا يوجد منطق أو تفكير خارج الكون، كما لا يوجد خطأ ولا صواب خارج الكون. إن المنطق والتفكير هما أخلاق الأشياء وقوانينها، محولة إلى تفاسير وصيغ عقلية وإنسانية. إن التفكير أو المنطق المصيب هو الذي يستطيع فهم الكون وتفسيره بلا خطأ أو عجز، وإن المنطق أو التفكير الخاطىء هو الذي يعجز عن هذا الفهم وعن هذا التفسير. إن الكون هو كل المنطق وكل الخطأ والصواب.

لقد كان الكون دائماً أكبر من عقل الإنسان، أي كانت أخلاق الكون وقوانينه دائماً أكبر وأبعد من منطق الإنسان ومن قدرته على التفكير والتفسير. كان الكون دائماً عدواناً على الإنسان وتعذيباً له، لأنه كان يفرض نفسه عليه أي على منطقه وتفكيره وحياته بقسوة وبلا عدل. كان الكون دائماً يفرض على منطق الإنسان مواجهة هي أكبر وأوسع منه كثيراً. وكان مفروضاً عليه معاناة هذه المواجهة وتقبلها، بل ومعايشتها، بل وتحديها، بل والتفوق عليها.

لهذا لم يكن من الممكن حتى اليوم أن يستطيع التفكير الإنساني تصحيح نفسه. كان تصحيحه لنفسه شيئاً فوق الاحتمال. إن تصحيح المنطق أو التفكير الإنساني لنفسه يعني أن يعي وأن يفسر بلا أي خطأ أو عجز كل أخلاق وقوانين واحتمالات كل الكون والأشياء، بكل ماضيها وحاضرها ومستقبلها وبكل إمكاناتها وأساليبها وصيغها ودروبها، وبكل لغاتها ونصوصها وطبعاتها. إذن لقد كان محكوماً على المنطق الإنساني بالعجز والخطأ لأنه قد حكم عليه بمواجهة ما لا يستطيع التكافؤ معه وما لا يستطيع الهرب منه، أو الكف عنه.

وهل ذنب أو تقصير في التفكير الإنساني أن يكون عاجزاً عن تصحيح نفسه، أي أن يكون عاجزاً عن فهم وتفسير كل أخلاق وقوانين كل الطبيعة، بكل احتمالاتها وإمكاناتها، وبكل أساليبها وصيغها ولغاتها ونصوصها وطبعاتها وتعبيراتها، وبكل ماضيها وحاضرها ومستقبلها؟ وهل يمكن أن يستطيع

كل ذلك في يوم مقبل؟ إنه لا شاهد لمنطقك بأنه خطأ أو صواب سوى الكون. إن الكون هو خصم منطقك وحكمه.

إن التفكير الإنساني لم يستطع على مستوى عالمي أن يتسامى إلى أن يعرف بأن الحياة ليست إلا حركة تحكمها وتوجهها وتصوغ أخلاقها ومنطقها الحاجة، وان الكون ليس إلا حرية تقيدها وتضبطها وتوزعها الضرورة الذاتية. إن التفكير الإنساني لم يستطع أن يتسامى إلى أن يعرف على مستوى عالمي أن الكون ليس إلا حرية فاقدة للحرية.

إن من التفكير الإنساني تفكيراً يؤله الكون والحياة. إنه يرى كل شيء إلهاً، أو يرى في كل شيء إلهاً، يرى في كل شيء منطق إله، وتعبير إله، وإرادة إله، وأخلاق إله، وشرف ورحمة وحب وضمير إله. إنه يرى، في كل شيء إلهاً قد جاء في صورة أخرى، قد تجسد شيئاً أو تجسد في شيء. إن كل الأشياء هي الله قد جاء في صيغ شتى، وإن الله في كل صيغه وتفاسيره وأخلاقه وذكائه ونظافته ومستوياته هو الأشياء متصوراً بصور أخرى.

إن كل شيء مدبر ومخطط ومراد وموضوع. حتى النظم الاجتماعية والاقتصادية والمذهبية، وحتى الأخلاق، وحتى الآلام والأمراض والعاهات والتشوهات وكل النقائص، وحتى الجراح في وجه القمر - حتى كل هذه منزلة ومدبرة ومخططة ومرادة وموضوعة. حتى بلاهة الشمس وكبرياؤها البليدة مدبرة ومحسوبة وموضوعة بحسابات وموهبة إله، حتى أحقر وأفجر طاغية.

إذن هي خالدة وذكية وجميلة وطيبة لأنها هي الإله في كل مستوياته وأساليبه وصوره، وفي كل ذكائه ومشيئته وطموحه وكبريائه، إنها هي الله في كل أمجاده. إنها هي عيناه ومرآته وشعره وموسيقاه وفنونه وحبه ونظافته ورحمته وبره وسخاؤه..

والكون المحيط بنا والبعيد جداً عنا، إنه مدبر تدبيراً نهائياً، وإنه مصوغ ومصبوب في نماذج ومستويات، وفي صور وأخلاق هي كل النظام والحكمة والحب والبراعة التي لا يمكن أن يتصور أو أن يكون ما هو أذكى أو أقوى أو أفضل منها.

إننا بهذا التفكير أو بهذا الاعتقاد نتحول إلى مناقضة وإلى هجاء واتهام وتحقير للإله ولمنطقه وعمله وأخلاقه، أي كلما فكرنا أو تصرفنا أو غضبنا من شيء أو لعنا شيئاً أو رفضنا شيئاً أو نقدنا شيئاً. لأن كل ذلك لن يكون حينئذٍ إلا خروجاً على الإله واحتجاجاً عليه، ولن يكون كذلك إلا محاولة لتصحيح سلوكه أو منطقه أو نياته. إنه لن يكون إلا أسلوباً من أساليب التخطئة للإله. لهذا لا بد أن نرى في فساد الكون والحياة وفي غبائهما ومظالمهما وفي جميع تشوهاتهما وعاهاتهما منطقاً لا أسمى ولا أذكى منه، كما لا بد أن نرى أيضاً في ذلك حكمة مقصودة يعبد الله ويمجد بالرضا والحديث عنها وبالشكر لها وعليها. أي لئلا نكون مخطئين للإله. إن تصحيح عملك أو نقضه لأكثر تخطئة واتهاماً لك من تخطئتك واتهامك ونقدك بالكلام. إذن فالذين يصححون أو ينقضون ما فعل الإله هم

أكثر نقداً واتهاماً له من الذين ينقدونه أو يتهمونه بالكلام. إنهم يخطئون الإله بأعنف أساليب التخطئة.

إننا لو كنا نسير على أي منطق والتزمنا بهذا المنطق وحافظنا على التلاؤم معه لكان محتوماً ألا نفعل وألا نغير شيئاً في هذا الكون، بل وألا ننقد شيئاً..

لقد كان محتوماً حينئذٍ ألا نقتل ذبابة، وألا نقاوم أو نكره مرضاً، وألا نربط بحراً ببحر، وألا نغير مجرى نهر، وألا نحول صحراء أو أرضاً ميتة إلى أرض حية. لأن كل ذلك، أي مجيء الذباب، والفصل بين البحرين، والمجرى القديم للنهر، وجفاف وموت الصحراء والأرض، إنما كان ودبر كله بمنطق وحكمة وأخلاقية إله. فتغييره، بل التدخل فيه بأي أسلوب لن يكون حينئذٍ إلا اعتداء على الإله، وإلا تحقيراً وتجهيلاً له بكل الأساليب والمستويات واللغات والتعبيرات.

وإنه لواجب حينئذٍ أن نرى أكفر الناس وأكثرهم عدواناً على الله هم الأذكياء والمبدعون اللذين هم أقدر الناس على أن يغيروا وينقضوا عمل الله، وعلى أن يحتجوا بشتى الأساليب على منطقه المبثوث في هذا الكون بمنطقهم المقاوم والرافض له. إن الإنسان حينئذٍ لا بد أن يكون معتدياً على الإله وخارجاً عليه ومحقراً له بقدر ما يكون مبدعاً وقوياً وعبقرياً. إن العلماء والأطباء والمهندسين لا بد أن يكونوا حينئذٍ هم أفظع من يعتدون على الإله وأفظع من يحقرونه ويفضحونه ويغيظونه.

إن من قتل ذبابة فقد قتل الله، أي فقد قتل أحد معانيه، بل فقد قتل الله في صورة أخرى، أي فقد قتل الله متجسداً في ذبابة. إن الذبابة بهذا المنطق جزء من التركيب أو من التصميم العقلي والأخلاقي والفني لذات الإله. بل إن الذبابة هي الله قد ظهر في صورة ذبابة. إن الذبابة هي أخلاق الله وعبقريته وكل مواهبه ومستوياته قد عرضت في ذات وأخلاق ومستوى ذبابة.

إن التفكير المؤمن يرى أن الحشرات ليست سوى عبقرية الإله وأخلاقه قد جاءت بأقوى وأذكى وأنظف وأرحم أساليبها.

لهذا كان تصميم الذات الإلهية ـ تصميمها الأخلاقي والمنطقي والنفسي والفني موجباً لخلق الذبابة، وملتزماً بخلقها. إذن فقتل الذبابة قتل لهذه الذات، أي للذات الإلهية.

إنه لو كانت ذات الإله الموجودة كاملة ومعقولة ومفهومة وجميلة بدون الذباب لما خلق الذباب. ولو أنها أي ذات الإله كانت غير موجودة أو غير حكيمة أو غير كاملة أو غير جميلة بدون الذباب لكان قتله أو رفضه أو الاشمئزاز منه أو استقباحه قتلاً لها أي لذات الإله ولكمالها وجمالها وحكمتها، ورفضاً لها، واستقباحاً واشمئزازاً منها.

إن قتل الذباب حينئذٍ قتل لذات الإله، قتل لكل بنائها المنطقي والأخلاقي والنفسي والفني. إنه لأعظم جنون وسفه أن يوجد الذباب إن كان الله أو الكون جميلاً أو كاملاً بدون الذباب، وإنه لأعظم عدوان وزندقة أن يقتل الذباب أو يموت إن لم يكن الله أو الكون جميلاً أو كاملاً إلا به.

إن الأسئلة لا بد أن تتهاوى علينا ومن حولنا هكذا، بل وبكل أسلوب آخر...

إن كان الإله معقولاً وكاملاً وراضياً عن نفسه وعن فنه ومجده وطموحه بدون الذباب فلماذا خلقه، وإن لم يكن ممكناً أن يكون معقولاً وكاملاً وراضياً عن عبقريته وعن وجوده إلا بأن يكون الذباب موجوداً، فلماذا إذن نقتله. إن قتله حينئذٍ قتل لكون الإله معقولاً وكاملاً وراضياً عن نفسه. إن قتل الذباب حينئذٍ قتل لكون الإله معقولاً، ولكونه عاقلاً، وقتل لافتراضه معقولاً أو عاقلاً. إن قتل الذباب حينئذٍ أضخم عدوان على الله وعلى عبقريته وعلى نظافته وعلى حبه للبشر.

هذا حينما نفترض الله هو خالق الذباب وخالقاً لكل شيء.

أما إذا لم يكن الله هو خالق الذباب، أي بأن يكون الذباب قد خلق بلا تدبير، أي أنه قد جاء مثل خراج نبت في وجه الكون أو في أخلاقه وفي ذكائه، وكتعبير عن خلل أو فساد أو مرض أصاب إحدى غدد الطبيعة، فأفرزته إفرازاً مرضياً ـ وهل توجد احتمالات أو افتراضات لمجيء الذباب غير هذين الرأيين: الذباب كمال وجمال للإله أو خراج وعاهة في وجه الكون.

نعم، أما إذا لم يكن الله هو الذي خلق الذباب وإنما ولدته الطبيعة كتشوه من تشوهاتها فإن غير الذباب كالإنسان وكالأشياء كلها يصبح حينئذٍ مثل الذباب، قد خلق بلا تدبير. إذن فالإله غير موجود أو فالذباب كمال فيه وجمال له. وحينئذٍ يصبح قتله أي قتل الذباب تشويهاً لجمال الإله والكمال..

إنه إذا كان ممكناً أن يوجد أي شيء بلا خالق كان ممكناً أن توجد كل الأشياء كذلك بلا خالق، إن القانون أو الخلل الذي يخلق الذباب أو يخلق به الذباب يستطيع أن يخلق الإنسان أو أن يخلق به الإنسان، وأن يخلق به كل شيء، أو أن يخلق كل شيء. إن المنطق الذي خلق الذباب أو خلق به الذباب هو المنطق الذي خلق الإنسان أو خلق به الإنسان، وخلق به كل شيء.

إنه إذا كان الإنسان قد خلق بمنطق أعلى فإن الذباب قد خلق حتماً بذلك المنطق الأعلى. إن الفرق بين الإنسان والذباب ليس فرقاً منطقياً، أو ليس فرقاً بين خالق وخالق، أو ليس فرقاً في منطق الخالق أو في مستويات منطقه. وإنه لا توجد فروق في الحوافز الأخلاقية التي أوجدت الذباب وأوجدت الإنسان، أي لو افترض أنه توجد حوافز أخلاقية من وراء إيجاد الأشياء. إنه لو كان ممكناً أن توجد هباءة واحدة بلا منطق أو بلا حوافز أخلاقية أو بلا خالق لكان ممكناً بنفس النسبة أن يوجد كل الكون كذلك. إنه إذا لم يكن هناك منطق لوجود الخراج في وجهك فلن يكون هناك منطق لوجود وجهك.

إنه لا بد من أحد افتراضين: أما أن كل شيء بتدبير، أو لا شيء بتدبير. إنه لو كان كل شيء بتدبير لكانت القضية قضية جنون وسقوط أخلاقي وعقلي ونفسي وفني لا قرار ولا شبيه له. ولكن لو أن كل الأشياء كانت بلا تدبير فإن القضية حينئذٍ تصبح قضية آلية وعشوائية لا يمكن تفسيرها ولا

الحكم عليها ـ لا يمكن تفسيرها ولا الحكم عليها بأنها جنون ولا بأنها عقل، ولا بأنها أخلاقية، ولا بأنها خروج على كل أساليب الأخلاقية. إنها حينئذٍ قد تكون مغفورة لأنها لا يمكن أن تكون مسؤولة. إنه لن يوجد حينئذٍ من ينقد أو يحاكم أو من يوجه إليه الغضب أو الاشمئزاز أو الاتهام.

إن القضية حينئذٍ عملية لا يمكن الحكم عليها ولا تفسيرها إلا بأنها هي ذاتها فقط. إنها ليست تعبيراً عن أي منطق ولا عن أية قضية أو موقف أو احتياج.

إن الحياة والوجود وكل الأشياء تستطيع أن تكون معقولة أو مقبولة أو مفهومة أو مفسرة أو مغفورة أو معتذراً عنها بدون إله أكثر من أن تكون كذلك مع وجود إله.

إن وجود الإله يعني أن أي شيء لا يمكن فهمه ولا الصفح عنه ولا التفسير له ولا الاقتناع به. إن الأشياء، إن كل الأشياء يمكن فهمها كعاهات وذنوب وأخطاء طبيعية أو كتشوهات في الطبيعة، ولكن من المستحيل أن يفهم أو أن يقبل أي شيء كأخلاق إله، أو كمنطق إله، أو كعبقرية إله. إننا قد نقبل الذباب كعاهة في وجه الطبيعة، ولكن هل يمكن أن نقبله كإله قد جاء في جسد ذباب؟

إن الإيمان بأن الكون من تدبير إله لا يعني إلا الإيمان بأن الذباب إله قد جاء في صورة ذباب. إن المؤمن الذي يقتل الذباب أو يهشه أو يحقره أو يسبه إنما هو إنسان يقتل الإله ويهشه ويحقره ويسبه.

* *

إن الإيمان بالكون المحكوم بالضرورة، وبالإنسانية المحكومة بالحاجة والضرورة هو المنطق السلوكي وأحياناً السلوكي والعقلي لكل حضارة. إن المنطق السلوكي ليس حتماً ملتزماً بالمنطق العقلي. إن صواب المنطق السلوكي لكي نكون ونحيا ونتقدم ونسعد هو المحتوم دون صواب المنطق العقلي.

إن الكون ليس صديقاً لنا يقصدنا بالخير والإحسان والمحبة، ويذرف الدموع حزيناً لآلامنا ومخاصماتنا وتفاهاتنا وهمومنا ولغباواتنا وموتنا. وإنه كذلك ليس عدواً لنا يقصدنا بالشر والإيذاء والسوء والبغضاء، ويرقص سروراً لما يصيبنا به ولما نصيب به أنفسنا من حماقات ومظالم وهوان وتشويه وعار. ليته كان لنا صديقاً أو كانَ لنا عدواً، أو كان لنا صديقاً وعدواً. أليس ذلك أفضل من أن نكون بلا أصدقاء وبلا أعداء؟ أليس الأفضل أن يوجد من نثير رضاه وسخطه، وحبه وخوفه؟ إن الكون غافل عنا منقاد لضروراته العقيمة العشوائية. إنه لا يريد لنا ولا يريد ضدنا. إنه لايفهم لغاتنا ولا احتياجاتنا ولا منطقنا. إنه لا يسمعنا ولا يفهمنا ولا يرانا ولا يبحث عنا. إنه لا يقرأ عنا ولا يقرؤنا ولا يقرأ لنا. إنه لا يبعث إلينا بالأنبياء والمعلمين، وفي أفواههم وأيديهم وقلوبهم وأحزانهم ومجاعاتهم الكتب والتعاليم والغضب واللعنات.

إن الكون لا يلد الأنبياء والمعلمين والكتب المنزلة. إنه لا يشيد المنابر والمحاريب. إنه لا يتكلم اللعنات والتهديدات باسم الآلهة والأنبياء وباسم التدين والتقوى والغضب للآلهة.

إن نضال الإنسان الدائم أن يقاوم الكون ويرفضه بأسلوبه هو ليكون بأسلوب الإنسان. إنه لا يوجد في أحشاء الكون أي جنين مغاير، أي جنين من نوع آخر.

إنه لا يوجد في أحشاء الكون أي إله ولا أية صفات لإله. إن أحشاء الكون وأخلاقه لا تحبل بالآلهة. إن الكون في كل تاريخه لم يلد إلهاً واحداً. إن الإنسان هو وحده والد الآلهة وواهبها كل أخلاقها وشراساتها وذنوبها وعاهاتها. لقد تعلمت الآلهة صفاتها وألوهيتها من الإنسان.

إن الإنسان هو والد الآلهة. إنه ليس ابن الآلهة، إنه والد الآلهة ومولدها وحاضنها ومعلمها وواهبها ومعاقبها وعاصيها.

إن كل نضال الإنسان أن يقاوم الآلهة التي لم يلدها الكون والتي ولدها هو.

إن كل نضال الإنسان أن يفرغ الكون من الآلهة التي ولدها هو في الكون، لكي يستطيع أن يسخر الكون الذي فرغه من كل الآلهة لاحتياجاته وضروراته ولطموحه، دون أن يخشاه أو يقدسه أو يجد فيه معنى أذكى أو أنبل أو أكبر منه، ودون أن يرى فيه تفسيراً أكثر أو أعمق من كونه كتلة أو جثة ضخمة غبية، أو لا ذكية ولا غبية، لأنها لا تعني شيئاً، ولأنه ليس لها أي تفسير ولا يمكن الحكم عليها بأي شيء.

إن تفسيرنا للكون وحكمنا عليه لا يعني إلا أن نفسر أنفسنا ونحكم عليها. أما الكون نفسه فإنه لا يمكن الحكم عليه ولا تفسيره لأنه لا معنى له سوى مجرد وجوده.

أجل، إن الكون صامت، لا يحاورنا ولا يفهمنا ولا يسمعنا ولا يرانا ولا يغضب لنا أو علينا. وما أفظع هذا. ما أفظع أن تكون كل مواجهاتنا صمتاً وبلادة وعجزاً عن التخاطب والتفاهم والمحاورة وصدوداً شاملاً.

إنه يوجد خطآن كبيران قامت عليه أخطاء هؤلاء الذين يتعصبون بجنون وبلا وقار أو ذكاء لكل ما لديهم أو لكل ما انتقل إليهم من مذاهب ونظم وسلوك وأفكار ومعتقدات، ومن أرباب ومعلمين، ومن صيغ ومستويات للحياة، ومن محاريب وصلوات ونماذج للهوان والعبودية التي يمارسون، أو التي تمارس فيهم وضدهم. وهل الناس يمارسون عقائدهم ومذاهبهم وأربابهم أم تمارس ضدهم، أم تمارسهم؟

أحد الخطئين الاقتناع بأزلية وأبدية كل ذلك. إذن فكل من يحاول الخروج على شيء منه، أو يحاول مخالفته، أو تغييره، أو لا يتعصب له كما يتعصبون، أو يشك في أزليته أو أبديته، فهو زنديق دينياً أو وطنياً أو قومياً أو مذهبياً أو أخلاقياً، يجب أن يموت غير شهيد. إن جميع الناس يجب أن يموتوا غير شهداء في حكم بعضهم على بعض، في رأي كل فريق في الفريق الآخر..

إنهم لهذا يشبون الحروب والبغضاء، بابتهاج ديني وعقلي وأخلاقي وإنساني وحضاري، على كل من يرى غير ما يرون، على كل من ورث غير ما ورثوا، من الآلهة أو الأنبياء أو المذاهب أو الأديان أو

التاريخ أو من المسلمات الأخرى. كيف تورث الآلهة والأنبياء والأديان والمذاهب؟ كم هو قبيح ومهين أن تورث؟ كيف ترضى الآلهة والأنبياء والأديان والمذاهب الموروثة عن نفسها؟ كيف تورث السماء؟ كيف يورث سكان السماء؟

لقد نصبوا فوق قمة هذا الخطأ راية عصيانهم وبداوتهم وتعصبهم وتخلفهم المثير. لقد تحولوا بهذا إلى أعداء للإنسان المخالف لهم، الذي لم يولد في الظروف التي فيها ولدوا، أو الذي لم يلقن ما لقنوا، أو الذي استعبد بأسلوب مخالف للأسلوب الذي به استعبدوا، أو الذي لم يستعبد مثلما استعبدوا، أو الذي لا يصلي في المحاريب التي فيها يصلون، للآلهة التي لها يصلون. إنهم يعادون المخالف لهم لأن ذكاءه وكبرياءه قد صلبا في محاريب غير المحاريب التي صلب فيها ذكاؤهم وكبرياؤهم هم. إنهم يعادون ويبغضون من فرضت عليه أوثان غير أوثانهم.

لقد انشطروا عن الإنسان المخالف لهم. إنهم لا يلقونه أو يتعاملون معه أو ينظرون إليه أو يفكرون فيه إلا بالعداوة والازدراء والبغضاء. إنهم لهذا لا يستطيعون أن يأخذوا عنه شيئاً من مزاياه أو من تفوقه، بل إنهم لا يستطيعون أن يروا مزاياه أو تفوقه، بل لا يستطيعون أن يفترضوا فيه أية مزايا أو أي تفوق. هل أنت ممن يقرأون الخصوم أو المخالفين لأنه قد توجد فيهم أية مزية ولأن تسامحك قد يأذن لك بتعلم هذه المزية أو برؤيتها؟ هل تعرف من يفعلون مثل ذلك أو من يغفرون لفاعله؟

إنهم إذا أخذوا عنه، أو وجدوا أو رأوا فيه أو له، أو توافقوا معه فبإلحاح الضرورة وحتمها وخداعها وبإملائها الذي لا يستطاع الانتصار عليه مهما أريد الانتصار عليه. إنهم لا يفعلون ذلك اعترافاً له أي للمخالف لهم بمزية أو بتفوق أو بموهبة، ولا اعترافاً له بحق المخالفة لهم بمثل ما لهم من حق المخالفة له.

هل تعرف في الناس من ليسوا كذلك؟ هل هم كثيرون؟ هل تتعامل معهم، هل التعامل معهم شيء رائع؟

إن الأزلية والأبدية في التفكير والاعتقاد والسلوك تتحول إلى همجية وتخلف وتعصب وجه وعدوان وبغضاء. إنها تقاوم التقدم والحب والتسامح. إنها تمنع الرؤية والفهم، وتقاوم الاستجا للظروف، وترفض النظر إلى الأسباب المختلفة التي تجعل الناس يختلفون دون أن يكونوا عصاة أو ضالين أو أغبياء أو أعداء، أو مخلوقين للجحيم،أو طعاماً ممتازاً لغضب الأرباب ولبغضائها، أو لسباب الأنبياء والمعلمين القادمين من أعماق البداوة الجائعة إلى السباب وإلى البغضاء.

وأما الخطأ الثاني فهو عجزهم عن تصور الإنسانية المشاعة. إنهم لا يؤمنون بالعدالة في الاختيار والكينونة. إنهم يرفضون الإيمان بالمساواة بين البشر. إنهم يرفضون أن يكون لعيون البشر أو لعقولهم أو لغبائهم أو لذكائهم أو لضعفهم أو لأهوائهم أو لظروفهم حقوق متساوية.

إنهم يهبون غباءهم من الحقوق ما لا يهبون ذكاء الآخرين أو غباء الآخرين مثله أو شيئاً منه. إنهم يرفضون أن تكون هناك عدالة أو مساواة بين الناس في تفكيرهم وعقائدهم ومذاهبهم، أو في

خضوعهم لأفكارهم ولعقائدهم ومذاهبهم، أو في تفسيرهم لأربابهم وأنبيائهم ومعلميهم أو في خوفهم منهم أو في تصورهم لهم ولنماذجهم وذواتهم وأخلاقهم.

إنهم لا يؤمنون بالمساواة بين ضعف الناس وهوانهم وغبائهم. إنهم لا يرون لضعف الآخرين ولهوانهم وغبائهم مثل الذي لضعفهم ولهوانهم ولغبائهم هم من المجد والتفوق والخلود. إن كل فريق لا بد أن يفترض أن غباءه قائد كل غباء بل قائد كل ذكاء. إن غباءه هو القائد العالمي الخالد.

ولأنهم كذلك فإنهم لا يحترمون ضعف أو غباء أو سقوط أو هوان أو هزائم أو ظروف أو أفكار أو مذاهب أو آلهة أو حريات الآخرين مثلما يحترمون ضعفهم هم وغباءهم وسقوطهم وهوانهم وهزائمهم وظروفهم وأفكارهم ومذاهبهم وآلهتهم وحرياتهم.

إنهم لا يرون للآخرين أية حرية ولا أية حقوق. إن كل الحقوق والحريات لهم وحدهم ولأربابهم وأنبيائهم وأديانهم ومذاهبهم ومواقفهم وأهوائهم. إن لأربابهم وأنبيائهم وأديانهم ومذاهبهم ومواقفهم وأهوائهم كل الحق وكل الحرية في أن تكون دميمة ومتوقحة وبليدة ومنتصرة وصارخة وعدوانية ومقاتلة. ولكن ليس شيء من ذلك لآلهة الآخرين أو لأنبيائهم أو لأديانهم أو لمذاهبهم أو لمواقفهم أو لشهواتهم. إن كل المجد لغبائهم وهوانهم هم، أما هوان الآخرين وغباؤهم فلا شيء من المجد لهما. إن كل النظافة لتلوثهم هم، وإن كل التلوث لصلاة الآخرين. إن كل الشرف لأوثانهم هم، أما أوثان الآخرين فلها كل العار.

إن البشر أو العبيد كما يقول تعبيرهم المتدين أمام حقائق جاهزة أزلية أبدية منزلة مطلقة مقدسة مصنوعة بعيداً، بعيداً، تؤخذ بالتلقين والإيمان والأوامر، تؤخذ من الكتب والنصوص والمحاريب ومن فوق المنابر، وتلقى من فوق النجوم. إنها حقائق تسقط على الناس كما تسقط عليهم النيازك والشهب.

إن البشر ليسوا أمام معاناة بشرية، ليسوا أمام تجارب وأفكار وممارسات تدرك وتواجه بالمصادفات والضرورات وبالخوف والجوع والعجز والأنانية والهوى وبمصادقة الشيطان واتباعه، وبالدأب بالباهظ المفروض بلا خيار أو شروط أو ملاءمة، وبالسير في طريق لم تفتحه أو تخططه أو تسر فيه أو تدل عليه أو تحرسه الآلهة البدوية التي لا تتحضر إلا إذا ماتت، إلا إذا صلبها عبيدها الأتقياء.

نعم، إن كل الآلهة لا تتحضر إلا إذا ماتت. لأن الإله المتحضر لا يمكن أن يعيش بل ولا أن يوجد. إنه لا يولد إله متحضر. إن كل الآلهة تولد بدوية غير متحضرة. ولأنهم عاجزون عن تصور أو إدراك معنى الإنسانية المتساوية، ذات الحقوق المتساوية في حق الكينونة والاختيار، وفي حق الاقتناع بالخطأ والصواب، وفي حق الممارسة للضعف والغباء والأكاذيب والنذالات، فإنهم لا يأذنون لغيرهم، أي لمخالفيهم وخصومهم، أن يروا أو يعتقدوا أو يرفضوا أو ينقدوا أو يؤمنوا، أو أن يجدوا في آلهتهم ومعلميهم وفي أديانهم ومذاهبهم مثلما يجدون هم في آلهتهم ومعلميهم وفي أديانهم ومذاهبهم في

كل سخافاتهم وحماقاتهم. إنهم لا يأذنون للآخرين أن يجهلوا أو يسخفوا مثلما يأذنون لأنفسهم، أو ببعض ما يأذنون به لأنفسهم.

إنه لا احتمال لأن يكونوا هم مخطئين أو غير مهذبين، ولا احتمال لأن يكون المخالفون أو الخصوم لهم مصيبين أو مهذبين. إن الحق والذكاء دائماً منحازان إليهم، وإن الباطل والغباء منحازان دائماً إلى مخالفيهم وخصومهم. إن الله لا يوزع نفسه بعدل. إنه دائماً يهب كل ذاته وأهوائه لفريق واحد، أو لأحد فريقين، أو لفريق واحد دون كل البشر. إن الله موحد في حبه بقدر ما يريد أن يكون معبوداً وحده إنه لا يستطيع أن يوزع أهواءه كما يرفض أن توزع الأهواء بينه وبين أي ند أو كائن آخر.

إن الله لا يستطيع أن يعيش في مكانين أو أن يصادق فريقين في وقت واحد. إن الله وحداني الهوى والتعامل والاهتمام بقدر ما هو وحداني الذات.

إن الحق والصدق كذلك وحدانيان مثل الإله. إنهما أي الحق والصدق لا يكونان في مذهبين أو دينين أو نظامين أو إلهين أو معلمين في وقت واحد. إنهما دائماً في مكان واحد.

إن الصدق والحق لا بد أن يكونا في مذهب أو دين أو نظام واحد، ولدى إله أو معلم واحد. إنهما لا يتوزعان بعدل وصداقة بين جميع المذاهب والأديان والآلهة والمعلمين. إنهما لا يتوزعان حتى ولا بدون عدل وحتى بدون مساواة في الصداقة والحب.

ولكن كيف حدث ذلك؟ كيف ولدت هذه الغفلة الحزينة في عقل أو ضمير إنسان ما؟ كيف تعلمها الناس؟ كيف علمها المعلمون وعلمتها الآلهة للناس؟ كيف وجد من يتصورها أو ينطق بها أو يؤمن بها أو يتعامل عليها؟ هل هذا أعلى مستويات الجنون والغباء أم أعلى مستويات البذاءة والوقاحة؟ كيف تستطيع النجوم أن تحدق في البشر أو أن تعود إليهم مرة أخرى؟ كيف لا تقتلها رؤية عارهم؟

كيف لم يوجد من يتساءلون أو يتناهون عن هذه الغفلة المهينة؟ حتى التساؤل، إنهم لا يتساءلون عن هذه الغفلة المهينة التي يعيشها جميع البشر في كل مستوياتهم.

كيف استطاع البشر أن يبتلعوا هذه الغفلة بعقولهم أو أخلاقهم دون أن يموتوا غصصاً؟ كيف لا تغص عقولهم أو أخلاقهم بأية بلاهة ولا بأي هوان؟

كيف لم يدروا أو يتساءلوا: لماذا كانت آلهتهم وأنبياؤهم وكتبهم ومذاهبهم ونظمهم وأديانهم الموروثة أو الملفقة أو المفروضة أو المجلوبة هي العدل والحق والذكاء والصدق والخلود والمنطق دون آلهة وأنبياء وأديان ومذاهب ونظم وكتب المخالفين أو الأعداء الموروثة أو الملقنة أو المفروضة أو المجلوبة أيضاً؟ كيف لا يدركون ما في هذا من السخف والنزق والظلم ومن الضآلة العقلية والنفسية؟ كيف استطاع البشر جميعاً أن يمارسوا كل هذا العار في كل تاريخهم، في كل مجتمعاتهم؟

ما أقدر البشر على تقبل أنفسهم، على تقبل عارهم وعاهاتهم..

ما أكرم البشر في غفرانهم لأنفسهم وفي إغضائهم عن عاهاتهم وذنوبها؟ ما أكرمهم في محاباتهم

لصغائرهم؟ ما أكذب عيون البشر حينما يرون بها تشوهاتهم؟ ما أقوى البشر في حملهم للعار. ما أقوى شهيتهم العقلية والأخلاقية على التغذي بالتفاهات والأكاذيب.

هل تقبل آلهة أي مجتمع، أو تقبل أديانه أو أنبياؤه أو كتبه أو مذاهبه أن يزعم لها أو أن تزعم هي لنفسها بأنها هي وحدها الصدق والحق والعدل والذكاء دون كل الآلهة والأنبياء والمذاهب والأديان والكتب، أو أكثر من كل الآلهة والأنبياء والمذاهب والأديان والكتب الأخرى المساوية لها في نسبها وولادتها وفي تخلقها وتسلطها وتنقلها وفي فرضها وتوريثها بالقهر والتلقين والتعويد والاستمرار وبالجهل بها؟

وحتى لو قبلت ذلك في ضميرها ومنطقها فكيف لا تخفي هذا الذي قبلت، كيف لا تخفيه تأدباً وحياءً؟

إذن أي عار عارها، وأي سخف سخفها، وأي جهل جهلها؟

ولكن لو رفضت فكم يكون غضبها ورفضها واحتقارها وخجلها على اتباعها الذين يزعمون لها ذلك، ولأتباعها، ومن أتباعها، وعلى نفسها، ولنفسها ومن نفسها؟ كم يكون حينئذٍ غضبها ورفضها واحتقارها وخجلها؟

ما أحوج الآلهة والمعلمين والزعماء والقادة والأديان والمذاهب إلى الخجل والغضب والاشمئزاز من نفسها وعلى نفسها، ومن أتباعها وعلى أتباعها؟

ما أحوج المذاهب والأديان والآلهة والمعلمين والزعماء والقادة إلى ما لا يعرفون وما لا يريدون وما لا يستطيعون وما لا يتعلمون؟ ما أحوجهم إلى البكاء على ما يفعلون ويعلمون، وعلى ما يعلم ويفعل بهم وضدهم ولهم؟ ما أحوجهم إلى البكاء على ما يشاهدون؟

إن كل الآلهة والأنبياء والمذاهب والأديان والنظم تعيش ويعيشون هذا الافتضاح، وتتقبله ويتقبلونه، تنادي به وينادون به.

إن جميع الآلهة والأنبياء والأديان والمذاهب هي كل الصدق والحق والعدل والذكاء، وهي أيضاً كل الكذب والباطل والظلم والغباء - إنها كل ذلك في وقت واحد، أي في رأي واقتناع جميع المعتقدين والمتبعين لها، أي في اعتقاد وقول جميع من فرضت عليهم بالارهاب أو بالتلقين أو بالتوريث والاستمرار.

إن هذا الإله أو هذا النبي أو هذا الدين أو هذا المذهب أو هذا النظام هو حق وباطل، صدق وكذب، ذكاء وغباء، عدالة وجور، خلود وزوال، أي في رأي واقتناع المتبعين أو الخاضعين له، وفي رأي واقتناع المتبعين أو الخاضعين لنقيضه.

إن كل دين وكل مذهب وكل نظام وكل إله وكل نبي وكل كتاب منزل هو هكذا، هو كل هذا في وقت واحد - أي هو في وقت واحد، وفي اعتقاد جميع المعتقدين، كل الصدق والكذب والحق

والباطل والعدل والجور والذكاء والغباء. إن كل إله ونبي وقديس ومعلم في العالم أو في التاريخ يستحق الصلب هنا بينما يستحق العبادة هناك. يستحق أن يتحول كل البشر إلى فداء له وإلى أعداء ومقاتلين له.

إذن أيتها النجوم لا تتفجري، لا تتساقطي حزناً أو اشمئزازاً أو غضباً على الإنسان ومن الإنسان. لا تتفجري أو تتساقطي من تحديقك في الإنسان.

إذن أيتها البحار والأنهار لا تموتي أو تجفي اشمئزازاً أو غضْباً أو حزناً على ذكاء الإنسان، وعلى أخلاقه، وعلى احترامه لنفسه.

إذن أيتها الحشرات لا يقتلك الزهو والغرور بذكائك ومجدك وكبريائك أمام غباء الإنسان، وأمام هزائمه وهوانه وضآلته النفسية والأخلاقية والعقلية.

لا تقتلك أيتها الحشرات الكبرياء على الإنسان المسكين المغرور المهزوم، الصاعد بلا شجاعة، والمغتسل بلا طهارة، والمصلي بلا تقوى، والعبقري بلا ذكاء، والمحب بلا صداقة، والمصادق بلا محبة، والمؤمن بلا معرفة أو صفاء.

* *

إن الغباء هو إحدى منح الإنسان العظيمة لنفسه. إنه إحدى منح الطبيعة للإنسان. إنه مجاملة واعتذار من الإنسان إلى نفسه، ومن الطبيعة إلى الإنسان وإلى نفسها.

إن الغباء هو إحدى عبقريات الإنسان التي لا مثيل لها في محاباتها وفي نفعها له.

إن الطبيعة لتذهب دائماً تساعد الإنسان على أن يهب نفسه مزيداً من الغباء. إنها بذلك كأنما تحاول أن تكفر عن قسوتها عليه، وأن تنافقه لكيلا يرى كل دماماتها وتفاهاتها وغبائها.

إنها لتذهب تهبه الغباء بلا حساب وكأنها تريد بذلك أن تفقأ عينيه لئلا يراها أو ليراها رؤية مزورة.

إن الطبيعة لم تمنح للإنسان منحة تقصد بها الثناء على نفسها والاعتذار إلى ضميرها والمساعدة له ـ تقصد بها الإحسان إلى الإنسان والرفق به ومعاونته على أن يستمتع بالتفاهات وبالرضا عن نفسه وعن الأشياء وعن وقاحات الطبيعة وعنْ آلهته ومذاهبه وأديانه وتشوهاته وتفاهاته وآلامه بلا حدود أو قيود أو شروط مثلما فعلت حينما ذهبت تمنحه الغباء بكل سخاء. إننا لن نجد الطبيعة رحيمة ومهذبة وذكية مثلما نجدها كذلك حينما ذهبت تهب الإنسان الغباء بإغداق.

لقد كانت أساليب الطبيعة في قسوتها على الإنسان فظيعة، فظيعة. لقد كانت هذه الأساليب في القسوة بلا أي مستوى من الشفقة أو الشهامة. ولكنها أي الطبيعة كأنما أرادت أن تعتذر وأن تكفر عن قسوتها، أو أن تخفف من هذه القسوة التي لا تفسير لها كأنما أرادت ذلك حينما ذهبت تهبه الغباء بلا حدود أو قيود من الذكاء أو الوقار. كأنها إنما أرادت ذلك حينما ذهبت تمنحه القدرة الخارقة على ابتكار التفاسير الغبية الكئيبة التي يفسر بها نفسه ويفسر بها لنفسه، ويفسر بها الأشياء حوله، ويفسر

بها الأشياء التي تتعامل معه وبه، والتي يتعامل معها وبها، والتي لا يستطيع الهرب منها، ولا الرضا عنها، ولا الاقتناع بها، ولا الغفران لها، ولا الغفران لنفسه لتعامله معها وجوعه إليها وخضوعه لها، لولا هذه التفاسير الغبية الحزينة التي كأنما منحها لتكون تعويضاً وتكفيراً واعتذاراً إليه وعليه وله. لقد كان غباء الإنسان تعويضاً له عن قسوة الطبيعة عليه. إن هذا التفسير لغباء الإنسان أسلوب من أساليب الدفاع عن الطبيعة. فهل يجوز الدفاع عن الطبيعة؟

إذن لقد جاء غباء الإنسان ضخماً، ضخماً. وكأنما جاء غباؤه كذلك ليكون محاولة من محاولاته البحث عن أي مستوى من مستويات العدل لقد جاءت الطبيعة في أعتى مستويات الوحشية في قسوتها على الإنسان، لهذا جاءت في أعلى مستويات السخاء في منحها له الغباء.

لقد جاءت في أعلى مستويات الكرم لأنها قد جاءت في أعتى مستويات القسوة. لقد كان الغباء محاولة للتكفير والتعويض والاعتذار عن القسوة.

فهل كانت الطبيعة بذلك عادلة أو ذكية أو رحيمة أو مكفرة عن نفسها؟

ما أعظم الهول لو أن الطبيعة قد قست على الإنسان كل هذه القسوة دون أن تعتذر إليه بأن تهبه كل هذا الغباء ليكون كالتعويض أو التكفير أو التوبة أو الصلاة أمام الخطيئة العظمى ـ ليكون كالتخفيف من الهول العظيم. ما أعظم الهول لو أن الإنسان واجه نفسه وواجه الطبيعة وواجه كل ممارساته ومواجهاته بكل احتمالات الذكاء والرؤية فيه.

إن الاسراف في منح الغباء لمن يقاسي مثل ظروف الإنسان، ويواجه مثل مواجهاته لهو أشمل وأنبل أساليب التفضل عليه، والرفق به، والتخفيف عنه، والتعويض عن آلامه وورطاته ودماماته.

كيف يستطيع الإنسان أن يتحمل أو يتقبل أو أن يغفر أو أن يواجه، بل أو أن يضحك أو يغني أو يسر أو يعجب بنفسه أو بجوعه أو باحتياجه أو بأي شيء، لولا غباؤه العظيم الذي أعطاه كل هذه التفاسير والمسوغات، والذي أعطاه أيضاً كل هؤلاء الأنبياء والزعماء والوعاظ الباكين في المحاريب وفوق المنابر وفوق الكلمات، والذي أعطاه كذلك جميع هؤلاء الآلهة والمذاهب والاعتقادات، وكل هذا الصبر، وكل هذا الذهول، وكل هذا العجز عن الغضب والاشمئزاز والغثيان والرفض، وكل هذا العجز عن الفهم للدمامات والتفاهات والحقارات، والعجز عن رؤيتها، وكل هذا الهوان؟

لعل الطبيعة لم تجامل البشر بشيء مثلما جاملتهم بما وهبتهم من القدرة على تفسير الأشياء الرديئة تفاسير جميلة ما أعجب وأفظع تاريخ التفاسير في حياة الإنسان. ما أوسع المجد الوبيل الذي شاده الإنسان للتفاسير. ما أعظم ما أعطت التفاسير للإنسان وما أعطى الإنسان للتفاسير. هل كان ممكناً أن يحيا الإنسان وجوده بلا تفاسير؟

لقد وهب الإنسان القدرة بلا حدود على أن يضع لأصغر وأتفه الأشياء أكبر وأعظم التفاسير. لقد وهب قدرة لا حدود لها على أن يفسر ما لا تفسير له بأضخم وأكثر التفاسير.

إن عبقرية الإنسان لم تصعد كل القمة مثلما صعدتها في ابتكارها للتفاسير. إنه لم يكن عبقرياً مثلما كان في صياغة التفاسير.

لقد جاءت موهبة الإنسان على ابتكار التفاسير موهبة فيها كل المحاباة لنفسه وللآلهة وللطبيعة وللأديان والمذاهب والمعلمين ولجميع الأشياء التافهة والشريرة والعقيمة.

ماذا لو أن الإنسان لم يوهب القدرة على أن يفسر الأشياء ويفسر نفسه بنقيض ما يراها ويجدها ويقاسيها ويقرؤها ويعلمها؟

ماذا لو أن الإنسان رأى نفسه ومارسها، ورأى الأشياء ومارسها بلا تفاسير؟

ماذا لو أن الإنسان لم يوهب موهبة التفسير لكل شيء، لكل ما لا تفسير له؟

لقد كانت قدرة الإنسان غير المحدودة وغير المتوقرة على ابتكار التفاسير هي الغطاء الجميل والشامل الذي ستر به عن رؤيته وعن عقله وعن أخلاقه كل ما في وجوده وما في نفسه وما في ممارساته وما في مذاهبه وعقائده وأربابه ومعلميه وما في الطبيعة والحياة والأشياء حوله من قبح وتشوه وتفاهة وعبث وضآلة.. لقد كانت تفاسير الإنسان للأشياء التي لا يمكن أن تكون لها تفاسير هي أنقى وأقوى وأشهر أكاذيبه على نفسه، وأكاذيبه لنفسه. أليس في الأكاذيب تقوى أكثر وأشمل من تقوى الصدق؟

ولكن هل الإنسان يتقبل الأشياء لأنه يستطيع أن يفسرها، أم يفسرها لأنه لا بد أن يتقبلها؟ هل نحن نفسر أنفسنا ونفسر الأشياء ثم نتقبلها، أم نتقبلها ثم نفسرها؟

هل نتقبل لأننا نفسر؟ هل نفسر لأننا نتقبل، أم نحن نتقبل ونفسر، ونفسر ونتقبل، دون أن يكون أحدهما أي التفسير والتقبل نتيجة أو سبباً أو انطلاقاً عن الآخر؟

هل البشر يفسرون الأشياء لأنهم لا بد أن يتقبلوها، أم هم يفسرونها لأنهم يفسرونها أي لأنهم كائنات مفسرة، أي لأنهم كائنات في مستوى التفسير، كائنات لا بد أن تفسر الأشياء وتحاول تفسيرها حتى ولو لم تتقبلها أو تكن محتاجة إليها، حتى ولو لم يكن للتفاسير أي معنى، حتى ولو لم يكن للتفاسير أي تفسير؟

أليس التفسير طوراً أو مستوى إنسانياً وليس احتياجاً إنسانياً؟

أليس الإنسان كائناً مفسراً حتى ولو كانت تفاسيره ضد نفسه وضد احتياجاته وضد تقبله؟

هل الحشرات تتقبل حياتها وذواتها وتتقبل الأشياء لأنها تستطيع تفسيرها أم لأنها تجوع إليها؟ أليس الإنسان في جوعه إلى الأشياء وإلى نفسه وإلى تقبلها مثل الحشرات؟

أليس البشر يتقبلون حياتهم وممارساتهم ويتقبلون الأشياء بجوع الحشرة وتقبلها لا بتفاسير الإنسان ولا بمنطقه؟

أليس الإنسان يأكل وينام ويجوع لأنه يأكل وينام ويجوع لا لأنه يفهم أو يفسر أو يتقبل أو يرضى؟

أليس البشر يسعدون بالأشياء ويبتسمون لها بالأسلوب الذي يسعد ويبتسم به الصرصار للأشياء؟ أليسوا يسعدون ويبتسمون ويتقبلون بأعضائهم لا بموهبة القدرة فيهم على ابتكار التفاسير والأكاذيب والمسوغات وجميع أساليب الاعتذار عن النفس وعن ممارسة التفاهات والحقارات والصغائر؟

هل الناس يسعدون ويتقبلون ويبتسمون للأشياء ولأنفسهم ولممارساتهم الصغيرة لأن لهم مذاهب وأدياناً وأنبياء ومعلمين وزعماء يبتكرون لهم التفاسير والتسويغات والأساليب الاعتذارية غير المتوقرة أو المحدودة، أم هم يسعدون ويتقبلون ويبتسمون لأن لهم أعضاء تجوع وتتغذى وتسعد وتتقبل وتبتسم؟

هل التفاسير والتعاليم التي علمنا إياها أنبياؤنا وكهنة مذاهبنا هي التي جعلتنا نمارس تفاهاتنا وجوعنا بتعبد أم هي أعضاؤنا؟ إن أعضاءنا بلا تفاسير ولا تعاليم هي أقوى من كل أنبيائنا وتعاليمنا بكل ما ابتكروا لنا من تفاسير وتعاليم.

إن هؤلاء الذين يمنحون أنفسهم أعلى مستويات الغباء لا يستطيعون أن يعرفوا بل ولا أن يسألوا: لماذا يريدون أن يلزموا كل الآخرين أو كل المخالفين بأفكارهم ومعتقداتهم ومذاهبهم وبكل ترهاتهم وأهوائهم وضعفهم دون أن يلزموا أنفسهم بما عند الآخرين والمخالفين من ذلك. أية موهبة خارقة جداً أو سخيفة وبذيئة جداً أقنعتهم بأن كل الآخرين أو كل المخالفين أو كل العالم والناس يجب أن يكونوا أتباعاً لهم ورعايا بعقولهم وأخلاقهم ومواقفهم وبكل اقتناعاتهم ورؤاهم للأشياء وحكمهم عليها؟ أية موهبة أقنعتهم بأن أخلاقهم وعقولهم وعقائدهم هي القائدة والمعلمة والزعيمة لكل ما في العالم من أخلاق وعقول وعقائد؟ كيف اقتنعوا بأن إلههم أو نبيهم هو أجمل الآلهة أو الأنبياء؟ أية موهبة أو وقاحة أقنعتهم بأنهم هم المركز الكوني الدائم لكل عيون العالم، ولكل أفكاره وأخلاقه وعواطفه، لكل حماقاته وتفاهاته وبذاءاته وغباواته، ولكل جوعه وضعفه، ولكل مصالحه واحتياجاته وضروراته، كل أربابه ومذاهبه وأديانه وغواياته؟

أية موهبة أو وقاحة يتعامل بها الناس ويعاملون بها أنفسهم ويواجهون بها الأشياء ويفهمون بها الأشياء ويفسرون بها الأشياء؟

أية موهبة أو وقاحة تعيش في عقول الناس، وفي عواطفهم، وفي أخلاقهم، وفي حياتهم، وفي تقويمهم وتفسيرهم لأنفسهم وللآخرين وللأشياء؟

إن جميع الناس مفتضحون في إعجابهم وإيمانهم واقتناعهم وفي انحيازهم لأنفسهم ولتفاهاتهم.

إنهم لا يدرون أنهم مقومون بما فيهم من معاني الإنسان ومن ضروراته وضعفه وجوعه وسخفه، ومن بطولاته ونذالاته، وإن وعاء هذه كلها هم البشر جميعاً.

إنهم ليسوا هم وحدهم الوعاء ـ ليسوا هم وحدهم وعاء الإنسانية كل وعائها، كما أن المخالفين

لهم ليسوا هم وحدهم كل هذا الوعاء. إنك لست وحدك وعاء كل الذكاء والصدق والنظافة، وأن المخالف لك ليس هو وحده وعاء كل الغباء والكذب والتلوث. وحينما تؤمن بأن الأمر كذلك أو تتصرف وكأنك تؤمن بأنه كذلك فكيف يمكن فهمك؟

إن المتحضرين يدركون، أو عليهم أن يدركوا، أو يتوقع منهم أن يدركوا حاجات الإنسان المتساوية أو المتشابهة، وأن يدركوا همومه وظروفه وضروراته وضعفه وحقوقه إدراكاً متساوياً لا انحياز فيه. إنهم لا يتركزون في أنفسهم فقط، وأن عليهم ألا يتركزوا فيها. إنهم يدركون أنه لا يمكن بل ولا ينبغي أن تكون كل العبقرية والنظافة لهم وحدهم، وأن يكون كل الغباء والتلوث لخصومهم أو لمخالفيهم وحدهم.

إنهم حتماً يعيشون ويسكنون في أنفسهم وحدها، ولكنهم من داخل أنفسهم يرون الآخرين والمخالفين، ويفهمونهم، ويشعرون بهم، ويشعرون لهم، ويدركون ويقدرون المعاني والضرورات والتفاهات والظروف الأليمة المشتركة بينهم وبين أولئك الآخرين والمخالفين، ويدركون مساواتهم لهم في الخضوع لها وفي العجز عن الانتصار عليها أو الاستغناء عنها. إنهم يدركون أنه كما لا بد أن يجوع الآخرون وأن يبكوا ويخافوا ويكذبوا وينافقوا فإنهم هم لا بد أن يمارسوا كل ذلك بنفس النسبة والمنطق. إنهم يعرفون الآخرين والمخالفين والخصوم، ويشعرون بهم ولهم، ويتلفتون إليهم، بل ويعايشونهم من داخلهم، بقدر ما يعرفون أنفسهم، وبقدر ما يشعرون بها ويعايشونها وبقدر ما يتلفتون إليها ـ أو لأنهم يفعلون ذلك بأنفسهم ولأنفسهم وإلى أنفسهم.

إنهم يعرفون كل الخصوم والأعداء، ويشعرون بهم ولهم، ويرونهم، ويتلفتون إليهم، ويفسرونهم بإشفاق وحنان واعتذار مثلما يفعلون مع أنفسهم ـ أو أن عليهم أن يفعلوا كل ذلك بمثل هذا المستوى من الشمول والعدل. إن الإنسان هو وحده الكائن الذي يستطيع أن يعيش جميع الآخرين، وجميع الأشياء، وأن يعانيها ويعانيهم، وأن يشاهدها ويشاهدهم من خلال ذاته ومن خلال تعامله مع ذاته.

إن الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يدرك غيره، وأن يراه، وأن يعرف ضروراته وهمومه وآلامه ومشاكله واحتياجاته، وأن يقرأ آهاته وجراحه وبكاءه بلا حروف ولا كلمات مثلما يستطيع أن يدرك وأن يرى وأن يعرف وأن يقرأ كل ذلك في نفسه ومن نفسه، أو لأنه يستطيع أن يدرك ويرى ويقرأ ويعرف كل ذلك في نفسه ومن نفسه.

إن الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يبكي وأن يرى وأن يتألم وأن يرتجف وأن يحزن وأن يشمئز وأن يغضب وأن يجوع وأن يمرض وأن يشيخ وأن يفتضح بعيون الآخرين، بعيون كل الآخرين، وبأعصابهم، وبمشاعرهم، وبأخلاقهم، وبمنطقهم، وبهمومهم، وبآلامهم وبأعضائهم، وبكبريائهم.

إن الإنسان هو وحده الذي يستطيع أو يحتم عليه أن يعاني من فقدان الشرف والحرية لأن كائناً آخر قد فقد ذلك.

إن الإنسان أي في مستواه الأعلى هو وحده الذي يستطيع أن يعيش كل الكون وأن يعيشه كل الكون، أي أحاسيسه ورؤيته وتفكيره وتصوره، وبانتشاره النفسي والأخلاقي. إن الإنسان كائن منتشر، منتشر بمقاساته وبمسراته وبتفاسيره ورؤاه. إنه لا حدود لانتشار الإنسان.

إنه لا كائن سوى الإنسان يستطيع أن يدرك هموم الآخرين وآلامهم ومشاكلهم ومخاوفهم وضروراتهم وجوعهم وأحزانهم وضعفهم وصغائرهم المحتومة بالعمق أو بالمستوى أو بالشمول أو بالإلحاح الذي يدرك به كل ذلك من نفسه وفي نفسه. إنه لا كائن يتعذب بلا حدود سوى الإنسان، لأنه لا كائن يرى ويفهم ويشعر ويتصور ويتخيل وينتشر نفسياً وأخلاقياً بلا حدود غير الإنسان.

إن الإنسان هو وحده الكائن الذي يتعامل مع الأشياء ومع الآخرين بحدود الأشياء وبحدود الآخرين، لا بحدوده هو فقط، أي في نموذجه الأعلى. إنه يتعامل مع الأشياء ومع الآخرين بلا حدود، أي بأبعد وأوسع من حدود الأشياء ومن حدود الآخرين.

إن انتشار الإنسان النفسي والفكري والعاطفي والأخلاقي والتصوري لأوسع وأبعد من كل الوجود ومن كل الموجودين، من كل الحدود الموجودة ومن كل الحدود التي لم توجد.

إن الذين يهينون أفكار المخالفين أو مشاعرهم أو احتياجاتهم، أو همومهم أو غباءهم أو حماقاتهم أو نزقهم، أو ضعفهم أو فضائحهم أو سقوطهم، إنما يهينون كل ذلك في أنفسهم هم، أي إنما يهينون حينئذٍ أنفسهم. أليس الذين يحقرون أو يتهمون من يجوعون أو من يأكلون أو من يخافون أو يحزنون أو يبكون أو يكذبون هم حتماً يحقرون ويتهمون أنفسهم؟

أليس الذي يلعن ضعف الآخرين أو أنانيتهم أو غباءهم أو هوانهم أو سقوطهم أو افتضاحهم إنما هو إنسان يلعن نفسه؟ إنه إنسان يلعن الإنسان في كل معانيه وتفاسيره. يلعن وجود الإنسان ويلعن كل مستوياته ونماذجه وصيغه الموجودة فيه والموجودة في كل خصومه ومخالفيه.. إن خصومه ومخالفيه موجودون فيه بقدر ما هو موجود فيهم.

إنك أنت كل إنسان وإن كل إنسان هو أنت.

إن هذا الحق بقدر ما هو حق:

إن هذه الحشرة هي كل الحشرات وإن كل الحشرات هي هذه الحشرة.

لهذا فإن الحشرة التي تحتقر حشرة أخرى إنما تحتقر نفسها لأن فيها كل معنى الحشرة الأخرى.

لهذا فإن الإنسان الذي يحتقر الإنسان المخالف له إنما يحتقر نفسه لأن فيه كل المعنى الذي يحتقره في مخالفه أو يحتقر مخالفه من أجله. إنه لا يمكن أن تكون أية حشرة موجودة في كل حشرة أكثر من وجود أي إنسان في كل إنسان.

إن إنساناً ما لو استطاع ألا يحتقر أو يبغض أو يعير أو يعاقب على معنى يعيشه هو، يعيشه بالواقع أو بالاستعداد والاحتمال، أو بالشهوة والرغبة، أو بالموهبة، أو بالانتظار والتمني والتوقع أو بتجمع

الظروف والأسباب، لما أمكن أو لما استطاع أن يحتقر أو أن يبغض أو أن يعير أو أن يعاقب إنساناً ما على أي معنى من معانيه أو على أي موقف من مواقفه. إن كل إنسان يعيش بالواقع أو بالاحتمال والموهبة والقدرة كل المعاني، كل الذنوب والأكاذيب والأنانيات والتلوثات التي يعيشها الآخرون. إن كل إنسان يعيش كل ذلك ولو بالرغبة والتمني. إنه حينئذٍ لن يستطيع أن يكره أو يحقر أو يلعن أو يتهم أي مخالف أو نقيض له، أو أي خصم أو عدو من خصومه وأعدائه.

إن كل الناس يسبون ويتهمون ويهجون معانيهم ومواقفهم وكل أخلاقهم ونياتهم هم بأسلوب سبهم وهجائهم واتهامهم لمعاني ومواقف وأخلاق ونيات خصومهم ومخالفيهم وأعدائهم.

إن كل الناس يهجون ويسبون ويتهمون أنفسهم بالتفسير الذي يهجون ويسبون ويتهمون به أعداءهم ومخالفيهم وخصومهم.

إن كل الناس حتى أتقاهم وأشدهم ورعاً وتديناً ليهدمون ويذمون ويهاجمون آلهتهم وأنبياءهم وقادتهم ومعلميهم ومذاهبهم وأديانهم بالتفسير وبالمنطق اللذين يهدمون ويهاجمون ويذمون بهما آلهة وأنبياء وقادة وأديان ومذاهب ومعلمي خصومهم وأعدائهم ومخالفيهم.

إن الذين لا يهجون بما في أربابهم وأنبيائهم ومعلميهم وقادتهم، وبما في أديانهم ومذاهبهم لن يهجوا إله أي قوم ولا نبي أي قوم ولا قائد أي قوم ولا مذهب أو دين أي قوم مهما كانوا مخالفين أو خصوماً أو أعداء لهم، ومهما كانت ذنوب وخطايا ودمامات أولئك القوم. إن الذين يغفرون الذنوب والنقائص والعاهات التي تعيشها أو تعيش مثلها أربابهم وأخلاقهم ومذاهبهم فلا بد أن يغفروا لكل الأرباب والأخلاق والمذاهب كل عيوبها وممارساتها.

* *

إنه لشيء تحت جميع مستويات الإنسان المنتظر أو المطلوب ـ تحت جميع مستوياته العقلية والنفسية والأخلاقية والحضارية والإنسانية ـ أن ترى نفسك أو أن تشعر بها أو أن تغضب لها، أو أن تفهم همومها ومشاكلها وضروراتها واحتياجاتها وحقوقها، أو أن تسمع آهاتها وهمساتها، أو أن تقرأ دموعها المعتقلة في أعصابها، ووقارها وحيائها، أو أن تتحمس لأشواقها ومسراتها ونداءاتها، أو أن تعتذر عن تفاهاتها وزلاتها، أو أن تدافع عن مواقفها واقتناعاتها واجداً لها كل التفاسير والمحللات، أو أن تغفر لها أخطاءها وصغائرها وافتضاحاتها وعارها وجميع أساليب ضعفها وجوعها وسقوطها وهوانها.

نعم، إنه لشيء تحت جميع مستويات الإنسان المنتظر أو المطلوب أن تفعل ذلك لنفسك ومع نفسك وفي معاملتك لنفسك أكثر أو أعمق أو أصدق مما تفعل مثله لجارك أو لعدوك أو لمخالفك.

إنه لشيء تحت مستوى الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه أن تحدق حزيناً أليماً في آلام طفلك المتألم، أو في هزائم إلهك أو نبيك أو دينك أو مذهبك المهزوم أكثر أو أعمق أو أصدق مما تحدق،

حزيناً أليماً في آلام طفل جارك أو خصمك أو عدوك، أو في هزائم إله أو نبي أو مذهب أو دين جارك أو خصمك أو عدوك المهزوم.

إنه لشيء تحت جميع مستويات الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه أن تحب إلهك أو نبيك أو مذهبك أو دينك، أو أن ترى جماله ونظافته، أو أن تقتنع بصدقه أو بذكائه أو بأية مزية من مزاياه أكثر أو أقوى مما تفعل ذلك مع إله أو نبي أو دين أو مذهب جارك أو عدوك أو خصمك أو المخالف لك.

ولكن هل يوجد إنسان واحد ليس تحت جميع مستويات الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه؟ هل يوجد إنسان واحد لا يفعل هذا الذي هو تحت جميع مستويات الإنسان العقلية والنفسية والأخلاقية والحضارية والإنسانية؟ هل يوجد إنسان واحد ليس تحت جميع المستويات الإنسانية المكتوبة أو المعلمة أو المطلوبة أو المنتظر مجيئها أو التي تحدث عنها المعلمون في كتبهم وتعاليمهم وفي قصائدهم وأغانيهم؟

هل يوجد إنسان واحد ليس كذلك؟ هل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان؟ هل تستطيع الآلهة أن تبدع مثله، أو أن يبدع هو نفسه مثل هذا الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه؟

هل جاء إنسان واحد ليس تحت جميع المستويات الإنسانية المقررة أو المخطوب بها أو المدعو إليها أو المنزلة على المعلمين السماويين أو على المعلمين المذهبيين أو المزعومة مستويات للأنبياء ولسكان السماء؟

هل يستطيع إنسان واحد أن يجيء مساوياً لنموذجه النفسي والفكري والأخلاقي والعاطفي والإنساني؟ هل يمكن أن يوجد إنسان واحد يستطيع أن يتعلم من إلهه أو من نبيه أو من معلمه أو من قائده أو من دينه أو من مذهبه أو من تفكيره سلوكه النفسي أو العاطفي أو الأخلاقي بل أو حتى سلوكه اللغوي؟ هل يمكن أن يوجد إنسان واحد يستطيع ذلك؟

* *

إنه ما من نموذج يكون عليه المجتمع أو الفرد ـ حتى النماذج الفكرية والأخلاقية ـ إلا وهو تعبير اضطراري عن نموذج اعتقادي. وأريد بالاعتقاد هنا ما هو أكثر وأشمل من الاعتقاد الديني أو المذهبي أو السياسي. إني أعني بالاعتقاد هنا ما يعني أيضاً الحالة النفسية وكذلك المستوى البشري. إن النموذج الاعتقادي هو دائماً نموذج نفسي، إنه مستوى بشري. إن النموذج البشري لا بد أن يصوغ النموذج الاعتقادي. إنه لا بد أن يصوغ أو يكيف جميع النماذج: النماذج النفسية والفكرية والاعتقادية والحضارية بل وحتى النماذج اللغوية.

والنموذج الاعتقادي ـ وهو دائماً وكما ذكر نموذج نفسي وبشري ـ نعم، النموذج الاعتقادي الذي لم يصنع في زمن قد مضى إلا نماذج ومستويات معينة من صيغ الحياة والأفكار والأخلاق، والسلوك والحضارات والاتجاهات، كيف يستطيع أن يصنع في الزمن الحاضر أو المقبل غير هذه النماذج والمستويات؟ كيف يستطيع أن يصنع أقوى أو أكبر أو أفضل منها، أي لو كان من الممكن أن

تعيش حالة نفسية أو بشرية أو اعتقادية واحدة في فترتين من الزمن دون أن تتغير؟

إن الحالة النفسية البشرية الاعتقادية وعاء تتخلق فيه كل أفكار الإنسان ورؤاه ونشاطاته وخطواته وتحليقاته. إنها أي الحالة النفسية الاعتقادية البشرية جهاز يصوغ حضارات الإنسان كما يصوغ بداوته وعجزه. إنها جهاز يصوغ رؤية الإنسان للأشياء ولنفسه. حتى الرؤية للأشياء وللذات إنما تصوغها الحالة النفسية الاعتقادية البشرية ـ حتى الرؤية لوقاحات وبذاءات وتشوهات الطبيعة والآلهة والمعلمين والزعماء والاعتقادات والمذاهب. إن النماذج البشرية المختلفة لن تصنع رؤية للآلهة أو للأنبياء أو للزعماء أو للأديان والمذاهب متفقة أو موحدة أو متساوية.

إن جميع التغيرات والقفزات والغضبات البشرية العظمى ما كان ممكناً أن تحدث لولا أن تغيرات وتجمعات نفسية واعتقادية وبشرية قد هزت المجتمعات الراكدة المسترخية بعنف وجبروت فهزمت وطردت جميع أساليبها وصيغها ومعتقداتها وأفكارها القديمة، وألقت بجميع الأرائك المزخرفة بصور الآلهة والآباء التي كان يضطجع عليها تاريخها المسحور، محدقاً إلى السماء أو إلى القبور ـ ألقت بها إلى التراب والحضيض.

إن الذي يصوغ حضارات البشر، ويصوغ قوتهم وضعفهم، انطلاقهم وخمودهم، هو مستوياتهم النفسية والبشرية والاعتقادية. وليست مذاهبهم أو عقائدهم أو تعاليمهم أو أفكارهم أو ظروفهم القوية أو الضعيفة هي تصوغ ذلك.

وحتى المذاهب والأفكار والعقائد والتعاليم والظروف القوية أو الضعيفة إنما يصوغها المستوى البشري النفسي.

إن مستوى الاعتقاد يبعث ويحرك ويلهم، ولكن نوع الاعتقاد أو نوع المذهب أو نوع الإله أو النبي أو الزعيم لا يفعل شيئاً. إن نبيك أو إلهك أو مذهبك أو زعيمك لا يساوي إلا حماسك له أو باسمه، وإن حماسك له أو باسمه لا يساوي مزاياه، وإنما يساوي ذاتك ومستواك البشري والنفسي.

إن الأقوياء المقتحمين هم أناس يملكون مستويات بشرية ونفسية واعتقادية قوية، وليسوا أناساً يملكون مذاهب أو تعاليم أو نظماً أو زعامات أو آلهة أو عقائد قوية.

إن الفروق بين إنسان وإنسان، أو بين مجتمع ومجتمع هي فروق بين مستويات بشرية ونفسية لا بين مذاهب أو تعاليم أو زعامات أو قيادات أو نظم أو آلهة، أو بين ظروف قوية مؤاتية وأخرى ضعيفة مضادة. إنها فروق بين مستويات اعتقاد لا بين أنواع عقائد أو صفات معتقدين، وبين مستويات بشر أو بين صفات بشر لا بين صفات ومستويات معتقدين. إنها فروق بين صيغ وحالات نفسية صاغتها وكيفتها صيغ أو حالات بشرية.

إن الفرق بين إنسان وإنسان لا يساوي الفرق بين إله وإله، أو بين مذهب ومذهب، أو بين فكرة وفكرة، أو بين نظام ونظام، أو بين قائد أو نبي وقائد أو نبي. ولكنه فرق يساوي الفرق بين إنسان

وإنسان، إنه يساوي الفرق بين مستويين بشريين نفسيين، بين معتقدين لا بين عقيدتين. إن كل القيمة لذاتك لا لإيمانك، لإيمانك لا لما تؤمن به.

إن العقيدة ـ أية عقيدة، إنها لا تساوي المذهب أو الإله أو الفكرة أو النبي أو الزعيم، ولكنها تساوي الإنسان المعتقد، إنها تساوي حالته النفسية ومستواه البشري. إن إلهك أو نبيك أو دينك أو مذهبك لا يساوي ذاته أو نفسه وإنما يساويك أنت، يساوي نموذجك.

إن الاتجاه إلى الإيمان بالتغيير وإلى الرفض والتجاوز للذات ولكل ما هو موجود ومفروض ومنقول إن الاتجاه إلى إخضاع الحياة والآلهة والمذاهب والتعاليم والتاريخ وكل شيء للضرورة والمنطق والإرادة وللرغبة في الافتراض والتحدي، وللحساب والعقاب.

نعم، إن الاتجاه إلى الإيمان بالنماذج التي لم تخططها أو تتحدث عنها الآلهة، وإلى ابتكار النماذج التي لم يخطب بها ولم يعلمها الأنبياء ولا المعلمون ـ وإن الاتجاه إلى الاستسلام والتقبل والعجز. والإيمان بكل ما تطرحه المنابر والمحاريب والأسواق.

نعم، إن الاتجاه إلى هذا أو هذا، أو إلى هذا بعد هذا، أو إلى هذا وهذا ليس سوى تعبير عن نماذجنا النفسية والاعتقادية وعن تبدل هذه النماذج وعن مستوياتها. إنها تعبير عن نماذجنا النفسية والاعتقادية التي هي تعبير عن نماذجنا البشرية.

إن الاعتقاد، وأعني به دائماً التحفز نحو الشيء والحماس له والإحساس به إحساساً متوقداً مقاتلاً، قوة لا بد أن تطلق قوى الإنسان وأن تحركها وأن تلهمها وأن تصوغها وتهبها الحماس والتوقد وموهبة القتال والانتصار والاقتحام والتجاوز والغضب والرفض.

إن الإنسان دائماً إما في حالة أو صيغة تنويم، وإما في حالة أو صيغة إيقاظ. إنه إما خامد وإما منبعث، إنه إما توقد وتوهج وإما استرخاء. إن الإنسان دائماً هو أحد نقيضين. إنه إما تفجر وإما موت. إن صيغته أو حالته النفسية والاعتقادية أي والبشرية هي التي تجعله أحد النقيضين، هي التي تجعله إما هذا وإما هذا. إن مستوى ونشاط هذه الصيغة أو هذه الحالة هما اللذان يصنعان أحد النقيضين، هما اللذان يحولان الإنسان إلى توقد أو إلى خمود.

إنه ليعيش في ذات كل إنسان احتمالان لنقيضين متباعدين جداً. إن الذوات التي لا تختلف في أطوالها ولا في أوزانها المادية لتحتوي على أبعد الأبعاد الإنسانية تباعداً وتناقضاً. إنها لتختلف وتتباعد جداً في أطوالها وفي أوزانها البشرية أي النفسية والاعتقادية، أي في نشاطها وخمودها.

إن من نماذجنا الاعتقادية والنفسية أعني والبشرية ما يحرم على العقل أن يسأل أو يفهم أو يرفض أو يحاسب، وما يحرم على البصر أن يحدق أو يبصر، وما يحرم على الأعضاء أن تجوع وتشتهي وتتمنى، وما يحرم على الزهرة أن تتفتح أو أن تطلق عطورها وأنفاسها، وما يحرم على القلب أن يخفق أو أن يفرح أو يرتجف، وما يحرم على اللسان أن يبوح ويغني ويهتف فرحاً أوحزناً، تحية أو استبشاعاً،

وما يحرم على الأخلاق أن تغضب أو تشمئز أو تمرض من الغثيان وممارسة العار. وإن منها أي من نماذجنا النفسية والاعتقادية أي والبشرية ما يجادل ويشكك في ضخامة الشمس، وفي جهارة ضيائها، وفي نظافة أعضائها وما يرفض أن تكون أي الشمس أسلوباً جمالياً أو عطاء ذكياً، أو عدل إله أو فن إله أو ذكاء إله، أو عرض إله، أو لوحة فنان أو قصيدة شاعر أو ضمير مؤمن.

وإني لأريد لك ومنك كما أتمنى أن تكون النموذج الأخير.

وهل يمكن أن يتساوى تأثير النموذجين؟

ولكن من الذي يصنع النموذجين أو يهبهما أو يعلمهما أو يدل عليهما؟ كيف يأتيان؟ من أين يأتيان؟ من يهبك هذا النموذج أو نقيضه؟ ولماذا يهبك أحد النموذجين دون النموذج الآخر المناقض؟ ولماذا يوهب الإنسان الآخر النموذج.المناقض للنموذج الذي وهبته أنت؟

كيف يحدث كل هذا؟ وبأي منطق أو تدبير يحدث؟

هل في هذا الذي يحدث بحث عن الجمال أو عن المنطق أو عن العدل أو عن النظام؟

إن الإنسان لم يصنع مستوياته الجديدة، ولم يتخط نماذجه القديمة، إلا بعد أن تخطى نماذجه النفسية والاعتقادية، وبعد أن انتصر على مخاوفه ومنابره ومحاريبه، وعلى قداساته ومقدساته، وعلى جميع نماذجه المفروضة أبدية ونهائية، وإلا بعد أن تخلت عنه الآلهة التي كانت كل عبقرياتها واهتماماتها وفنونها وعزائها وتملقها لنفسها أن تتحدث عنه وإليه، وأن تدعوه بضراعة وبيكاء وبافتضاح وبنفاق مهين لها إلى الإيمان بها، وأن تتهيأ وتتجمل وتنتظر لقدومه وللقائه في مغازلة ذليلة فقدت كل وقارها وهانت في كل لغاتها وتعبيراتها. هل وجد في كل تاريخ النفاق والتضرع المستكين تضرع أو نفاق مثل تضرع الآلهة ونفاقها وهي تطالب الإنسان بكل المسكنة والملق أن يهبها شيئاً من صلواته واهتماماته وإيمانه؟

إنه لو قيل:

أيهما الخالق لحضارات الإنسان ولكل أساليب قوته وإبداعه: العقل أم الاعتقاد أي أم النموذج النفسي أي أم الصيغة النفسية، لكان الجواب: إن العقل هو خالق حضاراته وكل قواه وإبداعاته، أما الاعتقاد أي الحالة النفسية أو النموذج النفسي فهو الخالق للعقل، أي المحرك والموجه والمحرض له. إن النموذج النفسي أي والبشري هو إذن خالق الخالق وخالق ما خلق وما يخلق الخالق.

* *

يحاول أو يتمنى أكثر الناس أو كل الناس، كل الوقت أو بعض الوقت، في كل المواقف أو في بعض المواقف، أن يتغيروا دون أسباب التغيير، أن يكونوا أقوى وأفضل دون أن يملكوا أو يفعلوا ما يمكن أن يجعلهم كذلك.

إن الناس جميعاً يعلمون ويعظون ويخطبون ويأمرون وينهون ثم ينتظرون جميعاً النتائج والتبدلات أو التغيرات الكبرى.

إنهم يريدون أن يغيروا النتائج الرديئة دون أن تتغير الأسباب التي تصنعها وتحتمها، أو دون أسباب ملائمة. إنهم يريدون نتائج جديدة بدون أسباب جديدة.

إن البشر جميعاً يؤمنون بالسحر ويعيشونه، بل ويتعالجون به حتى أشدهم لعناً للسحرة وإيماناً بالعلم وتفوقاً فيه. إنهم جميعاً يطالبون بالسحر وبالسحرة للتداوي بهم من الطبيعة ومن أخلاقها وقوانينها، بل للتداوي بهم من أنفسهم ومن أخلاقهم وجوعهم ومن غبائهم وضعفهم. إنهم جميعاً يريدون وينتظرون أن تتغير حياتهم دون أن يتغيروا هم، أو أن يتغيروا هم دون أن تتغير فيهم أجهزة التغيير. إنهم يريدون أن تتغير حياتهم وأن يتغيروا هم دون أن تتغير صيغهم ونماذجهم ومستوياتهم النفسية والاعتقادية والبشرية.

إنهم يريدون أن يتغير الخلق دون أن يتغير الخالق، وأن يتغير الخالق دون أن يصاب بأسباب التغيير أو بأسباب الغضب على نفسه وبأسباب الرفض لها والاشمئزاز منها.

إن كل الناس إذن يؤمنون بالخرافة ويتداوون بها وينتظرون نتائجها الباهرة حتى أشدهم تشنيعاً عليها ومقاومة لها، وحتى أقواهم إيماناً بالمنطق واحتراماً له، ومناداة به، وأصالة فيه.

إنهم في كل المجتمعات يعلمون ويعظون ضد الضعف والغباء والتخلف والهوان والتلوث والسقوط، ويدعون إلى نقيض ذلك ويعظون بهذا النقيض ويحرضون عليه، ثم يذهبون ينتظرون ويعتقدون أنهم يفعلون شيئاً كبيراً.. ثم يذهبون يعتقدون أنهم يصوغون الإنسان والحياة صياغات جديدة.

إنهم يرون أنهم بذلك يقتلون الشيطان، وإنهم بذلك أيضاً يحررون يدي الإله وضميره وموهبته وكل أخلاقه من قيودها القديمة، ومن عجزها وأخطائها الفادحة الدائمة.

إن ضعف الإنسان وقوته، فساده واستقامته، ذكاءه وغباءه، حماسه وخموله وكل أساليب سلوكه ونياته تتوالد توالداً قانونياً محتوماً عن مستوياته النفسية والاعتقادية والبشرية. إنها تتوالد توالداً طبيعياً وقانونياً محتوماً عن أسبابها وظروفها. إن ظروفها وأسبابها لا بد أن تكون ظروفاً وأسباباً ذاتية بشرية.

إن ذات الإنسان لتلد طاقاتها بالمنطق الذي تلد به الطبيعة طاقاتها مع الاختلاف في الأسلوب إنها لحتمية هنا وهنا تحت الظروف الملائمة أو الظروف الموجبة.

إنه لا يمكن تغيير حالتي الضعف والعجز، أو حالتي الفكر بين الاقتحام والتهيب، أو بين التوقد والاحتجاج والغضب والرفض وبين الخمول والتقبل والرضا والاستسلام ـ إنه لا يمكن ذلك بدون تغيير الوعاء البشري، أي بدون مستوى نفسي واعتقادي ملائم.

إن الفكر لن يكون مقتحماً أو فعالاً ما لم يغضب ويفجع.

إن سلوكنا الجيد والرديء، وإن نشاطنا الفكري وكذا خمودنا الفكري ـ إن ذلك يحدث عنا وفينا، لنا وضدنا، بالأسلوب الذي به نجوع ونحتاج إلى النوم، والذي به نحزن ونسر، والذي تجيء به أقوياء الأعضاء وضعافها، والذي به تطلع الشمس وتغيب، تحدث الزلازل والأعاصير، أو تتوقف وتتوقر. إن كل ذلك لا يكون إلا تعبيراً عن حالة.

إننا كما نضحك ونبكي، نخاف ونرفض الخوف ـ إننا كما نفعل ذلك بالضرورة وبالمستوى الذاتي والبشري، من غير أن نكون طيبين أو رديئين، ومن غير أن نكون منفذين أو مريدين وقاصدين أن ننفذ أوامر ووصايا مذاهبنا أو أديان أو خطب زعمائنا، كذلك تنشط عقولنا وتخمد، تقاوم وتقبل، وكذلك أيضاً نفعل سلوكنا الطيب والرديء

إننا كما لا نحزن أو نسر، نجوع أو نظمأ بالمذهب أو بالدين كذلك لا ينشط أو يخمد تفكيرنا بالدين أو بالمذهب أو بالتحريض والوعظ. إن السلوك أو العمل الرديء تحت ظروفه الموجبة والملائمة هو السلوك المعقول أو العمل المعقول، مثل السلوك أو العمل الطيب تحت ظروفه الموجبة والملائمة.

إن من مارس الصدق والأمانة والشجاعة تحت الظروف الموجبة والملائمة للصدق والشجاعة والأمانة ليس معقولاً أو عاقلاً أو فاضلاً أو مناضلاً أكثر ممن يمارس الكذب والجبن والغدر تحت الظروف الموجبة والملائمة لذلك.

إنك لو عملت الفضيلة والقوة تحت الظروف المنافية والمضادة ـ لو كان ذلك ممكناً أن يحدث ـ لكنت شاذاً وخارجاً وعاصياً وبذيئاً. وإنك لكذلك لو عملت الرذيلة والضعف تحت الظروف المضادة والمنافية ـ لو كان ممكناً أن تفعل مثل ذلك. إن كل الظروف تسقط في ذلك ليحكمها ويصوغها ويكيفها مستواك النفسي والاعتقادي أي البشري. إنك دائماً لا تساوي سوى ذاتك.

إن استجابات الإنسان المختلفة والمتناقضة، وكذلك اتجاهاته المتعاقبة والمتعارضة والمتقاطعة ـ إن ذلك قانون من قوانين الحياة والطبيعة، لا حيلة فيه، وليس فضيلة ولا رذيلة، وليس طاعة للتعاليم أو للآلهة أو للمذاهب والأديان، ولا خروجاً عليها.

إنه ليس حباً ولا بغضاً، ليس تقوى ولا عصياناً، ليس إيماناً ولا زندقة. إنه حالة نفسية واعتقادية، ذاتية وبشرية. إنه مستوى ذات، ذات من الطبيعة. إنه الطبيعة في أحد تعبيراتها.

إنه لا يحتمل أن نصبح أقوياء وفضلاء، متوقدة عقولنا ومقاتلة، أو خامدة مهزومة مسلمة ـ إننا لا يمكن أن نصبح هكذا، أن نصبح هذا أو هذا لأننا قد اقتنعنا أو علمنا بأن القوة والفضيلة، وبأن نشاط العقل وقتاله للأشياء مستويات أو مزايا جيدة أو واجبة، أو رديئة ومنهي عنها، أو بأن الأديان أو المذاهب أو الزعامات أو النبوات التي نؤمن بها ونحترمها ونهتف بالمجد لها تأمرنا بذلك وتلعننا إذا لم نستجب لأوامرها.

إننا لن نكون غير حالتنا النفسية والاعتقادية والبشرية. إننا لن نكون غير مستوانا البشري والذاتي.

لن نكون أفضل أو أردأ، أقوى أو أضعف. إننا لن نحاول أو لن نريد أن نكون. إننا لن نكون أكبر أو أصغر من أنفسنا، أذكى أو أغبى، أفضل أو أردأ منها أي من أنفسنا. إننا لن نكون بل ولن نريد أو نحاول أن نكون شيئاً من ذلك.

إن جميع زعاماتنا وقياداتنا ونبواتنا ومذاهبنا وتعاليمنا وظروفنا الجيدة جداً لن تستطيع أن تجعلنا أكبر من أنفسنا.

إننا لن نكون أكبر أو أصغر، أذكى أو أغبى، أنبل أو أتفه من أنفسنا أو من مستوانا البشري مهما كانت مذاهبنا أو أدياننا أو زعاماتنا أو آلهتنا أو نبواتنا أكبر أو أصغر، أذكى أو أغبى، أنبل أو أحقر ـ مهما كانت الشمس التي نتعامل عليها والتي تواجهنا ونواجهها أكبر وأذكى وأنبل، أو أصغر وأغبى وأحقر. إننا لن نكون بنظافة الشمس مهما عشقناها وحدقنا فيها.

لقد كانت محاولات البشر ـ وكل البشر يحاولون ذلك ـ لقد كانت محاولات كل البشر لإيجاد الذكاء أو الاستقامة أو الشموخ أو القوة أو الشجاعة أو النظافة أو موهبة الرفض أو الصلب كل مستويات ونماذج الخوف والتفاهات والحقارات والتلوث والأنانية والقصر والضآلة والبلادة والخمول من كل النفوس والعقول والأخلاق والقامات والهامات.

نعم لقد كانت جميع هذه المحاولات التي يحاولها كل البشر بالمواعظ والتعاليم والوصايا والأوامر والنواهي المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو الإنسانية أو الثورية أو الخطابية.

نعم، كانت جميع هذه المحاولات العالمية الأبدية تشبه وعظ وتعليم الموتى ـ تشبه وعظ الأعضاء وتعليمها بألا تجوع أو تتألم أو تمرض أو تضعف أو تشيخ.

إن جميع الأنبياء والمعلمين والوعاظ لم يكونوا إلا قوماً يعلمون الأعضاء ألا تجوع أو تمرض أو تضعف أو تموت.

لقد كانت هذه المحاولات العالمية الأبدية تشبه محاولات تلميع النجوم بالصلوات أو إطفاء الحرائق المشتعلة في جسم الشمس بقراءة آيات من الكتاب الكريم. إن جميع الأنبياء والمعلمين والوعاظ لم يكن عمل أحد منهم سوى تلميع النجوم وإطفاء حرائق الشمس بالصلوات وبتلاوة الآيات.

إن صاحب الثورة أو المذهب أو صاحب التعاليم الأخلاقية الذي يذهب يخاطب أتباعه والمؤمنين به، أو يخاطب كل البشر، طالباً منهم أن يكونوا أذكياء أو أقوياء أو مصابين بالحماس والتوقد الذهني والنفسي أو بموهبة الرفض والشجاعة والنظافة.

نعم، إن صاحب المذهب أو الثورة أو التعاليم الذي يذهب يصنع ذلك ليس أضخم غفلة أو عبثاً من النبي الذي يدأب يتلو على أتباعه أو على جميع الناس آياته وأحاديثه طالباً إليهم أن يكونوا أغبياء وضعفاء ومتبلدي الأذهان والنفوس والحواس وعاجزين عن الرؤية، عن رؤية الذنوب والعاهات والتشوهات والأخطاء والوحشية والبلادة التي تعيش في عقول ونفوس وعيون وأخلاق الآلهة ـ وإلا

فلهم كل الجحيم وكل الأهوال وكل العذاب. نعم، لقد كانت رسالة كل نبي أن يعلم المؤمنين به كيف يغلقون عيونهم وعقولهم وأخلاقهم ومشاعرهم عن كل رؤية وتفكير وغضب واشتراط، حماية لأربابه.

إن النبي، إن أي نبي لن يستطيع بتهديداته وتخويفاته وبكل نيرانه وأهواله أن يجعل الناس أو حتى المؤمنين به أغبياء وضعفاء ومتبلدي العقول والنفوس والحواس، أو رافضين للرؤية، أو عاجزين عنها ـ إنه لن يستطيع بتعاليمه وبآياته وأحاديثه أن يجعلهم كذلك لكي يحمي عاهات وتشوهات وذنوب وأخطاء ووحشية إلهه من رؤيتهم وغضبهم واشمئزازهم واحتجاجهم ورفضهم المحتوم حينما يستطيعون نفسياً واعتقادياً وبشرياً ذلك.

إنه لن يستطيع بالتهاويل والتعاليم أن يجعل الناس أصغر من أنفسهم أو أكبر، أقل من مستوياتهم النفسية والاعتقادية أي البشرية والذاتية، أو أكثر منها.

إن النبي، أي نبي لن يستطيع أن يجعل المؤمنين به يطيعونه إلا بقدر ما يعجزون بشرياً وذاتياً، نفسياً واعتقادياً، أن يعصوه. إنهم لا يطيعونه ولكنهم قد يعجزون بمستوياتهم النفسية والعقلية والذاتية أن يعصوه. وحينئذٍ يدعون عجزهم عن عصيانه أي عن عصيان النبي طاعة، أو يدعو المجتمع أو الوعاظ أو النبي نفسه هذا العجز العقلي والنفسي والأخلاقي والذاتي عن عصيان النبي طاعة له. لماذا يختلف الناس في طاعتهم للأنبياء والزعماء وللأديان والمذاهب؟ لأنهم في تفسير سلوكهم لا يطيعون شيئاً أو أحداً ولكنهم يعجزون عن العصيان.

إن النبي، أي نبي لن يجعل أقوى الناس إيماناً به يطيعون إلهه أو يحسون برغبات إلهه خوفاً من جحيمه أو شوقاً إلى فردوسه أكثر أو أقوى مما يطيعون أعضاءهم أو مما يحسون بجوعها، أو أكثر وأقوى مما تحتاج أعضاؤهم إلى أن تطيع وتعجز عن أن تعصي.

إن الناس لم يطيعوا أنبياءهم حينما دعوهم إلى أن يكونوا ضعفاء وأغبياء ومغلقي الحواس ومتبلدي الأذهان والأحاسيس إلا بقدر ما كانوا عاجزين عن أن يكونوا غير ذلك أو أفضل من ذلك. لقد عجزوا، ولم يطيعوا. وحينما قدروا عصوا بكل قدرتهم ولم يطيعوا ولا بعض طاعتهم. إن الأغبياء والأذكياء ليسوا أذكياء وأغبياء بالطاعة أو بالعصيان، وإن الأتقياء والعصاة لكذلك، ليسوا أتقياء وعصاة بالطاعة أو بالعصيان بل بموهبة الذات.

إن الناس لا يستطيعون أن يكونوا مطيعين أو عصاة وإنما هم أبداً منفذون لأنفسهم إنهم لا يستطيعون أن يكونوا بحجم التعاليم أو المذاهب أو الأديان أو الأخلاق التي تقال لهم، والتي يدعون إليها، والتي يؤمنون بها، ولكنه يكونون أبداً بحجم أنفسهم.

إنه مهما كان حجم ذوات آلهة الناس فإن حجمهم هم لن يتخطى حجم ذواتهم.

إن الناس لا يجيئون على مستوى بلاغة زعمائهم أو قادتهم أو أنبيائهم أو كهان مذاهبهم، وإنما

يجيئون أبداً على مستوى أنفسهم. إن كل البلاغة، في كل التاريخ، في كل الأفواه لم تستطع أن تهب الإنسان ذهناً أذكى ولا نيات أنظف ولا قامات أطول ولا قلوباً أكثر أو أصدق حباً.

إن كل ما في الأنبياء والزعماء والدعاة والمعلمين والوعاظ، وكل ما في المذاهب والعقائد والأديان من بلاغة وتوتر وإرهاب وخداع ومبالغات وإغراء وغوايات.

إن كل ذلك لا يستطيع أن يتحول في المجتمعات إلى قوة عقلية أو أخلاقية أو حضارية أو بشرية أو حتى عاطفية وإنسانية ونفسية.

إن كل ما في جحيم الأنبياء وجناتهم، وإن كل ما في غضب أربابهم ووعودها، وإن كل ما في المذاهب والنظم والدعوات ـ إن كل ما في ذلك من سحر وتخويف وغموض وإرهاق وإقناع وديمومة ومحاصرة وتضليل، لا يستطيع أن يهب مستوياتنا الذهنية أو النفسية أو الأخلاقية أو البشرية أو الحضارية أو الإنسانية أي مزيد أو أية صياغة أخرى.

إن جميع تعاليم الدعاة والأنبياء وصناع المذاهب لا تستطيع أن ترتفع بمستوى ذكائنا أو بمستوى غضبنا على الدمامات والتشوهات والوقاحات، أو بمستوى تطهرنا النفسي أو الذهني أو الذاتي، أكثر مما تستطيع أن تفعل لنا ذلك أية حشرة نقرأ عنها أو نعاشرها وتعاشرنا. إن جميع الدعاة والأنبياء والقادة وواضعي المذاهب والنظريات والتعاليم لا يستطيعون أن يخترقوا حدود مستوياتنا البشرية أو الإنسانية. إنهم يتعاملون بها وعليها دون أن يغيروها، أن يجعلوها أكبر أو أفضل. إنهم عاجزون عن صياغة مستوياتنا العقلية أو الأخلاقية أو النفسية بقدر عجزهم عن صياغة مستوياتنا البشرية.

* *

لعل هذه القضية تحتاج إلى مزيد من التوضيح، أو لعل القارىء يحتاج إلى مزيد من التفسير. بل لعل الصحيح أن الكاتب هو الذي يحتاج هنا إلى مزيد من التكرار. إن التكرار موهبة في الكاتب بل في الإنسان بل في الطبيعة بل في كل شيء. إن كل الأشياء وكل الناس تكرار. حتى الموت، إنه تكرار كالحياة.

لهذا يريد الكاتب أن يقول خاضعاً لموهبة التكرار ولشهوته:

إن المراد هنا بالحالة الاعتقادية أو النفسية، أو بالمستوى البشري أو الذاتي ـ أن المراد هنا هو مستوى الموقف الفكري والنفسي والذاتي والبشري من الإنسان والحياة والكون ومن الأشياء.

إنه هو الحماس والتوقد والاحتجاج والتحديق والتصادم الفكري والنفسي والأخلاقي والذاتي بكل الأشياء المرئية والمعلومة والممكنة والمحتملة.

إنه هو القدرة على التصميم بالمنطق والأخلاق والمشاعر وبالذات وبالحركة.

إنه هو ما يساويه الإنسان مفكراً وناقداً وغاضباً ورافضاً ومحتجاً ومحدقاً ومبصراً وضارباً وهادماً وبانياً ومتخطياً وقادراً.

إنه هو الإنسان موهبة وقدرة ومستوى وانطلاقاً وكينونة ولغة فيها كل بلاغة التعبير وجنونه وفنونه.

إن المعني بالاعتقاد أو بالمستوى النفسي أو البشري هنا: الإنسان في صيغه القوية المقتحمة المتجاوزة أبداً ولكل شيء: المقتحمة المتجاوزة لكل الآلهة والمذاهب والتعاليم والزعامات والتاريخ ـ المقتحمة المتجاوزة لكل الحدود والأسوار، ولكل الصيغ والنماذج والمستويات السابقة والحاضرة والمقبلة والمتخيلة ـ الرافضة للاعتراف بها وللاحترام لها.

إن الإنسان هو الكائن المتجاوز أبداً. إنه المتجاوز لأربابه ولأنبيائه وزعمائه ولمذاهبه وأديانه. إنه المتجاوز لذلك والخارج عليه.

إن الاعتقاد ليس رؤية للأشياء ولا رأياً فيها ولا اقتناعاً بها، ولكنه احتياج إليها، وشهوة وإرادة لها، وتصادم أو تلاؤم معها أو بها.

إن المعتقد بالشيء ليس رائياً أو عارفاً له أكثر، وإنما هو ممارس له أو محتاج إلى أن يمارسه أكثر. إنه عاشق له ومرتبط به أكثر.

إنه ليس عشق حب أو ارتباط حب ولكنه عشق وارتباط جوع وافتراس.

إن اعتقادنا بالشمس لا يساوي رؤيتنا لها أو وجودها في ذاتها. ولكن اعتقادنا فيها يساوي كوننا محتاجين وشهوانيين ومريدين ومتناقضين ومتوافقين ومتصادمين ومتلائمين.

إن اعتقادنا بنبي، بأي نبي من الأنبياء لا يساوي رؤيتنا لمزاياه، أو معرفتنا بهذه المزايا، أو تجاربنا لها، أو انتفاعنا بتعاليمه وبأتباعه.

إن اعتقادنا بأي نبي لا يساوي شيئاً من ذلك.

إن الاعتقاد ليس رأياً أو رؤية أو معرفة في المعتقد، كما أنه ليس مزية أو تفوقاً في المعتقد به.

إن الإنسان ليس معتقداً أكثر من الحيوان، ولكنه معبر أكثر، معبر عن احتياجه وشهوته وإرادته، وعن تناقضه وتوافقه، وعن رؤاه وآلامه ومجاعاته وأحزانه. إنه معبر عن كل ذلك أكثر، ومبدع خالق له أكثر وأقوى.

نعم.. الإنسان معتقد دون الحيوان، ولكنه ليس باعتقاده قد تفوق على الحيوان.

إن الإنسان لا يكون لأنه معتقد، ولكنه يكون لأنه يستطيع أن يكون، ويريد أن يكون، ويحتاج إلى أن يكون، ويعرف أن يكون.

إن الإنسان لا يكون نموذج اعتقاده، ولكنه يكون نموذج كينونته، يكون نموذج قدرته وإرادته ومستواه. وكذلك الحيوان، بل كذلك كل شيء.

إن الاعتقاد بحث عن الكينونة، وليست الكينونة بحثاً عن الاعتقاد إن الكينونة تصنع الاعتقاد.

وهل يصنع الاعتقاد الكينونة؟ إن إرادة الكينونة تصنع الاعتقاد.

وهل إرادة الاعتقاد تصنع الكينونة أو تصنع الاعتقاد؟ وهل الاعتقاد إرادة أم ضرورة وفرض وإلزام وعجز؟ هل أنت تعتقد لتكون أو لتفرح أو لتصبح فاضلاً أو نظيفاً أو تقياً أو ذكياً، أم أنت تعتقد كما تمرض وكما تحزن وكما تجوع وتنام وتتألم، ولأنه يفرض عليك الاعتقاد، ولأنك تقلد؟

لو كانت الشمس أو الحشرة معتقدة أية عقيدة أو كل عقيدة فهل يتغير سلوكها أو كينونتها أو مستواها أي أسلوب من أساليب التغير؟

ولو أن الإنسان لم يعتقد أية عقيدة فهل تكون كينونته أو سلوكه أو مستوياته غير ما كانت؟ ليس هذا أو هذا محتوماً. وقد يقال إن هذا أو هذا ليس مظنوناً.

ومهما كان تاريخ الإنسان مثقلاً بالعقائد ولا يخطو إلا فوق العقائد ولا يتحدث إلا عن العقائد ولا يفسر نفسه ويفسر جميع الأشياء إلا بالعقائد فهل الإنسان حقاً كائن اعتقادي؟

* *

الأفعال الكبيرة لا تصنعها أو تقوى عليها إلا الانفعالات الكبيرة.

إن الانفعالات الحادة المتوهجة هي التي تستطيع أن تحول احتمالات الإنسان وطاقاته، حتى عقائده وأفكاره، حتى مواهبه، لتصيرها نشاطات وتحركات وأساليب مختلفة من الإبداع والخلق. إن الانفعالات الحادة المتوهجة هي التي تحرك ذات الإنسان، لتوزعها، ولتخرجها على شتى الصيغ والأساليب والاتجاهات.

إن الانفعالات القوية هي الوقود الدائم والعالمي لجميع الحضارات والعبقريات وللقفزات العظمى.

إن كل مواهب الإنسان واحتمالاته تظل مواتاً ما لم تحركها وتطاردها الانفعالات الكبيرة المتوقدة.

ن كل شيء خامد في ذات الإنسان ما لم تفجره الانفعالات العنيفة المزلزلة.

إن كل طاقات الإنسان تحتاج إلى أجهزة إطلاق وتفجير. وإن هذه الأجهزة ليست سوى الانفعالات الحادة الدائمة!

إن التحولات الكبرى في حياة الآحاد والمجتمعات هي التعبيرات الأخيرة عن الانفعالات المتحولة. إنها كحالة الفيضان والغليان. إن الغليان والفيضان ليسا إلا نهايتين من نهايات التجمع والحرارة. إن الفيضان والغليان أسلوبان من أساليب الانفعالات الحادة الكبيرة التي تصيب الطبيعة كما تصيب الإنسان. إن الطبيعة تنفعل كما ينفعل البشر.

إن جميع صيغ الطبيعة ليست إلا صيغاً انفعالية.

إن الفيضان والغليان انفعالان حادان يصيبان الطبيعة، وإن الانفعالات الحادة الكبيرة غليان وفيضان يصيبان الإنسان، ليصنعا له وفيه تحولاته الكبرى.

إن الإنسان ليصاب بالغليان والفيضان كما تصاب بهما الطبيعة إنه ليصاب بهما أكثر مما تصاب بهما الطبيعة.

إن الانفعالات الحادة تصيب الفرد والمجتمع بالأسلوب الذي يصيب الفيضان والغليان الطبيعة أي بلا تدبير أو وعظ أو تخطيط. أي أن الفرد والمجتمع يصابان بالغليان والفيضان كما تصاب بهما الطبيعة، أو كما تصاب الطبيعة بالانفعالات الحادة التي تتحول إلى غليان وفيضان، أي بلا أديان أو مذاهب أو نبوات بل وضد الأديان والمذاهب والنبوات.

إنه لولا هذا التناهي أو التصاعد في الانفعالات لتبلغ درجة الغليان والفيضان لما توالت قفزات البشر ليصنعوا وجودهم كما صنعوه.

إن المفروض دائماً أن المتفوقين والموهوبين وذوي الخطوات والتحركات السريعة القوية هم من المرضى والمصابين بالمشاعر الحادة المتفوقة في طاقاتها الانفعالية وفي توقدها الباهظ الأليم. إنه لمستحيل أن يكون هؤلاء خامدي الانفعالات أو مستريحيها. إنه لمستحيل أن يكون هؤلاء غير حرائق إنسانية، غير حرائق لأنفسهم وفي أنفسهم وفي الأشياء وفي الناس وللأشياء وللناس.

إن ذوي المشاعر المتوهجة ليشتدون ويعنفون جداً في ضغطهم على أنفسهم وفي قسوتهم عليها. إنهم ليطاردون أنفسهم ويسوقونها لتكون أقوى وأفضل وأعظم. إن هؤلاء يتمردون في الغالب على المسلمات وعلى الطاعة والقناعة والتصديق، وعلى الإعجاب الدائم أو الطويل بما وجد. إنهم يخالفون مجتمعاتهم في التفكير والسلوك وفي التعبيرات والمستويات الأخلاقية. إنهم يجنحون إلى النقد والتحدي، وإلى الرفض للصلوات في المعابد المتزاحمة بالمصلين وبالأرباب وبجثث التاريخ المتخلف المصاب بالبلادة والهوان. إنهم لا بد أن يتحولوا إلى تحد شامل وإلى تمرد شامل وإلى عصيان شامل. إن احتراقهم الشامل الدائم لا بد أن يحولهم إلى حرائق دائمة شاملة..

إن ذوي المشاعر الحادة القوية لا بد أن يكونوا قساة جداً في مطاردتهم لأنفسهم وفي ضغطهم عليها لتكون أقوى وأكبر وأعظم. إن الإنسان المتفوق هو إنسان محارب لنفسه بقسوة.

إن التفوق الإنساني ليس إلا أسلوباً من أساليب الضغط، على النفس ومن أساليب المطاردة لها. إن التفوق هو أعلى هذه الأساليب وأقساها. هو أعلى وأقسى أساليب المطاردة والضغط على الذات. هو أعلى أساليب مقاتلة الذات. إن كل البشر يقاتلون ذواتهم ولكنهم يتفاوتون في أساليب هذه المقاتلة. إن كل إنسان في قتال دائم لذاته. إن هذا هو معنى الحياة وقانونها.

إنه إذا كانت ظروف هؤلاء المتفوقين في توقد مشاعرهم واحتياجاتها تمنعهم من النشاط والانطلاق والتمرد الذي يتحول إلى تفوق وإبداع فسيصنع منهم تفوقهم الانفعالي نشاطاً أليماً وحزيناً ومخرباً. إنه سيصنع منهم مخربين ومعادين لأنفسهم ولحياتهم وللمجتمعات التي يعايشون. إنهم لا بد أن يصبحوا هدامين وعدوانيين أكثر من الآخرين. إن هؤلاء لا بد أن يكونوا أكثر خروجاً على القانون

وعلى أنفسهم وعلى جميع المستويات الإنسانية المهذبة. إنهم لا بد أن يكونوا أكثر عذاباً وأكثر صناعة وإبداعاً للعذاب لتوقيعه على الآخرين وعلى الحياة. إن المتفوقين في طاقاتهم الانفعالية لا بد أن يخرجوا على المقاييس والمستويات الحضارية والإنسانية والفكرية تفوقاً وإبداعاً أو أن يخرجوا عليها شذوذاً وتحطيماً.

إن المتفوقين في مشاعرهم وفي توقدهم النفسي لا بد أن يتحولوا إلى تفوق إنساني أو إلى عذاب إنساني. إنهم تفجرات لا بد أن تكون إما هذا أو هذا.

إن الإنسان المصاب بالانفعالات الحادة لا بد أن يصبح عبقرياً أو نشاطاً متفوقاً، وإلا فخليق به أن يصبح مجرماً أو هداماً متفوقاً أو شذوذاً أو أحزاناً وآلاماً متفوقة. إنه لا يستطيع أن يتحول إلى صمت وسلام.. لا مع نفسه ومع الأشياء ولا ضدها.

إنه لو أمكن أن ترتفع الطاقة الانفعالية في هذه المجتمعات التي قد تحولت إلى مقابر كئيبة صامتة تثوى فيها كل احتمالاتها وطاقاتها الإنسانية ـ في هذه المجتمعات الخامدة المصابة بكل معاني ومستويات العقم والعجز عن الغضب والاشمئزاز والغثيان النفسي والعقلي والأخلاقي مهما وقع الذباب وتنقل وأقام فوق كبريائها، ومهما بصق وتقيأ على عيونها وطعامها وعلى أخلاقها ونظافتها، ومهما عاشت عاهات الآلهة وتشوهاتها وذنوبها وأخطاؤها في أبصارها وفي عقولها وفي حياتها، بل وفي صحتها وصحة أطفالها، بل وفي صحة حيواناتها وحقولها، بل وفي صحة النجوم والأنهار والسحاب حولها وفوقها.

نعم، إنه لو أمكن أن ترتفع الطاقة الانفعالية في هذه المجتمعات لكان من الحري جداً، أو من المحتوم جداً أن تصاب بالرجفان العظيم ـ أن تصاب بكل أساليب ومستويات الغضب والاشمئزاز والغثيان النبيل، لتلقي بكل هذه المواكب الطويلة من الدمامات والبلادات والأكاذيب والتشوهات، ومن الهوان والتخلف والشقاء والتقبل الذليل، ومن الآلهة والمعلمين والزعماء الذين تحولوا إلى عاهات في تفكيرها وأخلاقها، وإلى أمراض مستعصية في حياتها وتاريخها.

أن تلقي بكل ما فوق عيونها وطعامها وكبريائها من ذباب، وأن تصوغ وجودها صياغات أخرى أقوى وأذكى وأنظف وأكثر شموخاً وغضباً ورفضاً، وأقدر على أن تهش من فوق أنوفها كل منابر ومحاريب وعروش الحشرات. كيف أمكن أن تصبح أنوف هذه المجتمعات منابر ومحاريب وعروشاً ومراقص لكل الحشرات؟ إنها بلادتها الانفعالية.

إن البلادة هي إحدى محطات الضعف الكبرى التي تراخت وهزمت عندها كبرياء الإنسان. إن هذه البلادة الانفعالية هي إحدى محطات الضعف التاريخية الكبرى التي تنازل فيها الإنسان عن كرامته وقوته ونشاطه وإبداعه. إنها المقبرة التي تثوى فيها كل احتمالاته ومواهبه القوية. إن بلادة الإنسان الانفعالية هي الهدية الكريمة التي قدمتها الطبيعة إلى الزعماء والمعلمين وإلى الحشرات والأديان والمذاهب لكيلا يتحول أي الإنسان المصاب بهذه البلادة إلى منكر وغاضب ومحارب ومسقط لها.

إن العجز في الانفعال ليس سوى تعبير عن العجز في الحياة. وهل الانفعالات القوية إلا الحياة في أقوى تعبيراتها؟

* *

كيف يمكن أن يتصاعد البشر بانفعالاتهم؟ وكيف يمكن أن يجعلوها تتصاعد بهم؟

كيف يمكن أن يتحولوا إلى قوم غاضبين ومشمئزين ورافضين ومصابين بالغثيان الروحي والأخلاقي والذهني والبصري، لكي يواجهوا كل المواقف والمواجهات بما يساويها من الغضب والرفض والاشمئزاز ومن الغثيان الروحي والعقلي والأخلاقي؟

كيف يمكن أن يتحولوا إلى عيون محدقة، ترى الدمامات والبشاعات بكل أحجامها وأوصافها وأخلاقها؟ كيف يمكن أن يتحولوا إلى رائين للذباب بكل بذاءاته وكبريائه وعدوانه على أنوفهم وأخلاقهم وعقولهم وشموخهم، وإلى معاقبين ومحاسبين لآلهة الكون على جميع عاهاتها ودماماتها وبلاداتها، وعلى كل ذنوبها وأخطائها، وعلى كل عبثها وضآلتها وطفولتها؟ كيف أمكن أن يحترم أو أن يقدس هؤلاء هذه الطفولة والضآلة التي يعيشها الكون أو التي تعيشها الآلهة في الكون؟

إن في طبيعة الحياة الشوق إلى هذا التصعيد والقدرة عليه. وإن في طبيعتها كذلك كل المحرضات التي لا عداد لها على هذا التصعيد.

إنه لا يصرف الحياة عن ممارسة التصعيد للانفعالات إلا شيئان: عملية التبريد وعملية التشتيت ـ تبريد الانفعالات لئلا تبلغ درجة الغليان، وتشتيتها لئلا تبلغ درجة الفيضان.

ولكن هل صحيح أن في الحياة أو في الإنسان شوقاً إلى تصعيد الانفعالات؟ هل في الإنسان شوق إلى إشعال الحرائق الكبرى في ضميره وأعضائه، في بيته وثيابه، وفي منطقه وتفكيره، وفي كل رؤاه وممارساته وتصوراته؟ هل يوجد كائن غير الإنسان يصنع الحرائق داخل ذاته وفي ضميره وطريقه؟

هل في الإنسان شوق إلى أن يعيش في الجحيم أو أن يعيش فيه الجحيم؟

كيف خلق الإنسان جحيمه؟ لقد أصبح للإنسان جحيم. فكيف حدث هذا؟

إن في الإنسان جحيماً يعيش داخل ذاته. وهل جحيمه هذا هو الذي ألهم أنبياءه أن يخترعوا له جحيمهم؟

هل الإنسان يخلق جحيمه أم يتخلق فيه جحيمه؟ هل تصور الإنسان الجحيم بالبحث والإرادة والرغبة أم فرض عليه تصوره؟ كيف حدث أن أصبح للإنسان جحيم؟ من صنع هذا العقاب؟ أي وحش تصوره أو أراده أو قبله أو صنعه؟

هل الإنسان يحزن ويخاف بالإرادة والبحث أم بالقهر والإلزام؟

هل نحن نضع للإله ولأعوانه من سكان السماء صفاتهم التي تحولنا إلى افتضاح من الذعر والانهيار والإنهزام والتوقع بالإرادة والشوق أم بالضرورة؟

بأي منطق أو بأية صداقة لأنفسنا وضعنا لسكان السماء صفاتهم ووحشيتهم المذلة لكبريائنا ولذكائنا ولشجاعتنا؟

هل الإنسان هو الذي علم قلبه الخفقان؟ هل قلبه هو الذي تعلم الخفقان؟ أم الخفقان هو الذي جعل قلب الإنسان يصاب بالخفقان؟ من علم قلب الإنسان الخفقان، ولماذا؟

هل الخفقان نبوة نتعلمها أم هو آفة نعيشها أو تعيشنا بإكراه وعذاب؟ هل هو رفض نتعلمه أم رجفان نكابده؟ هل هو نشيد سعيد نغنيه أم هو زلزال رهيب نقاسيه؟ من يستفيد من خفقان القلوب؟ وهل يوجد مستفيد؟ وهل الأشياء تحدث لأنه يوجد من يستفيد منها؟ إذن المستفيد من يستفيد من وجوده؟ إذا حدث الشيء بالمنطق فالمنطق بأي منطق يحدث؟

أليس الإنسان في اطراد دائم يبحث عن وسائل التبريد؟ أليس في معاناة دائمة ليصنع ويبتكر أجهزة التبريد وظروفه، ليعلمه ويتعلمه؟ أليس كل أنبيائه ووعاظه يجيئونه ليعلموه كيف يبرد انفعالاته، كيف يقتل فيها التوقد واللهيب؟ أليس أنبياؤه ووعاظه إنما يريدون تملقه والتقرب إليه حينما يذهبون يعلمونه كيف يميت انفعالاته؟

وهل آمن بأنبيائه ووعاظه إلا لأنهم يميتون انفعالاته ويساعدونه على تمويتها؟

أليس الإنسان يحاول دائماً أن يحول كل الأشياء إلى أجهزة مبردة لتعيش فيها كل أشواقه وآماله واحتياجاته وأفكاره وأحاسيسه وهمومه، بل وتطلعاته ونظراته وأعصابه، في خمود وخمول واسترخاء لادة محصنة ضد كل ذكاء وانزعاج ورؤية وتحفز وتوقع؟

أليس أثمن الأشياء في حياة الإنسان وفي مطالبه هي الأشياء التي تهبه الخمول والبلادة والعجز عن الرؤية وعن الإنكار؟

أليست جميع عقائد الإنسان، وجميع آلهته ومذاهبه وعباداته وأوهامه وتعاليمه وأقاصيصه وخيالاته ـ أليست جميعها مصانع تبريد، يريد منها وبها أن تهيىء له الطقس الخامل المريح، لكي يصنع له الرضا والقناعة والاقتناع بكل ما يحدث وبكل ما يصيبه، ولكي يحميه من كل غضب ورفض واشمئزاز واحتجاج، بل لكي يحميه من كل رؤية، بل لكي يجعله يتطلع إلى الدمامات والبلاهات والعاهات والآلام والأخطاء والمظالم العظمى معجباً مصلياً حامداً شاكراً مهزوماً مقهوراً أمام كل الجمال والذكاء والرحمة والعبقرية والإعجاز الذي يشاهده؟

أليست جميع عقائد الإنسان ومذاهبه وآلهته وأوهامه وتعاليمه وخيالاته وأساطيره بحثاً عن الإعجاب بالدمامات والعاهات وبالبلاهات وبالآلام والمظالم وبكل الأشياء الرديئة الموجودة أو التي قد توجد؟

أليس الإنسان يصاب بتوقد الانفعالات ـ أي إذا أصيب بها ـ دون أن يريد ذلك أو يطلبه أو يرحب أو يسعد به كما يصاب بالآلام والأمراض وبالهموم والشيخوخة والموت والعار؟

إنه يصاب بذلك تخطياً للأسوار التي أقامها حوله وتسللاً منها ونفوذاً فيها ومغافلة لها.

لقد ظل الإنسان في كل تاريخه وتحت كل ظروفه ومستوياته الحضارية والإنسانية والنفسية والثقافية يصوغ آلهته ومذاهبه وأنبياءه وأديانه وكل تعاليمه ونظرياته لتكون أقوى الأجهزة على تبريد انفعالاته وعلى تلقينها كل معاني ومستويات الخمول والاسترخاء والعجز والبلادة. لقد كان يصنع آلهته بلا عيون ولا آذان ولا أعصاب وبلا شهامة ولا نظافة لكي يعيش معها دون أي حماس. لقد جعل لآلهته حواس ولكنه جعل حواسها بلا وظيفة. إنها لا تخيفه ولا تزجره. إن أي إله أو دين أو مذهب ابتكره الإنسان أو آمن به أو تقبله مفروضاً عليه أو قاتل تحت اسمه، في أي عصر أو في أي مكان، لم يكن يريد منه إلا أن يكون أقوى وأفضل جهاز تبريد بل أقوى وأفضل جهاز قتل لكل أجهزة الحماس والتوقد والغضب والرفض والاحتجاج والاشمئزاز والتحديق فيه. ما أقبح ما صاغ الإنسان الإله. لقد وضعه في صيغة يستطيع أن يحتمي بها ويحتمي منها. لقد أوجده ليحتمي به ثم حوله إلى أعمى وأصم وخامد وبطيء وساذج ومخدوع ومتقبل للمديح وللتوبة وللاعتذار لكي يحتمي منه.

لقد كان الله في كل التاريخ أضخم وأشهر جهاز للتبريد عرفه الإنسان، وحاول أن يقاوم به كل تحريضات واحتجاجات وغضب الحياة فيه.

لقد كان الله في كل التاريخ جهازاً ممتازاً يراد منه وبه أن يبرد توقد واحتجاج اشمئزازنا من الذباب مهما كان طغيانه أي طغيان الذباب، ومهما كان سلطانه وانتصاره علينا.

لقد أريد من الإله وبالإله أن يحمي الذباب من غضبنا واشمئزازنا ومن صراخنا استفظاعاً لانتصار أي الذباب علينا. أو قد أريد بالإله ومن الإله أن يحمينا من الغضب والاشمئزاز حينما نجد مج الذباب قد تفوق على مجدنا، وحينما نجد بذاءته قد انتصرت على نظافتنا وعلى ذكائنا ونخوتن وشهامتنا. لقد كانت بذاءة الذباب دائماً منتصرة علينا. فكيف نخفي هذه الهزيمة أو هذا العار أو هذ الاذلال عن أنفسنا وعما ندعيه من شجاعة وكبرياء فينا؟ لقد أردنا أن يكون الإله هو جهاز الإخفاء

لقد كان انتصار الذباب والحشرات علينا شيئاً مرهقاً ومذلاً لكبريائنا وإنسانيتنا. إنه انتصار لا بد أ يصنع لنا الانزعاج والاحتجاج والشعور الحاد الباهظ والعار والاذلال.

إذن لا بد أن نحمي من هذه المشاعر. لا بد من محاولة للحماية من ذلك.

وهنا جاء الإله ليؤدي هذه الحماية، أو ليكون هذه المحاولة للحماية أو ليكون إحدى المحاولات الباحثة عن هذه الحماية.

إذن لقد جاء الإله ليكون قتلاً لعيوننا ولمشاعر الكبرياء والنظافة والشموخ فينا. لقد جاء لكيلا نر

الذباب وندرك بذاءته وقبحه واستعلاءه علينا، فنصاب بالغضب وبالمشاعر الأخرى الحادة المقلقة المعذبة لاستقرارنا ولإعجابنا بأنفسنا وبما حولنا.

لقد جاء الإله أو تصورناه ليكون تفسيراً جيداً مرضياً عن الذباب وتفسيراً مرضياً للذباب.

إن رؤيتنا للذباب أي لو استطعنا رؤيته لا بد أن تصبح هجاء للنجوم وتشويهاً لجمالها ونظافتها، بل وتشكيكاً في جمالها ونظافتها إن رؤيتنا للذباب لو رأيناه ـ لا بد أن تتحول إلى رفض لصلواتنا ولإيماننا ولتحديقنا في أطفالنا وفي المرآة بابتهاج وإعلان وإعجاب.

وكيف يكون الإله حماية لعيوننا من رؤية الذباب؟ لأنه يكون حماية لمشاعرنا من الغضب والرفض ضد الذباب؟ وعيوننا لا ترى إلا بمشاعرنا، أو لا ترى معزولة عن مشاعرنا أو خارجة عليها متحدية لها. إننا لا نرى أو نرى، ولكننا نشعر أو لا نشعر. إننا لا نشعر لأننا نرى، ولكننا نرى ونشعر لأننا لا بد أن نشعر، ولأننا نريد أن نشعر، ومحتاجون إلى الشعور، ومحكوم علينا به.

ولكن هل استطاع الإله أن يحمي الذباب من رؤيتنا؟ هل الإله هو الذي حمى الذباب من رؤيتنا؟ هل الإله هو الذي حمى الذباب من اشمئزازنا وغضبنا ومن عقابنا له؟ أم الذي حماه هو عجزنا عن مقاومته، أو عجزنا عن دفع ثمن مقاومته وعن فهمه وفهم ما فيه من بذاءة وقبح وعدوان علينا، أو رفضنا أن ندفع ثمن المقاومة والفهم له، وثمن الغضب والاشمئزاز منه.

* *

هل الانفعالات تساوي أسبابها أم تساوي ذاتها، أي أم تساوي نفس المنفعل؟ هل دمامة الذباب وبذاءته تساويان بذاءاته ودمامته أم تساويان الرائي المواجه لهما؟

وما هي أسباب الانفعالات؟ هل لها أسباب محددة محسوبة ثابتة بالصورة أو بالحجم أو بالوزن أو بالأبعاد والحدود الذاتية؟ هل للانفعالات أسباب عالمية أو إنسانية أو منطقية أو أخلاقية؟ أليس من المحتوم حينئذٍ لو كان ذلك كذلك أن تتساوى انفعالات كل الناس أمام المناظر والمواقف والممارسات المتساوية؟ أليس من المحتوم حينئذٍ أن ينفعل كل الناس أو أن يكفوا كلهم عن الانفعال، وأن تتساوى درجات انفعالهم أمام كل الأشياء، أي لو كانت للانفعالات أسباب عالمية؟

وهل الإنسان ينفعل لأنه يواجه أسباباً تطالبه بالانفعال أو تفرض عليه الانفعال. أم ينفعل لأنه لا يستطيع ألا ينفعل، لأنه محكوم عليه من داخله وبحاجاته وبأخلاق أعضائه وذاته بالانفعال؟ هل أنت تنفعل كلما وجب عليك أن تنفعل، وتكف عن الانفعال كلما وجب عليك الكف عنه؟ هل أنت تنفعل بقدر ما يجب أن تنفعل وبقدر ما يساوي الموقف، أم بقدر ما تساوي ذاتك؟

ولكن متى يجب عليك الانفعال ويجب عليك الكف عن الانفعال؟ وما هو القدر الانفعالي الذي تجب عليك مقاساته أو القدر الذي يساوي أو يلائم الموقف الذي تواجهه؟

هل توجد لذلك حدود أو مقاييس أو أوقات معروفة أو يمكن أن تكون معروفة؟ أليس ما يجعلك

تتمزق من هول الانفعال وبطشه يجعل سواك يستلقي ويسقط على الأرض وعلى كل عروش الهوان والعار رضا واستقراراً واستمتاعاً بالهوان؟

أليس ما تراه سبباً من أسباب الغضب والبغض والزندقة والصراخ استفظاعاً واشمئزازاً يراه غيرك سبباً من أسباب الحب والإعجاب والإيمان والصلاة والهتاف والتسبيح والإلقاء بكل الذات فوق كل الأوحال والآلام استسلاماً وركوعاً؟

أليس ما يجعلك تهتف إعجاباً وإيماناً يجعل آخرين يصرخون رفضاً واستفظاعاً؟

أليست آلهتك ومذاهبك وأديانك تجيء إليك لتعلمك أشياء معينة ولتطالبك بالرضا عنها والإعجاب بها. وبالصلاة شكراً لها وعليها ومن أجل بقائها والمزيد منها، بينما تجيء آلهة ومذاهب وأديان أخرى لتعلم النقيض وتطالب بالنقيض؟ بل إن الآلهة والمذاهب والأديان الواحدة تعلم في وقت من الأوقات وتعلم قوماً من الناس نقيض ما تعلم في وقت آخر ونقيض ما تعلم أقواماً آخرين. إن إلهك أو مذهبك أو دينك أو نبيك ليعلمك ويطالبك ويريد منك في وقت من الأوقات نقيض ما يعلمك ويريد منك ويطالبك في وقت آخر. إن تعاليم وأخلاق آلهتك وأنبيائك وأديانك ومذاهبك لتتغير وتتناقض لأنك أنت تتغير وتتناقض، أو بقدر ما يحدث لك ذلك.

هل الاستقباح يساوي القبح أم يساوي المستقبح أم يساوي الاستقباح أم يساوي وقته وظروفه، أم يساوي بعض ذلك أو كل ذلك؟

وهل يوجد قبح أم يوجد استقباح ومستقبح؟ هل يوجد جمال أم يوجد راء له محس به جائع إليه؟

هل الغضب يساوي الموقف أم يساوي الغاضب أم يساوي المغضوب منه وعليه أم يساوي معلمي الغضب؟

هل أي شيء يساوي نفسه أو منطقه أم يساوي المواجهين له المتعاملين عليه المحتاجين إليه؟

هل الحب يساوي المحبوب أم يساوي المحب أم يساوي الحب أم يساوي الآلهة والمعلمين والوعاظ الذين حدثونا طويلاً عن مزايا الحب وشتمونا طويلاً لأننا لم نستطع أن نحب كما يقولون أو على مستوى به يطالبوننا ويريدون منا، أو لأننا لم نستطع أن نحب الحق أو الآخرين، أو أن نحبهم هم أي الآلهة والمعلمين والوعاظ بقدر ما يحبون هم أنفسهم وأهواءهم؟

هل الحب يساوي ما يجب أم يساوي ما يحدث؟ هل أي شيء يساوي ما يجب أم يساوي ما يحدث؟ هل أنت تساوي ما يجب أن يكون أو أن تكون أم أنت تساوي ما حدث أي تساوي ذاتك ووجودك؟ وذاتك ووجودك هل يساويان إرادتك لهما أم عجزك عن رفضهما؟

هل الإله يساوي الإله أم يساوي المؤمنين به؟ هل الإله يساوي ما يصنع أم يساوي ما يراد منه، أو ما يظن فيه، أو ما ينبغي أن يكون؟ هل الإله يساوي وجوده أم يساوي منطق وجوده؟

هل يساوي وجوده أم يساوي الاحتياج إلى وجوده أم يساوي فرض وجوده على وجوده؟

هل الإله يساوي ذاته وصفاته أم يساوي صفات وخيال وأماني وضعف من يتصورونه ويفسرونه ويريدونه ويرونه بلا رؤية ولا عيون ولا منطق؟

هل النبي يساوي تعاليمه ونبوته أم يساوي ذاته؟ هل نبوته وتعاليمه تساوي نبوته وتعاليمه أم تساوي أتباعه؟

* *

نعم، لقد كانت أكثر أو كل التعاليم التاريخية التي حكمت البشر أو التي أريد لها أن تحكمهم في كل عصورهم ومجتمعاتهم القديمة، والتي لا تزال تحكمهم جميعاً أو تحكم الأكثرين منهم موضوعة لكي تصبح شكائم ولجماً للتوقدات الانفعالية التي قد تنطلق تحت الآلام أو الضرورات أو الفظاعات والدمامات التي تغطي كل شيء، والتي تعيش فيها كل العيون والعقول والأخلاق، أو تحت أي مثير من المثيرات المالئة لكل الآفاق والاتجاهات والتحديقات والتصورات والقراءات، والتي يصدمنا بها الكون وتصدمنا بها أنفسنا وحياتنا كلما فكرنا أو نظرنا أو مارسنا أو أردنا أو اتجهنا، بل وكلما رفضنا أو عجزنا أن نفكر أو ننظر أو نمارس أو نريد أو نتوجه.

إنها كذلك كانت دائماً وسوف تظل أبداً هذه الشكائم واللجم سلوكاً وفنوناً وأخلاقاً وممارسات عالمية وأبدية، لها أنبياؤها ودعاتها وكل أجهزتها وأساليبها وفنونها ومحاريبها ومنابرها، يمارسها ويقاتل بها كل الطغاة والمتسلطين وكل الباحثين عن مقاومة وقهر كل قوى الغضب والاستقباح والاستفظاع والرؤية والتفكير والمقاومة في الإنسان.

إن مقاومة الانفعالات أسلوب من أساليب مقاتلة الإنسان ومحاولة من محاولات الانتصار عليه. ان جميع الطغاة وجميع الراغبين في التسلط والقوة والكبرياء والخديعة يمارسون هذا الأسلوب القتالي ضد البشر. إن الإنسان لا يكون جندياً جيداً أو عبداً جيداً إلا إذا فقد التوقد العقلي والنفسي والأخلاقي.. إلا إذا فقد توقد الرؤية والمواجهة وتوقد الإعجاب والاشمئزاز..

وهؤلاء حينما يضطرون إلى إشعال مشاعرنا ضد الشيطان أو ضد عدو ما أو ضد شيء ما، أو انتصاراً لقضية ما، أو لهم، أو لحماقاتهم ومغامراتهم، أو للإيمان بهم، فإنهم حينئذ لا بد أن يشتدوا في إخماد مشاعرنا وفي زجرها عن أي انفعال ضد أي شيء آخر. إنهم لا يريدون أن نكون متوقدي الانفعالات، وإنما يريدون أن نطيع ونفعل إرادتهم بتوقد أي ضد التوقد.

إنه قد يكون تحريضهم لمشاعرنا على الانفعال والغضب ضد الشيطان أو الأعداء أو ضد أشياء معينة أو للتعصب لهم والإعجاب بهم ـ قد يكون تحريضهم هذا أسلوباً من أساليبهم لإخماد مشاعرنا وتعجيزها عن أي احتجاج أو غضب أو رفض آخر، أي لتعجيز مشاعرنا عن أي انفعال آخر.

إنهم قد يحرضون مشاعرنا على الغضب من شيء ما لكي يصرفونا عن الغضب على أشياء أخرى أو عليهم.

إن الدعاة والأنبياء والقادة والزعماء وجميع الأقوياء والمتسلطين ليعلمون أنهم لن يقبلوا أو يطاعوا أو يقوا أو يحبوا أو يرى فيهم شيء من الجمال أو الذكاء أو الحقيقة أو الصدق أو الفضيلة أو النظافة إلا بقدر ما تهون وتخمد وتستسلم مشاعر وتحديقات وغضب المجتمعات التي يتعاملون بها ويتسلطون عليها ويتحدثون إليها. إنهم ليعلمون أن انطلاق المشاعر لن يكون إلا عليهم وضدهم. وإنهم كذلك ليعلمون أنهم لن يقوموا في أي تفسير من تفاسيرهم إلا بقدر ما تعجز المشاعر عن التوجه إليهم، وعن التحديق فيهم، وعن الاشتراط عليهم، وعن الغضب والاحتجاج، وعن الاشمئزاز والاستفظاع والاستقباح. إنهم لا يقومون في كل تفاسيرهم ومستوياتهم إلا بقدر ما تعجز المشاعر عن الالتفات إليهم أو إلى الأشياء، وعن محاسبتهم ومحاسبتها، وعن الاشتراط عليهم وعليها أي على الأشياء. إن الاشتراط مخيف. إنه سلاح تخشاه الآلهة والزعماء والأنبياء والحكام وكل المعلمين.

إن تحديق المشاعر المتوقدة نفي لكل شيء. إنه رفض شامل. إنه رفض ونفي لكل الآلهة والزعماء والقادة والمعلمين. إنه هجاء واتهام لكل الأشياء. إنه إعلان عن قبح وتفاهة وكذب وخطيئة كل الناس وكل الأشياء. إنه إعلان عن عذاب كل شيء، وعن العدوان على كل شيء. إن تحديق المشاعر يتحول إلى عار في وجه كل شيء. إن التحديق المتوقد يتحول إلى عار وإلى افتضاح ودمامات وتشوهات في وجوه الآلهة والزعماء والقادة والمعلمين، وفي وجوه وأخلاق وتفاسير كل الناس وكل الأشياء، حتى في وجوه النجوم وفي أخلاقها وتفاسيرها ونياتها وضمائرها ـ حتى في نياتها وضمائرها.

إن التحديق في الضمائر والنيات هو أقوى الأعداء لكل الأشياء إن أقوى أعداء النجوم هو التحديق في ضمائرها ونياتها.

إنه لا توجد أية حماية أو حراسة تحرس وتحمي الآلهة والزعماء والقادة والمعلمين والأنهار والحقول والنجوم، تحمي وتحرس وجوهها وأخلاقها وضمائرها ونياتها من غضب المشاعر ورفض المشاعر إلا خمود المشاعر. إنه لا شيء يحمي ويحرس كل الوجوه والأخلاق والنيات والضمائر من أن تصاب بكل العاهات والتشوهات والدمامات والذنوب إلا إذلال المشاعر وهزيمتها. إن هزيمة المشاعر انتصار لكل الدمامات.

إن المشاعر المتوقدة لا بد أن تتحول إلى اشتراط وغضب ورفض وإلى استفظاع واستقباح.

إننا لو تعاملنا بكل طاقاتنا الانفعالية لما استطعنا أن نعايش الأشياء استقباحاً لذنوبها ودماماتها وعارها ولذنوبنا ودماماتنا وعارنا. إنك لو مارست كل طاقتك الانفعالية لما استطعت النظر إلى النجوم لقبحها وضآلتها وهبوطها، أي اشمئزازاً من قبحها وضآلتها ومن هبوط مكانها.

إن الانفعالات إذن لا بد أن تتحول إلى مقاومة وإلى قتال. لهذا كان محتوماً أو مطلوباً أن تخمد أو تموت.

ولهذا أيضاً كان إخماد المشاعر وهزيمتها قضية عظمى من قضايا جميع الزعماء والقادة والمعلمين،

بل من قضايا جميع الآلهة في جميع العصور. إن إخماد المشاعر هي نبوة كل نبي وزعيم وقائد وحاكم. إنه لا يوجد إنسان واحد لا يمارس أسلوباً ما أو عديداً من أساليب الاخماد للمشاعر. إن الطبيعة نفسها تمارس هذا الفن.

إنه لم يحدث في كل التاريخ أن جاء إله واحد أو زعيم واحد أو قائد واحد أو معلم واحد لم يضع في حسابه وفي تعاليمه وفي فنون مقاوماته وحروبه زجر المشاعر وإذلالها وإعطاءها جميع المسكنات والمثبطات والمخوفات مهما كان محتاجاً إلى إشعالها وتوجيهها إلى محاربة الشيطان أو الأعداء والخصوم والمخالفين، أو إلى التعصب له أو إلى الإيمان به أو إلى السير وراءه في جميع تحركاته الجنونية والعدوانية بلا أي قدر من الوقار أو الذكاء. إن كل نبوة وزعامة وقيادة وألوهية لا منطق ولا سلاح ولا بقاء ولا غفران ولا تفسير لوجودها ولا لسلوكها ولا لغبائها وتفاهاتها وأكاذيبها لو لم تستطع وتمارس إخماد المشاعر.

إن توقد المشاعر يصنع الرؤية، وإن الرؤية تصنع التفكير، وإن التفكير يصنع الرفض والغضب والاشتراط وإن الرفض والغضب والاشتراط يصنع المقاومة.

لهذا كانت نبوة وزعامة وقيادة كل نبي وزعيم وقائد لا تساوي أكثر من قدرته على هزيمة المشاعر ومنعها من التحديق.

إذن فلتقاوم المشاعر المتوقدة، لتكن مقاومتها قضية لجميع الأقوياء والمتسلطين والمخادعين، ولكل لصوص الإنسان. لتكن مقاومة المشاعر المتوقدة قضية لجميع الآلهة والزعماء والقادة والحكام والمعلمين. نعم، لقد كانت هذه المقاومة هي قضية هؤلاء جميعاً.

إننا في توقد مشاعرنا نجرؤ على اقتحام ما كنا نخشى اقتحامه، ونجرؤ على التحديق بغضب وبسالة بما كنا نتهيب النظر إليه، فيما كنا نتهيب مخاطبته بعيوننا المغمدة في كل معاني الرهبة النفسية العقلية الأخلاقية والتاريخية ـ المغمدة في كل معاني الهزيمة والاذلال التاريخي والاجتماعي.

.. إننا حينئذٍ لا بد أن نتغير في أحكامنا على الأشياء وفي تقويمنا لها وفي رؤيتنا لأحجامها ولصفاتها ولقيمها وأثمانها. إن إصابة المشاعر بالتوقد والغضب وبالشهوة في التحديق الغاضب تصنع التغيرات الكبرى.

إن الفكر حالة انفعالية. إنه خلق وحصيلة الحالة الانفعالية، وإنه خاضع وتابع ومستجيب لها ودائماً. إنه محكوم بها أبداً، بداية ونهاية واتباعاً.

الذين لا ينفعلون ـ لو وجدوا ـ هل يمكن أن يفكروا؟ والذين لا يتغيرون في انفعالاتهم هل يمكن أن يتغيروا في تفكيرهم أو في رؤاهم؟

ولكن هل يوجد من لا ينفعلون أو من لا يتغيرون في انفعالاتهم؟

إن التفكير أسلوب من أساليب العاطفة والرغبة والشهوة، أو هو استجابة لها، أو تحول عنها، أو هو

عمل من أعمالها. إننا لو لم نكن ننفعل ونرغب ونشتهي ونحب ونخاف ونريد لما كان ممكناً أن نفكر أو أن نكون مفكرين. لقد أصبحنا مفكرين بعد أن عشنا زمناً طويلاً منفعلين غير مفكرين. لقد أصبحنا مفكرين لأننا قد أصبحنا زمناً طويلاً منفعلين. لقد انتقلنا من الشعور أو الانفعال إلى التفكير.

إنها أبداً لتوجد انفعالات بلا تفكير. ولكن هل يمكن أن يوجد أي تفكير بلا انفعالات؟ إنه ليس حتماً أن يصنع الانفعال والتفكير أو أن يقاد به، ولكن حتماً لا تفكير بدون انفعال وجوداً وتكوناً، وكذا ممارسة.

نعم، إن التفكير ليس إلا حالة انفعالية قد جاءت بصيغة ما أو بتعبير ما. إنه حالة انفعالية متحولة. نعم، إنه صيغة من صيغ الغضب أو الحزن أو الاشمئزاز أو الاستقباح أو الاستفظاع أو البغضاء أو الحقد أو الحنق أو الشعور بالألم أو الهوان أو الظلم أو الحقارة.

إن التفكير حالة انفعالية متطورة أو متراكمة أو متكررة أو متقادمة أو حادة أو غاضبة أو مقاتلة على مستوى أكثر تقدماً. إن التفكير لا يهب ذاته ولا يعلمها ولا يأمرها ولا يلدها.

إن التفكير ليس ابن ذاته ولا إلهام ذاته ولا خادم ذاته، ولا حتى مؤدب ذاته أو واعظها.

إنه لهذا لا يمكن أن تكون أفكارنا معزولة أو بعيدة عن شهواتنا وأهوائنا وأنانياتنا. وإنه لهذا أيضاً لا ينبغي أن نقاوم أو نرفض أو نضعف شهواتنا أو أهوائنا أو أنانياتنا لأننا نريد القوة والمجد والانتصار وكل الطاعة لأفكارنا. إننا لو استطعنا أن نقاوم أو نعصي أو نضعف شهواتنا وأهواءنا وأنانياتنا لكان المعنى المحتوم لذلك أن نفعل كل ذلك بتفكيرنا، أي أن نعصيه ونقاومه ونضعفه.

إن الذي ينبغي أن نصنعه في هذه القضية أو في هذا الموقف هو أن تكون أفكارنا حصيفة وذكية وقوية ومتوازنة في خضوعها، بل في عبوديتها لأوامر وإملاءات أهوائنا وشهواتنا وأنانياتنا.

إني أريد هنا أن أكرر ما كنت قد قلته ذات مرة. وقد قلت في الصفحات السابقة: إن التكرار هو التعبير الشامل الدائم عن وجود كل موجود وعن حياة كل حي وعن ديمومة كل دائم وعن ممارسة كل ممارس لنفسه ولتفاسيره..

.. نعم، إن الذي ينتقل من اتباع مذهب أو فكرة أو دين أو عقيدة ما، أو ينتقل من عبودية إله أو زعيم أو معلم أو من موقف إلى موقف آخر مضاد، بعد طول تفكير وبعد تحديق ذهني، لا يمكن أن يكون معنى انتقاله أنه قد تمرد على هواه أو على أنانيته أو على شهواته، أو أنه قد هزمها أو عصاها أو أضعفها. ولكن المعنى كله أنه قد وجد شهوته وهواه وأنانيته فيما انتقل إليه.

إن أي إنسان يتمرد على كل أهوائه وشهواته وأنانياته، أو يعصيها أو يهزمها أو يضعفها ـ لو أمكن حدوث مثل هذا ـ لن يستطيع أن يفكر أو أن يرى أو أن يغير آراءه وأفكاره، أو أن ينتقل من مذهب أو من دين أو من اعتقاد أو من موقف أو من إله إلى آخر أو إلى نقيض من المذاهب أو الأديان، أو المعتقدات، أو من المواقف أو من الآلهة.

إن من اللغو أو من الغفلة أو من العبث العالمي التاريخي المكرر الدائم المتفق على تكراره تلك المناشدات والعظات والتوجهات إلى الآخرين وإلى جميع الناس، طالبة إليهم بدموع وحماس وصراخ وإصرار، بل وببراءة أو بما يشبه البراءة ـ طالبة إليهم أن يتنزهوا عن الأهواء والشهوات والأنانيات، حينما يفكرون أو يعملون أو حتى يريدون.

إن الأهواء والشهوات هي المبتكرة والمصححة والمنظمة والهادية والقائدة والآمرة الناهية للأخلاق وللأفكار ولكل المواهب والعبقريات. إن الأهواء والشهوات هي العاصية الزاجرة للأهواء وللشهوات.

ومرة أخرى:

هل يستطيع البشر أن يصححوا منطقهم أو سلوكهم على مستوى شامل أو عالمي؟ بل هل يستطيع أو يريد إنسان واحد أن يتجنب في تفكيره أو في ممارساته الأخطاء والخرافات؟

هل من مصلحة حياة الإنسان أو في قدرتها تجنب الأخطاء السلوكية والمنطقية بل والنفسية؟

لقد كان الصواب أن تجيء العظات والمناشدات والتعاليم لتعلم الناس كيف يطيعون أهواءهم وشهواتهم وأنانياتهم، وكيف يجب أن تكون أهواؤهم وشهواتهم وأنانياتهم قوية ومتوقدة ومنتصرة، وقائدة، لكي يفكروا، ولكي تكون أفكارهم قوية وذكية ومتوقدة ومنتصرة، ولكي تكون قادرة على أن تتعامل وتتكافأ مع شهواتهم وأهوائهم وأنانياتهم، لكي تصنع التغيرات والحضارات الكبرى، بل لكي تصنع النظافة والاستقامة والتقوى، بل لكي تعصي نفسها، لكي تعلم نفسها الخروج على نفسها والتجاوز لها. إن إنساناً ما لن يستطيع أن يعصي أو أن يتخطى شهواته وأنانياته وأهواءه إلا بطاعته لأهوائه ولأنانياته ولشهواته، وإلا بقوتها ونصائحها وتقواها.

إن المنطق الصحيح أو السلوك الصحيح هو البحث عن مكان الأهواء والشهوات والأنانيات لكي يسخر كل العقول والأخلاق وكل الآلهة والمعلمين وكل المذاهب والأفكار والتعاليم وكل الأشياء لكي تكون طريقاً موصلاً إلى تلك الأهواء والشهوات والأنانيات. إن كل المذاهب والتعاليم والأديان وكل الآلهة والأنبياء والمعلمين لم يكونوا في كل التاريخ إلا أدلاء يدلون الإنسان على شهواته وأنانياته وأهوائه.

إن الحق أو الذكاء أو الاستقامة والتقوى أو الخير في كل لغاته ومنابره ونصوصه ومحاريبه المختلفة، وفي أفواه وقلوب وعقول كل الآلهة والأنبياء والدعاة والقديسين وجميع المعلمين بل وجميع البشر العاديين، لا يعني إلا القدرة على بلوغ هوى أو شهوة أو أنانية من الأهواء والشهوات والأنانيات، بأسلوب ووسيلة من الأساليب والوسائل. إن كل قيمة المذاهب والأديان والتعاليم والآلهة والأنبياء والقديسين أنهم يساعدون على بلوغ الأهواء والأنانيات والشهوات أو يظنون كذلك.

إن المنزهين القديسين الأتقياء في تفاسيرنا وأحكامنا ومصالحنا، ليسوا هم الذين ليست لهم أهواء

ولا شهوات ولا أنانيات ـ وليسوا كذلك هم الذين ضعفت أو هزمت أو استسلمت أهواؤهم وشهواتهم وأنانياتهم، لأنهم قد قهروها طويلاً وكثيراً.

ولكن هؤلاء الأتقياء القديسين المنزهين ـ أعني الذين نراهم كذلك ـ هم الذين يعبدون أهواءهم وشهواتهم وأنانياتهم بأسلوب لا يصادم أو يعارض أو يناقض أو يهاجم أو يتحدى أو يهزم شهواتنا وأهواءنا وأنانياتنا نحن، بل ليكون ملائماً ومرضياً ومحققاً لها.

إن أعظم وأتقى الأنبياء في حسابنا هو النبي الذي تجيء شهواته وأهواءه أكثر توافقاً مع شهواتنا وأهوائنا، وليس هو الذي يكون أكثر عصياناً لشهواته وأهوائه أو رفضاً لشهواتنا وأهوائنا.

إنه لو أمكن أن يوجد من ليست لهم أهواء ولا أنانيات ولا شهوات، أو من يستطيعون الخروج على كل أهوائهم وأنانياتهم وشهواتهم، والعصيان لها كلها، لكان هؤلاء هم أشد الأعداء وأشد المناقضين لنا، وأشد الخارجين علينا وعلى تقوانا واستقامتنا ونظافتنا وإيماننا وأمانينا ومثلنا، ولكانوا لا مثيل لهم في الفسوق وفي البعد عن كل نماذج التقوى.

إن العصاة جداً لأهوائهم وشهواتهم وأنانياتهم هم المطيعون لها جداً. إنهم يعصونها بأسلوب أو بصيغة أو في موقف أو في وقت لكي يطيعوها جداً بأسلوب أو بصيغة وفي موقف ووقت آخر.

هل يمكن تحريض الانفعالات ووعظها لتكون كما ينبغي أن تكون أو كما يتطلب الموقف أن تكون؟ هل يستطاع صياغة الانفعالات أو التأثير في أخلاقها بالتحريض والإغراء والأوامر؟

هل يمكن تصعيد طاقتنا الانفعالية بالتعاليم والعظات والخطب القوية؟

نعم، إن ذلك يمكن، ويمكن جداً، ولكن بقدر ما يمكن تصعيد طاقة ذكائك أو حدة إبصارك بالمواعظ وبالتدليل على مزايا أن تكون ذكياً وأن يكون بصرك حاداً.

نعم، يمكن ذلك جداً ولكن بقدر ما يمكن شفاء الآلهة من شهوة التعذيب والعبث، ومن شهوة التحديق في العاهات والتشوهات والآلام، ومن شهوات الاستماع إلى صرخات المعذبين والمفجوعين والمهزومين المقهورين بابتهاج تشمئز من وحشيته وهمجيته وبلادته وسماجته أكثر الحشرات سماجة وبذاءة.

نعم، يمكن كل ذلك كما يمكن شفاء الآلهة من شهوات الطفولة، من شهوات العرض والصراخ والتعذيب في أخلاقها وفي منطقها وفي شهواتها وفي ثنائها على نفسها، وفي تمجيدها لقوتها ولعبقريتها، وفي محاولاتها لإثبات تفوقها وانتصارها على جميع الأنداد.

* *

ولكن ما هي المشاعر المتوقدة، أو ما هي الانفعالات الكبيرة المتوهجة التي تصنع التغيرات والقفزات والحضارات المتجددة الكبرى؟

ما هي الانفعالات القوية التي تهب آلهتنا ومذاهبنا وعقائدنا وأفكارنا وحياتنا كل حماسها وذكائها وألمعيتها وقدرتها، بل وكل تقواها؟

ما هي هذه الانفعالات التي تخلق وتصوغ وتقود وتحرك وتفسر وتعلم كل أربابنا ومعلمينا ومذاهبنا وعقائدنا وأدياننا وأفكارنا وأخلاقنا وحياتنا وكل نشاطاتنا وخطواتنا ـ والتي أيضاً تقتل وتغير وتهزم وتطارد وتذل وتفضح كل أربابنا ومعلمينا ومذاهبنا وعقائدنا وأدياننا وأفكارنا وأخلاقنا وحياتنا وكل نشاطاتنا وخطواتنا ـ والتي هذه كلها ليست إلا رعايا وخدماً من رعاياها ومن خدمها؟

نعم، ما هذه الانفعالات الساحرة الخالقة القاهرة؟ ما تفسيرها، وماذا تعني، ومن أين تجيء، وكيف تجيء، ولماذا تجيء، ولماذا تجيء كما تجيء، ولماذا لا تجيء؟

من يهبها، من يوزعها؟ ولماذا يهبها ويوزعها كما يهبها ويوزعها؟

لماذا ليست بأسلوب آخر؟ لماذا جاءت بهذا الأسلوب دون جميع الأساليب الأخرى؟

إن هذه الانفعالات هي الإنسان متحولاً إلى أعنف الصيغ والتعبيرات والاحتجاج والتصادم بكل الأشياء. إنها هي الإنسان في أعنف تصادمه العقلي والنفسي والأخلاقي والوجودي ـ إنها هي الإنسان ممارساً أعنف وأبهظ تحديقاته في نفسه وفي كل الآخرين وفي كل الأشياء. إنما هي التحديق بكل الذات بكل الرؤية بكل القسوة في كل الأوقات في كل الأشياء.

إنها هي الإنسان في أعنف اشمئزازه وإعجابه، وفي أعنف قبوله ورفضه، وفي أعنف تطلعاته وتوجساته ورؤاه وأحاسيسه نحو الأشياء وبالأشياء وللأشياء وضد الأشياء، وبالنفس ونحو النفس، وللنفس وضد النفس ـ محدقاً ومحتجاً ومسائلاً ومقاوماً ومحاسباً ومعاقباً ومحاكماً ومتفجراً، متفجراً. إنها هي الإنسان متفجراً على كل المستويات وإلى كل الاتجاهات.

هل يستطيع أي إنسان أن يكون كل ذلك؟ هل يستطيع أي إنسان أن يكون كل معاني الإنسان وكل احتمالاته؟

إن الإنسان ـ أي في أكبر وأقوى مستوياته وأساليبه ـ هو الإحساس العميق الأليم الشامل الدائم المفروض بالتصادم العميق الأليم الشامل الدائم المفروض بالأشياء، بكل الأشياء.

إنها هي التصادم الشامل بكل الأشياء مع الإحساس الشامل بهذا التصادم. إن الإنسان هو وحده الكائن المتصادم في هذا الكون. إنه لا أحد ولا شيء سوى الإنسان يتصادم بالأشياء، يتصادم بعقله وأخلاقه وأمانيه ومثله وتعاليمه وبتحديقاته الحادة البعيدة بكل الأشياء. إن الأشياء الكبيرة جداً لا تستطيع أن تتصادم بغيرها، إنها لا تملك موهبة التصادم. إنها لا تتصادم مهما تحطمت من التزاحم مع الأشياء الأخرى وبالأشياء الأخرى.

إن الشمس لو سقطت على شمس مثلها أو لو سقطت عليها الأرض لما أصبحت الشمس ولا الأرض متصادمة. إنها حينئذٍ متحطمة لا متصادمة. إنها متزاحمة.

إن التصادم هو حالة فكرية ونفسية وأخلاقية.

إن الإنسان هو وحده المتصادم في هذا الوجود لأنه هو وحده الحالة الفكرية والنفسية والأخلاقية.

حتى الإله، إنه لا يتصادم. إنها مهما واجه الأشياء وعاشها وعاشت في عينيه وضميره بكل عاهاتها وتشوهاتها وآلامها وأخطائها وعبثها لا يصاب بالتصادم، حتى الإله، إنه لا يستطيع أن يرتفع إلى مستوى التصادم.

إن مجد التصادم، أو عار التصادم، وآلامه وتلوثاته وتشوهاته وعاهاته حظ من حظوظ الإنسان وحده، لا يشاركه في ذلك أحد ولا شيء.

وهل حظ الإنسان بهذا الاختصاص جيد أم رديء؟ من يستطيع أن يحكم أو يعرف أو يعدل أو يشفق؟

إن التصادم حالة نفسية وعقلية وأخلاقية وشعورية وليس تزاحم أو تضاد أو تضارب أجسام فقط. إني أريد أن أفهم التصادم بأنه كذلك.

إني أريد أن أضع تعريفاً للتصادم، إنه حالة نفسية وعقلية وأخلاقية وشعورية إنه ليس لقاء أو تزاحماً أو تقابلاً أو تساقطاً بين أجسام. إنه شيء أكثر من ذلك.

.فهل هذا تعريف جديد للتصادم؟ وهل التعريفات الجديدة تهب حقائق جديدة؟ وهل اللغات الجديدة تهب البشر مستويات أو حضارات جديدة؟ هل اللغة الجديدة تعني شيئاً جديداً؟

إن الحجر حينما يتحطم لأن حجراً آخر قد سقط عليه ليس متصادماً في هذه العملية أو في هذا اللقاء المحطم. ولكن الإنسان هو وحده المتصادم في هذا اللقاء بين الحجرين.

إن الإنسان هو الذي يتصادم حينما يرى حجراً يصدم حجراً آخر، أو حينما يسقط حجر على حجر فيتحطم الحجران، وحينما يفترس وحش حيواناً ضعيفاً مسالماً.

إن الإنسان هو وحده المتصادم المصدوم المحتج الرافض المتسائل المستنكر بمنطقه وبأخلاقه وبمشاعره وبمثله وقيمه وتعاليمه، أي حينما يفترس وحش حيواناً ضعيفاً مسالماً بريئاً. إن الإنسان هو وحده المتصادم حينما يقع هذا الافتراس المتوحش العدواني دون الوحش المفترس ودون الحيوان الضعيف البريء الذي وقع عليه الافتراس. لأن الإنسان هو وحده الذي سيكون هذا الافتراس نقيضاً له وخروجاً على جميع تفاسيره للأشياء وعلى جميع اشتراطاته وشروطه المختلفة. إن هذا الافتراس عدوان على مستويات الإنسان الأخلاقية والنفسية والمنطقية والدينية. إنه تحد للإنسان في جميع مستوياته الإنسانية. لأن الإنسان ولو افتراضاً لا بد أن يكون صيغة فكرية ونفسية وأخلاقية.

لقد أصاب هذا الافتراس بأسلوب فيه كل معاني العدوان والقسوة والخروج على كل قانون ونظام وعدالة وأخلاقية موجودة أو مفترضة أو مطلوبة كل معاني الإنسان وتفاسيره.

بل إن هذا الافتراس هو افتراس للإنسان في منطقه. إنه تهديد له بالافتراس، بأن ينتقل من رؤيته إلى جسده.

نعم، لقد أصاب هذا الافتراس بتحد شامل رؤية الإنسان ومنطقه وأخلاقه وآماله وتمنياته، وجميع تعاليمه وتصوراته وجميع ما يعرف ويتمنى من قيم ومثل. بل وهدده بالانتقال إلى جسده، أي بأن يتحول من رؤية فقط ومن مكابدة شعورية إلى مكابدة جسدية.

ولقد أثار كذلك هذا الافتراس كل ما في الإنسان من اشمئزاز واستقباح واستفظاع واستنكار وغضب ورفض. إن هذا هو المفروض في الإنسان، أو هو مستواه الأعلى والأعظم والأقوى ولو في بعض أفراده. إن معاني الإنسان ومستوياته لا توجد في كل إنسان إن التفاسير للإنسان ليست تفاسير لكل إنسان، إنها تفاسير لآحاد قليلين. إن أغلب البشر هم في كل مستوياتهم نقيض للإنسان.

إذن لقد وقع هذا الافتراس على الإنسان وحده دون جميع الكائنات، بل دون من أصابه هذا الافتراس نفسه.

إن الحيوان الذي افترسه الوحش ليس هو الفريسة، ولكن الفريسة هي الإنسان وحده. إن الفريسة هي رؤية الإنسان ومنطقه وأخلاقه ومشاعره وخيالاته وتفاسيره لنفسه وللأشياء.

إن بذاءة الحشرة وبلادة الشمس لا تعيشان، أي البلادة والبذاءة لا في الحشرة ولا في الشمس، ولكنهما تعيشان في الإنسان دون أي كائن آخر سواه.

إن جميع البلادات والبذاءات والدمامات والتشوهات والمظالم لا تعيش إلا في الإنسان مهما وجدت في غيره.

إن الإنسان هو وحده المعاقب بكل هذا الكون، بكل أشيائه وآلامه وحماقاته ومظالمه وعاهاته وأخطائه، وهو وحده المسؤول عن كل هذا الكون، والمتهم بكل الكون، والمتألم بكل الكون وعن كل الكون، والمصاب بكل آلام الكون، والحامل لكل الكون، والذارفة عيناه لكل ما في الكون من دموع. إن شيئاً ما في هذا الكون لا يحمل ولا يستطيع أن يحمل فوق ذاته مثلما يحمل الإنسان فوق ذاته وفوق معانيه.

إذن ما أعظم حظوظ الإنسان. إذن ما أقسى حظوظ الإنسان وأردأها.

* *

وهل الإنسان حقاً كائن متصادم أم هو أكثر الكائنات تلاؤماً وبحثاً عن التلاؤم وعن مسوغاته؟ هل الإنسان يتصادم بالكون وبالأشياء الواجب التصادم بها لقبحها وجنونها وغبائها وظلمها؟

أليس الإنسان أكثر وأقوى تلاؤماً بأقبح وأكذب وأسخف الأشياء من كل شيء؟

إن الإنسان لا يعيش فقط الدمامات والتشوهات والعبث والمظالم والبلادات بتلاؤم شامل أو باستمتاع شامل؛ ثم يصمت حياء أو تأثماً أو ستراً على نفسه أو إبعاداً لها عن التحديق أو التفكير فيها

وفيما تصنع. بل إنه من شدة قدرته على التلاؤم ومن شدة رغبته في التلاؤم يذهب يسوغ ويفسر كل ما يصيبه وكل ما يواجهه وما يجده، بل وكل ما لا يواجهه ولا يجده ـ يذهب سوغه ويفسره بالآلهة والأنبياء والمعلمين، وبالأديان والمذاهب والعقائد والتعاليم والفلسفات والزعامات والقداسات. إنه يذهب يسوغ ويفسر بالآلهة والأديان والأنبياء والمذاهب كل ذنب وكل ظلم وكل قبح وكل بلادة.

بل إن الإنسان يذهب يحول كل ما يصيبه ويواجهه ويجده، وما لا يصيبه ولا يواجهه ولا يجده، إلى آلهة وأنبياء ومعلمين، وإلى أديان ومذاهب وعقائد وتعاليم وفلسفات وزعامات وقداسات، لكي يصبح تلاؤمه بكل شيء بلا حدود وبلا قيود وبلا شروط.

إن الإنسان لا يتقبل الألم والظلم والدمامة والكذب والعبث والغباء مستغفراً الله أو معتذراً إلى كبريائه وشرفه وتقواه وإلى إيمانه وذكائه، أو معتذراً إليه ضعفه وجبنه وهوانه وجوعه، أو مطأطئاً رأسه حياء وتواضعاً وأسفاً وبكاء، بل إنه يذهب بكبرياء وإعلان يفسر كل ذلك أجمل وأتقى التفاسير، وأكثرها إعجاباً واقتناعاً بنفسها.

إذن فالإنسان أكثر من متلائم مع كل شيء، وأكثر من عاجز عن التصادم مع أي شيء، بل إنه ليحول تلاؤمه هذا وعجزه عن التصادم مع أي شيء إلى تاريخ طويل مهيب رهيب من الآلهة والأنبياء والقديسين، ومن الأديان والمذاهب والفلسفات والنظريات والتعاليم المتوحشة العدوانية القتالية. إن كل أديان الإنسان وآلهته ومذاهبه وفلسفاته وتعاليمه ليست إلا بحثاً عن التلاؤم ومقاومة لأي تصادم. إن هذه كلها ليست إلا حرساً من حرس التلاؤم وإلا حرساً لمقاومة التصادم.

هل وجد في أي وقت، أي جنون أو سفه أو ظلم أو قبح أو غباء أو عبث كوني أو اجتماعي أو تاريخي أو إنساني لم يحول إلى مزية من المزايا المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو النفسية أو الإنسانية أو الفلسفية؟ إن أية دمامة أو بلادة أو حماقة أو سخافة أو تفاهة أو سفاهة لم ترفض المجيء في أي وقت احتراماً للإنسان أو خوفاً عليه من أن يعجز عن تفسيرها أتقى وأجمل التفاسير..

لقد كان الإنسان، وإنه لا يزال يحول كل الآلام والشرور، حتى المرض والجوع والبله والموت والتشويه والعجز ـ لقد كان الإنسان، وإنه لا يزال يحول كل ذلك إلى مزايا وتفاسير جيدة ومقنعة جداً، لانه كائن لا مثيل له في موهبة التلاؤم مع كل شيء، ولا مثيل له في العجز عن التصادم مع كل ما هو كائن ومع كل ما ليس كائناً لأنه يحتمل أن يصبح كائناً.

أجل. إن كل هذا حق في أخلاق الإنسان، وفي منطقه وسلوكه وفي تاريخه الطويل الأليم الحزين الذي يظن أحياناً بل ويزعم أحياناً بل دائماً أنه كان تاريخاً عظيماً وسعيداً ومجيداً، بل ونموذجاً لكل مستويات ومعاني البطولة الشاملة.

أجل. إن كل هذا حق قد عاشه كل تاريخ الإنسان في كل مجتمعاته. وإنه لا يزال حتى اليوم يعيشه بأسلوب لعله ليس أقل أو أكثر وقاراً أو ذكاء مما كان يعيشه.

إن التقدم الحضاري والعلمي لم يصنع مستوى أكثر وقاراً أو ذكاء في التهافت على التلاؤم وفي مقاومة كل تصادم.

ولكن لعل هذا لم يكن إلا أسلوباً من أساليب الدفاع عن النفس. لعله كان يريد بكل ذلك أن يحمي نفسه من نفسه. لعله كان نوعاً من الدفاع عن النفس ضد هجوم النفس.

لعله كان يدرك بأسلوب ما أو يشعر على نحو ما أن موهبة التصادم فيه باهظة ومتوحشة جداً، لا بد أن تهبه كل معاني العذاب ومستوياته وفنونه. لعله قد أراد أن يقاوم وأن يضعف من وحشية هذه الموهبة بكل ما ابتكره من تفاسير ومسوغات ومعوقات، أو بما يظن معوقات. ولعله قد وضع هذه التفاسير والمسوغات والمعوقات في صيغ آلهة وأديان ومذاهب وفلسفات وأخلاق وتعاليم وأفكار. بل لقد فعل ذلك.

لعل كل هذه التفاسير والمسوغات التي تعني أن الإنسان كائن متلائم بلا حدود لا تعني إلا أنه متصادم بلا حدود. لعله قد خاف على نفسه وعلى حياته وعلى كل أشيائه وممارساته وعلى كل ما حوله وعلى كل مواجهاته ـ لعله قد خاف على كل ذلك من موهبة التصادم فيه، فذهب بلا اتزان يبحث عن مسوغات ومسببات التلاؤم. فأصبح بحثه هذا دليلاً على النقيض ـ دليلاً على أنه متصادم جداً.

لعل الأمر كذلك، أو لعله يبدو وكأنه كذلك، أو كأنه قد قصد به ذلك.

أو لعل التفسير لذلك أن الإنسان كائن مركب دائماً من النقيضين الحادين جداً ودائماً. فهو متلائم جداً، ومتصادم جداً. وهو يفعل الشيء ويؤمن بنقيضه ويدعو إلى نقيضه. وهو كذلك يدعو إلى الشيء ويؤمن بالشيء الذي لا يريده والذي لا يمكن أن يفعله أو أن يحدث أو أن تؤثر فيه دعوته أو إيمانه. وهو أيضاً لا ينكر على نفسه أو يعجب من نفسه أن يفعل الشيء ونقيضه، وأن يدعو إلى الشيء وإلى نقيضه، وأن يؤمن بالشيء وبنقيضه ـ أن يكون دائماً نقيض نفسه، ونقيض إلهه ونقيض دينه وعقيدته ومذهبه ونقيض أخلاقه وخطبه.

وإنه كذلك لا يقف ليسأل نفسه أو ليعاتبها لماذا يقول ما لا يفعل وما لا يستطيع وما لا يريد، ولا لماذا يفعل ما يمتدح نقيضه وما يؤمن بنقيضه وما يدعو إلى نقيضه وما يريد نقيضه، ولا لماذا يقول الشيء ونقيضه، ويفعل الشيء ونقيضه، ويؤمن بالشيء ونقيضه، ويمتدح الشيء ونقيضه. إنه لا يسأل أو يحاسب أو يحاكم نفسه: لماذا هو دائماً بلا منطق وبلا تفسير وبلا صدق وبلا انضباط أو توافق ذاتي أو نفسي أو فكري أو أخلاقي.

إنه لا يسأل ولا ينكر ولا يعجب: كيف يكون دائماً متناقضاً ومعلناً عن تناقضه، ومفاخراً بتناقضه، وغير راء أو رافض أو لاعن أو مستفظع لتناقضه.

إن الإنسان موهوب بإسراف في قدرته على ألا يرى بعضه بعضاً، أو ينقد بعضه بعضاً، أو يحاكم

أو يعاقب أو يجادل أو يعاتب بعضه بعضاً، أو يشمئز أو يخجل بعضه من بعض، بل أو ينصح ويعظ بعضه بعضاً.

إنه لا يوجد راءٍ عاجز عن الرؤية مثل الإنسان في عجزه عن رؤيته لنفسه، في عجز أفكاره عن رؤية أفكاره.

نعم، إن بعض الإنسان لا يرى بعضه. إن ذاته لا تستطيع ولا تريد أن ترى ذاته، حتى الرؤية، إن بعضه لا يرى بعضه. ولهذا فإن بعضه يجاور ويعايش بعضه، متعرياً مفتضحاً بعضه أمام بعضه، مناقضاً ونافياً بعضه بعضه، بل مكذباً ورافضاً بعضه بعضه، دون أن يرى أو يشعر بأنه محتاج إلى أي استتار أو اعتذار أو اشمئزاز أو غضب أو خجل أو تفسير أو تسويغ أو دفاع. إنه سلوك ليس فيه شيء يستحق حتى الاعتذار أو الاستتار، أو حتى التساؤل، بل أو حتى التفسير.

إنه لا مثيل لتسامح الإنسان في معاملته ومعايشته ورؤيته لنفسه. إن أشد الناس تعصباً وتزمتاً وتديناً وتقوى في معايشته ومعاملته ورؤيته للآخرين وفي محاسبته ومحاكمته الدينية والأخلاقية والمذهبية والإنسانية لهم ليصبح نموذجاً رائعاً في تجنبه لكل تعصب وتزمت وتدين وتقوى حينما يعايش ويعامل نفسه، وفي تجنبه لمحاكمتها ومحاسبتها ورؤيتها. إن الذين يرون أنفسهم أو يحاكمونها أو يحاسبونها أو يعاتبونها أو يجادلونها أو حتى يعظونها وينصحونها، إن هؤلاء ليسوا هم الناس ولا منهم. إنهم الخارجون على الناس.

ولكن لعل في القضية تفسير آخر. لعل الناس لا يملكون أي قدر من موهبة التصادم.

لعلهم لا يملكون أي قدر من الرفض أو الاحتجاج أو الاستفظاع أو الاستنكار أو الرؤية أو النقد أو الاشتراط. لعلهم كائنات لا مثيل لها حتى ولا الحشرات، حتى ولا الديدان في تلاؤمهم وتقبلهم وصبرهم وهوانهم وفي استسلامهم وتواضعهم النفسي والعقلي والأخلاقي، بل والديني والمذهبي والإنساني. إن تقبل الناس الديني والمذهبي والأخلاقي والوطني ليتحدى في هوانه كل هوان الحشرات وتواضعها وتقبلها. إنهم ليمارسون أديانهم ومذاهبهم وتعاليمهم، وباسمها بلا أي مستوى من الكرامة والذكاء.

لعل جميع الناس كذلك، ولكنهم مع ذلك يفرزون أو يلدون من داخلهم ومن صميم ضعفهم وحضيضهم أفراداً قليلين ـ يفرزونهم أو يلدونهم بلا تدبير أو علم أو ترحيب ليكونوا أي الأفراد الأقلون كالاعتذار عنهم، وكالاحتجاج عليهم، وكالغضب من أجلهم، وكالتعويض لهم. إن الناس بولادتهم لهؤلاء الأفراد إنما يلدون نقيضهم. لعل كل عبقرية البشر ومزاياهم أنهم يلدون نقيضهم، أي أنهم يلدون هؤلاء الأفراد الذين هم نقيض لهم.

ليكونوا كأنهم كل ما كان يجب أن يتقسم على كل الناس قد جاء متجمعاً في أفراد قليلين

يجيئون إلى الناس ويخرجون من ترابهم ـ يجيئون إلى الناس ليكونوا كالعقاب، كالمحاكمة، كالمقاومة، كالاعتذار، كالتعويض، كالكفارة، كالشذوذ، كالغلطة الأليمة، كالذنب العظيم.

ليكونوا كالرؤية في العيون الميتة، كالخفقان في القلوب الساكنة، كالتفكير في عقول المؤمنين والمذهبيين، كالحب والصدق في أخلاق ونفوس المتخاصمين والمتحاربين.

ليكونوا كالمنطق في تفاسير ونصوص وتاريخ الأديان والأتقياء. أي ليكونوا شيئاً غير معقول وغير معهود، بل شيئاً غير محتمل أو مغفور.

وهؤلاء الأفراد الأقلون هم الذين يجيئون متصادمين، هم الذين يتحولون إلى متصادمين عن كل البشر، هم الذين يجعلون البشر يبدون وكأنهم كائنات متصادمة بكل شيء ـ كأنهم كائنات لا مثيل لها في التصادم بكل الأشياء. إنهم يتحولون إلى تزوير للبشر. إن البشر بدون هؤلاء الأفراد يصبحون شيئاً آخر. إن البشر بدون هؤلاء الأفراد الأقلين يصبحون شيئاً لا مثيل له في الضعف والهوان والبلادة والتخلف. إن المسافات الفاصلة في أبعادها بين هؤلاء الأقلين وبين البشر في مستويات التصادم والتلاؤم، وفي مستويات التقبل والرفض، والرضا والغضب، والرؤية والعجز عن الرؤية، وفي كل المستويات الأخرى، ليست أقل من المسافات الفاصلة بينهم، أي بين هؤلاء الأفراد وبين الحشرات والديدان.

إن المسافات الفاصلة بين الإنسان والإنسان لأوسع من كل المسافات الموجودة أو المتخيلة في الكون والفاصلة بين وحداته.

إن هؤلاء الأفراد الأقلين المالكين لموهبة التصادم ليبدون بعيدين، بعيدين جداً عن البشر، حتى لكأنهم هجاء لهم، لا مجد من أمجادهم، ولا تعويض عن عجزهم وضعفهم، ولا ستر لعارهم، ولا محاباة لحياتهم، ولا تعبير حاد متجمع مركز مكثف عن مواهبهم واحتمالاتهم واحتياجاتهم ورغباتهم. إن البعد الذي بين حدي الإنسان لأوسع من البعد الذي بين الإنسان وبين خياله عن أنبيائه وأربابه ومن البعد الذي بين معلميه وتعاليمهم ومن البعد الذي بين قادته ونياتهم ومن البعد الذي بين المؤمن وإيمانه وبين العابد ومحرابه وبين المصلي وصلواته.

وهل في هذا شيء من الصدق؟ هل صدق أن في البشر من يتصادمون؟ هل يوجد إنسان واحد يملك موهبة التصادم ثم يستطيع أن يظل حياً أو موجوداً؟ هل وجد هذا المستحيل ولو مرة واحدة؟

إن التصادم بالأشياء يعني أن يتفجر كل الكون وكل ما فيه في كل رؤاك وفي كل منطقك وفي كل أخلاقك ومعانيك وأمانيك ومثلك واتجاهاتك وطرقك وتفاسيرك ومخاوفك واحتياجاتك ـ أي كل أحاسيسك وحواسك وتفاسيرك لنفسك وللأشياء.

إن معنى التصادم أن يتفجر كل الكون وكل الأشياء وكل الناس، متحولاً ومتحولة ومتحولين إلى حرائق داخل ذاتك.

وهل يستطيع إنسان واحد أن يحيا أو يوجد لو تفجرت في عينيه أو في أذنيه أو في أخلاقه أو في تفكيره أو في حبه أو في أشواقه ورحمته أو في قيمته وتقواه كل ما في الكون والأشياء والناس والذات من آلام وأحزان وعاهات وأخطاء وتوقعات ومظالم وضعف وخوف وهوان وحقارة وتفاهة، ومن احتمالات وتوقعات كئيبة رديئة شريرة؟ إن الذين لا يتصادمون مغلقون، مغلقة كل نوافذ ذواتهم دون كل ذلك مهما عاشوا داخله. إن الأشياء لا تجعلنا نعانيها ولكن نحن نصبح نعانيها أو لا نعانيها.

وإذا لم تكن موهبة التصادم موجودة في البشر، في أي مستوى من مستوياتهم، بأي مستوى من مستوياتها أي من مستويات موهبة التصادم، فلعلها أي موهبة التصادم قد بدأت تتخلق في البشر، ولعلها تتعاظم أو تكتمل فيهم في طائفة منهم يوماً من الأيام البعيدة القادمة. لعل موهبة التصادم توجد يوماً ما كما وجدت مواهب الإنسان الأخرى بالأسلوب الذي به وجدت.

وإذا جاء هذا اليوم ـ إن كان من الممكن أن يجيء ـ أي اليوم الذي يصبح الإنسان فيه مالكاً لموهبة التصادم بالأشياء، أي مالكاً للموهبة التي تعني أن تتفجر كل الآلام والهموم والتشوهات والذنوب والأخطاء والوقاحات والبذاءات والعبث والقبح والخوف والضياع والمذلات في كل حواسه وأحاسيسه وفي كل تفاسيره لنفسه وللأشياء ـ تتفجر فيها بإلحاح وتكرار وصراخ وإعلان وديمومة وشمول.

نعم، إذا جاء هذا اليوم إن كان ممكناً مجيئه فهل يستطيع الإنسان حينئذٍ أن يعيش أو أن يتقبل وجوده، ليعاني ويعيش كل هذه التفجرات؟ هل يريد حينئذٍ وجوده؟

هل يستطيع حينئذٍ ذلك؟ هل يريده؟ هل يملك حينئذٍ خياراً فيما سوف يحدث له، أو فيما سوف يصيبه، أو فيما سوف يكون؟

هل يستطيع الإنسان أن يحيا أو يقبل أن يحيا لو سقط كل الكون وكل الأشياء فوقه، ليبقى وتبقى أي كل الكون وكل الأشياء فوقه، ليتحرك كل الكون وكل الأشياء فوقه بكل القسوة والديمومة وبكل الأساليب والاتجاهات والحركات والتعبيرات والشمول؟

هل يقبل الإنسان وجوده أو يعيش وجوده إلا بقدر ما يكون عاجزاً عن التصادم بالأشياء وبنفسه؟

لعله لم يوجد في البشر متصادمون حتى المتفوقون والممتازون، لعلهم لم يكونوا فقط فاقدين للتصادم وعاجزين عنه، بل لعلهم كانوا مقاومين له ومعلمين للتلاؤم. لعلهم كانوا أنبياء التلاؤم.

لعل المتفوقين والممتازين في البشر ليسوا هم الذين يملكون موهبة التصادم بالآلام والدمامات والعبث والتفاهات والحقارات، بل هم الذين يملكون موهبة التسويغ والتفسير والتجريع لذلك.

لعل المتفوقين والممتازين هم الذين يعلموننا معايشة الآلام والحقارات بالمذهب والنظرية وبالدين وبالبحث عن الشهامة.

لعل هؤلاء هم الذين يتحولون إلى أنبياء ومعلمين ودعاة وقادة للتقبل والرضا والتلاؤم مع كل ما يهين عيون الحشرات أن تحدق فيه تحت أقوى الشعارات سحراً وغواية.

إن الذين أجلسوا فوق هذا الكون آلهة وكائنات سماوية لا بد أن يكونوا قد تصوروها أي هذه الآلهة والكائنات السماوية لا تملك أي قدر من التصادم، قد جعلوها بلا عيون ولا آذان ولا أخلاق ولا اشمئزاز ولا استفظاع ولا احتجاج ولا رفض ولا منطق، قد فرغوها من كل انفعال يغضب أو يرفض، قد صاغوها بلا أية أحاسيس أو حواس، قد أسرفوا كثيراً في تشويهها وتقبيحها. إن الذين وضعوا فوق هذا الكون الحزين آلهة وكائنات أخرى سماوية لا بد أنهم قد تصوروا هذه الآلهة والكائنات الأخرى غير قابلة لأن تخلق لها أو فيها عيون أو آذان أو مشاعر أو شهامة أو كرامة أو محبة أو رحمة أو حياء.

لهذا لم يتصوروا أنهم قد ظلموا أو أهانوا أو حقروا أو أشقوا هذه الآلهة وهذه الكائنات السماوية حينما أجلسوها فوق هذا الكون وجعلوها مواجهة له أو مسؤولة عنه أو متهمة به.

إنهم لو تصوروا هذه الآلهة والكائنات السماوية تملك موهبة التصادم بما تواجه أو بما تصنع وتعامل وتمارس وترى وتسمع وتعلم.

لو تصوروها تملك عيوناً وآذاناً وحواس أخرى أو من أي نوع، وتملك قدرة على الاستفظاع والاستبشاع والإنكار والحب والرحمة والتحديق والغثيان النفسي أو العقلي أو الأخلاقي أو المذهبي أو الديني أو الشعوري أو الذاتي.

إنهم لو تصوروها كذلك لوجدوا أنهم يعتدون عليها أبشع اعتداء، ويوقعون بها كل أهوال التعذيب والترويع والتعيير والتقبيح لأنهم قد أجلسوها فوق هذا الكون، أو لأنهم جعلوها تعايشه وتراه وتعرفه وتحسه وتقاسيه ـ تحس بأحاسيسه وبمقاساته وبآلامه وعاهاته وذنوبه وأخطائه وبكل احتمالاته وتوقعاته.

إنهم لو تصوروها كذلك أي متصادمة لوجدوا أنهم يرحمونها ويشفقون عليها ويحسنون إليها ويحابونها وينقذونها ويحمونها من أهوال العذاب حينما يطردونها وينفونها من هذا الكون، من أن تكون فوقه أو أمامه أو معه أو حتى فيه، أو حتى شيئاً منه. إنه لشيء أكثر وأفظع من البلادة ومن كل ضروب الوحشية أن تتصور فوق هذا الكون آلهة تستطيع أن ترى أو أن تسمع أو أن تشعر أو ترثي أو أن ترحم أو تحب أو تخجل أو أن تصاب بالشهامة أو بالكبرياء.

إن من يتصور معنى التصادم ثم يتصورك متصادماً ثم يلقي بك إلى هذا الكون حتى ولو جعلك إلهاً له لهو كائن لا مثيل له في وحشيته وفي عداونه عليك وظلمه لك، حتى ولو تصورك أو صاغك في أعظم وأفضل مستويات الكينونة. إنه لا يمكن فهم من يؤمن بأن إلهاً حياً يملك أقوى الأحاسيس وأفتك الحواس يخلق هذا الكون أو يعيش فيه أو حتى يراه أو يعلمه ثم يعتقد أنه بهذا الإيمان يكرم أو يعبد أو يرضي ذلك الإله.

إن كل شيء لا بد أن يتحول إلى أقسى عقاب وعذاب لك وعدوان عليك حينما تكون مالكاً موهبة التصادم. إذن لو كنت تملك موهبة التصادم هل يمكن حينئذٍ أن تتصور إلهاً يملك موهبة التصادم العقلي أو النفسي أو الأخلاقي لتلقي به في هذا الكون؟ هل يوجد حينئذٍ عدو له مثلك؟

إن أقوى ظروفك ومستوياتك على تعذيبك وعلى التنكيل بك أن تكون متلائماً ومتصادماً. إنك حينئذٍ واقع في منطقة التعذيب الرهيب. إنك حينئذٍ تعيش في درجة المعاناة العظمى.

إنك لو كنت متلائماً فقط، لو كنت متلائماً تلاؤماً شاملاً لرضيت وسعدت. وإنك لو كنت متصادماً فقط، أي لو كنت متصادماً تصادماً شاملاً لرفضت وتحطمت واسترحت. أي إنك حينئذٍ لا بد أن تموت منتحراً أو بأي أسلوب آخر. لقد بقيت لأن تصادمك ليس شاملاً.

أما أن تتلاءم وتتصادم، أي أن تعيش متصادماً، أي أن تتصادم دون أن ترفض وتتحطم، وأن تتلاءم دون أن تفهم أو تتقبل أو ترضى فهذا هو أقدر ظروفك ومستوياتك على تعذيبك وعلى التنكيل بك. إن هذا يضعك في موقف المعاناة العظمى.

إنه لم يوجد إنسان واحد متصادم تصادماً كاملاً. إنه لو وجد لما بقي. فهل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان الواحد؟ وإنه لم يوجد إنسان واحد متلائم تلاؤماً كاملاً. إنه لو وجد لما شكا أو بكى أو حزن أو غضب أو رفض. فهل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان الواحد؟

إن جميع الناس إذن متصادمون ومتلائمون ولكن على مستويات متفاوتة جداً. لهذا جاء الإنسان أكثر الكائنات عذاباً مع أنه أعظمها موهبة وقدرة على التغيير.

إن الإنسان مهما استطاع وأخذ وأبدع يظل أكثر الأشياء دموعاً وأحزاناً وخوفاً وافتضاحاً وهواناً وتشوهاً، ويظل أكثرها ممارسة للحقارات والتفاهات والذنوب والصغائر. بل ويظل أكثرها تلوثاً نفسياً وذاتياً وأخلاقياً.

وإذا كانت أخلاق الكون لا تستطيع أن تحبل بالآلهة فهل تستطيع مواهب الإنسان واحتمالاته أن تحبل بكائن لا يصغر ولا يتلوث أو يتشوه أو يبكي أو يخاف، أو لا يعيش الغباء والتفاهة والهوان والذنوب والمذلات الكبيرة بنشوة وإعجاب وكبرياء؟

هل يمكن أن يحبل الكون أو يحبل الإنسان بإنسان لا يعيش أي شيء من الصغائر أو التلوثات أو التفاهات أو البلادات أو الإهانات أو التشوهات أو الدمامات أو الحقارات أو الذنوب إلا وهو يبكي أو يتعذب أو يرفض أو حتى يحتج أو حتى يرى ويفهم ويعاني من الخجل، أو حتى لا يحول كل ذلك إلى آلهة وإلى أنبياء وأديان ومذاهب من قوة وروعة وشمول التلاؤم معه وبه؟ هل يمكن أن يلد الكون أو الإنسان إنساناً لا يفسر أقبح العاهات والتشوهات والدمامات والآلام بذكاء الآلهة وبنبوات أعظم الأنبياء؟

أشعر أنه لا بد من الاعتذار إلى القارىء لإصرار رغبتي على معاودة التوكيد لهذه القضايا.

إنه لا حد لإصراري على أن أعود إلى التوكيد بأن الناس لا يستطيعون أن يصنعوا الحياة أقوى أو أفضل مما يحسونها إحساس التقبل والرفض، وإحساس الاعجاب والاشمئزاز، أي الإحساس الشامل الحاد المتناقض المتضاد، وأنهم حينما يعجزون عن الإحساس بها هذا الإحساس الحاد المتناقض المتضاد لا يستطيعون صنعها بكل ذكائهم وقدرتهم واحتمالاتهم، أو لا يستطيعون صنعها بجبروت ودوي وتعذيب وروعة.

وهل يستطيع البشر تحت أي ظرف من الظروف المواتية أو المحرضة أن يصنعوا بكل قدرتهم أو بكل ذكائهم؟

أليس صنع الناس للحياة هو دائماً أقل من إحساسهم بها؟ وهل يمكن أن نصنع الحياة أكثر من أن نحسها؟ ألا يمكن أن نصنعها كما تصنعها الطبيعة، أي بلا أحاسيس، أي بلا إعجاب أو اشمئزاز، وبلا تقبل أو رفض أو احتجاج، أي كما تصنعها أي الحياة قلوبنا ورئاتنا وغددنا الأخرى؟

إن الإحساس القوي بالحياة وبالأشياء لا بد أن يتحول إلى إحساس متناقض متضاد. إنه بقدر ما تكون أحاسيسنا أو انفعالاتنا قوية وشاملة فلا بد أن تكون متضادة متناقضة.

إنه بقدر ما تكون مواهب الإعجاب والتقبل والاشتهاء والإرادة والاستحسان فينا قوية تكون المواهب المضادة والمناقضة كذلك. أليس الذي يعجب ويرى ويتقبل بقوة محكوماً عليه أن ينكر ويشمئز ويرفض بقوة أيضاً؟

هل يمكن أن تكون موهوباً التحديق المستلهم المتطلع المسائل العنيف دون أن تكون موهوباً كل معاني النقد والبكاء والغضب العنيف؟ هل يمكن أن ترى جداً بدون أن تكره وتشمئز جداً؟

هل يمكن أن يثيرك الجمال والذكاء جداً بدون أن تثيرك الدمامة والغباء جداً؟

إنه لمحتوم أن تكون موهوباً أحاسيس الرفض والاشمئزاز إذا كنت موهوباً أحاسيس الاعجاب والتقبل المحدق المستلهم المتطلع المسائل.

ولكن هل محتوم أن تكون موهوباً أحاسيس الرفض والاشمئزاز والاستفظاع؟ ألا يمكن حينئذٍ أن تتحول أحاسيس الإعجاب والتقبل إذا كنت موهوباً أحاسيس الاستفظاع والرفض والاشمئزاز إلى غطاء شامل لكل أحاسيسك، إلى استهلاك شامل لكل أحاسيسك؟

إن الشعور العميق بالجمال والصحة والنظافة والاستقامة والذكاء والمسرات لا بد أن يصنع أو أن يعني الشعور العميق بالدمامة والمرض والتلوث والانحراف والأحزان والغباء.

ولكن هل الشعور العميق بقبح الطبيعة والأشياء، أو ببلادتها أو بقسوتها أو بمظالمها محتوم أن يصنع شعوراً عميقاً بجمال الطبيعة والأشياء، أو بذكائها أو برحمتها أو بعدالتها؟ أليس النقيض الرديء هزيمة بل نفياً بل هجاء للنقيض الجيد؟ أليس الموت والشيخوخة والدمامة والمرض هزيمة ونفياً بل وهجاء ومعاقبة بل وتشويهاً للحياة وللشباب وللجمال وللصحة؟

أليس ظلم الحاكم وجنونه وغباؤه هجاء ونفياً لعدله ولعقله ولذكائه؟ ولكن هل يمكن أن يكون ذكاؤه أو عدله أو عقله ثناء على جنونه أو على ظلمه أو على غبائه، أو نفياً له؟

أليس الحاكم الذي يظلم ويجن ويقسو ويغامر ويحارب ويكذب أحياناً هو حاكم ظالم ومجنون وقاس وكذاب ومغامر؟ ولكن هل الحاكم الذي يعدل ويعقل ويرحم ويصدق ويسالم أحياناً حاكم عادل وعاقل ورحيم وصادق ومسالم؟

إذن فالنقيض الرديء ليس رؤية لنقيضه فيه، بل هو رؤية له في نقيضه.

إن الإحساس بالنقيض الرديء ليس إحساساً بنقيضه فيه أو رؤية له فيه بل هو إحساس به في نقيضه ورؤية له في ذلك النقيض.

إن إحدى مواهب البشر الرديئة وقد يقال الجيدة أن أحاسيسهم دائماً بأنفسهم وبالأشياء أقل من الأشياء ومن أنفسهم. إن أحاسيسهم دائماً مجاملة أو محابية لأنفسهم وللأشياء. إن أحاسيسهم لتبدو وكأنها تتعمد أو تحاول أن تكون رحيمة بالأشياء وبحياتهم.

لهذا تريد دائماً أن تكون أقل منها. إنها لا تحسها بقدر ما يجب أن تحسها، إنها لا تواجهها بكل الأحاسيس ولا بمستوى الأحاسيس التي تستحقها، كما لا تراها بقدر ما يجب أن تراها.

إن أحاسيس البشر منافقة دائماً لأنفسهم وللأشياء أو رحيمة بها، لهذا لا تحسها أو تراها أو تعاملها كما هي.

إن إحدى مواهب البشر الرديئة، وقد تكون الجيدة أنهم خامدو الأحاسيس بالأشياء، موجودة ومفقودة، مقبولة مرادة، ومرفوضة غير مرادة. وإنهم كانوا متوقدي الأحاسيس فإن أحاسيسهم تظل أقل من الأشياء، ومما تستحق الأشياء، ومما تستطيع أحاسيسهم أن تكون، ومما يطلب منها أن تكون. إن أحاسيسهم دائماً مهزومة أو مزجورة أو منافقة أو رحيمة أو محكومة بالشهامة.

إن أحاسيسهم لا تعامل الأشياء أو حياتهم بكل طاقاتها. إنها لا تعاملها بالعدل أو بالصدق أو بالقوة أو بالصرامة.

إن البشر ليبدون دائماً أصغر من الأشياء وأصغر من أنفسهم ومن احتمالاتهم ومما تطالبهم به مواقفهم. إنهم دائماً يقفون أقصر من قاماتهم كما يعملون دائماً أضعف من قدرتهم، وكما يرون دائماً أقل من عيونهم مهما آمنوا دائماً أقوى وأكثر من اقتناعهم ومن تفكيرهم.

إنه ليست لدى البشر أجهزة علمية أو ذاتية يقيسون بها أو يضبطون بها مشاعرهم، أو يرفعون بها مشاعرهم لتكون على المستوى المطلوب أو الواجب أو المنتظر أو الملائم. إنهم لا يملكون أجهزة علمية أو ذاتية طبيعية، ليعرفوا بها أنهم دون ما يجب أو ما ينتظر أو ما يستطيعون أن يكونوا ـ ليعرفوا بها أنهم قد فقدوا أشياء كان عليهم ألا يفقدوها، وأنهم يعيشون أو يواجهون أو يتقبلون أو يريدون أشياء

ينبغي عليهم ألا يعيشوها أو يواجهوها أو يتقبلوها أو يريدوها أو يتعاملوا معها وبها على المستوى الذي به يتعاملون.

هل هي مشكلة من مشاكل الإنسان أو حاجة من حاجاته أنه لا يجد ولا يعرف ولا يحاول أن يجد أو أن يعرف جهازاً ما يقيس به مستوياته الشعورية والنفسية، ويكيف أو يضبط هذه المستويات الشعورية والنفسية، قبولاً ورفضاً، إعجاباً واشمئزازاً بهذا الجهاز، كيف شاء ومتى شاء؟ هل هي إحدى مشاكل الإنسان، أو هي إحدى احتياجاته، إنه لا يجد ولا يعرف مثل هذا الجهاز، بل لا يحاول أن يجد أو أن يعرف مثله؟

كيف لو كان الإنسان يملك مثل هذا الجهاز داخل ذاته أو خارجها، أو ليضبط ويحرك به انفعالاته بالأشياء وبنفسه، ليخفضها، أي الانفعالات بالأشياء وبنفسه، أو ليصعد بها كما يريد وكما يتطلب الموقف؟

هل من الأفضل أو من الأنفع للإنسان أن يكون مالكاً لمثل هذا الجهاز؟ هل كان عجزه عن امتلاكه خطة وتدبيراً ذكياً أم كان عجزاً لا تدبير فيه عن امتلاكه؟

هل في الكون أو في الحياة منطق أو قوة تريد للإنسان أو تدبر له؟ هل في ذات الإنسان جهاز ما يريد أو يدبر له؟

هل يمكن أن يصوغ أي منطق أو أي صائغ الإنسان كما جاء لو كان أي ذلك المنطق أو الصائغ مطلق القدرة وكان رحيماً وطيباً؟

هل ترتجف مشاعر البشر اشمئزازاً بقدر ما يستطيعون، أو بقدر ما يجب أو يطلب حين رؤيتهم للذباب أو للطاغية أو للزعيم الكذاب الجبان الملوث يتحدث فوق أكبر منبر، بأعلى وأجسر صوت عن الصدق والشجاعة والنظافة، لاعناً الجبناء والكذابين والملوثين؟ إن كل عيون البشر ومشاعرهم، في كل تاريخهم وفي كل مستوياتهم الحضارية لا تستطيع أن تتكافأ مع الذباب أو مع الطاغية مرئياً ومفسراً ومحاكماً.

هل تنفجر مشاعرهم بقدر ما يستحق الموقف حينما يتعاقب عليهم الخطباء والمعلمون يحدثونهم عن ذكاء الطبيعة أو الآلهة، وعن رحمة الطبيعة أو الآلهة، وعن حب الطبيعة أو الآلهة، وعن جمال الطبيعة أو عن جمال الآلهة، وعن عدل الطبيعة أو الآلهة، وعن تدبير الطبيعة أو عن تدبير الآلهة ـ يحدثونهم عن كل ذلك ـ يحدثونهم عنه موجوداً في مرض المريض، وفي تشويه المشوه، وفي ألم المتألم، وفي شيخوخة الشيخ، وفي دمامة الدميم، وفي هوان المظلوم ـ في مجيء من يجيء وفي ذهاب من يذهب، وفي حياة من يحيا وفي موت من يموت ـ في الإنسان مولوداً ومفقوداً في الإنسان ضعيفاً وقوياً، ذكياً وغبياً، في الإنسان مشوهاً وسوياً، منتصراً ومهزوماً، مهيناً ومهاناً ـ في الشمس قادمة بلا تفسير، ومفارقة بلا تفسير، وواهبة بلا تفسير أو كرم، ومانعة بلا تفسير أو بخل، ومستمرة متكررة بلا

تفسير أو شهامة أو خضوعاً للنظام ـ في النهر مغرقاً وجافاً ومدمراً ومحيياً وهارباً ومتبدداً وضخماً وضئيلاً، دون أن يدري شيئاً أو يعني شيئاً أو يقصد شيئاً أو يحترم شيئاً؟

إن حواسهم لتبتلع كل الأشياء، بكل صيغها وأساليبها وظروفها وتعبيراتها ولغاتها ووقاحاتها وصرخاتها دون أن تصطدم بها أحاسيسهم، بل ودون أن تمر بأحاسيسهم أو أن تمر منها، بل دون أن تتحول فيهم إلى أي مستوى أو نوع من الأحاسيس.

ما أقدر حواس البشر على الابتلاع. إنها تبتلع كل الكون وكل ما فيه من وقاحات وذنوب.

إن مواكب الأحداث ووقاحات الأشياء لتطحنهم وتحطمهم دون أن تمر بأحاسيسهم، ودون أن تتحول فيهم إلى أي نوع أو أسلوب من الأحاسيس. إن أحاسيسهم لا تتعامل مع حركة الكون ولا تتصادم ببذاءة الأشياء.

إن كل تاريخ البشر وكل احتمالات القدرة والابداع فيهم تظل مختزنة داخل ذواتهم، لا تتحول إلى نشاط لأن أحاسيسهم صامتة مهزومة، لأن أي شيء لا يغضب أو يعاقب أحاسيسهم. إن كل الأشياء مسالمة لأحاسيسهم. إن أحاسيسهم لا تتحول إلى حرب، إنها لا تقاوم ولا تهاجم.

إن وقاحات ودمامات وذنوب الأشياء لا تتحول إلى تفجيرات داخل أحاسيسهم لتحول ذواتهم وما فيها من قدرات واحتمالات إلى حرائق وقذائف ومعارك ضد هذه الوقاحات والدمامات والذنوب ـ لتحول ذواتهم وما فيها من احتمالات إلى أناشيد، إلى أناشيد لم يسمعوها ولم يغنوها ـ لتحولها إلى أسفار بعيدة، بعيدة عن هذه الدمامات والوقاحات والذنوب، وفوقها.

هؤلاء الذين لا تصعد أحاسيسهم إلى مستويات الاحتجاج على الطاغية أو على الذباب، شامخاً منتصباً مغنياً مسترخياً متثائباً فوق أنوفهم، يهجو ويشتم ويتحدى ويبارز كل ما لهم من آلهة وأديان ومذاهب ومواهب وتاريخ ومن ضخامة أجسام وصعود قامات بل ومن حضارات.

هؤلاء كيف يمكن أن يرفضوا أي تخلف أو جهل أو حرمان أو ظلم أو غباء أو هوان ـ كيف يمكن أن يغضبوا على شيء من ذلك ـ كيف يمكن أن يرتفعوا إلى مستوى القتال للدمامات والوقاحات والذنوب التي تمارسها الطبيعة في ذواتهم وضد ذواتهم، والتي تمارسها ذواتهم استجابة لشهواتهم واحتياجاتهم، ومجاملة لنياتهم ولنظافتهم ولتقواهم؟

هل تجوع أعضاؤنا إلى ذنوبها أو تمارسها إلا تحية وتكريماً لأخلاقنا أو استحياء منها؟

إن الطاغية أو الذباب واقعاً مستريحاً فوق عيني الإنسان لأقوى وأعنف وأصدق في تفسيره للبشر من كل تاريخهم وحروبهم وأمجادهم، ومن كل أنبيائهم ومعلميهم، ومن كل أديانهم ومذاهبهم ومواهبهم.

إن جميع لغات البشر وبلاغاتهم لا تستطيع أن تتحول إلى تفسير لبلادة الأحاسيس البليدة مثلما

يستطيع ذلك الطاغية أو الذباب مستقراً فوق وجوههم المغسولة والمطهرة والمنظفة والمجملة والمعقمة بكل المكتشفات والمجهزات العلمية والحضارية في كل تاريخ العلم والحضارة.

هؤلاء الذين تهزم أحاسيس الحياة فيهم وأحاسيسهم بالحياة كل هذا المستوى من الهزيمة، كل هذا المستوى الذي يغفر للطاغية أو للذباب أن يستقر فوق وجوههم وأنوفهم وجبهاتهم متثائباً مسترخياً مغنياً، مصلياً منشداً أناشيده المثيرة القوية التاريخية، دون أن يسقط من الحياء أو من الخوف أو من المجاملة أو من تحديق النظرات المتوعدة الغاضبة فيه.

هؤلاء لا بد أن تزول حدود الأشياء وصفاتها وتفاسيرها المختلفة من نفوسهم وعيونهم وتفكيرهم وأخلاقهم. إن كل معاني الرفض والغضب لا بد أن تموت حينئذٍ في معانيهم.

إن معاني ذوي الأحاسيس الخامدة لتقتل في الأشياء كل معانيها. إنهم عدوان على الأشياء بقدر ما هم مجاملة للأشياء.

إن صور الأشياء ومعانيها ولغاتها وحدودها وارتفاعاتها لتتداخل وتتشابه حينئذٍ في تقديراتهم وقراءاتهم ومواجهاتهم، فلا يستطيعون أن يروا أو أن يجدوا أن شيئاً ما هو نموذج لشيء، أو حد أدنى له، أو هدف نهائي، أو شرط من شروطهم، لا ينبغي أو لا يمكن التراجع أو التنازل عنه. كما أنهم لن يستطيعوا أن يروا أو أن يجدوا حينئذٍ أن شيئاً ما لا يصح تقبله ولا غفرانه لأنه تحت كل الشروط والنماذج المطلوبة والمقدرة والمحسوبة، وخارج على جميع الشروط والنماذج. خارج على جميع شروط ونماذج الكرامة والشهامة والشجاعة. خارج على جميع المذاهب والأديان والتعاليم.. إن الأحاسيس المتوقدة الغاضبة الرافضة المستنكرة المتفجرة هي التي تضع الشروط والنماذج وتحددها - إنها هي التي تضع وتحدد الشروط والنماذج للإنسان، لعقله ولأخلاقه، بل ولأديانه ومذاهبه، بل ولأربابه وأنبيائه ومعلميه. إن أرباب وأنبياء ومعلمي الإنسان لا يستطيعون أن يتعلموا غضبهم أو تقواهم أو همومهم النبيلة إلا من توقد أحاسيسه.

إن الأحاسيس هي التي تضع وتحدد هذه الشروط والنماذج، وهي التي ترفض الخروج عليها أو التنازل عنها. إنها هي التي تصنع صياغات الإنسان وتلزمه بها. حتى صياغاته المذهبية والدينية والأخلاقية والوطنية والإنسانية، هي صناعة أحاسيسه وإلزاماتها.

إن مستويات أربابنا وأنبيائنا ومذاهبنا وأوطاننا ليست شيئاً سوى مستويات أحاسيسنا.

إن أعظم نبي، مبعوث بأعظم رسالة، إلى أعظم شعب، لا بد أن يصبح مهزوماً ولا بد أن يرى أنه مهزوم أمام أي ذباب لو رآه واقعاً على أي وجه من وجوه أتباعه.

. إني هنا أفترض أن ذلك النبي مريض بذلك المرض العظيم، بذلك المرض الإنساني. أعني به مرض الحساسية، أعني به الأحاسيس المتحولة إلى أقسى أساليب العقاب للاسترخاء والاعجاب والتقبل بلا شروط أو بأسهل الشروط. إن ذلك النبي أي المصاب بمرض الحساسية لا بد أن يجد أن آلهته قد

فقدت كل شرفها وكبريائها وجاهها وشهامتها أمام وقفة أية ذبابة تنتصب فوق أي أنف أو فوق أية جبهة قد خلقتها آلهته لكي تتغذى وتتعزى بسجودها لها..

إن الأحاسيس العنيفة هي التي صاغت الإنسان ووهبته جميع مستوياته وقدراته وتعبيراته وجميع مواهبه ونماذجه الإنسانية. إنها هي موهبته الشاملة التي أبدعت كل مواهبه، والتي لا تعمل ولا تبدع أية موهبة من مواهبه إلا بها، إلا بإلهامها وتحريضها وزجرها ومطاردتها.

إن توهج الأحاسيس هو الذي يهب العقل نشاطه ويقظته وذكاءه، بل إن توهج الأحاسيس هو الذي أبدع العقل. لقد اخترعت الأحاسيس التاريخية المتراكمة عقل الإنسان.

لقد وهب الإنسان أحاسيسه قبل أن يوهب عقله. لقد وهب عقله لأنه قد وهب أحاسيسه، ووهب عقله النشاط لأن أحاسيسه قد وهبت النشاط. إن كل نشاطه هو نشاط أحاسيس.

إنه لغير ممكن أن يكون للإنسان عقل لو لم تكن له أحاسيس.

إن عقل الإنسان هو حصيلة أو اختراع احتجاج أحاسيسه عليه وعلى الأشياء. لقد ظلت أحاسيس الإنسان طويلاً، طويلاً تحتج عليه، وعلى ممارساته ومواجهاته وعلى جوعه وحرمانه وعذابه ودماماته، وعلى ذنوبه وأخطائه ونياته حتى صنعت له عقلاً.

إن احتجاج الإنسان على أربابه ومعلميه وغضبه عليهم قد ساعدا على اختراع عقله وتفكيره.

إن عقل الإنسان ليس سوى أحاسيسه متراكمة متحولة. إن عقل الإنسان ليس إلا صيغة تاريخية من صيغ أحاسيسه التاريخية. إن عقله مرحلة تاريخية لأحاسيسه.

لقد تحولت الأحاسيس إلى مواهب مولودة متفاوتة. إنها تولد وتتفاوت كموهبة الذكاء والأدب والشعر والفن والتفكير. إنها تولد وتتفاوت كالحواس، كحاسة الإبصار والسماع. إن إحساسك ضد الدمامة والطغيان وتفاهة الأشياء يكون ضعيفاً مثلما تكون رؤيتك ضعيفة.

إن الحيوان لا يستطيع أن يشمئز أو يرفض أو يغضب أو يحتج أو يستفظع أو يتألم ألماً نفسياً أو شعورياً أو أخلاقياً على مستوى الإنسان مهما واجه ومارس أفظع وأقسى من مواجهات وممارسات الإنسان.

إن قوماً ما لا يستطيعون أن يبلغوا مستوى قوم آخرين في ممارساتهم لأحاسيسهم وفي ممارسات أحاسيسهم لهم. إن الناس يتفاوتون في مستويات أحاسيسهم تفاوتاً مولوداً ومنقولاً وموروثاً. إنهم يتفاوتون تفاوتاً لا يتساوى بالمحاولات أو بالتعليم أو بالإرادة أو بالتدبير. إنه تفاوت كتفاوت الذوات والمواهب والحواس وطول القامات وصفات الأجسام الموروثة والمولودة. إن صفاتنا الشعورية والنفسية تولد معنا مثل صفاتنا البدنية.

إننا نصنع من داخل ذواتنا لا من خارجها مهما كان تلقيها لوجودها ونماذجها وخصائصها وأخلاقها ولتاريخها من الخارج، وبالتعامل والتصادم وبالخارج ومعه وفيه وضده.

إن ذواتنا تتلقى الأوامر والتحريضات والإغراءات والقدرة والعجز والإقدام والإحجام والحب والبغض من داخلها مهما تلقت من خارجها. إننا نبصر الخارج ونمارس الخارج ونحب ونريد الخارج ونتحرك فيه، ولكننا لا نفعل شيئاً من ذلك إلا من الداخل ومنطلقين من الداخل وبصفاتنا الداخلية، أي الذاتية. إننا نجد الخارج ونراه ونتصوره ونحسه ونتعامل معه وبه وفيه وبقدر ما نكون في الداخل أو بقدر ما يكون الداخل أو بقدر ما نجد الداخل. إن الاشمئزاز فينا لا في الأشياء التي نشمئز منها.

إن ذواتنا إذا لم تستطع أن ترفض وتشمئز وتغضب وتستفظع وتعاف وتشعر نحو الأشياء وضدها قوة وتوقد فلن تستطيع الأشياء الخارجية أن تجعلها تفعل ذلك مهما كانت صفات الأشياء الخارجية، مهما كانت إغراءاتها وقباحاتها.

إن جميع الأشياء صامتة بلا تفاسير وبا أخلاق وبلا صفات أو لغات والإنسان هو الذي يجعلها كل المعاني وكل التفاسير.

إننا لا نستطيع أن نجد العالم أو أن نراه أو أن نفهمه ونفسره، أو أن نقومه، أو أن نعرف جماله وقبحه، ذكاءه وغباءه، مزاياه ورذائله إلا بصفاتنا نحن وبما فينا من موهبة الإحساس وموهبة المواجهة الشعورية إن موهبة المواجهة الشعورية أو بالشعور هي كل آلهة الإنسان وأنبيائه وزعمائه وقادته وكل مذاهبه وأديانه وتعاليمه وأخلاقه وتفاسيره.

إن بذاءات ودمامات الطاغية في أحاسيس الصرصار وفي مواجهاته الشعورية ليست مثل بذاءاته ودماماته في أحاسيس الإنسان وفي مواجهاته المختلفة.

إن الطاغية ليس طاغية إلا في مشاعر من يرفضون الطغيان. إن الطاغية نبي أو قديس أو مجد قومي أو مجد إنساني أو مجد تاريخي في حسابات وفي منطق من لا يملكون مشاعر حادة ضد الطغيان.

إن دمامة المنظر لا توجد إلا في العيون المبصرة. إن الإبصار ليس في العيون المبصرة أو العيون السوية، ولكنه في الأحاسيس المبصرة أو المتوقدة.

إن القدرة على الابصار ليست في الأعصاب السليمة بل في الأحاسيس المفجوعة أو المبهورة.

إن الموت في خيال الإنسان ليس هو الموت في خيال أي حيوان. إن قبح الموت في مشاعرنا لا في نفس الموت، بقدر ما جمال الحياة والوجود في أحاسيسنا وليس في ذات الحياة أو الوجود.

إن صفات الأشياء فينا نحن لا في الأشياء. إن صفات الأشياء في أحاسيسنا لا في حياتنا ولا في ممارساتنا. إننا لا نعاني القبح أو الظلم أو العبث أو الغباء بقدر ما نعيشه أو نواجهه أو حتى نصنعه ولكن بقدر ما نشعر ضده. ونحن لا نشعر ضده فى نموذج واحد أو بمقياس واحد أو بالتدبير أو بالخطة أو بالتعليم أو بالمذهب أو بالدين والتقوى أو بالوطنية والإنسانية أو بالشهامة والبطولة. إننا نشعر ضده بالموهبة التي لم ندبرها أو نردها أو نخلقها والتي لا نستطيع أن نأمرها أو ننهاها.

إن هذه هي القضية. فهل يمكن أن يوجد لها قضاة؟ وهل يجب أن يوجد لها هؤلاء القضاة؟ إنه

ليس لكل قضية قضاة. إن أكبر وأعظم القضايا ليس لها قضاة ومن الخير ألا يكون لها قضاة.

هذه الأكوام البشرية التي تأكل الأوقات أو التي تأكلها الأوقات مسترخية في الأوحال والتراب والطرقات وفي النوادي والمعابد والمكاتب والبيوت المسكونة بالحشرات والعاهات والدمامات والآلام والهموم المتزاحمة ـ هذه الأكوام البشرية التي تأكل الأوقات وتأكلها الأوقات، كالمخدرة بأقوى المخدرات ضد الشعور بأي شيء، بأي ألم، بأي ظلم، بأية دمامة ـ ضد كل غضب ورضا وإعجاب واشمئزاز، ضد كل رؤية وانفعال وانزعاج وانبهار وانفجاع.

هذه الأكوام البشرية التي لا تستطيع أن ترى الأهوال أو الدمامات أو القذارات، أو الآلام أو الأمراض أو معارك الجوع والحرمان التي تملأ وتسد طرقها الكئيبة التي تتجمع فيها كل الأوبئة ـ هذه الأهوال والدمامات والقذارات والآلام والأمراض ومعارك الجوع والحرمان التي تعيش متجمعة متألقة في عيون ووجوه وأجساد أطفالها الشاتمين بتشوهاتهم وهزالهم وبكل مستوياتهم الرهيبة لأخلاق الطبيعة، ولمنطق التناسل، ولتعاليم كل المعلمين، ولتفاؤل جميع المتفائلين.

هذه الأكوام البشرية التي لا تستطيع أن تغضبها أو أن تلعنها بذاءة أو قبح الطاغية السارق الآكل لخبزها، المشوه المحقر لوجودها، الباصق المتقيء على أنهارها وحقولها وعلى مجد ونخوة أربابها، وعلى مذاهب وأديان معلميها وأنبيائها.

هذه الأكوام البشرية المخدرة بكل أساليب ومستويات ومعاني التخدير ضد الإحساس بالأشياء والإحساس ضد الأشياء، لو أن طاقة الأحاسيس فيها قد ارتفعت إلى المستوى الذي يساويه الموقف، أليس محتوماً حينئذٍ أن تقاتل حتى الموت أو النصر، بل حتى الموت فقط، أن تجد في الموت كل معاني وأمجاد النصر، أو أفضل وأعظم وأنظف من كل معاني النصر وأمجاده؟ أليس محتوماً حينئذٍ أن تجد في القتال ضد الحياة كل المزايا التي يبحث عنها في الانتصارات دون أن توجد فيها؟

أليس محتوماً حينئذٍ ألا تقبل حياتها بين الصراصير والعاهات والتشوهات والأمراض والآثام والتفاهات والإهانات، وبين طغيان الطغاة وطغيان الآلهة والطبيعة وطغيان المعلمين المنافقين الجهلاء وبين الأبناء المصابين بكل معاني الحرمان والمجاعات والجهل والقذارة والبله والتشوه والشذوذ والضعف والعجز والضياع، وبكل شراسة الآلهة والطبيعة، وبكل ذنوب الآلهة والطبيعة ـ بين الأبناء الذين قد أصيبوا بكل ذلك أو الذين قد يصابون بكل ذلك؟

أليست العاهة التي قد تقع تصنع الغضب والذعر والرفض والعلاج كالعاهة التي قد وقعت؟ أليست العاهة أو الآلام أو المخاطر التي نتوقع أن تصيبنا قد تصنع لنا الخوف والمعاناة أعنف من التي أصابتنا.

* *

كيف، أو لماذا جاءت أحاسيس الناس بالأشياء أو ضدها على هذا المستوى دون غيره؟ لماذا لم تجئ أقوى وأشد توقداً ومواجهة؟

إن المفروض أن أحاسيس البشر لو جاءت أقوى وأعلى مما جاءت لوقع أحد أمرين: إما أن ينتحروا فراراً مما يجدون ويواجهون، واستقباحاً له وعجزاً عن رؤيته وتقبله، واشمئزازاً وحياء منه. أما الأمر الثاني أو الاحتمال الثاني حينئذٍ فهو أن يصوغوا أنفسهم ووجودهم والوجود الذي حولهم صياغات أخرى جديدة، ليس فيها دمامات أو عاهات أو تفاهات أو تشوهات أو قذارات أو حشرات أو طغاة أو غباوات أو ذنوب أو هوان. وليس فيها كذلك إله يذهب يثني على نفسه ويمجد عبقريته ورحمته لأنه قد أراد ودبر وخطط وصنع كل ذلك.

ولكن الافتراض الأخير لا يمكن أن يصبح واقعاً، إنهم لا يستطيعون مهما أرادوه. إنه أكبر من كل قدرتهم. والكائن الحي مهما كانت أحاسيسه واحتياجاته وأمانيه لا يستطيع ان يفعل بأكثر من قدرته. إن كل شيء محكوم بقدرته مهما أراد أو حاول أن يكون أكبر أو أذكى منها، ومهما أراد أو حاول أن يكون محكوماً باحتياجاته وأمانيه وطموحه لا بقدرته أو موهبته.

إنه نوع من التعذيب الدائم أن يكون دائماً ما نستطيع أن نكونه وأن نفعله أقل مما نريده ومما نحتاج أو نطمح إليه.

إن أحاسيس الإنسان وأفعاله وإبداعاته محكومة بقدرته وموهبته مهما كانت قدرته وموهبته محكومتين بأحاسيسه. إن الإنسان كائن يحكم بعضه بعضاً. إنه كائن يعيش فيه حاكمون ومحكومون. إنهم يتصارعون بوحشية وبلا مجاملة أو استحياء أو محاباة داخل ذاته. ما أكبر وأقسى المعركة، وما أكثر المتحاربين المتصارعين فيها من حكام ومحكومين. ولكن ما أصغر وأضيق الميدان الذي تعيش فيه المعركة أو المعارك، والذي يلتقي فيه المتصارعون المتحاربون، أي الحاكمون والمحكومون. إن الإنسان كائن يحكم بعضه بعضاً مع أن بعضه لا يرى ولا يحاكم ولا يحاسب بعضاً. إن تعامل بعضه مع بعض يشبه تعامل وحدات الطبيعة بعضها مع بعض.

وهؤلاء المتصارعون المتحاربون في ذات الإنسان ـ أي الحكام والمحكومون ـ يتبادلون الوظائف الأدوار، أو تتحول الوظائف والأدوار فيهم إلى ثنائية المعنى والتفسير، أي إلى الشيء ونقيضه، أي إلى الخصم وخصمه. إن الحكام من هؤلاء المتصارعين المتحاربين في ذات الإنسان هم محكومون، وإن المحكومين منهم هم حكام. إن كل محكوم في ذات الإنسان حاكم، وإن كل حاكم فيها محكوم.

إن ذات الإنسان إذن هي أقسى وأعجب ميدان لأقسى وأعجب معركة أي معارك، لأعجب وأقسى متحاربين متخاصمين متعادين. إن ذات الإنسان هي المعركة أو المعارك الدائمة التي لا تستطيع أن تتحول إلى أي سلام، وإنها الميدان الدائم للحرب الدائمة. إنها الميدان والحرب والمتحاربون.

أما الافتراض الأول ـ أي أن ينتحروا أو يقاتلوا حتى الموت هرباً واشمئزازاً وخجلاً مما يجدون ويرون ويعلمون ويواجهون ويمارسون ـ فلم يريدوا أن يفعلوه. إنهم لا يستطيعون أن يريدوه أو أن يفعلوه. إنها لا يريدون، بل ولا يستطيعون أن يريدوا الموت تحت أي سبب أو أي تفسير نبيل. إنهم لا يريدون ذلك، ولو أرادوه لما استطاعوا تنفيذه.

إن إرادة الحياة والالتزام بها فوق كل الاشتراطات الفكرية والأخلاقية والمذهبية والوطنية. إن ذلك فوق كل الاشتراطات وأقوى منها.

وإن العجز عن إرادة الرفض للحياة مهما كانت بلا شروط وبلا مستويات بل وبلا مسرات لأقوى من كل مواقف البطولة وشعارات الشرف والكبرياء.

وهل الأحياء يريدون الحياة أم هم يخضعون لها ويعجزون عن رفضها وعن التخلص منها دون أن يريدوها كما يخضعون لتفاهاتهم ولنقائصهم ولمجاعات وإملاءات ذواتهم وأعضائهم عليهم دون أن يريدوها أو يفهموها أو يحترموها؟ هل أنت تريد الحياة أم تجبن عن التحرر منها؟

الذين يموتون في أي موقف، وتحت أية فكرة أو شعار ليسوا أكثر تقبلاً للموت أو جسارة عليه أو ترحيباً به، أو تفضيلاً له على الحياة تحت أي حافز أو أي تفسير كبير من حوافز الإنسان أو من تفاسيره الكبيرة لنفسه وللأشياء. وليسوا كذلك أكثر أو أصعب شروطاً أو اشتراطاً على الحياة أو للحياة. كما أنهم ليسوا أكثر إيماناً أو التزاماً بالشرف أو بالكرامة أو بالعدل أو بالتقوى أو بالمذهب أو بالفكرة. إن موت الإنسان في أية معركة تحت أية دعاية أو نظرية لا يعني من التفاسير النبيلة أو الكبيرة إلا ما يعنيه موت أي حيوان أو أية حشرة في أية مغامرة أو معركة.

إنهم لم يموتوا لأنهم أرادوا أن يموتوا أو أن يرفضوا الحياة تحت أي تفسير أو تفكير ديني أو أخلاقي أو مذهبي أو إنساني أو قومي أو وطني. ولكنهم ماتوا اضطراراً، ماتوا دون أن يريدوا الموت لأن شيئاً ما يؤمنون به أو يقدسونه قد طالبهم بأن يموتوا ويريدوا الموت.

إنهم لم يموتوا مختارين. إنهم لم يوجدوا في موازنة بين الموت والحياة فيختاروا الموت. لقد سقطوا في الموت ولم يختاروه.

لقد ماتوا لأنهم قد عجزوا عن الهرب. إنهم لم يستطيعوا أو لم يعرفوا أن يهربوا.

إن القدرة على الهرب معقدة. إنها مركبة من عديد الأشياء. إنها أحياناً تحتاج إلى قدرة وبراء وذكاء وصدق وشخصية قوية. إن القدرة على الهرب ليست فقط طريقاً مفتوحاً أمام الهرب. إنه أكبر وأصعب كثيراً من ذلك. إنه ليس كل الناس يملكون القدرة أو الجرأة على الهرب كما أنها ليس كل الناس أذكياء أو أقوياء أو أحراراً أو شجعاناً أو أباة أو رافضين للقهر والتسخير والسوق إلى الجنون إن الهرب في أحد معانيه أو في كل معانيه ليس إلا أسلوباً من أساليب الرفض للإملاء والأوامر التي فيها كل معاني التسخير وكل معاني الدفع إلى الحماقات الكبرى. إن القدرة على الهرب مطلب صعب. إن في القدرة على الهرب من المعاناة ومن الشروط مثلما في كل المواقف والمعاني والأعمال الكبيرة الشاقة. إنك قد تكون عظيماً لأنك هارب ولأنك تهرب.

أنت أحياناً لا تستطيع أن تهرب لأنك لا تستطيع أن ترفض أو تقاوم أو تكون حراً، أو لأنك لا تعرف أن تفعل ذلك أو تجرؤ عليه. إنك لا ترفض الهرب لأنك أكثر تقوى أو نبلاً أو شرفاً أو كبرياءً أو

احتراماً للنفس أو إيماناً بالقيم التي لقنتك إياها المحاريب أو المنابر أو الألواح. إن ممارسة الموت مأخوذاً ومعطى لا ينبغي أن تفسر تفسيراً أخلاقياً أو فكرياً أو إنسانياً.

نعم، إن الذي يموت في أي موقف، تحت أي شعار أو دعوى أو قضية معلنة لا يمكن أن يجيء الرأي المحتوم فيه أو الحكم المحتوم عليه أنه أكثر إخلاصاً أو إيماناً أو تديناً أو شرفاً أو نظافة أو صدقاً أو رفضاً أو إباءً أو حرية أو ذكاء أو كبرياء، بل أو حتى شجاعة ممن لا يموت مثل هذه الميتة. بل إن الذي يموت مثل هذه الميتة في مثل هذا الموقف قد يكون التفسير له أنه لا يعني إلا أضعف وأصغر المستويات والتفاسير الإنسانية. قد يكون هذا الموقف ليس إلا مثل موقف الحيوان الذي يموت من القهر أو العمل أو الاذلال أو التسخير أو من الخوف أو من الطاعة أو من الغباء، أو في معركة مع حيوان آخر، دون إيمانه بإله ولا بمعلم ولا بمذهب.

إذن هل نحن نريد الحياة أم نعجز عن الهرب منها؟ أم نهاب الهرب منها؟

إن عبقرية الأحاسيس أو الانفعالات، أو الاستفظاع والاشمئزاز والرفض والغثيان النفسي والشعوري ليست أقل من أية عبقرية أخرى. ليست أقل أو أضعف شأناً أو قيمة من عبقرية الذكاء، أو عبقرية القوة، أو عبقرية العلم، أو عبقرية الاختراع والاكتشاف، أو عبقرية المنطق، أو عبقرية الأخلاق، أو من العبقرية الفنية.

إن عبقرية الإحساس المقاتل، أو عبقرية التصادم الشعوري بالأشياء والمواجهة المحاربة لها ليست أقل في كونها ضرورة ومطلباً من مطالب الحياة، من أية عبقرية أخرى.

إنك لو امتلكت جميع العبقريات ولم تمتلك العبقرية التي تجعلك تتصادم بالأشياء وتحدق فيها تحديق الغاضب الرافض المتفجر استبشاعاً واشمئزازاً ومقاومة، تحديق المسائل المحاسب المعاقب المقاتل لكانت جميع عبقرياتك عاجزة وخامدة وغير مقتحمة، لكانت جميع عبقرياتك عاجزة عن أن تمارس نفسها ممارسة مثيرة عظيمة متألقة محلقة. إن جميع مواهبك حينئذٍ لا بد أن تصبح مواتاً وانهزاماً ـ أن نصبح عاراً فيك، وهجاء، بل وتعذيباً لك. إن أحاسيسك المتوهجة والمحاربة هي التي تهب عبقرياتك الحياة والمجد. إن أحاسيسك هي التي تعلم عبقرياتك العبقرية.

أيهما أفضل: أن نملك موهبة الأحاسيس العبقرية ونفقد كثيراً من مواهبنا الأخرى، أم أن نفقد عبقرية الأحاسيس ونملك الكثير من العبقريات الأخرى؟

وكأننا هنا نفترض أنه لا بد من الخيار بين هذا وهذا.

أليس الإنسان أحاسيس قد تحولت إلى مواهب، وليس مواهب إحداها الأحاسيس؟

إن بعض المراد بالأحاسيس وبعض تفاسيرها ومعانيها التي أعنيها هنا أن تكون موهوباً الرؤية الشعورية المحاربة لكل ما في جسد الإله أو جسد الطبيعة أو جسد الإنسان من تشوه أو تلوث أو ذنوب أو جوع أو أخطاء ـ أن تكون موهوباً بالتحديق النفسي في كل الأشياء المرئية وغير المرئية..

أن تكون موهوباً بالتحديق المقاتل، أن تكون مقاتلاً بمشاعرك ـ أن تكون محروماً من نعمة العمى الشعوري، أن تكون عاجزاً عن أن تكون أعمى الأحاسيس.

أن تكون عاجزاً عن أن تكون أعمى عن أية دمامة أو تشوه أو خطأ أو ألم أو عبث أو هوان أو ظلم أو حقارة أو تفاهة أو هزيمة ـ أن تخترق الأشياء الأليمة والرديئة مشاعرك اختراقاً..

أن تكون مشاعرك أضخم ميدان، لأضخم وأقسى معركة ضد ما في الطبيعة أو ضد ما في الآلهة من عيوب وذنوب وعاهات وضآلة وغباء وعدوان عليك أن تكون محارباً أبداً، أن تجد نفسك تعيش الحرب دون أن تطلبها أو تعلنها أو تبدأها..

أن تكون عاجزاً عن الغفران، عن الغفران للآلهة أو للطبيعة أو لنفسك ـ أن تكون عاجزاً عن غفران العلاقات والممارسات والنيات والصداقات التي بينك وبين الآلهة، وبينك وبين الطبيعة، وبين الطبيعة والآلهة وبينك، وبين الطبيعة والآلهة، وبين الآلهة والآلهة، وبين الطبيعة والطبيعة، وبينك وبين نفسك.

إن موهبة الغفران العقلي والنفسي والأخلاقي للأشياء وللمواقف وللممارسات هي أردأ وأضعف وأشهر مواهب الإنسان.

إن العمى الشعوري هو الجهاز العالمي المضاد الذي يستطيع أن يرى به الإنسان جمال الآلهة وجمال الطبيعة وجمال نفسه، والذي يستطيع أن يغفر به للآلهة وللطبيعة ولنفسه، أن يغفر به كل الدمامات والتفاهات والذنوب والعبث ـ أن يغفرها للآلهة وللطبيعة، وأن يغفرها أيضاً لنفسه. إن العمى الشعوري هو الجهاز العالمي الذي يحمي الإنسان من أن يرى أية دمامة أو تفاهة أو ذنب أو عبث من هذه الدمامات والتفاهات والعبث والذنوب التي تعيشها كل الآلهة والطبيعة ونفسه، والتي هي كل العلاقات والصداقات والمجاملات والأشواق بين الآلهة والطبيعة ونفسه.

إن الآلهة، وإن الطبيعة أيضاً لم تحاب قبحها وذنوبها وأخطاءها ومظالمها ولم تدافع عن كل ذلك بشيء مثلما فعلت حينما جعلت الإنسان عاجزاً عن الرؤية بمشاعره، وعن أن تتصادم مشاعره بتشوهاتها أو بوقاحاتها أو ببذاءاتها أو بعبثها، بل عن أن تراها.

وإن الإنسان لم يحاب نفسه ولم يدافع عنها بشيء مثلما حاباها ودافع عنها حينما جاء أعمى الأحاسيس، غافرها، متبلدها، جبانها، مهزومها، لا تستطيع أن تفرض أو تستفظع أو تنكر أو تغضب أو تقاوم، أو حتى أن تنقد أو ترى أو تشترط.

* *

إنه مهما كان مفروضاً أن تصبح الحروب بذيئة وقبيحة ومرفوضة ومهجورة كلما تقدم الإنسان وتصاعدت مستوياته الحضارية والفكرية والنفسية والأخلاقية، فإنه مفروض أبداً أن يتصاعد بسلوكه وبتفكيره وبحوافزه ونياته وأخلاقه وبكل مستوياته في حروبه الشعورية ضد الآلهة والطبيعة ونفسه ـ أي ضد العبث والتفاهات والدمامات والتشوهات التي تعيشها كل الآلهة وكل الطبيعة وكل نفسه،

والتي هي كل العلاقات والصداقات والمجاملات والممارسات والأشواق بين الآلهة والطبيعة ونفسه.

ولكن هل التصاعد في هذه الحروب الشعورية هو المفروض أم هو المطلوب؟

وهل توجد أية علاقة أو تفاهم بين كون الشيء مطلوباً وكونه مفروضاً أو مفترضاً أو منتظراً؟

فرعون يكتب سفر الخروج

« . . انه لمجتمع مخيف في تخلفه ، ذلك المجتمع الذي تصبح فيه خائفاً من ان يتهمك غيرك بالالحاد أو تصبح فيه مخيفاً لأنك قد تتهم غيرك بالالحاد . .

ذلك المجتمع الذي يستطيع فيه أي منافق كذاب مخادع أو أي جاهل بليد ، أو أي متعصب حقود ، أن يهزم كل الناس ، وأن يذل عقولهم ويسكت ذكاءهم .

. . . أن يخيف كل ذوي المزايا دون أن تكون له أية مزية غير أن يطلق هذا السلاح ، سلاح الاتهام بالالحاد أو بالخروج على المذهب أو على النظام الموروث أو المفروض . . .

ان امتلاك هذا السلاح او القدرة على امتلاكه لهمجية تتواضع في مواجهتها جميع الهمجيات المصابة بكل الكبرياء .

أليس اسقاط هذا السلاح من جميع الأيدي هو أعلى مستويات التدين والتقوى والتمجيد للاله وللأديان والمذاهب وللعروبة؟

أي عار يساوي أن تهدد أنت بذلك فتخاف وتكذب وتنافق وتصلي وتؤمن ، بلا صدق ولا حب ولا طهارة ولا إيمان؟ . . .»